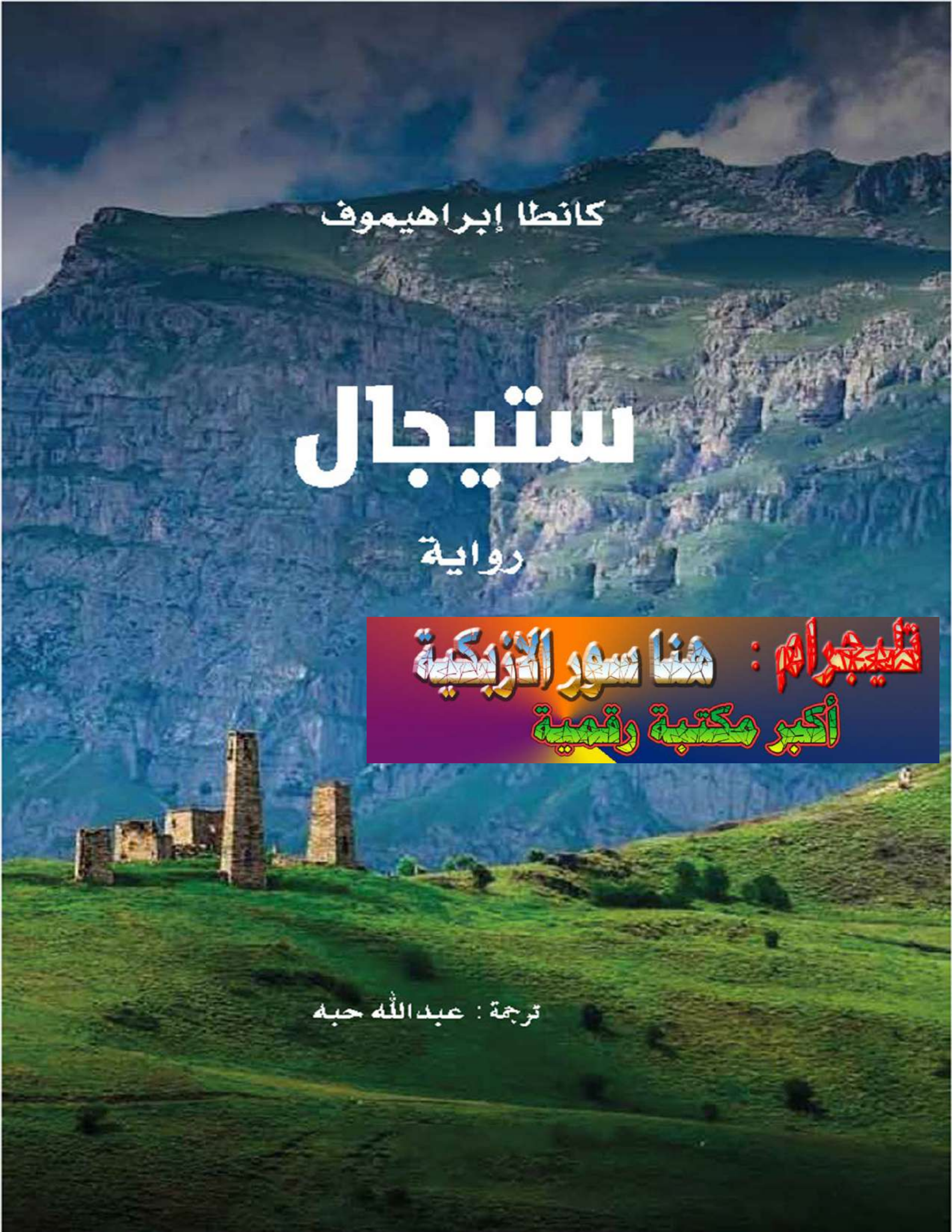

كانطا إبراهيموف
ستيجال
رواية
ترجمة : عبدالله حبه

كانطا إبراهيموف

ستيجال

رواية



ترجمة: عبدالله حبه

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PG3492.34.B73 S75125 2020

-Kanta, Ibragimov, 1960

ستيجال: رواية / تأليف كانطا إبراهيموف ؛ ترجمة عبد الله حبه. - ط. 1. - أبوظبي: دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2020.

463 ص. ؛ 24 سم.

ترجمة كتاب: (Stigal) СТИГАЛ

تدمك: 978-9948-35-537-3

1- القصص العربية- مترجمات من الروسية- القرن 21. 2- القصص الروسية- مترجمات إلى العربية- القرن 21. أ- حبه، عبدالله. ب- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الروسي:
Ibragimov K. Kh.- Ибрагимов К.Х.,
Original title: СТИГАЛ (Stigal)





www.kalima.ae

ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: 579 5995 2 +971




أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

ستيجال

الأدب الشيشاني

الشيشان من المجموعة الشرقية (الواايناخ) لشعوب شمال القوقاز التي عاشت هناك منذ العصر الحجري وتطلق على هذه الشعوب عموماً تسمية «الشركس». وتنتمي اللغة الشيشانية إلى مجموعة لغات الواايناخ من فرع اللغات الناخو- داغستانية ويتكلم بها مليون و35 ألف نسمة حسب إحصائيات النفوس لعام 2010. ويقول الباحثون في المصادر الروسية إنه منذ اعتناق الشيشان الإسلام في القرن السادس عشر وحتى عام 1925 استخدمت الكتابة بالحروف العربية. ووضعت قواعد اللغة الشيشانية من قبل الباحث اللغوي ب. ك. أوسلار. وأصدر أوسلار في عام 1862 بمشاركة مساعده كيدي دوسوف أول كتاب أبجدية للغة الشيشانية استخدمت فيه الحروف اللاتينية بالرغم من معارضة رجال الدين المسلمين. ولكن مع هذا استمر استخدام الحروف العربية حتى عام 1910. وفي عام 1925 ثبت رسمياً استخدام الحروف اللاتينية فقط وفق الأسلوب الذي أعده الكاتب الشيشاني خ. د. أوشايف. وتم التخلي عن استخدام الحروف العربية نهائياً. وفي عام 1938 أعد العالم اللغوي ن. ف. ياكوفليف الأبجدية الكيريلية الشيشانية وذلك بهدف تسهيل التعامل مع بقية أجزاء الدولة السوفيتية متعددة القوميات.

علماً بأن الأدب الشيشاني كان منذ القرن السابع عشر وحتى مطلع القرن العشرين ينشر بالأبجدية العربية، لكن لا يتوافر شيء من الأعمال الأدبية لتلك الفترة، وكانت تتألف من الأساطير الشعبية والحكم والأمثال. لكن بعد التحول إلى الأبجدية اللاتينية في عام 1925 نشرت في جريدة

«سيرلو» (النور) أولى القصص والمقالات التي تتناول حياة الشعب الشيشاني بقلم بعض الكتاب المشهورين، مثل عبدي دودايف وأحمد ناجايف ومحمد سالمورزايف.

وبعد التحول إلى الأبجدية الكيريلية في عام 1938 نشطت الحركة الأدبية الشيشانية، وظهر كتاب يعتبرون من رواد الأدب الشيشاني في الفترة السوفيتية منهم سعيد بادويف، وسعيد بيه أرسانوف، وخالد أوشايف. وفي مطلع الثلاثينيات نشرت أول رواية شيشانية بقلم سعيد بادويف.

وشهدت فترة 1920-1930 تطور الأدب الشيشاني بخطوات متسارعة وصدرت أعمال أدبية من مختلف الأنواع من رواية وقصة وشعر. كما بدأت حركة ترجمة واسعة النطاق. بيد أن ترحيل الشيشان من موطنهم في عام 1944أدى إلى انتكاس الحركة الثقافية عموماً في جمهورية الشيشان. وطال القمع الستاليني العديد من الكتُّاب والمثقفين الشيشان فأعدم الكتّاب من الجيل الأقدم ومنهم شمس الدين أيسخانوف وسعيد بادويف وعبدي دودايف، كما زج في السجن كل من سعيد بيه أرسانوف وخالد أوشايف. وفي فترة الترحيل من عام 1944 وحتى عام 1955 لم ينشر أي عمل أدبي باللغة الشيشانية. لكن انتعشت الحركية الأدبية الشيشانية في فترة «الدفء» الخروشوفية (1957-1964) فصدرت أعمال سعيد بيه أرسانوف» عندما تعرف الصداقة، ومحمد ماماكايف «زليمخان» وثلاثية خالد أوشايف «السنوات الملتهبة». وفي فترة الركود البريجنيفية تواصل نشر الأعمال الأدبية لكتاب الجيل الأقدم مثل أ. ماماكايف، ونورالدين موزايف، وأحمد سليمانوف، وكُتَّاب الجيل الجديد ومنهم شيخي أرسانوكايف، وابوذر ايداميروف، ومسبك كيبييف، وشيماء أوكويف، وحمزة سوروكايف وحسين ساتويف. وتتميز أعمالهم بالصيغة الشاعرية والفلسفية المستوحاة من تاريخ وتقاليد الشعب الشيشاني. كما نشرت في هذه الفترة أعمال كبيرة مثل رواية «البداية»، ورواية «زهور حمراء فوق الثلج» بقلم ش. أوكويف و«بريست - جوزة النار» وغيرها.

علماً بأن فترة الثمانينيات من القرن العشرين شهدت ازدهار الأدب الشيشاني، وصار يساير الاتجاهات الأدبية العالمية واتسمت الأعمال الأدبية بالنزعة السيكولوجية، والجماليات الحديثة و«الواقعية السحرية». فنشرت في هذه الفترة أعمال ش. أرسانوكايف وم. كيبييف، ويامليخانوف حسبولاتوف، وادوارد، ماماكايف وغيرهم. كما ظهر جيل من الكتاب الشباب منهم أبو اسماعيلوف، وموسى باسكولتانوف، وموسى أحمدوف، وإسلام إيلسانوف، ولولا جومالايفا وغيرهم.

ومنذ أعوام التسعينيات شهدت الساحة الأدبية الشيشانية نشاطاً كبيراً بالرغم من سنوات الحرب المأساوية، فنشرت أعمال كانطا إبراهيموف، وسيد حمزة نونويف، وسيد حسن تاغايف، وسلطان ياشوركايف، واديز كوسايف، وايلبروس ميكايلوف، وبوفايسار شمس الدينوف وغيرهم. وتتناول جميع الأعمال من قصص وروايات ومسرحيات واقع المجتمع الشيشاني الراهن والتاريخ الحديث لجمهورية الشيشان. ويركز الكتُّاب الشيشان على مسألة الإنسان وجذوره وتمسكه بالتقاليد الأخلاقية الموروثة.

(المترجم)

21. 12. 2005، صباحاً

كما علمونا في الجيش في زمن ما بحرص وإصرار، وجهت برباطة جأش وبدقة، والشيء الرئيس ببرودة أعصاب، بندقية القناصة نحو الهدف، - استنشقت الهواء بعمق، وجمدت حركاتي، ثم ضغطت بحركة انسيابية وبرقة على الزناد.. ذلكم هدفي وحلمي ومغزى حياتي كله. وهذا غير ما كتب البتة في الكتاب الذي طالعته لتوه وعنوانه «ماهو مغزى الحياة؟».

ربما يوجد في هذا الكتاب شيء من الأصالة. بالنسبة لي لا يوجد فيه شيء. لأن النتيجة هي: إن جوهر ومغزى الحياة في الأرض هو كيف يتم بلوغ الانسجام المتمثل في الطيبة والجمال والطمأنينة. وهذا الكتاب «بيست سيللر» كما يزعمون، وترجم إلى الكثير من اللغات، وهو نافع جداً ونشرت بصدده مقالات نقدية كثيرة وهلمجرا. وإذا توخينا الحقيقة فإن هذا الكتاب فارغ- بلا أي أفكار وأحاسيس. وماذا يستطيع أن ينصح به رجل ينعم بالرفاه والصحة، ويعيش في بلاد حرة وغنية مثل أمريكا؟ ثمة شيء واحد فقط: إنه يتمتع بالطعام الجيد، ويستجم كثيراً، ولا يساوره القلق، لا سيما بشأن التافه من الأمور، ويحب نفسه لحد العبادة. وليصن حياته وعافيته وطمأنينته هذه وليعش عمراً طويلاً. بروعة وبهاء.

كيف يمكن ألا يطالع المرء مثل هذا الكتاب؟! فعلاً، لقد تبين أنه شيء مفيد. فتصور ماذا لوكتبت أنا عن مغزى الحياة طبقاً لفهمي لها. فقد عشت وأعيش ليس في أمريكا المرفهة والمنعمة بل فى روسيا، أو بالأحرى في جمهورية الشيشان حيث يحدث أمر ما باستمرار، وفي أواخر حياتي - اندلعت نيران حربين.. فعن أي «انسجام وطيبة وجمال وطمأنينة» يمكن الحديث، ناهيك عن الكتابة. ومن يريد أن يطالع ما يكتب عن مشاهد القتال المتواصل، ويكابد واقع الحياة الرهيب هذا، وكذلك المعاناة، ويدفع النقود، وليكن ذلك حتى بدافع الشفقة والمواساة؟ إن الناس يريدون العيش في ظل السلام والانسجام. وعندئذ يصبح الكتاب «بيست سيللر»، أي إن الجميع يشترون ليس الكتاب بحد ذاته، بل الكتاب الذي يتحدث عن الطيبة والجمال والطمأنينة. وأنا أفعل هذا بالذات حين أشتري هذا الكتاب للمرة الثانية، علماً بأن ثمنه غير قليل. حقاً إن هذا يحدث ليس بإرادتي الطيبة، بل بحكم ما ينص عليه العقد. عندما «يزجون» بالمريض، أي يعزلونه بصورة مؤقتة، يقول الطبيب فإنه لغرض العلاج الناجح يجب عليك أن تقرأ كتاباً مثل الكتاب المقدس، وستجد الشفاء بصورة عاجلة جداً، لأنك ستدرك مغزى الحياة وستتولد لديك الرغبة في الحياة.

والحق يقال إنني لم أستطع هذه المرة أيضاً استيعاب هذا الكتاب النزيه والجميل والأريب، بالانطلاق من ثمنه وفرضه على الزبون، ولم أرغب في هذه المرة بأخذه معي، لعلمي بأن المئات من نسخ هذا الكتاب متوافرة في «الزنزانة»، لكن طبيبي المعالج، أو كما أدعوه بـ - طبيب الأشعة، أوصاني بإلحاح بمطالعة هذا الكتاب بزعم أنه غير ملوث بالعدوى، لا سيما أن الطبعة جديدة وموسعة ومنقحة مع الإضافات، وذات نفع أكبر، وعدد النسخ يؤكد هذا الرأي - حيث طبع مائة ألف نسخة باللغة الروسية فقط. لحسن الحظ إن الأمريكيين يكتبون الكتب من أجلنا، وإلا لن تجد حين تطالع أعمال بعض الكُتّاب الروس المعاصرين سوى الخلاعة وهاجر القول الفاحش والسكر والعربدة. وإذا ما وجدت عملاً أدبياً جاداً بهذا القدر أو ذاك فإنه يتناول موضوع الأزمة وقرب انهيار روسيا، وجزئياً، التأكيد على أن أبناء القوقاز، ولا سيما الشيشان، هم أصل جميع المصائب والويلات...

بالمناسبة من هم سبب مصائبي؟ ربما هم الشيشان، أو الروس، أو أبناء جزر بابوا، وربما حماقتي الشخصية وغروري فقط؟ وربما حكم القدر فحسب؟

لماذا أكتب هذا؟ هل إنه جنون العظمة؟ قررت أن أترك ورائي المذكرات، ما دام لا يوجد حل آخر. عن أي شيء أكتب؟ عن مغزى الحياة، حياتي. أنا أعرف الآن، أعرف هذا لأنها قد شارفت على الانتهاء عملياً، وكانت لديَّ رغبة شديدة في الأعوام الأخيرة في أن تنتهي. لكن الحياة ليست أمراً بسيطاً، ولا يسمح لي بالمزاح مع الذات. ويبدو أحياناً إن كل الأمور تكمن في يديك، وفجأة ينقلب كل شيء رأساً على عقب، حتى إنك لا تفهم كيف حدث ذلك، وكيف بلغت هذه الحال، وكيف كابدت، وأنت تعيش وتريد أن تعيش، فمن أين تظهر هذه القوة للعيش.. وماهو مغزى ذلك؟ على أي حال، إن هذه كلها مجرد كلمات. وهذا النص من أجلي فقط، ناجم عن العطالة، ولمجرد قتل الوقت، ما دام باقياً لديَّ، ولم يقتلوني بعد. هذه الأقوال ليست من الغنج والنزوع إلى التكلف وجنون العظمة. إنها الواقع الصارم والقاسي لوجودي. أنا في الزنزانة. ليس في زنزانة السجن، بل في ردهة العلاج. إنها لا تسمى بالردهة بل بالقمرة. إنها تبدو كمؤسسة حكومية، معهد الطب الإشعاعي، بوسط موسكو تقريباً. حقاً إن طابقنا، وهو شبه قبو، تستأجره شركة أمريكية ما. وجميع العاملين هم منا، أي من الناطقين باللغة الروسية، والمرضى هم منا. إنهم يتدافعون نحو هذه الصوامع ويقفون في طوابير، وتجمع لهم نقود، نقود كثيرة. قصارى القول، إنهم جميعاً مثلي ما زالوا راغبين في الحياة، بالرغم من أن مغزى الحياة، وكذلك الحياة نفسها، قد شارفت....

لماذا أكتب الشيء نفسه؟ أنا أكتب لنفسي، بمثابة تبرير أو تحقيق الذات. أنا لا أكتب من أجل التاريخ والتحليل، فأنا أعرف كل شيء. أنا أكتب من أجل أن أشرح لنفسي، وأن أعبر عن الذات، لكنني لا أستطيع الحديث. أنا أكابد الألم كثيراً. بينما أود التعبير عن الذات، وأود تقديم تقرير ما، التقرير والاستنتاج. أنا أصبو إلى التوصل إلى استنتاج من أجل نفسي، ومن أجل أن أطمئن ذاتياً. أنا أعرف بأنني أحاول الوصول إلى استنتاج نهائي، وسأكون في أقصى النزاهة، لمعرفتي بأن هذه السطور لن يقرأها أي أحد بأي صورة من الصور.

المكان نفسه، بعد الغداء

أذكر أن مالخاز شمسادوف البطل الرئيس لرواية «معلم التاريخ» يزج به في قلعة ما بوسط لندن، ولا تربطه صلة مع أحد باستثناء الحارس الصيني ويقدم له الطعام في حاوية ما.

إن وضعي مماثل، إذا لم نأخذ بنظر الاعتبار بعض الفوارق الطفيفة. إنها تتمثل في كوني جئت إلى هنا طائعاً بإرادتي، كما دفعت النقود، أو بالأحرى سدد آخرون المبلغ. يتم الاتصال بالهاتف الداخلي وكذلك بواسطة الهاتف المحمول. والطعام ليس كما لدى شمسادوف - إذ يقدم له كل ما يرغب فيه لحد الكافيار الأسود. أما هنا فالطعام رديء، لكنني أخذت معي إلى الصومعة، «سراً» طبعاً، وفي الواقع دفعت الثمن، كيساً فيه طعام. أنا أجيد سحقه وتسييله وأبلعه بواسطة المضخة، لأن الجوع، بالأخص هنا، وبمرضي - السرطان، ليس مزحة. كما تتوافر لديَّ الخبرة فأنا هنا للمرة الثانية. إنني أصف طقوس المأدبة هذه، لأن من الضروري تقديم جميع دقائق هذه العملية. ويبدو أنه لا يتميز فيها شيء غريب على الأخص.

لكن هذا الأمر لم يكن يسيراً بالنسبة لي، وأنا لا أستطيع ابتلاع الطعام، لا يتوافر لهذا أي شيء، إذ تم استئصال جميع الحنجرة وحتى القسم العلوي من القصبات والرغامي.. إنني أكره هذه المصطلحات الطبية. وسأذكرها كما هي: ثبت في القسم العلوي من الصدر جهاز أمريكي ما - القسطر. وأتنفس عبره بشخير، وأتناول الطعام والشراب بشكل ما، لكن أصعب الأمور هو حين أريد أن أسعل. الأفضل عدم التفكير أو الكتابة عن هذا. الأفضل ألا أعيش بدلاً من هذه الحياة. لقد أردت عدة مرات وحاولت الانتحار، والموت، وكنت أحلم بهذا فحسب. لكن هذا أصبح في حكم الماضي المندثر، والآن أريد أن أعيش، يجب عليّ ذلك فحسب. لأنني أدركت الآن مغزى الحياة. مغزى حياتي. إنه يكمن في أنه يجب عليّ أن أنتقم. وسأنتقم... ولهذا السبب أنا هنا. أتلقى العلاج. أريد أن أمدد حياتي ولو قليلاً من أجل بلوغ هدفي، الآن - هذا مغزى حياتي. الانتقام!!!.

المكان نفسه، بعد العشاء

هتفت ابنتي قبل قليل. إنها على اتصال دائم معي، وقد تذكرت ذلك الآن فقط. وهل كنت قبل عام أفكر، وحتى أن أتصور أن ابنتي ستعيش في النمسا، وليس تعيش فقط، بل وتغني في أوبرا فيينا. إنني حتى لا أصدق ذلك! فمنذ عام ونيف كانت حياتها الفنية ومصيرها في وضع الكارثة. وحتى أنا - والدها، الشخص الوحيد الذي بقي لديها، كما أنها الوحيدة لديَّ فحسب، أنكرتها وتبرأت منها... إنني حتى أشعر بالألم والخجل الآن حين أتذكر ذلك. ولا أريد أن أتذكر...

لكن أي حياة هذه؟! كيف انقلبت الأمور جميعاً رأساً على عقب بحدة مجدداً. ما ألطف صوتها، وما أكثر أحاديثها الحانية والعزيزة والرقيقة معي. بينما كنت جواباً على ذلك أغمغم، وأذرف الدموع. وكنت أخشى أن تشعر بذلك، ولهذا حاولت بشكل ما تقليص اللقاءات معها. ثم كتبت رسالة هاتفية

sms: «ماذا سأفعل من دونك؟!». «دادا، حافظ على نفسك! أنا بحاجة إليك، جداً!»- هتفت ابنتي مجدداً في وقت متأخر من الليل.

في اليوم نفسه، ليلاً

لقد تبين أنني كنت سريع التهيج - فالكتاب «ماهو مغزى الحياة؟» ليس فارغاً إلى هذا الحد، وسأورد منه أحد المقتطفات: «يواصل الكاتب من أجل إرضاء القارئ البحث عن الحقائق الخالدة ومغزى الحياة». وفيما يخص الموضوعة الأولى «لإرضاء القارئ» فإنني لا أصبو إلى تحقيق أي غرض، ولا حاجة لي لإقناع أي أحد، بل الأمر كله بالعكس. أما البحث عن الحقائق الخالدة ومغزى الحياة فأنا لم أفكر بذلك أبداً، بل عشت فحسب، حسب مقدرتي. وفي نهاية الأمر، ستأتي النهاية المنتظرة والمحتومة، ويجب عليّ أن أمعن الفكر في ذلك- البحث عن الحقيقة، وإنهاء مسألة مغزى الحياة. ولكن كيف تحل فيما بعد هذه المسألة التي طرحها المصير؟ فقد ظهرت أمام العالم كعجوز مريض جداً، وعرفت بدقة تشخيص مرضي، ووضعي -إنني مجرد، واصلت العيش ولم أتلق العلاج. لأن الأطباء أنفسهم أبدوا شكوكهم بصدد كيفية علاجي- فقد تفاقم المرض إلى حد بعيد. وأنا نفسي استسلمت للقدر تقريباً، ودلفت إلى الذبول بسبب تضعضع الصحة ووهن العافية وانتظرت النهاية بشيء من الارتياح. حقاً إن الاختصاصيين قالوا إن من الممكن علاج ورمي السرطاني في أوروبا. بينما يتم العلاج بتكلفة أقل كثيراً في موسكو، لكن هذا غير مضمون تماماً وغير مرغوب فيه. علماً بأنه لم تتوافر لديَّ النقود للعلاج، فسافرت إلى مسقط رأسي في الجبال.

لكن حدث أمر ما.. ربما اعتقد بعضهم أن أيامي معدودات، وبغية إنهاء الأمر، وأضحك في الختام... وربما الأمر بالعكس، من أجل إظهار الذات، أو غير ذلك.. وعموماً إنهم دسوا لي كاسيتاً فظيعاً «يتضمن مشاهد اللحظات الأخيرة من حياة ابني الأصغر». أوه، كيف يمكن وصف ذلك؟! ماذا حدث لي وفي أعماقي! لقد اشتعلت جميع أحشائي وفارت فوراناً. يحدث أحياناً، بالأخص في الصيف، أن تميل الشمس إلى الغروب وراء الجبال،- وتصبح قبة السماء كلها قرمزية اللون، ثمة حريق في الكون بأجمعه، لن يخمد أبداً كما يبدو. لكن بريقه يتضاءل ويخمد وينطفئ ثم يختفي. وكذلك أنا كان المفروض أن أموت، وذلك في وقت قريب. لكن شعلتي لم تنطفئ فحسب، بل استعر، لهيبها، واهتاج في أعماقي التوق الشديد إلى الحياة، وبالأحرى إلى الانتقام، لحد أنني لم أرغب فقط بل وجب عليّ أن أعيش، بغية الدفاع عن الذات، وإثبات الحق، وقتل المذنبين! ولهذا جمعت كل نقودي، وحتى بعت بعض الحاجيات واستقرضت المال، وانطلقت إلى موسكو، بغية استئصال ذلك الورم السرطاني الخبيث.

كان ذلك أمراً مخيفاً، وشاقاً، ومؤلماً، ومقترناً بالإملاق، والمصيبة الكبرى أنني كنت وحيداً. لكن... لكن الحياة ليست لعبة وليست خالدة، وفقط إن المحنة يجب أن تدق في صدري المريض. أنا الآن لست وحيداً، وحتى سأصبح جداً عما قريب. كما ستظهر لديَّ، ويالغرابة الأمر، الصفة الملازمة المهمة الوحيدة في هذا الزمن - أي النقود: يمكن بواسطتها حل الكثير من المشاكل. ولهذا أتلقى العلاج هنا..

بيد أن الأمر الرئيس يكمن في شيء آخر - وليساعدني ديلا (د يلا - الرب باللغة الشيشانية)!

اليوم نفسه، صباحاً

كانت بداية اليوم سيئة. فقد تأخرت في النوم وفاتني موعد الإفطار.

لكن هذا يعتبر شيئاً تافهاً، والأسوأ شيء آخر - فقد هتف منذ لحظة طبيب الأشعة، واليوم لن أتناول الكبسولات. ويبدو كما يتبين من حالتي الصحية بأنهم في أمريكا يجب أن يرسلوا محلولاً خاصاً من أجل الاستعمال بصورة أسهل. لكنه لم يصل بعد. ويتعين عليّ التسكع هنا يوماً زائداً. ومما يحز في نفسي أكثر أنه لا يجوز القيام بالتمارين الرياضية هنا. وقد حظر طبيب الأشعة القيام بأي جهد بدني، لحين الانتهاء من دورة العلاج بالأشعة. إذن ليس في اليد حيلة- سأمارس الكتابة فقط وكأنني كاتب. ولو إذا ما توخينا الحق فإن هذا العمل ليس من الأمور اليسيرة جداً. كما لابد من قتل الوقت، وهو يمضي هنا بخطى بطيئة... والحياة مضت... كانت طفولة مترعة بالجوع والبرد.

لقد ولدت بعد حملة التهجير في المنافي، في صحراء قره قوم. وأنا لا أتذكر أبي.. أما أمي فأتذكر حتى رائحتها الدافئة والحانية. لكنها لم تبق معي فترة طويلة. وهكذا أدخلت بيت اليتامى بصفتي بلا أبوين. وكنت أسرق شيئاً ما هناك بسبب الجوع. ولهذا كانوا يعنفوني بالألفاظ الغليظة أمام الجميع. كما أذكر أنهم كانوا يعاقبوني، ويزجون بي في غرفة العزل. كنت أشعر بالألم والهم، حتى صرت، كما أذكر الآن، أحلم بأن يحدث أمر عظيم وهائل وسيئ - مثل نهاية الكون، بغية أن ينسى الحادث الذي ألـمَّ بي أو يبدو لهم شيئاً تافهاً. أنا لا أريد ذلك الآن. وحتى لا أرغب في السماع به. فقد عشت ما قدر لي. ولتكن حياتي غير بهيجة، وهيهات أن يحسدني أحد عليها، لكنني لا أشكو. إنه القدر. يبدو أن هذا ما سجله القدر لي. لكنني لا أشعر بالحزن والكرب. لقد تغلبت على الكآبة هذه وأدعو الجميع إلى التغلب عليها. إن مرضي ناجم عن الكآبة. هذا ما قاله الأطباء، وأنا نفسي أعرف ذلك. وفي أغلب الظن إن هذا سبب رغبتي في التحدث عن تجربتي المرة. ولكن، من سيقرأ ذلك؟ سيقرأه فقط من سيشغل مكاني في هذه الصومعة. ويبدو أن لديهم أيضاً خبرتهم في الحياة. ولكن.. ولكن هيهات أن تكون لديهم خبرتي. وقد تكون موجودة. طبعاً، إنها موجودة لأنني عشت وأنتظر طوال حياتني حلول النهاية، أي النهاية السارة. نهايتي وبدايتي.

بالمناسبة لقد انفلت لساني من عقاله فأخذت أردد «أنا» و«أنا»، كما لوكنت شخصية بارزة ما. الأفضل أن أشاهد التلفزيون ثم أرقد وأنام. لكن لا يوجد ما يستحق المشاهدة - ابتذال تام، ونقود، وترف. علماً بأنهم يفتخرون بذلك، ويتغنون بالابتذال وانحطاط المشاعر. لايوجد ألم وتعاطف، ولا أفكار حول يوم غد، وحول المستقبل. وإذا ما وجدت فإنها من أجل المنفعة فقط، ومن أجل المكسب الاقتصادي والأرباح. ربما إن هذا ما يجب أن يكون. ولِمَ الكآبة والحزن. الأفضل أن أكون منبسط الأسارير كما في العيد. والأفضل التسلية! الابتذال، وحتى يتراءى لي أن الناس أصبحوا تافهين. وما يؤسف له وجود مثل هؤلاء بين الشيشان، بينما جاء وقت كان الناس أفاضل.

عشت في بيت اليتامى، ولم تكن المعيشة سهلة، وأشعر بالحنين إلى أمي، فأبكي، ولا أصدق بأنها توفيت. ولم أفهم معنى ذلك، وربما، لم أرغب في أن أتفهم هذا، وآمنت بذلك. كنت أبكي، وأكابد اللوعة، ولو أن الجميع حولي، وفي أغلب الظن، هم من اليتامى - لقد كان ذلك زمن ما بعد الحرب، وزمن التيتم، والجوع. لكنني كنت أفكر فقط بأمري، وانتظر أمي طوال الوقت، وأتطلع من النافذة عبر الدموع. وانتظرت حتى حلول الفرج. فقد جاء عمي لأخذي من بيت اليتامى. وفيما بعد عرفت، حينما كبرت قليلاً، أنه ليس عمي البتة، وحتى ليس من الأقارب أو من أهالي قريتي. فقد عرفت مربيتنا حين كانت تسافر في القطار أن رفيقها في السفر شيشاني، وتحدثت عني، بقولها إن صبياً شيشانياً أيضاً قد التحق في بيتنا لليتامى. فنزل هذا الرجل في أقرب محطة - وقد أصبح في حياتي وذاكرتي ليس بصفته العم فقط، بل إنه بمثابة الأب - وعثر على بيتنا لليتامى وقدم نفسه بأنه عمي وضمني إلى أسرته. علماً بأنه نفسه كان فلاحاً كولخوزياً بسيطاً، وأسرته كبيرة، وكاد أن يعيش في عوز وشبه جائع، وأصبحت معهم - مثل الجميع كأحد أفراد الأسرة. عدنا من المنفى إلى جمهورية الشيشان في عام 1960. وبعد صدور «مرسوم العفو» لم تستطع أسرة العم جيخو الحصول خلال ثلاثة أعوام على رخصة مغادرة كازاخستان.

كنت قد بلغت السادسة عشرة من العمر، حين وصلت إلى جمهورية الشيشان لأول مرة. وكنت قد عرفت من أنا، ومن أي مكان، لكن لم يسمح إلى أي أحد بالاستقرار في قريتنا الجبلية التي عاشت فيها أسرتنا. وأراد أقربائي المقربون ضمي إلى كنفهم، لكنني طلبت إبقائي مع العم جيخو لحين الانتهاء من الدراسة في المدرسة. وبعد التخرج من المدرسة قال لي العم جيخو إنه طبقاً لعادات الشيشان يجب أن أعيش في قريتي الأصلية، في الجبال. وحصل العم جيخو بالذات من السلطات على رخصة خاصة وحملني لأول مرة إلى قرية أهلي.

السناء هناك لا يوصف! جبال شماء عظيمة، رحابة فضاء الكون، والهواء المنعش. إن هذا السناء يسمو بالروح. وتقع أرضنا في زنقة ما، في أكثر الأماكن بهاء، عند المنحدر مباشرة. ويجري جدول متألقاً كالثعبان في الهوة العميقة التي لا نهاية لها. ويسيل في هذا الجدول الشفاف البارد دوماً، وذو الخرير، ينبوع أسرتنا الصغير الذي يتدفق منذ قرون برفق وهدوء وبشيء من التواضع، مثل نسغ الأرض، من تحت صخرة كبيرة. وبدا أن الحياة هنا كما في الحكايات! لكنني لم أستطع العيش هناك أيضاً. أولاً، لقد حظر على جميع الشيشان الإقامة في الجبال العالية. وثانياً، لايوجد مكان للإقامة فيه. إن برج الأسرة القائم منذ قرون، والبيت والقبو الفريد من نوعه، والذي شيد من الحجر قبل مائتي عام، قد لحقها ليس الدمار فقط، بل إن الأحجار قد سقطت في الهاوية.. والآن نمت الأعشاب العالية والضارة. وثالثاً، وأخيراً، أنني تلقيت تبليغاً للتجنيد في الجيش. وعندما ودعني العم جيخو قال ناصحاً وموصياً، كما لو كان يتنبأ، إن أرض أسرتك - مكان ساحر، فما أروع الطبيعة وما أثمن الينبوع! عش في أرض الآباء ولأجداد، في أرضك. وستكون الحياة صعبة، فإنها صعبة في الجبال دائماً، وينبغي ممارسة الحرث باستمرار. لكن ستغمرك السعادة والطمأنينة، وستولد الذرية، وستفتخر بها.

ألا يعتبر ذلك تحقيق الانسجام الذي يجسد الحقيقة والطيبة والطمأنينة والجمال، أي مغزى الوجود في الأرض؟ لكن العيش في الحياة - ليس عبور الحقل. وكذلك الشباب والظروف والبيئة وقوانين

الوجود.. فهل تسمح بالعيش في انسجام وطمأنينة. وهكذا التحقت ليس بالجيش فحسب بل بأسطول المحيط الهادي، بمشاة البحرية. نصف العام الأول - التدريب، وكنا تحت المطاردة أياماً كاملة. وبعد التدريب - التوزيع في الوحدات. ويجب أن يكون في كل فصيلة قناص خاص واحد. والخدمة فيها خاصة، ومنعزلة لحد ما، ولهذا فهي متميزة. كان بودي أن أطلب ضمي إلى القناصة، لكن قائد الكتيبة، اشار إليَّ قائلاً:

ليضم هذا إلى القناصة. إنه يجيد الرماية. كما أن بصره حاد شأنه شأن جميع أبناء القوقاز.

لقد حالفني الحظ عندئذ، ولكن قبيل تسريحي من الخدمة اندلعت أزمة البحر الكاريبي. فأبحرنا في المحيط. حقاً شاهدت الكثير من البلدان، من متن السفينة فحسب، لكنني نزلت إلى البر في كوبا - جزيرة الحرية، وشاهدت هافانا، وحتى سبحت في البحر الدافئ. ولذا وجب أن أخدم ليس ثلاثة أعوام المقررة بل بزيادة نصف عام إضافية. وعندما عدنا إلى فلاديفستوك بعد الإبحار فترة سبعة أشهر، أدخل العديد من أفراد الطاقم إلى المستشفى العسكري، أما أنا وكنت معافى فقد أرسلت إلى الوحدة مباشرة، فوجدت هناك رسالة واحدة - لقد انتقل العم جيخو إلى جوار ربه. ولم يكتب لي أحد غيره.

ومضت عدة أعوام، ومرضت... وقبل هذا لم أصب بالمرض أبداً، ولم أعرف إبرة الحقن، وإذا بي طريح الفراش. حقاً لم أعد شاباً. وعادة يسأل الأطباء: ماهي الأمراض التي أصبت بها في حياتك؟ هل توجد عادات ضارة؟ لا. لم أعاقر الخمر أبداً، ولم أدخن. إنهم يواصلون الاستفسار، فإذا قلت لهم إنك خدمت في الغواصة سيقولون فوراً - الإشعاع. لكن الإشعاع لا علاقة له بالأمر، وإنما الحياة فحسب، وظروف الحياة كانت منذ فترة ما مثل المفاعل النووي الحراري... بالمناسبة، ما الحاجة إلى تذكر هذا كله واستعادة أحداث الماضي... الأفضل أن أتذكر الخير، والمستقبل الوضاء، والبهيج. إنه موجود، وتتوافر المسوغات كافة لذلك، وأنا بانتظار هذه السعادة. وقريباً سيولد لي حفيد وسأصبح جداً...

22. 12. 2005، ليلاً

أكابد الأرق. إنهم لم يعطوني الكبسولة. وانصرم اليوم عبثاً. لكن إذا أعطوني إياها فهل سيكون الأمر أيسر؟ كلا البتة. فأنا موجود هنا بالرغم من كل شيء، ويراودني أمل ما. أنا لا أضع آمالي على الأطباء وكبسولتهم الإشعاعية. إنني مجرد لا أستطيع رفض طلبات ابنتي، وهي سددت تكاليف هذه الإجراءات الطبية الغالية الثمن. أنا لا أصدق بها. أنا لا أصدق أطباءنا الذين يفكرون فقط في جعل المريض زبوناً نافعاً، وبوجود الكثير من الزبائن، وكيف يتم بيع خدماتهم بصورة نافعة. طبعاً، لا يجوز التعميم، فليس جميع الأطباء بهذه الصورة، ولا يمكن العيش بلا أطباء. لكن خبرتي... ربما أنني لست على صواب. دعنا نكرر كل شيء من البداية مرة أخرى... من أي بداية؟ أين هذه البداية؟ وأين النهاية؟ ومهما فكرت وكتبت فأنا راقد في المستشفى، وإذا ما أردت أن أبقى نزيهاً حتى النهاية، فيجب أن أضع أملي في الأطباء. هكذا أفكاري متناقضة، وبالمناسبة،

حياتي كلها. أنا أعاني من الكرب لأنهم لم يعطوني الكبسولة الإشعاعية لكنني أخمن السبب تقريباً. ففي المرة السابقة حدثت مصيبة مع هذه الكبسولة. فقد تبين أنها لا تمر عبر أنبوبة القسطر، لأنها كبيرة الحجم أكثر ما ينبغي. عندئذ تشاور طبيبي مع بعضهما، وزعما إن الكبسولة من أمريكا وطريقة العلاج متقدمة، وهي أفضل من العلاج الكيميائي. عموماً نصحاني بالعمل كما أردت واستطعت: قمت بحز الكبسولة بسكين غير حادة، ووضعت المسحوق الأبيض منها في قدح وسكبت الماء عليه، وخلطت المحلول وحاولت إذابة المسحوق، لكن هذا المسحوق كان مادة صلبة، كما يبدو، مثل برادة المعدن، ولم يذب، لكنني أفلحت في تمريره عبر القسطر. وكانت النتيجة غير متوقعة، ليس بصدد صحتي فهي مستقرة، بل بصدد الإشعاع. وكان يجب أن أرقد في الفراش ثلاثة أيام، وفي أقصى الأحوال خمسة أيام، لكنني بقيت راقداً طوال ثمانية أيام، وقالوا إن مستوى الإشعاع في جسدي لا يرتفع. وغادرت المستشفى لأنني أعلنت تمردي - إذ لم أستطع البقاء هناك أكثر، وخشيت أن أموت، وسيطرت عليّ الكآبة. لكن المستشفى يجلب لي الضرر، فهم بحاجة إلى تبدل المرضى بسرعة - أن يقف الزبائن في طابور، وأن ينتظر مجيء الأموال الكبيرة. بينما يمضي اليوم عبثاً عندئذ. وكم بقي لديَّ من هذه الأيام؟ وهل أخشى ذلك؟ أنا أخشاه. أنا أكثر ما أخشاه هو الموت هنا... ثم معرض الجثث. وسأخضع للتشريح. والأطباء فضوليون يريدون مشاهدة كل شيء، ومعرفة سبب رائحتي النتنة. فعلاً إن رائحتي نتنة. وأنا لا أستطيع البتة اعتياد ذلك. القسطر - في القسم الأعلى من صدري، بالأحرى وبتعبير أكثر غلاظة، في المريء- وإلى المعدة مباشرة. لا توجد أي فلترات، ويتسرب كل ما يتحلل هناك - إلى الأنف. بينما تشتد الجاذبية كما لو كان ذلك نكاية بي، وتحتدم الأحاسيس في جميع الأعضاء، وتشتد، بينما أشعر دوماً بهذه الرائحة النتنة، كما لو أنني، وهو ما يحدث فعلاً، أتفسخ، وأتحول تدريجياً إلى بُراز. يؤكد معارفي بأنه لا تصدر مني أي رائحة كريهة. لكنني أعتقد، أنهم فعلاً يطمئنونني فحسب. أنا أرى كيف ينفر الناس ويتقززون مني، ويعبسون بوجوههم. إن هذا بسبب المنظر البشع للقسطر - فهو مثبت في الصدر مباشرة، وأنا لا أستطيع النظر إليه حتى الآن، وكذلك بسبب الرائحة، وبتعبير أدق بسبب النتانة. وتتسم الردهة المنعزلة بالإيجابيات من هذه الناحية. لكن البقاء في البيت وفي قريتي وفي الجبال أفضل بكثير منها. وقد أدركت ذلك لاحقاً، كما نصحني وأوصاني العم جيخو...

قرقر بطني بشكل ما. هل أنا جائع؟ إن تناول الطعام مشكلة بالنسبة لي. يجب تشغيل المضخة يدوياً. ولديَّ أيضاً مضخة كهربائية، جلبتها ابنتي من ألمانيا، وأنا أحافظ عليها، إذ يمكن أن تخمد البطاريات فيها. بينما يجب شحن معدتي وجسمي. أي معلبات أفتح؟ أم يمكن التوفير؟ من يدري كم من الأيام سأبقى هنا. دعني إذن أخدع معدتي، بصب الماء فيها. ولن تقرقر، ولن أشعر بالجوع، وسيقل إفراز الأبخرة الضارة. الماء بلا رائحة. حقاً ثمة نقص في الأمر، فأنا لا أستطيع الرقاد نحو نصف ساعة، حتى يمتص المحلول كلياً في الأمعاء. إذ يحدث أن أشرب الماء حتى الشبع، وأستلقي بينما يتسرب الماء عبر القسطر. لكنني عندما أرقد يصبح القسطر تحت الأنف، ولا أشعر بالروائح كلياً تقريباً. لكنها موجودة، لا بد أن توجد - إذ يترسب في القسطر كل ما يرفضه الجسم الطبيعي، ويفرزه إلى الخارج. ولديَّ شتى الأساليب المبتكرة لتطهير القسطر بصورة ما، لكن هذا من الناحية الشكلية - يجب تغيير القسطر مرة واحدة كل ثلاثة أشهر، وهذا ما يمكن أن يفعله فقط طبيبي الخاص، وكلفة الطبيب - مبلغ خمسين ألفاً، والقسطر نفسه يتراوح ثمنه ما بين 13 و18 ألفاً. حقاً، يجب أن تعوض الممرضة قيمة هذا القسطر. وقد حاولت ذلك مرة. لكن ما أكثر الوثائق الواجب

استحصالها، وفيما بعد أعطوني نصفها قط، بزعم وجود قانون غير معلن - تارة الشطف وتارة القطع، وعموماً إنه سيكلفني أكثر. لكن المسألة الأشد وطأة لا تكمن في هذا، أي في النقود، الوضع صعب في وسائل النقل العام. كيف أجلس في القطار، ناهيك عن الجلوس في الطائرة، مع هذه الرائحة النتنة؟ وأنا تنقلت في الحافلة وجلست في المقعد الأخير. والمسافة من جروزني إلى موسكو تبلغ ألفي كيلومتر. ولا تتوافر أي وسائل راحة، وبقيت بلا طعام. الآن أصبح الوضع أسهل، حيث تساعدني ابنتي، وأشتري المقصورة كلها في عربة القطار المخصصة للنوم. وأسافر وحدي. بالمناسبة أنا وحيد دوماً، وبقيت وحيداً. لكنني أنتظر، ويجب أن أنتظر.

أصابني الإجهاد، والكتابة متعبة. أفتح جهاز التلفزيون. ماذا يجري في العالم؟ وعموماً اليوم 22 ديسمبر، حين يكون الليل أطول ليالي العام. النوم!

اليوم نفسه، صباحاً

يبدو أن الأعصاب تعود إلى حالتها الطبيعية - فقد ظهر نوع من الوفاق والانسجام مع الذات الذي طال انتظاره. طبعاً على أقل تقدير ليس كما في بيتنا في الجبال. لكنني أنام نوماً عميقاً. استيقظت بعد لأيٍ لتناول طعام الإفطار، ثم اتصل الطبيب بواسطة الهاتف الداخلي. إنه ليس طبيبي الشخصي الذي ذبحني كما أراد أو كما استطاع في مركز علاج الأورام السرطانية. فهذا يعالج كما يبدو بواسطة الأشعة. هذا الطبيب يعذبني، على أقل تقدير، هو مرح، ومنفتح النفس. كما أعتقد أنه نزيه، وليس مختلساً. إنه شاب مستقيم جداً جداً، وقال لي إنه بالنظر إلى حالتي الصحية فقد طلب من الولايات المتحدة من أجلي وجبة من أدوية التسييل، لكنها لم تصل لسبب ما، وبعد الغداء سيتعين قطع الكبسولات كالسابق. فغمغمت بعجب، وفهمني:

نعم، نعم، كبسولتان. هذا ضروري. أنت تحتاج إلى مثل هذه الجرعة الآن. سأتابع ذلك بواسطة المونيتور، وإذا ما دعت الحاجة فسوف أملي عليك ما يجب عمله.

وغمغمت مجدداً باستياء. وفهم مرة أخرى:

لا تقلق. يجب التكيف كإجراء وسطي - الأيام الثلاثة ذاتها. في الأحوال كافة لن نبقي أي أحد هنا بحلول العام الجديد.

وعندما صدرت مني حشرجة تعبر عن الاستياء قال موضحاً:

فهمت. لا تقلق. أنا أعرف. على أي حال فسوف تخرج من المستشفى في يوم 26 ديسمبر. وفي 27 سيجري استبدال القسطر في مركز علاج الأورام السرطانية، وفي 28 ستسافر إلى فيينا، وفي 30 ستحضر الحفلة الفنية لابنتك. أحسدك وأهنئك. في وقت الغداء ستجلب الكبسولات. حالفك التوفيق!

أنا لم أفكر بشأن الكبسولات، فقد ذهلت. أي حفلة فنية، وأي فيينا؟ أنا أعلم بأن ابنتي في النمسا، ولم تستطع المجيء إليَّ، ولا حاجة لذلك، ولو أنني مشتاق جداً لرؤيتها. إنها تدبر كل شيء من أوروبا، وهتفت لها عدة مرات يوم أمس، وصباح اليوم أيضاً. وفور ذلك أرسلت لها رسالة: «أي حفلة فنية، وفيينا؟ أم أن الطبيب وقع نفسه تحت تأثير الإشعاع؟». فأجابتني: «دادا، لا تقلق. لقد تحقق حلمي. إنها ليست حفلة سولو، لكن وجهت الدعوة لي للمشاركة في حفلة عيد رأس السنة في أوبرا فيينا. ولهذا لم أستطع المجيء. وفي موسكو يوجد صاحبنا. وهو يدبر كل شيء. حافظ على نفسك. آمل أن نلتقي قريباً». وصاحبنا «هذا» - صهري. زوجها. إنه شاب ظريف جداً. ولا يحق لابنتي تسميته بالاسم، على الأقل، في حضوري أو لدى مخاطبتي. وشعرت بالارتياح، وكذلك بالحرج البالغ، لكون صهري قد جاء إلى موسكو بسببي.

... أعترف بأنني أشتم بعض الشيشان في أعماق روحي - فتحت تأثير التمدن أصبحت الأولويات لديهم النقود وغير ذلك من الخيرات. لكن الأمور ليست كئيبة إلى هذا الحد. جاء صهري إلى موسكو ليس تنفيذاً لرغبة ابنتي - فقد أرسله مكحل - أبوه، صديقي ورفيقي، وهو الآن زاخلو (نسيبي)، لمساعدتي، وبعث لي رسالة جديدة: «اصمد، واصبر. أنا أعرف أنهم ضاعفوا جرعة الدواء. والأطباء أعرف بالأمر. آمل في أن نلتقي قريباً. لقد حصلت على الفيزا لك».

أي فيزا؟ وأي فيينا؟ كيف أحلق في الجو في وضعي هذا. أتمنى أن أسافر إلى بيتي. هذا هو حلمي! وهناك... ستكون إرادة الرب. وإذا أردت قول الحق فلم أندهش؟ فأنا تعذبت في جروزني، حين أردت الحصول على جواز السفر إلى الخارج تلبية لطلبات ابنتي الكثيرة. وقد نسيت واقع اليوم وصرت حسب ذاكرتي السوفيتية القديمة أقرأ في دائرة الشرطة التعليمات حول الحصول على جواز السفر. لم يكن الأمر يسيراً، ومع هذا جمعت الوثائق المطلوبة كافة، ودفعت رسوم الإصدار، ولكن مضت فترة شهرين من دون أن أحصل على جواز السفر، علماً بأنني لا أستطيع إطلاق الشتائم، بينما هم لا يفهمون غمغمتي، وحينئذ قال لي رجل طيب القلب - «ادهن» أيديهم، وسيكون كل شيء على ما يرام. وهكذا فعلت، ولماذا أعجب، إذ إنه حتى في وسط موسكو، توجد لافتة كبيرة معلقة في مركز علاج الأورام السرطانية الضخم كتب فيها: «العلاج في مركزنا مجاناً. وتضمن ذلك الدولة ودستور روسيا الاتحادية». بينما ينبغي هناك دفع النقود بدءاً بالحصول على الباخيلات (جرابات الوقاية الصحية للأحذية) وانتهاء بإصدار وثيقة انتهاء العلاج والخروج من المركز، ولا يخجل أي أحد من أي أحد. ولِمَ الخوف، إذ إنهم لا يخافون الرب ولا يفكرون فيه. النقود - فوق كل شيء.

بالمناسبة، أليس هذا هو الواقع؟ وهل كنت سأرقد هنا للعلاج بلا نقود... دعنا من الحديث عن الأمور الحزينة. فأمامي فيينا، والحفلة الفنية.. كلا، أمامي العلاج بالأشعة، وبجرعة مزدوجة. حسناً، لا بأس، فسأتناول الكبسولات. كم أتمنى أن يتم ذلك بأسرع وقت. فيجب عليّ قبل هذا اليوم وخلال شهر كامل أن لا أتناول طعاماً يحتوي على اليود. بينما أنا لا أستطيع أن آكل، أو بالأحرى أستهلك، كثيراً أصلاً - اللعنة على القسطر الذي يفرض القيود على الحياة. سأتناول الكبسولات وأحصل على جرعة من اليود تجعلني لا أرغب حتى برؤية الملح العادي. ثم أشعر بالعطش - هذا ما حدث لي في المرة السابقة. بينما تحذر التعليمات من حدوث الغثيان ونوبات الميل إلى التقيؤ

والوهن والإمساك، وعموماً وضع الانقباض النفسي الشديد، سيستمر لمدة يومين آخرين. لكن لم يحدث أي شيء من ذلك في هذه المرة. ويبدو أنني كنت في حالة من الكآبة النفسية جعلتني حتى لا أشعر بالكآبة المصطنعة الناجمة عن جرعات الأشعة. كما أنهم يحذرون من الخوف بسبب الوحدة. لكن هذا الخوف لا وجود له عندي الآن. بل بالعكس، أحاول بكل السبل الانعزال عن الجميع، وذلك ليس بسبب مظهري البشع - فأنا نفسي أخاف التطلع في المرآة، وكذلك أنفر أكثر من الرائحة التي تلازم تحلل الطعام، والتي تلازمني بسبب القسطر. وثمة بند آخر في التعليمات - احتمال انبعاث رائحة كريهة من الفم، وينصح بامتصاص الليمون. وفي هذه المرة أخذت معي أكثر من عشر ليمونات. ولكن لا فائدة من امتصاصها، ولو أن العطش يزول لدى عصرها في الماء وسكبه في البطن. بالمناسبة يجب إرسال رسالة عاجلة إلى الممرضة بشأن وضع المزيد من المياه المعدنية في حاوية الغداء. ولو أنني أعرف الجواب «نحن أنفسناً نشرب الماء من الحنفية وننصحك أيضاً بشربه، ولن يغدو الوضع أسوأ». هذا حق بالضبط، فلن يكون الوضع أسوأ. لكن الماء هنا، ليس في الحنفية فقط، بل وفي القناني أيضاً، - هو ضار كالسم -، وليغفر لي العلي القدير.. بينما يختلف الأمر في ماء ينبوعي، ينبوعي العزيز. أول شيء أقوم به في الصباح هو شرب الماء، وأنا لا أبلعه، ولو أن هذا يتم عبر القسطر، بل أشربه، على أي حال، هذا ما أوحي به لنفسي، وما أشعر به، - أتصور في خيالي بأنني أشرب ماءً حلواً ولذيذاً جداً وعزيزاً لديَّ. ولعل أطرف ما في الأمر أنني في البيت لا أشعر عملياً بالرائحة الكريهة المنبعثة من القسطر، أنا أتناول مثل هذا الماء والغذاء الطبيعي - الحليب واللبنة والقريشة من أبناء قريتي، والعسل عسلي، أنا نفسي أمارس تربية النحل، والينبوع ينبوعي. وكل هذا الطعام صحي من الناحية الإيقولوجية! لكن عندما أغادر بيتي، أبدأ بشرب وتناول شتى أصناف الماء المعالج بالكلور، وأتناول شتى المعلبات والأطعمة نصف الجاهزة، وتنبعث من القسطر هذه الرائحة مثل وسوسة الشيطان، ويبدأ الغثيان والتقيؤ والسعال الذي يجعل الحياة صعبة.

أنا الآن أفهم المثل الصيني القديم الدارج - «الإنسان هو ما يكون عليه». وهذا عين الصواب. وحتى العلماء أثبتوا ذلك، فقد منحت جائزة نوبل في الطب والفسلجة لمن كشف إن تغير وجبة الطعام يغير تركيب الحمض النووي للإنسان. وما هو الحمض النووي، أنا طبعاً لا أعرف ما هو بدقة، لكنني أؤكد على شيء آخر - أنا في خارج بيتي شخص بغيض إلى نفسي، لأن رائحتي كريهة. بينما تقام الحفلة الفنية في فيينا. سينصرف الجمهور كله. علاوة على أنني أشعر بالغثيان من عبارة «الحفلة الفنية» نفسها. بيد أن هذا موضوع خاص لا أريد حتى الكتابة عنه.

سيقدم طعام الغداء قريباً. يجب أن أستعد لتناول الكبسولات. وبالرغم من أنني أبذل جهدي، لكن القلق موجود. وإذا ما أعطوني هذه المرة جرعة مزدوجة من الأشعة، فالعاقبة لن تكون طيبة. ويجري الآن إخفاء أمور كثيرة عني، بينما أنا أعرف تشخيص علتي - وإن أيامي معدودات تقريباً. أنا أتمنى فقط أن لا يحدث ذلك هنا... وليس قبل الحفلة الفنية وقبل حدث آخر. إنه حدث مهم جداً بالنسبة لي. ما أشد قلقي على ابنتي! ولا يوجد هناك ما أقلق من أجله أكثر. القدر، القدر... أنا لم أعتقد بأنك ستعبث بي بهذا الشكل، وأن تغدو الحياة بهذه الصورة. أنا حتى لا أعرف كيف كابدت هذا كله وبقيت على قيد الحياة، ويبدو أنني أرغب في العيش، حتى بمثل هذا الحال، أنا أريد أن أحيا الآن. تلكم هي الحياة - إنها تمضي في دروب متناقضة ومتعرجة، لايمكن التنبؤ بها، وصعبة

جداً. لكنني ما زلت أريد أن أحيا، حتى بتعريض نفسي إلى دورات الأشعة، لأهداف علاجية كما يزعم. الآن الجرعة مزدوجة. يجب الاستعداد لها.

المكان نفسه، مساء

أنا حتى لا أتصور ذلك. بلعت الكبسولتين بلا أي مشاكل. ولم يحدث أي شيء كما يبدو. ثم ما لبث أن استولى عليّ الوسن، كما لو أنهم حقنوني بإبرة عقار مسكن. ومن ثم العطش - إنني لم أكابد مثل هذا في حياتي كلها، كما لو أنني أكلت سعة برميل من الملفوف المملح. إنني ضخخت في جوفي ماء الحنفية النتن المكلور بكميات جعلت يديَّ تشعران بالألم. واضطررت عندئذ إلى تشغيل المضخة الكهربائية للإنقاذ. وبدا كما لو أنني أطفأت حريقاً التهم جسدي كله وأحشائي كلها. لم أستطع الرقاد - وانبعثت من القسطر رائحة كريهة، بينما كنت أرغب في شرب المزيد من الماء، العطش لا يحتمل.

لماذا جئت إلى هنا؟ لماذا أتشبث بهذه الحياة؟ كان الأفضل لو جلست في بيتي في الجبال. أي سعادة هناك! كم أود العودة إلى البيت. ما أطيب الحياة في موطني. لقد أدركت هذا في وقت متأخر، بالرغم من أن العم جيخو قد حذرني ونصحني بإلحاح. لكن ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ حتى اليوم لا أستطيع العيش هناك، فلن يسمحوا لي بذلك. وآنذاك لم أستطع، لم يسمحوا لي أيضاً، كما لم تتوافر الإمكانيات.

أذكر عندما رجعت من الجيش. العم جيخو انتقل إلى جوار ربه، والأقرباء قلائل، والجيب فارغ. لكن كان أول ما فعلته هو أنني زرت قبر العم جيخو، وزرت أبناءه، ثم قررت الصعود إلى قريتي البعيدة في أحضان الجبال الشامخة. فلم يسمحوا لي. في الفترة الأولى أقمت عند الابن الأكبر للعم جيخو في إحدى القرى الجديدة في أطراف جروزني. وهناك بدأت العمل بصفة عامل بسيط في الكولخوز المحلي. الراتب قليل، ولا أي مستقبل. ولكن لا يمكن العيش هكذا إلى الأبد ولو عند الأقارب. ورأيت بالمصادفة إعلاناً في الجريدة: «تحتاج دائرة جوراجورسك لأعمال الحفر في مؤسسة «جروزنفط» إلى عمال، وتوفر لهم فرص الإقامة في المساكن الجماعية». وفي اليوم نفسه ذهبت إلى هذه الدائرة، فوجدت عند المدخل الإعلان نفسه، وفي شعبة الذاتية قالوا لي بلباقة إنني لا أتمتع بالتأهيل المطلوب.

كان الوقت صيفاً والحر لا يطاق، والمكتب في مكان منعزل. وتبعد جوراجورسك أقرب بلدة مسافة خمسة أو ستة كيلومترات. وانطلقت ماشياً وصادفتني في الطريق شاحنة لعمال النفط. علماً بأن سائقها كان كهلاً روسياً صموتاً كلياً. والجو خانق في القمرة، عندئذ لاحظت على يده وشم - المرساة. فقلت له إنني خدمت في الأسطول البحري أيضاً. وعندئذ تبادلنا أطراف الحديث، وقال لي بصراحة - لايقبلون الشيشان في مؤسسة «جروزنفط» إلا في حالات استثنائية. والمؤسسة غنية:

الأجور جيدة، ويوفر السكن في المساكن الجماعية، وطابور الحصول على مسكن منفرد يتحرك بسرعة. وعموماً لا يوجد مكان أفضل من هذا في الجمهورية، وقال لي «خذ وثيقة توصية من أركان الأسطول البحري». لكن يجب أن تقول لهم فقط إنك تريد العمل بصفة عامل بالذات. وعندئذ هيهات أن يرفضوا، إنهم لن يتجاسروا على ذلك. فبلادنا هي بلاد العمال والفلاحين. ولو أن هذا بعيد عن الحقيقة. لكن اكتب، فما ترغب فيه لا بأس به، وثمة حاجة إلى الأيدي العاملة».

لم تراودني الأوهام على الأخص، لكن لم توجد لديّ فرص أخرى، فكتبت رسالة إلى أركان أسطول المحيط الهادىء. أي بلاد هذه كانت! إنني استلمت ليس الجواب فحسب بل رسالة توصية تكاد أن تكون أمراً موجهاً إلى القومندان العسكري للجمهورية مباشرة والذي بحث عني شخصياً واقتادني إلى مؤسسة «جروزنفط». فألحقوني بالعمل، كما نشروا مقالة عني في صحيفة الجمهورية مع صورتي واقفاً على الغواصة، وذكروا فيها أنني بحار قدير، يرغب بعد التسريح أن يصبح عاملاً حقيقياً، وباني الشيوعية وهلمجرا. كنت سعيداً فحسب! وكيف لا، والعمل ليس شاقاً أكثر ما في الكولخوز، بل بالعكس فكل شيء محدد بدقة، حسب الجدول الزمني، ولا توجد أي استنفارات موسمية ونوبات خفارة ليلية - اعمل ثماني ساعات ثم تصبح حراً - وحتى السبت يوم إجازة، ناهيك عن يوم الأحد وأيام الأعياد. الوضع يختلف في الكولخوز - فالأبقار بحاجة إلى علف دائماً، ويجب تنظيف الروث دائماً وحتى في أيام العطلة. وكنت أتلقى في الكولخوز مقابل هذا العمل الشاق المستمر تقريباً 70 روبلاً، أما هنا فأتلقى 280 روبلاً بالإضافة إلى المكافآت والعلاوات. وتضاف إلى ذلك غرفة كبيرة مضيئة في المسكن الجماعي الواقع في وسط جروزني تقريباً. وليس هذا فحسب فبموجب الرسالة-التوصية من الجيش يسمح لي بدخول معهد النفط في جروزني في أي اختصاص بلا تقديم اختبارات المسابقة للدراسة الخارجية. لكن وجدت عدة مشاكل: فقد كنت ضعيفاً في الرياضيات دائماً، ونسيت حتى ما كنت أعرفه سابقاً. ومع ذلك تم قبولي في قسم «المكننة «حيث كان عدد المقبولين قليلاً. وقد وجدت مشقة كبيرة في الدراسة في دورتي العام الدراسي الأول. لكنني بذلت جهدي، وسعيت جداً، وكنت أرتاد الدروس والاستشارات والدروس الإضافية مع المعلمين، والمكتبة، وصفوة القول، حققت نجاحاً في الدراسة، وعندما جلبت إلى دائرة أهل النفط وثيقة من المعهد تشهد بأنني أكملت ثلاثة أعوام دراسية، قالوا لي إنني أصبحت خبيراً، ومضيت في درب الترقية.

أنا كنت يتيماً في حياتي، ولم أجد من يدللني، وانغمرت دوماً في العمل، ولم أعرف أي تسلية ولهو ومغريات وعادات ضارة. وعادة يجري بعد الأعياد، وفي فريق العمال كانوا جميعاً «يعاقرونها» قليلاً، كان الأمل الوثيق يعقد عليّ فقط. وأنا أحببت عملي - كعامل حفر الآبار - دوماً وثمنته وحتى افتخرت به. كما أنهم ثمنوني. وبعد عامين أصبحت رئيس فريق عمل. وبعدما أنهيت العام الدراسي الثالث ترقيت إلى مرتبة رئيس عمال. واستدعوني إلى اللجنة الحزبية وقيل لي - إن البروليتاري يجب أن يدعم صفوف الحزب الشيوعي. وأصبحت قبل التخرج من المعهد رئيس وردية عمل وعضواً في الحزب الشيوعي السوفيتي، ومنحت شهادات تقدير وميداليات، وأقف منذ أكثر من عام في طابور الحصول على مسكن منفرد. لكن حصل على الشقق العمال الذين التحقوا بالعمل بعدي، بينما لا تمنح شقة لي. عندئذ توجهت إلى رئاسة الإدارة، وطرحت المسألة في اللجنة

الحزبية وفي اللجنة النقابية. فكان جواب الجميع واحداً - أنت غير متزوج، وتعطى الأولوية إلى أصحاب العوائل.

وأعربت عن غيظي في أحد الاجتماعات الحزبية قائلاً: لكنكم أعطيتم الشقق إلى فتيان جاءوا لتوهم من المناطق الأخرى.

فأوضحوا لي قائلين: -إنهم جاءوا بتوصية من مؤسساتهم، وعلينا أن نوفر لهم المسكن قبل غيرهم بصفتهم من الخبراء الشباب.

ولِمَ يرسلون إلى هنا الخبراء من أماكن أخرى؟ لدينا معهد النفط الممتاز هنا. إنكم ترسلون شبابنا المحليين إلى أماكن الشيطان وحده يعرف أين هي، إلى أقصى الشمال. بينما تجلبون إلى هنا الشباب من موسكو؟ إن هؤلاء الشبان الموسكوفيين لا يستطيعون العيش هنا، وهم لا يريدون ذلك، ولا يريدون العمل. إنهم يحصلون على شقق جيدة، وبعد عام يبيعونها ويعودون من حيث أتوا. هل هذا صحيح؟

هل أنت لا توافق على خط الحزب؟

مع هذا الخط - أنا لا أوافق.

طبعاً، كان موقفي هذا موقفاً احتجاجياً. وجرى ذلك في سبعينيات القرن الماضي.. ما أكثر الأعوام التي انصرمت. أنا أتذكر اليوم ذلك الاجتماع وأعاتب نفسي أحياناً - لماذا فعلت ذلك؟ منذ ذلك الحين توقفت حركة ترقيتي المهنية. لكن من جانب آخر أنا لم أجبن - وقلت الحقيقة، وعلى الأقل ما أفكر فيه وأراه. ولماذا؟ فهل تغير شيء ما؟ وحتى اليوم حين يبدو أن النظام قد تغير، ولا وجود للشيوعيين، كما اختفى الاتحاد السوفيتي من الوجود منذ أعوام، فهل تغير شيء ما، وأصبح بشكل أفضل؟ الأمر بالعكس. هل معنى ذلك أن أساير الموجة، وأصبح عبداً ذليلاً؟ فلم يحدث أي تغيير نحو الأفضل بالرغم من كل شيء، بل حسب اعتقادي، أصبح الوضع أسوأ. أنا فعلت هذا يومذاك لأنه لم يكن لديَّ ما أفقده. بالمناسبة، هذا حالي الآن وقد بلغت من العمر أرذله. طبعاً، إن موقفي آنذاك كان غير مبرر. فاخدم صاحب الأمر والنهي - أعترف بنظام القنانة والتزم الصمت، وافتح فمك فقط من أجل تناول الطعام، وسيكون كل شيء على ما يرام: ستكون شبعان، وستحصل على وسام وشقة، إذا ما سلكت السلوك الواجب. هل لا يوجد خيار آخر؟ لقد وجد خيار آخر هو الذهاب إلى موطني في الجبال. لكن لم يسمحوا لي بالذهاب إلى هناك.

إيه، كم أتمنى أن أشرب من نبع قريتنا. وبعد هذه الأشعة وهذه الذكريات - صارت أعماقي تلتهب، حريق! لكن هل بوسع ماء الصنبور الكريه الرائحة أن يخمد النار في صدري، ناهيك عن التعطش إلى الحياة؟ لماذا أرغب دوماً في العيش؟ لأنه ما زال هناك أمل في حدوث ما هو أفضل، فتنتظر، وتؤمن بالمستقبل، الذي يبدو لي أنه سيكون وضاءً أكثر.

23 ديسمبر، صباحاً

إن الكبسولتين تعتبران جرعة حصان! لازمني الأرق طوال الليل، وزال الشعور بالعطش عند حلول الفجر فقط. وأطفأت هذا اللهب في صدري، لكن ظهر بشدة إحساس آخر هو - الجوع. حسناً. يقول الأطباء إن الشهية في وضعي الحالي - تعني التحسن نحو الأفضل. أنا لا أعلم، هل هو أفضل أم أسوأ، فإن بوسعي، كما أعتقد، أن ألتهم خروفاً إذا ما استطعت. انتظرت موعد الفطور على أحرّ من الجمر... والطعام هنا...

دخل الطبيب الحجرة لتوه. إنه الطبيب الراديوي. أنا أطلق عليه هذه التسمية ليس لأنه يترأس قسم الأشعة، بل لأن الراديو يصرخ باستمرار في غرفة مكتبه. وعندما يهتف لي أحدهم تعيق الموسيقى سماع المتكلم، لكنني لا أستطيع أن أقول له: أغلق هذه الترهات. حسناً لو فعل... كان بودي أن أسأل لِمَ أكابد عذاب هذا العطش. لكنني لا أستطيع توجيه السؤال، وبعثت برسالة - لكن بقيت بلا جواب. إنهم هكذا يعالجون. بالرغم من أن النقود قد سددت إلى آخر مرجع... لكن لا يوجد من يسأل ولا فائدة من ذلك. نحن نعيش في بلاد حيث تقرر النقود كل شيء تقريباً. ويعتبر الاتحاد السوفيتي من هذه الناحية بلاداً فريدة من نوعها، ولو أنني غالباً ما أشتمها. بالأخص في مجال الطب والتعليم وغيرها من مجالات الرفاه الاجتماعي مدفوعة الأجر. ومع هذا وبالرغم من كل شيء يجري الالتزام بالمساواة الاجتماعية عموماً. لكن لو سئلت أين كان بودي أن أعيش في الاتحاد السوفيتي أم في روسيا المعاصرة؟ إنني كنت سأجيب بلا تردد في بداية التسعينيات - في روسيا المعاصرة، بالرغم من أن الحياة فيها ليست سهلة. فالنقود تقرر كل شيء هنا. إن النقود شعار روسيا وفكرتها الرئيسة! واليوم حينما غاب الاتحاد السوفيتي عن الوجود منذ عدة سنين، أقول لا أريد أن أعيش هنا أو هناك. ألا يبدو غريباً حينما ألتقي من هم في عمري أجدهم يحنون دوماً إلى الماضي والشباب والخدمة في الجيش وكيف كنا نخرج في النزهات ونشرب وهلمجرا وهكذا دواليك. أنا الآن أصدر حكمي القاطع بهذا الشأن - أنا لا أحب ماضيَّ، وأعيش في المستقبل - لدهشة الجميع، ولو أنه قد أصبح في حكم الماضي تقريباً وسيمضي بسرعة البرق، لكنه سيوجد. لأنني أود أن أنجز الآن ما وجب إنجازه في سن الشباب، - أن أعيش في أرض وطني...

ماهذا الهذر؟ أي أرض وطن؟ أنا حبيس هذه الصومعة. إنهم إما يعالجوني وإما يجرون تجاربهم عليّ. والفكرة الأخيرة وردت في عقلي غير المعافى تماماً لأن طبيب الراديو هتف خلال الصباح ثلاثاً أو إذا لم يكن أربع مرات بواسطة الهاتف الداخلي، كما بدا لي، وكأنه يوجه إليَّ الأسئلة من استمارة ما. أما أنا فبدا وكأنني عاجز عن الإجابة، وأتمتم فقط، بينما هو يقودني إلى الصومعة ويقول - أومئ برأسك، أرني ذراعك. وبعد ذلك صاح بأعلى صوته:

انهض.. الفم نحو الكاميرا. افتح فمك أوسع. والآن العيون. أرني العينين. هكذا.. والسمع. الأذنان غير مسدودتين؟ الآن بلا ألم؟ وكيف التبرز؟ إمساك؟ لا؟ أشرب الماء. المزيد من الماء... كم شربت تقريباً؟ حسناً، أنا أفهم بأن هذا ليس ينبوعك. هذه موسكو. ويجب تنظيف الأنف. يتراءى لك أنك لا تستطيع التنفس. أغلقه وستفهم. هل تشعر بالبرد؟ حسناً كل شيء على ما يرام عموماً، حقاً إن الخلفية الإشعاعية عالية جداً.. هذا مفهوم، حسناً، أن تكون الشهية جيدة. معنى ذلك أن الجسم

يكافح ويحيا. سأطلب أن يكون غداؤك ذا سعرات حرارية أكثر.. هل تشعر بالضعف؟ خذ قسطك من الراحة. ونم قبل الغداء.

المكان نفسه، بعد الغداء

مرة أخرى أيقظتني الممرضة بجهد. هذا حسن. باعتقادي أنني أستعيد عافيتي قليلاً. ونظفت الأنف. لقد تحسن الحال فعلاً. والصداع خف. لكن اشتدت الجاذبية، وفاحت تلك الرائحة مجدداً.. يبدو أن هذا ناجم عن التغذية المحلية. أما «سعرية» الغداء فتتمثل مجدداً في حساء الفراخ ذاته بالإضافة إلى كستيليتة واحدة، والخشاف والخبز. وأقوم بطحن هذا كله في وعاء كبير، وأخلطه جيداً، وأسحقه وأحقنه بواسطة مضخة في القسطر. المعدة تقرقر باستياء، الغازات، والرائحة النتنة لكائن مريض. لكن الجوع لا يرحم. وأنا جائع. أكتب للممرضة أن تقدم لي المزيد من الطعام في العشاء. بينما هي تقول: «أنا لا أضع قائمة الطعام». ولم أسع إلى مفاتحة طبيب الراديو بالأمر. فهو هتف لي بنفسه. إنه يعجبني. فهو مرح ومنشرح الصدر دائماً. وقال اليوم:

ابنتك ظريفة. لقد هتفت للتو. وجاء صهرك أيضاً صباح اليوم.. سأحدد لك أعلى درجات التغذية. كما سنقدم لك في العشاء، على سبيل الاحترام الكبير والامتياز، مائتي غرام من النبيذ الأحمر أو الفودكا، بغية استئصال الإشعاع.

فلوحت بيدي، لأنني طوال حياتي لم أشرب ولا أريد شرب الخمر.

ها، ها، إذن سأشرب بدلاً عنك.. بينما سأرسل لك العقار المنوم، السائل. فتماثل إلى الشفاء.

اليوم نفسه، بعد العشاء

أعلى درجات التغذية! قدم لي في العشاء ما يلي - كومة من الخبز وكستيلتين غير طازجتين. يبدو أن أحد جيراني لم يتناولهما في فترة الغداء، ولن آكلهما أيضاً، لأنني لا أستطيع ذلك بالرغم من أنني جائع... سأجرب العقار المنوم. أنا لم أر مثل زجاجة الدواء الصغيرة هذه من قبل، فهو مستورد، كما يبدو، أمريكي.

24 ديسمبر، ليلاً، قبيل الفجر

ياله من عقار منوم! أنا أذكر ما كابدته من آلام بعد العملية الجراحية. ولم تساعدني أي حقن بالإبر. أما هذا فيبدو أنه عقار منوم حقيقي. إذ غبت عن الوعي تماماً. يبدو أن صهري أبدى آية الكرم والسخاء. لقد نمت الليل كله. لم أرد على سبع مكالمات من قبل ابنتي. وهتف لي مكحل ثلاث مرات. وردت اتصالات منهم. لكن الوقت متأخر للاتصال أو الكتابة لهم. الوقت الآن الثالثة بعد منتصف الليل. لقد ورد اتصال من الأهل والأقرباء في القرية. بدأ موسم البرد في الجبال وتساقطت الثلوج. يا ترى كيف حال ماشيتي ودواجني هناك؟ فأنا أصبحت في نهاية المطاف من أبناء الجبال الموسرين. كما توجد لديَّ عميرة نحل صغيرة- فيها خمس كوارات. ولدي كلب - أهداني إياه جيراني، وكان جرواً صغيراً. ولديَّ قط - جاء إليَّ بنفسه أو ألقاه أحد ما حين كان صغيراً. الكلب يدبر حاله ولن يضيع. أما القط فقد أعطيته إلى الجيران حين سافرت، ويأتي إلى بيتي في الصباح يومياً، فلا يجدني فيعود إلى الجيران في المساء. لكن أكبر ثروة لديَّ هي الخيول وعددها سبع - هذا قطيع كامل. وكان يمكن أن يغدو عددها أكبر. لكن في كل عام كانت الدببة أو الذئاب أو النمور الثلجية تفترس اثنين أو ثلاثاً منها. ولا يشكل هذا القطيع عبئاً ثقيلاً. أنا أعتني بالنحل فقط. أما القطيع.. إن القطيع يتجول طليقاً في الجبال. وأحياناً في موسكو الصيف لا أراها خلال عدة أشهر، فهي تتوغل بعيداً جداً، في الأعالي، حتى تكاد تصل إلى طبقة الجليد. والعشب هناك نضر ولذيذ جداً. أما في الشتاء حين يبدأ الزمهرير الشديد وتتساقط الثلوج، فتطاردها الذئاب وعندئذ تعود إلى البيت، فأطعمها الذرة والشوفان والملح. كما أن الينبوع عندي لا يتجمد أبداً. ما أحلى الحياة في بيتي وأرضي بموطني! لقد أدركت ذلك وثمنته بصورة متأخرة. ولو أن المقادير ترمي المرء كيفما اتفق.. لم أستلم الشقة من مؤسسة «جروزنفط». وكان الجميع يقولون تزوج، وسيتقرر الأمر. والأعزب يمكن أن يقطن في المسكن العمومي. وقيل ذلك لي ليس في مكان العمل فقط، بل والأقارب والأصدقاء وكنت قد تجاوزت سن الثلاثين. قصارى القول إنني نفسي كنت أحلم وأريد الزواج، وتمت خطبتي، وذهبت لرؤية الخطيبات لكن روحي لم تنجذب إلى أي واحدة منهن. وحدث أن جاء إلينا في المؤسسة عشية العام الجديد فنانون من الفلهارمونيا المحلية، وأعجبتني جداً إحدى الفتيات من الفنانات. وكما فهمت لا حقاً أنها لم تكن تتمتع بمواهب متميزة، لكنها ولعت بخشبة المسرح دوماً، ولو أنها أدت الأدوار الثنائية، وشاركت في الجوقة الغنائية، وعزفت على آلة الأرمونيكا، ورقصت بصورة لا بأس بها- لكنني أعجبت بقوامها اللدن.. إذ كانت ميساء القد وممشوقة القوام. لقد أحببتها، وأصبحت من المعجبين بها، ولهذا حضرت جميع الحفلات بمشاركتها. وبعد التعارف معها، أخذنا نلتقي، وعندئذ أبدى الأقرباء وأبناء جيخو تذمرهم - أي زوجة تصبح الفنانة. أما أنا فقد حدثتها عن نفسي، كما هي، ولم يكن هناك شيء متميز ينبغي الحديث عنه، وطلبت يدها، حقاً، بشرط واحد - أن تترك زوجتي القادمة خشبة المسرح.

فسألت: - والعمل في الفلهارمونيا؟

وقلت باعتزاز: - سأطعمك، أنا أكسب جيداً من العمل.

تزوجنا بهدوء، وبتواضع، وجئت بها إلى المجمع السكني العمومي. وبعد أسبوع، أي في العطلة الأسبوعية التالية، ذهبت معها إلى قريتي. وما أكثر ما حدثتها عن جبالي، لكن - كما كان ذلك

نكاية بي - ساد في الجبال يومذاك البرد والرياح العاصفة ورذاذ المطر والضباب، ولم يبق أي أثر للجمال.

لكنها قالت فقط، وهي ترتعد من البرد: -، الينبوع حلو المذاق. ووجب علينا قطع مسافة خمسة كيلومترات حتى بلوغ طريق العودة، ولم نلق حقاً أي وسيلة نقل عابرة أو حافلة. أما هي وبالرغم من نصائحي فقد ارتدت لباس العروس والحذاء ذا الكعب العالي، ووجدت نفسها قد تلطخت بالأوحال. صفوة القول إنها لم ترغب في سماع أي شيء عن موطني، بينما ذهبت إلى اللجنة النقابية، وأبرزت شهادة الزواج.

حسناً. تهانينا. اكتب طلب الحصول على شقة بصفتك الآن رب عائلة... سجل التاريخ.

وحدث في ذلك الوقت أن أنجزء بناء مسكن جديد. لكن لم يرد اسمي في القائمة. فأبديت امتعاضي وقيل لي في الإدارة:

ماذا تريد؟ إنك تزوجت منذ فترة قريبة، ولا يوجد لديك أطفال، وقدمت الطلب منذ فترة وجيزة. انتظر حتى بناء المسكن الجديد.

في تلك السنين كانت المباني تشيد، ليس كما هو الحال اليوم، خلال عشرات السنين. فوجدت أن هناك اجحافاً في قضيتي فأقمت الدعوى ضد المؤسسة في المحكمة: فخسرت الدعوى. الآن لا أريد الحديث عن كثرة إلحاحي أو لكوني شيشانياً. لا! لأنه يوجد اليوم في قيادة «جروزنفط» التابعة إلى «روسنفط»، وليس في جروزنفط «فقط، مسؤولون من الشيشان فقط. لكن الوضع لم يتحسن البتة... آنذاك عرفت بنفسي، كما قيل لي، بأنني لن أحصل على الترقية أكثر في «جروزنفط»، وقد يتم تسريحي أو تقليص فرصتي للعمل. وكنت قد وفرت بعض النقود، وعندئذ فكرت بأن أبني مسكناً في قريتي وسأعيش هناك ولو في أيام العطل والإجازات. لكن زوجتي لم ترغب حتى بسماع أي شيء عن ذلك. ونصحتني بالانضمام إلى جمعية تعاونية سكنية. لكنني لم أرغب في سماع شيء عن هذا أيضاً. وكنت أعرف بأنهم في المؤسسة يجب أن يعطوني مسكناً لقاء اجتهادي في العمل بنزاهة، إذ حصل على شقق حتى الذين التحقوا بالعمل في المؤسسة بعدي. ولهذا طالبت بالعدالة، وفجأة عرضوا عليّ كشيوعي فتي وخبير بالسفر لاستثمار حقول النفط الجديدة في البلاد المترامية الأطراف - حيث أجور العمل أكثر ويوفر السكن المأمول فوراً.

وعرض عليَّ أن أختار واحداً من ثلاثة اتجاهات - سيبيريا الغربية (نيجني فارتوفسك) وساخالين وتركمانيا. إن ساخالين بعيدة جداً- وأسقطت من الحساب فوراً. ووجب أن أختار إما سيبيريا الغربية وإما تركمانياً. وقالت زوجتي لنأخذ إجازة ونستكشف المكان ميدانياً. وأعتقد الآن بأنني أخطأت مرتين في التخمين. أولاً، لأنني سافرت، وأسأت الحساب جداً. وثانياً، لأنني اخترت تركمانيا. وأنا اخترت تركمانيا لسببين. تمت رحلتنا في بداية الربيع. والطقس فظيع في نيجني فارتوفسك فحسب حيث تبلغ درجة الحرارة خمس درجات مئوية نهاراً وعشرين تحت الصفر ليلاً، والرياح عاصفة هناك... أما المدينة نفسها فهي عبارة عن بلدة، وحتى المطار فيها بشكل عنبر، ولا يوجد فيها فندق محترم، والتغذية مشبوهة كلياً. وعموماً شددنا الرحال إلى عشق آباد، بلا

التوقف للتفكير، وهناك تغطي الصحراء كلها في الربيع أزهار الخزامى، وبدت من الطائرة وكأنها سجادة سحرية. وعرضت عليّ فوراً شقة لكن في كراسنوفودسك. فذهبنا إلى هناك عبر الصحراء المغطاة بالزهور. الجو قائظ هناك، لكن يوجد البحر، والكافيار الأسود، ووظيفة - رئيس فريق المناوبة. أما الراتب فهو أعلى مما في جروزني كثيراً، كما أنني استلمت مفتاح شقة. حقاً إنها لا تعتبر ملكاً لي، ويجب عليّ أن أعمل حسب العقد فترة عشرة أعوام للحصول على حق الملكية، لكنها مسكن وهي أول مسكن خاص بي في حياتي. علماً بأنني كنت قد تجاوزت مرحلة الشباب. حقاً إن الحر شديد لا يطاق في الشقة تلك ذات الغرفتين، بينما كنا في أواسط أبريل، فراودتني الشكوك: لا يروق لي البتة الراتب الشهري وهذا القيظ، لكن زوجتي قالت بامتعاض، نحن ننتظر مولوداً. فكيف بلا مسكن؟

في اليوم نفسه، صباحاً

تأخرت مجدداً في الاستيقاظ عن موعد الفطور. شيء جيد أن أنام الآن ملء أجفاني، ومعنى ذلك أنني أنام بطمأنينة. والشيء السيئ أن الطعام رديء. وهو من الأطعمة نصف الجاهزة... وثمة شيء جيد آخر هو كثرة الاتصالات بواسطة الهاتف النقال. إنهم يتذكرونني: وردت من ابنتي ثلاثة اتصالات. إنها تبدو جافة -«دادا، كيف حالك؟ لماذا لا تجيب؟»، ما أكثر ما يوجد فيها من أمور أرغب فيها. وهذه رسالة وردت من مكحل- إنها طيبة، وسيئة. إنه يقول بأنهم حجزوا في محل استئجار الملابس بدلة فراك لكي ألبسها في حفلة ابنتي الموسيقية. أي فراك، أي حفلة موسيقية؟ إن هؤلاء البشر الأصحاء لا يفهمون مشاكل المرضى، لا سيما الذين في حالة صعبة مثلي. إنني صرت أكره هذه الحفلات الموسيقية منذ برهة من الزمن... وكل ذلك بسبب ابنتي. وإذا ذهبت الآن إلى الحفلة الموسيقية من أجل خاطر ابنتي فسيهرب كل هذا الجمهور الأوروبي المحترم منها لنفورهم من هيئتي ورائحتي- وسأفسد كل شيء لابنتي. كما أن التحليق إلى ما يسمى النمسا.. الأفضل الذهاب إلى قريتي. لا سيما وأنه لا ترد من هناك أنباء مفرحة تماماً. إن ينبوعي قد غمره الجليد من كل الأنحاء، لكنه لا يستسلم ويتواصل تدفق الماء منه. إنه لا يستسلم أبداً. ويقال إن قطيع الخيل عاد إلى القرية. حسناً بأنني اشتريت الكثير من العلف. لكنني أخشى على مصير المنحلة. فهل سيصمد النحل أمام هذا الزمهرير؟ أعتقد أنني تركت لها ما يكفي من الطعام. وإذا توافر العسل فإنها لن تتأثر بالبرد. بالمناسبة جلبت معي إلى هنا علبة «مرطبان» صغيرة من العسل. وأنا أفتحها يومياً فيفوح منها عبير أزهار الجبال الألبية. فأغلق عيني وأتشمم الرحيق السكري الحلو المذاق الساحر لزهور الجبال، ومن كل التلاوين والأصناف. كما أتحسس سخاء وانطلاق وعظمة وزهاء وصرامة جبال القوقاز.

كم أود الذهاب إلى قريتي!

في اليوم نفسه، قبل الغداء

هتف الطبيب، الطبيب الراديوي- بمناسبة ما يسمى دورة العيادة الصباحية. وقال إن مجال الأشعة ما زال عالياً جداً. ويأمل أن يمر يوم آخر - وسيصبح كل شيء بصورة اعتيادية. ووعد، كما طلب منه أن يسمح لي بالخروج من المستشفى في يوم 26. أي بعد يومين. سأصبر في كل الأحوال. هذا بالرغم من تنامي القلق. أي حفلة موسيقية؟ بدا لي كما لو أنني أقدم حفلة موسيقية أمام الجمهور الأوروبي... وقصارى القول، فأنا حتى لا أصدق بأن ابنتي تغني في أوروبا. يالها من شاطرة! إنها حققت رغبتها بالرغم من كل شيء. ولم يكن ذلك أمراً يسيراً، وما أكثر صعوبته. إنها صمدت بالرغم من كل شيء. هوذا مصيرها! لكن أمها، ويالأسف، لم تحيا حتى هذا اليوم. ما أكثر ما حلمت به حول هذا. لقد كانت طوال حياتها تحلم بخشبة المسرح، وأوحت لابنتها بذلك. بينما كنت أعارض ذلك. أما الآن.. لن يخدع المرء القدر، ولا يغيره. لقد وجب أن أقرر ما هو مجرى حياتي إلى الأبد - ما دمت من أبناء روسيا المعاصرين، فإن مغزى الحياة واحد - كسب المزيد من المال وربما، حتى الأفضل، الهجرة إلى الخارج، وإما التوجه في منحى آخر...

صفوة القول، إن هذا كله غلو، وتبين أنه يحدث في الحياة ما يترسخ في الذاكرة ويترك أثراً سيئاً.

اليوم نفسه، بعد الغداء

هتف الطبيب الراديوي. يبدو أنه شاهد في كاميرا الرصد أن حالتي سيئة. لقد كنت في حال سيئة فعلاً، وسيئة جداً. لقد زعزعت الذكريات روحي، ثم الغداء، لكنني فقدت الشهية. وحاولت بالرغم من كل شيء أن أدس الطعام في جوفي بواسطة المضخة، وعندئذ بدأ كل شيء... لقد كان يحدث لي ذلك دائماً بعد العملية الجراحية. لكن بدا أن الأمور أصبحت على ما يرام، ولم يحدث شيء من هذا القبيل منذ وقت بعيد وفجأة - تكرر الأمر. وشعرت بألم جسدي صارخ جعلني أنسى كل شيء، ولم تكن هناك مشاعر روحية ومعاناة. يا للمفارقة - تؤكد الحياة أن الألم الروحي يضغط بشكل وكأنك تحيا فيه، ما دمت على قيد الحياة، لكن الألم الجسدي لا يطاق. عندئذ تدرك أن جسدك أو الغريزة الحيوانية أضعف من روحك وتسود في حياتك، على أقل تقدير في هذه الحياة، فوق كل شيء. وإلا فهل كنت سأحيا وأرغب في الحياة، وفي الأكل والشرب؟ الأفضل أن لا أفكر في ذلك. يجب أن أوحي لنفسي بأنني في انسجام مع الجميع، وقبل كل شيء مع ذاتي، وفي هدوء، وفي سلام وخير. إن هذا بالذات، بصورة رئيسة، ما ينقذني - وفي الفترة الأخيرة كنت أشعر بالهدوء النسبي في هذه الحالة. حقاً إنني أنفجر أحياناً، أنفجر داخلياً، ولا أستطيع عندئذ الرجوع إلى هدوئي فترة طويلة، فأنهش نفسي، واضطهدها، وألقي عليها جميع الملامات، ولا أرغب في الحياة. لكن في هذه المرة أنقذني طبيب الراديو. أولاً، إنه يراني، وينبغي عليّ أنا ابن الجبال أن أسيطر على نفسي، ولا أتقلب في فراشي كفرد واهن العزيمة. وثانياً، أخذ طبيب الراديو يلقي عليّ أسئلته السخيفة من صحيفة الأعمال - إنه يكتب إطروحة دكتوراه. دعه يكتب، وبشكل صحيح، لكنني أكتب أيضاً. أريد أن أكتب عن شيء ما، وأنا أحاول كما يبدو التماثل إلى الشفاء، أو أقدم تقريراً ما حول حياتي. لمن؟ لنفسي. فأنا مذنب. أنا رأس العائلة، ومعنى ذلك أنا مذنب...

اليوم نفسه، مساءً

هتفت ابنتي قبل لحظات. وكنا قبل هذا نتبادل الرسائل العاجلة. يبدو أنها أدركت وضعي، وأدارت رقم الهاتف النقال. فتحدثت كثيراً، وذرفت الدموع. بينما أنا لا أستطيع تهدئتها. وأجيب بالهمهمة. ولكن لا يجوز لها أن تبكي قبيل بدء مثل هذه الحفلة الموسيقية. والمسألة لا تكمن في هذا فقط... ومع هذا فإنها بعثت فيَّ الطمأنينة وأعادتني إلى الحالة الطبيعية. وأول علائم ذلك - رغبت في تناول الطعام، أي ملء المعدة بشيء ما. وبعد ذلك حتى شغلت التلفزيون. العالم في بهجة وفرح، وهو يستعد إلى حلول العام الجديد. أنا لا أدري لماذا أعتبر كل ما يعرض في التلفزيون خداعاً مبتذلاً. أنا أريد رؤية صورة الحياة الواقعية.

إن قمرتي ليست زنزانة في السجن ففيها حتى نافذة كبيرة. حقاً، إنها لا تفتح، ومصفحة. والمشهد منها ليس ساحراً - فهناك السقف المسطح لمبنى ما، وهناك قمامة من أوراق الأشجار المتراكمة خلال عشر سنوات. لكن إذا وضعت على حافة النافذة عدة كتب وصعدت فوقها يمكن أن أرى شارع بروفسويوزنايا على بعد مائة متر. الآن الساعة العاشرة مساء، وثمة اختناقات مرورية في الاتجاهين، والسيارات كثيرة... ياترى، كم يضيع أبناء موسكو من الوقت في الاختناقات المرورية؟ لابد أنه الشطر الأكبر من اليوم. بينما يختلف الوضع عندي في الجبال! ومع ذلك فالناس يندفعون إلى هنا. فلماذا؟ هنا النقود والمغريات والتسلية والمدنية. وهذا كله زيف وأوهام وخيالات. الإنسان لا يستطيع العيش هنا بطمأنينة وانسجام. لا توجد ولا يمكن أن توجد حياة هنا... بالمناسبة هذا ما أعتقده وأنا واثق بذلك. وكيف كانت في أيام الشباب؟

إن كراسنوفودسك مدينة صغيرة جداً، وأنيقة ومريحة، وهادئة. لكنني أدركت بعد مضي شهر ارتكابي خطأ كبيراً، ففي أواخر مايو بدأ الحر الشديد وأصبحت الحياة لا تطاق. فكتبت فوراً طلب التسريح من العمل بذريعة أن الطقس لا يلائم زوجتي الحامل، وركبنا العبارة في بحر قزوين إلى باكو، والوصول منها إلى جروزني على مرمى الحجر. ومن هناك نصل إلى الجبال المباركة والعزيزة، حيث النضارة والدفء والهواء العليل، وفي هذه الفترة بالذات تتفتح الزهور في كل مكان وتنشر عبيرها. لكن لا مهرب من عبث الأقدار. فقد كان البحر عاصفاً، وكانت العبارة تتأرجح بقدر لا يلحظ، وكانت زوجتي تعاني أصلاً من التسمم الحملي، وساءت حالها بسبب هذا التارجح، وفقدت وعيها. وعندئذ لم يكن هناك مجال للسفر والترحال. فأعدتها إلى المستشفى. حسناً أنها أدخلت المستشفى من أجل الحفاظ على الطفل، لكنني سلمت الشقة، وفكرت عندئذ في قطع خط الرجعة، وبهذا أصبحت في الشارع وبلا عمل. كان الوضع عصيباً، وعندئذ اتصلت بصديقي في الدراسة مكسيم. وكان آنذاك طالب دراسات عليا بموسكو، واعتزم أن يسافر في الصيف إلى منطقة نائية في سيبيريا بصفة رئيس فريق عمال بناء- وكان يحتاج إليَّ كرفيق، وعرض عليّ العمل لكسب الرزق. إنني حتى لم أفكر في العرض، ولم يكن لدي خيار آخر. فاستأجرت من أجل زوجتي شقة ذات غرفة واحدة في كراسنوفودسك، بينما سافرت جواً إلى مكسيم في موسكو.

سأكتب عن الأعمال الإنشائية بصورة منفصلة، أما مكسيم فقد تذكر ونحن في سيبيريا أن أحد أقاربه وهو من أبناء جروزني يعمل في منصب نائب المدير في مؤسسة «نفطغازجيولوجرازفيدكا»، وبالمناسبة كنت أعرفه بصورة سطحية. ولهذا فلدى عودتي إلى

كراسنوفودسك توجهت إليه فوراً، ووجه إليَّ سؤالاً واحداً فقط، وعندما عرف بأنني لا أشرب الخمر نهائياً، عرض عليّ العمل فوراً - بمنصب رئيس ورشة مع شقة حكومية، أكبر وأفضل من السابقة، وفي وسط المدينة، تتحول ملكيتها إليَّ بعد خمسة أعوام حسب العقد المبرم. لكنني أخذت أفكر في هذا العرض - لأن الأهل في الجبل ينتظرونني، والقيظ هنا لا يحتمل. عندئذ قالت زوجتي:

- إلى أين سنذهب؟ من ينتظرنا هناك؟ أين سنقيم؟

فأجبتها بفتور: - إلى الجبال.

ماذا يوجد هناك؟ ولو سقف ما فوق الرأس؟ والطفل؟

-هنا القيظ.

لكن البشر يعيشون هنا.. لقد رحم بنا الرب، أعطانا هذه الشقة والعمل والراتب.

كانت هذه حجة دامغة، القيظ؟ لكن الآخرين يعيشون هنا ولا يشكون. يجب التكيف بشكل ما، والتحلي بالصبر.

25 ديسمبر، صباحاً

المفروض أن أغادر المستشفى غداً. هتفت لي ابنتي. إنها حددت لي جميع برنامجي. فسأبيت ليلتي في الفندق، وقد تم حجز الغرفة. وفي 27 ديسمبر ينتظرني في مركز علاج الأورام في حي كاشيركا (كم أكره، مثل الجميع تقريباً، هذا المبنى)، والعلاج هناك مقابل أجور أيضاً، وسيتم هناك تنظيف قسطري، وفي المساء نفسه أغادر جواً إلى فيينا، كما هو مقرر. هل أرغب في السفر إلى هناك؟ لو توخيت الصدق فأنا راغب بالسفر. لكن مظهري، وحالتي، والرائحة النتنة - هذا ليس للناس الأثرياء والمرفهين والعاطلين. بيد أن ابنتي طمأنتني وقالت إن الجميع في أوروبا مهذبون جداً، ويبدون التفهم البالغ، ويشفقون، ويصبرون وبحترمون الغير. لكنني لم أسافر إلى أوروبا من قبل أبداً. ومن حيث المبدأ فأنا لم أسافر إلى أي مكان - لقد ولدت في كازاخستان، وشاهدت كوبا قليلاً جداً، ومن ثم القوقاز، وبعد ذلك استقر بي المقام في تركمانيا...

ولأمر ما أتذكر الحياة في تركمانيا بنوع من النفور. بينما أمضيت هناك أسعد الأوقات. طبعاً، إذا لم نأخذ بالاعتبار حاضري ومستقبلي. وفيما يخص الأخير فأنا لا أوهم نفسي ولا أحاول التفاخر بالسيطرة على الذات. وأنا مجرد أعرف بثبات - أن المصير هو المصير، ولا مفر منه. ولكن ربما سأحصد ما بذرت.. ولكن ماذا بذرت؟ لقد كانت حياتي كلها في العمل، وفي رعاية العائلة. وزرت موطني في الجبال أربع مرات فقط خلال الأعوام التي أمضيتها في تركمانيا. وفي كل مرة كنت

أزور قبل كل شيء النبع: إنه ما زال يجري على وهن، ويدعوني إليه، ويجلب لي المتعة واللذة في بلعومي وفي بصري وسمعي... فأشرب الماء المنعش الذي يتدفق من كتل الجليد الذائبة وعبر الممرات تحت الأرض ويصل إلى نبعي خصيصاً، وأتطلع نحوه فتزخر نفسي بالأحاسيس - أريد ليس أن أحيا فحسب بل أن أحلق في الجو. أود أن أهرول هكذا فوق المنحدر وأحلق من الصخرة مباشرة كالنسر فوق الوهدة التي لا قرار لها. كم أود ذلك! كم أود ذلك! بالأخص حين أتذكر ذلك الماء العسر الذي تشوبه الملوحة في كراسنوفودسك، وذلك الحر الذي لا يطاق، وتلك الصحراء المترامية الأطراف وذلك البحر الذي لا نهاية له. إن هذه الرتابة تبعث السأمة المضنية. وقد عشت. أنا عشت بسبب وجود الأطفال. فأنا أحببتهم جداً أيضاً، وكنت أفكر فيهم فقط. أنا نفسي يتيم، وكنت أقلق بشأنهم، وتركزت جميع أفكاري حولهم، وعملت كل شيء من أجلهم. علماً بأن أطفالنا متقاربون في السن. ولد أكبرهم في عام 1979، وبعد عام ونصف ولد الابن الثاني، ودعوناه بـ«الأصغر»، ثم ولدت ابنتي، حبي وسنائي، وكانت منذ ولادتها ذات صوت بلوري رنان، مثل خرير نبعي، ولذلك أسميتها شوفدا (النبع - باللغة الشيشانية). إن زوجتي التي كانت طوال الوقت تحلم، كما قلت آنفاً، بخشبة المسرح وحياة الفنانين، اضطرت الآن للعناية بالأطفال. كما أنه لا يوجد مسرح في مدينة كراسنوفودسك الصغيرة، بل توجد فقط دار الثقافة التابعة للمصنع، وحاولت إيجاد عمل هناك، لكنني منعتها من ذلك. عندئذ كانت أغانيها تصدح في المطبخ، وحتى من الشرفة - ما يجلب الفرح إلى الجيران. لكنني منعتها من الغناء في الشرفة. علاوة على ذلك، وبالرغم من أنني لست خبيراً في هذا الميدان، فقد وجدت أنها لا تتمتع بموهبة كبيرة. لكنها لم تستسلم، وفجأة اقترحت أن تعمل في روضة الأطفال، التي كان يرتادها أطفالنا. وقد أيدت هذه الفكرة، ولو أنه اتضح فيما بعد أنها قبلت في الروضة بصفة معلمة موسيقى. وكيف كان بوسعها تعليم الغناء إذا ما أنهت نفسها عاماً دراسياً واحداً فقط في المعهد الموسيقي (تزوجت عندئذ)، وكانت تعزف على الأرمونيكا بصعوبة، وأظن أنها لا تجيد قراءة النوتات الموسيقية. ولكنها هتفت مرة قائلة: «إن ابنتنا ذات إذن موسيقية- سأجعل منها مغنية عظيمة!».

لكنني لم أهتم بهذا الاكتشاف، وطلبت زوجتي شراء آلة بيانو. وأين تجد آلة بيانو في مدينة صغيرة؟ لكن زوجتي طلبت راجية السفر إلى عشق آباد، وبعد يومين ظهرت في البيت عندنا آلة بيانو سوداء صقيلة. وسرني جداً أن ابنتي أحبت في البداية الطنطنة، ومن ثم العزف قليلاً، وفيما بعد جاءت معلمة إليها في البيت. بيد أنني لم ألق بالاً إلى الولع بالموسيقي لدى النصف النسائي من العائلة، لكن زوجتي أعلنت أنه لا يوجد في هذه المدينة الموحشة مدرسة موسيقية. واقترحت:

- لننتقل إلى عشق آباد.

فقلت بدهشة: - ولماذا ليس إلى جروزني؟

كان ذلك في أواسط الثمانينيات، وبداية البيريسترويكا. وكنت أعتقد أن كل شيء لديَّ، أي لدى العائلة، على أحسن ما يرام. فلدينا شقة خاصة بنا، وبيت ريفي في أطراف كراسنوفودسك، واشتريت سيارة، ولديَّ بعض المدخرات النقدية في دفتر صندوق التوفير. فنشرت إعلاناً في الجريدة: أبدل شقة في كرسنوفودسك مقابل شقة في جروزني. ولدهشتي لم يرد أي عرض. وقد أثار ذلك قلقي، فإن مسكني غير قابل للاستبدال. فهل سأبقى وذريتي مرتبطين إلى الأبد بهذا

الساحل الصحراوي؟ وكصلة بهذا الموضوع هتف الأقارب من جمهورية الشيشان: هناك من يتطاول على قطعة الأرض في قريتي في الجبل، التي أحلم بها، وحتى أراها في الحلم، وبدأ البناء أو على وشك البناء هناك. فكتبت عريضة وسافرت، وبعد يومين وصلت إلى جروزني. وقد تبين أن كراسنوفودسك مدينة نائية وموحشة حقاً، وفي أقصى المعمورة، وقد تبدلت أمور كثيرة في البلاد خلال الأعوام الأربعة التي لم أسافر فيها إلى أي مكان. وظهرت إلى جانب شعارات «العلانية، الديمقراطية، البيريسترويكا، الانتخابات» أشكال جديدة لإدارة الاقتصاد، ورجال أعمال ما، وحصل أحد هؤلاء الشباب على ورقة، تسمى شهادة. ونصب في أرضي عربة صغيرة لحفظ الحاجيات، ويعتزم دعوة أجانب، وليس وحدهم، لممارسة صيد الفرائس والأسماك، والقيام بجولات استطلاعية، صفوة القول للاستجمام الفعال لا سيما أن الطبيعة في هذا المكان نادرة.

وعموماً نثرت القاذورات في قطعة أرض أسرتنا، وتكومت حول النبع القمامة والقناني وغير ذلك من سقط المتاع. فاحتدم غيظي بشدة، وبلغ غضبي أقصى درجة فحسب.. ايه، يالها من أزمان ومن بشر وأخلاق.

حالما رأى رجل الأعمال الشاب حالتي النفسية اعتذر فوراً وقال إنه لا يريد التطاول على ممتلكات الغير ولو أنه حصل على بعض الأوراق الرسمية. وحتى جمع القمامة كلها، ونقلها، أما العربة فلم يستطع نقلها - إذ يحتاج الأمر إلى جرار قوي. وهكذا بقيت العربة في الجبال. وقد التقيت رجل الأعمال هذا في جروزني بعد مرور عامين. وعرضت عليه أن أبقي العربة في مكانها مقابل أجور. فأجابني قائلاً: إنني في الأحوال كافة لا أستطيع نقلها حيث إن تكلفة ذلك كبيرة، ولهذا أقدمها هدية لك، وبمثابة تعويض عن الإزعاج.

تلكم هي حال الشباب. علماً بأن العربة لم تكن ذات فائدة كبيرة بالنسبة لي، ولو أنها كانت مزودة بوسائل الراحة كافة. وأمضيت فيها عدة ليال. أي أحمق كنت، فلديَّ مسكن جاهز، ولم أحصل على فائدة منه. ولو.. إن المقاتلين استخدموها في أثناء الحرب الشيشانية الأولى. وبعد ذلك قصفتها الطائرات، باختصار اضطررت لاستئجار جرار كبير من أجل نقل الحطام المتبقي من العربة... حدث ذلك قبل عشرة أعوام. وعندما واجهت في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين الخيار - في الاستقرار في أرض الآباء والأجداد في الجبال الأثيرة إلى قلبي أم العودة إلى عائلتي. بلا ريب، سافرت إلى عائلتي، والتبرير الوحيد لديَّ واحد لا غير - فقبل ذلك حصلت على وثيقة في مجلس إدارة المنطقة تثبت أن قطعة الأرض هي ملكي بحق الإرث. وبودي التأكيد أنني لم أدفع أي رشوة، بل كان هناك ثمة شهود أكدوا حقي فيها.

بودي الإشارة لدى إيراد حصيلة الكلام بأنه لو جرت مقارنة الوضع الراهن بما كان عليه في أيام السلطة السوفيتية فالأفضل ألا تعود هذه الأخيرة. إن الناس في تلك الفترة، كانوا حسب اعتقادي، أكثر إنسانية وطيبة. لكن الزمن - في أواخر الثمانينيات، شهد بعض الإصلاحات، وغياب السلطة، ولهذا استطعت الحصول على وثيقة امتلاكي لقطعة الأرض العائدة لأسرتي.

في اليوم نفسه، بعد الغداء

لديَّ خبران - أحدهما غير سار والآخر سار. والسار هو زوال العطش والشعور بالجفاف، وظهرت الشهية، وجال في فكري أنني أستطيع التهام خروف كامل. والنبأ غير السار - يبعث على القلق جداً، فقد أعلن الطبيب الراديوي، وكنت نفسي قلقاً جداً، - أن الخلفية الإشعاعية ما زالت عالية. لكنه آمل أنها ستكون طبيعية غداً.

ماذا لو لن يسمحوا لي بالخروج؟.. وراودتني فكرة مفادها أنه مهما تحايلت مع نفسي، فإنني أرغب في أعماقي بالسفر إلى أوروبا. لقد أردت أن أعرف في نهاية الأمر كيف يعيش الأوروبيون؟ وأردت أن أرى صديقي ونسيبي مكحل- فهو يعجبني كثيراً. زد على ذلك، وأنا لا أخفي ذلك، أنني أريد رؤية ابنتي. ربما في آخر مرة. أريد أن أراها في الحفلة الموسيقية. إنها حققت هدفها بالرغم من كل شيء. وأنا الآن فخور بها وسعيد جداً لكونها موجودة. بينما لم أستطع رؤيتها قبل عامين، ولا أخفي الواقع، فقد جاءت لحظات أردت فيها أن أقتلها.. ولو، طبعاً، هيهات أن أفعل ذلك. لكنني كنت في سورة انفعال شديدة! أما الآن فهي وحدها فقط، وما كنت سأفعل من دونها؟ حبيبتي شوفدا! نبعي! أظن أنها تشعر بالقلق قبيل الحفلة الموسيقية. للأسف أن أمها لم تعش حتى هذا اليوم. وكم عملت في سبيل إعدادها وتربيتها وقيادتها.

أذكر كيف عدت من أرض الآباء والأجداد وعرضت على الأطفال الصور الفوتوغرافية الجميلة للنبع عندنا والجبال والفجوج، وعرضت عليهم - وهي لحظة مهمة بالنسبة لي الوثيقة التاريخية -«حق ملكية الإرث»، وابتهج الأطفال لذلك بالرغم من صغرهم. وأنا أحاول قدر استطاعتي أن أجذبهم إلى الوطن، واللغة الأم، بينما رددت زوجتي مجدداً:

ينبغي أن نغادر هذا المكان الموحش بسرعة. الأطفال بحاجة إلى تعليم جيد. كما أنها - أي الابنة التي ترافق أمها دوماً، بحاجة إلى تعليم موسيقي، ولا يوجد هنا معلم موسيقى محترم.

لكنني كنت أقول بلهجة قاطعة: - أنا لا أريد ابنة - فنانة.

ولم تتراجع زوجتي عن موقفها وقالت: - ليست فنانة، بل ممثلة - موسيقية، ويجب أن نمنح الأطفال تعليماً جيداً.

فوافقتها: - يجب.

- إذن يجب الانتقال إلى موسكو، أو إلى لينينغراد على الأقل. إذ يوجد هناك كونسرفتوار.

وأكدت لها قائلاً: -لا تستسلمي إلى الأحلام. فمن ينتظرنا في موسكو وفي لينينغراد؟ وحتى في جروزني لم نجد من نبادله الشقة.

- إذن هيا بنا إلى عشق آباد.

عشق آباد - إنها أبعد أكثر من جبالي وجروزني بنحو ستمائة كيلومتر، كما توجد هناك صحراء قره قوم، التي أخاف السير فيها الآن. وقال رئيسي في العمل وهو من جروزني، وتربطنا به وشائج صداقة عائلية، كما لو أن زوجتي أوحت له بذلك:

تجب محاولة الانتقال إلى عشق آباد. أحدس بأن الأزمان القادمة ستكون قاتمة وعصيبة. سننحصر في المأزق هنا - إلى الأبد. وأنا لا أستطيع استبدال شقتي بأخرى في روسيا. لكن إذا ما انتقلت إلى عشق آباد، فهي على أي حال عاصمة، ستزداد فرص تبديل الشقة.

والعمل؟ - فيجب عليّ مثل غيري أن أعيل أسرتي.

يجب التفكير في هذا أيضاً. بعد عامين سأحال إلى التقاعد، ولهذا يجب التفكير في توفير حياة الشيخوخة الهادئة. هل ترغب، سآخذك معي.

الحق يقال إن أحوالنا كانت ستغدو صعبة لولا رعاية ابن مدينتي، وتلاحمنا. وقد وصلت شذرات ما من الحرية القادمة من موسكو وبلغت الأقاليم التركمانية، وراح التركمان يرفعون صوتهم، وراحوا يضايقوننا بجلاء نحن الغرباء. وبدا أنه ليس لدينا أي خيار، لكن وجد خيار مع ذلك. ووجب أن نبيع كل متاعنا وما كسبناه في كراسنوفودسك، ونرحل إلى جروزني. حقاً، إنه زهيد الثمن، ولم أكن أستطيع أن أشتري بثمنه حتى شقة من غرفة واحدة في جروزني. وماذا عن العمل؟ لهذا كانت تراودني الأفكار في ذلك الصيف، والقيظ الشديد، حين لا توجد نحونا حياة والمعيشة مستحيلة، وأقول لنفسي مراراً: يجب الرحيل في الاتجاه المعاكس، إلى الواحة النضرة، والجنة على الأرض - إلى موطني في القوقاز! كما لوكانت نكاية، هي الآن نكاية، أما آنذاك فقد كانت فرحة، فقد تبين كما لو أنهم في انتظاري في عشق آباد. ففي الإدارة العامة لمؤسسة «تركميننفطغاز» بدأوا باستثمار مكامن جديدة - والاحتياطيات ضخمة، وهم بحاجة إلى خبير في الحفر. لكن يجب عليه أن يحل مسألة الشقة بنفسه. فوجدت البديل - شقة مماثلة تقريباً لشقتنا في كراسنوفودسك، بالإضافة إلى البيت الريفي ومبلغ 1500 روبل. أما الآن فإن أجوري الشهرية مع العلاوات والمكافآت تبلغ نحو 500 روبل. لكن تبين أن العمل ليس بلا مصاعب، فوجب السفر باستمرار في دوريات عمل - إلى موسكو وتيومين وسفردلوفسك. وإذا ما رجعت إلى عشق آباد، فإنني أتجول مجدداً في أنحاء تركمانيا كافة، وأتنقل بين المكامن، ونادراً ما أبقى في البيت. وأنا لم ألحظ في خلال هذه التنقلات كيف انهارت بلاد الاتحاد السوفيتي، وتلقيت أول ضربة حين تحولت جميع مدخراتي إلى لا شيء. ذهلت. أظن أنني أخذت لأول مرة أتطلع بقلق إلى مستقبل أبنائي. علماً بأنهم شبوا وكبروا من دون أن ألاحظ ذلك: الابن الأكبر أصبح فتياً، والابنة، ابنتي الذهبية، ونبعي، قد بلغت الحادية عشرة من العمر، فقالت زوجتي:

- لا تقلق. سندبر أمورنا. الأفضل أن تصغي إلى ابنتنا وكيف تعزف وتغني. شوفدا، أظهري إلى دادا ما تجيدين أداءه.

لقد سحرتني وأثارت إعجابي فقد غنت باللغة الشيشانية، وبدا لي كما لو أنني حلقت إلى جبالي - فهدأت وانشرح صدري وابتسمت. فقالت زوجتي:

- هل أعجبك؟ أنا أرى من سحنتك - أنها خلبت ألبابك! هذا هو الفن.. لقد فازت شوفدا بالجائزة الأولى في مسابقة الجمهورية. والآن ستذهب إلى موسكو للمشاركة في مسابقة تشايكوفسكي- هذا حلم!

وصرخت: - كلا! بلا أي مسابقات! إن ابنتي لن تصبح فنانة! مفهوم؟!- وضربت بقبضة يدي على البيانو. يبدو أن الآلة لم تصب بضرر، وهرب الجميع إلى الغرفة الأخرى، بينما بقيت يدي في الجبس طوال شهر تقريباً.

في اليوم نفسه، مساءً

أذهلني العشاء. ما أكثر ما جلب من الأطعمة، وكذلك مشروب الفيتامينات المخفف خصيصاً، إنه مثل زيت السمك الذي تعافه نفسي دائماً، لكنهم يقولون إن شربه واجب، بالإضافة إلى الكافيار الأسود والأحمر - الدقيق الحبات. أنا أعلم بأن هذا كله يتم برعاية نسيبي، أو بالأحرى ابنتي، ولابد أنها تنفق بسخاء ما دام أهل الطب يبدون مثل هذه العناية بي... إنها هتفت لتوه، وأرادت إخفاء نشيجها، لكنني سمعت كيف كانت تكفكف دموعها، مثل نبعي في الشتاء حين يتجمد كل شيء، بينما تغطيه لحية بيضاء من القطع الجليدية المتدلية، لكنه لا يستسلم، فيجري ببطء وبقرقرة. وأنا أيضاً أتظاهر بأنني لا أستسلم، ولا أبدو كاسف البال، وأحاول التأتأة بشيء ما عبر سماعة الهاتف. لكنها أخذت تبكي بحرقة أشد. عندئذ قطعت الاتصال، وكتبت الرسالة التالية - «كل شيء على ما يرام. شكراً على كل جهدك». بينما كتبت هي لي: «هل يصدق أنهم لن يسمحوا لك بمغادرة المستشفى غداً؟» مفهوم، إنها هتفت إلى طبيب الراديو وقال لها - إنني أنفث الأشعة بنسبة عالية. فمن يرغب أن يجلس إلى جانبي؟ كما لن يتجرأ أحد على إخراجي من المستشفى. العيادة أمريكية، وقد أطلعوني على «قواعد العمل»، وكتب فيها إن جميع الفحوصات تتم بواسطة أجهزة الإحساس الكومبيوترية، ويسمح للمريض بالخروج حين لايشكل خطراً لدى التعامل مع الآخرين. أي حينما لا أنفث الإشعاعات. حقاً إن العاملين من أبناء المنطقة، وما داموا يحتالون بطريقة ما في جلب ما لذ وطاب من طعام إلي، فإنهم يمكن أن يجدوا وسيلة ما لإخراجي من المستشفى. لكن.. لكن هيهات أن يرغب أحد ما في تلويث سمعته، ناهيك عن فقدان فرصة العمل.

إنهم أعطوني جرعة حصان حقاً. وأنا أعرف السبب. فقد ساعدت ابنتي الآن، حين أصبح الوقت متأخراً، في إجراء المشاورات مع العديد من الأطباء. وقد تبين أن العملية الجراحية أجريت في مركز علاج الأورام كما كان بمقدورهم ذلك، وكما علموهم في أمريكا، وعمل الطبيب - البيطري في فتل البلعوم كله، وثبت القسطر فيه. بينما لم يستأصل بؤرة الورم، أي الغدة الدرقية كلها، بذريعة أن جزءاً من هذا العضو ضروري للإنسان، الذي سيحيا الكثير من الأعوام... وكيف سيحيا؟! لو كنت أعرف ذلك الآن لما سمحت بإجراء العملية الجراحية لي. لكن هذا كله أصبح في

طيات الماضي ولا يمكن إصلاحه. أما الآن فيجب العمل، وملء المعدة، ما دامت شهيتي طيبة. هذا جيد جداً. وكل شيء بيد الواحد القهار! وغداً سيصبح كل شيء على ما يرام.

في اليوم نفسه، ليلاً

أظن أنني فهمت سبب ارتفاع مستوى الإشعاع لديَّ. فقد تمت التوصية بأن أخضع إلى الدش مرتين في اليوم. أنا أود ذلك لأن جسدي كله يحكني. بيد أنني أخشى ذلك. فهذا أمر ثقيل وخطر جداً بالنسبة لي. لو وجد هنا على الأقل حوض في الحمام لملأته بالماء وجلست فيه. أما الوقوف تحت الدش... فلا سمح الله أن تسقط ولو قطرة واحدة في القسطر. ورئتاي بلا حماية تماماً. وليست المسألة مسألة قطرة فقط، بل حتى الرطوبة العالية خطرة جداً. فأنا لا أستطيع السعال، ناهيك عن النحنحة. وأنا أضطر لذلك، وعندئذ أغدو في وضع عسير، حيث أشعر بالألم في الفتق النصفي ذي الحويصلة الكبيرة والذي أكابده منذ وقت بعيد، ويعيقنى عن ذلك، لكنني لا استأصل الغدة، ولن أسمح بذبحي أكثر. على أقل تقدير ما دمت حياً. أما إذا حانت المنية، فدعهم يستأصلونها، يستأصلونها في معرض الجثث، حيث يثير اهتمامهم كيف تتفسخ أحشائي في جوفي - العلم، الأطروحات، المال. وعموماً لا يمكن الاستغناء عن الأطباء. ولو الأطباء عندنا.. فالحال ومن دونهم جيد، ومن دونهم الحال سيئ أيضاً. وفي النتيجة وكما قال كاتب كلاسيكي روسي - الضعيف مذنب دائماً أمام القوي.. وهو مذنب لأنه يريد أن يأكل برغبة شديدة.

26 يناير، ليلاً

أخذت الحمام بحذر بالغ. وبالأحرى مسحت جسدي بالمنشفة بعناية فترة طويلة جداً - فقد حاولت أن أكشط منه القذارة والأشعة. بعد ذلك تدثرت باللحاف، ورقدت للنوم. أظن أنني نمت نحو ساعة أو ساعتين. ومزاجي طيب. لكن كانت هناك رائحة وسخة وكريهة جداً... وقد أحسست بذلك حينما حاولت ارتداء الروب الذي أعطي لي هنا، أي رائحة كريهة! فهل سأسافر إلى أوروبا بهذه الرائحة النتنة؟ وإلى موطني في الجبال العزيزة؟

قصارى القول إنني أريد رؤية ابنتي، وأن أحضر في حفلتها الغنائية. بالرغم من أنني كنت دائماً ضد هذه الحفلات، لكن الحياة تفرض إرادتها. وأخذت أفهم الآن بأنه لا يجوز العمل ضد إرادة أي شيء وأي أحد. ولا يجوز الوقوف ضد عملية التطور. وكل إنسان يختار طريقه، طريقه في الحياة، ويجب ألا يتدخل أي أحد في ذلك، وحتى الوالدين، بصورة خاصة. وينبغي إرشاده وتقديم النصيحة له ومساعدته وتحذيره. لكن ليس إملاء إرادة أحد عليه. فنحن في القرن الواحد والعشرين، في عصر الحضارة. بينما تعاملت أنا معهم وفق أحكام العادات والشريعة... والمصيبة تكمن في أنني نفسي يتيم. لم أعرف حنان ودفء ونصائح ومثال الوالدين. وأردت وفكرت بما هو أفضل لأبنائي. أنا لم أستجم مرة واحدة في حياتي، ولم أدخل المصحات، ولم أسافر إلى البحر.

كنت طوال حياتي أعمل بمشقة وبإجهاد... أما الآن فأشعر بالأسف. كان الواجب أن أستجم وأسافر مثل جميع الناس العاديين. يجب على المرء أن يتوقف أحياناً ويستجم ويستغرق في التفكير. وثمة حاجة إلى الانطباعات الجديدة، ومعاناة هزة ما... بالمناسبة، أنا لا آسف على أي شيء. أعتقد أنني لم أسئ إلى أي أحد، ولم أسرق أبداً، ولم أتطاول على ممتلكات الغير، وأطعمت أطفالي بالنقود التي كسبتها بعرق جبيني. وآسفاه! في النتيجة لم أحصل على أي شيء، حتى لحياتي، والآن أعيش بعطايا الآخرين. ابنتي تساعدني. على أي حال إنها شاطرة ولم تستسلم. الآن هي شاطرة. وآنذاك؟

آنذاك انهار الاتحاد السوفيتي. وأصبحت تركمانيا جمهورية مستقلة كما يبدو. وقيل لي إن مسؤولاً في مرتبتي يجب أن يحسن اللغة التركمانية، ويجب عليّ تقديم امتحان في اللغة، ومنذ الآن فصاعداً ستكون جميع الوثائق باللغة التركمانية. أنا لا أعرف كيف الحال الآن ولكن في أيامي كانت الإجراءات كافة تتم عادة باللغة الروسية فقط. وصدر الأمر بتعييني بمرتبة أدنى، وتقلص الراتب الشهري، أما العمل فإنه حتى ازداد. والشيء الرئيس إن معاملة الناطقين بالروسية وأنا منهم قد ساءت. وحدث مرة أو مرتين خصام عنيف. أنا لا أفتخر بنفسي لكنني لن أسمح بإهانة كرامتي. فكتبت على الفور طلب الاستقالة، وأقدمت على هذه الخطوة الجريئة، وفي الواقع إنها خطوة يائسة، بعد أن وردت أنباء سارة جداً من جروزني.

فقد حصلت جمهورية الشيشان على ما يكاد أن يكون استقلالاً. وتم انتخاب رئيس- جنرال، أصبح معبودي. واشتد شوقي إلى موطني، لكن ما العمل مع السكن؟ ولم يستجب أحد إلى إعلاني بشأن تبادل السكن أي أحد سواء من جروزني، أم حتى من شمال القوقاز. ووجدت عروضاً من أوكرانيا وأرمينيا وأذربيجان وكازاخستان وجميع سيبيريا تقريباً، لحد كامتشاتكا، لكنني لا أريد الذهاب إلى هناك. فسافرت إلى جروزني من أجل استطلاع الوضع. وهناك حيث اندلعت الثورة تشكلت سلطة جديدة، وعقد اجتماع دائم في وسط جروزني. وكما هو الحال في تركمانيا فإن الروس، أو الناطقين بالروسية، كانوا يبيعون شققهم بصورة جماعية ويغادرون الجمهورية. حقاً، ثمة اختلاف في جمهورية الشيشان، إذ صار يرحل منها ليس الروس فقط بل والشيشان أيضاً.

أنا لا أفقه شيئاً في السياسة، والحق إن أموراً كثيرة كانت تبعث على القلق. أولاً، إن الجو نفسه لا يبعث على الابتهاج - فالشعب عموماً جزع جداً، ويسود غياب القانون. وثانياً، إنني بصفتي رجلاً يعمل بصورة دائمة لا أستطيع أن أفهم: هناك جمهرة من الناس ترابط باستمرار في الاجتماعات - فمن يطعمهم وكيف سيطعمون أسرهم؟ وثالثاً، إن الجميع يتحدثون عن النفط بصفته ثروة وطنية. لكن كمياته قليلة، كما يجب استخراجه ونقله وتصفيته، بينما يغادر الخبراء إلى خارج الجمهورية.... وكان قد بقي لديَّ بعض المعارف في «جروزنفط»- فالتقيت بهم وتبادلنا الأحاديث. وعرض عليّ في البداية تولي وظيفة من أصعب الوظائف وأكثرها مسؤولية - هي رئيس دائرة أعمال الحفر وتم تحذيري - فلدى الجميع مديونية في الرواتب التي لا تسدد خلال سبعة وثمانية أشهر، إذ لا تتوافر النقود لدى المؤسسة، وأنا أعرف إن الوضع نفسه يسود في أرجاء البلاد كافة، وحتى في مقاطعة تيومين، ولهذا وافقت. وثمة إيجابيات كبيرة - إن المساكن في جروزني أصبحت الآن رخيصة جداً. فكتبت طلب إلحاقي بالعمل بعد فترة شهر لحين عودتي من عشق آباد. وقد تبين أن المشاكل في عشق آباد أكثر، والمساكن أصبحت رخيصة أيضاً، لكن شقتي لا بأس بها، والطلب

متوافر على السكن، وثمنها مناسب حسب معايير الأسعار في جروزني. لكن تشكلت في تركمانيا سلطة جديدة أيضاً، وحصلت على الاستقلال، إنها أزمة تفكك الاتحاد السوفيتي ذاتها، وتم التحول بسرعة إلى استخدام العملة المحلية- المانات، الذي لا قيمة له خارج حدود تركمانيا، والتضخم يزداد بقفزات، ولعل أفظع شيء هو أن المانات غير قابل للتحويل إلى العملات الأجنبية، وإذا وجدت دولارات، وقد رأيتها لأول مرة في حياتي، فإن إخراجها محظور بصورة قاطعة من تركمانيا. ويبدو أنني أقدمت لأول مرة في حياتي على اقتراف جريمة، ولم يكن لديَّ مخرج آخر. فبعت الشقة مقابل المانات وجازفت بتبديل جزء منها إلى دولارات في السوق،، بخوف وبمعاناة القلق، - سبعة آلاف دولار. ولم أفلح في إيجاد المزيد من الدولارات، كما اتسم الأمر بخطورة، وأصغيت إلى نصيحة زوجتي، ولم يكن ذلك عبثاً، واشترينا ببقية الماناتات مصوغات نسائية - من الذهب والمجوهرات، وهو ما لم نمتلكه أبداً من قبل...

والآن واجهنا أصعب الأمور - عبور الحدود. كان بوسعنا السفر مباشرة من عشق آباد إلى موسكو، لكنني وضعت آمالي في معارفي في كراسنوفودسك وقررت السفر في عبارة في البحر. أنا لا أعرف الوضع حتى الآن بدقة، وأخشى أن أكون على خطأ، لكن معارفي هؤلاء أبلغوا رجال الجمارك بالوشاية بنا، ولا يمكن أن يكون الأمر غير هذا: فإنني أخفيت العملة الصعبة بشكل جعل رجال الجمارك التركمانيون يفتشون أمتعتنا خلال ساعة تقريباً، لأنهم كانوا متأكدين من وجودها. وعموماً فقد أخلي سبيل زوجتى وابنتي، بما لديهما من ذهب، وكذلك الولدين، بينما تم احتجازي. والآن قد أضحك أحياناً، فإن رجال الجمارك ربما أخلوا سبيلي أيضاً آنذاك، طبعاً، بعد مصادرة عدة أوراق بنكنوت، لكنهم كانوا ضليعين في معرفة الدولارات، بخلافي أنا، وقد تبين أنني أردت تهريب دولارات مزيفة كلها. وعندئذ بدأت المشاكل. فأنا لست مهرباً فقط بل ومزيف أوراق مالية أيضاً...

إنني دخلت السجن أو زنزانة العقاب في الجيش مرتين أو ثلاث مرات، في أثناء فترة الترحيل، وفيما بعد في الجيش. وكنت أعرف أن التركمان يكونون أحياناً بلا إحساس، لكنني حتى لم أتصور أنهم يمكن أن يتصفوا بمثل هذه القسوة وانعدام الإنسانية، في مثل هذه الظروف في أثناء احتجازي والتحقيق معي. فقد احتجزت تحت السماء المكشوفة أ ي تحت حرقة الشمس في الصيف والبرد في الشتاء - ولم يكن هناك سوى حاجز من الشباك، وتمت معاملتي كما لو كنت مريضاً مصاباً بمرض معد، وكلباً مصاباً بالسعار. تم استجوابي، ولكن لم تجر أي محاكمة. ويبدو أنهم سئموا مني فحسب، وأطلق سراحي بعد مضي شهرين- وسلموني الملابس وجواز السفر. إنني حتى لا أستطيع أن أتذكر كيف لم أستطع مغادرة كراسنوفودسك خلال أيام طويلة - لم أستطع استدانة المال من أي أحد، ربما لأنه أصابهم الفقر حقاً، وإما لأنهم لم يرغبوا في التعامل معي، بصفتي مهرباً ومزيف النقود. انتظرت وصول تحويل النقود من جروزني. ولدى سفري كنت على قناعة راسخة بأنني لن أعود إلى تركمانيا أبداً. فهل راودني الأسف على الأعوام التي قضيتها هنا؟ لا أعرف.. من جانب تم ترحيلنا إلى آسيا الوسطى في ظروف طارئة، لكنني عدت إلى هنا فيما بعد طواعية، من جانب آخر ولد وشب أطفالي هنا. وعشت وعملت هنا بطمأنينة، وكسبت جيداً. لكن انهيار الدولة العظمى - قد أوجد المصاعب للجميع، وما كان يمكن أن يحدث غير هذا. وبدا كما لو أن الحياة توقفت بكل معنى الكلمة، وانقلب كل شيء رأساً على عقب وتغير الوضع. كانت تلك الفترة عصيبة جداً

بالنسبة لي. لو كنت أعرف ما ينتظرني لاحقاً لضحكت حقاً. بالمناسبة، يجب الضحك والابتهاج في كل يوم! فكل شيء يمضي ويمر بلا رجعة. كذا الحال في هذه الليلة. الفجر سيبزغ قريباً. ما هو مؤشر جهاز الإحساس؟ هل سأغادر المستشفى اليوم؟ أنا قلق بالرغم من كل شيء. يجب أن أنام وأنال قسطاً من الراحة. الجسم المعافى فقط يمكن أن يتغلب على الأشعة.

هل يصدق أنني سأرى ابنتي بعد مضي يومين! وحفلتها الموسيقية... النوم. لا، أريد قول كلمتين أخريين. اليوم سأغادر المستشفى. سيخرجني طبيب الراديو منها حتى من أجل مصلحته نفسه. فمهما كان إن العام الجديد على الأبواب، وأنا أعرف بأنه يجب أن يسافر إلى أمريكا، إلى ميامي، فهناك زوجته وابنتاه وشقته، وهنا الآن يكسب رزقه فقط. وحسناً يفعل.

.. أما هذه اليوميات فستبقى هنا. وإذا ما أمسك بها مريض تعيس مثلي، وربما سيقرأها فأطلب منه المعذرة مقدماً. فأنا أفعل هذه كله بسبب العطالة. أنا أقتل الوقت. وإذا ما توخيت الصدق - فأنا أستعد. وأكتب ما يشبه التقرير في صفحة الأعمال. التقرير عن حياتي، بمثابة تبرير، واعتراف. وربما، كما يقال، أحاول أن أفرش الحصيرة. عبثاً. وداعاً. ليمنحكم الرب الصبر والسلام والطيبة والانسجام والعافية. وتمسكوا بحبل الصبر! وأتمنى لكم أيضاً بأن تحلموا مثلي بالمستقبل، فهو رائع! أنا أؤمن، وحتى لديَّ قناعة أكيدة بذلك. وهذا ما أتمناه لكم من أعماقي.

آمين!

في اليوم نفسه، مساءً

أيها الرفيق المحترم! يا مريدي! إذا قلبت صفحات يومياتي، فلا بد أنك قد أدركت بما حدث. فلم يخرجوني من المستشفى. وأعتقد أن طبيب الراديو والممرضة قد تكدرا بقدر لا يقل عن كدري. ولو أنهما السبب فيما عانيت من آلام طوال اليوم. ففي ليلة أمس لم أنم. وأزلت قلقي بهذه الكتابات. ومن ثم، بعد الفطور، ضاقت الدنيا في عيني. وهتف طبيب الراديو- مستوى الإشعاع فظيع. علماً بأنه يبدو متهلل الأسارير وفرحاً دوماً، وإذا به يجدني مع إشعاعي. وكما أفهم فإنهم لا يستطيعون تغيير علامة تأشير الكومبيوتر، ولا يحق لهم إخراجي من المستشفى. وبالرغم من غيظي، فقد حاولت التماسك، لحين هتفت ابنتي. فبكت. ثم هتف مكحل. لكنني كنت أجيب بالثأثأة، كما لو أنني أريد تهدئتهما. وبعثت رسالة، أطمئنهما فيها مجدداً. وعموماً، انهارت جميع الخطط. ستقدم الحفلة بلا حضوري، وهذا أمر جيد، فمن شأن ذلك أن يكون عذاباً لي. أنا الآن أفكر في أمر آخر، أفكر في وضعي - إنه فظيع. وحالما علمت بأنهم لن يسمحوا لي بمغادرة المستشفى، بدأت فوراً «بمقارعة» الجميع، و«إطلاق النار» على الجميع. وحتى ارتقيت حافة النافذة «وأطلقت النار» على كل من رأيته في شارع بروفسويوزنايا. طبعاً، كنت في حالة إحباط نفسي، استمرت فترة طويلة جداً، وأنا أتذكر شيئاً ما، وربما، لا أتذكر أموراً كثيرة. وفي مثل هذه اللحظات أبدأ بإرسال الرسائل في الهاتف النقال إلى الجميع بلا استثناء. إنها في بعض الأحيان سخافات مختلفة، والأسوأ - تهديدات. في العشاء أتناول حبتي دواء، وهذا أيضاً ما لا أتذكره أو أتذكره قليلاً، ويبدو أنني أبتلعتهما بصورة تلقائية باستخدام المضخة الكهربائية. غفوت ساعة أو أكثر ثم نهضت، وحاولت تلهية نفسي بالكتابة، كما حاولت تهدئة نفسي،، ومع ذلك كانت عيني تبحث عن هدف ما، وترى في كل مكان علامة (+) داخل دائرة.

يجب عليَّ أن أهدئ نفسي وأن أغفو. يجب أن أكون في انسجام مع نفسي. يجب! يجب أن أكون في انسجام مع الجميع. كم أتمنى أن أستطيع الكلام، وأن أسمع صوتي، وأقوالي المطمئنة، لكن لن يحدث ذلك أكثر. وبقي لديَّ شيء واحد هو الكتابة، وصياغة أفكاري بمعونة الحروف. الانسجام! الطمأنينة. اوتوترينينغ!: يجب أن أرقد في الفراش. والنوم!

27 ديسمبر. عند الفجر

ربما سيسمحون لي بمغادرة المستشفى اليوم؟ الأشعة... لماذا اعطوني حبتين دفعة واحدة؟ وهناك النسيب أيضاً. جاء من أوروبا من أجلي. أظن أنه يرغب أيضاً في حضور الحلفة الغنائية لابنتي. فهي على أي حال حدث بارز! وهائل! وبوسعي الآن فقط أن أعترف، بلا مكر، بأن لديَّ رغبة شديدة في حضور الحفلة، ورؤية انتصارها بأم عيني، ومشاركتها هذه الفرحة. لكنني أحمق، ومتوحش، وكنت طوال حياتي أعارض حفلاتها، وأخشى أن تصبح فنانة، وأخشى تلك الطقوس

الشفافة على خشبة المسرح. ولكن.. أنا أكتب دوماً «ولكن» لأنه لا يمكن خداع القدر، وكان الواجب أن أفعل العكس - أن أنمي الأطفال، وأن أمنحهم المزيد من الاستقلالية والفعالية. فقد كان لدي مثال يحتذى به.

عندما كنت في الحبس في تركمانيا، وصلت أسرتي بشكل من الأشكال إلى جروزني، لكن لم يوجد هناك سكن ولا مصدر للعيش. وأقاموا عند ابن العم جيخو. وحسناً أن فكرت زوجتي بتعليم الأطفال فأرسلت الجميع إلى المدرسة، كما أرسلت ابنتي إلى المعهد الموسيقي وصارت تتألق في الأوساط الموسيقية. وهاهي شوفدا تشارك في حفلة موسيقية غنائية، وكان هناك كثير من الضيوف من بينهم الرئيس الشيشاني الجديد، الجنرال، - أما وزير الثقافة الجديد فقد أدرك الوضع فوراً، فدعا شوفدا وأمها إليه وقال إن من الواجب تطوير البنت والهدف الجلي لها - هو الالتحاق بالكونسرفتوار. وعندما علم بمشاكلنا العائلية بذل أقصى جهده، وقدر استطاعته، فخصص للعائلة غرفتين مجاناً في «دار الممثل».

إن «دار الممثل» هي بمثابة سكن عمومي أو فندق. وفي الختام إننا غادرنا جروزني حينما كنا نقيم في سكن عمومي ونعود إلى جروزني بعد مضي عدة أعوام للإقامة في سكن عمومي. هذا تقييمي اليوم لما حدث آنذاك، في الوقت نفسه فقد كان ذلك عوناً كبيراً وخيراً عميماً بالنسبة لي ولعائلتي. هذا هو معنى وطننا، والوزير. أما ابنتي؟! آنذاك وبعد التخرج ما يسمى الكونسرفتوار وبدء حياتها الفنية أنا لم أسمح إلى أي أحد حتى بالإشارة إلى ذلك. كنت آنذاك شاباً، مفعماً بالقوة، وبالقدرات المهنية، وأصبو دوماً إلى العمل. ووجب عليّ إطعام عائلتي، ولم أعرف أي هدف آخر في الحياة. فذهبت فوراً إلى «جروزنفط»، عارفاً بأنني أقبل أي عمل، وأروني طلبي القديم - كرئيس لمجموعة الحفر، والخبراء يهربون، والمديونية من الرواتب تربو على العام. لكنني لم أعرف عملاً غير هذا، أنا من أهل النفط، وما دمنا نستخرج النفط، والسيارات تتنقل بواسط البنزين - فمعنى ذلك أن النقود موجودة حتماً. التحقت بالعمل بروح التفاؤل هذه. فوجدت هناك الفوضى ضاربة أطنابها، وتم تحطيم كل شيء، وجرى النهب، وبيع كل شيء، وهذا مفهوم: لا تدفع الأجور- لا يوجد عمل، لأن استخراج النفط قد تقلص بشدة، أما النفط الخام الذي يضخ إلى المصنع فهو يصل بمقادير ضئيلة. وفي اليوم الأول اكتشفت وجود خمسة عشر ثقباً في خط الأنابيب قام به مجهولون، ويسرق النفط في الشاحنات من هناك ليلاً. وما أكثر ما يراق من النفط على الأرض عندئذ.

ولم يفكر أي أحد بحماية البيئة: إذ كان يتم تكرير النفط المسروق في أجهزة بدائية صنعت يدوياً - ويتم الحصول على بنزين رديء ووقود الديزل الذي يباع بأسعار زهيدة، أما القسم الأكبر من النفط الخام فيرمى بعيداً فحسب. وأدركت مثل جميع العائدين إلى الجمهورية من الأماكن الأخرى، أن النهج الذي اختارته السلطة الجديدة يقود إلى السقوط في الهوة. وصارت زوجتي تئن بصمت وهدوء. لكن هنا وطني، وإلى أين أذهب ومن يحتاجني؟ بينما لا تتوافر النقود - إننا نحيا، أو بالأحرى نتواجد، من موارد بيع المصوغات التي أشتريناها في عشق آباد، لكن لا يرغب أحد في شرائها، وإذا ما اشتريت فبسعر يعادل المانات التركماني، فقد تدهور سعر الروبل الروسي أيضاً. والتضخم جنوني. بينما يجب عليّ توفير الطعام إلى عائلتي. ولم يكن بوسعي التفكير في أي شيء

سوى كسب الرزق بالعمل، وأنا أجيد العمل، لأن وجودي طوال حياتي، ومنذ الطفولة، كان يتوقف على هذه الصفة فقط.

ما حدث كما في الأزمان السابقة، ولا ما يجب أن يكون من حيث الفكرة، فإن مجموعتي لحفر الآبار في مجال إنتاج النفط احتلت المرتبة الأولى. لكن لم تدفع لنا الأجور كالسابق ووعدونا بأنهم سيدفعون في الأحوال كافة، وزعموا بأنه يجري تحويل النقود الآن، وقالوا: اصبروا. ونحن صبرنا. لكن سخطنا كان لسبب آخر: فقد كان النفط الذي ننتجه ونضخه بواسطة الأنابيب إلى المستودعات كان يسرق بلا عقاب. وطلبت مراراً من هيئة الأمن الداخلي ومن ثم الشرطة اتخاذ التدابير. وتم اتخاذها. فجاء اليَّ شخص ما وعرض عليّ النقود، وقال إن الذين يسرقون النفط من الأنابيب سيدفعون لي شهرياً ما يشبه حصتي من النفط المسروق. وطردت هذا الوقح فحسب. وأخذت أتجول في الليل في مسار الأنابيب. وقد تبين أن قطاع الطرق هؤلاء يحملون السلاح. لكنني لم أتخذ الحيطة، فحصلت على علقة ساحنة، وتم نقلي إلى المستشفى مصاباً بارتجاج في الدماغ.

أنا أكتب اليوم عن هذا بهدوء، وحتى بنوع من الفخر والاعتزاز بالذات، لأنه في ذلك الوقت كان بوسع أي شخص حماية نفسه. وكنت أعرف من اعتدى عليّ بالضرب. وقدم لي الدعم القوي أقاربي، وبالأخص أبناء العم جيخو. كلا، نحن لم نهاجم أي أحد بالضرب. فقد بقي الأتيكيت التقليدي. وقد اعتذر مني المشايخ وكثير من الغرباء فترة طويلة، حتى إنني نفسي شعرت بالخجل. وقد غفرت للجميع إساءتهم، لكنني لم أسحب شكواي في النيابة العامة - يجب أن يحاسب كل فرد بموجب القانون.

لكن إما أن القانون لم يعد له وجود أصلاً، أو أن المدعى عليه قد دفع رشوة، فلم تجر أي محاكمة وتحقيق، وقيل لي إنه بموجب العادات والشريعة تمت المصالحة بيننا.

وقلت: - نحن تصالحنا لكنه يجب أن يلقى العقاب بموجب القانون... وسيعاقب حين تعود السلطة السوفيتية إلى هنا مجدداً.

وأبدى الجميع دهشتهم: هل ستعود؟

فأكدت لهم قائلاً: ستعود.

وأسبق الزمن وأقول إنها ستعود لكن بشكل آخر. فقد اندلعت نيران الحرب. وتم استدعائي للعمل، فالحرب هي الحرب، لكن يجب استخراج النفط، وقد أصبح النفط غاليا جداً في ذلك الوقت. لكنني لن أتحدث عن هذا. وبينما تواصلت الحرب وسط الخرائب، ذهبت إلى النيابة العامة، إلى النائب العام الروسي، وهو من أبناء سيبيريا. وأبرزت الوثيقة الطبية وإفادات الشهود وغير ذلك من الوثائق التي احتفظت بها بعناية. أنا نفذت فقط الوعد الذي قطعته على نفسي وحتى نسيت الأمر، لكن تبين فجأة أن المعتدي عليّ القديم قد أدرج اسمه في الكومبيوتر وتم احتجازه في أحد حواجز التفتيش. أوي، كم أبديت أسفي على ذلك. إن هذا لص صغير، والسرقة حرام، ومهما سرق من

النفط، فقد عاش في كوخ حقير. وتم قصفه بالقنابل فيما بعد. بينما وجب عليّ السفر أربع مرات إلى ستافروبل لحضور المحاكمة، وفي كل مرة كنت أتراجع عن إفاداتي شفهياً وتحريرياً، والتأكيد على أنني عفوت عنه منذ وقت بعيد، لكنه أدين بسبب سرقة ممتلكات الدولة - وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة أعوام. تلكم هي السلطة السوفيتية؟!

في اليوم نفسه، مساءً

مفهوم، لم يسمح لي بمغادرة المستشفى اليوم أيضاً. وكان هذا اليوم عصيباً جداً، وشعرت بالخجل الشديد. اللعنة على كاميرات المراقبة هذه! وبدا أن المرء يجب أن يخاف الرب وحده، فهو يرى كل شيء، وهاهم أولاء يراقبونني. كان طبيب الراديو المرح دائماً مغتاظاً جداً اليوم. وكيف لا ولديه تذكرة سفر غداً، بينما لا يفارقني الإشعاع. وأمطرني طوال الصباح بالمكالمات، وأرسل حبوباً نادرة جداً وغالية الثمن حسب قوله لتناولها مع الغداء. وبعد ذلك سألني:

- على من تطلق النار وتحدد الهدف باستمرار؟ أنتم الشيشان قد أصابكم هوس الحرب. كفى قتالاً! اهدأوا! إن مستوى الإشعاع سيتصاعد بمثل هذا المزاج والتوتر حتى بلا تناول حبوب.. كفى قتل الجميع، وممارسة لعبة الحرب كالطفل.

بم أجيبه عن هذا؟ إنني حتى لم أغمغم جواباً عن ذلك. دسست الحبتين في معدتي باستخدام الموتور تحت رقابة كاميرا الفيديو واستشارة طبيب الراديو - وشعرت بحرقة شديدة في أحشائي كلها. وبعد ذلك شربت الماء من الحنفية، كما لو أنني أخمد الحريق. ولحسن الحظ زالت هذه الأحاسيس بسرعة، وشعرت بميل إلى النوم. لكنني لم أغفُ لأنني نهضت لدى سماع أول رنين للهاتف - إنها ابنتي، شوفدا، مثل نبعي العزيز، تنتحب بهدوء. أنا أفهم المشكلة- فلديَّ تذكرة الطائرة وكذلك لدى صهري للسفر في الرحلة الليلية إلى فيينا. ولا يوجد لديَّ اتصال مع صهري، وكذلك مع الآخرين، فأنا محفوظ كالمعلبات، فأرسلت إلى ابنتي ونسيبي رسالة، وحتى الأمر - ليسافر صهري لحضور الحفلة الموسيقية! ما أشد نفوري من هذه الحفلات. بينما كنت أحلم جداً الآن في حضورها- وأسفاه!..

- أوه، إن باب قفصي وصومعتي قد انفرج قليلاً - جاء العشاء.

اليوم نفسه، مساءً

إن تناول الطعام بالنسبة لي - يعني تناوله، فعلاً. ويجب ألا تراود أحد فكرة أنهم يطعمون المريض جيداً ما دام يدفع مبالغ ضخمة. لا سيما أنهم يطعمونه حسب وضعه الصحي أو بموجب حمية معينة كما في حالتي. كلا، إن الطعام من الدرجة العادية في أرخص الرحلات في الطائرة هو وجبة عمومية، لكي لا يموت المرء جوعاً. علماً بأن الأهل يدفعون بالإضافة إلى أجور العلاج مبلغاً كبيراً، ولهذا فإن الأثرياء يحسدونني على وجبة طعامي.. لكن المصيبة تكمن في أنني لا أستطيع تناول ذلك دفعة واحدة، ولا يستطيع ذلك حتى المرء في أتم عافية، بينما لا توجد هنا ثلاجة، إذ لاتنص على هذا قواعد المستشفى. لهذا يفسد الطعام. وأنا «أنفث الروائح» نفسي، بينما تضاف إلى ذلك هذه الروائح. ولهذا أحاول ملء وعاء القمامة ببقايا الطعام حين يؤخذ بعد تناول الطعام. ويحدث أحياناً أن يبقى الوعاء في مكانه، فتأخذ الممرضة بدق الجرس وتطلق الشتائم. في البداية جعلني ذلك حتى أضحك. أما الآن فإنني أفقد أعصابي، وأبدأ بالثأثأة وخبط الباب - يرى ذلك جميع ساكني المقصورات، فيحذروني من أنني إذا أثرت ضجة مرة أخرى فلن يأتي أحد -لأنني ما زلت خطراً بالنسبة للاتصال، وقد يطلقون غازاً مخدراً ما - وعندئذ تحل النهاية، فالتزم الهدوء في لحظة خاطفة. إنهم لا يطلقون هذا الغاز العملياتي الآن. لكنني حين رقدت في المستشفى في المرة الماضية أطلقوا الغاز في ردهة مجاورة، ولم أستطع تحمل ذلك - إنه مثل السم، وبقيت أذرف الدموع طوال أسبوع. بينما أنا الآن بأمس الحاجة إلى العينين. أنا بحاجة ماسة إليهما. فسأطلق النيران، يجب عليّ أن أطلق النيران، وحاشا الرب أن أخطئ في الإصابة من الطلقة الأولى، وفي أقصى الحالات من الطلقة الثانية- عندئذ تذهب الحياة كلها هباء...

كلا. سأستطيع ذلك، ولن أخطئ في الرماية.

في اليوم نفسه، عند منتصف الليل

يبدو أنني على شفا الجنون أو جننت فعلاً.. هذا بسبب الوحدة. ولو.. إنني أحب الوحدة، وأتجنب الناس. أنا لا أحتاج إلى ذلك في موطني في الجبال حيث لا حاجة إلى الكلام، أو بالأحرى إلى الثأثأة. هناك -نبعي وجبالي وفجري وهوائي وشمسي وقمري وكذلك نسوري- إنهم جميعاً يصغون إليَّ، ويفهموني، ويتواصلون معي، ويوحون إليَّ بالإلهام، ويهدئوني، بقولهم: اغفر للجميع، فالخالق عز وجل فقط يصدر حكمه على الجميع!- أما أنت فتطلع نحوك، أي سناء، وسرمدية، وعظمة. هنا تهب الأعاصير والعواصف، وكذا الحال في حياة البشر، حيث تهب أحياناً مثل هذه العواصف، وينطلق الصفير ويهطل المطر العاصف والبرد والثلوج، ويبدو أن هذه العواصف ستجرف وتغسل وتحمل معها كل شيء، لكن كل شيء سيزول، وهذه العواصف تطهرنا فقط، وتجعل الهواء نقياً، والأحجار لامعة، وكتل الجليد نضرة، بينما نحن نحيا كما قبل ألف عام من ذلك في انسجام ووفاق، وأنت أيضاً عش هكذا، عش في انسجام معنا ومع نفسك.

علماً بأنني عشت بهذا الشكل، عشت بالرغم من كل شيء، وحتى في تلك الحال وحتى وجدت متعة في الحياة.. حقاً.. حقاً، حدث أحياناً كما في العاصفة في الجبال، أن سادت أزمان من الظلام والاضطراب النفسي، وعندئذ كنت أتناول «بندقيتي» وأوجه ماسورتها إلى كل شيء، وأطلق النار على الجميع- أنا في مرحلة الاستعداد، الاستعداد للمعركة الوحيدة والرئيسة في حياتي. الانتقام، الريفانش، الجزاء.

كلا! سأصاب بالجنون في هذه الصومعة. يجب أن أهدئ نفسي. هاتوا العقاقير!

28 ديسمبر، صباحاً

في الليل تناولت جرعة مزدوجة من الدواء. وبعد ذلك حاولت ممارسة تمارين الأوتوترينينغ. يبدو أنني هدأت، وهمدت فنمت. تم إيقاظي بجهد لتناول الفطور. هتفت ابنتي، لديها اليوم الحفلة الغنائية، إنها تبكي، وتقول إنها تتحسس وضعي. وأنا في وضع سيئ فعلاً. ويعقب كل نوبة وهوس معاناة الآلام، وبالأخص في الرأس. عندئذ هتف طبيب الراديو. وقال إنه لا يثق بجهاز القياس الداخلي لأن مستوى الإشعاع الآن ما زال عالياً جداً. وسيتم توصيلي بجهاز القياس الرئيس. ويجب التهيئة لذلك. يجب التزام الهدوء. فلا يصدق إنهم سيبقوني هنا في العام الجديد.

في اليوم نفسه، ليلاً

شيء مخجل. أنا أشعر بالخجل الشديد. لقد فقدت أعصابي... إنني حتى لا أذكر بعض ما حدث... وحتى لا أعرف كم مضى من الوقت. وفيما بعد استعدت في ذاكرتي كل شيء، لا سيما أن هذه العملية البسيطة قد أنجزت...

إن بابي يفتح بصورة أوتوماتيكية، فمشيت في الممر المألوف المعتم والفارغ، وولجت غرفة مفتوحة، وجلست في المقعد. أمامي حاجز زجاجي، طبعاً من المفهوم إنه ليس من الزجاج العادي. ورأيت في مقعد وراء الجدار طبيب الراديو الذي يعالجني. لقد اعتدت أن أراه مرحاً ومبتسماً، ولكن في هذه المرة كان عبوساً جداً وقد أربد وجهه، وحتى كان غاضباً. ووجه نحوي جهازاً ما. وبدا لي أنني أرى أو يخيل لي بأن أشعة الليزر اخترقت جسدي.

وراح الطبيب الراديوي يضرب الطاولة بقبضته، ويتقافز، ويصرخ، ومفهوم إنه يطلق الشتائم. ولوح بيده لي كي أرفع سماعة الهاتف المعلقة على الجدار، لكن لم يكن هناك أي شيء أكثر من ذلك.

وشتم مرة أخرى قائلاً: - انزعوا ملابسه. ربما إن الأشعة من الملابس.

نزعت الروب وما يسمى القميص الداخلي، ورأيته يواصل الصراخ ويشير بيديه:

انزعوا كل شيء!

شعرت بعدم الارتياح وبالارتباك. عندئذ أراني ما يجب أن أفعله. - شيء فظيع! يبدو أنني التزمت الصبر، وتنرفزت للغاية، والمصيبة أنهم يبقوني في الصومعة بالملابس الداخلية فقط وهي من قماش ورقي ما. ويتألف من هذا القماش الورقي جميع الفراش والأغطية والوسائد. نزعت ملابسي، ومزقت السراويل.. وفيما بعد شاهدت نفسي في الزجاج - مسخ وهيكل عظمي هزيل. أنا معوق تعيس، تعيس! بينما أريد الانتقام من أحد ما. وكيف؟ ورأيت طبيب الراديو يوجه الليزر نحوي كالمدفع. وتراءى لي بغتة أنني سأفارق الحياة، - أنا المسخ البشع، زد على ذلك العاري. عندئذ أخذت أرتدي الملابس في عجلة، وتملكني الغيظ، ومزقت ما يسمى بالملابس. أما ذاك الأحمق فواصل توجيه الليزر نحوي، ويبدو أنني فقدت أعصابي عندئذ، وأخذت «أطلق النار» عليه. فقفز صارخاً، وصار يلف أصبعه على صدغه ليظهر لي أني مجنون.

أنا لا أتذكر ما حدث بالضبط، لكنني حاولت كما يبدو تحطيم الحاجز الزجاجي ذاك، على أي حال، بقيت آثار زرق في يدي. وبعد ذلك انطلقت إلى الممر واندفعت نحو باب الدخول. هنا أذكر بالضبط بأنني ثبت إلى رشدي، فقد أدركت بأنني عار تماماً. ورجعت إلى غرفة المعاينة، وأخذت ملابسي الورقية وانطلقت نحو صومعتي- باعتبارها مكان الخلاص، وحينما أغلق الباب الثقيل تلقائياً، شعرت بنوع من الارتياح، وعندئذ رن جرس الهاتف المحلي.

زعق الطبيب الراديوي قائلاً: - إن الأشعة لا تزول بمثل هذا الاضطراب النفسي. هل تريد أن تعالج أم لا؟ أنا لا أستطيع السماح لك بمغادرة المستشفى بمستوى الإشعاع هذا لديك. ويرون في المركز الأمريكي أيضاً مؤشرات الكومبيوتر بنظام أون-لاين. إنني أتسكع هنا بسببك ولا أستطيع السفر إلى عائلتي لاستقبال العام الجديد.

- أيووو!

أجبت بفظاظة بالغمغمة في السماعة، وأردت حقاً أن أطلق شتيمة وطبيب الراديو نفسه علمني هذه الشتائم، وهذا مفهوم فقط. ألقيت السماعة. رن الهاتف مرة أخرى، فرفعتها مجدداً كما لو كان تنفيذاً لأمر ما:

- البس ملابسك على الأقل، فالنظر إليك يبعث على الاشمئزاز. ألقيت السماعة، وأطلقت همهمة صماء. أردت أن أنتزع من الصومعة من السقف، فأزحت السرير، وصعدت فوقه، لكنني لم أستطع بلوغ الصومعة، فسقطت، وأصبت بكدمات، لكنني لم أستسلم. أخذت أقذف الكتب وأجهزة الهاتف الموجودة في ركن الغرفة على الصومعة، وعندئذ سمعت حفيفاً ما - فقد تدفق من تحت البلينتوس بخار أخضر نتن بشكل ألسنة سامة...

ثبت إلى وعيي عندما شعرت بالبرد. فقد كنت راقداً على الأرض عارياً. وكانت السماء جهمة ما زالت تهيمن في العاصمة التي تستيقظ مبكراً عشية العام الجديد، وثمة ضجيج في الشارع. وتردد في أذنيَّ عويل وصخب مثل هدير الأمواج في البحر، ويبدو أن قلبي المضطرب يدق بصورة رتيبة. أحسست بصداع في الرأس، وأنفاسي ثقيلة، بينما أريد أن أحيا، أريد أن أحيا فقط لأنه يجب أن أنتقم من أجل الابن، والأبناء وجميع الأهل والأقارب - وليس غيرهم. وأنا أعرف بأن الإنسان بمثل اتجاه التفكير هذا لن يشفى فقط، بل لو يستطيع الحياة، فستجتاحه مرة أخرى النوبات العصبية والاضطراب النفسي. بينما يجب أن يكون في انسجام مع الجميع، ومع ذاته والعفو عن الجميع. يبدو لي أن هذا المغزى مفهوم. لكن هذه الطمأنينة ليست أيضاً الحياة، إنها مجرد معيشة الدهماء، حينما يستطيع أي أحد، وكل من هب ودب، ومن يمتلك السلطة والمال والسلاح، أن يفعل بك، والأسوأ بذويك، كل ما يريد - إن هذه تعتبر عبودية تقريباً أو وضع الأقنان. كيف يمكن الاستسلام إلى هذا الوضع، والعيش، العيش في انسجام؟ وهل هذا واجب، واجب! ماذا لو هتفت ابنتي.. بالمناسبة إنها هتفت. ما أكثر المكالمات بلا رد.. كيف كانت الحفلة؟ وأنا ألم أقم هنا حفلة؟ الجميع تسلوا بالنظر إليها.

لم أكتب هذا كله. شيء مخجل.

29 ديسمبر. صباحاً

يبدو أنني لم أثب إلى رشدي خلال فترة طويلة بعد تلك النوبة العصبية، ناهيك عن الهجوم بالغاز. ورأيت في الهاتف النقال الذي يرن رقم هاتف ابنتي فاستجمعت قواي فهي تدرك وضعي من تأتأتي وأنفاسي. علماً بأن حالتي أصبحت أفضل بكثير. الحفلة كانت رائعة. عزيزتي شوفدا، نبعي، إنها راضية جداً، وأنا مسرور جداً، وحتى سعيد. وتحدثت معي فترة طويلة، وروت كل شيء. ثم انخرطت في البكاء - إنها تأسف لأنني لم أحضر هناك، وأنا أعرف كم كانت ترغب أن ترى أمها ذلك كله لو عاشت...

بعد ذلك هتف مكحل. أعرب عن سروره أيضاً. وذكرني مجدداً، بأن لدى شوفدا الآن فترة إجازة اضطرارية، ربما حتى لمدة عام. ونحن لم نناقش التفاصيل، هذا غير مناسب، حتى لم أدون ذلك في يومياتي، لأنني أخشى وأخشى عيون الحساد. بالمناسبة، من سيقرأ ذلك؟ وعموماً، آمل أن أصبح جداً بعد فترة قريبة.

إن الكتابة عن هذا تثلج الصدر، كما يسرني التفكير في ذلك، وحتى الحلم بأمر جيد ما، أي بالمستقبل. ولكن توجد أيضاً صلة داخلية.

قال الطبيب الراديوي: - إنك أفسدت جميع خططي، وبسببك استبدلت تذكرة السفر بالطائرة إلى ميامي مرتين. والآن عشية العام الجديد، ارتفعت الأسعار بعدة أضعاف، ولا تتوافر التذاكر. بينما تنتظرني عائلتي. أنا لا أستطيع إخراجك من المستشفى، فهذا لا يجوز بمستوى الإشعاع هذا. إنهم

في المركز الأمريكي يراقبون كل شيء، وسيسرحوني من العمل. اضبط أعصابك، واهدأ.. ماذا لو شربت الكحول، وشعرت بالمسرة، لكان الإشعاع قد زال... يالك من أحمق! سأشرب بدلاً منك، وأنا لا أستطيع غير ذلك.. نخب صحتك!

لوحت بيدي في الصومعة، بينما أفكر نفسي بأمريكا. شيء جيد أنهم يراقبون هؤلاء الحمقى. إي أطباء هم! إنهم يسعون إلى العناية بأطفالهم بصورة جيدة. هذا من يستطيع ذلك. وهل يستطيع الجميع ذلك.. على أي حال ما شأني أنا بأمريكا. أنا أريد الذهاب إلى جبالي. ولكن، حقاً، أريد رؤية أوروبا خلال يوم أو يومين. ولربما لن أرى ابنتي أكثر - هو ذا تشخيص المرض.

اليوم نفسه، صباحاً

هتفت ابنتي مرة أخرى، إنها تبكي مجدداً. ولكن تبكي بصورة أخرى. فقد تبين أنها اتصلت هاتفياً بطبيب الراديو وعرفت كل شيء. لكن كيف أستطيع تهدئتها؟ بعثت لها رسالة. وحدست في أعقاب ذلك بأنه يجب أن أبعث رسالة إلى طبيب االراديو - مفادها أنني أطلب خروجي من المستشفى تنفيذاً لرغبتي نفسي.

هتف طبيب الراديو قائلاً: - إنني كنت قد سمحت بخروجك بلا طلب منك. لكن تحليلك يرى مباشرة في أمريكا. والسماح بخروجك هو جريمة، لأنك ستنقل الأشعة إلى الآخرين.

فكتبت: «لم تحرص أمريكا علينا بهذا الشكل؟». لكن طبيب الراديو كسول فهتف لي قائلاً:

المسألة ليست في أمريكا بل في الشركة. لديهم بيزنيس، وهم يحرصون على سمعتهم.

أوه! تلكم هي المسألة. لقد تبين أن مفهوم السمعة والشرف ما زال باقياً. وشرفي أنا؟! كلا! لا يجوز أن أتنرفز. لقد أعطيت كلمة إلى ابنتي، بأنني سأعتني بنفسي. أنا هادئ، هادئ! إرادة الله فوق الجميع... لم أفكر فقط بالأمور السيئة، وأستعيد الذكريات، فقد وجدت لحظات بهيجة في حياتي أيضاً.

أذكر بداية عام 1993. طبعاً إن مدح الذات شيء غير لائق، لكن من المستبعد أن يقرأ هذه اليوميات أحد سوى من هو مثلي، مريض ومخبول. لهذا أستطيع إبداء الفخر - فقد أعيدت الأمور إلى نصابها في إنبوبي، ولم يعد هناك أي ثقب فيه، وهذا الحال عندي فقط. حقاً، لقد ساعدني في ذلك أبناء العم جيخو - لقد كانوا بمثابة أخوة لي. وكتبت «كانوا». للأسف أن العلاقات أصبحت بهذا الشكل، بالرغم من أن التواصل معهم مستمر شكلياً. لن أكتب عن الأمور الحزينة.

وعموماً ساد في جمهورية الشيشان، وكذلك في جميع أنحاء روسيا في مطلع التسعينيات جو من الفوضى الشاملة، وانهار كل شيء، وعمت السرقات، وصار الناس يرحلون، بينما بقيت مجموعتي

من عمال حفر الآبار تحتل مكانة الطليعة، ونحن نستخرج النفط ونضخه، وثمة حاجة إلى النفط في الأزمان كافة، وأسعاره غالية، لكننا لا نحصل على أي نقود تقريباً - الجميع يعرضون مبادلته بسلع أخرى، كما في الاقتصاد العيني. وحاولت مرة أو مرتين، لسذاجتي وغباوتي، أن أقبل بهذه المقايضة، وفي النتيجة أغلقت الأنبوب عشية العام الجديد: لا نقود، لا نفط. واستدعيت إلى اجتماع في الوزارة. وأعلن الوزير أنه يسرحني من العمل. وقلت أنا موافق بشرط أن تسدد لي وللعاملين جميع الرواتب المستحقة.

فصرخ الوزير: - لا توجد نقود لدى الجميع!

وأجبت: - أنا أعيش في المجمع السكني العمومي فكيف تشترون الشقق والبيوت، حتى في موسكو؟

من المفهوم أنني لم أحقق النصر في هذا النزاع، وفي اليوم نفسه استدعى الرئيس - الجنرال جميع العاملين. إنه بالرغم من جميع سلبياته وإيجابيته كان يتمتع بصفة واحدة هي أنه لم يكن لصاً. وعندما أعطيت الكلمة لي، لم اسع إلى كشف مشاكلنا في العمل وقلت فقط إن الاقتصاد الحالي هو اقتصاد سوق كما يبدو، ويجب دفع النقود مقابل منتوجنا، بينما لا تدفع لنا الأجور خلال عام تقريباً. ويبدو أن الرئيس - الجنرال كان على علم بالموضوع، وفجأة سألني:

- أين تسكن مع عائلتك؟ في المجمع السكني العمومي؟ ووجه السؤال إلى الوزير: وأنت أين تسكن؟

في اليوم نفسه تم تعيين وزير آخر. ولا يجوز القول بأنه أفضل. مجرد أن هذه الوظيفة بهذا الشكل - يسعى أمثال هؤلاء الأفراد إلى تولي مناصب الوزراء. أنا أقول ذلك لأنه حدث لي مرتين، وفي ظروف مختلفة، أن أتولى رئاسة هذا الفرع الصناعي المهم جداً - لكنني رفضت ذلك بشكل قاطع لعلمي أن العمل هناك مستحيل بلا ممارسة شتى الاحتيالات. أما أنا وأفراد مجموعتي للحفر فقد كسبنا كثيراً من إعلان الاحتجاجات أو التحذيرات. وأصبحت علاقتنا مع الوزارة تتم بموجب عقد التمويل الذاتي. وكانت تسلم إلينا خطة استخراج النفط - وتتضمن تسديد نفقات استئجار الأرض التي توجد فيها حقول النفط، وما يزيد على الخطة وجب علينا أن ندبر أمورنا في تدبير النفقات كما نستطيع. وقد زدنا الإنتاج، ووجدت احتياطيات، لكن أين نبيع النفط؟ وأنا لم أتمتع بأي خبرة في إدارة الأعمال، كما أنني، إذا توخيت الصدق، لا أثق حتى بمثل هؤلاء الأفراد، أي التجار، كثيراً. وظهر تجار عرضوا خدماتهم، وكان من بينهم ابن العم جيخو، الذي منحته طبعاً الأفضلية، لكن على أساس تعاقدي حصراً، أي أن كل شيء تم بصورة رسمية.

لقد انتهك ابن جيخو العقد فوراً - وتأخر في تسوية الحسابات نحو نصف سنة. فقلت إن القرابة هي قرابة والعمل هو العمل، ويقف ورائي أفراد عائلتي والعاملون، وحتى تسدد لي قيمة الصفقة بالأسعار نفسها مقدماً تقريباً. وروى لنا ابن العم جيخو ما حدث كما هو. فقد أعطى نفطناً إلى التكرير. وبينما جرت هذه العملية، ومضى الوقت، وحصل على موارد كبيرة، وعرض عليّ أخذ حصة، أي تلقي رشوة. فعنفته، وخجلته بشدة. ولولا توسلاته وذكرى العم جيخو لكنت قد توقفت عن التعامل معه. لكن في الاتفاق التالي رفعنا الأسعار بنحو الربع. وعانت الصناعة كلها من نقص في الاختصاصيين، ووقف طابور أمامي. لدينا أرباح ضخمة، ونقود فعلية، ويتم توزيع الأجور

وفقاً لعدد العاملين. وأنا أتلقى راتباً شهرياً أكثر من الجميع. وبعد نصف عام أصبحت في عداد أصحاب الملايين. وهذا كان بسبب قفزات التضخم وحين أصبح سعر رغيف الخبز بمئات الروبلات. ونصحتني زوجتي بأن أحول الروبلات الروسية إلى العملة الأجنبية وشراء مسكن، لكن ليس هنا - إذ تواصلت هجرة الناس ولم يوجد تعليم عملياً، والوضع أسوأ في مجال الموسيقى، ولا يوجد من يعلم ابنتي، والشيء الرئيس تنامي الجريمة، وتقريباً الفوضى وانفلات الوضع. لكنني لم أرغب في سماع أي شيء عن العملة الأجنبية - فأنا أخشى ذلك. إن التعليم أصبح فعلاً ضعيفاً للغاية، وأرى الأطفال الذين يتعلمون بدرجة الامتياز لكنهم لا يفقهون شيئاً من المواد الدراسية. والرحيل.. أنا رحلت مرة، ولن أكرر ذلك أبداً، سأحاول تحسين الوضع بعملي. علماً بأنه تحسن ففي يوم واحد كسبت كل شيء تقريباً. كان يعمل في مؤسستنا (أصبحت منذ الآن، مثل غيرها من المؤسسات، تحمل بفخر تسمية - وزارة الصناعة النفطية والكيميائية)، منذ وقت بعيد، وطوال الحياة تقريباً، رجل محترم جداً، خبير، من أبناء جروزني الأصليين، وروسي. ولم أرغب في التركيز على الصفة الأخيرة، لكنني اضطررت لذلك. إن هذا الرجل يرحل. إنه يرحل ليس بسبب الخوف، على أقل تقدير هذا ما يقوله، بل لأن جميع الأبناء والأقارب والمعارف قد رحلوا وهم يدعونه إليهم. إنه يبيع كل شيء: شقة ممتازة جداً ومؤثثة تقع في وسط جروزني. وفي الباحة يوجد مرآب فيه سيارة جديدة تقريباً. كما بقي مسكن يعود إلى الخالة في أطراف المدينة. والبيت خال من الجمال، لكنه في القطاع الخاص، وكل شيء هناك جميل وتسوده الخضرة. وهذا ليس كل شيء فهناك بيت ريفي (داتشا) في الضواحي. وقد اشتريتها كلها بلا مساومة. لكن وجد شرط وحيد هو أن أنقل شخصياً مكتبته والشيء الرئيس النقود إلى كراسنودار. علماً بأن البائع نفسه خاف القيام بذلك بنفسه - فقد حلت أزمان عصيبة، وأنا لا أريد الحديث عن الأمور الحزينة... أما الآن. فقد اقتنيت كل شيء دفعة واحدة. وأصبحت شخصاً مرفهاً. أوهام!؟ إنها موجودة في الحياة أيضاً، وثمة حاجة ماسة إليها. إن الحياة كلها - وهم! إنها حكاية تجري روايتها وتتكرر مرات عديدة. ومهما لف المرء ودار فإن النهاية حزينة. لكنني، وأنا واثق من ذلك، سأحاول كسر عبث الأقدار هذا.

آمين!

في اليوم نفسه، بعد الغداء

إحقاقاً للحق أنا لا أشعر بالارتياح جداً لكون صاحبي طبيب الراديو يكابد بسببي. فبعثت له مجدداً رسالة، بأنني مستعدة لكتابة طلب خروجي من المستشفى طوعاً.

فهتف لي: - أرجوك، هدئ نفسك. إن الجسم المعافى فقط يمكن أن يستأصل الإشعاع. وكل شيء يتوقف على الأعصاب. استجمع روح الانسجام، ويجب أن تكون هادئاً وسعيداً. اقرأ كتابنا الذي يتضمن الإرشادات.

بينما همهمت قائلاً: - أو- و.

كيف يمكن أن أصبح سعيداً ومنسجماً في وضعي هذا؟.. إنهم يراقبونني ويلقون عليّ الإرشادات:

الأفضل أن تكتب... بالمناسبة عمَّ تكتب؟ يبدو إنها ذكريات. أنا أيضاً أحلم بأن أكتب عن نفسي حين أحال إلى التقاعد. فهذا على أي حال ممكن، وممتع، وبمثابة ذكرى إلى الأبناء.

وأردفت قائلاً: - أو- غو، وفكرت عن أي شيء يمكن أن يكتب الطبيب الراديوي هذا؟ وماذا وجد في حياته ما يستحق الاهتمام، ربما سيكتب عن أن أبلهاً مثلي حال من دون سفره في الوقت المناسب إلى أمريكا للقاء أبنائه في العام الجديد. وقد حدثني عن ذلك، بل وجه إليَّ اللوم في ذلك، وفجأة ردد كنصيحة:

نعم - نعم. أكتب. عندما تكتب فإنك تكتسب الهدوء بجلاء، وعلى أقل تقدير، هذا ما يبدو ظاهرياً... غداً يجب أن يكون مستوى الإشعاع طبيعياً، ويجب أن أسافر جواً. أتعرف ما هي كلفة ذلك؟ وأعصابي؟ فانا إنسان أيضاً، وأريد رؤية عائلتي وأبنائي وزوجتي.

وأجبت بهمهمة تفيض بالشعور بالذنب: أو - و. لو استطعت التحدث لقلت إن العائلة يجب أن تكون إلى جانبك وليس في أمريكا. بالمناسبة أنا أيضاً عشت فترة ما بمثل هذا الوضع، ولكنني اضطررت إلى العيش. من الأفضل عدم التفكير بذلك وتذكره، ناهيك الكتابة عنه. فهذا لن يجلب الطمأنينة والهدوء. ولحظتئذ جال في خاطري أن طبيب الراديو ربما أوعز لي بهذا. فقد قررت أخذ حمام الدوش في المساء، وبتعبير أدق إجراء بعض الطقوس المائية المسموح بها، وربما إنها ستزيل عني جميع مستوى الإشعاع هذا.

30 ديسمبر. منتصف الليل

فعلاً، حين أجلس للكتابة أشعر بالهدوء قليلاً.. وفي العشية قمت بجلسات علاجية مائية، وفكرت -أنني تخلصت من الأوساخ كلها، ونمت نوماً عميقاً، أما اليوم- فوأسفاه! صرخ طبيب الراديو مجدداً، كما لو أنني لا أريد بنفسي التخلص من مستوى الإشعاع هذا. ولدهشتي كنت هادئاً نوعاً ما لأن ابنتي هتفت وقالت - دع طبيب الراديو لا يقلق جداً فقد تم تحويل مبلغ كبير إلى حسابه الشخصي. والآن شعرت بعدم الارتياح حيال ابنتي. أنا أتصور أي مبالغ حولت إليه، لكنني عاجز عن القيام بأي شيء. وقبيل العشاء هتفت الممرضة فجأة وقالت بصوت يبدو وكأنه آت من أعماق القبر إن طبيب الراديو حصل على الموافقة للسفر إلى أمريكا وانطلق إلى هناك فرحاً، وحتى من دون أن يودع الزملاء كما يجب، وكلفها وحدها بمهمة العناية بي:

يجب عليّ أن أجلس هنا للعمل بدلاً من الجميع.. العام الجديد على الأبواب. ولدي ضيوف من مدينة أخرى.. آه، كيف سئمت منكم جميعاً.

وأجبتها بدمدمة تعبيراً عن شعوري بالذنب، وقلت ما معناه «أرجو أن تسامحني، فأنا لم أرغب في ذلك، واستفسرت فيما إذا يوجد مرضى آخرون غيري؟».

سيتم إخراجهم جميعاً من المستشفى قبل حلول العام الجديد. وصأصأت: «وأنا؟».

هذا الأمر لا أقرره أنا.. غداً سيأتي طبيب آخر بدلاً من دكتورنا، وهو وحده يمكن أن يسمح بخروجك بعد الاتفاق مع المركز الأمريكي. سيقرر فيما إذا كنت خطراً على المجتمع أم لا.

إذن أنا المريض والمعوق من الدرجة الأولى أصبحت خطراً على المجتمع لا أكثر ولا أقل. أنا معد. ومعزول.

عندها بدأت الممرضة بإعطاء التوصيات:

التزم الهدوء، وتناول الطعام جيداً واكتب. قال الدكتور إنك حين تكتب تبدو حتى أهدأ وأفضل.

31 ديسمبر، صباحاً

إنني في هذه الردهة، المنعزلة عن العالم أجمع، أشعر وأتحسس كيف تستعد موسكو كلها، والعالم بأسره للقاء العام الجديد. أما أنا فكائن بشري فائض عن الحاجة. إنني لا أكابد المعاناة كثيراً بهذا الصدد. فأنا لم أحب الأعياد دائماً. زد على ذلك أنني في أيام الأعياد، وبالأخص حينما كنت رئيساً لدائرة أعمال الحفر في جروزني، كنت دائماً في نوبة خفارة - حيث يمكن أن أضمن أكثر سلامة العمل... وأكثر نوبة خفارة صعوبة كانت في ليلة العيد من عام 1993 إلى عام 1994. بالمناسبة أنا لا أريد أن أتذكر ذلك والكتابة عنه.

علماً بأن الممرضة التي أصبحت الآن رئيستي الوحيدة ومعيلتي وهلمجرا توصيني أيضاً وبإلحاح أن أكتب - عندئذ أصبح أكثر هدوءاً. أما الطبيب الذي وجب أن يحل محل طبيب الراديو فلم يحضر أصلاً، وحتى إن الممرضة جأرت بالشكوى بهذا الصدد، ثم أعلنت أن غداء اليوم سيكون غداء العيد، وحتى ستقدم وجبة طعام مزدوجة، وبعد الغداء انصرفت على أن تعود إلى المستشفى في اليوم الثاني من يناير فقط، لأنها إنسان أيضاً، ولديها ضيوف، ويجب أن تستعد قبل قدومهم.

وقالت لي: - إنهم يراقبونك باستمرار في نظام أون-لاين حتى في أمريكا. لهذا يجب أن يكون سلوكك لائقاً.. كل عام وأنت بخير! اكتب واكتب،- وستكون عندئذ أكثر هدوءاً، وهذا ما أوصى به الطبيب لك.

بعثت رسالة: - «هل يوجد أحد غيري هنا؟».

- توجد... عجوز واحدة. ومن المقرر أن يأتي أحدهم لأخذها. إنها لا تستطيع الخروج لوحدها.

في اليوم نفسه، مساءً

بالرغم من ذلك استلمت هدية العيد- إذ ظهرت فجأة حاوية فيها طعام العشاء. وبعثت رسالة إلى الممرضة - هل إنها لم تنصرف؟

- لا! إنهم لم يأخذوا تلك العجوز. لم يأت أحد لأخذها!- ترددت لهجة مغتاضة في سماعة الهاتف الداخلي.

وبعد مرور خمس عشرة أو عشرين دقيقة هتفت مرة أخرى:

- انتهى! - بدا الصوت أكثر هدوءاً - لن أنتظر أكثر.. سأغلق كل شيء. اعتن بالعجوز.

كان ذلك بمثابة أمر سخيف، وجعلني أضحك. فكيف أعتني بأحد ما إذا كنت أنا نفسي في عزلة تامة... يالها من عجائب! لقد ترك طبيب الراديو بدلاً منه طبيباً آخر لم يحضر أصلاً، وبقيت الممرضة، التي كلفتني بدورها بكل شيء. وعموماً، أنا رب البيت هنا. هكذا تبدو العيادة الأمريكية، في روسيا. حقاً يوجد أهل الطب دوماً في مستشفيات موسكو، وفي أي عيد، وحتى في عيد رأس السنة، ولو أنهم في حالة سكر لحد ما، لكنهم موجودون هناك دائماً. هذا حق، بالمناسبة أنا شبعان، ومطمئن البال، لا أشعر بأي ألم، وأنا مسرور جداً، بأنه لا يوجد أحد ولايراقب أحد تحركاتي في الصومعة. ولو أنهم قالوا إنه حتى في المركز الأمريكي يرونني في نظام أون-لاين - وهذا كذب. فهل يحتاجني الأمريكيون، إذا ما كان هناك أي أحد يهتم بي هنا أصلاً، - مفهوم، العام الجديد.. أنا أتحسس وأصغي إلى هذا الجو السابق للعيد أو أنه حل فعلاً جو العيد نفسه. الأفضل أن اشغل التلفزيون.

ليلة عيد رأس السنة

يبدو أنه لا يتغير شيء بمرور الأعوام. ما عرض في التلفزيون قبل عشرين عاماً مضت يتكرر نفسه تقريباً الآن، حتى إن الفنانين أنفسهم، الوقت يمضي مسرعاً بإصرار لا يرحم. وثمة إحساس بوجود العيد. أنا حتى لم أفكر بأن يهنئني هذا العدد الكبير من الناس. هتفت ابنتي، وهتف مكحل من أوروبا، وهتف الأقارب والمعارف من جروزني. طبعاً إنهم جميعاً قدموا التهاني واستفسروا عن حالتي الصحية، وبدا كما لو أن كل شيء يمس العيد، لكن جاءت مكالمة مقلقة أيضاً. فبعثت عدة رسائل بهذا الشأن. فقد حدث أن أراد بعضهم استغلال قطعة أرضي، أو بالأحرى ليست أرضي فقط، بل وأراضي الجيران أيضاً. فالمكان جميل ونادر المثال وغزير الخيرات، ولذا فكر بعضهم في بناء مجمع للاستجمام هناك. كما لو أنه لا يوجد مكان آخر في الجبال. أنا حدست طبعاً من يقف وراء هذا الحراك. وربما إن الأمر ليس كذلك. على أ ي حال إنني أحاول بذل كل جهد

للحؤول من دون ذلك، لكن من أين استجمع القوة الآن وماذا أستطيع؟ والحق يقال إن هذه التطاولات على قطعة أرضي الموروثة من الآباء والأجداد لا تفسد فحسب بل تسمم حياتي في الآونة الأخيرة. أنا لا أستطيع بل وأخشى التفكير في ذلك لإدراكي بعجزي عن عمل أي شيء. لقد حلت مثل هذه الأزمان. ومهما كان فقد تعكر مزاجي في العام الجديد. وفي منتصف الليل تماماً سمعت قصفاً شديداً - مفهوم إنها الألعاب النارية تحية للعام الجديد، لكنني لا أرى الألعاب النارية من مكان حبسي، وأسمع فقط الإطلاقات التي تذكرني بالحرب الماضية في جمهورية الشيشان. هل إنها مضت؟.. بالنسبة لي هيهات إن مضت، لأنها كما ينبغي للحروب أن تغير حياتي كلياً، وقد بدأ ذلك قبل أكثر من عشرة أعوام، وكذا هو الحال في ليلة عيد رأس السنة...

في 31 ديسمبر عام 1993 وعند منتصف النهار بدأت نوبة الخفارة في دائرة أعمال الحفر، لعلمي بأن الوضع في الجمهورية ينطوي على خطر الجريمة بأكبر قدر. ويمكن حتى حسب ما أوردته «جروزنفط» إدراك أن الفوضى وانفلات الوضع قد اشتد، وأصبح الناس بلا حماية، والمجرمون بلا عقاب. أما أنا فكنت كما لو أنني أحيا في عالم آخر، وحاولت عدم الاهتمام بذلك - فواجبي هو العمل واستخراج النفط وضخه إلى المصنع. وحدث في أثناء نوبة الخفارة في ليلة العام الجديد أن وجدت الضغط في الأنبوب ينخفض بحدة. ويبدو أن السبب هو أن بعضهم عمل ثقباً في الأنبوب وصار يسرق النفط. وبموجب النظام السائد وجب عليّ أن أبلغ هيئة الأمن، لأن الشرطة كانت عاجزة عن العمل في الواقع. وأجابوني بواسطة اللاسلكي (لم توجد وسائل اتصال أخرى في الجمهورية) أن فصيلة الأمن ستغادر صباحاً فقط - لأن الذهاب إلى هناك خطر في الليل. ومعنى ذلك أن اللصوص سيضخون في شاحناتهم لنقل النفط عشرات الأطنان من النفط، بينما سينسكب المقدار نفسه تقريباً على الأرض.. فقررت التوجه وفحص امتداد الأنبوب، مع علمي تقريباً أين يوجد موضع الثقب المحتمل. عندئذ لعلع رصاص الرشاشات والمدافع الرشاشة - لقد حل العام الجديد، الثلج يتساقط، وسناء. وذكرت الأطفال والأسرة، وكان الواجب أن أكون معهم في هذه الساعة، بينما أنا هنا لوحدي - وأتوجه إلى اللصوص، ولابد أنهم مسلحون، لكنني انطلقت ومن المستبعد أن أعيد السيارة القهقرى، وكنت فقط أبلغ بواسطة اللاسلكي اتجاه السير. وأراد المناوب أن يثنيني عن الذهاب بشكل قاطع، لكنني، بالعكس، أصررت على نيتي - وحقاً لم يرهبني أي شيء، فورائي قضية عادلة. وكان جهاز اللاسلكي يطقطق مجدداً ومجدداً. عندئذ انقبض صدري، وفتحت اللاسلكي فسمعت كلاماً آخر:

كانت زوجتك هنا قبل قليل. وقد جرى اختطاف ابنك.

بدا وكأن مطرقة ثقيلة هوت على رأسي. فضغطت على الفرملة بحدة، وأوقفت السيارة. جلست نحو الدقيقة، وربما أكثر كثيراً، وقد تملكتني شبه غيبوبة ما، محاولاً التأمل فيما يجب أن أفعله؟... وماذا فعلت؟ كنت ذاهباً لتنفيذ واجبي الرسمي. أنا كنت أعلم بأن اللصوص مسلحون، وأن عددهم خمسة - ستة أشخاص، وكنت غاضباً أشد الغضب، كما لو أنهم يسرقون ليس النفط فقط، بل إنهم متواطئون أيضاً في اختطاف ابني. بالمناسبة، في الأوقات اللاحقة حين أصبح الناس ذوي قلوب قاسية بسبب الحرب والفوضى وانفلات الوضع وغياب القانون، لابد من الاعتراف، بأنهم صاروا يتسمون بشيء من الغلاظة والوحشية، وكانوا في مثل هذا الوضع يحسمون الأمر ببساطة جداً -

بقتلي. عندئذ كنت لا أطرد هؤلاء الجناة فقط، بل وأنزل بهم أشد العقاب بغضب. ويدي ثقيلة، حيث منحني الرب قوة فطرية. ولا تتصور أنني أسعى إلى كيل المديح لنفسي. بل أكتب هذا لنفسي فقط، لعلمي بأنه لن يقرأ أحد هذه الكتابات. وفي تلك الليلة بقيت في نوبة الخفارة حتى الصباح، كما ينبغي ذلك، ثم ذهبت إلى البيت، وعندئذ أدركت أن الوضع خطير، فكتبت طلب منحي إجازة. أنا لم أسمع ولم يسمع أحد في جمهورية الشيشان باحتمال خطف الأفراد في أي وقت. قصارى القول إنني حتى لم أتصور أن تقع عائلتي في محل اهتمام قطاع الطرق هؤلاء. لأنني عامل بسيط، وأعيش بعرق جبيني، كما اعتقدت، ولا توجد لديَّ أي ممتلكات إضافية. ربما مارس دوره هنا كوني من أهل النفط، ورئيساً بأي حال من الأحوال. أنا أعلم بأنه يحيا في ترف الكثير من الرؤساء الأكثر أهمية ومكانة عملية، أي أكثر ثراء مني. لكنهم ثبتوا أبصارهم عليّ، واعتبروني رجلاً ضعيفاً وبلا حماية. وقد عذبني الأمر الأخير. ما هو وضع ابني؟ إنه في سن الخامسة عشرة من عمره فقط - أي معاناة جسدية ونفسية أصابته! كيف حاله؟ وأين هو؟ وعموماً، هل هو على قيد الحياة؟ ليس من اليسير تحمل مثل هذه المعاناة، لكن يجب استجماع قواي من أجل ابني، يجب ذلك، يجب أن أكون مستعداً لتلقي ضربات القدر، وحتى للقتال. لكن مع من؟

كانت تراودني الآمال بشكل ما، وكانت أول خطوة هي تقديم طلب إلى النيابة العامة والشرطة، وهناك سجلوا شكواي فحسب، وهزوا أكتفافهم دليل العجز- إنهم بلا تمويل، وبلا رواتب، وحتى لا يتوافر الوقود من أجل وسائل النقل الرسمية. صفوة القول، إن إنقاذ الغرقى هو أمر يخص الغرقى أنفسهم. وبقي الأمل في الاعتماد على الذات فقط، وأصبحت في حيرة من أمري. وكم جاهدت وما أكثر المراجع التي لجأت إليها - لكن لم أعثر على أي آثار وعلامات، وحتى لم توجد قشة أتمسك بها. ولعل أصعب الأمور هو وضع زوجتي. إنها تحاول ضبط نفسها في حضوري، لكن يبدو كل شيء على سحنتها الباكية والحزينة. وعندئذ قلت لها: ارحلي إلى أي مكان تريدينه، ارحلي - إلى حيث توجد مدرسة موسيقية، بينما أصبحت الوحدة أخف وطأة بالنسبة لي، كما يبدو، لأنني أصبحت الآن أخاف على بقية أفراد العائلة. لكنها عارضت ذلك بشدة...

وبعد مضي شهر بالضبط، في اليوم المحدد، ألقوا قصاصة ورق حسب تقديرهم. يجب دفع فدية بمبلغ 250 ألف دولار. لكنني لم أمتلك حتى ألفين وخمسمائة، وحتى لو وجد لدي هذا المبلغ لما كنت سأدفعه. لكن بدأت الحركة، وكما يقول رجال حفر الآبار عندنا - لقد بلغنا الطبقة الحاوية للنفط. وبالرغم من أنهم ألقوا بالقصاصة ليلاً، وكانت السيارة بلا أرقام، بينما لا توجد في الجمهورية سيارات كثيرة من ماركة «BMW»، علاوة على أن رفرف السيارة مدعوس. علماً أننا لم نكن بلا استعداد وجلسنا عاطلين - لقد كنا بانتظار هذه اللحظة. وهذا الاتصال، وحاولنا حتى التصدي إلى سيارة رجال العصابة، لكن يبدو أن الأنذال غامروا لأنهم لا يخسرون شيئاً، ولديهم سيارة قوية، فاقدموا على مصادمتنا، وألقوا سيارتي من طراز «نيفا» جانباً واختفوا في ظلام الليل كما لو أنهم تبخروا، تاركين على الإسفلت خبثاً كثيفاً، ليس بصفة أثر للسيارة بل لحياتهم وأفعالهم الدنيئة. واعتماداً على هذا الأثر، كما لو وقع بيدي خيط، صرت أتتبع بواسطته، ببطء، كما لو أمضي نحو الطبقة الحاوية على النفط، وبغية عدم إفزاعهم، في طريق حياتهم الذي اختاروه، وفي كل حركة، ومع الاقتراب منهم كان يراودني الأمل أكثر فأكثر، لحد الغثيان والتقزز. ولم يكونوا بشراً وقطاع طرق فحسب، بل كانوا سفلة وأنذالاً، مسلحين ليس بالسلاح فقط، بل بشتى العقائد

الزائفة الجديدة، ولا توجد في رؤوسهم (لا يمكن وجود أرواح لديهم) محبة الرب والناس، بل الحسد والحقد والجشع، والوقاحة والجبن، والجنون والمرض، والعجرفة والخوف، الذين كانوا يريدون إخماده بتناول الحبوب المخدرة والحشيش أو الناسباي. وكلما عرفت المزيد عن هذه العصابة تنامى خوفي على مصير بقية أفراد العائلة. وعندئذ طلبت من زوجتي بلهجة آمرة أن تغادر الجمهورية مع الطفلين إلى حيث يوجد نظام وشيء من السلطة. فاختارت زوجتي مدينة ستافروبل. أولاً لكونها قريبة، وثانياً، وكما تبين لاحقاً، فقد رحلت إلى هناك معلمة شوفدا في الموسيقى. هذا ما حدث. لقد كانت زوجتي حتى في أصعب الأيام تفكر بالتعليم الموسيقي لابنتها، بينما كانت شوفدا الصغيرة تفكر وتحلم بذلك. لكن تفكيري آنذاك لم يكن منصرفاً إلى الموسيقى. حقاً، لقد أطلقت حرية يدي بعد سفر العائلة. فماذا فعلت قبل كل شيء؟ اشتريت أسلحة. الكثير والكثير من مختلف الأسلحة. إنها كانت تباع بحرية - من الأذواق والألوان كافة كما يقال. لكنني كنت من حيث المبدأ وحيداً في هذا النزاع والعداء والحرب. طبعاً كان هناك أبناء العم جيخو والأقرباء وأبناء قريتي وأفراد عشيرتي، لكنهم ليسوا من الأقرباء المقربين، ولا يحق لي تعريضهم إلى المجازفة، كما أنني لا أريد ولا أستطيع أن أوصلهم إلى العداء الدموي، ولو أنهم كانوا إلى جانبي ليلاً ونهاراً. وعندئذ تلقينا رسالة أخرى - إن قطاع الطرق هم قطاع طرق، وقد ازدادوا وقاحة - فمنحوني مهلة أسبوعين، وإلا فسيقتلون ابني.. كما ألقوا تسجيلاً بالفيديو يبدو فيه ابني هزيلاً جداً وقذراً وتعيساً، وهو يبكي ويستغيث بي طالباً مساعدتي.

كنت مستعداً لمقارعة أي شخص والقتال والموت، لكن إذا ما لقيت مصرعي، أنا الأحمق، فماذا سيحدث لاحقاً؟ كيف سيحيا الباقون؟ لقد وجب التفكير وتركيز الذهن واستعادة الهدوء ولو قليلاً. لهذا قررت الذهاب إلى الأهل في الجبال. وهناك كل شيء كالسابق - هدوء وعظمة وسناء وسرمدية.

شربت هناك من ماء النبع، وتنفست الهواء العليل، وتأملت الرحاب الألبية وتسلقت الصخور وشاهدت الكثير من الطيور، ولا سيما النسور الأبية الوحيدة، لكنني لم أهدأ كثيراً، ولم أنس مصيبتي تماماً، بل تطلعت إلى نفسي من الجانب وفهمت أمراً واحداً - أنا لست من قطاع الطرق ولا أريد أن أصبح واحداً منهم. ومعنى ذلك أنني لا أحتاج إلى أي سلاح. وقد عرفت هذه الجبال والناس الساكنون فيها مصائب أشد من هذه ويتعين عليّ أن أبقى كما أنا، وأن أصبر وأنتظر - وستحل المشكلة بشكل ما وكل شيء بأمر الله. عدت إلى جروزني بهذه الفكرة التي هدأتني لحد ما، وقد ازداد هناك عدد المخطوفين. ولا يعرف فيما إذا كانت هناك عصابة واحدة أو عدة عصابات. لكن بدا لي آنذاك، وأنا على يقين من الأمر الآن، أنها جميعاً مترابطة ببعضها بعضاً، وأن هناك قوة ما تدعم وتشجع وتؤيد هذه الفوضى وانفلات الوضع.

لا توجد لديَّ النقود لدفع الفدية، وحتى لو بعت كل ما يوجد لدي فإنني لن أجمع حتى ثلث المبلغ، كما أنه ما من أحد في جروزني يشتري الآن - فالجميع يبيعون فقط. عندئذ أدركت بدقة أن السلاح لن ينفعني، بل بالعكس سيفاقم وضعي فقط، وسأخسر المعركة مع العصابة المجهولة الهوية، علاوة على أنهم ربما سيقتلون أحد الأقارب. ولهذا قررت التخلص من السلاح الذي اشتريته، لكن لن يشتريه أحد مني، فالسلاح هنا يباع فقط. كما أنني لم أرغب في الاحتفاظ بهذه الترسانة من

السلاح في البيت، وخيل إليَّ أنه سيطلق النار بحد ذاته، ولهذا أخذت هذه الأدوات القاتلة كلها إلى موطني الجبال، ولففتها بعناية بالقماش السميك الذي نستخدمه لحماية أداة حفر الآبار من الصدأ، وأخفيتها في فجوة عميقة وسط الصخور، في قطعة أرضي في الجبال. ويومئذ انتهت فترة إجازتي - كان بوسعي تمديدها لكنني لم أرد ذلك، وفكرت أن العمل سيلهيني لحدما، ويساعدني على النسيان. وهذا ما حدث، فبعد مضي يومين جاء إلى مكتبي علانية من دون خشية من أحد شابان، أحدهما رياضي في أغلب الظن، فهو قوي البنية. إنهما من شباب اليوم، حكماً على ملابسهما، ولهما ثقة بالنفس، وحتى بشيء من الوقاحة، وملتحيان حسب الموضة، ويحملان مسدسين في حزامهما، وهذا أيضاً من المستلزمات الغريبة في تلك الأيام. طبعاً، إنهما لم يقدما نفسيهما، لكنهما قالا إنهما يعرفان وضع أموري، ولا علاقة لهما بخطف ابني - وهما يمارسان البزنيس فحسب. وعرضا عليّ صفقة مربحة: يجب أن أقدم بدلاً من 250 ألف دولار، 250 طناً من النفط، وذلك خمسة «براميل» -أي شاحنات صهريج- فقط... ثم أرادا قول شيء ما أو قالا، لكن برزت أمام ناظري صورة ابني المسكين، وأنا حتى لم أتذكر كل شيء لحظتئذ، والآن أيضاً لا أريد أن أتذكر. بل كنت فقط في حالة جنونية، وقفزت فوق الطاولة وكدت أن أخنق ذاك المتحدث. وكان يمكن أن لا يغادرا المكان، فقد جلس أبناء جيخو مع اثنين من العاملين في غرفة الانتظار. لكن هؤلاء القادمين لم يكونا لوحدهما، إذ رابطت في الباحة سيارة أخرى فيها مسلحون أيضاً. ومن شأن الصدام عندئذ أن يكون جدياً وقاسياً وعنيفاً. كما أن أولئك المرابطين في الباحة كانوا يحملون الرشاشات وأطلقوا النيران، نحو السقوف أكثر - وأصيب عاملي بجروح. أما أنا فقد أصيب رأسي بكدمات وسال الدم من أنفي، وصرت أطلق الشتائم بعجز من النافذة في أعقاب السيارتين المنطلقتين - وكلتاهما من طراز «BMW». في تلك اللحظة راودني الأسف لكوني بلا سلاح. في وقت لاحق، - في سبق الزمن - أقول «إنني عندما أستخرج ترسانتي القديمة من السلاح أكون كما لو كنت أستخرج «توماهوك» الحرب. هذا ما كانت عليه الأزمان آنذاك، بالرغم من أنها تعتبر أزمان سلام، لكنني حتى لم أفكر في ذلك، وكان الصدام في غرفة مكتبي بمثابة ذروة العملية كلها.

ومجمل القضية أن العاملين عندنا قد عرفوا أحد الرجلين. وكان ابن أحد رجال صناعة النفط المعروفين، الذي أحيل إلى التقاعد الآن. وكنت أعرفه جيداً، وهو رجل محترم جداً، ورب عائلة كبيرة. فذهبت إليه في مساء ذلك اليوم ورأسي ملفوف بالضمادات. ورافقني ابن العم جيخو واثنان من الأقارب. وكان الشيخ من أهل النفط يعيش ويعمل. ولديه في أطراف جروزني بيت غير كبير، ولكن متين البنيان، وكما اتضح لنا فإنه يقطن إلى جانبه وفي الحي كله تقريباً ثمانية من أبنائه البالغين، وهم أصحاب عوائل. والرياضي الذي حاولت خنقه يأتي في المرتبة ما قبل الأخيرة في العائلة، ولم يكن موجوداً، أما الخمسة الأكبر سناً فقد جلسوا حول أبيهم الشيخ، الذي ما زال قوي البنية، كالجدار المرصوص، وجميعهم يحملون السلاح- فهذا من متطلبات الزمن.

وبلا مقدمات رويت كل القصة كما هي.

وسألني الابن الأكبر بلهجة جافة: - هل تريد القول إن أخانا متورط في خطف ابنك؟

فأجبته باللهجة ذاتها: - نعم.

وهب جميع الأخوة على أقدامهم.

فأمرهم الأب: - اجلسوا!

وضرب بعصاه ساق الابن الأكبر.

أعقبت ذلك فترة سكون طويلة وثقيلة.

سعل الشيخ: - كخا-كخا. أحم، أنا عشت حتى سن اثنين وتسعين عاماً، ولم أسمع في بيتي بمثل هذا الأمر ولم أكن أتصور أنني سأسمعه.

ونبر الابن الأكبر وهو يكز على أسنانه: - هذا كذب!

- صه، - هنا يصدر الأمر الأكبر سناً.

أحنى الشيخ رأسه فوق رأس العصا المستدير كما لو أنه استغرق في التفكير بتثاقل، وفكر طويلاً ثم قال بصوت متحشرج:

- في آخر أيام حياتي - يحدث مثل هذا.. نحن أصغينا إليك. هذا اتهام خطير، من الصعب بل حتى لا يمكن العيش به. يجب علينا استقصاء الأمر.

في مساء اليوم التالي كنت جالساً في محل عملي فأحسست بأعماقي كما يقال بأنه يحدث أمر ما لابني. فقررت الذهاب فوراً إلى الجبال، لكي أستخرج السلاح والتوجه إلى المعركة... مع الجميع إلى المعركة... وسأختطف هذا الشيخ وأحتجزه كرهينة! تملكني مثل هذا التشوش في الأفكار، وقد أقدم على ذلك فجأة؟ ربما سأقدم على ذلك. لكن الحياة عسيرة على التنبؤ ومتعرجة المسارات دائماً - أنا حتى لا أذكر من، لكن أبلغوني بأن ابني في البيت. فانطلقت إلى هناك بكل قواي. فوجدته قذراً وهزيلاً وبائساً، لكنه ابتسم مع هذا وقال:

- أين ماما؟ وأخي الأصغر؟ وأين شوفدا؟

كيف أعبر عن مشاعري في تلك اللحظة. وإذا ما تطلعت إلى الأمر من موقعي اليوم، لأعتبرت ذلك حتى زمناً طيباً! إنها مفارقات الحياة والزمن. بينهم الشيخ، لكنه ما زال قوي البنية، مثل الجدار الأصم، وجميعهم يحملون السلاح - إنه من مستلزمات العصر.

لقد كنت يومذاك في حالة جزع واضطراب شديدين. فمن جانب لم أعرف كيف تم الإفراج عن ابني؟ يمكن إيراد شتى الاعتبارات والأفعال من جانب رجال العصابة؟ ومن جانب آخر رأيت بأي حال جسدي والشيء الرئيس بأي حال نفسي أصبح ابني الأكبر. ولم أكن أستطيع النظر إليه بهدوء، بينما كان يناشدني شاكياً:

- خذني إلى ماما.. أنا لا أريد العيش هنا.. لا أريد!

أنا أيضاً لم أرد ولم أستطع البقاء، فهم حالوا من دون أن أبقى في موطني. في اليوم التالي كتبت طلب الاستقالة وسافرت مع ابني إلى ستافروبل. لقد وجب توفير العلاج له، كما أنني كنت في أقصى حالات الانفعال، وفقدت خلال الشهرين الأخيرين خمسة عشر كيلوجراماً من الوزن، وفقدت الشهية، وعانيت من الأرق، واضطراب الأعصاب... كان في هذا الوضع مواطنو جمهورية الشيشان عموماً في أواسط عام 1994. إلى أي حال أوصلونا! من الصعب تفهم ذلك الآن، لكن آنذاك وحالما غادرت السيارة حدود جمهوريتي، شعرت بأنني صرت أستنشق الهواء بيسر وبحرية أكثر - إنه الإحساس بأنني أفلحت فحسب في الخلاص من الانهيالات الثلجية الزاحفة من قمم الجبال.

وعلمت لاحقاً، وقبل بدء الحرب أن الرياضي ابن الشيخ عامل النفط السابق قد وجد قتيلاً في سيارته بوسط جروزني. كما حدثت مناوشات دموية ما بين أفراد هذه العصابة. وكنتيجة حتمية لكل هذه الفوضى والهرج والمرج بدأت حرب حقيقية...

1 يناير، 2006، صباحاً

مع هذا فإن الحرية شيء عظيم. عادة يقدم الفطور في الساعة الثامنة، وسواء أردت أم أبيت، فيجب عليّ أن أنهض من الفراش. ويجب إعادة وعاء الطعام، وإلا فإن الممرضة ستبدأ بالتلفنة وبإطلاق الشتائم. أما اليوم فلا وجود للممرضة، وكذلك لا وجود للفطور، ولا يوقظني أحد، لكنني استيقظت كما لو كان ذلك نكاية بي قبل الفجر. لقد استيقظت بسبب السكون غير العادي. ياله من هدوء، كما لو أن موسكو كلها قد فارقت الحياة. يبدو أن الجميع نيام بعد الاحتفال بحلول العام الجديد. إنني لدهشتي حتى صعدت على حافة النافذة - بدت موسكو فارغة تقريباً، لم أشاهد أحداً طوال 5-7 دقائق عندما راقبت شارع بروفسويوزنايا حيث توجد اختناقات مرورية عادة...

ما أروع السكون! طبعاً، إنه ليس ذلك السكون الساحر في الجبال في موطني، ومع ذلك فهو سكون طيب... أما في الجبال! كم أنا سعيد لأنها موجودة لديَّ. أي سكون هناك! إنه سكون ساحر وفردوسي يسحرني ويحملني إلى الخلود، إلى السرمدية، إلى الفضاء الكوني اللامتناهٍ. أنا أذكر عندما سافرت إلى موطني في الجبال بعد العملية الجراحية. كنت في حال كآبة، وجوع، ولا أستطيع تناول الطعام - كنت أتناول بواسطة القسطر ليس الطعام والشراب فقط، بل إنني أتنفس بصعوبة، وأنا لا أستطيع اعتياد ذلك. ولا أستطيع المشي، وأنا واهن القوى. كنت أستطيع عمل شيء واحد هو الجلوس تحت الشمس والتمتع بالمنظر البهي، وبصمود الصخور، وبالجبروت والمنعة والسناء الخالد. إن المرء يشعر حيال هذا الفضاء الواسع والخلود بأنه حشرة صغيرة جداً، وبالعدم، لعلمي بأن أيامي معدودات. وسيبدأ الأقارب والجيران بعد قليل بحفر القبر، وسيضعونني وسط الأحجار الباردة والرطبة، ثم يهيلون مثل هذه الأحجار فوقي، ولن يوجد أحد يزور قبري. كانت تراودني مثل هذه الأفكار الحزينة لدى الجلوس ساعات طويلة في قطعة الأرض العائدة لي:

أسمع قرقرة النبع، وهمس الغدير في الفج والسكون، السكون المطبق في الجبال. وما أكثر ما يعجبني الإصغاء إلى هذا الكون، والتمتع به وحبه، كما أحببت جبالي، وهي أحبتني، وعندها تكشف لي السر العظيم، ذلك السر الذي يتكشف فقط للإنسان المحبوب، والكائن المحبوب. لقد تبين أن الجبال تستطيع الكلام! إنها تتبادل الأحاديث فيما بينها، وتتحدث مع الفضاء، وتتحدث مع العالم بأسره. إنها تتحدث فقط مع الذي يستطيع فهمها وقبولها وسماعها وحبها وتثمينها واحترامها. إن الجاهل فقط يعتقد أن الجبال هي أصنام من الحجر، جمدت إلى أبد الأبدين. أما في واقع الحال فإن الجبال تجسد الجمال ومصدر الحياة. إنها مهد الإنسانية، وإنها أصل الكون والحصانة، إنها - ثروة الأرض وسحرها، إنها - الركيزة التي تستند إليها الأرض، وتقف فوقها السماء، وتتواصل الأرض مع الفضاء والكون بأسره بواسطة الجبال. يمكن في الجبال فقط الجلوس في مكان ما والتمتع بالنظر طوال ساعات إلى روعة وخلود العالم والإعجاب به. وإذا أحب الإنسان المرء بصدق فإنه يستمع إلى غنائها، إنها تغني من أجله. وأنا استمعت إليها. أصغيت إلى صوتها الجبار والمهيب والفخور والطيب والخالد. إنها دعتني وأغوتني للمجيء إليها، ولاطفتني، وهدأتني، ورفعتني في المنزلة. أما أنا فقد فهمت صوتها: كل شيء سيمضي مع الزمن، سواء الطيب أم السيئ، والحياة ستمضي أيضاً، ويكمن مغزاها في أن كل شيء موجود في المعرفة وفي الانسجام والإيمان بالذات وبالخالق عز وجل. وكل شيء في هذه الحياة وحتى الممات، سيكون قد حدث لأول مرة، أما أنت فيجب أن تكون أفكارك وأفعالك وتطلعاتك وآمالك أسمى دوماً، يجب أن تصبو إلى السمو، إلى الخلود، وإلى السرمدية، لعلمك أن الحياة مثل الزمان والمكان والفكرة - خالدة إلى الآبد! مثل خلود سر الوجود ونظام الكون. وكلما تسمو في أفكارك أكثر يتكشف أمامك أكثر فأكثر السحر المقدس لسر الحياة، وليس الوجود والمعيشة فقط. أنا أصبو إلى السمو، كما تسمو الزهرة الجبلية نحو الشمس.

ارفع رأسك للقاء الفجر. اسع إلى فوق ولا تنحدر إلى الأسفل.. وأنا مضيت، مضيت نحو الأعالي، فوق سفوح الجبال في موطني. لكني كيف أمشي إذا ما كانت ساقاي لا تحملاني لانعدام القوة -إنها قطنية، وإذا لا أستطيع التنفس- بسبب ضيق التنفس، بينما يطلق القسطر صفيراً، وإذا ما كان القلب يخفق مثل عصفور صغير، أمسك به أحد ما في قبضة اليد. كنت أحسب كل خطوة. وفكرت بعد مائة خطوة من السير إلى أعلى، أنني سآخذ قسطاً من الراحة، وبعد أن مشيت العشرين خطوة التالية هويت على الأرض. ما أشد الألم - وشعرت بألم في قلبي. ودار في خاطري - هل سيضاف الاحتشاء القلبي إلى أوجاعي الأخرى، ماذا سيحدث عندئذ؟..

رقدت فوق المنحدر بانتظار القدر الرهيب، وفكرت إذا ما هدأ قلبي، سأمشي بحذر، وأزحف إلى الأسفل، إلى كوخي - فأنا غير قادر على المشي، لا سيما في الجبال. وبينما انشغلت في هذه الخواطر، أصبح قرع الطبول في أذني يخف شيئاً فشيئاً، وبانتظام أكثر، فسمعت صوت الجبال بوضوح:

ألست من أبناء الجبال؟ هل تريد أن تزحف؟ ازحف إلى الأسفل؟ هل هذا ما يدور في فكرك؟ فكرة روح الهزيمة والذل... دع جسدك يتمزق، ويتحطم، فلست في سن الشباب. لكن الفكرة والإرادة والروح والأحلام يجب أن تكون دائماً نقية وفتية وطيبة وجميلة! إنها يجب أن تحلق فوق الأرض،

وتتطلع نحو الأعالي، ونحو الخلود والسرمدية، وعندئذ... عندئذ، في البداية، سيزحف جسدك الهزيل والفاني، وبعد ذلك سيحلق وراء الإرادة والفكرة والروح والحلم! انهض! وعش ولو يوماً واحداً، لكن مع الوقوف فوق الذروة، - فهذا أكثر نبلاً من الزحف، ناهيك عن الاستلقاء في مستنقعات الوهدة المنخفضة.

فنهضت. ولن أقول إنني مشيت، لكنني تحركت بشكل ما، وقد تصبب في جسدي العرق المنسي الساخن الغزير، وبدا أن هذا العرق المتصبب في جسدي، هو عرقي وليس عرقي، إذ تنبعث منه رائحة الأدوية التي كنت أتناولها خلال العام الأخير. طبعاً، ومشيت ليس عشر خطوات، بل خطوة ثم خطوة أخرى - وأعقبتها الراحة، والتطلع نحو، ثم مشيت مجدداً خطوة بعد خطوة، نحو الأعلى. طبعاً لم أبلغ في ذلك اليوم حتى الذروة القريبة التي كنت في شبابي أصعد إليها راكضاً تقريباً. نعم، كنت أدرك في وضعي آنذاك بأنني أنجزت عملاً عظيماً. وما أشد سعادتي لكوني استطعت في اليوم الأول أن أقطع إجمالاً مائة خطوة نحو الأعلى. وقد هدني التعب لدرجة أن ساقيَّ لم تصمدا - فهويت إلى الأسفل. واعتقدت بأنني سأتحطم، والأفظع هو أن ينتزع القسطر من بلعومي، وينكسر. لكن حالفني الحظ. لقد مضى اليوم كله تقريباً في القيام بالخطوات الأولى ثم السقوط رأساً على عقب. لكن ما أكثر المتعة التي حصلت عليها، حين وصلت إلى نبعي الحبيب، وفي المساء رحت أصغي إلى دقات قلبي، فهل تحمل الإجهاد أم أنه سيئن في الليل، لأن جميع الأمراض تعلن عن نفسها في الليل. لكنني غفوت فوراً، وغلبني الوسن ونمت نوماً عميقاً كما في أيام الشباب، ورأيت في الحلم طوال الليل كما لو أنني أحلق فوق الجبال.

منذ ذلك الحين صرت أذهب إلى الجبال يومياً تقريباً. والآن أمشي بصورة جيدة، وأصعد عالياً وعند كل وهدة أريد أن اقفز إلى الأسفل، وأطير... كم أود في نهاية الأمر أن أطير بحرية وأن أسقط صريعاً في لحظة خاطفة! لولا وجود ابنتي، حبيبتي شوفدا، لفعلت ذلك منذ وقت بعيد. لكن ظهرت الآن ظروف أخرى. أنا أريد ويجب أن أنتقم، وبعد ذلك... سأحلق حتماً، كما في أحلامي، أحلامي السعيدة، أحلق فوق جبالي العزيزة، إلى الخلود!

في اليوم نفسه، مساءً

لقد تأثرت جداً في كتاباتي السابقة، ورغبت في الذهاب إلى موطني في الجبال، أردت التحرك، ومجرد أن أنتعش، فقمت خلافاً للحظر الصارم بتمارين رياضية مديدة وعنيفة مع الجلوس والانحناء فوق الأرض. صفوة القول إنني أفسدت عموماً صحتي. وبعد ذلك قمت بإجراءات علاجية مائية، ولهذا ظهرت لدي شهية طيبة. لحسن الحظ بقي لدي احتياطي من الطعام. ثم غفوت. إنه لشيء جيد ألا تحضر الممرضة مع حاويتها. أنا اليوم طليق، أي إنسان حر نسبياً في هذه الأماكن. أظن أنني كنت سأنام مرة أخرى، لكن موسكو استيقظت في مساء اليوم الأول من العام الجديد، ودبت فيها الحيوية، وتصاعد ضجيج الشارع الذي لن يخمد حتى يوم خروجي من المستشفى. ولا يستطيع أن يفعل ذلك سوى طبيب الراديو، إذا ما استقر مستوى الإشعاع اللعين

لدي، ولكن متى سيعود؟ وإذا ما فكر طبيب الراديو فجأة أن يستجم مثل روسيا كلها - حتى أواسط يناير. أنا لن أتحمل ذلك...

عبثاً فأنا نمت كثيراً وقت الظهر. الآن لن أغفو في الليل.

في الليلة ذاتها

هتفت ابنتي. كانت مسرورة جداً. قالت إن الحفلة الموسيقية بمشاركتها قد نقلها التلفزيون الأوروبي، وهناك تعليقات إيجابية وطيبة كثيرة حولها في الصحف. وللأسف أن جهازي التلفزيوني العتيق لا يلتقط أوروبا. وذكرت ابنتي أنها أرسلت إلى هاتفي النقال عدة صور فوتوغرافية للحفلة الموسيقية. لكن مهما شرحت لي فقد تبين لي أنني لن أستطيع مشاهدة هذا كله. لكن عندما أرغب في ذلك جداً.. وأنا على أي حال مهندس.. وعندما شاهدت الصور - ابنتي حبيبتي شوفدا الحسناء في فستان سهرة صارم رائع، وما أكثر الزهور التي أهديت لها! طبعاً إن الصورة صغيرة الحجم، ولا يرى فيها كل شيء، لكن تراءى لي أنها كانت تنتحب في تلك اللحظة. كانت تبكي من السعادة والحزن. أنا على ثقة أنها في تلك اللحظة تذكرت ماما وفكرت فيها. وكيف أنها قادتها، بالرغم من كل شيء، إلى هذا النجاح. بينما حبيبتي شوفدا تبكي، وتنحني للصالة. ولا يعرف أحد، أنا فقط أعرف، أنها تنحني إلى أمها التي صبرت وتحملت كل شيء... والآن ابنتها.. الفتاة الشيشانية تقف على خشبة المسرح الأوروبية، ويصفق لها الجمهور، ويحملون الزهور إليها!

أنا أيضاً بكيت فترة طويلة. أنا بكيت إما لسعادتي وإما لمحنتي. إنني حتى لا أعرف كيفية التعبير عن مشاعري. وبعد ذلك شاهدت جهاز التلفزيون فترة طويلة، وأنا أختار القنوات. كنت آمل في أن يعرضوا ابنتي فجأة في مكان ما. إنها على أي حال مواطنة روسية، وحققت مثل هذا النجاح في أوروبا.. لا، إنهم كانوا على الشاشة في كل مكان يرقصون ويغنون، بالأحرى يتصنعون الحركات والتهريج. ابتذال وبذاءة في كل مكان. رجال وماهم رجال، وبهذا يتغندرون. والنساء شغلهن الشاغل أن يتعرين، والحديث يدور فقط عن الجنس. مسرح المنوعات! كنت أخشى خشبة المسرح هذه، ومسرح المنوعات والغناء هذا. بينما لم تستطع زوجتي أن توضح لي، أنا الأحمق، كما أنني لم أصغ إليها. وقد تبين أنها عنيدة.

2 يناير، قبيل الفجر

واصلت طوال الليل التطلع إلى صورة ابنتي شوفدا عبر الدموع المنهمرة. ماذا كنت سأفعل الآن من دونها؟

في أواخر الليل، أو بالأحرى حين بدأ الصباح يتنفس، كنت سأغفو، لكن انطلق عندئذ صراخ يصم الآذان، ويتسم بالحشرجة لكونه صادراً عن امرأة عجوز، ويفيض بالألم. يبدو أنها جارتي العجوز، ومن يكون غيرها؟. كانت تدق الباب والجدران بيأس بشيء ما. لقد طلبت مني الممرضة أن أعتني بها. لكن كيف أعتني بها؟ إنني لا أستطيع حتى الصراخ رداً على صياحها. ويبدو أنها تعاني من الألم وأحوالها سيئة. نعم....

إنني أذكر حينما قطعوا حنجرتي كنت أفكر بأنه لا يوجد إنسان أكثر تعاسة مني، وحتى فكرت عدة مرات في الانتحار، لكنني حينما رأيت تعساء آخرين مثلي، بدت مصيبتي هينة. هكذا الأمر، كل شيء يقاس بالمقارنة. فقط ألا يكون ذلك في أقصى الأحوال. وكل شيء في الاعتدال. ولكن أين هذا الاعتدال؟ أوي، إن العجوز تصرخ من جديد، وتدق الباب. أظن أنني وجدت وسيلة لتهدئتها - فبدأت أيضاً بدق الباب والجدران بقبضتي. يبدو أنها هدأت وأدركت أنها ليست الوحيدة في هذا الحال. لا بأس. بعد ساعتين ستأتي الممرضة، وسيقدم الفطور. سأحتسي الشاي الساخن على الأقل. وعموماً أصبح المكان بارداً، بارداً جداً. ربما إن الجو في الشارع أصبح بارداً. أو يوجد عطب في وسائل التدفئة. لا توجد هنا بطاريات - التدفئة تتم بتسخين الهواء بالوسائل الحديثة. نعم، ثمة أمر ليس على ما يرام... أو ربما إن العجوز شعرت بالبرد والجوع؟

في اليوم نفسه، صباحاً

لقد تبين أنني غفوت. استيقظت لشعوري بالبرد. كانت الساعة الحادية عشرة، ولم تأت الممرضة. ربما إنهم يواصلون الاحتفال.

وعموماً هذا أمر جيد أن أكتب، ويغمرني الهدوء حقاً. ولو أنني أستطيع الكتابة عن شيء واحد فقط، عن حياتي. أي كما يقال - يتبع. وعن الأمور المحزنة فقط.. لكن دعك لا تتصور، بأن كل شيء بهذه الصورة... فالنهاية ستكون رائعة! أنا واثق بذلك. أنا أناضل في سبيل ذلك. وأنا أحيا بذلك. وأبتهل من أجله. لكن ينبغي الاحتفاظ بالتواصل الزمني. أنا أصف الأحداث في أواسط ونهاية عام 1994-عشية اندلاع الحرب. إنني حتى لا أريد أن أتذكر هذا الكابوس، والمعاناة من جديد.. لكن لا يوجد ما أفعله لاحقاً.

عموماً سأتحدث عن الحياة في ستافروبل...

لقد اعتادت زوجتي على التنقل من مكان إلى آخر، وتعلمت كيفية استئجار الشقق - بالقرب من المدرسة، ولا سيما من المدرسة الموسيقية. المدينة هادئة جداً، وبدا أن كل شيء على ما يرام، لكن الأمر ليس كذلك تماماً. إنهم هنا لا ينتظرون مجيئنا ولا يحبوننا. لكن هذا ما بذرناه و... في الأحوال كافة إن الحياة مريحة أكثر جداً من الحياة في جروزني، - مجرد أنها أكثر أمناً فحسب. لكن لدينا هنا مشكلة واحدة هي صحة الابن الأكبر: فقد أصيب بالتهاب الكبد، والأمر الأكثر سوءاً - الاضطراب العصبي. ونصح الأطباء بأخذ الصبي إلى موسكو. وهذا ما فعلت. وقيل لي في

موسكو إن عملية التأهيل واستعادة صحة الطفل تكلف نقوداً، ويجب أن تكون الأم والأسرة إلى جانبه. عندئذ قررت نقل العائلة كلها إلى موسكو، لكي نكون جميعاً سوية.

إن موسكو ليست ستافروبل، ناهيك عن جروزني. فهنا تتوافر أمور مفيدة كثيرة، وعلى أقل تقدير، إن زوجتي راضية جداً عن علاج الابن الأكبر، والأكثر عن وجود مدرسة موسيقية بالقرب من الشقة التي استأجرتها. واستئجارها غالي الثمن، وعموماً إن موسكو مدينة غالية جداً، وأنا بعت السيارة وبدأت بالبحث عن عمل. أي عمل يوجد لعامل نفط مختص بحفر الآبار في موسكو؟ لكن تبين أن هناك حاجة إلى خبرتي المهنية. فإن مؤسسة «سورغوتنفطغاز» بدأت باستثمار حقل نفط جديد في اقوتيا البعيدة. إن الموقع يبعد عن مدينة ياقوتسك مسافة أربعمائة كيلومتر ويتم الوصول إليه بالسفر جواً بواسطة المروحية. ويتم ذلك بالسفر نحو الشمال. والعيش هناك في فيافي التايغا، في عربات سكن مجهزة خصيصاً، وربما في خيمة. ومفهوم أنني لا أستطيع أخذ العائلة معي. ولا يجوز مغادرة العمل خلال نصف عام، ولدى انتهاء الفترة أحصل على إجازة لمدة أربعين يوماً. وهناك يسود قانون منع شرب الخمر منعاً باتاً- الأمر الذي يفزع الكثيرين، وأنا مرغم على السفر إلى أقاصي المعمورة فقط من أجل الحصول على الراتب الشهري. أنا كتبت طلب الالتحاق بالعمل وكنت أعتزم السفر وفجأة هتف الزملاء من جروزني.

إن دائرتك تنهار وتنهب.

واستفسرت: - من الرئيس هناك؟

- لا أحد.. لا يريد أحد العمل. الجميع يهربون، ويخافون. وأنت تخاف أيضاً وتهرب إلى التايغا نهائياً.

- عندكم فوضى وانفلات الوضع.

- ليس «عندكم» بل عندنا. ونحن نعيش هنا... لا يوجد ولن يكون لدينا وطن آخر. وإذا كان حتى أمثالك يخافون العيش في وطنهم ويهربون إلى سيبيريا في سبيل البحث عن لقمة العيش، فماذا يمكنني أن أقول بعد هذا، ما العمل، يا أخي؟

انقطع الاتصال بحدة. أما أنا فلم أستطع الاستسلام للكرى في تلك الليلة، ومع هذا عندها راودني الحلم فرأيت العجب - كما لو أنني أراه بعيني في جبالي. واستنشقت ذلك الهواء، وشربت من ذلك النبع وكدت أحلق وأحوم حول القوقاز، والمنظر - مدهش! وفي الصباح أمعنت الفكر. طبعاً في سيبيريا النقود، ويجب عليّ أن أنفق على عائلتي ليس في أي مكان بل في موسكو الغالية، وحيث أحيا مثقلاً بالديون. لكن موطني يدعوني إليه. أريد أن أرى موطني مرة أخرى، وإلقاء ولو نظرة واحدة على الجبال. انخرطت زوجتي في البكاء: فالذهاب إلى جمهورية الشيشان الآن يقترن بمجازفة كبيرة. الإشاعات الواردة من هناك سيئة جداً. لكن لم يكن باليد حيلة.

كان الوصول إلى جروزني صعباً للغاية! فالجمهورية محاصرة وفي كل مكان حواجز الأمن وسيول اللاجئين، بينما أنا أذهب إلى جمهورية الشيشان. إن جروزني خاوية تقريباً حتى في النهار. وفي كل مكان تتناثر القمامة ويسود الفقر، والناس في حالة فزع، والجميع يتحدثون عن الحرب القادمة، وحتى الرئيس، وقد تحدث عن ذلك بتلذذ، فهو عسكري. ولم أرغب بالبقاء في المدينة، وعزمت على الصعود إلى الجبال فوراً. لكن ذلك لم يكن بهذه البساطة. أما البيت الذي اشتريته في ضواحي جروزني فقد نهب، وسرقوا كل ما يمكن حمله منه، وحطموا حتى زجاج النوافذ. وعبثاً البحث عن اللصوص. ولأمر ما اعتبرت أن لا فائدة حتى من إصلاحه. لا سيما أن نقودي على وشك النفاد. بينما يوجد لدي مسكن في وسط جروزني. لكنني أمضيت فيه ليلة واحدة، ثم انطلقت إلى الجبال.

ستبقى راسخة في الذاكرة الأيام الثلاثة التي قضيتها في موطني في الجبال- كما في الجنة! كنت أستجم في شيء من النشوة. وغمرني هدوء النفس والأحاسيس النيرة. أردت البقاء، والعيش هناك إلى الأبد. لكن، هيهات! الحياة غالية، ويجب علاج ابني في موسكو. ويجب الإنفاق على العائلة في موسكو. بينما يجب عليّ أن أذهب إلى جروزني - إذ ينتظرني العمل هناك، لكن لو كان العمل فحسب، لعملت بكل ارتياح، لأنني لا أعرف شيئاً غير العمل. نعم، جروزني في أواخر عام 1994، هذا ما يعجز لساني عن وصفه. فقد بدأت الحرب. في البداية تقاتل الشيشان مع الشيشان، لكن في ليلة العام الجديد بالذات بدأ هجوم القوات الروسية، وإنهالت على جروزني ضربات الطيران والمدفعية الثقيلة. ولا أعتبر ذلك شجاعة بل حماقة مني أن أبقى في ليلة عيد رأس السنة في نوبة الخفارة في دائرتي لحفر الآبار. وتقع مكاتبنا على مرتفع في ضواحي جروزني. ورحت أتطلع من جانب إلى هذه الألعاب النارية القاتلة بفزع وفضول. وتملكني الخوف ولم أرغب في أن أصدق ذلك، ولم أرغب في أن أفهم هذه الحرب. لم؟ ولأي غرض؟ والشيء الرئيس - ماذا أعمل أنا هنا؟ لا يوجد هنا راتب شهري ولا أي شيء آخر، بينما أقف هنا كالأحمق في موقع العمل. ورحت أفكر في العائلة والأطفال. ولم أعرف ماذا سأعمل، وكيف ستتطور الأمور؟ كنت أشغل جهاز اللاسلكي باستمرار- لكن مركز التوجيه المركزي التزم الصمت، ثم توقف الاتصال كلياً. فأدركت بأنه لن ترد بعد ذلك أي أوامر، ويجب أن أعمل بإرادتي. وما دمت الرئيس فإنني يجب مثل قبطان السفينة الغارقة أن أبقى هنا حتى النهاية وحتى ورود أمر آخر. ويالي من أبله. لا أعلم كم كنت سأصبر: فقد بدا أن كل شيء هادئ في دائرة الحفر، واعتقدت أن التفكير السليم سيتغلب، وستتوقف هذه المذبحة فجأة. لكن اشتدت حدة التوتر أكثر، وباتت المدينة كلها تقريباً طعماً للنيران. عندئذ دار في خاطري كيف تعاني العائلة. ووجب أن أعمل شيئاً، وأن أنجو بنفسي. لكنني لم أعرف ما العمل، وكيف أنجو. كانت لدي سيارة «نيفا» التابعة للدائرة ويمكن بواسطتها السير في أي طريق وعر، لكن كيف أسير إذا ما كان الرصاص يلعلع في كل مكان، وتحلق في كل مكان الحوامات والطائرات. والحق يقال - إنني كنت خائفاً وأسفت جداً لأنني لم أهرب في الوقت المناسب من هذا الكابوس. وحالي مثل حال الشخص التائه في الغابة، فهولا يعرف إلى أين يذهب وماذا يعمل وماذا سيكون؟ أخذت بخناقي سآمة مضنية، والإحساس بأنني وحيد إلى الأبد. أنا كابدت هذا الإحساس في طفولتي، طفولة اليتم والجوع والبرد في كازاخستان. آنذاك أنقذني وغيَّر مجرى حياتي فحسب عمي المحبوب والعزيز جيخو. لكنه غير موجود، ويوجد ابنه. إنه بالنسبة لي كالأخ.. كان ذلك بمثابة إلهام واستعادة البصر والخلاص. فأغلقت جميع الأجهزة في دائرة الحفر.

وأغلقت الغرف كافة وختمتها بالشمع، ولآمر ما كتبت عند المدخل: «ممنوع الدخول. الجميع ذهبوا إلى الجبهة. وسيعودون قريباً».

ذهبت إلى بيت العم جيخو ولأمر ما كنت واثقاً بأنه لا يحدث لي أي مكروه. بالرغم من أن المشاهد حولي تبعث على الرعب: ففي أطراف المدينة تربض دبابات ومصفحات محطمة وحطام سيارات وحتى جثث. لكنني لم أرغب في رؤية هذا كله واستكناه مغزاه. أردت الانصراف من هناك بسرعة. وكلما اقتربت من وسط المدينة بدا المشهد أكثر بشاعة - إنها حرب حقيقية. لا يمكن التعرف على أي شيء. إنني حتى أضعت دربي، فلم أعرف الشوارع، بينما بدأ في مكان قريب تبادل إطلاق النار بعنف، وحدثت انفجارات رهيبة. رعب.. تملكني رعب وفزع لا يمكن السيطرة عليهما. وأردت أن أستدير بالسيارة وبدلاً من الفرملة ضغطت على البنزين - فاصطدمت السيارة بحافة الرصيف وسقطت في حفرة هناك. ولحسن الحظ كانت السيارة متينة البينان ولكنها لم تنقذني في اللحظة التالية. فقد انطلقت نحوي مباشرة عربة عسكرية رهيبة من وراء المنعطف، وسط سحب الغبار والدخان، وهي تطلق العويل. وأنقذتني المعجزة وحدها: إذ أدرت العجلة وضغطت على البنزين. لقد جاءت الصدمة في موضع العجلة الخلفية. انقلبت السيارة، واصطدمت بشجرة في الجانب الآخر. لقد هزتني هذه الضربات وألقتني جانباً وسقطت على المقعد، وإلى جانبي الهدير والدخان والغبار الصادر عن العربة المندفعة.. وفجأة - حل السكون. سكون رهيب، قلبي فقط ينبض، ولدي رغبة في الإفلات من المكان. فقفزت من السيارة بخفة جداً ومشيت عبر حديقة صغيرة وجدار عالٍ - وولجت باحة ما، ورأيت هناك باب عنبر ما - فدخلت إليه. وشاهدت في العتمة الخليفة سريراً خشبياً انطرحت عليه وعندئذ فقط شعرت بألم شديد في كتفي، وفي جسدي كله، وفي روحي. شعرت بضيق خانق وبألم. وأردت أن أغفو في هذا العنبر الغريب والقذر والرطب والبارد، وبدا لي أن هذا كله كابوس، وليس واقعاً، وإن هزيم المدافع وهدير الطائرات - صادر عن تلفزيون الجيران الذي يعرض فيلماً عن الحرب. لكن هذا واقع، واقع مرير لا يطاق، وتنتظرني عائلتي، وفي مكان أقرب جداً ينتظرني أخي - ابن العم جيخو. وهناك الخلاص.
ونهضت عقب هنيهة طويلة وتطلعت بوهن شديد من مكمني. وتبين لي أن أي أحد لا يعيش في هذا المسكن منذ وقت بعيد. أما البوابة فإنها تكاد أن تثبت بالمسامير. أنا لم أستطع أن أفهم كيف استطعت أن أجتاز هذا الحاجز سابقاً. وأنا الآن اجتزته بصعوبة، وبمساعدة مختلف الأدوات.

كانت سيارة «نيفا» الحكومية مثل العالم المحيط بي، ودهشت كيف بقيت على قيد الحياة؟ فقد أدت الصدمة إلى انبعاج القسم الأوسط من السيارة وولوج نصفه إلى داخل الصالون - لهذا السبب تؤلمني كتفي. لو كانت الصدمة في موضع أعلى بقليل؟ يعني أنه القدر. لكنني في تلك اللحظة لم أكن أفكر بالموت، وكنت أفكر في الحياة فقط، ولو أن الموت كان يحوم قريباً، وكان أقرب هدف لي هو - الوصول إلى البيت، بيت العم جيخو العزيز إلى قلبي. لكن ماذا لو أنهم رحلوا؟ إنهم رحلوا في أغلب الظن. حتى سيكون هذا أفضل، إذا ما أصبحوا الآن في مكان آمن. لكن يجب عليّ أن أذهب إلى هناك - فقد اعتدت على المكان منذ الطفولة، ففيه بيتي العزيز، وخلاصي. أنا لا أعلم من أين اكتسبت عندئذ الجرأة والنشاط، ربما هذا بسبب أول صدام مع الحرب أو بسبب الألم المتزايد في الكتف، وربما بسبب التصور - ولايمكن السماح بتصور آخر - أن السلام يعم في البيت القديم للعم جيخو، السلام لي! لكن يجب أولاً الوصول إلى هذه الواحة، وبلوغها، لكنني

أخفقت في إيجاد طريقي، فلم أتعرف على الشوارع والمباني فحسب. وتملكني مجدداً، خلال الأيام الأخيرة، شعور رهيب لا يطاق، بأنني ضللت الطريق، وضعت. فكل شيء غير معروف لدي تقريباً، ولا أتقبله كواقع، وأنا لا أريد مرة أخرى أن أصدق ذلك، ولا أفهم كيف يمكن أن يصل الناس إلى هذا الحد من الهمجية بممارسة: القتل والقصف والتدمير والصدم بالمدرعات؟! هذا حلم، ومجرد كابوس. ولهذا لا أتعرف على شيء، كما لو أنني في مدينة غريبة. وبغتة شاهدت برج الماء الضخم العتيق الذي شيد قبل الثورة والمألوف لدي منذ أيام الصبا - إنه نصب تاريخي ومعماري، ورمز راسخ للمنطقة القريبة من محطة القطار. ويوجد إلى جانبه بيت العم جيخو. فسارعت في الخطو، وصرت أهرول تقريباً، وفجأت توقفت أمام البوابة. وقبل أن أمسك بيدي مقبض البوابة أدركت وتحسست أنها الحرب، الحرب في كل مكان... هل يصدق أن ابن العم جيخو، أخي، بل حتى الأقرب من الأخ، قد رحل وهرب؟ إنه شيء جيد جداً أن هرب وعائلته من هذا الكابوس، وأنا مسرور ومطمئن من أجلهم. لكن لماذا لم يحذرني؟ فقد كنت في مكان عملي، ولكن لم يوجد اتصال، ولم يتوافر الأمن،- ومع ذلك.. مع ذلك دفعت البوابة - إنها مغلقة. إنها مغلقة بقوة. لقد أغلق ما كان عزيزاً وقريباً لي طوال حياتي، إنها كانت مفتوحة أمامي على مصراعيها دائماً، ولم يكن لدي غيرها. لقد ذهلت، وشعرت بالاستياء، وبشعور الإساءة هذا أخذت أطرق البوابة، حتى ضربتها بقدمي مرتين. ويبدو أنني انفعلت جداً حتى غدا صراخي أعلى من هزيم المدافع. وظهر في البوابة المجاورة رأس شيخ عجوز:

ماذا تريد؟ ماذا تفعل هنا؟

وأجبته عن سؤاله بالمثل: - وأنت؟

أنا أعيش هنا، ولا يوجد مكان ألجأ إليه.

وهؤلاء أين هم؟

إنهم نقلوا متاعهم منذ وقت بعيد، أما هم فغادروا المكان قبل أسبوعين. فدهشت: - كيف منذ أسبوعين؟

-أنت لا تعرف؟.. أين كنت حتى الآن؟

- في العمل.

- أي عمل في زمن الحرب! لا يجوز الذهاب إلى وسط المدينة. ألا تسمع ما يدور هناك.

- أريد أن أدخل الشقة. الوثائق.

- أي وثائق؟! انتظر عندي.- وعندما سمع جوابي الحازم «لا، يجب أن أذهب» قال: «كما تريد» واختفى وراء البوابة، وترددت قرقعة لسان المزلاج الحديدي، كما لو أنه ينقذني من الحرب، بينما

بقيت واقفاً، ولم أعرف ما العمل، وفجأة سمعت صوتاً من وراء السياج:

- لو كان الشيخ جيخو في مكانه لما رحل. أما ابنه - وغشيت الصوت نبرة حزن - فقد كسب بعض المال، ورحل. إنه تغير كلياً.

وفكرت في دخيلتي: «نعم، تغير». لكن تغير ليس ابن العم جيخو فقط، بل العالم كله تغير. لقد تغير على حين غرة. أنا واقف أمام بوابة العم جيخو المغلقة - البوابة العزيزة إلى الأبد، ولم أعرف شيئاً ما يجري، كابدت صدمة، وانقباض النفس. وكنت أحيا دوماً وفق الدروس التي أعطاها لي العم جيخو - تعلم، اعمل. وبدأ أنني قد وعيت الدروس وعملت طوال حياتي. وفكرت حتى في زمن الحرب بأنني يجب أن أعمل. فأنا كادح. وإذا لا أعمل فمن سيطعم العائلة؟ إن عملي وكدحي بالذات منح ابن العم جيخو الفرصة لممارسة بزنيس النفط - وهو ما لم أستطع ممارسته البتة. إنه الآن ثري جداً. على أقل تقدير أنا أعطيته النفط في البداية، ثم أصبحت مديناً له.

... لكن هل كنت لحظتئذ، حين كنت واقفاً عند بوابة بيت العم جيخو، أفكر في النقود؟ إنني كنت أفكر في أمر آخر. لماذا رحل بغتة أقرب شخص إليَّ في الحياة عند بدء الحرب، من دون إبلاغي. طبعاً، إنه أنقذ عائلته. وأنا أيضاً نقلت عائلتي بغية إنقاذها. ماذا كانت سأفعل لو كنت في مكانه؟ أنا لا أعرف. لكنني كنت أعرف بثبات أن العم جيخو ما كان سيفعل ذلك أبداً.

كانت هناك أزمان! وكان هناك بشر! وكيف كان حال الشيشان: مساعدة متبادلة، وتلاحم. أما الآن؟ الآن - النقود فوق كل شيء. ويتوقف رفاه عائلتك على توافر النقود. والعائلة بالنسبة لي وللجميع - فوق كل شيء... لكن ألم تكن سابقاً الشيء الرئيس؟ يبدو، أنها لم تكن. لأن الشيشان الحقيقيين التزموا بشعار: يمكن أن تساعد الغير، فقط عندما تتخلى عن مصالحك... لكن هذا ليس الواقع إنه مجرد كلام. وما دام هو كلام فلا ينبغي الآن أن ألقي باللائمة على ابن العم جيخو. فأنا لم أجلس في مكان عملي من أجله. وكان من واجبه، وليس من واجب أحد آخر، إنقاذ عائلته. بينما أنا عملت من أجل كسب الأجور، ومن أجل النقود. لو توافرت لدي النقود لكنت أنا في موسكو مع العائلة، وليس في جروزني. أنا أفكر وأكتب الآن بهذا الشكل، أما آنذاك حين كان الجميع يقصفون ويطلقون النار ويقتلون فقد راودتني أفكار أخرى. كنت مغتاظاً جداً على ابن العم جيخو. إنه خاضع لإرادة زوجته.. وفي الحياة؟ في واقع الحياة حدث شرخ صغير في العلاقات بيننا. على أقل تقدير، فقد أدركت ما أستطيع أنا عمله وليس غيري، ولم تعد هناك قرابة دم بيننا... ولو أن كل شيء ممكن الحدوث بين الأشقاء... لكن هذا كله فلسفة وربما إنها مناسبة حالياً، لكن في ذلك الوقت كانت لدي مشاغل وهموم أخرى. فقد خيم على العالم بأسره أمر واحد: لينقذ كل شخص نفسه! ولأمر ما خيل إليَّ الآن إن شقتي - بيتي، قلعتي، وسأكون هناك محمياً وفي أمان. ولو أنني كنت أعرف بأن الواقع غير ذلك، فلا توجد هناك أشاء ثمينة، سوى مكتبتي الصغيرة، والصور الفوتوغرافية العائلية، ووثيقة مهمة جداً بالنسبة لي هي - دفتر الخدمة. والآن فقط بدأت التفكير بهذا بجد. فقد جرى استدعاؤنا جميعاً إلى قسم الذاتية، وسلمونا دفاتر الخدمة الذي يجب أن تحفظ في قسم الذاتية فقط. معنى ذلك إنهم كانوا يعلمون بأن الحرب ستندلع؟ كان الجميع يعرفون وأنا

أيضاً أعرف بأن الأمور تسير إلى ذلك باطراد، فهناك من يحتاج إليها، والحرب هي بيزنيس، ونقود، وسلطة وسياسة. كانوا يعرفون هذا كله، لكنهم لم يصدقوه.

أنا لا أريد التحدث أو الكتابة عن ذلك.. ويومذاك رغبت جداً في الوصول إلى شقتي ودخولها أملاً في أنها ستحميني. وكان ذلك ممكناً فقط تحت جنح الظلام. وقد وقفت أمام ما هو بيتي تقريباً، وكانت أبوابه حتى مفتوحة، وكدت أدخل الباحة حيث كان يعيش العم جيخو في زمن ما. ولكنني لم أدخلها. وتذكرت العنبر - إنه أصبح ملكاً لي كما يبدو - فدخلته، ولأمر حتى لم يراودني الخوف. يبدو أن الألم المتزايد في كتفي، والأمر الأدهى الألم في أعماق روحي - أحدثت صدعاً أيضاً ذكرى العم جيخو - قد أخمد الشعور بالخوف. وحتى لم أرغب في العيش في هذا العالم. لكن يجب عليّ أن أعيش، أو بالأحرى أن أبقى حياً، لأن البرد شديد في عنبري - الشتاء، وأنا جائع ومنهك جداً، لكن يتوافر فيه الأمن في الأحوال كافة.. وفجأة بدأ قبيل الغسق قصف مدفعي عنيف! لقد ارتج واهتز ليس فقط العنبر المتهاوي، حيث ملجأي، وحتى السرير ارتج وزحف من مكانه، وعندئذ حدث دوي ألقاني أرضاً، وبدا لي أن الأرض تهتز سوية معي. وعندما رفعت رأسي في ابتهال، - فظاعة! - لقد تحول السقف والجدران إلى غربال تقريباً، وظهر نور من الشارع، كما لو أن الشمس قد أشرقت، إنه لهيب نار الغاز المشتعل في إنبوب الغاز الرئيس. وفكرت بأنه ما دام الغاز موجوداً فمعنى ذلك إن أحداً ما لا يزال يعمل، وربما، وهو الأكثر احتمالاً، إنهم لم يفكروا بالأمر وهربوا. ويجب عليَّ أن أهرب أيضاً. أهرب إلى بيتي. ولماذا إلى بيتي؟ أي بيت؟ إن الشقة تقع في مركز المدينة. وهرب الجميع من وسط المدينة بينما أريد الذهاب إلى هناك باصرار. لماذا؟ لا أعرف. لقد تراءى لي فحسب، أن هذا بيتي، وأنا مسجل قانونياً فيه، ويجب ويمكن أن أكون هناك. وإن في هذا خلاصي... هذا حالي طوالي حياتي... وبدلاً من السير عكس التيار مشيت في طريقي، وأعتبر ذلك صائباً ونزيهاً وعادلاً. لكن أي عدالة في الحرب؟ وأين الطريق الصائب والنزيه في الحرب؟..

لقد حاولت في هذا الكابوس، وذلك الظلام الدامس في الليل الشتوي، الذي يصبح أكثر قتامة بعد الإضاءات المستمرة الناجمة عن الانفجارات، الوصول إلى البيت والملجأ المنشود، ولكن وقع عندئذ انفجار شديد بالقرب مني ألقاني نحو الجدار، وتعثرت. وفكر كياني الخائف بأنني يجب أن أزحف كالدودة! وزحفت على أربع تقريباً بمحاذاة جدار بدا لي طويلاً، حتى بلغت سلماً يؤدي إلى مدخل مبنى يسوده ظلام الخلاص، فولجته بسرعة، وابتلعني.

ربما شعرت لأول مرة في حياتي بالخوف من الموت. وبدا لي أن هذا القصف كله، وإطلاق النار كله، موجهاً ضدي، من أجل قتلي والقضاء عليَّ فقط. وبدأت أشعر بالألم وبالمعاناة والنهاية. لكنني أردت أن أعيش، أردت ذلك جداً، وأكثر من أي وقت مضى، وبحثت لسبب ما عن الخلاص ليس في نور الكون الذي يندلع في الخارج، بل بالعكس في الظلام، في الظلام الدامس، بغية أن لا يراني أحد، ولا يطلق النار عليّ. ولهذا فعندما شاهدت بعد وقوع انفجار جديد سلماً يؤدي إلى القبو هبطت ببطء إلى الأسفل، بحذر وبخوف، وبالارتكاز على يدي المتجمدتين والمرتجفتين، فوق الجدار الرطب والقذر بجلاء، كما لو أنني أهبط في ظلام جهنم، لكنه بدا لي أفضل... وفجأة سمعت صوتاً

بشرياً - صوتاً نسائياً، وفي خلاله صراخ عجائز وشيوخ وأنيناً، وصوت آلام. إنها آلام الحرب الجهنمية...

في اليوم نفسه، مساء

لقد عشت أعواماً طويلة. ويمكن القول، عشت حياتي كلها تقريباً، وبقيت الآن في نهاية حياتي. وفي الختام أحاول كرجل عظيم ما تدوين هذه المذكرات، علماً بأنها ليست تقريراً وحصيلة ما، بل بمثابة اكتشاف ما - فقد تنورت واستعدت البصيرة وينبغي الآن أن أكشف لكم مغزى الحياة. لكني لا يتسنى لي القيام بهذا الآن باقتضاب وبشكل مفهوم، وفي أغلب الظن لن أفلح في ذلك، لكنني سأسعى إليه. وفي الحقيقة وبفضل هذه الكتابات أزجي الوقت (لا أريد أن اكتب كلمة - أقتل)، كما إن طبيب الراديوعلى حق، فأنا عندئذ أصبح هادئاً. ها آنذا أكتب. وبغية إدراك مغزى ما في الكتابة أذكر ما يعرفه الجميع -لا يحدث في الحياة أي شيء بشكل مجرد، وبالصدفة، وتوجد لكل شيء أسباب ونتائج ولا مهرب من الأقدار: الحياة - دراما! إن توارد الكلمات هذا كله (أردت القول المقدمة) غايته القول بأن جارتي في المحنة يتعالى صراخها اليوم أكثر من البارحة، بحزن وضنى، إن العجوز تصرخ من الألم والوهن. لكنني يجب أن أعتني بها حسب أمر الممرضة. لكن كيف؟ إن هذا الصراخ والأنين يؤلمني جداً. يؤلمني لأسباب عديدة، لأنني أعرف جيداً هذا الصراخ وهذا التألم الفظيع. ولعل أفظع الأمور وأشدها إيلاماً إن أنين العجوز هذا قد تزامن مع تلك اللحظة من حياتي التي أبتغي وصفها الآن في كتاباتي. هنا بمثابة تذكير بحرقة جداً، وبممارسة العنف والاستهزاء... بالمناسبة، ماذا يمكن انتظاره من الحرب غير هذا؟! فأنا لا أستطيع الآن وصف جميع التفاصيل والمعاناة والآلام، وهيهات أن أستطيع ذلك - لأن هذا الوصف مستحيل، ولا أرغب في استعادة الذكريات. لكن هذا واجب. ولأي غرض ومن أجل من؟ أنا لا أعلم. لكنني سأسعى أن أورد بإيجاز تلك المحنة الفظيعة، لا سيما أن صراخ العجوز من الردهة المجاورة قد قبس جمرة الذكريات. ويبدو لي أحياناً حتى أنني أصبحت مجدداً في ذلك القبو ولم أخرج منه أبداً.

في الحصيلة لم أصل إلى شقتي أبداً - وألقتني الحرب في قبو رطب وقذر وبارد في مبنى متعدد الطوابق، حيث لجأ الناس من القصف. وجميعهم تقريباً من الروس، الشيوخ، وغالبيتهم من النساء... ولن أصف كل شيء. وسأقول فقط إنه في اليوم التالي (بتنا ليلتنا كيفما اتفق) انصرف كثيرون في شتى الاتجاهات. مفهوم فقد بحثوا عن الخلاص. والخلاص ليس من الحرب فقط بل من الصراخ الذي يصم الآذان... فقد كانت في القبو عجوز مصابة بالسرطان. إنها ضخمة الجثة، كما لوكانت منتفخة، وبالأخص رأسها، حيث توجد بؤرة المرض. إنها لا تستطيع المشي وحتى لا تستطيع الجلوس. وكانت معها ابنتها، بالمناسبة هي طبيبة، وفي مثل سني. أنا أعرفها فهي تعمل رئيسة شعبة في المستوصف التابع لدائرتنا. إنها امرأة، أولجا سيرجييفنا، لطيفة وطيبة وحانية جداً. كما كنت أعرف زوجها الشيشاني، وهو من العاملين عندنا في صناعة النفط أيضاً. وقد توفي بعد إصابته بالمرض. ورزقا بابن، وهو هنا أيضاً فتى ظريف ونشيط ومتهلل الأسارير. وقد شعرت بالأسى عليه أكثر من الآخرين. نبرت بلا حذر:

- لماذا أنتم لم ترحلوا، يا أولجا سيرجييفنا؟

فأجهشت في البكاء: - إلى أين؟ لا سيما معها. - ورنت بنظرة إلى أمها العجوز.

بينما واصلت أنا إلقاء الأسئلة السخيفة:

- تجب مساعدتها.. لكنك طبيبة.

- كيف؟! لن يساعد أحد. فقط الأدوية والعقاقير المخدرة. لكنها غير متوافرة...

إنها لا تبكي، ولا تنتحب، وتلتزم الصمت بصرامة... فيما بعد، وفي مسيرة الحياة، حينما أصبحت أعاني من ألم لا يطاق مثل هذا الألم أيضاً بسبب ضربات القدر، كنت أتذكر دوماً أولجا سيرجييفنا وقولها:

- التشخيص سيئ. وسيمضي كل شيء مثل أي حياة... لكن كيف سأحمي ابني، وكيف أنقذه؟ وقد أراد فاشا (الأخ وصيغة الاحترام - باللغة الشيشانية) أخذه، ورجاني، أنا - الحمقاء! لكن لم يتصور ما يحدث الآن.

حقاً، لايمكن تصور ذلك. وتحمل الآلام؟ إنها حاولت ذلك. حاولت جداً. وكانت تجلس دوماً في هذا القبو البارد النتن إلى جانب أمهاً التي كانت تعاني من الألم:

- يابنيتي أولينكا، ساعديني.

- ماما، ماموتشكا، اصبري.. سيزول الألم الآن، سيزول كل شيء، - وأخذت تمسد رأسها، وتقبلها.

يبدو أن العجوز كانت تعاني من الألم الذي يشتد، وصارت تئن وتصرخ. أنا أتصور حالتها، أو بالأحرى حالتهما الصعبة، لكنني ما كنت أطيق سماع ورؤية ذلك. ويبدو أن هذا جعل الكثيرين يغادرون القبو وحتى لا يخافون القصف المدفعي، وأردت أن أخرج أيضاً، لكن فيما كانت أولجا سيرجييفنا تهدئ أمها بشكل ما، اختفى ابنها.

فهرعت الأم إلى الخارج وهي تصرخ:

- روسلان! روسلان!

أما الفتى الكثير الحركة، المضطرب، المتقلب المزاج، فحتى لا يفهم كيف انسل من القبو من دون أن يلاحظه أحد، بينما كانت أمه المسكينة تنظر دوماً تارة إلى أمها وتارة أخرى إليه وتحاول مراقبته - لكن بلا فائدة. فقد كان روسلان يختفي دوماً وباستمرار، وعندئذ يمكن تصور ما يحدث

لأولجا سيرجيبفنا. لكن وضعنا سيغدو صعباً لولا طلعات روسلان هذه. فكان يتسلل إلى الشقق المهجورة، ومنها شقته، ويجلب الطعام من هناك: الدقيق والحبوب والملح والسكر والمعلبات وحتى جلب في إحدى المرات الكونياك، وفي غالب الأحيان كان يجلب الحطب. وخرج مرة من القبو أملاً في إيجاد دواء من أجل جدته، وحتى جلب شيئاً منها، لكن أولجا سيرجيبفنا كانت تعنفه، وتبتهل إليه:

- روسلان، أرجوك، لا تتركنا، أنا خائفة. وأخشى عليك.

وكان يجيبها بحنان الابن ورعايته ويحتضنها: - ماما، لا تقلقي، أنت نفسك قلت إن كل شيء سيكون على ما يرام، وستسير الحياة في دربها...

- صه! - انفجرت أولجا سيرجيبفنا،- وكان يرى حتى في عتمة القبو، كيف تألقت عيناها المتعبتان والمعذبتان من اليأس.

وهدأها الابن: - لا تقلقي، ياماما. لكنه اختفى مرة أخرى، وبفضل ذلك حصلت في الليلة الثانية على لحاف وحشية ووسادة. وفهمت من سكون أولجا سيرجيبفنا بأنها كلها من شقتهم. فشكرت الفتى وأردت أن أغفو - فقد هدني الإجهاد، لكنني لم أستطع ذلك، فالألم في كتفي كان يعذبني مثل وخز الأبرة، والعصب الملتهب. وأظن أنني، لولا وجود الناس معي لكنت سأصرخ من الألم مثل تلك العجوز المريضة، واكتفيت بالضغط على فكي بصعوبة. عندئذ دنت مني أولجا سيرجيبفنا، كما لو أنها تراني لأول مرة:

- هل يؤلمك شيء ما؟ - انحنت عليّ وقالت: - إنها الكتف. هيا اكشف ذراعك...

ازداد الألم حين مستني بأصابعها الباردة، لكنها بصفتها طبيبة لم تجاملني وقالت:

- لا يوجد كسر. مجرد كدمات. خلع... ضع يدك على كتفي.

لم أستطع رفع الذراع المريضة، فساعدتني، وراحت تضغط وتضغط على موضع الألم- نحو العصب مباشرة، وبغتة سحبتها بقوة!.. فصرخت من الألم الفظيع، وحتى جلست القرفصاء، وذرفت الدموع، لكنها ربتت على الكتف المريضة:

- الآن، اضطجع ونم، وسيزول الألم، سيزول كل شيء. وفعلاً زال الألم تدريجياً، فانطرحت على الحشية واستسلمت للكرى. أنا لا أستطيع القول كم من الوقت نمت، لكنني نمت نوماً عميقاً. وكنت أحياناً أستيقظ لدى وقوع انفجارات قريبة، لكنني أردت أن أنام، ولم أرغب في النهوض، ولم أرغب في تقبل واقع الحرب، وحاولت تجاهل برد القبو وأنين العجوز، وفجأة انتفضت لدى سماع عويل أولجا سيرجيبفنا الشديد.

روسلان! روسلان! - كان صراخها يسمع من بعيد. كانت قد خرجت من القبو، وحتى من مدخل المبنى، ولكن لم يعد يسمع صوتها. فاندفعت في أعقابها فسمعت في طريقي: «روسلان القناص...».

في دجنة الليل، ساد سكون مطبق، وتساقطت نتف كبيرة من الثلج الكثيف والموبر. رأيتها فوراً بالقرب مني. كانت تلتصق بالجدار لسبب ما، وجسدها يرتجف، وتنتحب. ورقد إلى جانبها شخص ما. كان قد غطاه الثلج، بينما يسيل الدم منه على الأرض فهو ما زال دافئاً، ثمة بركة كبيرة من الدم بدأت تميل العتمة. اندفعت إليه، فربما يمكن إسعافه؟ كان يرقد على وجهه، ويبدو ضخم الجثة وقوي البنية بشكل غريب، هذا ليس روسلان - اللحية السوداء.

هل يمكن إسعافه؟ - كنت أعتقد أن أولجا سيرجييفنا بصفتها طبيبة تستطيع عمل كل شيء، فأجابتني:

- روسلان، أين ولدي روسلان! روسلان! - لقد واصلت الصراخ، وأدركت بأن من الواجب إنقاذها نفسها. فدفعتها عنوة، وجررتها بكل معنى الكلمة إلى مدخل المبنى، وهناك «طق - طق»، وأصاب الرصاص الحائط جانبنا، ودخل الجص في عيوننا. لكن لا يمكن رؤيتنا بسبب الظلام والثلج الكثيف - ولهذا يطلق القناص النار لدى سماع الصوت (علمونا في الجيش أيضاً إطلاق النار لدى سماع صوت. لكنني أقول هذا لمجرد القول، وبالمناسبة...). تملكني الرعب، الرعب الشديد: إذ كنت على تماس مباشر مع الموت، وكدت أن أصبح هدفاً للقناص... فيما بعد تذكرت مراراً هذا المشهد - وفكرت بأنه لم يحالفهم الحظ ولم يصيبوني برصاصهم. وما أكثر مثل هذه المشاهد في حياتي - ففي الأحوال كافة كابدت في جمهورية الشيشان حربين مع بعض الخسائر، لكنني بقيت على قيد الحياة. لعل أصعب شيء حدث لي، حينما بدا أن الحرب انتهت وحل السلام.

لقد تبين أن الحياة كلها صراع - الحياة كلها حرب. أم أن هذا عندنا فقط في جمهورية الشيشان؟ لكنني لا أرغب في الكتابة عن ذلك. ولو ربما سأصل إلى ذلك. أي بمغزى - أنني سأكتب. والمغزى المفارقة، أن هذا كله سيمضي بمرور الزمن.

3 يناير. صباحاً

شهد مستشفانا (بالنسبة لي أن من الأفضل أن أطلق عليه هذه التسمية، وليس اسم المؤسسة العلاجية التجارية) اليوم حركة كبيرة. بل حتى حدث هرج ومرج. فمنذ الصباح أيقظتني الممرضة - الفطور. وعموماً يسرني أن أدس في معدتي شيئاً طازجاً. وحتى القسطر، عمل بصورة جيدة كما لو أنه جرى تنظيفه، أي سمح بمرور الطعام الطازج بشكل أفضل. وقد تحسن مزاجي كثيراً بعد أن شبعت. كما أن وضعي الصحي مقبول. ولهذا لم ألق بالاً على الأخص إلى كيف إنهال عليّ

الطبيب الجديد بوابل من الكلمات العنيفة بواسطة الهاتف. فقد تبين، وأنا أعرف ذلك، أنه لا يسمح لي بممارسة الجهد البدني، بينما أنا فعلت ذلك. وقد سجلت الكاميرا كل شيء، وصار العاملون في المركز الأمريكي في هلع. بينما أنا أعتقدت أنه ما دام الوقت هو العام الجديد ولا يوجد أحد في المؤسسة، والكاميرا لا تعمل، فقد أخذت حريتي في التصرف. لكن كلا فقد كان كل شيء تحت الرقابة الصارمة. ولم يهتم الأمريكيون بهذا الشكل بصحتي؟ طبعاً إن وراء ذلك نقوداً كثيرة، وهم وراء المحيط يحرصون على سمعتهم، ويناضلون في بيل كسب الزبائن - المرضى. ويفعلون هذا كله لدرجة أن الطبيب الراديوي هتف فجأة من أمريكا: إنه قلق أيضاً، وقال إن عطلته كلها ضاعت بسببي.

وعموماً بأي حال أنت؟! ما هذا المظهر!

فعلاً، أي مظهر هذا! وما هو ذنبي؟ هذه ملابسهم الورقية قد أصابها البلى، وأصبحت كلي في أسمال مثل روبنسون كروزو في الجزيرة غير المأهولة. لكنهم حتى في أمريكا يتطلعون إليَّ، أنا الصعلوك الرث الثياب. أي حياة هذه؟

كنت أعتقد سابقاً- أن الوضع كالتالي: إن الرب يرى كل شيء دائماً وفي كل مكان. ويجب أن أحبه وأحترمه وأثمنه وأخشاه. أما الآن فأنا محاط بالكاميرات من الأنحاء كافة، وأمشي في أسمالهم - من ورق النشاف، وقد دفعت النقود مقابل ذلك، بينما هم يعنفوني ويريدون إثارة خجلي... ما أشد كرهي لهذه الكاميرات! إنها تراقب العالم كله. ولماذا؟ من أجل أن يصبح الجميع وكل شيء تحت رقابتهم. فمن الأيسر التحكم بالعالم بهذه الصورة... لكنني أريد الحرية، وأريد ألا يراقبني أي أحد وأخاف الرب وحده.

لكن هذا من باب الخيال اليوم، وأنا دفعت النقود، لكي أحيا تحت الرقابة الأبدية. طبعاً، في مكان ما ينقذ المرء وضع العبد، لكنني أواسي نفسي بأنني حر في الجبال. ولو.. ولو أن الأمر ليس كذلك تماماً أيضاً. أنا لست على قناعة بأنه لا توجد كاميرات هناك؟ ربما أنها غير موجودة، لكن كل شيء يرى من الأقمار الصناعية. وهناك يوجد الخدم المتزلفون الذين لا مهرب منهم. إنهم متخمون في الاستهلاك، والعالم كله تحت الرقابة الشاملة والعالمية والليبرالية والحرية الفردية. وفي واقع الأمر كل شيء تحت رقابة الكاميرا ويراد حصر الناس في قوالب وعلب.

.. أحسست بأنني على وشك أن أنفجر، وشعرت أن كل ما في أحشائي في وضع الغليان، لحد أن أنتزع القسطر المنقذ، وأن ألقيه في هذه الصومعة. وكنت سأفعل ذلك، ولحظتئذ دق جرس الهاتف المنعش - هتفت ابنتي، وصوتها البلوري الحبيب مثل نبعي، وحتى أجعلها تطمئن حاولت أن تكون تأتأتي جيدة لدى الإجابة. وعموماً فإن هذا الهاتف النقال اختراع عجيب. ماذا كنت سأفعل من دونه؟ إن ابنتي توجد على بعد ألف كيلومتر، وأنا أسمعها بهدوء وحتى أستطيع رؤيتها، لكنني لا أجيد استخدام هذه التقنية. وهذا كله، وبدوره، بفضل هذه التقنية والتكنولوجيا والعولمة وشمولية العالم. ما العمل؟ يجب أن أساير الزمن، وأتكيف بشكل ما، والشيء الرئيس يجب البحث وبناء العالم في الذات، والعيش بانسجام مع الذات، لعلمي بأن كل شيء سيمضي مع الزمن. وبالنسبة له أنه سيمضي عاجلاً، وعاجلاً جداً. فأنا أتحسس الموت أحياناً، وهو يقف إلى جانبي. وقد علمتني

ذلك الحربان. وقد تبين أن للموت رائحة ووسطاً وقوة قاهرة لا فكاك منها خاصة به، والتي تبدأ بفرض سيطرتها وإرادتها وتضييق الخناق على ما هو حتمي وسري ورهيب وغير مرئي. وهنا لا تنفع الكاميرات ولا التكنولوجيا ولا النقود، ولا تنقذ المرء، وتستطيع فقط أن تؤجل النزع الأخير قليلاً، وتمدد عذاب الحياة ذي النهاية المعروفة.. وتردد مثل الجرس الأخير رنين الهاتف من الممرضة:

يجب أن تغير ملابسك. سيفتح باب ردهتك الآن. وتجد هناك في غرفة الفحص الملابس فوق الكرسي. ضع أسمالك في الحاوية الموجودة في ركن الغرفة.

ذهبت إلى غرفة الفحص كما لو كان عالماً آخر. ورأيت الممرضة وراء الزجاج، ولم أشعر بالخجل منها. إن مظهري لم يعد منذ وقت بعيد لا يشبه مظهر رجل، وبدت ملابسي كالكفن. لكنني غيرت ملابسي بهدوء، وتطلعت إلى المرآة بصورة عفوية، يبدو أن المظهر نفسه، وهو حيوي أيضاً، ولحظئتذ لاح في خاطري: الموت قريب - كان هنا ولا يزال، فرفعت سماعة الهاتف الداخلي. وفعلت الممرضة الشيء ذاته. أنا لا أستطيع التحدث، فهنهنت، ورحت ألوح بيدي بشكل ما، ولكنها فهمتني:

- نعم، لقد توفيت العجوز.. لم يأت أحد لاستلام جثمانها، فنقل إلى معرض الجثث..

عندئذ تذكرت، بل حتى تصورت الحرب. وقبونا. وأقول فوراً إن روسلان رجع. رجع في الليلة التالية. وماذا جرى خلال يوم كامل من ذلك! أنا نفسي كابدت فحسب جميع آلام المسكينة أولجا سيرجييفنا. لقد شاخت خلال يوم واحد ما يعادل 10 أعوام، لكنها صمدت، وقويت عزيمتها، وكانت تمسح الدموع سراً إلى جانب أمها. أما الجدة المريضة فإنها بعد النوبة الأخيرة هدأت، بينما هرولت أولجا سيرجييفنا إلى الخارج وصرخت:

- روسلان، أين أنت؟

لا أدري، هل انصرف القناص، أو غفا أو اشفق عليها وعليه، فلم يطلق النار على أي أحد في ذلك اليوم. بينما أنزلت أولجا سيرجييفنا عدة مرات إلى القبو. واستمر الحال بهذا المنوال طوال النهار، وفي الليل ظهر روسلان فجأة في القبو - وسخ ومتعب وفي سترة ممزقة.

اندفعت أولجا سيرجييفنا نحوه وصاحت: - روسلان، يابني، - وراحت تلطمه بلا كلل، وتعنفه. بينما ارتسمت على سحنته علامات اللطف والحب حيال أمه، واحتضنها بكل حرارة ولطف، بينما هي تراخت وارتجفت بكل حزن وكآبة وأجهشت في البكاء، ما جعل العالم بأسره، مثل هذا القبو القذر والحقير يتحول إلى عالم يأس فظيع لا رجعة عنه. ولم أستطع البقاء هناك أكثر، إذ كنت أختنق وأحسست بأنني سأقبر حياً هنا.. وقد أحسست بذلك جسدياً تقريباً. عندئذ جال في خاطري - كما لو كان ذلك آخر واجب لي على هذه الأرض!- أنني يجب أن أدفن، أو أن أفعل شيئاً ما، لكي أواري جثمان الشاب في الفناء. كان الوقت ليلاً. والجو بارداً، بارداً جداً. وهبت ريح ثلجية، وحتى مصحوبة بالصفير. وبدا لي أنه يتطلع إليَّ من كل نافذة محطمة قناص يسدد سلاحه المزود بجهاز

الرؤية الليلية نحوي. أنا لا أقول إنني لم أخف، بل كنت خائفاً جداً. لكنني لم أعد أطيق البقاء في القبو: الأنين الفظيع للعجوز، ومظهر أولجا سيرجييفنا المنهكة والفتى المضطرب الذي لا يستقر في مكان- إنهم كانوا يبعثون فيَّ انقباض النفس.

هل إن دفن إنسان أمر سهل.؟ لكن يجب دفنه. يجب أن يفعل هذا أحد ما، ولا يوجد شخص آخرغيري. إنني أخاف حتى من لمسه. كما أخشى الوقوف فوقه، فقد يقتلوني في أي لحظة. إنها الحرب! وقد اعتدت على ذلك تقريباً فيما بعد، إبان الحرب الثانية. أما يومذاك في عام 1995 فقد كنت أخاف لمس جثة ميت. وهنا خوف آخر - هناك قادم.. إنه روسلان!

لقد غفت ماما، إنها تعبانة - كان روسلان أكثر هدوءاً مني، لكنه تكلم بهمس أيضاً: - هذا جارنا، إنه فتى طيب... يجب دفنه، - حاولت استجماع رباطة الجأش، أو أعترف بأنني كنت في حالة يرثى لها، ورجوته قائلاً: - روسلان، أرجوك اذهب إلى ماما فإنها قد تستيقظ...

- لا، إنها نائمة الآن. ويجب عليّ، فهو جارنا. وسأساعدك.

فعلاً، لم أكن أستطيع القيام بذلك من دونه. كان روسلان يعرف باحة بيته. فسحبنا القتيل إلى ركن هناك. وعثر روسلان على مجرفة. وحالما بدأنا بالحفر تعالى الصراخ:

- روسلان! روسلان! ياولدي!

فقلت له: «ناشدتك بالله، اذهب إلى أمك.

وعندما بقيت وحيداً، أصابني الخوف الشديد، وساد المكان سكون جهنمي ثقيل الوطأة - لم تطلق رصاصة واحدة، ولم يقع انفجار واحد، وفي المنطقة كلها كانت مجرفتي وحدها ترن لدى اصطدامها بالحصباء، وشعرت بأنني أحفر القبر لنفسي... لقد كانت أول مرة أحفر فيها قبراً. إنها الحرب!

هل كنت في عجلة من أمري؟ جداً. وقد عملت ما كان بوسعي عمله، وحتى أديت طقساً دينياً - (في وقت لا حق أتقنت ذلك كل الاتقان، مثل الملا تقريباً - كان ذلك واجباً). وقتئذ حتى تصبب العرق مني بسبب العجلة والخوف، وراودتني فكرة واحدة، ما دام يسود مثل هذا السكون، فمعنى ذلك لا يوجد أحد في المدينة، يجب الهرب، الهرب إلى أي مكان، وفقط ليس البقاء في هذا القبو. من جانب آخر كيف يمكنني أن أتركهم؟ فأنا أدرك كل الإدراك وضع أولجا سيرجييفنا.

... طبعاً، أنا الآن هادئ وأفكر بصورة سليمة كما يبدو. ولكن هناك وفي ذلك الوقت لا يوجد مجال للتفكير السليم. عندما فقد الجميع صوابهم، وصاروا يقتلون بعضهم بعضاً، من دون أن يفقهوا لماذا، من الصعب تقبل وتحليل ذلك، إن مجرد العيش أصبح شديد الوطأة. إنه الوضع الاستثنائي، على تخوم الحياة والموت، وهنا يريد كل واحد البقاء فحسب، وإذا ما فكر بإنسان آخر، فيفكر فقط

بأقرب الناس إليه، وفي عائلته. وأريد بغية إدراك ما هي الحرب مجازاً إيراد مثال صغير لكنه يبدو لي ذا مغزى وعبرة.

.. حدث في أثناء الحرب أن أرسلوني إلى إقليم كراسنودار. وأقول بصراحة وبصدق، ويؤكد ذلك الجميع لكم: حينما دارت رحى الحرب كان يكفي أن تقوم بخطوتين فقط وفي أي اتجاه خارج جمهورية الشيشان فيتراءى لك أنك دخلت الجنة، فكل شيء نظيف كل النظافة ويسود الهدوء والمزاج الطيب، ولا توجد حواجز تفتيش ومعدات عسكرية. كان تسود في جمهورية الشيشان في تلك الفترة حتى في الجبال روح العداء والتوتر والموت، والأمن مفقود في كل مكان. أنجزت أعمالي بسرعة وهاتفت صديقي مكسيم. ومكسيم أصغر مني بخمسة أعوام. وقد تعارفنا في المعهد، ودرسناً في معهد واحد (كان يدرس في القسم النهاري) وعملنا في مؤسسة واحدة، لحين التحاقه بقسم الدراسات العليا في موسكو، ثم تزوج من فتاة كوبانية وسافر معها. والآن يعمل في شركة النفط والغاز الحكومية - العمل جيد، والراتب محترم ولديه كثير من وقت الفراغ، ولأمر ما تملكه الولع بأصناف الرياضة الشاقة: كان يحلق بالطائرة الشراعية. وأراد أن يعلمني التحليق فيها أيضاً، لكنني أخشى فحسب الطائرات الشراعية، ولو أنه واثق بأن ذلك سهل جداً وممتع وحتى آمن. لكنني لم أتجرأ على المجازفة، فأنا في كل يوم أجد المجازفة في جمهورية الشيشان. وكنت أتابع تحليق مكسيم السحري والهادئ بمتعة كبيرة، ولا أخفي ذلك، حتى بشيء من الحسد. كانت طائرته الشراعية الحمراء - البيضاء، تحوم مثل نسر كبير ساحر المنظر، فوق الفج والجبال بحرية، وتحلق بعيداً بعيداً، وتتحول إلى نقطة متألقة بعيدة المنال تبتعد أكثر فأكثر، كما لو أنها حلمي المأمول الذي أصبح الآن وراء المعبر البعيد. أنا لم أر ذلك وما كان بوسعي أن أراه، ربما حسدته وأصبته بالعين، - فقد تبين، وكما روى لي مكسيم فيما بعد، أن الرياح في الفج الآخر وراء المعبر كانت حادة ومقابلة في الاتجاه، ولهذا غدا التحليق صعباً. وقد هبط مكسيم بصورة غير موفقة، وارتطم بالأشجار، وتحطمت الطائرة الشراعية، لكنه نفسه لم يصب بأذى، وكان راضياً جداً، وغمرته البهجة لما حدث. وكيف وصف هذا كله! أي انفعالات وأحاسيس وكيف أطلق حسب تعبيره «الأدرينالين» كله. وظننت أن مكسيم سيخلد إلى الهدوء بعد هذا الحادث. ولكنه قال فوراً: «سنقفز غداً معك بالمظلة من المروحية في البحر الأسود.

هذا آمن جداً، لأننا سنرتدي سترات الإنقاذ، التي تحمينا من الغرق».

فرفضت ذلك رفضاً باتاً، بينما واصل إقناعي:

- حسناً أنظر، وبعد ذلك قرر.

لكن البقاء وحيداً لا يعتبر شيئاً مناسباً، ولهذا توجهت إلى المروحية. لو يعرف أحد مدى خوفي حتى من صوت ضجيج المروحية ناهيك عن رؤية المروحية ذاتها. إذا لا يمكن أن يفسر لهم، وإنهم لا يفهمون بأنها في جمهورية الشيشان ترمز إلى الموت الطائر. وكنا في كل مرة نرى ونسمع فيها ضجيج المروحية نقفز من سياراتنا ونستلقي على جانب الطريق- وننطرح على وجوهنا في الأوحال وفي الثلج وفي التراب. لكنني غالبت نفسي وحلقت، وعندما فتحوا البوابة على ارتفاع كبير، ورأيت البحر بلا ساحل تملكني رعب شديد، ورحت أتمسك بيدي بكل شيء

ممكن لكي لا أسقط. بينما قفز مكسيم ورفاقه من المروحية بابتسام وابتهاج. وراحوا في المساء في الغابة جلسنا عند النار حيث المشويات والخمر، راحوا يتحدثون عن لحظات التحليق الرائعة.
وعندما أصبح الظلام حالكاً كلياً وخمدت النار وبرد الرماد اقتادني مكسيم جانباً وقال بأسف:

- الوضع هادئ في جروزني الآن، فخذني إلى هناك لأنني حتى لم أزر قبر أمي.

توفيت والدة مكسيم قبيل الحرب. وكان الوضع في جروزني آنذاك معقداً جداً وخطراً. ولم يستطع مكسيم المجيء لحضور جنازتها لأسباب مختلفة. وقد دفنا والدته نحن جميع العاملين في المؤسسة، كما يقتضي ذلك الواجب. والآن قرر مكسيم بعد أن علم أن السلطة الاتحادية استعيدت في جروزني زيارة قبر أمه.

حاولت أن أوضح الوضع لمكسيم خلال الطريق كله إلى جروزني، لكن هل يمكن إيضاح مثل هذا الأمر، ويجب على المرء أن يكابده فقط. لدى الوصول إلى المدخل وجدنا طابوراً كبيراً أمام حاجز التفتيش العسكري الرهيب، لكن بعضهم كان يقوم بالالتفاف عليه مقابل رشوة.

كان الوقت منتصف الصيف حيث يشتد القيظ. وقفنا هناك نحو الساعتين. أنا أعرف بأن الأهالي المحليين كان يسمح لهم بالمرور بسرعة، أما التعامل معنا فكان سيئاً والهدف واحد - هو الرشوة. ومن أجل ذلك سيفحصون ويفتشون جميع متاعك، لكن عندما تضع النقود في أيديهم - يسمح لك بالمرور حتى لو كانت لديك قنبلة.

وحدث مرة حينما كنت أعمل أن توقفت عند حاجز التفتيش هذا ليلاً، وكان جميع الجنود حماة النظام تحت تأثير الكحول، وجرى بيننا الحوار القصير التالي:

- يا آمر، الوقت ليل، ونحن نعمل في مؤسسة اتحادية - «روس نفط»، ألا يمكن السماح لنا بالمرور بسرعة.

- القطط وحدها يمكن أن تمضي بسرعة، وكذلك الأرانب.. وكلفة المرور عندنا مائة روبل، وفي الليل - مائتان.

- يوجد حتى بلوغ جروزني عشرون من الحواجز- الراتب لا يكفي.

- ماذا تتصور هل أننا نقف هنا ببساطة - لقد دفعنا مائة ألف روبل مقابل حاجز التفتيش هذا. وكما يقال الآن فزنا بالمناقصة.

لكنكم ستكسبون المائة ألف هذه خلال يومين.

- هيا- هيا هيا..! أرى أنك ثرثار جداً ومتنور.

لا أذكر كيف اختتم حوارنا آنذاك، ففي ذلك الوقت، وتحت جنح الظلام جاء من جهة جمهورية الشيشان طابور طويل من صهاريج نقل النفط. ولم أعد محط الاهتمام...

لكن الوضع الآن مغاير تماماً - كان يساورني القلق بشأن مكسيم، فالجنود الفيدراليون لا يحبون الذين يأتون إلى هنا من مناطق أخرى، ولا يريدون أن يرى أي أحد كيف يطبقون «النظام الدستوري» هنا.

فاقتادوا مكسيم في أول حاجز تفتيش «مع متاعه» إلى مكان ما في داخل المبنى. وانصرمت فترة عشرين دقيقة، لكن لم يسمح له بالمرور. فساورني القلق. شيء جيد أن كل شيء ممكن هنا مقابل النقود: فذهبت إلى المبنى المذكور، كان مكسيم واقفاً مثل تلميذ مذنب، في ركن الحجرة وجسده كله يتصبب عرقاً. وكما يقال بلهجتهم المبتذلة فيمكن اتهامه بكل شيء: لِمَ جاء، إلى من يذهب، ولماذا يحمل هذه الكمية من النقود، - ربما يحملها إلى المسلحين؟ وآلة التصوير غالية الثمن وجيدة، والكونياك... اضطرب الجنود الفيدراليون لدى رؤيتي، وبتعبير أدق، أثار غضبهم، لكنني درست منذ وقت بعيد أسلوب حماة الوطن - فألقيت على المائدة ورقة بنكنوت ذات فئة مائة دولار وقلت:

- اشربوا نخب ذكرى المرحومة والدته. إنه ذاهب لزيارة قبر أمه. لقد ولد وشب وعمل هنا. وقال أحد الجنود: - وآلة التصوير ممنوع إدخالها. وأضاف آخر: - والكونياك ممنوع دخوله أيضاً، فالكحول ممنوع، أحكام الشريعة.

- اشربوا الكونياك في ذكرى المرحومة والدته. أما آلة التصوير فلا تعود إليه بل إنها لي. وقد وضعتها بالصدفة في حقيبته.

هكذا وصلنا إلى جروزني بعد أن كابدنا، أو هكذا كابدنا، المزعجات في أكثر من عشرة حواجز تفتيش. وكان الليل قد ادلهم. إن شقتي قد احترقت كلياً، فبتنا في بيت صغير شبه مهدم اشتريته قبل الحرب. وبالرغم من أن الوقت كان ليلاً فقد كان الجو حاراً في البيت. وأغلق مكسيم جميع النوافذ، ولم يخف أنه مرتاع أشد الارتياع، وصار شاحب الوجه - فقد رأى جروزني الحالية، وهذه الخرائب وأنظمة قطاع الطرق. وكالعادة، فلدى حلول الظلام بدأ إطلاق النار والتفجيرات والقصف في كل مكان. ونحن، أبناء المدينة، قد اعتدنا ذلك بشكل ما، ولو أن القلب يخفق وينقبض لدى حدوث كل انفجار. أما مكسيم فقد كان طافح النفس بسآمة مضنية وقال:

كان الأفضل أن تعطيهم آلة التصوير وليس الكونياك. فقد كنت سأشربه، وأغفو، وأنسى.. أي فظاعة، وأي كابوس هذا! كيف تعيش هنا؟ ولم؟ يمكن أن تلقى مصرعك في أي لحظة.. لا كهرباء، ولا ماء. هذا فظيع!... هل يمكن أن يهجموا علينا؟

وهكذا لم نجد سبيلاً إلى النوم حتى انبلاج نور الصباح. وفي الصباح الباكر طلب مكسيم أن أذهب معه إلى المقبرة، فشاهدنا عند المدخل هناك لافتة: «ألغام».

فهمس: - أنا لن أذهب إلى هناك.

- هذه مجرد لافتة، بغية ألا يمارسوا التخريب في المقبرة.

- لن أذهب. فهذا تحذير من الألغام. لماذا المجازفة؟ ورحت أقنعه فترة طويلة، وبعد ذلك لم أطق صبراً:

- ما الذي تخافه؟ وهل أن القفز من الجبل ومن المروحية ليس مجازفة؟ وأمك- زيارتها واجب مقدس. هيا بنا. سر ورائي على مسافة خمسة أمتار، خطوة فخطوة..

نمت الأعشاب البرية في المقبرة بكثرة. لكن لا توجد آثار مرور البشر أو حتى الكلاب، علماً بأنه لم تبق كلاب في المدينة. وجدنا القبر بصعوبة. ولم نجد ما يستحق تصويره لكي يظهر للآخرين - المشهد بائس، القبر مهمل فعلاً. خرَّ مكسيم راكعاً على ركبتيه، واستغرق في البكاء طويلاً، ومسد التلة الصغيرة التي نما فوقها العشب.. كانت لديه بعض الأعمال الأخرى في جروزني، لكنه طلب فور زيارتنا إلى المقبرة:

- لنذهب من هنا بسرعة.. أرجوك. هنا النقود - وأخرج حزمة من النقود - أعطها، ولا تبخل، وفقط يجب أن أرحل بسرعة.

- هدئ من روعك، واخفِ النقود، فنحن اعتدنا على ذلك. ولن يحدث أي شيء. سيكون كل شيء على ما يرام.

وفعلاً لقد حالفنا الحظ جداً في طريق العودة - فلم تكن هناك طوابير، ولم يحدث أي تفتيش ملحوظ. فقط على الحدود، لدى مغادرة جمهورية الشيشان وقف طابور طويل، كما لو كان عند منطقة الحجر الصحي الخاصة. لكنني قدت السيارة بوقاحة في الاتجاه المقابل، كما يفعل من يحمل وثائق خاصة في جيبه، وعندما بلغت حاجز التفتيش، وحتى لم أخرج من السيارة، أظهرت ورقة البنكنوت الكبيرة:

- الأمر، بخير! كل شيء على ما يرام؟ هذا مسؤول من موسكو. ونحن نتأخر على الطائرة في المطار.

- سر، سر، فالطائرة لا تنتظر- ولوح بيده إلى مكسيم.

أوصلت مكسيم إلى منرالنيه فودي، وصاح من قطار المستجمين:

- لا يمكن العيش هنا. لا تبق هنا...

بعد ذلك لم ألتق مكسيم خلال فترة طويلة، فلم أجد الفرصة للاتفاق معه، وكنا نتهاتف بين الفينة والفينة، وبعد مضي عامين حللت ضيفاً عليه مجدداً. فلم أتعرف على مكسيم - لقد دبت فيه

الشيخوخة، ومال إلى البدانة جداً، وحتى لا يتذكر التحليقات. وقالت زوجته:

لقد تغير كلياً بعد تلك الرحلة إلى جروزني، وأصبح هادئاً ويلازم البيت- هذا جيد. فأنا كنت أخاف تلك الألعاب البهلوانية.

فضحك مكسيم وقال:

- أنا لا أستطيع أكثر المجازفة بحياتي. لقد راودني الفزع إبان تلك الرحلة لدرجة أنني أدركت قيمة الحياة، وأريد التمتع بها بصورة هادئة.. كيف تتحمل الوضع هناك؟ يجب أن يعيش الإنسان فقط في المكان الذي يجد فيه الطمأنينة والراحة.

وسألته لسبب ما: - أين طائرتك الشراعية؟

في علية البيت... أحياناً أحلق في الحلم. وعندئذ أستخرجها، وربما أحلق، كما لو أن لدي رغبة، لكن أين أحلق وأنا بهذا الوزن... وعموماً أرغب بالطيران لكني أخاف. أخاف المجازفة من أجل متعة فارغة لا معنى لها. لقد حدث انعطاف ما لدي بعد تلك الرحلة. لقد استهلكت في جمهورية الشيشان كل ما في جعبتي من الأدرينالين الحياتي. كيف تستطيع العيش هناك؟ فهذا شيء فظيع واستهزاء، وبمثابة تجربة قاسية على البشر. وعموماً لا توجد عندكم حياة، ولن تنتظروا الخير من أي مكان!.

لقد كان على حق، لحدما، لكنني عشت هناك، ولم أنتظر مجيء الخير.

.. لماذا تذكرت مكسيم؟ آه، نعم. كمثال. فقد نصحني هذا الصديق، لكنني لم أصغ إلى نصحه. بالمناسبة، لا مهرب من القدر. القدر! ماذا يهيء لي أيضاً. وبتعبير آخر ماذا ينتظرني وأستعد له الآن؟ أنا أستعد للانتقام! وسأنتقم!

آمين!

4 يناير، ليلاً

لماذا تذكرت مكسيم؟ لقد نبشت في ذاكرتي، وتذكرت ما يسمى هدف حياتي الراهنة، واهتاج كل شيء في قرارة نفسي. أعتقد بأنني أحسست فيزيقياً كيف أصبح الدم حاراً، وكيف أنه سخن جسدي كله، وجلدي وعظامي. أنا تحسست ذلك، وكانت السخونة موجودة فعلاً، حتى إنني شعرت ببرودة القسطر- الجسم الغريب، ما ردعني لفترة من الزمن! لكن سخونة أفكاري وأحاسيسي وانفعالاتي وغيظي كانت من الشدة بحيث أن برودة الجسم الغريب لم تجد نفعاً - يبدو، وبالأحرى أن هذا وحده، وأنا لا أريد الاعتراف بذلك، يقود إلى أن تبدأ لدي نوبة الغضب الوحشي، فأريد أن أطلق النار، وأقتل الجميع، وأريد الانتقام.. وإذا ما أردت قول الصدق، فأنا لا أتذكر كل شيء. بينما هتف

الطبيب الراديوي مجدداً من أمريكا وروى كل شيء بإيجاز، وأنا استعدت في الذاكرة وفي الحلم كل شيء بالاعتماد على الكدمات، وذلك بصورة عابرة، كما يحضر في الذاكرة شيء ما، لكن ما كابدته والأثر الباقي ليس في الوعي فقط بل وفي الجسد أيضاً. سأذكر ذلك بإيجاز: إنني أخذت كالطفل أمارس ألعاب القتال والحرب، وصعدت فوق رف النافذة وأخذت «أطلق النار» على من يمكن أن أراهم في الشارع، من الناس الحقيقيين، وفجأة فقدت الرغبة في ذلك، فألقيت «السلاح» ونشرت ذراعيَّ على اتساعهما، كما لو أطير، وقد طرت فعلاً. حسناً أن ذلك التحليق تم حتى الفراش الموجود في الجانب. ويبدو أن ذلك أعجبني فقمت بتحليق آخر لكنه غير موفق جداً هذه المرة - إذ ارتطم رأسي بالظهر الخلفي للسرير وسقطت غائباً عن الوعي. عندما ثبت إلى رشدي لدى سماع رنين الهاتف الداخلي - كانت الممرضة توجه لي الشتائم، وأنا لا أفهم فحوى المسألة، فرأسي يطن، وجسمي كله مغطى بالزرقة والكدمات، كما لو أنه جرى ضربي، وحتى القسطر انزاح من مكانه هابطاً إلى الأسفل بشكل أعمق، وشعرت بالألم حوله أيضاً. لكن جميع هذا الألم الجسدي والفيزيقي - هو هراء، وقد اعتدت ذلك منذ وقت بعيد، لكن روحي - أريد قول ذلك - قد طارت في الأعالي. أنا أريد أن أطير! أود أن أحلق بكل ارتياح الآن بواسطة الطائرة الشراعية أو أقفز بالمظلة... وربما من دونها، فقط من أجل أن أشعر ولو للحظة بالسعادة وبرحابة التحليق الحر... ولكن يوجد في هذا شرطان - أولاً، أريد التحليق فقط فوق الجبال في موطني بالرغم من علمي بأنني سأسقط في الفج، لكن كل شيء ينتمي إلى موطني. وثانياً.. الشرط الثاني أكثر صعوبة ويجب أن يتم قبل الأول.. وأنا سأفعل ذلك - سأنتقم.

.. وحتى قبل كتابة هذه الكلمة أشعر بالضيق والغم كما لو قطع الجناحان اللذان أحلم بالتحليق بواسطتهما. ربما أنها أزمة أخرى، لكن لدي الآن ما يشبه المناعة في الوجود الحالي أو مغزى بقية حياتي وهو - التحليق! التحليق فوق موطني في الجبال! وأن أتحسس وأعرف بأنني موجود وسأبقى إلى الأبد حراً، حراً في وطني، وفي جبالي! لكنها بعيدة، وما دمت لا أزال في محبسي فأفضل ما يقال يوجه نحو العلاج. ولدي الآن، وقد أكد ذلك أهل الطب، عقار مضاد للكآبة، ولدي وسيلة تهدئة فريدة من نوعها - هي أنني يجب وأستطيع وأريد الكتابة. لكن المشكلة تكمن في أنه لم تعد لدي أوراق نظيفة، لأنني كتبت كثيراً، أنا الكاتب المخربش الأصيل،- والآن استخدم الأوراق الفارغة في الكتب المتوافرة هنا ومنها الصفحات النظيفة بهذا القدر أوذاك، وثمة مشكلة في الأقلام، إذ لا يوجد ما أكتب به. فقد صنعت من آخر قلم يمكن الكتابة به، في أثناء النوبة العصبية، مسدساً- رشاشاً، وحينما تغلب في وعيي السلام والانسجام وحرية التحليق بدلاً من الانتقام والحرب، أخذت وحطمت «السلاح» الأخير - أي القلم. وعموماً، ليس ثمة مخرج آخر، فالكتابة تنقذني، وتكسب وجودي الحالي مغزى ما، ولهذا بعثت رسالة إلى الممرضة - «اجلبي الورق والأقلام مع العشاء». فهتفت لي على الفور وأبلغتني: أنا السبب في حدوث مصائب كثيرة في المستشفى، وحتى في العام الجديد لم يستطع أحد الاستجمام كما يفعل البشر. ربما هناك شيء من الحقيقة في ذلك، وأنا بعد النوبة العصبية، بالرغم من الشعور بنوع من الخفة في الروح، أشعر مع هذا بنوع من تأنيب الضمير، كما لو أنني ارتكبت عملاً فظيعاً، كقتل أحدهم. وفي هذه اللحظات، وليس هذه اللحظات فقط، بل في الفترة الأخيرة، والأعوام الأخيرة - لدي خلاص واحد، وخيط رفيع واحد، يجعل عالمي المريض طافياً هو ابنتي. إنها تهتف لي باستمرار، ولها اطلاع على جميع شؤوني، ويبلغها طبيب الراديو والممرضة بكل شيء. تلك هي المصيبة التي تسببها هذه

الحداثة والعولمة والشمولية لكل شيء وللجميع. في الوقت نفسه كيف يمكن العيش من دونها الآن، وأنا كنت أبرر نفسي أمام ابنتي - هذا مجرى الحياة ببساطة - فأكتب لها: «لايوجد لدي ورق وقلم. عندما أكتب أشعر بنوع من الخفة في روحي، وأنسى». أنا لا أعرف ما قالته ابنتي، لكنني أعرف ماذا فعلت - فقد دفعت نقوداً كثيرة، وبعد ساعتين، وليس في اليوم التالي، هتفت لي الممرضة بعد العشاء وقالت إن الملاءة تغطي جزءاً من القطاع الذي تصوره كاميرا المراقبة. وحصلت على حزمة كبيرة من الورق مع الأقلام- 500 ورقة و20 قلماً.

إذن سأكتب! ولكن هل سيوجد قارئ؟ لا يهم. لقد جذبتني العملية نفسها، - ويبدو كما لو أنني أكابد الآلام في حياتي كلها.، - انشغلت. ربما أبدأ من جديد، كما أريد أو أردت الكتابة،- أي التخيل؟ كلا، سأكتب عما جرى، وعما يجري حالياً. أنا لا آسف على أي شيء.. لكن سأروي كل شيء بالترتيب. إذن يجب العودة إلى القبو، والأفضل من بداية الفقرة، والأفضل أكثر من بداية الفصل.

في الليلة نفسها

الحرب! القبو! هل كان من الممكن أن ينقذنا القبو؟ ممكن، لو لم تستمر الحرب مثل تلك الفترة الطويلة. لكنها استمرت. وأنا الآن أفهم أن هناك، في مكان بعيد وعلى مستوى عالٍ جداً من احتاج جداً، إلى هذه الحرب الدامية والمستمرة. لكننا في القبو كنا نفكر ونخمن ونحلم بأن ينتهي كل شيء قريباً، وكما في الأفلام السوفيتية العظيمة حول الحرب الوطنية سيأتي أحفاد أولئك المقاتلين السوفيت الشجعان، ويحررون المدينة من رجال العصابات، وستعزف الموسيقى في الشوارع وسينقلوننا وينقذوننا نحن القابعين في القبو، وفي المقدمة جدتنا المريضة، والمريضة جداً، في سيارة الإسعاف. لكن لم يحدث هذا، وتولد إحساس بأن الحرب لن تنتهي، وسيغدو الوضع، بالعكس، أسوأ فأسوأ. أصبحت قذراً، وقذراً جداً بسبب السخام واصطبغت يداي ووجهي بالسواد.. وأنا نفسي لم أعد أطيق رائحتي النتنة هذه. كما انبعثت الرائحة الكريهة من براز الجدة المريضة، ولم يكن بالمستطاع تدبير الأمر والاعتياد على ذلك. فلا يتوافر أي شيء، ولا يوجد ماء. وساعدنا لحد ما الثلج المتساقط بكثافة، لكن حمله لا يخلو من خطر أيضاً، وإذا ما خرج أحدنا مرة أو مرتين ليلاً، ففي الصباح لا يعرف ما جلب هل الثلج أم الهباب. والبرد شديد في القبو، لذا لا يذوب الثلج تقريباً. كما لم يتوافر لدينا الحطب لإيقاد النار. ولم يعد يوجد ما يتم طهيه على النار. وساد الجوع حتى إن الجرذان التي كانت تقاسمنا الطعام البائس... حتى هي اختفت. زد على ذلك فقد تقملت منذ الأيام الأولى في هذه الظروف، وبدأت الحكة في جسدي باستمرار، والآن اختفى القمل والبق، إما لكونها قد شبعت، ولا يوجد ما تأكله أو لأنني أصبحت هزيلاً. وإما هربت وراء الجرذان من الأنقاض الخالية من الحياة، ومن صراخ الجدة الذي يصم الآذان ومن الجوع والحرب. ووجب علينا أن نهرب وننقذ أنفسنا أيضاً، وكنا نفهم ذلك كل الفهم، حيث صار يلجأ إلينا أمثالنا من المباني المجاورة، وحدثونا عن أمور فظيعة، وقد أورد ذلك أيضاً روسلان أكثر من مرة: فقد كان الجنود يطهرون المدينة من المقاتلين ولا يتعذبون ولا يجازفون - فيلقون القنابل اليدوية في الأقبية ويوجهون إليها النيران من قاذفات اللهب. كما أن الخروج من القبو لا يقل خطراً عن ذلك، إن لم يكن الخطر أكبر، والمرء يغدو بلا حماية حين تطلق النيران فجأة نحوه، وينطلق الهدير، وينهار

كل شيء، لكن توجد فرصة. وكنت أفهم، ويفهم الجميع، أن الحركة تعني الحياة! لكن أولجا سيرجييفنا المقيدة بأمها لن تخرج، كما فهمت، ولن تترك أمها.. آنذاك لم أعرف ذلك، وعرفته فيما بعد، حينما حللت ضيفاً على مكسيم.

بالمناسبة، سأتحدث عن مكسيم. كان لديه جار من هواة الألعاب الخطرة أيضاً، لكنه من هواة تسلق الجبال، وليس متسلقاً عادياً، بل صعد إلى قمة إفريست، وكذلك تسلق عدة مرات الجبال على ارتفاع 8000 متر فوق سطح الأرض. وقد روى متسلق الجبال هذا أن لدى المتسلقين إلى أعلى قمم الجبال في العالم قاعدة صارمة تنص على دعم الآخر ومساعدته. لكن هذه القاعدة تطبق فقط إلى ارتفاع 8000 متر، أما ما بعدها حيث تصفر الرياح باستمرار وتبلغ درجة الحرارة 50 درجة مئوية تحت الصفر، والشيء الرئيس أن الأوكسجين من أجل الحياة ينقص - فمعنى ذلك أن حياة الإنسان على وشك الانتهاء، إذا وقع حدث طارئ، وإلا فهيهات أن يستطيع أحد إنقاذ الآخر - فلا تتوافر القوة ولا الإمكانية، ويخمد العقل والإرادة. في مثل هذا الوضع تجد متسلقي الجبال يتخلون حتى عن أقرب الناس إليهم فوق ذرى الجبال، وإلا فسيكون الموت مصير المنقذ نفسه. ولا يفهم ذلك من يوجد على الأرض على ارتفاع 8 آلاف متر، حيث لا يحيا أحد أو أي شيء آخر ولا يمكن أن يحيا، فالقوانين هناك مختلفة، والمرء يجب أن يعتمد على نفسه فقط من أجل إنقاذ نفسه. ربما نشأ مثل هذا الوضع أو وضع مشابه له في القبو. وأعتقد بأنه كان من الأفضل أن أصبح في وضع شديد طارئ فوق قمة الأرض، من الوضع تحت الأرض. على أي حال إن المرء يذهب إلى الجبال بإرادته، من أجل إثبات قدراته وحب الرفعة. بينما أنت توجد في القبو بحكم قوة شريرة، وهنا أيضاً لا يستطيع أحد البقاء على قيد الحياة، حتى الجرذان والبق هربت. وأنا أعلم بأنني إذا لم أهرب الآن، فسأبقى هنا إلى الأبد. وكما يدفن متسلقو الجبال إلى الأبد في كتل الجليد، وكذلك أنا سأدفن إلى الأبد تحت الخرسانة المسلحة.

كان بوسعي التسلل بهدوء، كما فعل روسلان في أحيان كثيرة، من دون أن يلاحظني أحد، ولا توجد لدي أم هنا، ويمكن ألا أعود، وأحاول إنقاذ نفسي. لكن أوقفني أمر ما. كنت أعرف، طبعاً، أنني لست منقذاً لأحد، لكنني مع هذا رجل، ومحنك، وفي هذا الوضع يكون خروجي بمثابة ضربة شديدة إلى من لا يستطيع الخروج فحسب، وأولجا سيرجيفنا لن تترك أمها، ولن تهرب، إنها (مثل الموجود على قمة إفرست، وكذلك الموجود في القبو) تعرف أن مصير أمها قد تقرر، ويجب إنقاذ الابن، ولكن كيف؟ كيف تتركه أمه؟ أنا أعرف آخرين تركوا أبناءهم. لكنها لن تتركه. إن اليأس قد جعلها تدلف إلى الهزال وفقدت قوتها وأصابها الانهاك. وفي أغلب الظن أن هذا جعل روسلان غالباً ما يتسلل من القبو. وفي كل مرة كانت أولجا سيرجيفنا تبكي، لكن لا توجد لديها القوة لملاحقته. أما روسلان نفسه فقد توحش كلياً، وتغيرت نظراته، وحدث مرة أن جلب بندقية رشاشة.

- القها! ارمها! من أين أخذتها؟ اتركها جانباً!- صرخت أولجا سيرجيفنا، وأرادت أن تختطف منه السلاح، لكنه لم يسلمه.

فالتفتت إليَّ مبتهلة: - ساعدني، خذها منه.

كنت ما زلت أمتلك القوة لذلك، لكنني دهشت لكون الرشاشة ما زالت ساخنة، كما بدا لي، كما لو أطلق أحد ما النار منها قبل وقت قصير، كما انبعثت منها رائحة البارود والموت، حتى إن الإمساك بها كان يولد النفور.

صرخ روسلان حينما رميتها في أقصى ركن القبو المظلم العميق والضيق: - لا تجسر، لا ترمها، فإنها ضرورية لنا!

إنني فسرت هذا الحادث آنذاك بأنه الذروة التي يجب أن تبدأ بعدها النهاية العاجلة، ولأمر ما لم أعد أرغب كالسابق في الخروج والرحيل، لكنني لم أستطع، لم أستطع البقاء هناك، فقد كنت أشعر بالبرد كما لو كنت على ارتفاع 8000 متر، إذ كان الجو بارداً جداً، ولم أستطع التنفس، وصرت أسعل طوال الوقت. وفجأة قال روسلان:

- لماذا رميت السلاح؟ فقد حصلت عليه بصعوبة بالغة. إنك سترحل، وكيف سندافع عن أنفسنا؟

- ممن تدافع عنا؟ ما هذا الهذر؟ - صرخت أولجا سيرجييفنا، ودنا روسلان مني وسأل بصورة غير متوقعة:

- أبي شيشاني وأمي روسية. قل إلى أي جانب يجب أن أقف، وأقاتل؟ - باغتني هذا السؤال. وفيما كنت أفكر بالجواب بصعوبة، قالت الأم:

- ماذا تقول، ياولدي؟ ما معني - القتال؟ الروس لا يحاربون الشيشان بل رجال عصابة يحاربون رجال عصابة أخرى.

حلت فترة صمت طويلة. ولم أعرف مايمكن إضافته إلى هذا أو معارضته، وأدركت بعد فترة طويلة فيما بعد أن أولجا سيرجييفنا أعطت تشخيصاً صائباً جداً، وطرح طريقة العلاج فقالت بحزم: - يجب عليك أن تغادر. حاول أنت على الأقل التخلص من هذا الكابوس.

لزمت الصمت، ولم أعرف بم أجيب. كنت أثق بأنني سأغادر، وربما سأبقى على قيد الحياة، أما مصيرها، أو بالأحرى مصير جميع الآخرين، فهو محزن جداً - إنه مثل المبيت على قمة الإفرست حين يبسط الليل جناحه فوقها - البرد، الرياح الشديدة، أو في نهاية المطاف نفاد الأوكسجين في البالون قبل حلول الصباح. وكانت أولجا سيرجييفنا تدرك ذلك كل الإدراك: وقفت أمامي نحيفة مثل القصبة، وهي تلوي يديها الوسختين بعصبية، ولا يبدو على وجهها أي تعبير كما لو تخشب، كما لا يمكن رؤية أي شيء - فكل شيء ملطخ بالهباب والسناج، والعينان فقط، العينان الزرقاوان المتعبتان والحزينتان تنمان عن الحياة، زد على أنهما تتألقان، وكادتا أن تنفثا اللهب في الظلام، وتنما أيضاً عن الابتهال، لكنها لا تستطيع أن تقول لي ذلك - ومع ذلك قالت:

- ربما تأخذ روسلان معك.

وأجهشت بالبكاء: - نعم، نعم، خذه معك أنقذه. خذه معك أرجوك جداً.

فغمغم روسلان بلهجة قاطعة: - لن أذهب.

وخرت الأم جاثمة أمامه: - أتوسل إليك ياولدي. فغادر أنت على الأقل. سيكون وضعي أيسر...

لا أستطيع وصف الفراق بينهما. كانت الأم كما لو أنها تخرجه من القبر، وتدفعه بالقوة إلى خارج القبو، بينما كان يعاند، كما لو قُدَّ من خشب، بنظرات متبلدة، ويعاند، ويواصل الهمس:

- ماما، ماما، لا تطرديني - أريد أن أبقى معك!

- لا، لا! أرجوك!.. ولدي!... أنت كنت دوماً تصغي إلى كلمتي. وأنا لا أريد لك السوء.. اذهب وغادر مع العم. ونحن سنكون هناك عاجلاً...

وفي الشارع احتضنت ابنها بقوة، واحتضنته وقبلته، كما لو كانت تريد الاحتفاظ به إلى الأبد بعبير وليدها الأرضي الثمين...

غادرت مع روسلان ليلاً. ولاحت بوارق النور الذي كان يغمر الشارع بخلاف قبونا. وبدا كما لو أن السماء ملتهبة في وقت الغسق - كانت النيران تلتهم وسط جروزني، وكانت ألسنة لهب الحريق تزحف كما لو أنها تنزلق من قمة جبل. كانت تزحف ببطء وبصورة مرعبة وبشكل لا يرحم. أما هنا فيبدو المكان هادئاً، وساكناً، لكن بلا حياة ولن تكون فيه حياة. أما في أطراف المدينة فما زالت الحياة باقية، هناك عاصفة وإعصار، وإطلاق النار بلا توقف، فقد انتقلت المواجهة إلى هناك، ولكن تتوافر هناك فقط الفرصة للخلاص، الخلاص في الحركة وفي النضال.

نحن سرنا للقاء العاصفة، وكما قال كاتب كلاسيكي - «كما لو يكمن الهدوء في العواصف».

5 يناير، نهاراً

يخيم السكون والهدوء على المستوصف بشكل عجيب. قدم الفطور والغداء في الموعد المحدد بدقة. وكالعادة هتفت ابنتي في الصباح - كل شيء لديها على ما يرام. فأجبتها تحريرياً بأنني على ما يرام أيضاً. كما هتف لي الأهل من البيت، ويبدو أن الأمور على ما يرام لديهم أيضاً. ويبدو أن جميع المسؤولين قد غادروا إلى الخارج للاستجمام في المنتجعات، وصارت أحوال الناس هادئة أكثر - على أي حال إنها أيام العيد. أنا أعمل. أو بالأحرى أكتب، وأعتقد بأن تسمية ذلك بأنه عمل غير صحيح. فالناس يعملون من أجل بلوغ نتيجة ما، وبصورة أساسية من أجل كسب النقود كوسيلة للعيش. فلماذا أكتب أنا؟ أريد أن أفهم شيئاً ما؟ وأن أثبت شيئاً لأحد ما؟ وربما من أجل تبرير وجود الذات أو تقديم تقرير ما؟ قصارى القول أنا لا أعرف لأي غرض، لكنني أكتب، ما دمت أقول إنني لا أستطيع عدم الكتابة، وأحصل في هذه العملية على ارتياح داخلي ما، ومتعة ذاتية. أعتقد أن تأليف كتاب هو مثل الصعود إلى قمة إفرست. ولنقل ما هي الفائدة التي يجنيها المجتمع أو البشرية من قيام أحد أصدقاء مكسيم بالصعود إلى قمة أعلى جبل في العالم؟ وعموماً- إنه جيد، ويبدو أن هذا كل شيء. وأظن أن الشيء نفسه فيما يخص تأليف الكتاب. وعموماً، لا بأس. على أقل تقدير لا يوجد هناك أي ضرر في ذلك لأي أحد، فهذا ليس الحرب، بل بالعكس إنه موجه ضد الحرب. فالحرب هي حين لا يسمع الناس أحدهم الآخر، ولا يصغون إلى بعضهم بعضاً، ولا يقرأون، ولا يفهمون، بل يحتقرون بعضهم بعضاً. الحرب - شر. والعيش في الحرب - أمر خطر ورهيب وضار. أما الكتابة عن الحرب - فهي ليست أمراً سهلاً، لكن يجب الكتابة، أن الحرب لا تصون الأبناء، كما هو معروف... بينما ألقي على كاهلي آنذاك عبء ثقيل، إذ وضعت أولجا سيرجييفنا ابنها أمانة في عنقي، فيجب أن أمضي به إلى قريتها حيث يعيش عم روسلان الذي كان يقطن في مايكوب...

غادرنا القبو عند منتصف الليل. ووجب علينا أن نسرع، وكان السير محفوفاً بالصعاب. وربما أن قول هذا غير مناسب، لكني أود مرة أخرى أن أتذكر أقوال متسلق الجبال، صديق مكسيم. فقال من الأسهل الهرولة تحت الماء في قاع المحيط من السير على ارتفاع يربو على 8000 متر. وكان السير شاقاً بالنسبة لنا أيضاً، بالأخص بالنسبة لي، حيث كنت أفكر في روسلان فقط، وكنت أخشى أن يصاب بمكروه، وعانيت من أجله، وابتهلت إلى الخالق أن يساعدنا. وكان السير مجهداً بعد القبو. ولغرابة الأمر شعرت بنقص في الهواء هناك، وأدركت لأول مرة في حياتي ما هو ضيق النفس. والهواء ثقيل وخانق، يفيض برائحة الحرائق والبارود والجثث. كنا نسير في الظلام - أنا لم أعد في مدينتي العزيزة بل في مدينة شبح، حيث أصبح كل شيء فيها غريباً عني، وكل شيء فيها يفزعني، وكل شيء فظيع. وكنا نسير ليس في الشوارع بل عبر فناءات البيوت والفسحات الفارغة - وصادفتنا في الطريق أسيجة وخرائب وبقايا صواريخ، وصرنا نتعثر بالجثث، وواصلنا السير، وفي كل لحظة كنا نخاف أن ندوس على لغم، وأن يقبع في مكان ما قناصة لديهم أجهزة رؤية ليلية... وما أكثر القذائف الطائشة التي أطلقت فوق رؤوسنا. وكنا نشعر بانقباض في القلب لدى حدوث كل انفجار أو إطلاق النار، وبعد ذلك يخفق القلب بألم، كما لو أنه يبعث إلى الحياة، ثم تتردد في الأذن معركة الطبول ذات ضغط الدم العالي... وأعتقدت أنني لولا وجود روسلان معي

لكنت في وضع أخف وأهدأ. لكن من جانب آخر بدا لي أنه يعرف مسار اتجاه السيرهنا بشكل أفضل مني، - إنه جم النشاط وسريع الحركة وجسور ومتهور. وبدا أن الصفة الأخيرة جيدة، لكن هذا كان يخيفني. وكنت طوال الوقت أنهره، ولا أدعه يمضي في المقدمة بل ورائي. وقد رسمت مسار الطريق. كنت أريد الوصول إلى بيت جار العم جيخو - إنهم في القبو، وسيكون الحال هناك أسهل، وعلى أقل تقدير، إن جميع الوضع يتسم بشيء من العقلانية.

كنت محطماً معنوياً وجسدياً. ولم أمتلك القوة لمواصلة السير، ولم أعرف إلى أين أذهب وكيف أنقذ روسلان. تعرفت على المكان. في هذا الحي، وكل ما يوجد نحوه، دمرت البوابة، يبدو أنها دمرت بواسطة معدات ثقيلة، ودمرت الأسيجة وكذلك البيت الكبير الجديد لابن العم جيخو - خرائب، والوضع ذاته في كل مكان نحوه. أنا أفهم بأنه لا توجد ولا يمكن أن توجد حياة هناك، وتسود رائحة الجثث النتنة الشديدة، ووقفت مصعوقاً، لا أعرف ما أعمل، وكيف أتصرف، كنت في صدمة، وفجأة أفزعني صوت روسلان:

- هناك بالقرب من السياج جثث كثيرة، يبدو أنهم قتلوا رمياً بالرصاص.

أعرب عن ندمي، وأشعر بذنبي حتى الآن، لأنني جبنت وخفت عندئذ. وأنا حتى الآن أبرر نفسي بأنني كنت أخاف أن يصاب روسلان بالأذى. هذا صحيح لحد ما. وإن لم أدفن أولئك القتلى فعلى الأقل أن أتلو سورة ياسين، وعموماً فقد كنت أستطيع التعرف على بعضهم ومنهم الشيخ جار العم جيخو، لكنني قبضت آنذاك على يد روسلان وقلت له: - لنبتعد بسرعة - كنت أشعر بالخوف ولم أرغب في البقاء في ذلك المكان. وبعد أن عبرنا اثنين من الأحياء - شعرت بالفزع أكثر: فقد انطلقت بمحاذاتنا قذيفة بصفير قاتل، وحدث انفجار شديد جعلنا ننطرح أرضاً، حتى إنني لم أستطع النهوض، إذ كانت ساقاي ترتجفان بسبب الخوف والضعف والجوع والبرد. وجلست القرفصاء بالقرب من سياج رطب متجلد، وجلست هناك فترة طويلة، وربما، ويا للغرابة، تملكني آنذاك لأول مرة في حياتي شعور فظيع بأنني لا أستطيع ولا أريد التفكير، ولا أريد أن أحيا - شعور اللامبالاة التامة، وانعدام الإرادة والقوة. أنا حتى لم أسمع هدير المروحيات المقتربة، ولم أستطع ولم أرغب في التحرك قيد أنملة، وأعادني إلى الحياة فقط صوت روسلان:

يجب علينا أن نسير إلى الأمام أو نرجع القهقرى إلى القبو، - وكاد أن يقول أو قال «إلى ماما»،- أو مغادرة المدينة.

ماذا؟! فقط ليس إلى القبو.. لنذهب... يجب الخروج من هذه المدينة.

أنا لم أكن أتصور بأن جروزني كبيرة إلى هذا الحد. فقد قطعنا في دجنة الليل مسافة طويلة، لكننا وصلنا فقط إلى وسط منطقة درب ستاروبروميسلوفسكويه. وفي الفجر سمعنا هدير المعدات العسكرية الزاحفة - فاختبأنا في قبو بيت متهدم، وشاهدنا كيف كان يزحف طابور كبير من المعدات العسكرية إلى داخل المدينة. لقد كان هذا مشهداً فظيعاً: أعداد كبيرة من الدبابات والمدافع ووحدات «غراد» وغيرها من المعدات القاتلة، وكذلك عدد كبير من الجنود. إذا ما بدأ هذا كله

بإطلاق النيران وإصابة الهدف فلن يبقى من أراضي جمهورية الشيشان الصغيرة مكان ينبض بالحياة.

كنت محطماً معنوياً وجسدياً. ولم أمتلك القوة لمواصلة السير، ولم أعرف إلى أين أذهب وكيف أنقذ روسلان. إذا ما كنت لا أستطيع إنقاذ نفسي، ولا أعرف كيف. كنت في وضع صعب، وسيئ جداً. وإذا ما توخيت الصراحة فلم أعد قادراً على المشي، فإن جسدي كله يتألم، ولدي رغبة واحدة - العطش! لدي رغبة شديدة في الشرب، ويبدو أنني أعربت عن هذه الرغبة مراراً. لكن لا يتوافر الماء، هناك الثلج القذر الحائل إلى السواد، الذي صرت ألتهمه كالوحش المفترس. لا أعرف، كيف حدث، لكن يبدو أنني غبت عن الوعي لفترة ما، وثبت إلى رشدي لدى مرور طابور عسكري آخر باتجاه المدينة. وكان أول ما دار في فكري: أين روسلان؟ يبدو أن حالتي تشبه حالة أولجا سيرجييفنا حينما كان روسلان يختفي بمثل هذه الصورة. لكنني فقط لم أذرف الدموع ولم أصرخ. وخشيت أن أصرخ، كما أنني لم أستطع ذلك - إذ كانت حنجرتي تؤلمني. وحتى لم أستطع ابتلاع أي شيء. لكنني لم أفكر في ذلك، وراودتني فكرة القلق حول روسلان، وتملكني اليأس تماماً، حينما ظهر روسلان أمامي فجأة، - ابتسم ومد لي قنينة فيها ماء.

- أين كنت؟

- أنت طلبت ماءً.

تناولت القنينة - وكان العطش يعذبني، والأدهى من ذلك، أحسست برغبة شديدة في أن أطعم هذا الفتى علقة ساخنة، وأعطيه درساً، لكنني لم أستطع ذلك، وقلت فقط:

روسلان يجب وينبغي عليّ أن أوصلك إلى عمك. رجاء، أنا ضعيف البنية، وأرجوك وأبتهل إليك - لا تختفِ أكثر. هل فهمت؟

فهمت لكن لديك سخونة. أنت مريض.

أنا فهمت ذلك أيضاً، وفكرت بأنني يجب ألا أمرض. وشربت قنينة الماء كلها بنهم. كان الماء، إن جازت تسميته بذلك، مثلجاً وكريه الراحة وعكر اللون. لكنه كان ماءً واحتاجه جداً جسدي الذي أصابه الجفاف. وبعد ذلك شعرت بنوع من النشاط - أو بالأحرى جاهدت في استجماع قواي. والشيء الرئيس - عدم الاستسلام للضعف، والسيطرة على الذات، والكفاح - ومعنى ذلك السير. إلى أين؟ مفهوم إلى أين - بعيداً عن المدينة، وعن الجمهورية بقدر الإمكان. لكن كيف؟ إن هذا من باب المستحيلات تقريباً... ولن أصل إلى الهدف ولحظتئذ لمعت في ذهني خاطرة. فنحن نوجد في قبو أحد المباني التابعة لمؤسسة «جروزنفط- معهد البحوث العلمية» الكائن في درب ستاروبروميسلوفسكويه. ويجثم إلى جانبه جبل - تل كرابينسكي حيث توجد إدارتي - دائرة حفر الآبار. وتوجه فكري تلقائياً نحو الإدارة والعمل، وقلت لرفيقي: «حالما يرخي الظلام سدوله، نترك». وهذا ما فعلناه.

في البداية كنت أعتقد أن مرافقة هذا الفتى ستكون صعبة. أما في واقع الحال فقد ساعدني روسلان في أثناء الصعود إلى هناك. إذ كنت مريضاً وواهن القوى وكنت أمضي إلى هناك حيث يوجد كل شيء تحت الرقابة والتنشين. لكن روسلان عرف قواعد الحرب فاقتادني بمحاذاة الشجيرات النامية على امتداد الطريق. وجاهدت في المشي صاعداً، وأحياناً كنت حتى أتسلق كلما أصعد إلى الأعلى ما جعلني أشعر بالغم من عبث السير في الطريق. لأن دائرة أعمال الحفر تقع في الجبل فوق القمة تقريباً. وتعتبر الهدف الاستراتيجي الوحيد في المنطقة، وتمتد على راحة اليد بالنسبة إلى الطيران والمدفعية. بينما أنا أقود الفتى إلى هناك، من خرائب إلى خرائب أخرى. وكان يعرقل المشي جداً الندى المثلج الدقيق للغاية - والأرض زلقة جداً، لكن خيم في الأعلى الضباب الكثيف، ومعنى ذلك أنهم لن يلاحظونا، كما أنني أستكشف الاتجاه بيسر - فكل شيء هنا معروف لدي، ولدهشتي لم تحدث أي تغييرات، وحتى صرت أشعر بنوع من الطمأنينة المنعزلة - كما لو أنها واحة سلام. كنت أعتقد أن البوابة ستكون مهدمة والسياج مخرباً، لكن تبين أن كل شيء باقٍ على حاله - ووجدت مفاتيح البوابة والمبنى في المكان الذي أخفيتها فيه - تحت صخرة ضخمة. دخلنا إلى المكتب، ولم يدخل المكان أحد من بعدي: فبقي كل شيء على حاله، باستثناء النور، لكن يوجد لدينا مولد خاص بنا، وأنا لم أشغله لسبب مفهوم، ومن دون ذلك يبدو المكان كالجنة بلا هذا. لدي هنا غرفة خاصة بي وكذلك فراش، لكن وجب إبقاء روسلان تحت النظر، وذهبنا إلى جناح الخفارات حيث توجد عدة أسرة. فاستلقيت على أحدها، وأدركت بأنني عاجز عن القيام بأي خطوة أكثر، وآخر ما استطعت قوله هو أنني همست:

- روسلان، رجاء، لا تذهب إلى أي مكان بعيداً عني. فارقد ونم.

استيقظت لشعوري بألم. وبأن جسدي يوجعني كله. ولم أفقه، أين أنا؟ الجو في الخارج غائم ومعتم وفي مكان ما هدر الرعد وكان يردد تنويمة، فيجعلني أرغب أكثر فأكثر في النوم. وفي أغلب الظن أغفو ثانية وأرى في الحلم عائلتي - وصغيرتي الحبيبة شوفدتشكا. إنها تعزف وتغني لحناً ما حلواً ورقيقاً ومؤثراً. لكن موسيقاها لا تكاد تسمع بسبب ارتداد قصف الرعد القريب. وعلى حين غرة دوى بعنف قصف شديد، واهتز المكان، فنهضت وكان أول ما فعلته هو الصراخ:

- روسلان! أين أنت يا روسلان؟ كدت أن أصاب بالجنون لو لم يظهر روسلان عندئذ. وقف أمامي نضراً، وحتى بسحنة محمرة.

وقال مبتسماً: - هل استيقظت؟ هنا يوجد كل شيء تقريباً، وحتى الغاز في القناني. وقد سخنت الماء، واستحممت.. الآن سأجلب لك الطعام.

أنا لم أعلم، لكن تبين أنه توجد في مطعمنا حبوب ومعلبات وشاي وسكر. وروسلان ماهر في عمل كل شيء - فتناولت عصيدة المن ومأكولات أخرى عديدة، ولو أنه لم توجد لدي شهية، أنا أعلم بأنني مريض. واقترح روسلان قائلاً:

- يجب عليك أن تغتسل أيضاً. سأسخن الماء.

كانت هذه العلاجات المائية بعد أيام عديدة من الحياة في القبو والحرب تمثل متعة حقيقية، وحتى نسيت الحرب. وبعد ذلك شربت الشاي مع العسل (بقيت لدي علبة عسل في مكتبي) ورقدت في الفراش، وتدثرت، وعرقت بشدة، بحيث أصبح الفراش كله مبللاً. وتولى روسلان العناية بي بدلاً من أن أعتني أنا به. واستيقظت مرة أخرى لدى سماع الدوي مجدداً، وتحطم الزجاج في مكان ما. ومرة أخرى دعوت - روسلان، لكن ساد السكون. فتملكني الفزع ورحت أتراكض في المبنى، وعندما تطلعت إلى السطح وجدت روسلان واقفاً هناك.

- ماذا تفعل هناك؟

- من هنا ترى المدينة.

- انزل! اهبط فوراً. - صرخت به وسرت نحوه.

فيما بعد، وبينما كنا نحتسي الشاي، حدثني روسلان عن نفسه: يبدو أن الهدوء يسود في المدينة.. ولم تعد هناك حرائق، ولا قصف الطيران.

- طبعاً، إنهم لن يقصفوا جماعتهم. وأنت رأيت العدد الكبير من المعدات العسكرية والجنود القادمين إلى المدينة.

لزم كلانا الصمت، وكنت واثقاً بأننا كنا نفكر بقبونا، وفجأة سأل روسلان بصوت خافت:

ربما أذهب ليلاً إلى المدينة؟ ماما... في الليل سأدبر الأمر.

كلا! - قلت ذلك بحزم قدر الإمكان، وعندما رأيت وجهه وعينيه اللتين غشيتهما الدموع، أضفت:

إذا أصررت فسنذهب سوية. لكنك تدرك أي مجازفة هذه؟.. لا تغتم.. أعتقد بأنه تم تفتيش الجميع في المدينة، وتم العثور على المطلوبين. أولجا سيرجييفنا والجدة روسيتان، وهناك تم استيضاح كل شيء، - وحاولت أن أرغم نفسي على الابتسام. - تصور، لابد أنهما الآن في مستشفى عسكري ما. لابد أنهما اتصلتا بمايكوب، وربما ساعدهما العسكريون الروس. بينما نحن ما زلنا هنا.. لابد إنها قلقة جداً!

حقاً لقد كنت قلقاً جداً. وتنامى شعور الخوف في أعماقي. أنا أفهم بأنني يجب أن أعمل شيئاً واتخذ قراراً ما. لكنني ما زلت مريضاً وضعيفاً، والشيء الرئيس لا أعرف ما العمل. لكنني أعرف أن العسكريين سيصلون في نهاية المطاف إلى هذا المكان، وربما - لا سمح الله - ستتطاير القنابل معهم. يجب أن أغادر، أغادر الجمهورية. وبمثابة بصيرة انبثقت لدي فوراً خطة متفائلة. بأن نغادر لدى حلول الظلام باتجاه قرية الخان-قلعة القريبة، وهناك معبر صغير ومنحدر. ربما بقي أحد ما في القرية. وفي الأحوال كافة هناك في موضع قريب طريق روستوف- باكو وسنسير بشكل ما

نحو أنجوشيتيا وستافروبل. ولدى التفكير في هذه الخطة تحسن مزاجي ووضعي الصحي، وفجأة سأل روسلان الذي لا يكل:

- هل يمكنني تشغيل المولد الكهربائي؟

- لماذا؟ أو تعرف أي ضجيج سينبعث منه؟

- أود أن أشغل التلفزيون.. سنرى ما يجري في العالم.

أخذت أعجب بهذا الفتى أكثر فأكثر، ودهشت هل يمكن رفض هذه الفكرة. هدر المولد ذو المائة كيلوواط في المنطقة كلها، وظهر التيار، لكن التلفزيون لا يبث شيئاً بل يوشوش فقط. لكن روسلان فتى ماهر، فوجد سلكاً ما، وأبدى سرعة بديهة، وفوراً بدأ بث قناتين أو ثلاث قنوات، ولصقنا بالشاشة وأخذنا نصغي إلى الأخبار. ودار الكلام هناك بصورة رئيسة عن جمهورية الشيشان - وقد فرضت القوات الاتحادية سيطرتها على جروزني والقسم الأكبر من الجمهورية. وبدا حتى إن بعض الدوائر الحكومية قد باشرت بالعمل. وعقد في جروزني اجتماع الحكومة الجديدة، وتجري إعادة بناء الاقتصاد. روسلان - ياله من فتى ذكي، وكيف لم أفكر في الأمر سابقاً؟ وذهبت إلى قسم التوجيه، وشغلت اللاسلكي - فماذا سمعت؟!- مناداة الأسماء لمعرفة الموجودين، وصوت عامل التوجيه عندنا المألوف لدي في لوحة الإدارة المركزية. وأخذت أصرخ وأنادي على جميع الأصوات:

أين أنت؟ - سمعت الصوت العزيز والمعروف لدي.

وهتفت: - في مكتبي. في دائرة أعمال الحفر. ساعدني. معي فتى يجب إخراجه. ساعدونا!

- لا توقف الاتصال، - سمعت صوت عامل التوجيه المخلص. ثم أعاد الاتصال بعد عدة دقائق. - لقد أبلغت المدير العام. سيرسلون سيارة إليكم.. كيف أحوالك؟

على ما يرام، - ثم سألته حول ما يشغل بالي:

هل لديك اتصال؟ يمكن أن تهتف مرتين إلى عائلتك بموسكو، وإلى مايكوب، - وأمليت بسرعة رقم هاتفي.

بدا لي أن العالم قد تغير، وصار وضاءً أكثر، وإن كل ما جرى هو مجرد حلم فظيع.

وهتفت بابتهاج: - روسلان! روسلان! - سيأتون لأخذنا.. تابع الطريق..- ودنوت من جهاز اللاسلكي، وانتظرت. لقد علموا بموسكو أنني على قيد الحياة، وأجهشوا في البكاء. أما في مايكوب فلا يرد أحد على الهاتف.

- روسلان، روسلان هل هم قادمون؟

وأجابني: - لا!

ووجهت السؤال إليه مرتين أخريين - وأجاب أيضاً وفجأة هرول قادماً، وقال بانفعال:

إنهم قادمون. ولكن يبدو أنهم من الجنود الفيدراليين. في مدرعات.

فقلت بسرور:

- حسناً، وكيف يمكن التنقل الآن.

خرجنا إلى الشارع. لِمَ ير شيئاً من هناك. وهرعنا إلى البوابة كما لو كنا في سباق الجري. من هناك لا يمكن رؤيتهم لأنهم اختفوا في المنخفض، لكننا سمعنا هدير المحركات من مكان قريب. وسمعت لحظتئذ:

- هل سيمكننا الذهاب إلى ماما وجدتي؟

فأجبته: - طبعاً، أعتقد، أننا يمكن أن نفعل ذلك.

لكنني نطقت بالكلمات الأخيرة كما لو كانت بمثابة استطراد. لأن العربات المدرعة أصبحت قريبة جداً، منطلقة بسرعة فحسب، وينبعث منها هدير، وفوقها جنود مقنعون وكلبان.

- روسلان، دعنا نختبئ!- نبرت بصورة غريزية، وأمسكت بذراعه، وحاولت إدخاله في البوابة، لكنه أكثر فطنة مني في هذه الشؤون فقال:

- لقد فات الأوان. لافائدة، معهم كلاب.

وأمرته: إلى الباحة! - أغلقت المزلاج، وما زال لدي شيء من الأمل في أنهم سيواصلون مسيرتهم، وكذلك ربما جاءوا إلينا بنية خيرة. لكن مجرد النظر إليهم جعل ركبتي ترتجفان، وعندما دنت العربة الأولى من البوابة مباشرة، فهمت كل شيء، فهرعت للقائهم:

- لا تحطموا البوابة، سأفتحها! أنا مدير دائرة حفر الآبار.

فتحت البوابة، وأمروني من العربة بإشارة استخفاف من اليد وفتحت البوابة. دخلت عربتان إلى الباحة وبقيت اثنتان في الخارج. وهبط نحو عشرين جندياً مدججين بالسلاح من العربات، كما لو أنهم يتخذون المواقع، واقترب مني رئيسهم - الآمر الذي كان يضع القناع أيضاً. إنها كانت أول مرة ألتقي فيها رجال القوات الفيدرالية وارتعبت لحد أنني لم أسمع في البداية قوله:

- الوثائق!

سلمت الهوية المدنية وبطاقة العمل. تفحص الآمر فترة طويلة وبإمعان الهوية المدنية، ثم فتح بطاقة العمل:

- ما هذا الابن آوى هنا؟ - وفهمت مقصده ويتعلق بالختم الذي يبدو فيه «ذئب إيتشكيريا»، فلم أجب وهززت كتفيَّ فحسب.

مزق الآمر بطاقة العمل، ورماها في الوحل باحتقار والتفت إلى روسلان:

- هات وثائقك!

فمد روسلان وثيقة الميلاد.

صرخ الآمر: - ما هذا؟.. أين وثيقة الأحوال الشخصية؟ أين هويتك؟

فأجبت: إنه بلا هوية. وقد بلغ مؤخراً سن السادسة عشرة. والوضع كما ترى.. لم يوجد مجال للحصول على الهوية، كما لايوجد مكان للحصول عليها.

- أنا لا أسألك، صه !

أومأ الآمر برأسه فقط إلى الجندي الضخم الجثة الواقف إلى جانبه الذي صرخ:

- هيا إلى الجدار، ارفع يديك إلى الأعلى. وافرج الساقين.

قاموا بتفتيشنا بغلاظة ولكن بحذاقة. لدي فقط محفظة النقود، ومفكرة، ومطواة، والعوينات المحطمة. بينما وجدوا لدى روسلان سكين «فينكا» صغيرة وعلبة ثقاب.

- هل يوجد هنا آخرون؟

- لا أحد، - وسمحوا لي بالاستدارة، بينما بقي روسلان واقفاً أمام الجدار.

وأومأ الآمر مجدداً برأسه فدخل عشرة جنود مع الكلاب إلى المكاتب. وبينما كان تفتيش المبنى جارياً راح الآمر يدخن سيجارته، ويبصق في أحيان كثيرة. وفجأة سمع عواء الكلاب، وبدأ الجنود بالخروج. أبلغوا الآمر: - لا أحد!

ولاحظت أحد الجنود حاملاً جهازنا اللاسلكي وقد اقتلعه «قلعاً» من التوصيلة.

وكدت أن أعرب عن غيظي فهو - من ممتلكات الدولة -، لكن تألقت عينا الآمر من وراء القناع، بشكل كما لو أنهما تلدغاني: أنا لزمت الصمت، وهدأت، وانتظرت صدور الحكم، وجاء:

يمكن أن يستخدم المسلحون جهاز اللا سلكي.. هاك الهوية - رمى الوثائق نحوي وأمرني: - واصل الخدمة!.. أما هذا - وأومأ برأسه مجدداً، فقام اثنان من الجنود الأقوياء البنية بوضع القيد في يدي روسلان من الخلف ورفعاها عالياً ما جعل رأس روسلان منحنياً إلى الأرض.

أطلقا الصراخ ورفسا الفتى بأقدامهما صائحين: - هيا سر!.

فصحت كما لو ثبت إلى رشدي: - ماذا تفعلون؟ ما هذا؟! ماذا تفعلون؟

- يجب التحقق من هوية الشاب.

- إنه ابن أخي! دعوه وشأنه!- واندفعت نحو الجنود، فابعدوني جانباً، ودسوا روسلان مثل الكيس في داخل العربة المدرعة. بينما تشبثت بالآمر قائلاً بحنق: - إذن خذوني أيضاً.

تلقيت ضربة في القذال. لكنني لم أفقد الوعي، ولم أستطع حتى النهوض من أثر الضربة. وعندما وقفت على قدميَّ، تراءت دوائر أمام عينيَّ، ورأيت كما لو كان ذلك وسط الضباب كيف ابتعد طابور المدرعات بسرعة نافثاً هباب الدخان، وحاملاً روسلان معه.

- قفوا، ياأنذال! - واندفعت وراءهم وأنا أتعثر وأسقط...

لا أريد الكتابة أكثر، لأنه بدأت بعد ذلك الحرب فعلاً. والآن حين أتذكر ذلك كله، وأكابد كل ذلك مجدداً، حتى لا أصدق - كيف كانت الحياة شديدة الوطأة. وأحياناً راودتني الأحلام - كان الأفضل لو اعتقلوني وقتلوني، وفارقت الحياة.. والآن شعرت بصداع في الرأس من الذاكرة المضطربة كما لو تلقيت ضربة في القذال بعقب البندقية..

النوم! إن النوم مثل الموت، ويدرك المرء بأن كل شيء قد مضى وسيمضي. وفي هذا يكمن مغزى ومهزلة الحياة...

6 يناير، مساءً

الجميع يعنفوني اليوم. فقد تأخرت في النوم ولم أتناول الفطور في موعده.. هتفت الممرضة، وتبرمت. بينما كنت أشعر أصلاً بألم في رأسي. ولم أستطع تناول الطعام، ولم أرغب في ذلك. رقدت في الفراش. لكن الكاميرات ترصد كل شيء. يبدو أنهم رأوني في أمريكا. ربما خافوا أن تظهر جثة أخرى في المستوصف. وتم إزعاج طبيب الراديو الموجود هناك في إجازة. لكنهم في أمريكا يحرصون جداً على العمل أي البزنيس. وعموماً هتف لي طبيب الراديو. وسأل كيف الحال؟ وفهم بأنني أعاني من آلام في الرأس.

الدماغ ينقصه الأوكسجين - يعرف الأطباء كل شيء من مسافة ألف فرسخ - نظف الأنف والفم والقسطر. وتوقف عن الكتابة ليلاً. يجب النوم في الليل.

أجبته بهمهمة: تارة تقول أكتب، وتارة تقول لا تكتب. والحق يقال إنني لم أكن أعرف بأن الكتابة عن الماضي صعبة، فالمرء يعيش الأحداث مجدداً. ومعاناة القلق كما حدث يومذاك. والآن لا أستطيع تحمل هذا، فلا تتوافر لدي القوة. وحتى حاولت الكتابة بإيجاز، لكن رأسي بدأ بالطنين. والروح؟ الروح مفقودة - يبدو أنها قطعت، ويوجد القسطر بدلاً من كل شيء، لكن ماذا لو تلوث بالأوساخ، فعندئذ هو ليس الروح، ويمكن تنظيفه، وربما، وهو ما أفعله مضطراً، أقوم بتغييره فحسب. ولكن يمكن أيضاً تغيير الروح والذاكرة والمصير، واستبدالها، وحذف ما لا ضرورة له. أظن أن هذا ما سيحدث قريباً. على أقل تقدير إن البشرية سائرة إلى هذا المصير. وحتى تخصيب البشر يتم في الأنابيب. ولا يهم من أنت، ولأي شيء، ولمن؟ من جانب آخر، إن هذا شيء جيد جداً. ولن يعاني أحد عندئذ بسبب والديه وأطفاله، مثل أولجا سيرجييفنا مثلاً. ومثالي؟.. كلا، الأفضل عدم التفكير بهذا وعدم الكتابة عنه. الأفضل والأكثر نفعاً هو ما ينصح به الأطباء. الولادة في الأنابيب. والوفاة حسب الرغبة الشخصية أو رغبة الآخرين، بواسطة الحقن بإبرة في غرفة معرض الجثث - أطلقت على ذلك تسمية «أفتونازيا» أي الوفاة حسب الطلب... لكن لماذا أتحدث عن الأمور الحزينة. يجب الإصغاء إلى تعليمات الأطباء. لهذا، كما نصح طبيب الأشعة، فقد نظفت جيداً الأنف والفم والقسطر. حقاً، صار التنفس أفضل بكثير، كما أصبح الصداع أقل، لكن أنحو لم تصبح أخف وطأة.

إيه، كم أود لو عشت الحياة من جديد. أو لو تغير المصير. باختصار يجب أن لا يعيش الإنسان المسالم في مكان تدور فيه رحى الحرب. دعهم يصابون بمس من الجنون. يجب الرحيل، كان يجب الرحيل منذ وقت بعيد، وأنا رحلت وأخذت العائلة معي. لكنني لم أستطع العيش خارج وطني. كما لم أجد عملاً، ولم أستطع كسب النقود في بلاد الغربة. باختصار، إنه عبث الأقدار. ولا يمكن إعادة الكتابة. فمنذ أن ولدت وبسبب الترحيل أصبحت يتيماً، وحيداً، وسأموت بسبب الحروب، بلا سليل - فلم أحافظ على الأبناء وعملياً سينتهي لقبي وسلالتي برحيلي. كم من الصعب إدراك ومعاناة هذا ولقاء الموت ببساطة. ولا غرابة أن أحتدم غيظاً، ويتملكني الشعور بالانتقام والحقد.. هذا هو اتجاه تفكيري!

كيف يتغير الطقس في الجبال بصورة مفاجئة وبسرعة، وكيف تهب العواصف والأعاصير في الجبال في لحظة خاطفة، - بهذه الصورة أيضاً راحت الأفكار السوداء تدور في رأسي، حينما كتبت في العشية عن كيف احتجزوا روسلان. وفي الصباح شعرت بأنه ستحدث بين لحظة وأخرى نوبة عصبية جديدة، بينما تتردد هذه المكالمات الهاتفية والنصائح، ومنها «لا تكتب»، لكنني يجب أن أكتب، ويجب أن أنقذ روسلان، والخلاص الوحيد بالنسبة لي هو - ما دام روحي وإرادتي قد مزقتا، أم إنهما لم يصبحا تحت سيطرتي، فإن الجسد، الجسد الفاني ما زال موجوداً، ويجب أن يحيا ويكافح. ولهذا الغرض يحتاج الجسد إلى القوة، وأنا بدأت بعمل شحنة قوية. لحسن الحظ يقول الأطباء وأنا نفسي أعرف وأشعر بأن قلبي بطبيعته قوي وشديد التحمل. واليوم عملت عدة مرات تمارين الجلوس مائة مرة، والعدد نفسه من تمارين نزول- صعود، وكذالك عدة تمارين للتنفس،

وتمارين جمباز وبعض حركات يوغا. ومن ثم عملت الإجراءات المائية المسموح بها. وفور ذلك بدأت الضجة. في البداية هتف من أمريكا الطبيب الراديوي. وصرخ وحتى شتمني، كما أظن، قائلاً بأنني خلافاً للتعليمات أفعل كل ما هو ممنوع. والجهد البدني - ضار وخطر. ثم هتف مكحل. وتبين أن طبيب الراديو هتف إلى ابنتي، ومموّلي الرئيس، وقال إن العلاج قد طال لأن المريض، أي أنا، مذنب في عدم تخلص جسدي من الإشعاع. وبسببي ضاعت فترة إجازة طبيب الراديو. فهو يتلقى التأنيب من الرؤساء الأمريكان حتى في فترة الإجازة. وينهال طبيب الراديو بدوره باللوم على شوفدا. إنها تبكي، بينما لايجوز لها أن تبكي، وحموها يهتف لي. قصارى القول، يكابد بسببي الجميع، حتى في أمريكا وأوروبا. وشعرت بالانزعاج وبالخجل. أنا قلق جداً وحزين بسبب ابنتي. أنا مذنب، فعلاً. لكن الحياة مسألة ظريفة ومتنوعة ويصعب التنبؤ بها مسبقاً. ولا يمكن أن يوجد فيها أسود أوأبيض فقط - فكل شيء يتم بالتناوب. واتصلت بي بعد تلك المكالمات المزعجة شوفدا، المصدر الوحيد لحياتي، وينبوعي. علماً بأنها لا تعنفني البتة. بل بالعكس إنها تشجعني وترجوني أشد الرجاء بأن أعتني بنفسي! هكذا! إذن يوجد من يحبني، يحبني بصدق. ابنتي الحبيبة! الإنسان الوحيد الذي بقي لدي. وكلامها بعد تلك الشتائم السابقة يعتبر بمثابة تخفيف من الألم، ورشفة من الهواء النقي، وصرت أرغب في العيش مجدداً... هذا مشهد واحد فقط من الحياة، لكن ياله من مشهد ذي عبرة. لأنه يعقب الزمن الأسود دائماً تقريباً زمن أبيض أو ربما يبدو أبيض.

هذه مقدمة فيها إطناب للحديث عن اللحظة التي كنت أهرول فيها وراء المدرعة التي نقلت روسلان، وكانت ليست مجرد لحظة سوداء بل شديدة السواد. كنت أهرول وراء آثار الجنازير تحت الجبل بسرعة لا نظير لها، وأصرخ، وألوح بيدي، ثم انزلقت وسقطت، لقد سقطت أكثر من مرة في تلك الأوساخ والوحل، ثم هرولت مجدداً. بينما اختفت العربات المدرعة وراء المنعطف القريب، وتوجهت نحو ذلك المنعطف، وأنا ألهث وأسير منهوك القوى، وسقطت مرة أخرى في الوحل وكدت أقع تحت عجلات سيارة «واز» التي جاءت، كما تبين، لاصطحابي.

وذهل زملائي لمرآي، لكنني لم أوضح لهم شيئاً. وصعدت بملابسي الموحلة إلى السيارة وأمرتهم:

صرخت: - استديروا!.. هل شاهدتم أربع مدرعات؟ لنحلق بها بسرعة.

لقد تبين أن سائقنا فتى شاطر، وقد شاهدنا تلك المدرعات، لكن وجدت عند مدخل المدينة حاجزتفتيش، مر بها ذلك الطابور بلا عقبات، وقد تبين أن لدينا رخصة مرور خاصة، لكن وجب مع ذلك تفتيشنا. وجرى تأخيرنا أيضاً بسببي، حيث إن مظهري القذر أثار الشبهة. ولم يصغ أحد إلى احتجاجاتي وطلبي المساعدة، وتم اقتيادي إلى حجرات ما فيها عدد كبير من العسكريين، وجلست نساء وراء أجهزة الكومبيوتر. حينما شاهدوني صرخوا في العريف المرافق لي:

- لم جئت بهذا الدنس إلى هنا؟ ابعده خارجاً! أطلق سراحه.

تم إخلاء سبيلنا. وانطلقنا في شوارع المدينة القذرة والمدمرة. إنها ليست جروزني، بل مدينة الرعب، وبدا لي أنني أرى هذا كله في الحلم أو في فيلم ما عن الحرب. لكن هذا واقع - خرائب وهياكل سيارات محترقة وحتى الثلج معتم. اختفى الطابور، واختفى روسلان معهم. وتراءت

أمامي ليست صورته بل وجه أمه أولجا سيرجييفنا. وأنا أرجو المرة تلو المرة، والآن أناشد السائق التوجه في هذا الاتجاه أو ذاك. ولم يخل ذلك من الخطر، فكل شيء ممكن في هذه المدينة الشبح. لم نر أي أحد، ولا سيارة مدنية واحدة خلال ساعتين من التجول وسط الأنقاض - هناك العربات العسكرية فقط، وكنا نشعر دوماً بأننا تحت المرمى. وأخيراً أدركت أن الزملاء يجازفون بحياتهم بسببي.

فرجوتهم: - دعوني أنزل.

- ماذا تقول؟ وبعد ذلك سنضطر إلى البحث عنك. يدعوك المدير العام. ربما سيقدم مساعدة ما. أذهلني هذا الخبر.

... سأخرج قليلاً عن الحديث وليس عن الموضوع، وبودي الإشارة إلى أن أي عدو في أثناء الحرب يصبو قبل كل شيء إلى تدمير الأهداف الاستراتيجية للخصم. ويالها من مفارقة، ففي أثناء ما يسمى بالحربين الشيشانيتين الأخيرتين، وبالأخص خلال الحملة الأولى، تم تدمير كل شيء والجميع تقريباً، باستثناء منشآت مجمع النفط، وبالأخص مؤسسات استخراج ونقل النفط. وهذا كله مفهوم وغير مفهوم الآن. لكنني لم أفكر في هذا آنذاك في بداية الحرب الأولى، ولم يكن لدي مجال لمثل هذه التأملات، وكنت مسروراً جداً لعلمي بأنه يوجد لدينا مدير عام، هو نفسه، بالرغم من جميع هذا الرعب. وهذا الشاب تلقى حين كان طالباً دورة تدريبية لدي وحتى بدأ نشاطه العملي في فريقي من العمال. ثم غادر جمهورية الشيشان في مطلع التسعينيات، حينما بدأت هذه الفوضى كلها. لقد حدث في قيادة «جروزنفط» أو حسب التسمية الجديدة، وزارة صناعة النفط والغاز، في الأعوام الأخيرة، تغييرات عشوائية حقيقية، وقبل شهرين أو ثلاثة أشهر من بدء الحرب، أرسل مدير عام جديد، وهذا أمر له دلالته أيضاً. وقد تبين أنه ما زال في هذا المنصب.

ورجوتهم: - خذوني إليه، الأمل فيه فقط.

كانت مكاتب «جروزنفط «في المكان السابق، لكن يحيط بها الآن سياج عال من الخرسانة المسلحة، وتوجد مدرعات، ونقطة حراسة مسلحة. ويبدو أنهم سيسمحون لي بالدخول، ولكن بأي هيئة أنا. وقد احتار في ذلك حتى زملائي. لكن يجب عليّ أن أقابل المدير العام. ولحظتئذ فكرت في أنه توجد في مكان قريب شقتي التي لم أجد الفرصة للإقامة فيها كما يجب، وربما بقي هناك شيء من الملابس. ولم توجد خيارات أخرى، فتوجهنا إلى هناك.

لم أتعرف على أي شيء في المكان. هذا ليس شارعي ولا فناء بيتي ولا مدخل بيتي ولا شقتي - كنت أسير فقط طبقاً لما يمليه عليّ ملاح ذاكرتي. باب المدخل مفتوح على مصراعيه، وجميع النوافذ محطمة بموجة الانفجار. غبار وأوساخ، وثلج أسود على رفوف النوافذ. وبدا لي أن كل شيء في محله. لكن فقط أطلق الرصاص لسبب ما على جهاز التلفزيون، ولم يوجد أي شيء آخر، باستثناء ملابسي العتيقة، وقد علاها الغبار حتى في الصوان، لكنها موجودة. لقد حالفني الحظ بهذا على الأقل.

المدينة وفي داخل المدينة نفسها لا يمكن التعرف على أي شيء، لكن مكتب المدير العام باقٍ نفسه، سوى أن النوافذ جديدة، ويبدو أنها بزجاج مضاد للرصاص. والمدير بهيئة أخرى - فهو مثل الجميع مال إلى الهرم، واحدودب ظهره، وبدت عليه سمات القلق. وتبادلنا عدة كلمات فقط، فلا يمكن التعليق على ما يجري، والعقل السليم لا يدرك ذلك، بينما يجب العيش وثمة رغبة في ذلك. تطلعت قبل كل شيء إلى أجهزة الهاتف.

- هل يوجد اتصال؟

هتفت في البداية إلى مايكوب حيث عم روسلان - فلم يجب. وبعد ذلك هتفت إلى موسكو. وبكيت زوجتي، لكنني أوجزت في الكلام وقلت:

- كل شيء على ما يرام، - ووضعت السماعة، وبدأ المدير يتحدث عن شؤون العمل، لكنني قاطعته - ورويت باختصار مصيبتي.

وأكدت له: - أنت تعرف أولجا سيرجييفنا؟ وأنت تذكر زوجها. يجب إيجاد الصبي وإنقاذه. ساعدنا. أنا في حالة يأس. كيف سأنظر إلى عيني الأم؟

- لن تنظر إليهما.

احتدمت قائلاً: - لن أنظر إليهما؟

لكنني حينما تطلعت إلى عينيه الخابيتين، فهمت كل شيء بلا كلام، ولم أرغب في تصديق ذلك، ونكست رأسي، وأوضح بعد فترة صمت طويلة قائلاً:

- كانت في قبو المبنى المجاور خالتي وابنتها. ألقيت عليهم جميعاً القنابل اليدوية.. هذا ليس جيشاً، بل زمرة من الأوغاد والوحوش، - أطلق شتيمة بذيئة ثم قال: - يجب إنقاذ الصبي.

أنا أعلم بأنه توجد في حياة أي إنسان أيام، ربما لا تغير المصير بصورة جذرية، لكنها تبقى في الذاكرة إلى الأبد، مثل ذروة أخرى، وومضة وحتى الانفجار. ولحسن الحظ، ففي سلسلة الأحداث اليومية العادية توجد أيام قليلة، لكنها موجودة. إنها كثيرة لدى بعضهم وقليلة لدى بعضهم الآخر إلا أنها موجودة، وهذه الأيام الثقيلة تعطي تعريفاً لمغزى الحياة، التي لا يستطيع أو لن يستطيع المرء إعطاء وصف لها - كما لو أنه يستعيد هذا اليوم، ولكن هيهات أن تتوافر القوة لفهمها لدى أحد، ولا حاجة إلى ذلك... ما كان بوسعي عمل شيء - الفوضى شاملة، تعسف الزمرة العسكرية، وانفلات الوضع. لكن وجدت لدى مديرنا هوية ذات قدرة جبارة، حصل عليها في موسكو، ويوجد لديه أيضاً خط الاتصال الخاص، وبمعونة هذه الوسائل يسمح له بالمرور ليس في كل مكان، لكن في أماكن كثيرة، وأنا أنتظر، جالساً في السيارة، وانتظر عند حاجز تفتيش ما أو إدارة القومندان العسكري. أنا أنتظر حدوث معجزة بأن يظهر المدير العام مع روسلان. من جانب آخر، كيف سأنظر إلى الفتى. وكيف سأبلغه بمصرع أمه. لا! أنا لا أعرف شيئاً. وهدفي إيجاد روسلان

وإيصاله إلى مايكوب، إلى عمه. لكن هذا لا يتحقق. ساد الظلام في المدينة، أو بالأحرى في هذه الخرائب، وبدأ منع التجول. اضطررنا للعودة إلى مكاتب «جروزنفط» خاليي الوفاض، وهناك جلست فوق ديوان ما متهالكاً من التعب، واستسلمت للكرى...

... سقطت على الأرض لدى حدوث قرقعة تصم الآذان. الحربّ، الانفجارات وإطلاق النار بالقرب منا - إنها الحرب، ويبدو أنني اعتدتها، لكن قلبي يأبى ذلك، - فصار يدق بعنف، ويئن، وأنا لا أستطيع أن أفهم، أين أنا وماذا يحدث لي. وأخذت أتلمس الأرض كالمكفوف، كما لو أنني أبحث عن المخرج، لكنني أتحسس القذارة فقط في اليدين والرعب في الروح. لقد ضعت وضللت الطريق ولا أستطيع التعرف على الاتجاه وتركيز الانتباه والتفكير، وأشعر بالخوف. وبدأ يسود الظلام والبرد والقصف. أنا وحيد. وتراءى لي أنني في القبو، وهناك ألقيت القنابل اليدوية، وسد المخرج بالطوب. كل شيء يضيق الخناق عليّ، أنا أختنق، وأموت. إنها النهاية! وتراءى لي أنه توجد إلى جانبي أولجا سيرجييفنا أيضاً - وأشاطرها المصير نفسه. وروسلان! ولمع هذا السؤال كالبرق في فكري، وفي عينيَّ. وتذكرت كل شيء، كما لو أنني ثبت إلى رشدي في لحظة خاطفة. وفي اللحظة ذاتها ساد السكون. ثم أطلقت طلقة بائسة من مسدس، كما في بداية الماراثون الرياضي، وهنا انتهت لعبة الحرب. لكن يجب عليّ أن أخرج من هنا. ووجدت باباً في العتمة. وأدركت أنني في حجرة الاستقبال. لكن جميع الأبواب هنا موصدة. فدفعتها وطرقتها، وصرخت - لكن بلا فائدة. سكون. ظلام. لا يوجد أحد. وشعرت بالميل إلى الرقاد على الديوان... عندئذ تملكتني لأول مرة الرغبة في الموت، لأنني كنت عاجزاً. ولم أستطع النضال ناهيك عن القتال. أردت فقط أن أنام، أنام إلى الأبد، بغية ألا أعرف شيئاً أو أتحسس أو أكابد شيئاً- هذا إذن مغزى الحياة. أو كما يرد في الكتاب الذي فرض عليّ وعنوانه «مغزى الحياة»- إن المغزى هو تحقيق الانسجام الذي يعني الخير والجمال والطمأنينة.

لا حاجة للتفكير في الانسجام والخير والجمال حين تكون في مركز أتون الحرب، أما الطمأنينة، لا سيما الطمأنينة الأبدية، باعتبارها أحد مكونات مغزى الوجود، فيمكن بلوغها - لقد رغبت رغبة شديدة في أن أنام، وأغفو إلى الأبد، بغية ألا أستيقظ وألا أرى ولا أسمع هذا الكابوس كله. لكن الحياة هي الحياة، ويجب أن ينتصر فيها الخير على الشر دائماً- هذا هو الجمال لا، الجمال الذي رأيته في الصباح. في الصباح أيقظني المدير العام، ابتسم وتهللت أساريره، وغمرت مكتبه كله والشارع الشمس والهدوء. وإلى جانبه روسلان. حقاً إن الفتى حزن لمرأى هيئتي. أخفيت نظراتي - وبعد الفرحة المفاجئة تذكرت أولجا سيرجييفنا، وكدت أن أذرف الدموع. وانقذني المدير العام:

- يجب إخراجه من هنا بسرعة. سأعطيكم السيارة... هل تحتاج إلى النقود؟ إنه بحاجة إلى العلاج.

فجأة نبر روسلان: - ستعالجني أمي، إنها طبيبة.

كانت هذه الكلمات بمثابة ضربة قاسية، ومؤلمة لي. واستطعت فقط أن أبعد بصري جانباً. عندئذ أغاثني المدير العام:

- أعتقد أنهم سافروا.. لقد تم نقلهم.. إلى أين، أنا لا أعرف. بينما يجب أن يقدم لك العلاج. سنرى.

لحظتئذ فقط شاهدت الآثار الدائرية المزرقة للقيود في يديه، كما أن الأصبع الأوسط ليده اليمنى مكسور، والرسغ متورم.

قال المدير العام: - يجب الرحيل.

ووضع تحت تصرفنا سيارة. وجلست إلى جانب السائق، وجلس روسلان في الخلف، وحالما تحركنا سأل الفتى:

- لنذهب إلى بيتنا، أريد أن أرى.

قال السائق الذي أغاثني أيضاً: - وسط المدينة مغلق ولايسمحون بدخوله، هناك ألغام.

كانت المشكلة الرئيسة هي الرحيل، وفكرت بأن كل شيء أصبح في طيات الماضي. غفا روسلان في المقعد الخلفي كما فعلت أنا في العشية. نام روسلان، أو بالأحرى حلق في بعد آخر ما، فترة طويلة جداً. مفهوم - لقد كابد الأمرين وتعذب، وهو يئن في نومه، ويهمهم بكلمات غير مفهومة، ويهتز وفجأة انتفض وسحبني من كتفي وصرخ:

- لقد قتلوا ماما! قتلوها! الأنذال! الأوغاد!.. أوقفوا السيارة! أوقفوها! سأنتقم منهم! - وفتح باب السيارة وهي ماشية.

حسناً أن أفلح السائق في إيقاف السيارة، - فقد قفز روسلان من السيارة وهي ماشية بسرعة قليلة، وسقط على الأرض وارتطم بها بذراعه المتورمة. وجعله الألم يجعد جسمه ويلويه، وراح يئن وينشج وينتحب. وقمت مع السائق بتهدئته واسترضائه وطمأنته، واستطعنا إجلاسه في السيارة مجدداً. الآن يجب إيجاد أقرب مركز طبي - فإن رسغ روسلان لم يتورم فقط، بل غشيته الزرقة. وكانت الطبيبة المناوبة في مستشفى موزدوك من أبناء منطقتنا، وسألتها خفية فيما إذا كانت تعرف أولجا سيرجييفنا. وأسفت. والآن أخفت دموعها أيضاً عن ابن القتيلة. وعملت كل ما يجب، واستدعت الجميع للمساعدة، وأصرت على وجوب إدخال روسلان إلى المستشفى. لكن وجب عليّ أن أنقله إلى ما يكوب بأسرع وقت. كما أراد روسلان ذلك، فهناك أقاربه، وهكذا واصلنا الطريق.

عمل عمله حلول الظلام والجبس وحقن الإبر - فقد غفا روسلان مجدداً. نام فترة طويلة. واستيقظ عندما أوقفونا على حدود إقليم كراسنودار. حتى الأرقام الشيشانية تبعث على الريبة. فتم وضع السيارة في مكان التفتيش، وقام خمسة - ستة من رجال الشرطة مع الكلب بتفتيش السيارة. وأخذوا وثائقنا. وبعد ذلك طلبوا من روسلان الذهاب إلى حجرة ما - ولم يسمحوا لي بمرافقته. وفيما بعد أعادوا إلينا جميع الوثائق وسمحوا لنا بمواصلة السفر، لكن أبلغونا أن الشاب سيحتجز لحين استيضاح هويته، فهيئته تبعث على الريبة. ورويت المصيبة التي حلت بالفتى، وماذا حدث له، لكن بلا فائدة. واقترح السائق أن نقدم النقود. ربما كان ذلك سيجدي نفعاً، لكن لم يكن لدي سوى قروش - وقد خجلت من أخذ النقود من المدير العام، فقد عمل خيراً كبيراً بينما أنا سأطلب منه النقود أيضاً. ولم يكن لدى السائق سوى ما يكفي للسفر، وقد عرض النقود لكن رجل شرطة المرور

ضحك ساخراً فحسب. أمضينا ليلتنا إلى جوار حاجز التفتيش. وقيل لنا إنه في الصباح ستتم إعادة تبديل نوبة الحراسة، وعند ذاك سينقل روسلان إلى مديرية شرطة أرمافير حيث سيتقرر مصيره.

لكن كما يقال إن الصباح رباح، ولا يخلو العالم من الأخيار. فعند الفجر توقفت عند حاجزالتفتيش سيارة نزل منها عقيد، يبدو إنه الآمر، وهو رجل قوي البنيان وطويل القامة، فهرعت إليه ولا أعرف، كيف أفلحت، لكنني رويت له كل شيء عن روسلان، وحتى أغلظت لحد ما في القول وأبديت حنقي. فلم يجب العقيد بشيء، ودخل إلى المبنى. واندفع نحوي رجال شرطة المرور: «اذهب من هنا، وإلا فسيزج بك في الحبس». لكن دوى صوت أمر بواسطة مكبرة الصوت: -

- اتركوه، ليقف كل فرد في مكانه.

اعتقدت بأن هذا الأمر موجه إليّ أيضاً، فوقفت كالمصعوق، من دون أن أفقه شيئاً تقريباً، وفجأة ظهر روسلان أمامي كما لو أنه ظهر من تحت الأرض. انطلقنا مبتعدين. وشاهدنا أمام أرمافير لافتة - الانعطاف نحو مايكوب، واعتقدت حقاً أنني بعد ساعتين سأنفذ واجبي - وأسلم روسلان إلى عمه، وبعد ذلك سأذهب إلى مكسيم - سأستدين منه بعض المال، وبعد ذلك سأسافر إلى عائلتي بموسكو.

كنت قد استسلمت إلى الأحلام السلمية، وغفوت تقريباً وحتى لم ألق بالاً إلى نحيب روسلان الهادئ والحزين، وعندئذ هزني من كتفي وصرخ:

- لولاك لبقيت مع ماما، ولكنت إلى جانبها. بينما أنت...

ثبت إلى رشدي بكل معنى الكلمة، كما لو لطمني أحد بعقب البندقية على قذالي مجدداً - ألم، ألم في كل مكان، ولا أدري لماذا، قلت له فجأة:

- أتعرف ياروسلان أنني ولدت في المنفى. وأنا لا أتذكر أبي تقريباً حينما كانوا يرحلوننا ويطلقون النار علينا. وعندما بلغت الثالثة من العمر توفيت أمي، بسبب الجوع والبرد والمرض. أنا لا أذكرها، بل أذكر فقط رائحتها ودفئها. وهكذا حتى لم تبق صور فوتوغرافية لوالدي- ونسبت إلى دار اليتامى.

حلت فترة صمت. ولا يسمع سوى صوت المحرك الكئيب. كان الطريق خالياً تقريباً. وسرنا فوق تلال كوبان تارة إلى فوق وتارة إلى تحت. بينما جلست في المقعد الأمامي، وظهري إلى روسلان، وشعرت بالتوتر المتنامي بيننا، وفي هذه اللحظة قلت كلمتي الختامية، كما لو أنني أضع حداً للحديث، ورأى السائق حزني:

- منذ شهر أطلقوا النار على شقيقي الوحيد أمام سمعي وبصري. علماً بأنه معوق منذ الطفولة، وجرى ذلك لمجرد أنه قال الحقيقة إلى الجنود الذين اقتحموا باحتنا، فأجابوه بصلية.. لكن يجب علينا أن نحيا وأن نطعم عوائلنا وأن نعمل... الجميع تحت رحمة الرب، وهو أدرى، ويصدر حكمه على الجميع.

لم يتفوه أحد بكلمة حتى وصولنا إلى مايكوب. وكان عم روسلان يستأجر بيتاً عتيقاً في أطراف المدينة. ولديه عائلة كبيرة. ويبدو أنه كان يدبر أمور معيشته بشكل من الأشكال، لكن سمات الفقر بادية في كل مكان. لم يكن العم هناك، فقد سافر إلى جروزني حالما علم بمصرع أولجا سيرجييفنا، بينما كان مصير روسلان يشغل بال الجميع.

.... لا أريد تصوير كل شيء بصبغة سوداء، بل سأورد الأمور كما هي. وعموماً، وكما عرفت لاحقاً، فإن عم روسلان سافر إلى جروزني وهناك فقد أثره. وشوهد آخر مرة في باحة بيت أولجا سيرجييفنا، وقيل إنه سحب جثتي الكنة والجدة وجلس القرفصاء في الظلام، وصار يدخن، وعندئذ بدأ منع التجول...

ربما في ذلك المساء، حين احتضنت روسلان مودعاً، وعدته:

- بعد يوم أو يومين سأعود، ثم نسافر إلى موسكو.

فأجابني:

سامحني... شكراً.

7 يناير، مساءً

أنا أعجب من مثابرتي. فقد واصلت الكتابة طوال الليل وفي الصباح أيضاً. وفقط عندما جاء وعاء الفطور أدركت بأن الليل قد أدبر.. وفي الواقع فإن من الصعوبة القول إن الفجر لاح. فالسماء خارج النافذة جهمة جداً، والجو خانق تغشاه السحائب. وهذا يناسب مزاجي ومحتوى النص السابق. لقد تبين أن الكتابة عن مثل هذه الفظائع صعب جداً جداً. لكنني أعتقد أن هذا ضروري. قبل كل شيء أنا شخصياً بحاجة إلى ذلك. إنه مثل الاعتراف. حديث مع الذات. ليس كتبرير، بل كأنه تحليل. إذا لا يمكن التحدث عن ذلك بوضوح. كما أنني لا أرغب، لا أرغب في معاناة كل هذا مجدداً، لأنني شعرت بأنني مذنب.. وكان ينبغي عليّ أن أبقى في القبو حتى النهاية. لكان مصيري وروسلان كان عندئذ سيكون كمصير أولجا سيرجييفنا وجميع الباقين. ومن المستبعد أننا كنا سنساعد أحداً ما، وحتى حماية أنفسنا.. عموماً إن هذا كله افتراض وتبرير. والحرب هي الحرب - إنها لا تعرف الرحمة، وغبية، وغير إنسانية، ولن يفهم الكثير حتى بمرور الزمن... ولن يوصف - فهذا مجرد مستحيل: الصورة - ظلام دامس، مثلها التلاوين، ومثلها الخلفية. لكن الإنسان يحيا في

الحرب ويريد أن يحيا ويجب أن يحيا. وأنا أيضاً يجب أن أعيش من أجل إعالة أسرتي. وكنت أخشى أن أموت قبل الأوان. فقد كنت يتيماً، وأعرف معنى ذلك، وأخاف، أخاف أن يلقى أطفالي مثل هذا المصير. وأن يصبح أطفالي يتامى. فقد تيتمت مجدداً في آخر أيام حياتي... إنه القدر. ربما، قد يهتم بذلك أحد ما؟ ولو. على أي حال لا يوجد لدي ما افعله غير هذا. وهذه الكتابات بمثابة تقرير.. إذن سأروي كل شيء بالترتيب.

الآن لا أتذكر ولا أريد أن أتذكر بعض الأشياء. لكنني في الوقت نفسه أتذكر جيداً شيئاً واحداً - آنذاك في عام 1995 فهمت أن القدر نفسه أرسل لي الفتى روسلان. إن روسلان يتيم الآن. طبعاً لن أتمكن من أن أصبح بالنسبة له مكان العم جيخو بالنسبة لي، لكنني سأحاول مساعدته، يجب أن أتولى رعايته بشكل ما.

لم نبق فترة طويلة لدى أقارب روسلان. وإذا توخيت الصدق فإنه لا يوجد هناك مكان يمكن الجلوس فيه بهدوء. فالازدحام شديد والفقر عميم. بينما كان السائق يريد العودة بسرعة إلى جروزني. فأوصلني إلى محطة الحافلات. وحالما انصرف حسبت ما لدي من نقود - سأصل إلى موسكو بوسيلة ما، سأفعل ذلك ولو بالمشي سيراً على الأقدام، فقد اشتقت إلى العائلة كثيراً جداً. لكن وجب عليّ أيضاً أن أساعد روسلان، ولهذا كان أول من فكرت به هو مكسيم. تساقط الثلج بنتف كبيرة وكثيفة ورطبة، وقد ادلهم الليل، وكان الوقت نحو العاشرة - الحادية عشرة، ولم أجد مكسيم في البيت، فقد غادر اليوم فقط مع رفاقه إلى الجبال- معنى ذلك أنه سيبقى هناك فترة يومين أو ثلاثة أيام، ولا يتوافر الاتصال الهاتفي هناك.

راحت زوجة مكسيم تقنعني قائلة: تفضل، تفضل، الأولاد في البيت.

لكنني رفضت ذلك بشكل بات، وكنت أعلم بوجود فندق في مكان ما، وسأبيت فيه، وفي الصباح سأرى ما يجب عمله. ابتعدت قليلاً عن بيت مكسيم، أملاً في إيجاد تاكسي. الحركة مفقودة تقريباً، وأنا في أطراف مدينة صغيرة في كوبان، واعتزمت الوصول إلى المركز سيراً على الأقدام، وأوقف السيارات في طريقي. فرفعت يدي مرة أخرى، وعندئذ أعماني ضوء سيارة جيب ضخمة توقفت بالقرب مني:

ها-ها-ها! - وعرفت مكسيم. قفز من السيارة، واحتضنني، فطقطقت ضلوعي.

أتعلم أنني هتفت إلى أهلك في موسكو. متى جئت - يالفرحتي! أنت حتى لا تتصور. تجولنا في الجبال اليوم، الطقس رديء، ولا يُرى شيء. في المساء أوقدنا موقد الحمام في بيت حارس الغابة، وصدق، فقد شعرت في قرارة نفسي بأنك قادم، - فانطلقت في الدرب.. وأنت وصلت الآن فقط.. أنت حي ترزق!- واحتضنني مجدداً بقوة.- لنذهب! أجلس!

كنت محطماً ومنهكاً وقذراً وجائعاً، وشغل فكري أمر واحد هو استدانة النقود. لكن اللقاء مع الصديق أثارني جداً، فبقينا نتبادل أطراف الحديث طوال الليل، بالأحرى، كنت أنا أتحدث، وتألم

مكسيم جداً، وكابد الحزن حتى مرتين بالأخص حين رويت له ما حدث لأولجا سيرجييفنا، وذرف الدموع وعرض نفسه:

- يجب مساعدة هذا الفتى روسلان.

- أردت استدانة نقود منك.

فانطلق ضاحكا: - أي دين؟ تذكر زيبا.

في اليوم التالي ذهبت في سيارة مكسيم الحكومية إلى مايكوب. لم أر روسلان، قيل لي إنه ذهب إلى المستشفى. فرجوت تسليمه النقود وفور ذلك ذهبت إلى المطار في كرسنودار - لقد أردت أن ألتقي عائلتي.

في الليلة نفسها

إنني لا أستطيع سبيلاً إلى النوم... بصراحة أردت الكتابة عن الحياة. لكن ليس من أجل أن أصبح كاتباً، بل مجرد أن أكتب عن مصيري. زد على ذلك أردت أن أكرم ذكرى الأشخاص الذين قدموا لي الدعم الهائل - بالأخص العم جيخو. وهناك أيضاً مكسيم وبقية الأصدقاء... وعموماً، فمهما قيل، إن غالبية الناس هم أفراد طيبون ومستقيمون. بينما أنا أغتاظ في الفترة الأخيرة من الجميع. ويبدو لي عموماً أن الشعب عموماً قد فسد، وأصبح الهدف الرئيس في الحياة هو كسب النقود. بينما وجدت أزماناً أخرى وأناساً آخرين. أي أناس! إنهم فقط مشهد، ولحظة فقط في الحياة. لكن هذا المشهد وتلك اللحظة حددا أموراً كثيرة لاحقاً. وليس عبثاً أن ذكر مسكيم اسم زيبا. نحن التقيناه خمس أو ست مرات فقط بينما لم يترك خلفه أي ذكرى.

حدث ذلك في عام 1988. وكنت أعيش مع مكسيم في القسم السكني الداخلي للعمال. وبالرغم من أنه أصغر سناً مني فإنه تخرج من معهد النفط قبلي. وكان يدرس في القسم النهاري، ودرس بتفوق وساعدني كثيراً في الدراسة. عاش مكسيم مع أمه. أنا لا أعرف بالضبط لكن يبدو أنه بعد افتراق والديه عاش مع أمه في قسمنا السكني في الغرفة المجاورة. ونسب للعمل بعد التخرج في دائرتي، وكان خلال فترة ما تحت إمرتي. وكان مكسيم فتى ذكياً وطموحاً، وحلمه المأمول - مواصلة الدراسة، والدراسة في موسكو. وهذا ما فعله، فقد التحق في قسم التدريب ومن ثم في قسم الدراسات العليا في معهد جوبكين للنفط والغاز بموسكو. وكان نادراً ما يأتي إلى جروزني، وحتى في العطلات كان يلتحق بفصائل البناء الطلابية ويكسب النقود. وحدث مرة أن هتف لي في

تركمانيا وأبلغني أنه سيسافر إلى غرب سيبيريا كرئيس فصيلة بناء. وطلب مني المجيء وكسب حتى ألف روبل في الشهر. وقد تعرفت على أفراد الفريق في محطة القطار بموسكو: كلهم شباب مرحون وأصحاء. كانوا من الطلاب والمتدربين وطلاب الدراسات العليا. وكانت هناك الجيتارات والأغاني والبيرة مع الفودكا.

وقلت لمكسيم شاكياً: - إنهم يشربون كثيراً.

فأجاب ضاحكاً: - لهذا دعوتك، فيجب أن يكون بيننا فرد واحد صاح لا يشرب.

الفودكا.. والعمل، - غمرني الحزن.

لا تقلق. يسود في البلاد قانون «منع الكحول». وفي مكان العمل لن أشرب البتة، ولا يوجد هناك مكان للحصول على الكحول. كل شيء منظم وسيكون جيداً.

من حيث المبدأ، هذا ما حصل. لقد تولت رعايتنا أغنى مؤسسة اتحادية «جلاف نفط غازستروي». وصلنا إلى تومسك، ومن هناك حلقنا بواسطة المروحيات لمدة ساعتين حتى بلدة ميدفيجي. إنها بلدة صغيرة تقع على ضفاف نهر أوب. والنهر هناك كالبحر، حيث لا ترى الضفة الأخرى. في الشتاء يوجد طريق ما إلى هنا يسمى «زيمنيك»، أما في الصيف فيتم التنقل في الماء أو في الجو - إنها منطقة نائية جداً. وعثر في هذه الفيافي على النفط - ووجب على فريقنا أن يشق الطريق من الخرسانة المسلحة من النهر إلى موقع حفر الآبار بطول كيلومتر تقريباً. إن حجم العمل كبير جداً والأجور تتفق مع حجم العمل. حقاً، لم يكن هناك أحد بانتظارنا، فلم يوجد مكان للسكن، وعرضوا علينا عنبراً قديماً برائحة عفنة، كان سابقاً ملاذاً للسجناء. ما أكثر حشرة الموشكاركا والذباب والبعوض - إنها مصاصة دماء حقيقية، كما انتظرنا هناك وكر للبق. إن جميع هذه المنغصات المعيشية لم تكن ذات بال حيث اتضح أن هناك فصيلة عمال بناء مياومة من أرمينيا ستقوم بشق الطريق، وعرض علينا مثل السجناء قطع الأشجار، حيث لا يوجد عمل آخر. من حيث المبدأ إن هذا العمل أخف وأبسط كثيراً، ومن الطبيعي أن تكون الأجور زهيدة. فأعربنا عن الاحتجاج. لكن لا يوجد في هذه القفار الموحشة أي وسيلة اتصال، ومن المستحيل تقريباً الاتصال هاتفياً بموسكو. فأرسل مكسيم البرقيات إلى المعهد وإلى الدائرة العامة. لكن هذا حدث بالذات حين أصبحت البلاد على حافة الانهيار. لم يرد الجواب فترة طويلة، ثم جاء الجواب التالي: دبروا أمركم بأنفسكم. أما الإدارة المحلية فقد اتفقت مع عمال المياومة. لكننا لم نتراجع: فكلنا شباب وأقوياء البنية، وندرك بأنه تم فحسب بيع ثمرةعملنا مقابل رشوة. وقد حدث ما يجب أن يحدث عندئذ حين يجلس الشباب بلا عمل. فبعضهم اشترى، أو بالأحرى، حصل على الكحول، زد على أنه كحول صناعي. وأصيب بعضهم بالتسمم، بينما كاد أحدهم أن يغرق في نهر أوب، وضل بعضهم طريقه في غابة التايغا. صفوة القول بدأ أفظع شيء - كانت بيننا ثلاث فتيات - طباختان وممرضة، وهذه الحسناوات كن أيضاً في حالة سكر، وذهبن إلى معسكر منافسينا- عمال المياومة. وفي منتصف الليل جاءت إحدى الفتيات وقالت إن القوقازيين يعتدون عليهن ويغتصبوهن. فهرع مكسيم وأنا وآخرون لإغاثة الفتيات. لقد سادت العتمة في المكان ولم يفهم شيء، ويبدو أنني تلقيت اللكمات أكثر من الآخرين جميعاً، لكن في النهاية أجلست في السيارة وحدي - وأثرت في هذا

إفادات الجميع الزاعمة بأنني كنت الأكثر عدوانية، وفتح رجل الشرطة المحلي ملفاً كاملاً تقريباً ضدي، وواصل الكتابة طوال الليل. حقاً، لم أزج في السجن، فلا يوجد هناك مكان أسجن فيه. كما أنني لا أستطيع الهرب إلى أي مكان - فنحونا المستنقعات وغابات التايغا. وحذرني الشرطي قائلاً بأن رجال الشرطة في المنطقة سيأتون بواسطة النهر وسيقررون مصيري. كنت في حالة صدمة، وتدبر مكسيم الوضع بقوله إن من الواجب إدخالي إلى المستشفى بغية الحصول على شهادة بأنني المعتدى عليه. طبعاً لم يكن هناك أي مستشفى، بل كانت هناك نقطة علاجية طبية، وطبيب المنطقة، مثل شرطي المنطقة - فقال أيضاً إنهم في مركز المنطقة سيقررون كل شيء، ولابد من التوجه إلى هناك.

وصرخنا: - كيف؟

- غداً ستأتي عبارة.

وأعرب مكسيم عن غيظه: - متى سيكون ذلك؟ افحصوه على الأقل وأعطوه شهادة.

- ولِمَ نفحصه، فهو حي يرزق، وصحيح البدن. هناك كدمات زرق؟ إنها زينة الرجل.. طيب، حسناً... أنتم في موسكو - ذوو نعومة. يالكم من شطار، لِمَ تتقاسموا معهم النساء. إن النساء المحليات كثيرات ولا يهتم بهن أحد. هات الهوية الشخصية.

تفحصت الطبيبة مع رجل الشرطة هويتي طويلاً، ثم نبرت فجأة:

- أنت لست موسكوفياً؟. هل أنت شيشاني؟ - تغيرت نظرتها مرة أخرى، وبانت فيها حيوية. - هل تعرف زيبا؟ - نحن سمعنا بهذا الاسم لأول مرة، وجرى ذكره بشيء من اللطف.

-إذن أنت لا تعرف زيبا؟ - أعادت السؤال مرة أخرى بدهشة، ثم نهضت، وتطلعت إلى نفسها في المرآة، وقد تغيرت هيئتها بجلاء: بدلاً من الجفاف الرسمي ظهرت الأنوثة الذابلة والغنج..- توجد حجة - كانت كما لو تحدث نفسها - سأ تصل هاتفياً، وسيأتي زيبا حتماً. إنه يعبد أبناء بلده... أتعرف، قبل عامين جاء إلى هنا جيولوجيون، أحدهم شيشاني. وقد أولم زيبا وقصف معه. أي حفلات غناء أقام معه. إنه لن يسمح بالإساءة إليك. إن زيبا هو رمز العدالة والنظام. سنهتف له.

كنا نعتقد بأن لديها وسيلة اتصال مضمونة، لكن كان هناك جهاز لاسلكي أكل الدهر عليه وشرب، وحالما شغلته بدأ بالخشخشة:

- ستكون هناك عاصفة رعدية - إن الطبيبة تعرف حالة الطقس من عمل اللاسلكي- لكنني سأتصل بهم. الأول، الأول - هنا ميدفيجي. كيف تسمعوني؟ استلام.

لقد فهمنا أن وجودنا هنا لا معنى له، فغادرنا. علماً بأن الجو تغير فجأة بحدة، وهبت رياح عاصفة شديدة. وزحفت من الشمال غشاوة قاتمة مصحوبة بصفير، وتجمعت سحب رعدية ضخمة وثقيلة.

واشتد البرد، حتى إن الكنزة لم تنفع. وعندئذ بدأت عاصفة حقيقية، ولا يوجد مثيل لها سوى في الجبال في الفترة بين المواسم. تواصل الرعد والبرق والرياح العاصفة والمطر خلال ساعتين. ثم انسحبت الجبهة الرعدية، كما يبدو، وتحسن الجو قليلاً، ثم لاح بصيص من النور، لكن بقي الجو غائماً وتواصل سقوط رذاذ المطر البارد كما في الخريف. يشعر المرء بالحزن والكآبة جداً في مثل هذا المكان الموحش وفي مثل هذا الطقس. وأصيب فريقنا كله بالكآبة. ودار الحديث عن وجوب العودة إلى موسكو، فلم نأت من أجل هذا المكسب القليل. ووجهت إلى مكسيم بصفته الرئيس الشكاوى، وحتى اللوم بفظاظة. ولم يعد هناك تقريباً انضباط ونظام في الفصيلة.- ولا يمكن أن يوجد في مثل هذا الوضع. إن الجميع جاءوا إلى هنا للعمل والكسب، وليس لقطع الأشجار مثل السجناء مقابل كوبيكات (قروش)... طبعاً، كان يمكن نسب هذا كله إلى الظروف الطارئة والعودة إلى أهالينا. لكن لم توجد لدي وكذلك لدى الجميع تقريباً النقود من أجل السفر، وإذا ما استطعت أن أرسل برقية إلى زوجتي وأطلب منها النقود، فلدي احتياطي ما، فالوضع مختلف لدى الطلاب وطلاب الدراسات العليا. إن مكسيم في حالة صدمة. إنه يعترف بنفسه أنه كان سيشرب الخمر، لكن يسود في البلاد ولا سيما هنا، «نظام منع الخمر»، كما توجد لدي مشاكل مع الشرطة - كيف ستكون نتيجة هذا كله؟ أنا لم آت إلى هنا من أجل ذلك. ماذا لو شربت ودخنت وانغمست في الملذات؟ وربما سيضعوني في السجن إذا ما انغمست فيها؟ راودتني هذه الأفكار وألقيت على جسدي المعطف الواقي من المطر وتوجهت إلى النهر، فلا يوجد مكان آخر أمضي إليه. علماً بأنني لم أكن أتصور أن النهر يكون بهذه الصورة. ثمة زوبعة وأمواج. والماء أسود مثل النفط. وكثيف ومرعب. وبدا لي أنه يرغي ويزبد ويسحب كل ما يقترب منه ويبتلعه.

فجأة سمعت من يقول خلفي: - في مثل هذا الطقس هيهات أن يأتي أحد في النهر.

تبين أن المتحدثة طبيبة الناحية.

- أنا هتفت، وأبلغت بوجودك هنا.

وأضافت عدة عبارات أخرى، لكنني سئمت من هذا كله وعدت إلى العنبر. كان وضعي لا يطاق بسبب الغموض وعدم فهم أي شيء. كما أنني تعبت من العطالة، وهنا ساد الهناء، إذ أدت رداءة الطقس إلى اختفاء جميع الذباب والبعوض والموشكارى، وحتى الجو أصبح أكثر نقاءً، فقررت أن أرقد للنوم ولو مرة نوماً هادئاً، من دون أن أسمع قرب إذني طنين الحشرات وأحك جلدي خلال النوم.

أيقظني مكسيم:

- انهض، لقد جاء زيبا. إنه يدعوك إليه.. هناك احتفال كبير! القرية كلها تحتفل في أنس ومرح.

لقد تبين أنني نمت النهار والمساء كله. وبلغت الساعة الحادية عشرة مساءً، وهنا لا توجد ليالٍ تقريباً في الصيف. بينما تحسن الطقس جداً. فالشمس تنير في الأفق، ولا تريد أن تغرب. ولم يتبق من العاصفة السابقة سوى بعض الغيوم وبرك الماء. وفي هذه الفيافي الموحشة لا يسمع بمثل هذا

الوقت سوى نباح الكلاب وصياح الديكة المتأخر، - بينما صدحت الموسيقى على امتداد سيبيريا كلها، والجوقة تردد الأغاني بأعلى صوت، طبعاً ليس بانسجام وانتظام، لكنه غناء نابع من أعماق الروح، بحرية وبترجيعة! آه، كم رغبت في أن أغني وأرقص. ولم أتصور مثل هذا - ثمة فناء واسع وجميل (عرفت فيما بعد أنه تابع لرئيس المنظمة الحزبية) وأشجار الصنوبر العتيقة كما في الغابة وبينها توجد مصطبة خشبية مزخرفة وطاولة ضخمة فيها كل ما لذ وطاب. والظاهر أنها ليست المرة الأولى التي يقام فيها مثل هذا الاحتفال هنا. وتجري هنا طقوس احتفالية كثيرة.

إنني عرفته فوراً، من سحنته، ونظرته الحادة وأنفه الكبير. كان يجلس في مقدمة الطاولة، وعرفني بدوره فنهض وسار عدة خطوات للقائي- إنه كهل نحيف البنية وقصير القامة ومحدودب قليلاً، ويعرج بشدة - بدا أن إحدى ساقيه أقصر من الأخرى، وعموماً فهو غير متناسب في الأبعاد ومنحني الظهر وبعين واحدة. في اليد اليسرى يبرز الأصبع الكبير فقط، بينما يضغط بشفتيه على سيجارة طويلة.

- مارشا فوجييلا!

حياني باللغة الشيشانية ثم حاول قول عبارات أخرى لكنه توقف. فأدركت أنه لا يجيد اللغة الشيشانية- بل أتقن عدة عبارات فقط. أنا حاولت مسايرته بشكل ما، وأجبته كما تنبغي إجابة الأكبر سناً.

حسناً! - تحول زيبا إلى الحديث باللغة الروسية وأصبح كالسابق، رجلاً عنيداً لا يلين، ومتسلطاً، لكن بلا غطرسة، بل بالعكس فهو لطيف المعشر جداً. - صبوا إلى ابن بلدي، ضيفنا العزيز، كما هو واجب.

قدم لي فوراً قدحاً مضلعاً ممتلئاً حتى الحافة بالخمر الأخضر اللون البيتي الصنع وبرائحة نفاذة.

فقلت بلهجة قاطعة: - لم أشرب ولن أشرب أبداً. وسادت لحظة سكون حرجة. وكما ينبغي خرقها عريف الحفل «تامادا».

فقال: - من حيث المبدأ هذا صحيح وجدير بالثناء. إذن هاتوا المورس.. أُجلبوا المورس... كما يجب.

كنت أحب للغاية المورس.. شراب عنب الدب البري المحلي..، لكن تبين أن المسألة ليست بهذه البساطة، إذ وجب عليّ أن أشرب القدح الممتلئ حتى الثمالة. وقد فعلت ذلك وذلك بجهد جهيد.

الآن أجلس، - وأجلسني زيبا إلى جانبه.

استمر الاحتفال ولكن كما فهمت ليس بالنغمة السابقة. فقد تعب زيبا أيضاً وكف عن الغناء. وشعرت بأنني جسم غريب في هذا الوسط. ولهذا رجوت عريف الحفل السماح لي بالانصراف،

بذريعة أن لدي وعكة ما.

فودعني عريف الحفل حتى البوابة.

مفهوم، أنني لم أستطع النوم - فقد نمت بما فيه الكفاية نهاراً. كما أن الحفل لم يستمر طويلاً، حيث انتهى بعد مضي ساعة تقريباً. وفيما بعد عاتبتني الممرضة قائلة: بسببي عبثاً أقيم الحفل الفريد من نوعه، وسلوكي يشبه سلوك كلب فوق كدس التبن. ولم أجد سبيلاً إلى النوم إلا عند الفجر. لكن مكسيم أيقظني مجدداً:

انهض جاء زيبا.

كان جالساً في سيارة «واز» ويدخن. وعندما رآني نهض وابتسم. واحتضنته على عادة الشيشان في إبداء الاحترام لمن هو أكبر سناً. وحاولنا مجدداً التحدث باللغة الشيشانية، وفجأة قال:

- أي حقارة! لم يسكن في مثل هذا العنبر حتى السجناء العاديين، أنذال فحسب. وإلا لماذا لم يهدم أحد هذا العنبر حتى الآن. إنهم لا يريدون تلطيخ أيديهم بالقذارة. بينما يبعثون بكم إلى هنا. فصيلة بناء من موسكو!.. حسناً! سيعدلون سلوكهم. وأنت «نوختشو»، لاتشرب الخمر- وحسناً تفعل. والحمام، هل تحب الحمام الروسي؟.. شاطر! ويجب عليّ أن أطهر نفسي من الذنوب. هيا بنا.. يارئيس -خاطب مكسيم- تعال معنا أيضاً، وسأعرفك مع من يجب التعرف إليه. فأنتم جئتم للعمل وكسب الرزق.

كان التجول هناك شاقاً للغاية، فحولنا المستنقعات، لكن تبين أن الحمام في مكان قريب، ووراء سياج عالٍ، وكل شيء محترم. فأخذنا أنا ومكسيم قسطاً من متعة التعرض إلى البخار، وغسلنا الأوساخ المتراكمة في جسدينا كافة. أما زيبا فإنه حتى لم يخلع ملابسه.

لا يجوز لي أن أتعرض للبخار. إنه القلب.

في ذلك اليوم لم تسنح الفرصة لتبادل الأحاديث معه، فقد تبين أن زيبا ترك في بيته الضيوف القادمين من مكان بعيد عندما سمع بوجود شيشاني هنا. لو حسبت الوقت كله فقد تحدثت معه إجمالا فترة ثلاث- أربع ساعات. ولم يتحدث عن نفسه إلا قليلاً، وسمعت أكثر عنه من الآخرين، وكل ما سمعته يدل على أنه إنسان غير اعتيادي، وأستطيع تأكيد ذلك، ففي اليوم نفسه نقلونا إلى مخيم الجيولوجيين - حيث النظافة ووسائل الراحة كافة تقريباً. والشيء الرئيس أعيد إلينا الالتزام ببناء الطريق. فهللنا لذلك وشرعنا بالعمل بحماس، لكن وقع حادث طارئ آخر - وليس مجرد حادث طارئ، بل استحالة مواصلة العمل. فقد كسر أحدهم صنبور مستودع وقود الديزل، فتسرب منه خلال الليل نحو ثلاثين طناً من الوقود الذي امتصته الرمال. لم يعد مهماً معرفة الفاعل، لكن علم أنه مرت في العشية عبارة تنقل جميع فريق العمال المياومين. ولا يمكن إصلاح الوضع

تقريباً. فالوقود لا يجلب إلى هنا إلا في الشتاء. طبعاً إذا ما تم دفع الثمن فيمكن نقله في الصيف أيضاً في النهر. لكن هذا يتطلب توافر النقود، بينما لم توجد لدينا أي نقود. هذا يعني الانهيار. وبالرغم من بقاء نحو طنين أو ثلاثة أطنان في قاع المستودع، وهذا يكفي للعمل فترة أسبوع إذا ما تم التوفير، ولكن ماذا بعد ذلك؟ اضطرب مكسيم للغاية، وحاول القيام بعمل ما، وهتف وأرسل البرقيات إلى مختلف الجهات. بينما دعوت الجميع إلى العمل، وعملت نفسي بكل جهد، وحاولت إثبات أن من الممكن عمل الملاط الإسمنتي ليس فقط بواسطة الخلاطة بل بصورة يدوية أيضاً. حقاً هذا لم يكن ذا مردود كبير. وبدأ في الفصيلة التكاسل والتخريب والتشاتم. وكما هو متوقع حدث عراك جماعي. وأصيب بعضهم بجروح وكدمات. وتطلب الأمر مجدداً اللجوء إلى الممرضة، فقالت:

ما دام هناك سبب، فقد هتفت إلى زيبا مجدداً. وقال إنكم يجب أن تعملوا وسيساعدكم.

أصبح اسم وأقوال زيبا بمثابة مرشد للعمل في فصيلتنا. ولا غرو أن يعمل الشباب بحماس وبمردود عمل أثار دهشة أهل القرية. كنا نعمل طوال النهار تقريباً وبعد مرور أربعة أيام استهلكنا جميع ما تبقى من الوقود - وحتى إن المشهد يسر الناظرين. فقد تم شق ربع الطريق. لكن الآليات توقفت عن العمل. وانتهى العمل. وأفلح مكسيم في الإعلان عن الاستجمام لمدة يوم أو يومين- فنحن عملنا بصورة جيدة ووجب أن نعول فقط على شيء ما. لكن حالفنا الحظ هنا. كان الطقس حاراً، وانجذب الجميع إلى النهر. فصار بعضهم يسبح ويتشمس، وحاول بعضهم الآخر اصطياد السمك. ولم تكن هناك ملاحة كبيرة في هذا النهر الواسع- وعندما تمر سفينة ما مرة في كل يومين أو ثلاثة أيام يكون ذلك بمثابة عيد. علماً بأنها تسيرلا في وسط النهر، بل بعيداً جداً، وحتى في ذلك السكون المطبق الغابي لايسمع صفيرها إلا بصعوبة من ضفتنا. وفجأة انطلق في أعلى مجرى النهر عويل متواصل غريب يشبه الموسيقى والغناء. وظهرت في المنعطف على حين غرة ببطء وسيلة نقل مائي غير عادية وغريبة الشكل، ومسلية وظريفة جداً. وبات بوسعنا مشاهدتها. لقد تبين أنها عوامة ضخمة صنعت من جذوع أشجار الصنوبر. وفوقها صهريج كبير. وكان يتولى تسيير هذه العوامة خمسة أو ستة جذافين. بينما يسير ثلاثة على ضفة النهر، وهم يمسكون بأطراف الحبال. علماً بأنهم ليسوا نوخذة، ولا يسحبون أي شيء: فالطوافة تمضي مع المجرى، بينما هم يبقونها بالقرب من الضفة بغية ألا يحمل التيار هذا الهيكل الذي يصعب التحكم به. لكن الشيء الأظرف في الأمر أن عدة أشخاص يجلسون فوق هذا الصهريج. في البداية لم نعرف زيبا الذي كان يعتمر قبعة كاوبوي كبيرة. وجلس أيضاً هناك فتى ذو شعر متجعد يعزف على الأرمونيكا، بينما يقرع على الطبلة شامان (ساحر) محلي. ويمسك آخر قنينة كبيرة فيها فودكا بيتية الصنع.

قال زيبا: - جئناكم باثني عشر طناً من وقود الديزل. هذا كل ما استطعت الحصول عليه. أما الباقي فسيجلبه أولئك الذين ارتكبوا هذه الفعلة. - ولاحت على وجهه ابتسامة غامضة.

هل هذا ممكن؟- عجبت وأوردت وجهة نظرنا - إنهم رحلوا.

لن يرحلوا بعيداً.. ولن يرغبوا في القيام بذلك مرة أخرى.. ولهذا يجب عليّ أن أنصرف عنكم بسرعة.

لم يغادرنا زيبا بسرعة، بل فقط في صباح اليوم التالي، فجاء زورق بخاري خصيصاً من أجله. وقبل ذلك أمضت القرية كلها وفصيلتنا جميعها الليلة في اللهو والسمر. وبعد ذلك بدأت أيام العمل. وأنا لم أتوقع أن الشباب وأكثرهم من أبناء موسكو يحبون العمل بهذا الشكل. توفق العمل، وظهرت الصورة العامة للطريق، وطبعاً مع حدوث بعض المشاكل، وكنا نعتقد أننا في ختام الموعد، في أواخر أغسطس، سننهي العمل، لكن انبثقت من جديد مشكلة الوقود بحدة. إذ بقي ما يكفي منه لمدة يومين أوثلاثة أيام. وأصابني مع مكسيم اليأس مجدداً - وكنا بحاجة على الأقل إلى خمسة عشر طناً من وقود الديزل، ولم يوجد لدينا مخرج من الوضع. واعتزمت السفر إلى مركز المنطقة للقاء زيبا، لكن وردت منه هدية أخرى. إذ رست أمام قريتنا ناقلة نفط نهرية - وفيها ثلاثون طناً من وقود الديزل من أجلنا. لكن الناقلة ذات الحمولة الكبيرة لم ترسُ عند الضفة مباشرة ولم تستطع الاقتراب منها، بينما لم تتوافر أنابيب الضخ. وجاءت لمساعدتنا ثمرة اختراع زيبا أي الطوافة العائمة. وتطلب الأمر يومين للضخ، ولكن كانت فرحتنا كبيرة، وغمرنا الحماس وآفاق كسب نقود كثيرة.

كنا على وشك بلوغ النهاية، وصرنا ننتظر ونعد الأيام الأخيرة، حين ستأتي لجنة الاستلام والتسليم، وبعدها ستأتي المروحية لنقلنا. وكان الجميع يضعون الخطط حول كيفية إنفاق هذه الكومة من النقود - ألف وخمسمائة روبل - وسيحيا الجميع وسيشترون بعض الحاجيات ويسددون الديون. وعندئذ تذكرنا زيبا، ومساعداته، واقترح بعضنا حالما نتسلم النقود نتقاسمها ونشتري هدية إلى زيبا، أو ربما نعطيه النقود. لكن زيبا اختفى عن الأنظار منذ وقت بعيد، وجاءت الممرضة المحلية مجدداً وأفادت بحزن أن زيبا يرقد في مستشفى الناحية منذ أسبوعين وحتى أنه أصيب بالاحتشاء القلبي للمرة الثالثة.

قررت أن أتوجه إلى مركز الناحية في أول وسيلة نقل نهري. وتوقعت أنه ليس بمكان بعيد، ويكاد أن يكون وراء أول منعطف. ولكن تبين أنه يبعد مسافة تربو على الفرستين (الفرستا مقياس روسي قديم للطول يعادل 1060 متراً). كما أنه ليس مركز ناحية بل قرية كبيرة فحسب. وجئت إلى المستشفى المحلي: المبنى قديم والقذارة في كل مكان. لكن تسود النظافة والتر تيب في الداخل. وصلت بحلول المساء، ولم يسمح لي الحارس العجوز حتى بالدخول، وعندما ذكرت اسم زيبا وقلت إنني من أهل بلده غير موقفه فوراً. وقادني بنفسه وهمس لي أن زيبا يرقد في ردهة منفردة خاصة. كان زيبا نفسه تحت القطارة، وغافياً. ورقد تحت شرشف خفيف، وبان من تحته جسده الهزيل الصغير ويداه النحيفتان. وحالما دخلت الردهة بحذر فتح عينيه بصورة عفوية تقريباً، ومد يده الطليقة تحت الوسادة، وعرفني وفور ذلك تغيرت سمات وجهه وابتسم. وحاول مرة أخرى التحدث باللغة الشيشانية، وقال:

كنت أعتقد أنك ستسافر ولن نلتقي.. أيتها الممرضة! اهتف للممرضة. وعموماً لا حاجة لذلك، - وسحب بنفسه إبرة القطارة، ومسح ذراعه بقطعة من القطن.

ظهرت الممرضة: - ماذا تفعل؟ ماذا تفعل؟

أمرها بلطف: - لا تصرخي. الأفضل أن تجلبي ملابسي.

- أي ملابس؟ فأنت ممنوع من المشي وحتى من النهوض.

في أعقاب ذلك ظهر الطبيب، وهو رجل هرم بلغ من العمر أرذله.

- زيبا، أرجوك أن ترقد في الفراش.

ابتسم زيبا وقال: - لدي عيد غالٍ. جاء إليَّ ضيف عزيز جداً.

- يزورك الضيوف باستمرار.

- لا - لا، هذه حالة خاصة. إنه من أبناء بلدي. نوختشو - شيشاني! - رفع أصبعه الكبير بحركة احتفالية. عندئذ أردت قول شيء ما حول أهمية الصحة، لكن عبثاً، وبعد مضي عشر دقائق كنا نمشي في القرية باتجاه بيته.

كان الجو رائعاً. ولم تدلف الشمس بعد إلى المغيب، وتم تحسس حلول نهاية صيف سيبيريا القصير، والعاصف، بل حتى أصبح أقصر، وفي المساء هبت من الشمال رياح باردة منعشة وعنيفة، واختفى بعوض المستنقعات (موشكارا) كله. لذا فالمرء يرغب في العيش. كما أن الناس الذين يودون التمتع بآخر أيام الطقس الجيد قد خرجوا إلى الشوارع، وجلست العجائز على المصاطب عند مداخل البيوت، وهن منهمكات بالثرثرة والقيل والقال - والحق يقال إنني دهشت - فحالما يرى الجميع زيبا من بعيد ينهض الجميع حتى كبار السن احتراماً له:

- عزيزي زيبا! الحمد لله، لقد شفيت. تفضل عندنا، لنحتسي الشاي. لدينا حساء بورش لذيذ...

أما زيبا فكان يقترب من الجميع ويبادلهم التحيات بلطف ويقول إنه لا يستطيع زيارتهم الآن فلديه ضيف مهم من أبناء بلده. كنت أعتقد أن بيت زيبا هو من أحسن البيوت، وتبين أنه متواضع متداعٍ. وحتى إنه ليس بيته بل بيت صديقه يجور، كما أن زيبا ليس حراً طليقاً، فقد بقي له عام آخر من النفي، وهو يقيم هنا منذ وقت بعيد بصورة حرة لكن من دون حق السفر ولا توجد لديه وثائق هوية شخصية. حقاً عرفت ذلك فيما بعد، في اليوم التالي. في ذلك اليوم كانت مائدتنا عامرة بكل ما لذ وطاب، وجلب أبناء القرية أنواع اللذائذ من الطعام. وتولى مهمة رعاية الضيوف يجور، ويبدو أنه في مثل عمري، لكن من الصعب هنا تحديد عمر الإنسان من مظهره. ويجور من أبناء القرية. وكانت أمه قد نفيت إلى هنا في قضية سياسية في الأربعينيات. كما حكم على يجور بالسجن لفترة قصيرة، والآن بفضل صلات زيبا، يقيم حراً في قريته. علماً بأن غالبية السكان هنا في مثل هذا الوضع. لكن زيبا لا يريد التحدث عن ذلك البتة. بينما كان يسألني عن الأوضاع في جمهورية الشيشان؟ ماذا يفعل وكيف يعيش الناس؟ وتبين أن حلمه المأمول هو السفر إلى القوقاز، إلى جمهورية الشيشان، إلى موطنه في الجبال. إنه لم يكن هناك ابداً. لكن جميع جدران مسكنه مزينة بصور جميلة لجبال القوقاز، ولعل أعجب شيء هو مجموعته الرائعة والكثيرة من تماثيل نسور الجبال. وجميعها مصنوعة من الحجر والبرونز والخشب. لكن غالبية التماثيل صنعت من الخبز. لا يمكن تصديق ذلك - أن يبدع هذا الفن الجميل في السجن.

وكالعادة أراد زيبا إطلاق عقيرته في الغناء لدى الجلوس إلى المائدة، لكنه لم يفلح في ذلك البتة ربما لأنه معتل، وعندئذ أصدر الأمر التالي:

- هيا، يايجور، صب لنا عقارنا.

- زيبا، لايجوز. الطبيب قال لا يجوز. كما أن التدخين ممنوع.

فقال: هيا - صب.

شرب نصف قدح من الفودكا البيتية الصنع. ثم شرب المقدار ذاته نخب صحتي. وقد أكل بصورة جيدة، ولاحظ يجور ذلك، ودخن كثيراً وتحدث كثيراً وحتى اقترح: لندعو الفتيات والموسيقيين؟

فعارضه يجور وأيدته: - لا - لا!

ربما.. نلهو في نهاية المطاف!- نهض زيبا بحدة، وفجأة ظهر في يده مسدس وأفرغ مشط الطلقات بأكمله.- هكذا يتسلى أبناء الجبال!

الآن فقط لاحظت أن سقف الحجرة ممتلىء بالثقوب. وتملكته سورة انفعال وقال:

- يجور! قل لهم أن يعدوا المائدة! سنلهو ونأكل! سنلهو ونأكل كما نفعل دوماً!..- في تلك اللحظة جمد في مكانه، وتغضنت ملامحه، وأخذ يسقط جانباً.

فأمسكناً به، وحملناه إلى السرير في الغرفة الثانية.

قال يجور: - سأدعوا الطبيب بسرعة. اعتنوا به.

أنا لم أعرف ما يجب عمله، وكيف سيكون الوضع؟ كان زيبا يتنفس من فمه المفتوح على سعته بسرعة وبصعوبة مع إطلاق الشخير. ومن ثم انتظمت أنفاسه، وهدأ، وانقلب على جنبه نحو الجدار وهو يطلق الأنين. الآن فقط تطلعت إلى المكان - أي بؤس! أنا عاجز عن وصفه. لقد شيد السجناء هذا المسكن قبل الثورة. والآن تهرأ وتداعى البناء. أنا ما كنت أستطيع العيش في مثل هذه الظروف، لكن زيبا عاش، عاش سنوات طويلة، والآن بعث من جديد فجلس على السرير وتطلع بعجب إليَّ وإلى عتمة المكان ونبر:

- أوه، يبدو أنني ثبت إلى رشدي مجدداً.. معنى ذلك ليس هذا مصيري... نعم، مالي أجلس هنا؟ لدي ضيف في البيت، بينما أنا؟! هيا انهض! سنلهو، ونحيا! هيا بنا، - نهض كما لو لم يحدث أي شيء، وفجأة جمد في مكانه.

اعتقدت أن حالته قد ساءت، لكنه صاح:

- أين يجور؟ أين السلاح؟- مد يده بحذر ولكن بخفة تحت المخدة وأخرج المسدس، وفحصه. لقد تبين أنه محشو. أنا حتى لم ألاحظ كيف قام يجور بحشو المسدس، ودسه تحت المخدة. أما زيبا فقد فحصه بإمعان وبمودة وكأنه لعبة، ثم حشره وراء حزامه، وقال:

- هل تعتقد أنني بحاجة إليه وإنه سينقذني. إنه مجرد غنيمة ثمينة جداً، هدية... أين يجور؟.. أنا لست بحاجة إلى الأطباء.. مالي أقف هكذا؟ لدي ضيف - من أبناء بلدي، شيشاني! بينما ارتخيت تماماً. هيا بنا.

جئنا مرة أخرى إلى المائدة التي حفلت بكل ما لذ وطاب.

قال: - حسناً جداً تفعل أن لا تشرب الكحول. لكن كل على الأقل. انظر كيف أجهدت الجارات أنفسهن في الطهي من أجلك... وصب لي قليلاً.

- لايجوز لك أن تشرب.

- الآن لا يجوز لي ألا أشرب.- وصب لنفسه نصف قدح من الفودكا البيتية، وتجرعه دفعة واحدة. وتناول الملفوف المملح، وبدأ بالتدخين. وبدا أن الكحول قد بعث فيه النشاط لحدما، لكنه لم يصبح مرحاً، بل بالعكس أصبح واجماً مشرد اللب وقال:

- هكذا لن يتحقق حلمي في حياتي كلها.

فسألته:

- أي حلم؟

- الرحيل إلى الوطن، إلى القوقاز، إلى جمهورية الشيشان، إلى جبال وطني.- وتطلع بنظرات حزينة إلى صوره التي تبدو فيها جبال القوقاز وإلى تماثيل النسور. أظن أنه أراد قول ذلك إلى أحد ما. وشاءت الصدف أن أكون إلى جانبه، بينما أعتقد أن كتاباتي هذه، موجهة جزئياً إلى الناس ومنهم الشيشان، وإبلاغهم بأن هناك أناساً مثل زيبا لم تحطمهم الأقدار. لو كنت أشبه زيبا ولو بقدر قليل لبحثت بإمعان عن مصيره، لا سيما أنه متميز وأنموذجي. ووجب أن أكتب عنه كتاباً منفصلاً على سبيل العبرة- بشكل ذكريات، وكمثال، وللذكرى. لكنني لم أستطع ولن أستطيع ذلك. ويوجد لدي تبرير صغير - فأنا لست باحثاً، ولست عالماً، ولا كاتباً. ولما توافر لديّ الوقت والموارد، فأنا نفسي حاولت تدبير أمور المعيشة وإطعام أسرتي. أنا لم أفلح حتى في هذا. ووجب عليّ أن أكرس ولو فترة عام أو عامين إلى زيبا، إلى حياته ومصيره. إلا أنني لم أستطع، ولم أرغب في ذلك. لكن القدر أرغمني. فقد أصبحت معتلاً. أنا لا أستطيع التحدث، وبدأت الكتابة فتذكرت زيبا. لو كانت

لدي مهارة أدبية ما لسعيت إلى تصوير حياة زيبا كما يجب أن تصور، لكن هذه مفقودة، ولهذا سأسعى إلى تصويرها كما رواها لي زيبا نفسه،- بإيجاز وبلا انفعالات.

قال زيبا: - ولدت في جروزني في عام 1923. والآن يقال إننا نحن الشيشان هبطنا من الجبال فقط بعد مجيءالسلطة السوفيتية. أما في الواقع فإن السلطة السوفيتية أرغمتنا على اللجوء إلى الجبال والكهوف مجدداً. وليس نحن فقط بل والروس أنفسهم. فقد قامت ثورة، انتفاضة، وجاء إلى السلطة لصوص ونصابون ومنبوذون من شذاذ الآفاق الذين دعمهم القسم الأكبر من الشعب، شعب الأقنان، والموجيك والخدم، إنهم يتسمون بسيكولوجية التابع إن لم يكن العبد. أما النخبة وفخر روسيا - من المثقفين والنبلاء والضباط، وعموماً النخبة المتعلمة فتعرضت إلى الملاحقات والمطاردة والإبادة باستمرار. وجاء الدور إلى بلاد الشيشان أيضاً. والآن تفرض كذبة مفادها أن الشيشان كانوا يساقون إلى العمل في الحقل من السجون. لكن الواقع غير هذا، فقد أدى الترحيل الشامل إلى فقداننا كل ما لدينا، وعلى سبيل المثال كان أبي وعمي يعملان قبل عام 1923 في إدارة شركة النفط البريطانية ويتمتعان بحقوق المساهمين المؤسسين ولديهما حقل نفط كامل يعتبر من ممتلكاتهما. وقد حاول أبي وعمي الذود عن هذه الممتلكات - فأعدما في عام 1924. ويومذاك أخذ جدي أمي وأبناءها الثلاثة، وأنا واحد منهم، وغادر جروزني إلى قريته في الجبال. لكن أذرع أخطبوط السلطة السوفيتية امتدت إلى هناك أيضاً. وفي عام 1927 جرى ترحيلنا إلى سيبيريا بصفتنا من الفلاحين الأثرياء (الكولاك). وكما أذكر انتقلت أمي إلى جوار ربها في الطريق بسبب مرضها. وفتح باب عربة القطار على مصراعيه في إحدى المحطات بالقرب من أورنبورغ. كانت في الخارج عاصفة ثلجية وزمهرير واندفع الثلج البارد إلى داخل العربة. قام رجل ومعه جنديان بحمل جثمان أمي مثل الكيس وألقياه من العربة. وتفوه جدي ببعض الكلمات فتلقى ضربة من عقب البندقية في فكه. وصار أخواي الصغيران يبكيان، كما بكيت أيضاً، وكنت الأكبر سناً، وأعتقد أنني أردت آنذاك بالذات أن أكون قوياً وجريئاً، لكي أتمكن من حماية المقربين مني، ومعاقبة الجلادين، والانتقام لأمي.

تم نقلنا إلى جيزجازكان، وهناك يوجد مجمع للحديد والصلب في بلدة عمالية. وأسكنونا في عنبر قذر مليء بالقمل. كان جدي قد تجاوز السبعين من العمر، لكن وجب عليه أن يعمل لأن هناك حزباً ما يدعو إلى العمل، ووجب توفير الطعام لنا بشكل ما. في البداية كان جدي عاملاً بسيطاً. وما كان ليستطيع مواصلة العمل فترة طويلة، ولهذا أشفقوا عليه ومنحوه وظيفة حارس مناوب. لم يكن العمل شاقاً لكن وجب أن يكون هناك دائماً: ثلاثة أيام في المصنع ويومان في البيت - من أجل نيل قسط من النوم والراحة. أما نحن فقد تركنا لشأننا عملياً، أي إلى الشارع. وكنت الأكبر سناً. آنذاك كان الأطفال يقلدون آباءهم فينغمرون في العراك الشديد. كان القتال يدور بين فناء وفناء، وشارع وشارع، وقرية وقرية، والروس ضد أبناء الأقليات القومية، وهلمجرا. وعموماً جرى العراك والخصام في كل يوم، وبقسوة، وتعلمت منذ الطفولة أن أكون قاسياً ولا أهاب شيئاً، وحققت نجاحاً كبيراً في هذا المضمار. وكنت أنهال بالضرب ليس فقط على أقراني بل على من هم أكبر مني سناً. وكنت أستطيع مقارعة اثنين أو ثلاثة، لكن حدث أن نصب كمين لي. وكان عددهم سبعة - واثنان يحملان القضبان الحديدية... فيما بعد عثر عليّ أخواي الأصغر مني سناً ليلاً وحملاني إلى العنبر. وأذكر أن جدي استدعى الأطباء والشرطة. علماً بأنه كان نفسه عجوزاً عليلاً بحاجة إلى

العناية. قال رجال الشرطة وقد نفضوا أيديهم من القضية إن جميع الأطفال يتعاركون. أما تشخيص الطبيب فهو أنني سأبقى معوقاً مدى الحياة. ما أشد ما كابد وعانى جدي، ولم يعرف كيف يمكن مساعدتي. وكنت أرى الدموع تنهمر من عينيه بسبب عجزه. لكن العالم لم يخل من أناس طيبين. فقد عاش بالقرب منا كوري، وهو شيخ غريب الأطوار، كان يتجول في الغابة صيفاً وشتاءً، وهناك يتعرى ويمشي حافياً ويقوم بتمارين - رقصات ما ذات مغزى. وقد تبين لاحقاً أنه أخاف الأولاد الذين اعتدوا عليّ في أطراف المدينة، وكانوا ربما قد أجهزوا عليّ كلياً. وحدث مرة أن زارنا الشيخ الكوري وطلب مني أن أخلع ملابسي وصار يمسد جسدي ببطء. ولغرابة الأمر فقد جاء من الخارج حيث الزمهرير لكن يديه دافئتان جداً، وناعمتان، وتبعثان على التهدئة. وقال مخاطباً جدي بلكنة غريبة:

- الصبي جيد. إنه يتمتع بطاقة قوية، وبروح متمردة وبطبع الساموراي... كان بوسعه أن يهرب، ووجب عليه أن يهرب. وكما يقول الروس: لا توجد حماية من قضيب الحديد. لكنه لم يتراجع. بينما وجب أن يتراجع. وكما قال زعيمهم لينين: خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الوراء... سأحاول علاجه ليقف على قدميه. لكن يجب نقله إلى بيتي. الأفضل ليلاً، لكي لا يراه أحد.

فيما بعد علمت ما هي إصاباتي: فقد حدث كسر في العمود الفقري وكسر ضلعان وحدثت إصابات في الأعضاء الداخلية. بدا أن الكوري العجوز لم يفعل شيئاً معيناً لعلاجي - فقط كان يقلبني ثلاث مرات في اليوم من الظهر إلى البطن، ثم على الجانبين وبعد ذلك يضغط ضغطاً خفيفاً ويسحب ويدلك بإصابعه ويحرك الأطراف ويقدم لي طوال الوقت شراباً حلواً بمرارة أعد بجلاء بالكحول، وكنت أنام بلا ألم. في اليوم الثالث حين جاء جدي لزيارتي قال لي الكوري فجأة:

- هيا، انهض.. نعم، نعم، انهض... لا تخف. فأنت لست جباناً بل مقاتل.

فنهضت بصعوبة وبشيء من الألم، ولم أشعر بالساقين تقريباً، لكنني نهضت.

- هكذا. ياشاطر!.. الآن ستتعلم المشي من جديد. هذا حتى أفضل، لأنه منذ الآن فصاعداً سيتوقف كل شيء عليك، على قوة روحك وجسدك.

بعد مرور أسبوع بالضبط عدت إلى مسكني في العنبر بدعم جدي وأخويَّ. لكن هذا لا يعني أنني صرت أقف على قدميَّ. فقد كنت معوقاً، وأشعر بألم في جسدي، وفقدت السيطرة على القدمين والذراعين، وحتى وجدت صعوبة في الإمساك بالملعقة بيدي. وآنذاك جاء الكوري مرة أخرى:

من حيث المبدأ أنت صحيح البدن ومعافى، وتجري عملية استعادة الصحة... استعادة القنوات العصبية الممزقة والمصابة. إنها ستتقوى بمرور الزمن- فأنت فتي. لكن سيبقى في بعض الأماكن العوج والتقيد مدى الحياة. وبغية ألا يحدث ذلك يجب بعد زوال الألم القيام بتمارين معينة. هل تريد ذلك؟ هل ستذهب معي لأداء التمارين؟

أجاب جدي بدلاً عني: - طبعاً، سيذهب.

في البداية وجدت صعوبة بالغة، وأعترف بأنني شعرت بالسأم. وللوهلة الأولى أثارت هذه التمارين البسيطة، الشبيهة بالرقص، ضحكي، ولم أستطع القيام بها ببساطة. أما الكوري فكان يبين لي ليس فقط الحركات بل ويتحدث معي طوال الوقت، وفسر لي بأن هذا فن - فن الصراع من أجل الحياة. إنها فلسفة وانسجام الروح والجسد والطبيعة. وفيما بعد عرفت أن هذه التقنية في المصارعة الشرقية أو كما قال الكوري، أسلوب البقاء، البقاء على قيد الحياة في الظروف الطارئة. وبدا كما لو أنه تنبأ مسبقاً بمصيري - وأعدني لهذا المصير، وعندما انصرمت الأشهر الثلاثة الأولى، وبدأت الجلوس على الساقين المنفرجتين، قال لي فجأة:

- أنت الآن استعدت عافيتك كاملة. وأصبحت كما كنت قبل الإصابات وحتى أكثر مرونة وقوة احتمال أكبر... أنت نفسك هل تشعر بذلك؟

أجبت بثقة: - نعم، لأن العجوز كان يردد دوماً - القوة في البطن، وأنا شعرت بهذه القوة،- وكنت حين أضغط على البطن أشعر وكأنه حديد.

وواصل الكوري توجيه أسئلته:

- إذن قل لي هل تفكر في الانتقام من الأولاد الذين اعتدوا عليك.

- طبعاً أفكر في ذلك.

وهذا بالذات أمر سيئ. ومعنى ذلك أنني لم أعلمك كما يجب. يجب أن تتجنب أي اتصال مع الناس السيئين.

- وكيف أغفر لهم. فالجميع يعرفون ما حدث.

- أنت اغفر لهم. إنهم سينالون ما يستحقونه من دونك. يجب أن تمضي في الحياة قدماً إلى الأمام. يجب أن تتعلم جيداً وأن تتعلم كل ما هو نافع. يجب أن تتحمل الكثير، وعدم ملاحظة أمور كثيرة، ولا تضيع الوقت والقوى على توافه الأمور. إن الحياة طريق صعب وينبغي ألا تبذر طاقتك فيما هو حقير وضئيل.

- لكن إذا ما واجهني إنسان خسيس كعقبة كأداء في هذا الطريق؟

- الشيء الرئيس التزام الهدوء والصبر والعقل.. تجنب الخسيس، ولا تلوث يديك. والذاكرة والضمير.

وإذا...

إذا ما جرى تدنيس ما هو مقدس - عندئذ... نلجأ إلى هذه الفلسفة في الصراع مثل الحياة... ولو أن المعروف أن الحياة هي صراع! والصراع يولد الشر. إن كل شيء في الدنيا متناقض. لكن مغزى الحياة يكمن في أن المرء يحصد ما يبذر، وفي النتيجة حيثما يوجد الرب - وهو موجود في كل مكان - يفوز وينتصر السلم والحقيقة والخير! هذا يمثل الانسجام مع الذات ومع العالم المحيط بنا.

بدأ شبابي يبلغ سن الرجولة بهذا الانسجام بالذات. بالرغم من أن معيشتنا كانت في أسوأ الأحوال وكابدنا الفقر والجوع. لكن هذه كانت معيشة الجميع. وربما كنا سنهلك لولا جدنا الطيب الذي حاول بالرغم من كبر سنه العمل في المنجم وكسب لقمة العيش من أجلنا. وكذا كانت حال معلمي الشيخ الكوري الذي قال إن الأقدار أرسلته إليّ لكي يمنحني خبرته ومعارفه.

وواصل زيبا حديثه: - لو سألني أحدهم أي فترة من حياتي كانت الأكثر سعادة لقلت إنها فترة العام والعام ونصف تلك.

ولو، وأكرر، إنها فترة صعبة جداً - الجوع، كنا نعاني من الجوع على الدوام - إذ لم يكف الطعام. وعندما بلغت سن الخامسة عشرة، وكان القانون يتيح لي ذلك، انتقلت إلى المدرسة المسائية، وبدأت العمل في المنجم. هذا لا يعني أنني تركت الدروس والمعلم. بل بالعكس، فقد أحببت ذلك كثيراً، ما جعلني لا أستطيع العيش من دونه. وفي كل صباح كنت أذهب إلى الكوري، ونتوجه سوية إلى أطراف المدينة، وهناك تعرفت أكثر فأكثر على جسدي وجوهر وجودي وعالمي بصفتي جزءاً من الكون. وفي هذه اللحظات، وفي تلك الساعات التي كانت تمضي بسرعة بدقاتها، (فيما بعد في السجن توقف الزمن)، كنت أنسى كل شيء، وأغدو سعيداً جداً، بالرغم من أن العالم قاس جداً، لكن كان إلى جانبي آنذاك شخص عزيز وقريب جداً - أي جدي ومعلمي وأخواي العزيزان الأصغر سناً مني، اللذان أحببتهما كثيراً لكنني لم أستطع رعايتهما.. كنت أريد وأحلم ووعدت جدي. لذا سألت معلمي في إحدى المرات:

- هل يمكن أن أدعو أخويَّ إلى التمارين البدنية؟

- طبعاً، ممكن وواجب، وأنا أريد ذلك جداً حيث يمكن أن أمنحهما خبرتي ومعارفي. لكن هذا ممنوع لسبب ما. وحتى أداء التمارين معك يتسم بالخطر. لا يجوز.

فدهشت: - لماذا؟

ابتسم معلمي بطيبة: - لا أعرف. إنها السلطة. جلس على المنابر أهل المزابل. ويعتبر صاحب المنابر، وأي حاكم محلي، جميع الناس من رعاياه. وأنا وأنت من المنفيين عموماً، بينما نمارس ألعاب كونغ- فو - فن الحياة المنسجمة ومعنى ذلك الحياة الحرة.. هي.. هي.. إنهم هنا لا يحبون الحرية. ويجب عليك، ولو في دخيلة نفسك، أن تكون حراً وأن تصبو إلى الحرية... أنت ما زلت فتياً ولا تفهم الكثير من الأمور،- وأطلق تنهدة ثقيلة - أما أنا فقد انتهت مسيرة حياتي. وسيكون من الصعب عليك أن تحيا مع هؤلاء السادة غير المتعلمين.. فاصبر وقلل من الثرثرة. ستأتي أزمان أسوأ فأسوأ.. مصيبة.

قال جدي الكلام نفسه، همساً أيضاً، في العنبر. وحذر قائلاً:

-يجب إنهاء تمارينك مع الكوري. تتردد هناك إشاعة غير طيبة عنه.

- أي إشاعة؟

- بأنه جاسوس ألماني.

فدهشت: - لكنه كوري، وليس ألمانياً.

وهمس جدي قائلاً: - لا علاقة لذلك بالأمر. المهم بالنسبة لهم إطلاق التهم، أما الواقع فهو غير مهم. فهم ينعتونه أيضاً بالكولاك. بينما أنا حتى لم أسمع بهذه الكلمة.؟؟ لذا يجب ألا تذهب إلى الكوري بعد اليوم. وإذا سألوك فقل إنك كنت تعالج لديه، ولا تقل شيئاً أكثر من هذا. مفهوم؟

قلت: «مفهوم»، وفي صباح اليوم التالي، بالأحرى كان الوقت ما زال ليلاً، ورغم أن الوقت كان مبكراً، لكن سادت العتمة - الوقت في أواخر الخريف، ولم أصبر، وقد حملتني قدماي، فهرولت وانطلقت إلى المكان الذي تمتعت فيه في العام الأخير بلذة حقيقية، أي بالحرية. كنت أؤدي هناك التمارين مع المعلم، كما لو كنت أرقص، وأحلق كالفراشة، وأنا أشعر في كل يوم بتنامي قوتي ومرونتي وثقتي بنفسي في كل عضلة وكل عصب ومفصل في جسدي الفتي المتنامي، وأعماق روحي التي تتصلب ونظرتي إلى العالم. إنني كنت هناك أنتقل مع المعلم إلى عالم آخر، وأشعر بالرضا والسعادة، وببعد كوني آخر، وبنظام عالمي آخر. كنت أتعطش إلى التطور والمعرفة. وطبعاً كنت واثقاً أن الكوري ليس جاسوساً، ولم يجندني إلى أي مكان، لكنه أراني بأنه يوجد عالم آخر، يسوده الانسجام والنظام، ومعنى ذلك تسوده العدالة. كنت أرغب وأحلم وآمل في أن يريني المعلم الحكيم في نهاية المطاف الطريق الصحيح المؤدي إلى هذا العالم.

لكنني لم أجد المعلم في مكاننا بموجب الجدول الزمني المحدد.. وكانت صدمة... وقفت دقيقتين - ثلاث دقائق كالمصعوق.. ولحظتئذ شعرت بأن جسدي مبلل بالعرق، وهو ما لم يحدث لي سابقاً أبداً، وكان العرق لزقاً وبارداً ومنفراً، وراح يتصبب في جسدي كله. وحدث الشيء نفسه لوعيي - فقد استبد به كرب خانق. ففهمت أن معلمي قد ذهب إلى ذلك العالم المبارك من دوني، وحتى لم يشر إلى الاتجاه، والباب، الباب الرصاصي الضخم الذي سيغلق وراءه، وأنا حتى لن أشكره، ولن أودعه. هرعت بسرعة إلى بيت المعلم، وقد أسفر الصباح، فوجدت السكون الرهيب يخيم على المكان. ولا يوجد على الباب قفل، بل مسمار ملتوٍ فحسب. وأدركت كل شيء، فقفلت راجعاً، وفجأة سمعت صراخاً:

ماذا تفعل هنا؟ - ظهر وجه امرأة من وراء السياج المتداعي المحطم - وصاحت: لابد أنك جاسوس أيضاً؟ لقد تبين أن صاحبك الكوري جاسوس. أراد الهرب. وألقي القبض عليه في محطة القطار.

لم أنبس بكلمة، وهرولت إلى عنبرنا. وكان جدي قد أضرم النار في الموقد. فتطلع إليَّ باستياء:

- أنا قلت لك بأن لا تذهب إلى الكوري: وقد تلم به وبك الخطوب والنوائب.

دادا، - اندفعت نحوه وأردت أن أحدثه. ولكن أدهشني رد فعله. فقد نهض بتثاقل، واضطرب وقال:

- هيا البس ملابسك بسرعة. سأرسلك إلى فصيلة قاطعي الأخشاب.

كنت أعرف ما هي، - إنها أعمال السخرة - الطوعية الشاقة جداً، والتي لا تحتمل. والمرء هناك لا يعتبر سجيناً، لكنه يعمل مع السجناء. ويجري هناك قطع الأخشاب استعداداً للشتاء. وحدث مرة أن أرادوا إرسالي إلى هناك، لكن جدي عارض ذلك بإصرار بذريعة صغر سني وأنني المعيل الوحيد في الواقع (كان جدي قد دب فيه الضعف للغاية، وحتى لا يستطيع العمل كحارس، ولا يقبلونه للعمل - إذ بلغ من العمر أرذله). والآن يرسلني نفسه إلى مكان ناء وسط غابات التايغا لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر. وسافرنا إلى المكان المقصود خلال يومين، لكن هذا لا يعني أننا بلغنا ذلك المكان البعيد. ومجرد أن قطارنا سار في طرق فرعية ما، وكان يتوقف أكثر مما يسير. ثم وصلنا إلى منطقة سجن ما - نحونا الغابة، بالأحرى كانت هناك الغابة، أما الآن فبدا كما لو هبت على المكان عاصفة هوجاء، وخلفت وراءها الدمار. فالأشجار قد قطعت، وتراكمت الأوساخ - هذا مجرد استهزاء بالطبيعة. ويعامل البشر بالصورة ذاتها، ففي اليومين الأولين حتى لم يقدم لنا الطعام، وكنا نأكل ما جلبناه معنا من البيت. وكان جدي قد أعطاني قالب خبز وقطعة سكر وبقسماطاً (من مخزوننا الاستراتيجي) وزبدة في علبة الثقاب وبصلتين. هكذا عشنا. كنا نقضي النهار في العمل في الغابة. ولحسن الحظ كان النهار قصيراً. لكن لدى عودتنا إلى العربات - المساكن المؤقتة، يسود الظلام، ولا توجد إنارة، ولا نرغب في شيء سوى في الأكل والنوم. كان الطعام سيئاً - يتألف دوماً من عصيدة الشعير المقشر. لكننا يمكن أن ننام حتى طلوع الفجر - أي نحو 12-13 ساعة. وكيف يمكن أن ننام في هذا البرد. هناك في وسط العربة-المسكن يوجد فقط موقد (بورجويكا) صغير، لكنه يبعث الدفء فقط حوله.

كان الأفراد يصابون بالمرض، وتوفي اثنان منهم. وحددت لنا خطة للعمل تقضي بتحميل عشرين عربة قطار بالأخشاب الممتازة، بينما لا تتوافر أي ظروف للعمل والمعيشة. علماً بأن بعضنا كانوا حتى يحسدون السجناء - فلديهم المعدات والطعام المنتظم والعنابر الدافئة أكثر من مسكننا ذي الثقوب. أنا لم أحلم بهذا، بل بالعكس لم أتصور الحياة تحت فوهة الرشاش، وحين يوجد الجميع تحت الحراسة، وباختصار في السجن. أما نحن فأناس أحرار بهذا القدر أو ذاك، وكنت أشحن بهذا الإحساس في كل يوم، وهذا بالذات ما وفر لي الدعم وأنقذني كما أعتقد. كنت مثل الساعة المنبهة، وكما علمني المعلم، استيقظ في الساعة الخامسة والنصف بالضبط، حين يكون الجو ما زال مظلماً جداً، والجميع نيام، فأهرول في كل صباح في الممر الممهد حتى فسحة الغابة النظيفة، وأقوم بالتمارين بالقرب من جدول صغير لم يتجمد بعد، وبمرافقة خرير الماء، والذكريات عن المعلم، التمارين التي كانت تزودني بشحنات القوة، بل وتنقذني، بأن تجعلني مترعاً بالصبر والثبات. كما كنت أتذكر وصية جدي: لا تترك العمل أبداً، الجميع يعملون وأنت اعمل، ولا تبرز نفسك في عملك، لكن اعمل أكثر قليلاً من الآخرين، وكن دائماً في الطليعة في ذلك، لكن لا تتزعم الآخرين بشكل مصطنع. ربما يكون هذا السبب في تعييني رئيساً لفريق العمال بعد مرور أسبوع بالرغم من أنني أصغر الجميع سناً. وكنت أنجز عملي كما يجب، والشيء الوحيد الذي كان يحز في نفسي،

أنني بصفتي الأصغر سناً كنت أنام في العربة- المسكن في الركن الأبعد فيها، حيث يسود البرد وكذلك تيار الهواء المتسرب من الثقوب. وكنت دائماً أتذكر في هذا المقام أقوال جدي.

كان يردد مغموماً: - أي إقليم هذا، هنا يسود البرد حتى في الصيف... صفوة القول: المنفى - سيبيريا... آه، أتمنى لو أذهب إلى القوقاز قبل الموت. ولو لمدة يوم واحد. أتمنى فقط أن أموت هناك وأدفن في أرضي العزيزة. إن هذه الكلمات صارت غالباً ما تراودني في الذاكرة وتعكر مزاجي الآن، وحتى في الحلم، بينما لم أكن ألقي لها أي اهتمام سابقاً.

مضى شهران من العمل الشاق ووجب أن نعود إلى أهلنا بحلول العام الجديد حتماً. وكانت صورة جدي الحزينة غالباً ما تظهر في ذاكرتي. وبدأت أشعر بحدوث مصيبة ما وحتى أردت الهرب، وصبرت بعد جهد جهيد، حين وصل القطار لأخذنا عشية العام الجديد، فاقتادني سائق القطار وهو من معارفي جانباً وهمس لي: لقد احتجز جدك في السجن.

فصرخت: - لأي سبب؟! - آنذاك لم أعرف أنا وأي أحد آخر بأنه حل «عام 1937». نقلنا إلى البلدة قبل يومين من انتهاء هذا العام الرهيب. كانت العاصفة الثلجية تزأر في الشارع، ودرجة الحرارة تعادل الأربعين درجة مئوية تحت الصفر. وساد في روحي الشيء ذاته. ولم أستطع الانصراف من المكتب حيث يجب أن تدفع لنا الأجور الزهيدة. وكما هو معروف إن النقود لا تدفع هنا بسرعة، لكنهم حين بدأوا أظهرت وقاحة وبصفتي رئيس العمال استلمت أجرة العمل ثم هرولت إلى العنبر (من الصعب وصفه بأنه مسكن). وقبل أن أدخل إلى العنبر، ولدى رؤية الجيران فهمت كل شيء، ورأيت أخويَّ - وصارا يبكيان سوية:

- مات الجد في السجن.

- متى؟

- عرفنا ذلك قبل يومين.. لقد أرادوا إرسالنا إلى دار الأيتام. فقلنا - لدينا معيل هو أنت.

... واصل زيبا حديثه: - مضت على هذا فترة تربو على نصف القرن.. والآن أنا أعرف، طبعاً، بأنه وجب عليّ أن أتحلى بالصبر كما أوصاني المعلم، والتكيف بشكل ما، ومحاولة التخلص من نظام القنانة السوفيتي - أسوأ أشكال تطور البشرية ووجودها. لكنني لم أستطع. فقد أردت، كما علمني جدي، أن أحافظ على شرفي وكرامتي. من جانب آخر، إذا ما أخذنا نظرية معلمي - فهل صانته نفسه؟ لقد فقد أثره وحتى لم يترك ذرية، حسب علمي، فهو لم يستطع ولم يرغب بالتكاثر في هذا المجتمع - إنجاب الخدم العبيد. بالمناسبة إن جدي لقي المصير ذاته. وأنا سليل جدي الموقر وتلميذ الشيخ الكوري- لقد استوعبت مدرستي الحياة كلتيهما. وقد حددت آراء هذين الشيخين نظرتي إلى العالم، وغلبت، طبعاً، تقاليد الآباء في عدم الاستسلام، وتذكر الشرف... أنا كنت سأخفق في تحقيق ذلك لولا معلمي. فإن تمارينه منحتني الصحة والقوة والمنعة التي غالباً ما تقودني إلى الهلاك، لكنها في النتيجة ساعدتني على الصمود والبقاء على قيد الحياة.

كنت قد أتممت الخامسة عشرة، ولم أكن أفقه جميع الأمور تقريباً، لكن وجدت الغريزة، والتعطش إلى الانتقام وانتصار العدالة. لم أكن أعلم شيئاً وحتى لم أتصور شيئاً، لكنني كنت أعرف بأني ذاهب إلى المعركة، آخر معركة. أعتقد أنني هرعت لهذا السبب، وقبل كل شيء، إلى المتجر واشتريت لأخويَّ الكثير من المأكولات. وأعطيتهما جميع النقود المتبقية، حتى آخر كوبيك، وقلت:

- سأعود - وإذا لم أرجع فلا تذرفا الدموع. عيشا بسلام ووئام، سوية ولا تنسيا جذورنا وتقاليدنا.. مفهوم؟

... إن جميع المؤسسات تقع في وسط البلدة. وقد اكتست عشية العام الجديد زينة العيد، لكن لا يوجد أحد من الناس، - فقد اشتدت في المساء العاصفة الثلجية، والزمهرير، وعصفت الرياح، حتى لا تسمح للفرد بالمشي. أما أنا فلم أعرف إلى أين أذهب بالضبط، وعندئذ جاء حكم القدر فحسب - ففي وسط الساحة وقف رجل بدين ضخم الجثة كما لو كان يتمتع بالطقس، أي برداءة الطقس، ويعاكسه، مثل السيد، وقد مد ساقيه المنفرجتين، وجذب انتباهي قبل كل شيء معطفه العسكري غير المزرر، الذي يتلاعب ذيله مع الريح، والسترة المفتوحة أيضاً. وكما يقال الصدر مفتوح ولا يهمه الزمهرير.

فخاطبته: - أيها الرفيق، أيها الرفيق، أين السجن أو مركز الشرطة هنا؟

فزأر بصوت جهوري آمر: - وماذا تريد هناك؟

اختنق النشيج في بلعومي وانهمرت الدموع من عينيَّ، ولكنني استجمعت قواي وقلت:

- توفي جدي هناك.

- وما هو لقبه؟

- دادويف.

سألني: - جدك؟ - عندئذ شعرت بانبعاث رائحة الكحول وشيء آخر دسم وحاد.

دادويف؟ هي - هي... إذن أنت حفيده. - قام بخطوة إلى الأمام. وأمسك بمعصمي بيده الضخمة والقوية ضاغطاً إياها حتى آلمني.- وقال: جاءت الفريسة إلى الصياد. هيا بنا، - وسحبني أنا الهزيل الضامر كالقصبة ضاغطاً على يدي بقوة أشد.

في تلك اللحظة تذكرت تمرين المعلم - «القبضة الحديدية». طبعاً، لم تكن كذلك البتة، وكنت أعرف بأنني يمكن أن أتخلص منها وأهرب. لكن إلى أين أهرب؟ إلى العنبر، إلى شقيقي؟ إنني جئت بنفسي إلى هنا، واقتادني إلى مبنى في الأطراف. واجهة المبنى مضاءة ومزينة بالألوان، لكن

حالما دخلنا انبعثت رائحة نتنة، ووجدت هناك القضبان، وسمعت صرخة «استعد»، وقعقعة السلاح. وفكرت «لقد حالفني الحظ أن التقيت الآمر»، وقال بهجة آمرة:

- احتجزوا هذا في الزنزانة الانفرادية، - وبدأت أصعد السلالم وأمروني: ضع يديك إلى الخلف، - لا، لم أكبل بالقيود، بل قادوني إلى سلم مجاور يؤدي إلى القبو عبر ممر صغير ومعتم وقذر. وفتحت بوابة كبيرة وضخمة وثقيلة بصرير ودفعوني إلى هناك، وأغلقوا البوابة.

ضحك زيبا بسخرية وقال: - منذ ذلك الحين وأنا في الحبس، وراودته أفكار حزينة خلال فترة طويلة، ودخن سيجارة أخرى، وواصل الحديث:

بقيت هناك وحيداً لفترة تربو على نصف الساعة. النور ضعيف في الغرفة الصغيرة والباردة والرطبة. ثمة طاولة يوجد فوقها مصباح ووعاء ماء وقدح ومحبرة بمقبض ومصطبة جلست عليها. الجو خانق هناك، وينقصه الهواء النقي. وتسود في المكان رائحة العرق والبول والدم. وبدا لي كما لو أنني في داخل تابوت. ووجدت هناك عالياً بالقرب من السقف نافذتين مشبكتين. وفكرت على أي مكان تطلان؟ لكنني لم أستطع إدراك ذلك، ويتبين من القضبان أنهما قديمتان وتعودان إلى عهد بعيد.

دخل الآمر وعليه إمارات الغضب والتعب. وبدا جسده بلا معطف قبيحاً جداً، وتدلى بطنه المنتفخ. كان يتنفس بعصوبة بالغة، وفي أغلب الظن أنه شرب المزيد، وعيناه حمراوتان.

- حسناً أن وقفت، فقد طاب لك الجلوس. قف هناك في الركن، - وأشار إلى الركن الذي صقلته أجساد التعساء.

جلس واجماً، وصر الكرسي. وأشعل المصباح على الطاولة، وصب الماء في القدح وأفرغه في جوفه دفعة واحدة، وطفحت عيناه بنظرات قاسية من تحت ذقنه:

- بسببك فسد العيد.. أنت تقول إنك حفيد دادويف؟ ولماذا جئت إلى هنا؟

لماذا جئت؟ إنني جئت من أجل الدفاع عن جدي، ومنحه التكريم بشكل ما بعد وفاته، ودفنه مثل بقية البشر. ولا أخفي أنني حالما تركت أخوي، شعرت بوحدة قاتلة وبالعجز، فانتحبت، وبكيت بحرقة، ولحسن الحظ هبت العاصفة الثلجية ولم يرني أحد، فقد كان الشارع خالياً من الناس، لكنني كنت أبكي، وأسير. وعندئذ تراءى لي عبر الرياح العاصفة بأنني أرى وجه جدي الصارم وعينيه:

- أنت أصبحت رجلاً. وأنت مسؤول. فلا تذرف الدموع. إنها لا تجدي نفعاً.. والأفضل ألا تنسى أنك شيشاني. تمالك نفسك.

نهضت كالمصعوق. وسمعت لأول مرة في حياتي قرع طبول الدم في صدغي، وشعرت بالألم في القذال، وكيف صرت أتنفس بصعوبة وبصورة متقطعة، وشعرت بنقص في الهواء. وفي الوقت

نفسه تذكرت كيف كان الشيخ - معلمي يكرر لي الشيء نفسه في الصباح قبل بدء التمارين: - هكذا، سيطر على نفسك. كل شيء تحت السيطرة الشخصية. انسجام! والمهم، التنفس. تنفس بانتظام وبهدوء. تحسس حلاوة الحياة في كل جرعة من الأوكسجين.

هذا ما فعلته. لقد تحسست حلاوة الحياة عبر العاصفة الثلجية والريح العاتية والثلج القاسي. لأن العاصفة الثلجية ذاتها كانت تقتحم كياني، لأنني تحسست الانسجام مع الطبيعة. كنت أتنفس بانتظام وبهدوء، وأصبحت قوياً وواثقاً بنفسي. واستمر هذا الشعور حتى دخولي هذا المبنى، ولكن اكتنفني الضعف، وصارت ركبتاي ترتجفان تقريباً، حينما أصبحت في هذه الزنزانة التي تنبعث منها رائحة الموت.

صرخ الآمر مرة أخرى: - لماذا جئت إلى هنا؟

- لماذا اعتقلتم جدي؟ - أخيراً قلت بصوت بائس هو ليس صوتي.

ثم صرخ: - لقد كان جدك رجلاً معادياً! إنه أضمر الحقد لنا ولسلطتنا. أليس الأمر كذلك؟ أنت لم تعد صغيراً، وتعرف ذلك. - ابتسم لسبب ما أو حاول الابتسام - وأنت تنتمي إلى الجيل السوفيتي الفتي، وحسناً فعلت أن جئت إلينا. لماذا جئت؟

- ماذا كان سبب وفاة جدي؟

دهش الآمر وضحك بسخرية: - سبب الوفاة؟ لقد فطس. هي-هي، أنت لن تصدق. فطس بنفسه. كان واقفاً هنا حيث تقف أنت، وأنا أرغمته على الوقوف في وضع الاستعداد، فهكذا يجب أن يقف عدو الشعب، وإلى جانبه حارس لكيلا يجلس ولا يرقد، بل يقف - وقف طوال الليل.. في الصباح جئت فوجدت الوغد واقفاً لكن فقط لطخه الغائط من فوق إلى تحت - لقد «عمل» الفعلة تحته. وأي رائحة نتنة انبعثت منه! ولدي عمل هنا. فقلت له: نظف المكان... كيف؟ باللسان، العقه باللسان، وكله.. لا تأكله؟». بينما بقي واقفاً، ويرتجف، والدموع تسيل على لحيته، وثمة رغوة في جانبي فمه... لقد كان جدك رجلاً عنيداً. تدفق الدم من أنفه وسقط. استدعيت الطبيب. فنفق بنفسه... وكم من الزمن يمكن أن يعيش!؟

كنت أستمع إلى هذا كله، وأعتقد مثل سماع جدي له، وصرت أرتجف وأنتحب، بينما واصل الآمر كلامه:

- أنت جيلنا الفتي الجديد، ومستقبلنا - حسناً فعلت أن جئت إلينا. ستعمل لصالحنا. وإلا... آمل أنك تفهم كل شيء. ومهما كان، فإن عدو الشعب هو عدو! ونحن جميعاً نفهم، وقبل كل شيء أنتم أعضاء في الكمسمول (منظمة الشبيبة الشيوعية). أنت عضو في الكمسمول، أليس كذلك؟ هكذا إذن! أنت يجب أن تناضل بلا هوادة ضد العدو... ستوقع هذه الورقة. واذهب للاحتفال بالعام الجديد. وبعد العيد ستأتي إلينا فوراً. فهناك عمل كثير.

ونبرت: - هل يمكن أن أدفن الجد. لقد كان يحلم بأن يدفن في وطنه، في القوقاز.

لقد رأيت عبر الدموع الغزيرة كيف تغيرت سحنة الآمر لدهشته الشديدة. إنه حتى تراجع إلى الخلف:

- يالكم من شعب غريب؟! من يدفن؟ إنه احترق في الفرن. ماذا تعتقد من أين هذا الدفء؟ - تطلع إلى ساعته - هناك ضيوف ينتظرونني في البيت، بينما أتسكع هنا بسببك، - ضرب الطاولة بقدميه بصخب، ونهض، واحتدم غضباً، - هيا، وقع الورقة ثم انصرف من هنا، ما دمت لا أزال طيب القلب. وإذا عملت فربما سأغفر لك ذلك.

- لن أوقع أي شيء ولن أعمل لصالحكم!

- ماذا؟ يالك من خنوص، يا ابن الكلبة، - وهجم عليّ بجثته الضخمة غاضباً وهو يطلق الشتائم. أما أنا فقد ارتعبت في نهاية الأمر، وارتجفت بكل كياني. بينما قبض بيده الكبيرة والقوية على عنقي الرفيع، وأمالني نحو الطاولة:

- هيا وقع، يا ابن ال...

ربما كنت جباناً قبل سماع هذه العبارة، وتحسست بقدر أكبر ضعفي وفكرت بلا إرادتي في شقيقي الأصغر مني سناً، وقد تحملت كل شيء، وصبرت، وكدت أن أستسلم تقريباً - كانت الأوضاع والظروف تدفعني إلى ذلك... لكن حين جاء ذكر أمي المسكينة والتعيسة وأهانوها، وذاكرتي المقدسة الوحيدة عنها، فعلت فعلها بصورة انعكاسية تمارين المعلم - القوة كلها في البطن! وبدا كما لو اعتدل اللولب المضغوط تحت ثقل السلطة البلشفية، وأصبح قضيباً مستقيماً، تخلصت بحذاقة وبصورة مفاجئة من قبضة صاحب الأمر والنهي ورجعت إلى ركني مجدداً. فاستشاط غضباً للغاية - فهو السيد ونحن جميعاً العبيد. واندفع نحوي بكل جسده الضخم، وأنا الآن لم أتوقع، أن تكون لدى هذا الجسد الضخم مثل هذه القبضة القوية المتمرسة جيداً. وفي آخر لحظة فقط، وفقاً لغريزة التدريب، استطعت تفادي ضربته. فأصابت الضربة ليس الفك بل العنق. ارتطمت بالطاولة لكنني لم أسقط، بل تجعد جسمي واتخذ وضعية الاستعداد للقتال، إن هذه الضربة صعقتني لكنها لم تفقدني رشدي، بل بالعكس إنها شحذت وعيي، والشيء الرئيس إن هذه الضربة أفرغت عينيَّ من الدموع، وأصبحت أرى كل شيء بوضوح.

- آخ، ياوغد! - صرخ الآمر وقد خرج عن طوره، فلم يعتد على تلقي الصاع صاعين وعلى العصيان.

تخلصت بخفة بالغة من الضربة الثانية. أما هو فصار يتنفس بصعوبة، ويئز، واصطبغ وجهه بالحمرة، بسبب عدم فهمه لما يجري. وفي أغلب الظن اندفع، بكل ما لديه من حقد طبقي، وبكل قوته «البروليتارية»، مجدداً، نحوي، صارخاً «سأخنقك». أما أنا الصغير الحجم، وبقدرتي على الحركة بخفة أكبر، كنت أنحني بشدة، وأقوم بخطوة إلى الجانب، كما علمني المعلم بإلحاح - ساعد

الخصم قليلاً وبخفة، وادفعه قليلاً - قليلاً في مسار حركته. وهذا ما فعلته، واكتفيت فقط بمس مرفقه وظهره البدين. الآن أصبح هو في ذلك الركن الصقيل، وارتطم به برأسه، وجأر بغضب، فأدركت بأن أي ضربة، أو الوقوع في قبضته، سيعني هلاكي حتماً. عندئذ وجهت الضربة بقبضتي والتي تدربت عليها آلاف وآلاف المرات، لكنني جربتها لأول مرة في إنسان، أو بالأحرى في هذا الشيطان ذي الهيئة البشرية. إنه يتمتع بقوة شيطانية. إنه لم يفقد وعيه، بل جثم على ركبتيه، وراح يئن ويئن ويئن. والآن تدفق من فمه الزبد والدم، وجحظت عيناه المتطلعتان إلى هذا الركن المحبب لديه، محاولاً النهوض وكان سينهض، لكن كانت لدي ضربة أخرى تدربت عليها ولكنني لم استخدمها وهي الضربة بطرف الجزمة على الصدغ. إنه مثل كيس أفرغ من محتوياته، وشرع يرتجف بتشنج، وحدث له ما رواه عن جدي (وبغزارة جداً). كما تدفق الدم حتى من أذنيه. واشتدت أكثر الرائحة النتنة المألوفة في هذه الزنزانة....

ومضى زيبا قائلاً: - أتعلم أنني كنت أحلم في تلك اللحظة - وأنا أتذكر هذا جيداً - بالهروب إلى البيت واحتضان أخويَّ لآخر مرة. لكنني حتى لم أحاول ذلك. إنني لم أرغب في أن يتعرضا للأذى، وحتى لم أحاول الهرب من مكان الجريمة إذا ما كانت جريمة. وبعد مضي نصف ساعة وربما ساعة، حينما قرر العاملون التطلع إلى ما يجري في الزنزانة، فقد تأخر الآمر في الخروج منها، وجدوني جالساً وراء الطاولة وأتلو الدعاء والصلوات، كما علمني جدي. كنت أبتهل إلى الرب أن يرحم جدي وأبي وأمي وأخويَّ. وعندئذ كنت أعرف بأنه لا يصلي أحد من أجلي، وإن باب السجن هذا لن يفتح أمامي حتى وفاتي...

... إنني حتى لا أصدق ما جرى، لأنه مضت على ذلك فترة نصف قرن وكأنه لحظة عابرة. ففي السجن، ولا سيما في البداية، يمضي الوقت بصورة بطيئة وموجعة. وأنت تنتظر متى ستنتهي فترة الحكم بالسجن وتخرج إلى الحرية. لكنني لم أخرج فقد صدرت أحكام إضافية بحقي. لأنني لم أتراجع ولم أستسلم أبداً، لأنني تسلحت بالأساليب التي علمني معلمي إياها. وبصورة أساسية - روح التقاليد التي كان يوحي بها جدي إليّ يومياً، وزد على ذلك، كان يعطيني بمثاله فحسب كيف يجب أن أعيش. إنني لم أمنح خبرتي إلى أي أحد. أنا في جوهر الأمر رجل وحيد وتعيس جداً، لأن سلالة أسرتي تنتهي بموتي. ومن الصعب العيش والموت بمثل هذا التفكير. واليوم أروي بالتفصيل، وبتلذذ تقريباً، كيف قتلت لأول مرة إنساناً، إذا ما كان هذا إنساناً. إنني أروي ذلك لأول مرة. لكنني حين أفكر في ذلك أعاني في دخيلة نفسي في كل يوم تقريباً. بينما بقيت لدي أيام معدودات. وهذه الرواية - كالاعتراف. لأنني أفكر دوماً بما كان سيحدث لي لو وقعت الورقة آنذاك؟ أعتقد بأنني وأخويَّ كنا سنبقى على قيد الحياة، وكنا سنشب ونتزوج. وسيكون لنا أبناء وأحفاد. لأصبح عندئذ عددنا كبيراً جداً... ولكن من كنت سأنجب وأشب وأربي؟ مجرد من أجل أن لا يخلو العالم من البشر. وماذا كنت سأروي لهم، وأي مثال سأعطي لهم؟ وكيف كنت سأتذكر جدي وأمي وأبي؟ بأي شرف وضمير عشت؟ وكيف كنت سأعيش بالذات؟.. ولو أن أي أحد لا يحسدني على حياتي ومصيري.. لكن أنا - وهذا محصلة الحاصل - لا آسف على أي شيء. أنا عشت دوماً كما عاش جدي، وكما علمني معلمي، وكما يملي عليّ ضميري. لهذا أنا اليوم هادئ - وكما جاء في الحكمة المأثورة: الأسد والنمر أقوى من الذئب، لكن الذئب لا يقدم الألعاب أبداً في السيرك.

حقاً، أنا اليوم وحيد. لكن لدي أصدقاء كثيرين، وأعداء غير قليلين. وأنا واثق تقريباً بأن جميع الذين يعرفونني يكنون لي الاحترام. منذ البداية يحترمونني. وحينما دخل السجانون الزنزانة، وشاهدوني وأنا أبتهل بالدعاء، كنت واثقاً بأنهم سيقتلونني. لكنهم لم يمسوني بأذى. إن غالبية الناس في العالم طيبون وشرفاء. وكان الجميع يكرهون هذا الآمر السادي- الجلاد. وإذا بي أنا الصبي أقوم بهذه الفعلة فجأة. وعلم الجميع بالأمر. كما أنني ما زلت من القاصرين. وهذا ما كتبه المحقق أن الآمر كان سكران في ليلة عيد رأس السنة، وزلق ببرازي، وسقط، وارتطم بصدغه في طرف الطاولة. حادث مؤسف. لكنني مع هذا مذنب: لأنني أبديت العصيان - وحكم عليّ بالسجن لمدة عشر سنوات! وحدث ذلك لأن أحدهم كتب على الجدران في عدة أماكن: «الكلب يلقى موت الكلاب» و«زيبا- بطل!». بينما لا يجوز التشنيع بالسلطة. صدر الحكم بالسجن!

في البداية احتجزت في سجن الأحداث، وهو أسوأ شيء - روضة أطفال. ثم نقلوني إلى سجن الكبار - للعمل في المناجم. نحن لم نكن نعرف آنذاك ماهي مناجم اليورانيوم- وكان السجناء يمرضون، ويتم شحن الموتى في أكوام. أما أنا فشاب قوي البنية، وكنت في كل صباح أمارس التمارين التي أوصاني بها معلمي، وكان همي الأول مساعدة أخويَّ خارج السجن، وكنت أساعدهما. وبعد مرور عام وعام ونصف أصبحت قادراً على دعمهما من السجن بشتى الوسائل. أنا لم أكن في حياتي أبداً من أهل الوساطة والمحسوبية وكنت أكره مثل هؤلاء الأشخاص العاطلين عن العمل. وبالرغم من نعتي بهذه الصفة، فلم أكن أبداً من اللصوص ورجال العصابات وعموماً كنت أكره لفظة لص. في طفولتي سرقت نصف كيس بطاطا من الجبران، وحالما عرف جدي بالأمر أمرني بأن أعيده وأعتذر، ومع ذلك عاقبني بالضرب بالعصا على راحة يدي، ما جعلني طوال حياتي لا أسرق فقط، بل وأحتقر اللصوص. إنهم جميعاً من حيث المبدأ يمارسون الوشايات. بينما علمني جدي أن أعمل - حتى أفضل من الآخرين بقليل. وهذا ما فعلته في السجن. كنت لا أعمل كيفما اتفق، بل أجدت تنظيم العمل وأحياناً أكون عبرة إلى الآخرين، وأحياناً أرغمهم وأعلمهم كيف يجب أن يكون العمل.

ثم اندلعت نيران الحرب. إنها كانت حرباً بالنسبة إلى الجميع. وتم نقلي من مقاطعة كورجان إلى الشمال البعيد. إلى مورمانسك. ثم أبعد إلى شبه جزيرة ريباتشي. ويلي ذلك فقط المحيط المتجمد الشمالي. وكانت مهمتنا إبطال مفعول الألغام التي يبثها العدو في البحر. والهدف الرئيس - الوصول إلى اللغم ومحاولة فك الصاعق يدوياً ومن ثم نقله إلى الساحل. المهمة شاقة جداً، ويستحيل تنفيذها عملياً، لكننا انتحاريون. لأن البحر البارد كان في وضع هيجان عاصف مستمر. أما الألغام فهي مثل القنافذ، تبرز منها أذرع وحالما تمسها تنفجر. ويتم تزويد بعضها بصاعق فحسب، بينما يزود بعضها بساعات منبهة. ويتم نقلنا بواسطة المركب الحربي إلى مكان قريب من اللغم، وننزل اثنان أو ثلاثة أشخاص في قارب ويشيرون إلى الهدف وأحياناً إلى أكثر من هدف. علماً بأن الوصول إليه صعب في هذا البحر العاصف. والبحر متجلد والرذاذ يتطاير والأمواج عالية. ونحن مبللون وأيدينا باردة، متخشبة لا تطيعنا، وأي حركة زائدة تعني - الانفجار! أما البحر فهو يعني الرحابة والحرية. في البداية كان العمل شاقاً جداً. فأنا حتى لا أجيد السباحة تماماً، وكنت أخاف كل الخوف من البحر وطبقة الجليد تحتي. في المرة الأولى حالفنا الحظ إذ كان البحر هادئاً جداً، واللغم سهل التفكيك، وتم إبطال مفعوله وحتى سحبناه لكي يدرس المهندسون تركيبه. أما في

المرة الثانية فكنت أمسك المجذافين، بينما جلس رفيقاي في مقدمة القارب - اقتربنا من اللغم. أما البحر فكان يتلاعب، ويعصف. وانهمكا فترة طويلة في تفكيك اللغم. وصرخت بهما: «بسرعة، بحذر»، بينما تجلدت يداي، وكذلك كانت حالهما مماثلة - فجأة وقع انفجار! طبعاً، لقد حالفني الحظ، وساعدني جسدي الذي مارس التمارين. ولم أصب أنا وأحد رفاقي بأذى، بل أسقطنا من القارب فحسب في البحر. ثبت إلى رشدي في الماء المتجمد وأخذت أجدف بيدي كيفما اتفق وأسبح. ولحسن الحظ كانت الجزمتان بمقاس أكبر من أجل الدفء، فانزلقتا من قدميَّ، ورميت بالقماش القطني بنفسي. صرخت وقد تملكني الفزع. وعندئذ اقترب مني رفيقي سابحاً - أنا لا أستطيع حتى في مثل هذا الوضع إبداء الضعف. وسيطرت على نفسي، كما يقال، وكان قاربنا قد بقي طافياً، بالرغم من أنه تحطم جزئياً، قريباً منا على مسافة مترين أو ثلاثة أمتار. وتبين أن رفيقي يجيد السباحة فجذبني إلى القارب وشدني إليه. وأردنا أن نصعد إلى القارب سوية وكدنا نقلبه. وبغية معادلة الوزن سبحت إلى الجهة الأخرى. وبدا أن المسافة قريبة - نحو المترين أو ثلاثة أمتار فقط، لكن الجهد الذي بذلته في ذلك كان عظيماً. لقد تصلبت يداي، والأفظع من ذلك أصبحت خاصرتي كالحجر، وشعرت بألم فظيع في كليتي، وحتى كدت أفقد وعيي. هذا معنى السيطرة على الجسم - فقد استطعت أن أستجمع قواي كافة واستندت على ذراعيَّ وأصبحت في قاع الزورق. لكنني لم أستطع القيام بأي شيء آخر، وليس إنقاذ أحد ما. فأنا نفسي كنت على حافة الموت تقريباً. وحتى لا أتذكر كيف تم إنقاذي. وعرفت لاحقاً بأنه كان في السفينة الحربية التي نقلتنا إلى البحر من أجل تطهير حوضه أحد الضباط الصغار من أبناء بلدنا. وكان يعرف بأنني شيشاني، وبعد الانفجار أصر على أن تأتي السفينة إلينا... وهكذا نقلوني إلى السفينة. وانهمك ابن بلدي هذا في العناية بي، وحال من دون موتي، وعندما وصلنا إلى البر سعى إلى إدخالي إلى الوحدة الصحية حيث تم علاجي. وياللأسف فلم أعرف اسمه.

من ثم حل موسم الشتاء. الشتاء قارس جداً، حتى بالنسبة إلى إقليم يقع في المنطقة شبه القطبية. تجمد البحر- وبدا أن في هذا الخلاص لكن لم تتوافر الظروف في حياة السجن حتى في مثل ذلك الوضع. وكان من الممكن أن نموت ببساطة. لكن الوطن بحاجة إلى الأيدي العاملة. وقد حالفني الحظ عندئذ، حالفني الحظ لأنني قوي البدن، - وتم اختياري وأرسلت إلى قرية بيتشورا لمد خط السكك الحديدية. إنني طوال حياتي كسجين تنقلت وعشت في عربات القطار الخاصة للسجناء في جميع أنحاء الشمال وجميع سيبيريا. وما أكثر المناطق التي أرسلت ونقلت إليها، لكنني أصبحت سجيناً حقيقياً في بيتشورا بالذات، وسجيناً مزمناً. فقد أدركت هناك نصيحة جدي بأنه حين يعمل الآخرون اعمل أنت أيضاً ولكن حتى بشكل أفضل قليلاً من الآخرين - هذا بالنسبة إلى المجتمع العادي، والوسط العادي. أما هنا فإما تبيع نفسك وإما تنفق. وبتعبير أدق تبيع نفسك وتنفق. الطعام قليل ورديء. وظروف المعيشة فظيعة، حيث ننام في عربات نقل الماشية التي لا تدفئ تقريباً، بينما أصبحت أخشى البرد. والأعمال شاقة، وصعبة جداً. وفي الفترة الأولى حاولت، كالعادة، النهوض مبكراً قبل الآخرين وإجراء التمارين الرياضية. لكن هذا أصبح ثقيلاً، لا يحتمل وغير ممكن. وأصابني الهزال، ولم يتحمل عبء هذه الأعمال الشاقة، ولم أعد أستطيع النهوض في الصباح. لكن أسوأ ما في الأمر شيء آخر. فهنا ما يسمى المنطقة السوداء- أي يتحكم بالوضع ذوو المحسوبية، ومن يدعون باللصوص، وهم بلا ريب لا يعملون، ويستولون حتى على جزء من الطعام القليل الذي يقدم لنا- بصفة جزية مفروضة مقابل وقاحتهم وحياتهم الإجرامية. وكانوا

يسخرون فحسب من تماريني الصباحية، ومن ثم، ونظراً لكوني قوي البنية، كلفوني بالقيام بأصعب الأعمال وأكثرها خطراً: رفع القضبان الثقيلة وتثبيتها. لكن وجد عمل أخف هو تنظيف دلاء الغائط. والعمل الأخير مخصص إلى «المنحطين «كلياً وإلى الأبد. وقد ثبتت هذه الشروط في العربة المريحة المنفردة التي يسكن فيها زعيم العصابة المحلية. وكان يسكن هناك أفراد حاشيته المؤلفة من عشرة أشخاص، وكنت أعرف بأنهم جميعاً، على أقل تقدير، من أصحاب السوابق. ما أشد كراهيتي لهم، كما كرهت نفسي أكثر. اشتدت دقات قلبي، وتصاعدت أنفاسي، وكنت أريد أن أعيش، ووجب عليّ أن أصبر، ووجب أن أفكر، فأنا في جوهر الأمر حديث العهد في هذا المكان، وفتي جداً.

سألت: هل يمكن أن أفكر؟

- هنا أنا وحدي أفكر، أما الباقون فينفذون،- قال هذا رجل قد تجاوز سن الخمسين، ويدل مظهره على احتفاظه بالقوة، وملامح وجهه قاسية وصوته صارم أيضاً. - اختر، بسرعة!

اخترت أول شيء طرأ في ذهني: - في الهواء الطلق.

ستعطي لنا العشاء والفطور، - وثمة عقوبة أخرى، - إذا ما قمت باللف والدوران، سأغرقك بالغائط. هل فهمت؟ اذهب يا ابن ال... وأمك!

إنني حتى لا أذكر كيف هرولت إلى عربتي، ووجب عليّ إيجاد سلاح جارح ما - وقد بدأت بالغليان في أعماقي خطة، وبالأحرى رغبة جامحة. كنت في الصباح أمضي مع بعض الآخرين حاملاً طعام الفطور الزهيد، وأقترب من زعيم العصابة وعندئذ.. يبدو أنني فقدت مهارات معلمي، ولم أعد أتحمل الصبر والهدوء، فالانسجام في هذا المكان غير موجود ولا يمكن أن يوجد، ولاحظ وضعي ذاك جاري - وهو رجل بالغ جداً، شهد وامتحن الكثير في حياته:

- ما حاجتك إلى السكين؟.. هل استدعاك زعيم العصابة؟ لا ترتكب حماقة. لن يسمحوا لك بالاقتراب منه. وحتى إذا ما اقتربت منه وارتكبت هذه الفعلة الشنيعة فإنهم سيقضون عليك فوراً، ولن ترف جفن لدى أحد.

تطلع نحونا وهمس في أذني:

- لا - تبحث عن السلاح أكثر - فسيبلغونه، الوشاة في كل مكان، - ويتذللون له.. ثمة فكرة. إنه لا يخرج إلى «الهواء الطلق» وسيبقى في المعتقل هنا. وأنا أعتقد بأنه لا بد أن يذهب إلى المرحاض. وعندئذ تكون اللحظة مناسبة.- ثم دس لي المزراق سراً.

لم أنم تلك الليلة. ليس لأنني كانت خائفاً وأدرس الأمر وأستقصيه، بل لأنني لم أعرف كيف سأحمل الفطور على الصينية في الصباح وماذا سأقول له. لكنني ذهبت ورجوت منحي الخيار الثاني.

شعرت برجفة في اليدين وفي صوتي. كانت ترتجف بسبب الإساءة والغيظ من نفسي. بينما تطلع زعيم العصابة إليَّ فترة طويلة وقال:

- غريب. خيارك.

تم اصطفاف السجناء وتوزيعهم بعد الفطور مباشرة، وفكرت في أن إدارة السجن لم «تطلق حرية اليد» لرئيس العصابة بعد، وسيتم تأجيل كل شيء إلى يوم غدٍ، فكيف سنحيا حتى ذلك الحين؟ ولكن تجري الأمور هنا بسرعة. أصبح المعتقل خاوياً، فقد انصرف الجميع إلى العمل، باستثناء مجموعتنا المؤلفة من خمسة أو ستة أشخاص من منظفي المراحيض، وكذلك زعيم العصابة وحارسه. وفكرت بأن أذهب مباشرة إلى عربة زعيم العصابة لكن هناك برج المراقبة الذي يبدو وكأنه يتولى حراسته. كان لدي سكين جيد- المزراق، وأستطيع التغلب على الرجلين حتماً، لكن يجب التحرك خلسة. وعندئذ تلقيت الأمر بأن أحمل إلى مرحاض رئيس العصابة الماء الدافئ من أجل غسل عجزه. عندئذ اجتهدت في العمل فأخذت ماءً شديد السخونة. وكان لدى زعيم العصابة وجميع ذوي المحسوبية مراحيض خاصة بهم في طرف بعيد من المكان، ولا ترى من برج الحراسة. كنت أسير في الممر وأعرف -إما سأقضي عليه أو سيقضى عليّ، ولا يوجد خيار آخر، وأنا راضٍ، وأنفاسي منتظمة وهادئة- السكون يخيم على المكان ولا يسمع صوت خشخشة الثلج. كان البخار يتصاعد من الدلو الكبير الممتلئ حتى أعلاه. ووقف عند المرحاض رجل ضخم طويل القامة- هو حارس رئيس العصابة، وكان يرى حتى من قيافته أنه كيس مليء بالغائط. نظر إليَّ باشمئزاز ونبر:

- اسمع أليس الماء ساخناً جداً؟

فوضعت الدلو أمامه وقلت له: - اختبره.

وحالما انحنى طعنته في الخاصرة مرتين - وراح يئن وحاول الصراخ.

وسمعت من المرحاض صوتاً خشنا يقول: - إيه! ماذا هناك؟

فحملت الدلو وأسرعت إلى المرحاض وطرقت الباب بفظاظة:

- من؟ من هناك؟

- هل مرحاض الرئيس مشغول؟

- من؟ من هذا؟

دفعت الباب بقوة، ولم يكن مغلقاً- وكان زعيم العصابة بانتظاري. كان يجلس على مقعد المرحاض وقد أنزل سرواله وبيده سكين فنلندي حاد.

أستبق الزمن فأقول إنه كان يتوافر في السجون والمعتقلات السلاح الجارح فقط. وبعد وفاة ستالين فقط وفي عهد العفو في زمن خروشوف جلب رجال الشرطة أنفسهم السلاح الناري إلى السجون، وصار يتولى الزعامة في السجون شتى أصناف عتاة المجرمين. وفي ذلك الزمن، في سنوات الحرب، كان كل شيء يتقرر بالقوة وبالحزم - ولا أريد استخدام كلمة الجرأة.

كنت أحلم بأن أغرق زعيم العصابة في المرحاض، حيث كنت أكن له أشد الحقد. لكنه رغم كونه بلا سراويل يحمل السلاح أيضاً، كما يبدو أن مظهري قد أذهله - فلم تبدر منه أي حركة، وجحظت عيناه فقط، فصببت الماء الساخن على رأسه ووجهت اليه ضربة بالدلو ذاته، وبعد ذلك طعنته بالمزراق؟. مفهوم، إنهم سيعرفون الأمر في الأحوال كافة، وسيكون من الصعب للغاية الهرب، ومع ذلك أردت الهرب بهدوء. لكن صدر الأمر من البرج القريب:

قف! سأطلق النار!- وسمعت صوت إطلاقة - انبطح! - فانبطحت على الثلج.

وطبقاً لجميع حساباتي كان يجب تقديمي إلى المحكمة، أول شيء قاله لي مدير المعتقل:

- يالك من سفيه، سفيه.

علماً بأن مدير المعتقل قد عين في هذا المنصب منذ فترة قريبة. وكان قد حارب في الجبهة، وجرح، وجاء إلى هذا المنصب من المستشفى العسكري مباشرة، ولم يطلع بعد على تفاصيل الوضع في حياتنا في المعتقل - وكان الشيء الرئيس بالنسبة له أن ينفذ الخطة، أي المهمة الحزبية، وهذا ما قاله:

- من سيتولى القيادة الآن؟ ستسود الفوضى. أنا بحاجة إلى العمل. الخطة.

فقلت بصورة عفوية كما لو أنني أقدم تقريراً: - سنعمل بشكل أفضل.

- نعم؟.. أنت ما زلت فتياً.. لكنك وقح. وجسور.. وأنت لهذا السبب في السجن.- ثم راح يتفحصني بإمعان ثم وجه لي السؤال الاختباري:

- إذا أفرجت عنك، إلى أين ستذهب؟ - إلى عربتي.

- السابقة؟

- الآن يفترض أن تكون عربة أخرى.

- هل ستدبر أمورك؟

- إنني كنت أتدبرها حتى الآن...؟

سعل زيبا ثم واصل حديثه:

- هكذا يبدو أنني حتى الآن كنت أدبر أموري بنفسي، أو يبدو لي أنني أتدبرها. أتعرف أين يكمن السر. تسود في المعتقل وكذلك في الحياة عموماً، كما أظن، قوانين الغاب - وينتصر الأقوى، وهو القائد، ويخضع إليه الجميع، ويتبعه الآخرون ما دام الأقوى. ولا يمكن الوثوق بأحد، حتى بالذات. ولهذا ينبغي التزام الحذر دوماً، وأن يكون في لياقة بدنية، وينام بعين مفتوحة واحدة.

ضحك زيبا: - ها-هاها - لدي الآن عين واحدة: لذا أنا لا أنام أبداً. مزحة!. ولدي أيضاً مبدأ شخصي - ما دمت قد أصبحت رئيساً، فيجب أن أعتني برعيتي. كما يجب أن أحافظ على المراتب، لكن بالتزام العدل. لكن لا يمكن أن تسود المساواة بين الجميع، لأن الناس من أصناف شتى، فهناك كثير من الجاحدين والجهلة والجبناء ومجرد العبيد بحكم طبعهم - لكن يجب التعامل معهم كالآخرين. صفوة القول كان الوضع صعباً جداً للغاية. فالسجن هو السجن، لكنني أديت المهمة كما يجب - وبقيت على قيد الحياة. لكن بقيت في الذاكرة حادثتان.

... حدث بعد نحو العام، وفي الشتاء أيضاً، أن توفي مدير معتقلنا، وقيل إنه توفي متأثراً بالجراح في جبهات القتال، وأرسلوا لنا مديراً جديداً من «جرذان هيئة الأركان». زد على أنه من دائرة التوعية السياسية. وقد استدعاني هذا المدير مرتين وأجرى معي محادثات مهينة، وأراد جعلي في مرتبة الوشاة - فأوقفته عند حده بلباقة. وأظن أنه حمل لي نوعاً من الضغينة وساعد على اتخاذ موقف ما مني.. وكما قيل لي فيما أنني من أصغر القادة سناً ولا يمكن أن تطلق عليّ صفة «زعيم العصابة». زد على ذلك أنني لم أكن أعترف بعالم اللصوصية والمحسوبية. كما أنهم لم يعترفوا بي جميعاً في البداية. وأنا عشت وأردت أن أعيش وفقاً لمبادئي في الحياة، وطبعاً وجدت لدي مسؤولية وكذلك امتيازات ما حددتها لنفسي. لكنني نادراً ما كنت أبقى في المعتقل في النهار، وكما علمني جدي «اذهب إلى العمل دوماً». وعلى حين غرة تلقيت شخصياً أمراً من مدير المعتقل بأن أذهب إلى أنأى قطاع، حيث لا يجري العمل على ما يرام، ولابد من فرض الانضباط في العمل. وكان القطاع هو مقلع الحجارة الذي نحصل فيه على الحجارة من أجل طريق السكك الحديدية. وكان المقلع يبعد عن معتقلنا مسافة سبعين كيلومتراً. في منخفض نهر فينيو ورافد بيتشورا. ويجري إرسال السجناء إلى هناك لمدة أسبوع - من يوم الاثنين وحتى يوم السبت. أنا كنت أعرف بأن العمل هناك شاق جداً، أما ظروف المعيشة فهي أسوأ. أنا لم أكن هناك من قبل أبداً وأدركت فوراً، أن الآتي ليس خيراً، وقد أكد الشباب المقربون مني ذلك أيضاً، واستطعت بشكل ما الإفلات من المصاعب،- مهما كان الحال أنا الرئيس ويعتبر المعتقل من السجون السوداء. قصارى القول أنا لم أجعل هذا الوضع يتدهور، وأدركت الآن - إنه اختبار للتحمل. إذن أنا ذاهب. ولكن حدث قبيل السفر هرج ومرج، وحتى لم أستطع أخذ المزراق والسكين الفنلندي: فقد التزمت باب الحذر، وحشدت نفسي - كنت آنذاك فتياً وقوي البنية، وأصبحت رئيساً، وحافظت على اللياقة البدنية في كل يوم. وصلنا إلى المقلع بسلام، وفي الأيام الأولى لم يحدث أي شيء يستحق الذكر، وأصابني التراخي، وفي اليوم التالي جاءت الشاحنة التي تنقل المواد الغذائية، ورافقها، وهو أمر لم يحدث سابقاً طبقاً للنظام السائد، خمسة سجناء جدد، إنهم جدد بالنسبة إلى معتقلنا، لكن مظهرهم لا يدل على أنهم حديثو العهد بالسجون... وقد عرفتهم فوراً، وفهمت كل شيء. علماً بأنهم لم يخفوا منذ

لحظة وصولهم نواياهم - بالتحدي الواضح، واتخاذ موقف الوقاحة، والتدخين والتطلع إليَّ - بحقد وازدراء، كما لو أنهم السادة هنا. وكان المفروض أن يوقفهم عند حدهم رئيس الحراس، لكنه قام بحركة استعراضية - وهو ما لم يحدث من قبل، بإعطاء الأمر إلى الحراس:

لقد جلب الطعام. الجميع إلى هنا. فترة استراحة للتدخين. وتناول طعام الغداء- وقال لي مبتسماً، - وأنت حافظ على النظام، ياباشا!

.. كانت إدارة المعتقل تسمح إلى السجناء أحياناً بالتسلية وذلك بتقديم عروض مسرحية، ذات طابع أيديولوجي عادة. ويتم ذلك من أجل تقديم تقرير إلى الرؤساء حول العمل الأخلاقي- التربوي للسجناء، وبغية إشغالهم بأمر ما - وعموماً إنها مظاهر خادعة مبتذلة يشارك فيها فقط المثيقفون من العواصم. وهنا تم إعداد مثل هذا العرض، أما الحراس فقد انسحبوا جانباً بصورة استعراضية. وبقينا - نحن السجناء - لوحدنا، بلا رقابة تقريباً. وجمد الجميع في انتظار الحدث، وتوقف الجميع عن العمل، ولم تسمع خشخشة المعاول، وقعقعة القضبان الحديدية والصواقير. نحن في تجويف المقلع الذي بدأ العمل فيه منذ فترة بعيدة حيث تشمخ فيه جدران عالية من الحجر والجرانيت. وعادة كان يقف في أعلى المقلع دوماً اثنان من الحرس المسلحين بالبنادق ومع الكلاب، أما الآن فلا وجود لهم. وخمنت (السجين يفكر بذلك دائماً) في كيفية الهرب من المكان؟ يوجد في نهاية المقلع مكان منحدر - حدث هناك انهيال الأحجار. ويرى كل شيء كما على راحة اليد - والرامي يمكن أن يهدف نحو الكروان. يمكن تجربة ذلك ليلاً، لكن رجع الصدى هنا في المقلع ليلاً شديد بحيث تسمع أي خرخشة. وأحياناً كنا حتى نسمع بسبب الثلج الهش كيف تهبط من الغابات إلى المقلع الذئاب أو بنات آوى- إنها تنجذب إلى بقايا طعامنا والنفايات، وعندذاك تأخذ الكلاب عندنا بالهر أو بالنباح. أما الآن فيسود السكون. سكون يشوبه التوتر. لا يتولى أي أحد حراستنا - أهرب. لكن إلى أين أهرب؟ وممن أهرب؟ من هذا الفريق؟ يفصلني عنهم نحو ثلاثين - أربعين متراً. لقد حصل القادمون الجدد على المزارق. بينما أخذت القضيب الحديدي من سجين يقف بالقرب مني. كنت حتى تلك اللحظة أستعد، وأنتظر، لهذا كانت أنفاسي غير هادئة تماماً لكنها منتظمة، وأنا أتحسسها وأبقيها تحت السيطرة. تقدمت باتجاهي، بشكل رهيب وفي آن واحد تقريباً، تلك الزمرة من السجناء الأقوياء البدن ويدل مظهرهم على أنهم من عتاة المجرمين، وساروا في جبهة موحدة. قمت بعدة خطوات إلى الوراء بهدف الوصول إلى جدار المقلع، بغية ألا أتعرض للهجوم من الخلف. ولحظتئذ انضم إليهم، باتفاق معهم كما يبدو، اثنان من جماعتنا، وحمل أحدهما قضيباً حديدياً والآخر معولاً. وما يؤسف له بأكبر قدر أن أحدهما كان صديقاً مقرباً جداً مني ومحل ثقتي- وكان يدعوني بالأخ، وقد علمته فن المصارعة. الجميع ضدي، وتضاف إلى هذا الخيانة، - انحبست أنفاسي، والنبض غير منتظم ومرتبك في غالب الأحيان.. وأنا حتى لا أعرف ماذا حدث. لا يمكن القول إنني ارتعبت من الموت. أنا لم أرغب في أن يجهز عليّ هؤلاء الأدنياء. وحملتني قدماي إلى موضع الانهيال، للهرب، والخلاص. وعمل وعيي عمله، لأنني في تلك اللحظة ألقيت بالقضيب الحديدي جانباً، واستحوذت على مجرفة أحد السجناء، فهي أخف وزناً وأكثر نفعاً.

.. كان معلمي يردد دائماً إن الشيء الرئيس هو التنفس وتحمل الجهد، كما أوصاني بالهروب. وقد أحببت ذلك، وأنا هنا أهرول في كل صباح، لوحدي، - لكن «أخي» لم يفطن إلى مغزى ذلك.

ولحظتئذ هرولت بأقصى سرعة. وظننت أن رصاصة ستنطلق عندئذ بل حتى زخة من النيران، وستنبح الكلاب البوليسية. وستحل.. ستحل نهايتي. وسينتهي عذابي. هذا حتى أفضل وأسرع من طعنات المزراق أو المعول. لكن لم يطلق الرصاص ولم يتعال الصراخ، بل سمعت فقط أنفاسي الثقيلة جداً والنبض الجنوني في الأذنين وخشخشة الثلج. الجميع ضدي - يجب الهرب! كانت المسافة بين موضع انهيار الصخور والمكان الذي حلمت بالخروج عنده من المقلع ومواصلة الهرب تعادل خمسمائة - ستمائة متر، ومعنى ذلك أن طلقة البندقية القصيرة الماسورة لن تصيبني، فواصلت التسلق، وبعد ذلك سيتوقف كل شيء على قواي كما يبدو. لكنني لم آخذ بنظر الاعتبار ما حدث لاحقاً. أنا لم أتوقع فحسب أن ينزلق الثلج في موقع الانهيال. وفعلاً كانت هناك في الأسفل طبقة ثلجية متماسكة ضخمة تشبه لسان التنين. لكن تتوافر هناك فقط الفرصة للصعود والخروج من المقلع. فتسلقت. وفور ذلك بدأ الثلج يغمرني حتى الحزام تقريباً، وحتى الصدر، وحتى قمة الرأس. طبعاً إن المجرفة تساعدني، لكنها لا تنقذني، لأنني شعرت بصعوبة بالغة في الحركة - إنني أشق طريقاً وبهذا يسهل المشي على من يطاردني في الممر المطروق! وأعترف بأنني أدركت بفزع متزايد وبيأس تقلص المسافة بيننا، وحتى تحسست أنفاس المطاردين خلفي. وظننت أن أفظع شيء هو أنني سأتلقى بعد لحظة طعنة بالمزراق في ظهري. علماً بأنني حتى لا أتجرأ على الالتفات، وأتطلع إلى الأعلى فقط: يجب التسلق مسافة عشرة أو أثني عشر متراً فحسب، حيث سيكون المرتفع أشد انحداراً، لكن لايوجد هناك ثلج، ويوجد الجدار الحجري فقط - وهناك سأسقط إلى الأسفل.

راودتني هذه الأفكار وأنا أقوم بقفزات حادة ويائسة أكثر، وخذلني الثلج، فقد تحطم تحتي، وسقطت بشدة إلى الأسفل. كنت سأقع بين أيدي هؤلاء. لكن أنقذتني مهارتي والمجرفة: جعدت جسدي، وغرزت المجرفة في الجدار، وتعلقت بها... فماذا رأيت.. لقد تبين أنني تسلقت إلى الأعلى بسبب خوفي. أما الذين طاردوني فإنهم يحاولون التسلق في أعقابي على انفراد. وكان بين الأوائل «أخي» المزعوم، وتلميذي الأول والأخير، علماً بأنه يجد صعوبة في التنفس، وألقى المعول، لا بد أنه ثقيل، والآن بقي بيده المزراق فقط. جمد في مكانه - تحتي مباشرة، وكما يقال على «شمرة عصا»، والأفضل شمرة مجرفة.

تابع زيبا حديثه قائلاً: - أنا أتذكر حتى الآن أحاسيسي آنذاك. لقد شعرت بأنني أتصبب عرقاً دافئاً وغزيراً، كما لو أنني بعد تدريبات جيدة استعداداً للمصارعة. أعتقد أنني ابتسمت أو ضحكت بسخرية - فهم الآن على انفراد، وسأواجه كل واحد منهم على حدة، لا سيما أن موقعي الآن أفضل. لكنني لا أتذكر فقط شيئاً آخر، وهو ماذا قلت ل «أخي» في نهاية الأمر؟ أظن أنني قلت كلمة «كلبة»!. لم يكن لدي وقت لقول كلمات فخمة أخرى - فقد وجب عليّ أن أعمل بسرعة، وبحساب دقيق. يجب الهجوم وإصابة الخصم حتماً، ثم الانتقال إلى الهدف الآخر. الآن الحركة معاكسة: والشيء الرئيس أن ألحق بالعمل لكيلا يهرب أي أحد. لقد تبين لي أنني دربت «أخي» بصورة لا بأس بها. فقد استطاع تفادي ضربتي بالمجرفة. لكنها لم تكن الضربة الرئيسة- فلدى هبوطي إلى الأسفل ضربت بجزمتي قدمه الخلفية، المستقيمة، التي يستند عليها. فأطلق أنيناً، ولدى سقوطه تعلق بقدمي، وعبثاً فعل ذلك.. لقد رأيت عينيه عن قرب - إنهما أدركتا كل شيء، وكان قد ترك قدمي وتلقى في اللحظة الأخيرة ضربة بالمجرفة ذاتها في قصبة الأنف. وتدحرج ساقطاً إلى

الأسفل في الممر وارتطم بالرجل الثاني القادم خلفه، وسقطا سوية إلى الأسفل. وأردت التوجه إلى هناك أيضاً، ولكن لحقت بالتفكير بأن هذا سيجعل مهمتي صعبة، وعندئذ هدر شيء ما بحدة، كما لو تحطم عظم حيوان الماموث، - وأعقب ذلك دوي مكتوم متزايد. وفجأة زحف الثلج تحت قدميَّ، فدهشت، وأعقب ذلك ضربة شديدة، وحملني الثلج بحركة دائرية. وفكرت في اللحظة الأولى بأن انفجاراً ما وقع. إنه يشبه ما حدث لي عندما سقطت في البحر المتجمد بعد انفجار اللغم. وهنا حاولت التسلق إلى الأعلى، والسباحة، وسبحت ورأيت النور فتنفست الصعداء، وتجدد الكابوس، والدوامة، لكنني حاولت الصعود، وفجأة توقفت، وتذبذب وزني بحكم القصور الذاتي، وتعلقت... سكون، ظلام، كما في القبر، أختنق. ولحظتئذ بدأت بالسعال، وهذا ما أنقذني - فقد تخلص بلعومي من غبار الثلج. لكنني وجدت صعوبة في التنفس، وبقيت فترة من الزمن حائراً، لحين إدراكي بدقة أن ما حدث هو انهيال وانزلاق أكوام الثلوج.

لقد حالفني الحظ طبعاً. حالفني الحظ لكوني في الأعلى تقريباً، وعلى طرف الانهيال. بالإضافة إلى ذلك ساعدتني تدريباتي البدنية - وبذلت جهدي لكي أستعيد هدوئي في هذا الوضع، وانتظام وتهدئة أنفاسي. أما المشكلة الأخرى فهي أين أنا الآن؟ أين الأعلى وأين الأسفل؟ لم أستطع تفهم أي شيء، وفقدت القدرة على تحديد الاتجاه كلياً، كما لو أن الجاذبية الأرضية لا توجد. إنه وضع عجيب من الانهيار الجسدي التام، حين يفقد الوعي القدرة على تحديد الاتجاه، ويبدأ الإنسان مع تنامي الفزع بالصراخ والتململ والنرفزة. كما لا أستطيع التنفس، وأكاد أختنق. وحتى شعرت بأنني أغفو، وبالأحرى أفقد الوعي - إذ لا يتوافر الأوكسجين. ولحظتئذ جاء الخلاص - اللعاب. تدفق اللعاب بغزارة وبانحراف نحو الفك الأسفل. وأدركت بأنني في وضع شاقولي تقريباً، وهذا جيد. وحاولت قدر استطاعتي أن أجذب ساقي إلى بطني، وأخذت أحرك يديَّ إلى الأعلى كما لو أنني في وضع السباحة في الماء. وبدا لي أنني قد أفلحت في ذلك إذ توسع الفراغ قليلاً. وتنفست بقوة مجدداً، وقمت بقفزة أخرى، وتراءى لي بصيص نور في الأعلى. عندئذ بدأت بالحركة، وأتذبذب بكل كياني...

ما أروع العالم! وكيف بدا لي نيراً ومليحاً! وما أحلى الهواء! أي سعادة - أن أتنفس! التنفس بهدوء وبحرية! أعتقد أنني أدركت آنذاك لأول مرة في حياتي ما هي السعادة والانسجام والعيش بحد ذاته. لكن لم يتسن لي أن أواصل هذا النعيم. فقد تلاشى بحدة مثل الحلم، ومثل السراب، لأنه وردت إلى سمعي أصوات إطلاق الرصاص والصراخ ونباح الكلاب. تطلعت إلى الأسفل، إلى المقلع، - كان هناك السجناء، وربما الشياطين، أنا لا أعرف بالضبط، لكنه الجحيم. أنا لم أرغب في الذهاب إلى هناك، لم أرغب بذلك البتة، فهربت مهرولاً. هرولت إلى الأعلى، وشققت مجدداً الطريق نحو الأعالي المجهولة، حيث العالم والسعادة والانسجام. وحيث يمكن القول - الإنسان على الأرض! أنا أحيا! لقد راودني هذا الشعور حين خرجت من المقلع. أي منظر، وأي رحابة! هل يصدق أن هذه الأرض لا تكفي الإنسان؟! يمكنه أن يبني كوخاً ويعيش في أي مكان يريد. أنا عندئذ لن أكون عائقاً أمام أي أحد. لكنني أخطأت مرة أخرى - فلن يسمحوا لي بالعيش هنا، وترددت مجدداً الطلقات ونباح الكلاب. لكنني لا أريد سماع ذلك، ولا أستطيع النظر إليهم، والعيش معهم، أو بالأحرى أتفسخ معهم. أردت الهرب، ووجب أن أهرب من هذا الجحيم. لكن إلى أين أهرب، وإلى من؟ سأهرب إلى ذلك الجبل، إلى تلك الأكمة، التي تعلو الوادي المترامي الأطراف. ولماذا إلى هناك

بالذات؟ لا أعرف. ربما لأنني من أبناء الجبال، شيشاني، وقد ولدت وشببت ولو في فترة قصيرة في الجبال. لكنني إذا هربت إلى ذلك الجبل، الجبل العاري، سأكون تحت أنظار الجميع كما في كفة اليد. الأفضل والأيسر الهبوط إلى الأسفل، فهناك النهر المتجمد، والغابات الكثيفة، وأستطيع الاختباء فيها. لا! أنا لا أريد الاختباء، لا أريد الذهاب إلى الظلام والكهوف والغابات. أريد الفضاء الرحب! أريد المزيد من الرحابة، والمزيد من الحرية لكي أتنفس بحرية. وكما أوصاني جدي - كن دوماً أسمى قليلاً... لقد كان الجبل مصدر إغراء لي، ويدعوني إليه، ويسمو بي فوق عالم البشر الخسيس هذا.

لكن تبين أن الطريق إلى الذروة، كما الحياة نفسها، شاق وبعيد المنال. هرولت، وحلقت، وانحدرت لا سيما في البداية إلى النهر فوجدت نفسي في أحضان غابة كثيفة ومعتمة من أشجار الصنوبر والشوح. وهناك كنت أسمع بصعوبة نباح الكلاب التي تطاردني. وتوقفت للحظة فقط، وفزعت للحظة، واستغرقت في التفكير متذكراً المعتقل والمقلع - وكأنه جهنم، وواصلت الجري، وبصورة أسرع. ولم أشعر بأنني فريسة يجري اقتناصها، ولم أفكر كثيراً بالكلاب، فقد تناهى إلى سمعي خرير المياه العذب للنهر: فهو لم يتجمد كلياً بعد. ولن تلحق بي الكلاب وراء النهر، وفكرت أن الجبل سيكون عندئذ (على مرمى عصا). كنت في موضع اتساع مجرى النهر. وأخذت أبحث عن مكان غير عميق بغية عبوره فوق الصخور وكتل الجليد، لكنني سمعت نباح الكلاب وقد اشتد. كان هناك كلبان بوليسيان. أنا أعرفهما. الأول - فحل قوي وضخم الجثة، يقال إنه سليل كلب بوليسي وذئب. والثاني أصغر منه حجماً ويختلف عنه كثيراً ويكتفي بالنباح. وكنت أعرف بأنني أستطيع التعامل معهما على انفراد. وانتقيت بإمعان حجارة ثقيلة، واعتقدت أن الكلب سيخاف، لكنه قفز، كما علموه، باتجاه البلعوم. وعض يدي بقوة، لكن جمجمته قوية جداً ما أدى إلى تحطم الحجر. واتخذت موقف الاستعددا للقاء الكلب الثاني، لكنه يفتقر إلى دماء الذئاب. فوقف أمامي، وقد خفض ذيله، وهر، ثم استدار راجعاً من حيث جاء. بينما هرولت إلى النهر. وكنت أقفز من صخرة إلى صخرة، وأنزلق، وأصابني البلل حتى الحزام، لكن هذا لم يشكل عائقاً من دون مواصلة الحركة. أنا لا استخدم خصيصاً تعبير «الهروب» أو «الفرار». لأنني لم أهرب، بل بالعكس كنت أهرول للقاء - العالم والحرية والحياة! لكن تراءى لي فقط أن الصعود سهل، وقريب، ويسير. إن كل شيء في الحياة خداع: فقد بدت الذروة أحياناً صعبة المنال، وأحياناً اختفت كلياً عن الأنظار. وأحياناً حتى صارت تبتعد. وشعرت بمشقة أكثر فأكثر، والانحدار أكثر فأكثر، بينما اشتدت الرياح والزمهرير أكثر فأكثر، ووجب عليّ أخذ قسط من الراحة. فقد هدني التعب. وشعرت بالجوع. وتوقفت مرة واحدة فقط من أجل استرجاع الأنفاس والتطلع نحو الحرية- وأسفت. فقد كان الشياطين - الحراس يصعدون المرتفعات بعيداً تحتي يقتفون أثري كالقمل فوق درزة الخيط، ويريدون إعادتي مرة أخرى إلى جحيمهم ذاك. كلا! لن أتوقف عن السير بعد هذا، وأنا لم أتعب، لأنني أردت أردت، وحلمت، وتعطشت إلى بلوغ ذروة الجبل ولو مرة واحدة. ذروة عالمي وأحلامي وأوهاني!

بدأ لي أن ذروة الجبل قريبة! كنت أمشي وأتسلق وأزحف. أما الذروة - فهي أعلى. ثم واصلت السير مجدداً، من دون أن يهدني التعب، وصعدت إلى الأعلى مجدداً، وفقط إلى الأعلى. ومجدداً كانت الذروة أعلى. وأخذت أمشي بسرعة وبإصرار أكبر، لعلمي بأنه بقي القليل، القليل من

الصبر، وأتغلب على نفسي، - فهي تستحق ذلك. ولم أصب بخيبة الأمل! أي منظر، وأي رحابة، وأي رياح، وأي حرية- لايوجد شيء أعلى، الشمس فقط. ولا ترى تلك الشياطين، لا يرى أي أحد. منظر هائل لا حدود له ورائع. ونهر كبير ومهم - بيتشورا. والروافد فيه. والغابات! والفيافي! الكون، ألعالم بأسره!

لقد هللت فرحاً ورقصت وصرخت. لكن بدا أن الشمس قد تعبت، ومالت إلى الغروب، فجلست، جلست كما علمني معلمي، بهيئة زهرة اللوتس، والساقان متصالبتان إحداهما فوق الأخرى، بغية ألا يتسرب البرد إلى جسدي. وبعد الغروب ازداد البرد القارس، واشتدت الرياح وخيمت طلائع الظلام على الكون، وغلب عليه اللون الرمادي، وأصبح بلون واحد، وكئيباً، وبقي في منخفض النهر فقط بعض الألق. وفي نهاية المطاف تعلقت الشمس عند الأفق بإصرار، كم لو أنها لا ترغب في فراقي إلى الأبد. وأظن أن هذا الغسق يعتبر لهذا السبب نهاية كل احتفالية، وكان رائعاً ولا ينسى ولامثيل له... رحلت الشمس، ورحلت معها الحياة - فقد أحسست في قذالي بفوهة البندقية الباردة. لكنني لم أستطع النهوض- قدماي ليستا قدميَّ، فقد تخدرتا، وتجمدتا، وأرادتا البقاء متجمدتين مع ذروة الجبل إلى الأبد. سحلوني إلى المقلع إلى جحيمهم. إلى الأبد. إنه القدر...

تم بعد ذلك ترحيلي إلى مدينة بيرم، وزجوا بي بصفتي من عتاة المجرمين في زنزانة انفرادية، في زنزانة ضيقة جداً ورطبة وباردة. كان الطعام رديئاً للغاية. ولم يسمح لي بالخروج لاستنشاق الهواء إلا مرة واحدة في كل أسبوعين، وكنت هناك وحيداً أيضاً. في البداية أحسست بالضيق جداً، ولكن تماريني أنقذتني كما أعتقد. زد على ذلك أنني كنت فتياً- وصمدت مائة يوم، وبعد ذلك جرت محاكمتي، أي ما يشبه المحاكمة. وأضيفت إلى محكوميتي محاولة الهرب - وصدر الحكم بإضافة سبع سنوات من الأشغال الشاقة إلى محكوميتي الأصلية. وبعد الزنزانة الضيقة - نقلت إلى السجن العام، وهو ليس منتجعا طبعاً، ولو أنني لا أعرف ما هو المنتجع، لكن أصبحت الحياة حرة تقريباً. حقاً إنني اضطررت هناك أيضاً إلى الكفاح، كما يقال، من أجل الحصول كما يجب على «مكان تحت الشمس». لكنني بحكم وضعي كمجرم أصيل، وبروحي -الطبع القاسي والصارم والانتقامي. هذا الأخير يتعلق فقط بمن وقف في طريقي ومن يسلك، حسب اعتقادي، سلوكاً لا يليق بالرجال، أو بالأحرى غير عادل. واستفسرت عن الخمسة الذين طاردوني في بيتشورا. وقد تبين أن أي واحد منهم لم يستطع الخروج من تحت الثلوج المنهمرة، ولم يحاول أحد منهم الخلاص. وعثر على جثثهم في الربيع فقط، بالصدفة، وقد مزقتها الوحوش. بالمناسبة فقد عفوت عن آمر الحرس في المقلع الذي صافحني سراً بمنأى عن الجميع. بينما لم آسف على مدير المعتقل الذي دبر كل تلك الهجمة مقابل دفع النقود إلى السجناء، وخانني. ففي أثناء التحقيق عملت كل ما في وسعي من أجل إلقاء كامل المسؤولية عليه. لقد كان آنذاك زمن الحرب العصيب. كان يجري البحث في كل مكان عن الأعداء والجواسيس والمخربين ومروجي الأراجيف والخونة. بينما كانت هناك حاجة إلى الأيدي العاملة بالسخرة. صفوة القول، ربما كنت السبب، ولكن في أغلب الظن إنه رجل خسيس وبلشفي - قاتل، وتم زج هذا الآمر في السجن. وزج به في سجن خاص برجال الشرطة، وكان لدي أعوان هناك - وبعثت إليهم رسالة - ففتكوا به! وهل يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك؟ وما كان بالإمكان أن يحدث غيرهذا. فالزمن هو زمن الجوع، والجوع الشديد. وفي مكان تسود فيه المصائب والموت والفوضى وطغيان أكثر الأيديولوجيات خساسة في الحضارة البشرية وهي -

البلشفية صنو الفاشية. وإذا ما كان الناس يعانون الأمرين حتى في خارج السجون، فكيف يمكن تصور أحوالهم في داخل السجن؟ وكما يقال يجب العيش مع الذئاب وفق قوانين الذئاب. فإما هم وإما أنت: أي مسألة البقاء أو الفناء. وطبعاً يمكن التظاهر بأنك فأر رمادي، وعندئذ تستطيع البقاء بشكل ما. لكن هذا الخيار ليس سهلاً بالنسبة إلى الشيشاني. أنا لا أستطيع شرح ذلك في كلمتين، وإلا لن أستطيع - أقول فقط إننا، لحسن الحظ أو لسوء الحظ، لم نعرف ولم نتقبل نظام القنانة، أما سلطة البلاشفة - فهي من أسوأ أشكال العبودية، إنها القنانة السوفيتية الطابع. ويمكن في هذا النظام الاجتماعي أن نحيا على الهامش فقط. هذا بالرغم من أن من الواجب التكيف مع جميع الظروف، يجب الصبر، ويجب من حيث المبدأ الاحتفاظ - بالعادات واللغة قبل كل شيء - أما البقية فيمكن استبدالها، وقبولها، والعيش كما يعيش البقية. عندئذ ربما كانت حياتي ستمضي في مجرى آخر.. حقاً، لا آسف على شيء... ولم أطبق أبداً المبدأ اللينيني «خطوة إلى الأمام، وخطوتان إلى الوراء». لقد كنت طوال حياتي أمضي إلى الأمام فقط وحتى النهاية، ولو أنني أصبحت في نهاية حياتي وحيداً. إنه المصير. وأكرر، لا آسف، ولا يوجد ما أخجل منه. ولو يتبقى الشعور بالذنب- أنني لم أستطع الحفاظ على أخويّ. فقد تم إرسالهما منذ بداية الحرب إلى الكلية العسكرية، ثم تم إرسالهما إلى الجبهات. وقد فقد أثر الأخ الأصغر منذ مطلع عام 42. وجرى حتى بعد الحرب استجوابي بهذا الصدد - فيما إذا توجد لدي أي معلومات عنه... ثم ترددت رواية مفادها أنه وقع في الأسر، وقد هرب وهو يعيش إما في أمريكا الشمالية أو أمريكا الجنوبية. وليس بوسعي سوى أن أحلم بهذا: وسينهار الاتحاد السوفيتي إن عاجلاً أو آجلاً (فلا يمكن أن تبقى العبودية هذه إلى الأبد)، وسيتم تحريري، وسأسافر حتماً من هنا إلى حيث يقيم أخي. وسأستجم على ساحل المحيط الدافئ ثم أعود من أجل أن أموت في القوقاز، في موطني بلاد الشيشان العزيزة، في جبالي. لكن وردت لي رسالة في عام 1971 جاء فيها أنه في أثناء الحفريات في ضواحي كييف عثر على قبر، ووجدت هناك في خرطوشة جوفاء رسالة معنونة: «الى أخي زيبا دادويف من الملازم دادويف...».

قال زيبا وقد انهمرت الدموع الآن من عينيه: - لقد بكيت آنذاك كثيراً. فقد كنت آمل في أنه ما زال حياً ولن تنقطع سلالتنا. أنا حتى لم أحاول البحث عنه وخشيت أن يلحقه الأذى. لكن تبين أنه فارق الحياة منذ وقت بعيد: وقد تحول إلى تراب في قبر بلا اسم...

جلست مع زيبا طوال الليل تقريباً. استدعى يجور الطبيب الذي أصر على أن يعود ابن بلدي إلى المستشفى. لكن زيبا رفض ذلك بشكل قاطع - فلديه ضيف عزيز، شيشاني! كان الوقت متأخراً جداً، وبدا التعب على زيبا بجلاء، وظننت أنه أراد قول شيء آخر مهم، لكنني سألته عندئذ: -

- ماذا حدث لأخيك الآخر؟ بانت عليه علائم الحزن أكثر، وطأطأ رأسه:

- لقد سار في طريقي.. هيا دعنا ننام. أنا تعبت، بينما يجب عليك العودة في الصباح.

في اليوم التالي ودعني زيبا شخصياً إلى رصيف المرفأ. ففي الصيف يعتبر النهر الصلة الوحيدة بالعالم الخارجي، ولهذا تحشد هناك جمع كبير من الناس. وأنا لم أر في حياتي أبداً مثل هذا الاهتمام والاحترام الذي أبداه الناس إلى زيبا هناك.

- مرحبا، زيبا!

- كيف الصحة؟

وقال له الجميع: - اعتن بنفسك.- وحياه القبطان من سطح العبارة وأمر بإطلاق الصفارة تحية لزيبا. احتضنني زيبا بقوة لدى توديعي.

مرشال (مرشال - تعني الحرية باللغة الشيشانية) إلى أرضنا.- كانت هذه آخر عبارة رددها، وقد تنبأ بكل شيء وتحسسه مسبقاً - بقي واقفاً على الرصيف حتى غابت عبارتنا وراء قمة الجبل الشديدة الانحدار.

التقيت زيبا مرة أخرى، وحدثت مشاكل. والآن أنا آسف جداً لكوني لم أبق معه آنذاك ليوم أو يومين، وقد طلب مني ذلك - لقد وجدت آنذاك، كما تبين، مشاغل ما لا قيمة لها، ومجرد الهرج والمرج قبيل السفر. علماً بأن زيبا كان شخصية أسطورية من حيث المغزى وفي دوائر معينة. آنذاك كثر الحديث عنه في ذلك الإقليم. وأريد أن أذكر ما رواه لي أحد المسافرين معي في ذلك اليوم. فقد اقترب مني شيخ هزيل الجسد جداً، وطويل القامة، محدودب الظهر، ذو لحية بيضاء تميز المثقفين. وقدم نفسه - اليكسي نيقولايفتش من لينينجراد، من أسرة نبيلة عريقة. لكن هذا كان في الماضي. ومهنته - مؤرخ، والآن يدرس مادة التاريخ في المدرسة. وقد دفع ثمن التاريخ، التاريخ الصادق، يومذاك في عام 1937 أيضاً، حيث صدر عليه الحكم بالسجن 20 عاماً. وبعد وفاة ستالين سمح له بالإقامة بحرية في هذا الإقليم. وتزوج هناك، وكون أسرة لأنه لم يتبق لديه أحد ولا شيء في لينينجراد. وفي البداية استفسر اليكسي نيقولايفتش عن صلتي بزيبا. وعندما عرف بأنني تعرفت على زيبا لأول مرة قبل شهر ونصف، والتقيته في المرة الثانية أو الثالثة، أبدى دهشته.:

إن زيبا شخصية فريدة من نوعها، وحتى يمكنني القول إنه إنسان فذ - بدأ اليكسي نيقولايفتش حديثه بعد أن أبعدني جانباً، حيث لا يوجد كثير من الناس ولا يسمع ضجيج المحرك - علماً بأنني بصفتي مؤرخاً قد درست في حينه سيرة حياة جنكيزخان. وأقول إن الخصال الرئيسة لديه كانت تتمثل في الذكاء والجرأة والعدل والتواضع. وكانت مكانة جنكيز خان عظيمة لدرجة أنه كان يستطيع أن يرسل مبعوثاً له إلى مسافة عشرة الآف فرسخ مع الأمر بقطع رأس حتى أحد الوجهاء

المحليين أو أحد القادة العسكريين، لقاء ما يستحقانه من عقاب، وينفذ هذا الأمر من دون أي اعتراض. لكن الحظ لم يحالف زيبا - فلم يولد في المكان أو الزمان المطلوبين. لو توافرت لديه منذ البداية الظروف والإمكانيات العادية في الحصول على المعرفة لأصبح شخصية بارزة، بل لنقل أصبح عالماً. فهو يتمتع بذاكرة فذة، وبقوة جسدية غير طبيعية وبالإرادة وبالطموح. وقد سمعت الأحاديث عن زيبا بصفته أسطورة لصوصية في المعتقل في أواخر الأربعينيات. وكنت اعتقد أن اسم زيبا هو كنية لص، لكن تبين أن هذا هو اسمه الحقيقي. وفي أواخر عام 1951 ترددت إشاعة في المعتقل بأن زيبا سيرسل إلى المنفى. وكنت آنذاك في معتقل كارلاج في المنجم. ولا أدري كيف بقيت على قيد الحياة. ظروف المعيشة سيئة. العمل المجهد الذي يمارسه العبيد. والطعام رديء للغاية الذي يستحوذ عليه اللصوص وذوو المحسوبية. علماً بأنهم يشكلون نسبة اثنين أو ثلاثة من العدد الإجمالي للمعتقلين - والأغلبية تتألف من الأنذال وأصحاب الوشايات وشذاذ الآفاق. قصارى القول، إنهم من المجرمين. وهم يصدرون أوامرهم على الجميع. وكنا نحن المساكين لا نحصل على الظروف للمعيشة. كان عدد المرضى كبيراً جداً - الأوبئة، ويموت السجناء بكل بساطة. عندئذ نفد صبرنا - فقد تمردنا نحن السجناء العاديين، وبلغ عددنا في معتقلنا وحده ما يربو على عشرة آلاف سجين. ولم تجد نفعاً معنا أي تهديدات وإقناعات ومباحثات. لقد حدث تمرد. إنه تمرد روسي متميز حين يبلغ الأمر آخر حد له. ومما يؤسف له أنه لم يكن بالمستطاع القيام بمثل هذا التمرد على نطاق البلاد كلها- عندئذ كانت الحياة ستتغير، ولأصبحنا نعيش كبشر وليس كأقنان. لكنني أقول هذا بالمناسبة. وقبيل مجيءزيبا إلى هناك حدثت بين اللصوص عندنا خلافات ومذابح، وذبحوا حتى زعيمهم - ما دام لا يستطيع السيطرة على الوضع فهو لا يصلح كزعيم. ويومئذ ترددت الإشاعة حول مجيء زيبا. ما العمل؟ لن يذهب أحد إلى المنجم، وسنخنق من يذهب إلى هناك. ولن يزج بالجميع في السجن الانفرادي. وحتى إذا زج بهم في السجن الانفرادي سيكون أفضل من الجوع والبرد والعمل المرهق والغاز الخانق والاستهزاء السائد تحت الأرض. ولن يجدي نفعاً أي زيبا، لا سيما وهو شيشاني، وحتى ستالين لن يستطيع إصدار الأوامر علينا. كنا نحمل الحقد ونعاني من الجوع، وبلغت أحاسيسنا ذروتها، ووحدنا التمرد. ولن يجرأ على الاقتراب منا الرؤساء في المعتقل ولا ذوو المحسوبية - فقد قتل بعضهم، وسنقتل المزيد، وسنموت نحن أنفسناً، ومن يقم بخطوة إلى الوراء من بين أفرادنا فلن نرحمه، وقد قضينا على أكثر من فرد. هذا تمرد. ولا يوجد شيء في الدنيا أفظع من تمرد المعتقلين الروس. فهو الأكثر قسوة ولا يعرف الرحمة. ولم يوجد خيار آخر. نحن نتطلع الآن إلى الحرية، ولسنا بحاجة إلى المفاوضات! لا يوجد أمر خلاف ذلك. ولن يستطيع أحد اجتياز متاريسنا، وسنقف وقفة رجل واحد...

عندئذ وصلت العربة التي تقل السجناء. وفيها زيبا. وزج به ليس مع ذوي المحسوبين واللصوص بل في السجن الانفرادي، وقد رأى بعضهم، كيف قام في قطاع النزهة بحركات دورية. كان وسط ذلك الزمهرير يسير عارياً حتى الحزام، ومارس رقصات صينية ما غير مفهومة. ثم اعتزم المجيء إلينا قبل غيرنا. وهذا ما حدث فقد اقترب من عنبرنا فوراً. لو كان أحد الرؤساء في المعتقل أو أحد زعماء اللصوص لأحاطت به حاشية، لكن حدث بالذات العكس. لقد جاء وحيداً. سار بثقة وبهدوء. وبدا أنه يرتدي زياً مثل أزيائنا جميعاً - معطف دافئ وكساء، لكنها ليست مماثلة لما لدينا - إذ كانت من قماش من نوعية أخرى متميزة، وتمت خياطتها لكي تناسب قيافته. بينما اعتمر قبعة من فرو الضأن الفضي الغريبة الشكل، ولبس في قدميه جزمتين يحسده عليهما حتى

مدير المعتقل - فهما طويلتان ومن جلد الكروم الصقيل. واعتلى بخفة وبحزم خندقنا وتطلع من الأعلى إلى الجميع. وحاول أحدنا، الهزيل البنية والمعتوه لحد ما وخزه بقضيب حديدي، فتصدى زيبا لهذه الهجمة بخفة وحتى بلا اهتمام. لكن الرجل الهزيل تمادى في موقفه ورفع سلاحه مجدداً. وفي هذه المرة أصبح القضيب الحديدي ببساطة جداً وبسرعة بيدي زيبا. ورماه وراء المتاريس ورنا من موقعه في الأعلى، وقد أربد وجهه، بنظرات صارمة نحو الجميع وقال بصوت رنان:

مَنْ الرئيس هنا؟.. الرئيس من هو؟

لم يكن لدينا عندئذ أي رئيس بل تشكل ما يشبه اللجنة، لكن زيبا أمر بحلها:

- هيا إلى الاصطفاف!.. وبسرعة...!

من أنت؟.. اذهب الى...

تعالى الصراخ واللغط مجدداً. كان زيبا يتطلع بإمعان إلى الجميع من موقعه في أعلى المتاريس. وعنبرنا - مائتان وخمسون شخصاً، والجميع في حالة غضب ومتلاحمون في المصير الذي لا يطاق. بينما جاء المدعو زيبا، وحيداً. لكن تبين فيما بعد أن زيبا ليس رجلاً جسوراً وقوياً فقط بل هو تكتيكي مرهف وسيكولوجي.

رفع يده وقال:

- استمعوا إليَّ! أنا - زيبا دادويف. أنا مثلكم جميعاً. أنا في السجون منذ عدة سنوات، وبقي لدي ما يعادل الضعف - ولغرابة الأمر كان يتحدث بلهجة غير عامية وبلا أقوال فاحشة. - ترون أنني سأبقى هنا فترة طويلة، إذا لم يكن حتى النهاية. لهذا أريد مثلكم بأن تتوافر هنا ظروف طبيعية بهذا القدر أو ذاك. وستتوافر، إنني أعدكم بذلك.

تعالى الصراخ مجدداً: - ومن أنت؟ اذهب الى...!

- دعه يتحدث.

بلا ضجيج!- خاطب زيبا المضربين، لكن الشتائم الموجهة إليه لم تتوقف، وواصل كخطيب مفوه قوله: -

- سأبلغكم أمراً إذا لم تعرفوا به بعد. المعتقل المجاور أعلن الإضراب أيضاً. وهناك يوجد أيضاً عشرون عنبراً فيها مائتان وخمسون فرداً. وقد اكتشف في اثنين من هذه العنابر مرض التيفوئيد- وتم إضرام النيران فيهما. فهل توجد هنا أصابات بالتيفوئيد؟ وبدا هناك أن المرض غير موجود لكنهم أضرموا النيران فيهما... مذا لو تفشى المرض في جميع أنحاء البلاد؟.. لن يهتم أحد

برعايتنا- سنرى ما سيحدث بعد يوم أو يومين. هل تعلمون كيف يحترق هذان العنبران. لن ينجو أي واحد منكم فوق هذه المتاريس. أنتم أقمتموها من أجل أنفسكم.

صرخ أحدهم في الحشد: - لقد أرغمنا على ذلك اللصوص وذوو المحسوبية. إنهم لا يفعلون شيئاً بأنفسهم، وهم يستحوذون على كل شيء لدينا، وحتى لا يسمحون لنا بتناول الطعام..

قال زيبا: - مهلاً! لقد فهمت، لست أنا ولستم أنتم من ابتدع ذوي المحسوبية واللصوص. لقد وجدوا وسيبقون هنا. لأن الإدارة تحتاج إليهم. ولا مهرب منهم، لأنه حتى في المنحل، حيث يعتبر العمل الشيء الرئيس، توجد ذكور النحل العاطلة عن العمل، فهذه حال الطبيعة. لكنني أعدكم بأننا سنوقف ذوي المحسوبية عند حدهم ولن نسمح لهم منذ الآن فصاعداً بأن يمسوا طعامنا الزهيد أصلاً وغيره. لكن يجب إزالة المتاريس بسرعة والعودة إلى النظام المألوف.

تعالى الصراخ مجدداً: - ليذهب الى... اضربوا النذل، هذا الشيشاني القذر.

ورفع زيبا يده مرة أخرى:

- مهلاً - وراح يتفرس في وجوه الجميع - أرى أنكم تريدون التخلص من بعض ذوي المحسوبية، بينما سيظهر في أوساطكم جدد.. فمن هم؟

لقد كان هذا الشخص هو جاروف، السجين الضخم الجثة، وكما لاحظ زيبا، فهو أراد فرض سيطرته وقوته على الآخرين، فأجاب على قول زيبا:

- لا تفرض نفسك من هناك في الأعلى. إذا كنت شاطراً بهذا القدر فانزل. وسأريك وأمك...

- قال زيبا: - هذا أمر يفوق الحد.. وجدي. يجب أن يقابل التحدي كما يجب... ومضى اليكسي نيقولايفتش قائلاً: - أنا أذكر بأي حيوية وحشية هبط زيبا من المتراس. وتراجع الجميع أمامه، وحينما مر بجانبي، أثار عجبي بأكبر قدر لون بشرته - فهو معافى بطبيعته وحتى يفيض حمرة. فالجميع هنا، حتى الحراس بلون بشرة يميل إلى لون التربة الصفراء. أما زيبا الفتي، في عنفوان الشباب، فكان يمضي بسرعة وبقوة كما لو تنبعث منه موجة من الريح ودفقة من الطاقة... ولم يفهم أحد ماذا فعل زيبا، لكن جاروف بقي منبطحاً على بطنه، ورقد في لحظة خاطفة أيضاً اثنان من أعوانه اللذين حاولا دعمه. وفيما كان الجميع مصعوقين بما حدث، أصدر زيبا الأمر:

اسحبوا هؤلاء إلى العنبر.. وهيا إلى الاصطفاف!

بعد يومين جاء زيبا إلى مطعمنا في أثناء الإفطار وسأل:

- كيف الحال؟ كيف الطعام؟

فأجبنا سوية كالجوقة تقريباً: - كل شيء على ما يرام. بصورة جيدة.

وفعلاً أصبح الوضع أحسن بقدر كبير ولو أنه وضع المعتقلات. ودنا زيبا من خلف جاروف الجالس وهمس له، كما سمعه جيرانه، قائلاً: - «يجب الاعتذار عن فاحش القول وهاجر الكلام، وسأنتظر فترة يوم آخر». ويبدو أنه لم يحدث أي شيء، ولم يوجد غرباء في العنبر، لكن جاروف لم ينهض في صباح اليوم التالي. وصرنا نضرب أخماساً بأسداس، وجاء في إحدى الروايات: ربما فارق الحياة من الرعب.. علماً بأن زيبا لم يتبق معنا في المعتقل. فقد كان يجري نقله على الدوام من مكان إلى آخر. وهذا أصعب شيء بالنسبة إلى السجين. لكنه تحمل كل شيء تقريباً. كان الجميع يكنون له الاحترام البالغ، ويروون الأساطير عنه، لكن وجد لديه أعداء طبعاً، وكان لابد من وجودهم في أسلوب حياته هذا. وحينما كان هؤلاء الأعداء عاجزين عن إلحاق الأذى به نفسه كانوا يفعلون أموراً مغايرة - تتسم بالمكر الشديد، وبالمناسبة كحال جميع اللصوص.

لقد تبين أن لدى زيبا أخاً من المقاتلين في الجبهة. وقد أرسل شأنه جميع أبناء الفايناخ إلى كازاخستان في عام 1944، وزج به في السجن لقيامه بعمل ما لا يروق إلى السلطة السوفيتية. ووجد في المعتقل بالذات أعداء زيبا - ولم يكتفوا بقتله، بل وبالتمثيل بجثته وقطعوا عضوه الذكري وأرسلوه إلى زيبا كهدية. وكان ذلك ضربة موجعة وكاملة إلى نفسية زيبا وكذلك إلى سمعته ومكانته. إن أمثال زيبا لا يمكن أن يوجدوا إلا كشخصيات مرموقة، وسيبقى كذلك حتى آخر أيامه، وإما يصبح جثة ويحل محله شخص آخر في عالم المعتقل اللصوصي هذا. لقد كان ذلك تحدياً آخر صعباً جداً في مصير زيبا، وقد قبل هذه التحدي وعمل ليس كما فعل أعداؤه بل كما يجب أن يفعل ويفعل زيبا فقط.

لا أعرف كيف - وأمور كثيرة في عالم المعتقلات غير معروفة وغير مفهومة - فقد سعى زيبا لنقله إلى المعتقل الذي جرى التمثيل بجثة أخيه فيه... طبعاً إن من يهمه الأمر كان يعرف مسار رحلته. وقد وجد في ذلك المعتقل ليس الأعداء فقط، بل والأصدقاء المقربون، الذين قدم لهم وكذلك أسمى الخدمات الطيبة إليهم. وأكثرهم من أبناء القوقاز، وطبعاً من أمة الوايناخ - الشيشان والإنجوش الذين استعدوا أيضاً لمجيئه.

دبر زيبا المشاحنات، وأقام مذبحة - لم يرحم أحداً، أما عدوه الرئيس، ولقبه تشيرني باراس - فقد نجا، فهو مطلق السراح، ومن هناك يرسل التهديدات. بينما أقسم زيبا على أن ينتقم منه. ولكن كيف؟ فزيبا في المعتقل، بينما هذا مطلق السراح. ويقال إن زيبا دبر كل شيء، واشترى ذمم الجميع. وطبعاً، لا يمكن عمل شيء بلا هذا..

أقام باراس في بلاجوفيشينسك، وقد نقل زيبا إلى هناك بصفة شاهد لدى النظر في إحدى القضايا الجنائية. وعندما جرى نقله في شاحنة السجن إلى المحكمة أفلح في الهرب. ومفهوم أن باراس علم ذلك، وأدرك لمن تدق الأجراس، وتملكه الخوف، ولم يغادر بيته وحتى طلب من دوائر الأمن توفير الحماية له. ومفهوم أن رجال الشرطة كانوا يبحثون أيضاً عن زيبا، واعتبروا باراس بمثابة الطعم، ففرضوا الحراسة على بيته ليلاً ونهاراً. لكن وجد أصدقاء لدى زيبا في كل مكان، وكان مطلعاً على وضع الأمور. بيد أن رجال الشرطة لم يستطيعوا إلقاء القبض عليه بالرغم من توزيع صوره في كل مكان بوصفه مجرماً - قاتلاً متأصلاً في الإجرام. بينما لم يتعرض أحد إلى باراس. وترددت إشاعة بأنه تم العثور على زيبا، وأبدى مقاومة لدى إلقاء القبض عليه، ولقي حتفه.

ونشرت حتى الصحيفة المحلية مقالة عنه. فهل صدق باراس هذه الرواية؟ هيهات. فقد وجد لديه مخبرون أيضاً، ولهذا لا يغادر بيته، وبقيت الحراسة عليه كالسابق. سكون. أما زيبا فقد ضاع أثره. كما لو هبط إلى أقصى قاع، ولا يعرف أي شيء عنه. ومضت الأحوال بهذه الصورة طوال أكثر من شهرين. وفجأة ترددت إشاعات في أوساط اللصوص مفادها أنه بدأ في بلاجوفيشينسك نشاط مقامرين معروفين، ويدور اللعب على قدم وساق في بيتين ريفيين في الأطراف، والرهانات كبيرة. بينما يعرف الجميع إن باراس لاعب قمار لا يشق له غبار، كما أنه محتال، بينما يوجد هناك مغفلون، وهو بحاجة إلى النقود. ولديه روح المجازفة؟

لقد كان باراس من حيث المبدأ من زعماء الإجرام المحليين، وهو في الأحوال كافة في مدينته... بينما أعلن هنا عن وجود زيبا الهارب، ولكن باراس أصيب بالذعر، - ولا يكفي أنه لم يقبل التحدي، وأصبح تحت حماية الشرطة، بينما الآن تدهورت سمعته في عالم اللصوصية، وبغية استعادتها بشكل ما يجب الخروج إلى «النور». علاوة على رغبته في لعب القمار والكسب. فهذا وسطه وحياته وحماسه ومتعته. وهكذا غادر بيته سراً والواقع تحت الحراسة، واصطحب معه لغرض حمايته شقيقه الأصغر مع اثنين من أعوانه، من أمثاله من اللصوص، بغية فرض الحماية بالسلاح على البيت الريفي. وسنحت الفرصة إلى زيبا، حيث سارت الأمور كما حسب ودبر. لقد تحلى زيبا بالصبر وبرودة الدم - وحدد ما يمكن ويجب عمله، وقد فعل ذلك. ولم يكن لاعبو القمار هناك من اللاعبين السذج، بل من اللاعبين المحترفين الذين يتقنون مهنتهم. وكانوا يلعبون هناك قبل مجيء باراس فعلاً بمتعة ويخسرون ويكسبون. وعندما جاء باراس أصبحت قواعد اللعب أكثر صرامة: فأوراق اللعب جديدة، ويتم فحص كل شيء. وفي كل رهان - دستة ورق لعب جديدة. وتواصل اللعب من التاسعة مساء وحتى الثالثة بعد منتصف الليل. والرهانات كبيرة، وإذا لم يتوافر ما يكفي من المكاسب نقداً، يجري الحساب خلال يوم واحد. والجميع بلا سلاح. باراس وشقيقه واثنان من المنافسين. وثمة شخص آخر - كمراقب أو حكم، ويتولى تقديم أشياء مختلفة من الشاي المركز (الجفير) والكونياك إلى الأناناس والكافيار الأسود. وأدرك باراس مع من يلعب، وهنا لاتنفع حيله في اللعب في السجن، وأدرك أنهم يعتبرونه ساذجاً، بينما هو في مدينته وأرضه. وحاول مرتين تخويف اللاعبين القادمين، لكن بلا نفع، فاللعب هو اللعب، وهناك قواعد وهي تنطبق على الجميع على حد سواء. عندئذ تنرفز باراس وبعد مرور ساعة فقد جميع نقوده المدفوعة نقداً. وتراكم دين كبير، والدين في لعب القمار ليس مزحة. وقبل أن تمضي الأمور بعيداً قرر باراس العمل بحزم، ولا يوجد لديه خيار آخر: يجب القضاء على اللاعبين فحسب باعتبارهم من المحتالين. وفي منتصف الليل طلب باراس فترة استراحة للتدخين - ويجب عليه الذهاب إلى المرحاض الموجود في خارج المبنى. وبعد قضاء الحاجة هناك، أطلق صفيراً، ثم كرره مرة أخرى، لكن لم يجب أحد من أعوانه الذين كان من الواجب أن يكونوا في حالة تأهب. وأطلق الصفيرة مرة أخرى، وحينما لم يتلق جواباً، صرخ بصوت خافت:

- أين أنتم؟ اللعنة على أمهاتكم!

فظهر أمامه زيبا كما لو انشقت عنه الأرض: - أنا هنا.

إنهما لم يلتقيا قبل هذا أبداً، بل كانت مصالحهما تتقاطع فقط. لكن باراس، بالرغم من الظلام، وإطلاق زيبا لحيته، قد تعرف عليه، فأصابه الشلل بكل معنى الكلمة، وكان بوسعه القيام فقط بدعوة شقيقه مرة أخرى بصوت يفيض باليأس.

فقال زيبا: - إنهم يستجمون في الوهدة. هذا ما أبلغني به بلهاؤك... أما أنت الدنيء، ففي كل مكان دنيء. ماذا؟ ما دمت قد خسرت - قررت قتلهم؟

- زيبا، ارحمني، اغفر لي!

- هذا بيد الله. لكنك ستدفع ثمن ما فعلته بأخي...

وواصل اليكسي نيقولايفتش حديثه: - لا يعرف فيما إذا قام زيبا بـ«العملية» بنفسه أم ساعده أحد ما في ذلك؟ لكن ترددت إشاعة مفادها أن زيبا أرغم باراس أن يقطع بنفسه عضوه الذكري ويتذوقه، وعندئذ أجهز عليه... لقد عثر على باراس بهذه الوضعية بعد يومين. أما شقيق باراس ومساعداه فقد أطلق زيبا سراحهم من أجل أن يسددوا الدين لاحقاً. ولا يعرف أيضاً فيما إذا سددوه أم لا. ويعرف فقط أن شقيق باراس قد شنق نفسه في اليوم التالي. وربما ساعده أحد ما في ذلك.. وفي تلك الأيام جرت سرقة البنك والمتحف المحلي في بلاجوفيشينسك. ولم يعثر على المواد المسروقة والعصابة كلها - وهرب اللصوص عبر نهر آمور إلى الصين ومنها إلى مكان آخر. أما زعيم العصابة وبتعبير أدق زيبا فقد استسلم بنفسه. وترددت إشاعات كثيرة حول ذلك. ومجمل القضية أن زيبا رجل صارم لكنه عادل، ولم يسمح بإلحاق الأذى بأي أحد فحسب. بينما كان يزج في السجون والمعتقلات في أيام ستالين الكثير جداً من المثقفين والشخصيات المتنفذة الذين كانت حياتهم لا تطاق البتة في خارج السجون - فقد كانت تجري المحاولات باستمرار للاستهزاء بهم وتحقيرهم، لكن زيبا لم يسمح بإيذائهم. وطبعاً ليس الجميع لكن الكثيرين كانوا بعد إطلاق سراحهم يتولون مجدداً مناصب في الدولة والمجتمع، ولم ينسوا زيبا عندئذ. وفي أغلب الظن أن زيبا حين نقل إلى بلاجوفيشينسك، وهروبه لاحقاً، وحادث البنك والمتحف، لم يتم بلا معونة خارجية وبتواطؤ مسبق. لكن وضع شرطاً - يجب أن يعود زيبا حتماً إلى مكان «الإقامة»، وقد عاد إليه. وجرت محاكمته مرة أخرى، ولم يستطع أي أصدقاء مساعدته - فقد «لصقت» بزيبا جميع التهم، وحكم عليه بالإعدام. وفي تلك الأزمان كان الإعدام رمياً بالرصاص يتم بسرعة. لكن فيما يتعلق الأمر بزيبا تأخر ذلك لسبب ما. وانتشرت إشاعة مفادها أن نفقاً حفر من الخارج إلى زنزانة زيبا - وتم العثور عليه. ونقل زيبا إلى مكان آخر، وبدا أن لا مفر من تنفيذ حكم الإعدام رمياً بالرصاص، لكن تدخلت عندئذ السياسة: فقد توفي ستالين، ثم بدأت فترة الدفء الخروشوفية، وشمل زيبا العفو: وبدلاً من الإعدام صدر الحكم عليه بأقصى عقوبة - خمسة وعشرين عاماً في المعتقلات.

ما أكثر الأماكن التي نقل إليها زيبا - إلى الشمال، وإلى الجنوب، وحيث تسود الفتنة والاضطرابات، وحيث يتمادى اللصوص في وقاحتهم، وحيث يتطلب الأمر الحماسة في العمل أو مجرد الحاجة إلى تطبيق الخطة بصورة عاجلة فحسب... كان زيبا ينجح في العمل في كل مكان-

ويفرض في كل مكان الانضباط الشديد والصارم، القائم على مبدأ العدالة ذاك الذي كان ممكناً في منظومة معسكرات الاعتقال، وفي النظام السوفيتي الذي أنكر وجود الخالق وفرض العبودية والذل. وبمرور الأعوام توطدت وتنامت مكانة زيبا ونفوذه وشهرته حتى بدا أنه يمكن أن يصدر الأمر فقط لكي ينتفض ويتمرد نزلاء جميع المعتقلات في آن واحد.

لكن هذه المكانة الشخصية أصبحت خطرة. ووجب إيقاف زيبا «عند حده» لكي يكون ذلك عبرة إلى الآخرين و«حتى الإفراج عنه» لكي يتم إيقاف بقية الآخرين عند حدهم أيضاً. علماً بأن زيبا كان نفسه مذنباً في أمر ما. فمثلاً في مطلع عام 1957، حينما صدر مرسوم خروشوف حول عودة جميع الشعوب المهجرة والمضطهدة إلى مواطنها، ومن بينها الشعب الشيشاني، إلى الوطن، إلى القوقاز، أصدر زيبا مرسومه الخاص به - يحتفل جميع القوقازيين في يوم واحد ويبتهجون ويستجمون في الظروف التي تسمح بها المعتقلات. وقد نفذ هذا المرسوم في جميع المعتقلات تقريباً في يوم واحد وبصورة مختلفة. لكن النظام ما كان ليغفر له ذلك، فجرى نقل زيبا إلى أكثر معسكرات الاعتقال «الحمراء» بشاعة حيث يتولى منصب المدير العقيد ديمتشوك.

وديمتشوك - في عمر انقلاب أكتوبر، وربيب الثورة البلشفية وحامل «خيرة» تقاليدها. وقد كرر مأثرة بافل موروزوف. ولسبب ما لم يرسل إلى الجبهة، ربما لأنه رياضي، وملاكم من الوزن الثقيل، وحائز على بطولة جمهورية روسيا الاتحادية السوفيتية الاشتراكية، وكان بمثابة عميل إلى مفوضية الشعب للشؤون الداخلية في البحث عن الجواسيس والهاربين والمخربين ومجرد الأعداء. وقد وجد هذا العدو -فقد عاد إلى البيت بلا رخصة- أبوه المقاتل في الجبهة بعد إصابته بجروح والرقاد في المستشفى العسكري لكي يمضي عدة أيام هناك. فسلم ديمتشوك الابن أباه إلى السلطات. وكتبت الصحف عن هذه المأثرة الوطنية وأذيع النبأ من الراديو، وحصل ديمتشوك، ربما ليس فوراً، على رتبة نقيب وأرسل إلى خط الجبهة. حقاً إنه لم يشارك في القتال بل كان ضمن فصيلة «سميرش». وقتل وأهلك الكثيرين. وكان شديد القسوة وغليظ القلب. وحصل مقابل ذلك في نهاية الحرب على الكثير من الأوسمة والميداليات. وحاز على رتبة مقدم وحتى رشح لنيل لقب البطل. لكنه لم يحصل عليه وعندما انتهت الحرب، أراد أحد ما الانتقام منه فكتب وشاية بلا توقيع تزعم بأن ديمتشوك جاسوس إنجليزي. طبعاً جرت محاكمته في المحكمة، المحكمة السوفيتية الأكثر عدالة وإنسانية، ولم يتوافر الوقت للتحقيق في الأمر، وما دام قد خان والده فهو يمكن أن يخون وطنه أيضاً، زد على ذلك إن هذا الوطن بحاجة إلى قوة جسدية والسخرة - فلا بد من إعمار الخراب. فحكم عليه بالسجن لمدة عشرة أعوام. وأمضى ديمتشوك فترة ستة أعوام ثم شمله العفو في عام 1953 وأفرج عنه. واجتهد في البحث فعثرعلى مقالات قديمة عنه منها في جريدة «برافدا». وتمت إعادة الاعتبار إليه كلياً، واستعاد الرتبة العسكرية، وألحق بأجهزة الأمن مجدداً، وأصبح الآن من أفضل مديري معسكرات الاعتقال، لأنه يمتلك خبرة العمل في السجون. لقد كانت سنوات السجن ثقيلة الوطأة عليه جداً في حياته، وأراد من جانب الانتقام من الجميع، وحقده على الجميع، ومن جانب آخر حاول التعويض عما فات - والتمتع بمباهج الحياة الآن. وأعطى ديمتشوك الأفضلية إلى من يدفع له، ويتزلف له. وكان يقطع دابر أي تطلع إلى الفكر الحر. فهو الرئيس والسيد ورب البيت هنا - ويجب أن يأكل ما لذ وطاب وبصورة جيدة، وأن يلهو مع الفتيات، وأن يحافظ على اللياقة البدنية. وشيد لهذا الغرض حلبة في وسط المعتقل، لكي يراه الجميع وحتى

يصفقون له- فهو يحب ذلك جداً. حقاً، أحاط الحلبة بالأسلاك الشائكة، خشية ألا يهرب الخصم تحت وقع ضرباته. علماً بأن ضربته قوية ومتمرسة. ويبلغ طوله المترين ووزنه المائة والثلاثين كيلو جراماً. ومما يشرف ديمتشوك أنه كان يتحدى الأقوياء بهذا القدر أو ذاك (أما الضعفاء فكان يعاقبهم بالضرب فحسب في الزنزانة الانفرادية). وكانت هوايته الاستهزاء بالموظفين وكذلك من يسمون بالمثقفين. وعامل بقسوة على الأخص زملاءه السابقين، من رجال الأمن والشرطة، الذين ألقت بهم المقادير في معتقله. ولعل أظرف شيء دعوته إلى الحلبة العاملين التابعين له حيث يوجه الضربات إليهم بلا رحمة لقاء أي هفوة يقترفونها أو من أجل إعطاء العبرة إلى الآخرين.

وحدث أن وقع في قبضته، هو الذي كان بوسعه أن يقهر الثور، كما قيل، لا أحد غير زيبا. ويعرف ديمتشوك من الملف الشخصي للسجين من هو زيبا، وإنه أصغر منه بخمسة أعوام، وفي عنفوان قوته، وقرر ديمتشوك بصفته رياضياً سابقاً أن يرى عند طلوع الفجر وقبل أن يستيقظ نزلاء المعتقل، كيف يتدرب زيبا كعادته، - هذه حياته الحقيقية. لم يفهم ديمتشوك ما كان يفعله زيبا - إنها رقصات شرقية حسب الزعم، ولهذا كان يسخر منها في قرارة نفسه. إن زيبا ممشوق القوام، وأصغر منه حجماً بمقدار الضعفين وأخف منه في الحركة. وعندما سيوجه ديمتشوك قبضته إلى جبهة زيبا سيهرسه هرساً. بالإضافة إلى ذلك يرى ديمتشوك اللياقة البدنية لزيبا، ومرونته وخفته في الحركة، فهذا أمر لا يمكن بلوغه بيسر. وبغية التحقق من الأمر، وتسهيل المهمة، قرر ديمتشوك أن يزج بزيبا في الزنزانة الانفرادية بذريعة خرق النظام لمدة أسبوع. علماً بأن هذا أمر لا يطاق ويخلخل أي صحة- بسبب الرطوبة والعفونة والعتمة وجراثيم داء السل وغيرها من الأمور التي لا يعرفها سوى الشيطان، كما تقدم إلى السجين في الزنزانة الانفرادية كمية ضئيلة من العصيدة والماء النتن، والسجين يكون في وحدة شاملة، كما لو أنه قد دفن في القبر حياً.

بعد مرور أسبوع قرر ديمتشوك أن يزور زيبا شخصياً، فوجده بعينين متألقتين، وحتى يجيب بوقاحة - ومنح أسبوع آخر في السجن الانفرادي من صاحب الأمر والنهي. لكن ديمتشوك نفسه لم يصبر على هذا الموعد: فقد كانت قبضتاه تحكانه، زد على ذلك أنه لا متعة في القضاء على فرد شبه حي.

قال ديمتشوك باستعلاء: - أعطيك فرصة. إذا صمدت في الحلبة - ستحيا، حسب قدرتك، ستحيا. أما إذا صرعتك بضربة على جبهتك، فمعنى ذلك -هذا مصيرك!

لابد من إشارة إلى أنه سمح إلى زيبا بالاستحمام، لكي تغدو راحته مقبولة، وتم تغيير ملابسه -فهذا ما يشبه العرض المسرحي، وبعد ذلك وضعوا أمامه مائدة عامرة بالمأكولات- حسب معايير السجن تعتبر من المأكولات اللذيذة. طبعاً، كان زيبا جائعاً جداً، ولهذا تناول النزر اليسير من الطعام، واقتيد مثل الثور المحكوم عليه بالموت، أو بالأحرى العبد - المصارع الروماني، إلى ما يشبه الحلبة.

كان الوقت صيفاً. منتصف النهار. القيظ. كان العاملون في المعتقل يتطلعون من جميع النوافذ. وانتصب هناك برجان لم يكن في كل واحد منهما حارس فرد بل زمرة من الحرس. أما العنابر فكانت في مكان أبعد لكن جميع السجناء وقفوا على سطوحها. يالها من فرجة! أما ديمتشوك فكان

يريد استثارة الاهتمام ولهذا تأخر في الظهور في الحلبة. وبدا زيبا هادئاً، ويمارس رقصاته، ويتدرب. بعد مضي نصف ساعة ظهر ديمتشوك بمهابة. كان يرتدي الزي الرياضي. ويبدو أنه قام بتمارين رياضية أيضاً، أو تصبب العرق منه فحسب. مد ديمتشوك نحو زيبا ذراعه الضخمة القوية بطبيعتها وقبض على معصم زيبا بكل قوته، لكن هذا حتى لم يرف له جفن.

هتف ديمتشوك بصوت جهوري: - ماذا ترى؟ أنا سخي حيالك أيها القذر. إذا شعرت بالألم وطلبت الرحمة فسأخلي سبيلك، سأفرج عنك لتنظم إلى اللوطيين. ها-هاها! وستحيا مثل الديك...

فقاطعه زيبا: - أنت نفسك ديك!

وحاول تحرير يده، وبدأ الصراع بينهما مثل كلبين غاضبين، وبدأت عندئذ حركة دائرية كالدوامة، وتصاعد الغبار والبخار منهما، وعلى حين غرة اندفع زيبا الصغير الحجم كما لو تلقى ضربة حقاً من مطرقة ثقيلة في صدغه وانقلب رأساً على عقب وطار نحو الشبكة. أما ديمتشوك الضخم والحانق فقد تقدم نحوه بجثته الضخمة مثل جبل متحرك. واندفع لكي يجهز عليه بقبضتيه الكبيرتين. ولكن لم يفهم أحد شيئاً ولم ير ما فعله زيبا - فقد سقط ديمتشوك على أربع، وجأر كالثور الجريح، وخمد فى هذه الزمجرة وسط تهليل المعتقل كله. ثم صدرت طلقتان وساد.. السكون!

وتبين أن ديمتشوك المنهزم تقريباً قد استل من جيبه مسدس «والتر» صغيراً من غنائم الحرب. لكن زيبا رأى ذلك فأسقط المسدس بضربة من قدمه، ورفعه صارخاً «أنت الديك!» وأطلق رصاصتين على رأس خصمه.

وحسب القانون، ولو أي قانون هناك، كان من المفروض أن تعقب ذلك زخة من الرصاص. لكن لم تطلق رصاصة واحدة، بل بالعكس فقد أصدر المدير الجديد لمعسكر الاعتقال الأمر التالي: - لا تطلقوا النار!- ثم قال إلى زيبا: الق السلاح! انبطاح! ارفع يديك فوق رأسك! - وقد نفذ زيبا الأمر..

كانت مثل هذه الأحداث وغيرها تبقى قيد الخفاء في الاتحاد السوفيتي. وكيف يمكن إرسال ملفات مثل هذه الأحداث إلى المحاكم؟ زد على ذلك إن ديمتشوك نفسه كان مكروهاً جداً من قبل الجميع. وتم إعداد ملف التحقيق - الانتحار. بينما أرسل زيبا إلى مكان أبعد، إلى إقليم ماجادان.

.. لم يكن يسيراً جداً الحفاظ باستمرارعلى السمعة والمكانة الشخصية خلال الأعوام الطويلة التي أمضاها زيبا في معسكرات الاعتقال. لو كان أحد غيره لتراجع، وتخاذل، ولم يتحمل هذا التوتر، والماراثون، حيث لا يجوز الارتخاء والوهن لحظة واحدة - ففي كل مكان ينتشر رجال العصابات والمجرمون واللصوص الذين يخافونه ويحسدونه ويحقدون عليه ويحلمون بتولي «عرشه» ومكانته. لكن زيبا صمد، صمد بثبات وتمسك بالرغم من كل شيء بمبادئه، لكن رجال العصابات يتسمون بالمكر ويمارسون الأفعال الدنيئة. في مطلع السبعينيات استطاع زيبا السجين العتيد بفضل مكانته ونفوذه الانتقال من الجزر إلى اليابسة، ثم اقترب جداً من العاصمة حيث المناخ أفضل، والشيء الرئيس تتوافر هنا وسائل الاتصال السريعة. كما يتقرر كل شيء هنا، ويتحدد المصير،

لأنه جرى في عام 1975، بمناسبة الذكرى الثلاثين للنصر، الاستعداد لإصدار العفو العام، وكان زيبا الذي كبر حيث تجاوز عامه الخمسين يحلم بالحرية، وبالسفر إلى القوقاز، إلى جمهورية الشيشان، والزواج وربما سيكون له أبناء وأسرة، لكي يحيا بقية حياته بصورة طبيعية. وبالرغم من السن والظروف فقد احتفظ بلياقته البدنية، وكان يواصل التدريبات يومياً، وفي الختام تم نقله مجدداً إلى المنطقة «الحمراء» في أطراف موسكو، حيث تحشد جميع الأوباش وأصحاب الوشايات، كما منع زيبا هناك من ممارسة تمارين كونغ- فو - فالنظام هنا صارم. لكنه كان يقوم بالتمارين في الأحوال كافة. كان المكان هو مقلع، وسقائل الإنشاءات التي تقام حول موقع تفتيت الحجر. وكان زيبا يتسلق هذه السقائل ويتمطى حتى يصل إلى أعلاها ويهرول فوق الألواح الخشبية. ويحتفل في معسكر الاعتقال بيوم راحة نادر هو عيد النصر. وقد تسلق زيبا كالعادة هذه السقائل في وقت مبكر. وتبين أن السجناء نشروا الألواح بعناية فوق فوهة أنبوب ماكينة تفتيت الحجر مباشرة، وحيث اعتاد زيبا الهرولة دوماً. إن السجناء يجيدون العمل بعناية وبدقة. فسقط زيبا مثل كرة البليارد في فوهة هذا الأنبوب. وكان اثنان من السجناء من اللصوص يقفان في المناوبة في تلك اللحظة فضغطا على زر «التشغيل». وبدأت آلية تفتيت الحجر العمل بهدير وبضجيج. وكان المتوقع أن يتحول زيبا إلى لحم مفروم، بينما وجد هناك خليط دموي ما.. لكن لم يكن ذلك زيبا وحده. ودهش السجينان حينما حاولا التطلع إلى الأسفل - فلم يشاهدا أي شيء. وصعدا إلى الأعلى، وتطلعا من هناك فصعقا. إن قطر آلية تفتيت الحجر يبلغ نحو المتر ونصف المتر، وكان المفروض أن يسقط زيبا فوق أرياشها مباشرة. إنها تعني الضربة المفاجئة والقوية، والنهاية الحتمية والرهيبة. إنها مثل رحى «جهنم» تقريباً. لكن هذا هو زيبا! أنه زيبا نفسه، هنا، وفعلاً، بجسده المعافى، وبتعبير أدق بروحه القوية والصامدة. طار زيبا مسافة أربعة أمتار. وكان المفروض أن لا تجعل الضربة جسده يتجعد وأن يقوم بحركة ما، وألا تكون الضربة خفيفة، والوضع - قدري. لكن يبدو أنه جعد جسده فوراً وحاول الصراع: وتشبث بساقيه وبيديه بجدار الأنبوب وبدأ بالصعود، ولكنه لم يفلح في الخروج فقد بدأت مفرمة اللحم بالعمل - آلية تفتيت الحجر، وتلوثت أرياش الآلية بدم زيبا- يبدو أنه أعجبهما لدى التسارع جذب مفرمة اللحم الضحية إليها، وقد جذبته الجاذبية الأرضية، ولم يكن يرغب أن يلقى مثل هذا الموت ولا يستحق مثل هذا المصير - لذا تسلق صاعداً إلى الأعلى ووصل إلى هناك حين كان السجينان يتطلعان في الأنبوب. وصعق حتى هذا السجينان الدنيئان اللذان كابدا جميع مصائب الدنيا. وسقط أحدهما فحسب لدى رؤية هذا الخليط، وراح يتقيأ، ثم هرب صارخا:

- هذا الشيطان، الشيطان! ياللفظاعة!

أما الثاني فكان أكثر اصراراً، وحاول إعادة زيبا إلى الأنبوب، وربما ساعد في ذلك زيبا الذي تشبث به حتى بأسنانه، وخرج نفسه، وأسقط ذلك السجين في مفرمة اللحم الجائعة والصاخبة.

إن أي شخص كان سيموت بسبب فقدان الدم. لكن زيبا تمتع بقلب قوي، وبجسد متين البنيان. طبعاً إن جميع العاملين في معسكر الاعتقال وليس السجناء فقط قد صعقوا وتأثروا لما حدث. وحاول الجميع تقديم المساعدة، وتم استدعاء الأطباء من المستشفى القريب في المدينة، وحينما تطلب الأمر توفير الدم له وقف طابور طويل للتبرع بالدم، وجمع السجناء الفقراء النقود لمعالجة زيبا. وحينما

انتشرت إشاعة في منتصف الليل بأن زيبا فارق الحياة، اهتاج معسكر الاعتقال كله. ولم يكن ذلك تمرداً واحتجاجاً - بل كان تحدياً. ومجرد أراد كل سجين يحترم نفسه، بهذا القدر أو ذاك، أن يصبح لليلة، ولو لساعة أو حتى للحظة جريئاً مثل زيبا، ورجلاً فحسب. ومناضلاً. وقد عرف جميع من وقف ضد زيبا. وبحلول الصباح جرى تمزيق وخنق الجميع، وحتى أكثرهم نفوذاً وسطوة ممن أقسم زيبا لهم في العشية يمين الولاء. لكن زيبا بقي على قيد الحياة. وفقط نظراً لوجوده في أطراف موسكو، حيث يقطن أناس ذوو نفوذ، وبينهم أساتذة - أطباء، شاءت الأقدار أن يتعرف زيبا عليهم في السجن، وقد وفر زيبا للكثير منهم حماية ليس شرفهم فقط، بل وكذلك حياتهم. وقد ساعد بعضهم زيبا طبعاً. ساعدوه في البقاء على قيد الحياة. لكنه لم يعد ذلك الزيبا. فقد أصبح معوقاً. وأصبحت ساقه اليسرى جلداً على عظم، وضامرة تقريباً. أما الساق اليمنى فهي تبدو طبيعية، لكنها «لا تطيعه» فقد قطع العصب في مكان ما. وعموماً بقي نصف زيبا. كما أن صدور العفو الذي طال انتظاره قد أصبح في عداد النصف. وقد شمل العفو خمسة أعوام من الأعوام السبعة المتبقية. وسمح له بالإقامة حيثما يريد في العامين المتبقيين.

طبعاً إن الإقامة «بحرية» حيثما يريد لا تعني العيش في أماكن الاصطياف بل في منطقة نائية - في غابات التايغا النائية في سيبيريا المترامية الأطراف مثل هذه المنطقة.- وتابع اليكس نيقولايفتش حديثه قائلاً: - أقام في بلدة كانسكويه بإقليم كراسنويارسك. طبعاً، إنها بالمقارنة مع المعتقل تعتبر تقريباً منطقة الحرية التي انتظرها زيبا وجاءت بعد مضي ثلاثين عاماً. كما أن المعتقل قد ترك أثره فهو معوق الآن، ولا يستطيع الحركة بصورة مستقلة من دون عربة المعوقين. وكانت لديه عربة مستوردة، ممتازة، مزودة بمحرك - لقد أهداها إليه أحد الناس، لكن زيبا أحدث عطباً في هذه العربة حين كان سكران. نعم، لقد بدأ بمعاقرة الخمر. وعندما كان في المستشفى، والألم الجسدي لا يطاق، والأكثر منه الألم الروحي، أوصي بتناول الكحول من أجل التخفيف من الألم. وقد جرب ذلك. وفعلاً ساعده ذلك لحد ما. ومنذ ذلك الحين وحتى بلوغه الشيخوخة اعتاد على هذا الأمر، ثم بدأ بالتدخين، وعموماً أصبح في أواخر عمره مثل بقية السجناء. وإذا لم يتوافر الكحول في المعتقل أو وجدت بعض القيود عليه، فإنه متوافر خارج المعتقل. فقط بشرط توافر النقود. علماً بأن زيبا كان يمتلك النقود - وهذا ليس أمراً عجيبا - دوماً، ويعتبر حسب المعايير المحلية من الأثرياء جداً، وهو ما يتفق مع خدماته. وقد سعى أحدهم من أجله فصار يتلقى رسمياً المعاش التقاعدي المخصص للمعوقين. علاوة على ذلك ترد إليه أحياناً حوالات بريدية ما، وفي الأعياد يتلقى الهدايا الثمينة، وأحياناً الأناناس. ولكن يبدو إن أكثر الحوالات ترد من مختلف الجوالين. ويزوره حتى في هذه المنطقة النائية أصدقاء ومعارف، ربما فقط لمجرد اللقاء معه، وعلى الأغلب لعرض مشاكلهم وشؤونهم، فإن زيبا «حلال المشاكل» كما يقال هنا. ويبدو أن بعضها أحياناً مشاكل صعبة، ويتنقل زيبا عندئذ أو بالأحرى ينقل، بالرغم من الحظر، إلى مركز المنطقة على بعد ثلثمائة فرسخ حيث يوجد اتصال هاتفي.

عموماً نشأ زيبا في أوساط السجون هذه، وبقي فيها، فثمة حاجة إليه، وبفضل مكانته يتم الحصول على فوائد من الأمور الماضية. لكن يعرف الجميع بأن زيبا لا يهتم بالنقود، وحينما تتوافر، يجيد إنفاقها فحسب. وقد ساعد الكثيرين - من يريد إصلاح سقف البيت، ومن يريد بناء الموقد، ومن يرغب فقط في السفر إلى البر الكبير، بينما يشتري الحطب من أجل القرية كلها، ويستبدل نوافذ

المدرسة فيها. لكن أحب شيء إلى قلبه الاحتفال بالأعياد. وهنا يتبين سخاؤه - حيث تجري الاحتفالات على أوسع نطاق. ولغرابة الأمر ظهر لديه ولع جديد - بالنساء. وحدث أن دعي زيبا إلى أحد الأعياد في القرية المجاورة، التي تبعد مسافة خمسين فرسخاً. علماً بأنهم يستقبلون زيبا ليس استقبالاً عادياً بل تنصب المائدة ويقوم زيبا بدور عريف الحفل، كالعادة، ويحتفل على انفراد، ويغازل النساء في القرية. وحدث أن أبلغه أحدهم بأنه توجد في القرية فتاة تجري في عروقها الدماء القوقازية.

استفسر زيبا: - أين هي؟

إنها لا تشارك في مثل هذه الاحتفالات. وعموماً إنها لا تذهب إلى أي مكان. إنها لن تحظى بإعجابك وبإعجاب أي أحد آخر - فهي طويلة القامة، ويصل ارتفاعها إلى هذا العلو - ورفع محدثه يده عالياً - كما أنها ذات أنف طويل، مثل منقار النسر.

وأصر زيبا قائلاً: - أريد أن أرى الفتاة القوقازية.

وتم إرسال مبعوث إليها، فلقي الرفض. ولكن هذا مس غرور زيبا، وازداد فضوله. وأرسل مبعوثا آخر، فلقي الرفض مجدداً. عندئذ قال زيبا:

بلغوها أن رجلاً قوقازياً يدعوها إليه. وإذا وجد لديها شيء من القوقاز فيجب أن تحضر. ولو من أجل توجيه التحية إليَّ أنا الأكبر سناً منها.

فجاءت. اسمها الحقيقي روسدان. لكن الجميع هنا يدعوها بروسلانا. قد تجاوزت سنها الثلاثين، لكنها تبدو أكبر سناً بسبب ضخامة جسمها. وكانت أطول قامة من الجميع في القرية، وحتى الرجال، حيث تجاوز طولها المترين. وحتى زيبا في الماضي كان أقصر قامة منها. أما الآن فيبدو أمامها قصير القامة جداً. روسلانا ذات كتفين عريضتين وذراعين كبيرتين. ويمكن القول إن وجهها يتسم بمسحة من السناء - فالجلد أملس وأبيض، والعينان الجميلتان بلون يميل إلى الزرقة القاتمة. لكن الأنف كبير جداً، ومحدودب. وشعرها الفاحم كان رائعاً. وقال من يتذكر إنها تشبه والدها تماماً. وأبوها - عسكري جورجي، تعرض إلى القمع في أواخر الثلاثينيات، وأرسل إلى هذا الإقليم البعيد ووظف امرأة بمثابة مدبرة المنزل. فولدت صبياً توفي، ومن ثم ولدت روسلانا بعده. وسافر الأب ولم ترد أي أخبار عنه. أما والدة روسلانا، وهي امرأة من سيبيريا، لم تحصل على التعليم إلا أقله، فلم تبحث عن والد الطفلة. وعندما كبرت روسلانا حاولت العثور عليه - لكن باءت محاولتها بالفشل. ونمط معيشة روسلانا وأمها منغلق جداً. ولديهما حديقة صغيرة، وماشية. وقد أنهت روسلانا المدرسة الابتدائية المحلية فقط، ولا يوجد غيرها هناك، بينما لم تسمح لها أمها بالذهاب إلى مركز الناحية لمواصلة التعليم. ولم تسافر روسلانا طوال حياتها إلى أي مكان تقريباً: فتوجد فقط في الحديقة ومع الماشية. حقاً لديها هواية فهي تحب صيد السمك. كما أنها غالباً ما تذهب إلى الغابة لجمع الثمار البرية والفطر. صفوة القول إن روسلانا وأمها لا ترغبان في معاشرة الناس تقريباً. وحدث مرة فقط أن ترددت الأقوال حول هذه الأسرة.

ففي أواخر الستينيات أرسلت وجبة جديدة من المبعدين للإقامة حيثما يرغب أفرادها. وكان بينهم المدعو فيودور، وربما ليس هذا اسمه، وهذا لا يهم. وكان فيودور المذكور طويل القامة جداً وقوي البنية وقد انجذب إلى روسلانا وصار يتحرش بها ويعاكسها. لكنها تجاهلته وطلبت منه عدم التعرض لها. لكن فيودور لم يكف عن ذلك. لكن حدث مرة أن ذهبت روسلانا في الخريف إلى الغابة، إلى التايغا، وتوغلت بعيداً خلال النهار كله، وتبعها فيودور سراً. وعادت روسلانا في المساء، وقيل إن سلتها كانت فارغة، وبعد ذلك لم ير أي أحد فيودور هذا. وقد اتضح لا حقاً أن روسلانا أغرته بملاحقتها إلى المستنقعات - وسارت نفسها في درب معروف لديها، بينما غرق فيودور في مياه المستنقعات، وبقيت قبعته فقط. وقد جاء إلى روسلانا شرطي المحلة مرتين للاستفسار عن الأمر لكنها قالت إنها لا تعلم شيئاً- وهكذا نسي الأمر. ومنذ ذلك الحين صارت روسلانا تتجنب لقاء الناس أكثر. وقد دهش الجميع حين رأوها في العيد. ودهش زيبا أكثر من الآخرين. ربما لأنه أسرف في الشرب، وربما نشأت لديه بعض الأحاسيس، لكنه قال في الختام:

روسلانا إن هيئتي تنم عن كوني رجلاً معوقاً. لكنني ما زلت رجلاً. وتجري في عروقنا الدماء القوقازية... كوني زوجة لي.

لم تجب روسلانا بشيء، ثم انصرفت فوراً. أما زيبا فبدا كما لو أنه ثاب إلى رشده، فاستاء وانصرف أيضاً، وانطلق إلى قريته.

كان زيبا يقطن في كوخ صغير في أطراف القرية. وسكن مع شابين اثنين من «الأحرار» الذين سمحت لهم السلطات بالإقامة حثيما يريدون - وهما يتوليان مساعدته وحراسته. وقد فتحا الباب في الصباح حين طرقه أحد ما: وقفت روسلانا حاملة حقيبة كبيرة وقالت:

أنا جئت إلى زيبا.

وفيما كان زيبا يستجمع أفكاره، كانت قد قررت كل شيء، فوضعت حقيبتها الثقيلة بضجيج، ونزعت المنديل من رأسها، وقالت:

المكان عندكم قذر جداً، وتسود فيه رائحة الدخان والتبغ... هذا شيء ضار.

لم تجر أي احتفالات، ناهيك عن الزفاف، وذلك تلبية لطلب روسلانا. وأصبحا يقيمان في الكوخ ذاته، وعرض زيبا بناء بيت من جذوع الأشجار.

فسألته روسلانا: - أين سنعيش بعد أن تتحرر؟

وقال زيبا - أنا أحلم بالسفر إلى القوقاز، إلى جمهورية الشيشان.

قررت روسلانا: - هناك سنبني بيت أسرتنا.

بدا أمراً غريباً أن تكون لها الكلمة الأولى، وكانت تقرر الكثير من الأمور بنفسها. وقد تغير زيبا بكل معنى الكلمة تحت تأثيرها - فصار يرتدي الأزياء الأخرى وترك الشرب والتدخين. ومجدداً أخذ حسب قدرته يمارس التمارين الرياضية وحتى يمارس صيد السمك والتنزه في الغابة. وكانت روسلانا تحمله على ظهرها في كل يوم وتذهب معه إلى مكان ما. وكان زيبا يهمس في إذنها دائماً تقريباً:

- إنني أشعر بالخجل حين تحمليني كالطفل.

وكانت روسلانا تقول:

إيه، زيبا، ياعزيزي. حبيبي الذي طال انتظاره. ياشمسي الساطعة! لو عرفت النساء الآخريات أي رجل عظيم أنت، وحاولن أخذك مني. لكنني لن أعطيك لهن. مهما كان الحال وأبداً. أنت رجل حقيقي - وستركض وستربي أطفالنا وأحفادنا.

بماذا كان زيبا يجيبها؟ وماذا كان بوسعه القول؟ لقد عشق لأول مرة في حياته. وكان محبوباً وسعيداً. ولأول مرة استجاب بكل سرور لرغبات شخص آخر، إن هذا يجلب له السرور والمتعة والطمأنينة. ولكن هذا لا يعني أن زيبا أصبح تحت تأثير روسلانا، وكذلك هي، لم تصبح من النساك. بل بالعكس فقد كانت حياته مترعة بمغزى وبمحتوى جديدين فحسب. وقد استعاد إدراكه مجدداً وقرر في الختام، الختام غير المتوقع، وضع حد لحياته في المعتقلات، ويقدم هدية كريمة إلى الأهالي المحليين تذكرهم به. وقرر تلبية لطلب الأهالي أن يحسن الطريق. وأن يصلح المدرسة الإبتدائية التي تعلمت فيها روسلانا. كما شيد من أجل والدة روسلانا بيتاً جديداً ومستودعاً وحماماً. وقد تطلب ذلك الكثير من الأموال، وتواردت إليه الأموال بواسطة البريد والمبعوثين وبوسائل أخرى كما يبدو. علماً بأن هذا الإقليم يمتلئ بالمجرمين الذين يفكرون في أمر واحد فقط- هو أين يسرقون ويستحوذون وينهبون. وحدث مرة ليلاً أن تسلل بعض اللصوص إلى كوخ زيبا. علماً بأن زيبا اعتاد دوماً أن يكون على أهبة الاستعداد. كما استيقظت روسلانا أيضاً. وقطاع الطرق وقحون، ولم يكونوا فرداً أو فردين بل زمرة، وحينما سمعوا صوت خشخشة في البيت أخذوا بالعمل بنشاط: فوقف بعضهم عند الباب، وقام آخرون بلصق السكوتش على زجاج النوافذ بغيه تحطيمه بلا ضجيج.

إيه! - تنهد زيبا بشيء من العجز. كان يحمل مسدساً صغيراً بيده، وهمس لروسلانا قائلاً:

- أجلسيني على الطاولة، وأنت اذهبي بهدوء إلى الغرفة الأخرى ولا تخرجي حتى تهدأ الأمور.

فقالت روسلانا باستياء: - ماذا تقول!؟ هل أتركك لوحدك! ألا يعرفون بأنك - زيبا؟!- وأخذت تتحدث بصوت عالٍ، وفهم أولئك في الخارج، بأنه لا حاجة إلى الحذر- ويجب العمل بسرعة، وبدأ استخدام البلطة، وتحطم الزجاج.

- سأريكم أيها الأوغاد!

قف! - صرخ زيبا، لكن بعد فوات الأوان فقد اندفعت روسلانا نحو النافذة، كما لو كانت كرة من النيران. وصارت تقاتل وتصرخ ثم صدر عنها أنين، وبدأ هذا الشبح الكبير والقوي، يذوب مثل جبل الثلج، وانهار شيئاً فشيئاً ثم سقط. وعندئذ بدأ زيبا إطلاق النار باتجاه النافذة وباتجاه الباب. أفرغ مشط المسدس كله، وعندئذ سمع صوت أصدقائه:

- زيبا، زيبا، هل أنت على قيد الحياة؟

فأجابهم زيبا: - روسلانا، روسلانا! انظروا إليها. هاتوا النور!.. الطبيب!

وزحف نفسه حولها وتوسل أن يدعى الطبيب، لكن أدرك الجميع بأنه فات الأوان. فقد سددت طعنات سكين السجين عدة مرات إلى الصدر الممتلئ، وأصابت القلب. ومن ثم في البطن.. يبدو أنهم كانوا يعرفون أن روسلانا كانت حبلى في الشهر السابع..

صرع زيبا اثنين من اللصوص، بينما أحرق خمسة آخرون وهم أحياء في ذلك الكوخ. لكن التهمة وجهت فقط إلى زيبا لحيازته وامتلاكه واستخدامه السلاح الناري. بالمناسبة إن هذا السلاح لم يكن أي سلاح بل مسدس «والتر» ذاته ذي المقبض الذهبي الذي انتزعه زيبا من ديمتشوك وقتله به. وقد سلمه إلى زيبا أحد كبار المسؤولين بصفة غنيمة تستحق التقدير. وما دام الحديث يدور عن ذلك فإن «والتر» المذكور ما زال لدى زيبا، ويحمله حتى في السجن.. علماً، وهذا مفهوم، إنه لم يسلم من العقاب، بل حصل مجدداً على فترة عقوبة إضافية...

هل تحطمت إرادة زيبا؟ وهل كابد الحزن لمصرع روسلانا؟ في أغلب الظن أنه كابد الألم، وبشدة جداً، وأخذ يعاقر الخمر ويمارس التدخين مجدداً. لكن إرادته لم تتحطم. إن أمثال زيبا لا يتحطون بيسر. فهو مناضل حتى النهاية. طبعاً إنه لم يحقق النصر ولم يغير شيئاً، لكنه لم يستسلم، ولم يهادن أحداً، ناهيك عن التزلف لأي أحد. وحتى بعد أن زج به في السجن مجدداً، وهو مشوه ومعوق، ولا ينتظر من أحد الرحمة، كما نسيت خدماته السابقة بسرعة، فإنه يدافع في كل يوم وكل ساعة وكل لحظة عن مواقفه، لكن كان وبقي - زيبا! وجدير بالذكر أن زيبا حتى في هذا الوضع صار يمارس الرياضة مجدداً، وقد حالفه الحظ مرة أخرى، وحالفه بلقاء معلم كوري. فقد كان يرزح في السجن شيخ كوري قال له: «هل ترغب جداً في أن تقف على قدميك مجدداً، وعنى ذلك أن تنهض على قدميك، وأنا سأساعدك». وقام بـ«إصلاح» جسد زيبا بواسطة مختلف الوسائل الشعبية، وأكثرها بواسطة التدليك،- وأصبح بالرغم من عرجه يقف على قدميه.

حقاً، هل سيستمر في الوقوف فترة طويلة؟ - اختتم اليكسي نيقولايفتش حديثه بأسى. وكانت عبارتنا قد اقتربت من البلدة، فصافحني وقال:

إن زيبا يمثل عهداً! عهداً مضى. وهذا أمر جيد وسيئ في آن واحد.. لقد نقل زيبا إلى هنا منذ ثلاثة أعوام للإقامة بحرية. وأنت لا تصدق، فقد تغيرت الحياة هنا بكل معنى الكلمة. وسادت في هذه البقعة الصغيرة وسط غابات التايغا، وفي هذه الأصقاع النائية، العدالة والنظام. هذا ما تعنيه الشخصية المتميزة. شخصية جريئة! زيبا.. كان مثل الجبل - هذا ما قاله لي رفيق الدرب اليكسي

نيقولايفتش. وقال ذلك بحسرة جلية وبالزمن الماضي. أما نحن، وأقصد فصيلتنا الإنشائية، فقد قدم لنا زيبا مساعدة كبيرة مرة أخرى.

لقد عملت فصيلتنا الإنشائية خلال الأسبوعين الأخيرين ليلاً ونهاراً تقريباً. وأنجزنا العمل في الوقت المحدد في 30 أغسطس، ووصلت في مروحية في هذا اليوم بالذات لجنة التسليم والقبول الرسمية. وأعتبر عملنا عموماً ناجحا باستثناء بعض الهفوات الصغيرة. وأعد عقد الاستلام ووقع. وبموجب الاتفاق المعد سابقاً وجب تسوية الحساب معنا هناك. لكن أعضاء اللجنة الذين جاءوا من تومسك أعلنوا أنه لا تتوافر ولايجب أن تتوافر النقود لديهم. ومهمتهم إعداد العقد ونقل فصيلتنا إلى تومسك في المروحية. ويجب القيام بذلك بسرعة لأن المروحية مستأجرة ويجب أن تدفع المؤسسة لقاء كل ساعة. فبدأنا في تحميل حاجياتنا، وكل واحد يحلم بالعودة إلى البيت، لكن من ينتظرنا في تومسك؟ وكيف سنصل من تومسك إلى موسكو؟ وصار مكسيم بصفته رئيس الفصيلة يناقش وحتى يشتم أعضاء اللجنة. وجاء الطيارون في المروحية لإنقاذ الوضع. واستطاع مكسيم أن يتصل بواسطة وسائل الاتصال في المروحية مع موسكو بشكل من الأشكال. وهناك أكدوا أن المحاسبة عن الأعمال الإنشائية يجب أن تتم هنا محلياً. وبدأ النقاش مجدداً. وطلبنا أن يدفعوا لنا في تومسك ولو أجور السفر إلى موسكو. لكن تبين أنه لا تتوافر لدى مؤسسة «تومسكنفطغاز» النقود لهذا الغرض. وعموماً تبين أنه لا علاقة لهم بالأمر وسينقلونا فقط إلى تومسك. وفي النتيجة قررنا البقاء هنا - على الأقل يوجد سقف يحمينا وبعض الطعام. والشيء الرئيس إصرارنا على التمسك بالاتفاق وكنا نخشى من احتمال ألا يدفعوا لنا شيئاً أصلاً. وانطلقت المروحية ليلاً. وكنا نعتقد أن قضيتنا ستثير ضجة على نطاق الدولة - كيف لا، وقد بدأت في البلاد العلانية والبيريتسرويكا. لكن ساد السكون المطبق هنا. ولم يهتم أحد بأمرنا. واستمر الوضع يوماً أو يومين. عندئذ قررنا أن نذهب أنا ومكسيم في الصندل إلى مركز المنطقة- فهناك الاتصال لا بأس به مع موسكو. لكن انقطع الاتصال هناك - في البداية «أعادوا الكرة إلينا» ومن ثم لم يجيبوا فحسب. كما لم تتبق لدينا النقود حتى لإجراء الاتصال. الوضع جامد تقريباً. وعندئذ تذكرنا زيبا، فلا يوجد لدينا هنا أحد غيره.

كان زيبا كالسابق في المستشفى. وعندما دخلنا الردهة كان راقداً وعلقت به أنبوبة التغذية الاصطناعية. وبدت هيئته ليست في أفضل حال، لكنه حاول الابتسام لنا وحتى بعد انتهاء الإجراءات العلاجية نهض واحتضننا كما لو كنا من الأهل، من أهالي جروزني.

لم أنتما بهذا العبوس؟.. كنت أظن أنكما سافرتما، وحتى بلا وداع - في الحقيقة لقد عاتبنا وفور ذلك انتقل للحديث عن الوضع كما لو أنه عرف كل شيء مسبقاً - الأمور هنا ليست على ما يرام. بالمناسبة كما في كل مكان. حدثاني. يبدو أن الأمور سيئة للغاية. وماذا ينتظر أيضاً من هؤلاء الحمقى. أن تجذب مفرمة اللحم الضحية.

حدثناه عن الوضع باختصار.

- آه، مفهوم. لو أنجز العمل الأخوة الأرمن من العمال المياومين لوجدت النقود، ولدفعت رشوة. لكنكم من موسكو. ولم تقدموا وعداً بدفع رشوة، ولا تدفعوا، لا حاجة إلى الدفع. ولهذا لا توجد

النقود من أجلكم - حولوا القضية إلى موسكو.. الوضع سيئ.

اقترب زيبا من النافذة وبدأ بالتدخين بهدوء، وهيهات أن يسمح بذلك لأحد غيره، وقال وهو يتطلع في النافذة:

- الوضع في كل مكان بهذا الحال. البلاد تنهار. إنها تنهار أمام سمعنا وبصرنا. شيء مؤسف أنني لن أبقى على قيد الحياة، ولن أرى ذلك.

تبادلت النظرات مع مكسيم. كان شيئاً مخيفاً وخطراً حتى سماع مثل هذه الأقوال، لكننا لم ننصرف، لم يكن لدينا مكان ننصرف إليه، وأكد زيبا تنبؤاته بقوله:

- حقاً، الوضع لن يكون أفضل بعد الانهيار. فلا يمكن تغيير الشعب- في كل مكان مختلسون وأشباه أقنان: لا يمكن أن يعيشوا إلا تحت ضربات العصا.. لقد اعتادوا على ذلك.

أطفأ السيجارة في المنفضة بعناية. ثم تطلع في النافذة فترة طويلة، وفجأة غير مجرى الحديث كلياً:

- ها قد حل الخريف. كيف مالت أوراق الأشجار إلى الأصفرار بهذه السرعة. وأصبح النهار أقصر.. الحياة - إنها مضت مثل لحظة عابرة. حم. وهل هذه حياة؟! أنتظر وأصارع الموت في كل يوم. ربما، عبثاً. وربما لا، ويبدو أنني ساعدت الكثيرين. ولو... أنني أنتظر الموت بارتياح.
وحلمي الوحيد ألا أموت هنا، وأن أحيا حتى كسب الحرية والسفر إلى القوقاز.. لكن تنقصني القوة.

التفت نحونا وابتسم بشكل جديد، كما يبتسم الشيوخ حصراً ببساطة وبسذاجة. الآن فقط لاحظت بأن هناك أسناناً صناعية بين فكيه، وحتى إنه بالكاد يسيطر عليها.

ضحك بسخرية وقال: - تنقصني القوة. وما أكثرها سابقاً. كم تصارعت وتقاتلت وصبرت. وتبين أن هذا كله عبث.

نبر مكسيم فجأة: - لو كان هناك سيزنوف؟

سيزنوف؟ - ظهرت على سحنة زيبا تكشيرة، وضيق عينه الوحيدة.- في هذا المجتمع. وفي هذه البلاد؟ السجود (أن أجثو على الركبتين)؟ أنا لا أستطيع ولا أريد ذلك.

وسأل مكسيم: - هل تأسف على شيء؟

- آسف.. لكوني لم أستطع حماية أخويَّ. ولم أشُد بيتاً في القوقاز، ولم أغرس شجرة هناك، ولم أقم بتربية الأبناء. - وضحك مجدداً بسخرية - قصارى القول.. لا يجوز أن يصبح المرء في هذه الحياة مثل الخنجر الصلد الحاد النصل والمستقيم. فحتى نهر أوب العظيم - وتطلع في النافذة -

يجري بصورة ملتوية، ويختار المجرى السهل، حتى يبلغ البحر والمحيط. وكذا يجب أن تكون الحياة، كما يبدو لي. أنا لم أستطع ولم أرد ولا آسف.

ولم يصبر مكسيم وقال: - ما هو مغزى الحياة؟

مغزى الحياة؟ - يبدو أن هذا السؤال قد حيره. دنا من السرير، وجلس بصعوبة، واستغرق في التأمل، وبعد هنيهة واصل الكلام كما لوكان يحدث نفسه:

أنا لا أعرف ما هو مغزى الحياة. وأظن لا أحد يعرف ذلك. ولا يمكن أن يعرف.. لكنني سأقول بهذا الصدد إنني أخذت في الفترة الأخيرة غالباً ما أفكر فيه. أنا لم أتصور أبداً بأنني سأعيش حتى أبلغ هذه السن. لأنني عشت طوال حياتي تقريباً في السجون. لم تكن حياتي عيداً. وكان يحيط بي الوحوش واللصوص والمتزلفون الأذلاء. وكنت على أهبة الاستعداد في كل لحظة، حتى عندما بدأت بمعاقرة الخمر، ولم أضعف وأتراخ ولم أرد أن أذبح كما تذبح الخنازير. لكنني كنت مستعداً لاستقبال الموت. الموت في الصراع من أجل الحرية والعدالة. وعندئذ يكون مغزى حياتي، كما أعتقد، يكمن في ماذا يوجد لدي - بحر من الذنوب، ولكنني على العموم مطمئن وأنتظر الموت، ليس بصفة نهائية بل كتواصل، وأنتظره الآن بارتياح. إذن مغزى الحياة يكمن في الموت بهدوء. ولمعرفتك بأن حياتك لم تكن عبثاً، وفعلت ما استطعت القيام به.

رنا نحو مكسيم ومن ثم نحوي بنظرات تتسم بالخفة والطيبة، ثم خاطبني بقوله:

- هل تعتقد أنني هنا لأتشبث بالحياة؟ كلا البتة، ومجرد أن هناك من يحبني جداً. كما يحتاجني وينتظر المنفعة مني الكثيرون والكثيرون... وعلى سبيل المثال إنكم تحتاجون إليّ الآن. أليس كذلك؟

ابتسم زيبا كالسابق، وخفضنا رأسينا، ولم نعرف ما يجب قوله.

وسأل زيبا:

- كم تحتاجون من المال؟

أجاب مكسيم: - ستة وسبعون ألفاً.

فضحك زيبا بسخرية: - ليس كثيراً. البلاد جشعة. ولهذا فإنهم لا يدفعون. إنهم سيدفعون. ولكنهم قبل ذلك سيتلفون أعصابكم ويخرجونكم عن طوركم كلياً.. ولماذا؟ لأنني تدخلت ودسستكم في العمل بدلاً من العمال المياومين. أنا فعلت ما هو حق.. ولهذا يجب عليّ أن أتحمل تبعة ذلك حتى النهاية.

نهض وفكر قليلاً ثم صرخ:

- يجور!- كان يجور في الردهة المجاورة، ووقف الآن عند الباب.

يجور، اجلب ملابسي، وأطلب السيارة، يجب عليّ أن أهتف إلى أحد ما.

وفور ذلك حضر الطبيب:

- زيبا، لا يجوز لك. ولا يجوز حتى النهوض من الفراش.

لدي ضيوف - وربت بخفة على كتف الطبيب- انظر أي شباب وسيمون هم، إنهم من بلدي، والضيف في القوقاز، مقدس!

فاغتاظ الطبيب وقال: - لكن هنا ليس القوقاز بل سيبيريا. وأنت تعاني من المرض الشديد.

رفع زيبا إصبعه وقال: - مهلاً- مهلاً- مهلاً! ما معنى مريض حينما توجد مشكلة لدى أبناء بلدي؟! يجور! هل طلبت السيارة؟ المائدة جاهزة في الحمام. وليتذكر ضيوفنا في آخر مرة سخاء الأرض السيبيرية.

ما بقي من ذلك بدا مثل الحلم أو في الحكاية. في البداية أخذونا أنا ومكسيم إلى الحمام في مكان جميل على ضفة النهر. وهناك ذبحت إوزة، ونصبت المائدة وتصاعدت الروائح اللذيذة.

وبعد مضي ساعة أو ساعة ونصف جاء زيبا.

قال بارتياح: - لقد حلت مشكلتكم. والآن لنحتفل! أين الموسيقى والفتيات؟..آ... آه، أنت ما زلت لا تشرب كالسابق؟- خاطبني - هذا صحيح. الشيشان يجب ألا يشربوا.

لكنه شرب جرعة صغيرة. وفاضت روحه بالمرح وبقي معنا حتى منتصف الليل. وفي الصباح علمنا أن حالة زيبا قد ساءت ليلاً، ونقله يجور إلى المستشفى. ونحن حتى لم نفلح في قول كلمة وداع له، لأننا تأخرنا على الصندل. وجرت الأمور لاحقاً كما وعد زيبا. ففي اليوم التالي جاءت لنقلنا المروحية ذاتها. وانتظرتنا في مطار تومسك حافلة، ونقلنا فوراً إلى محطة القطار. وفيما بعد علمنا أن القطار السريع انتظرنا أكثر من ساعة. وكانت لدينا عربة منفردة ربطت بصورة إضافية إلى القطار. وتوافر في العربة الكثير من الطعام، في الوقت الذي كان شحيحاً ولا يمكن شراؤه حتى مقابل النقود. لكن مشكلة النقود - المشكلة الرئيسة لم تحل ووصلنا إلى موسكو وقد تملكنا الغم، ووجدنا هناك من ينتظرنا:

من هو الرئيس؟ من مكسيم؟ تفضل هذا من زيبا.- وسلمه رزمة - هنا ستة وسبعون ألف روبل، وطلب أيضاً إبلاغكم بأنه لم يرغب في تسليم المبلغ في تومسك لأنه خشى أن تقصفوا وتضيعوا في الطريق.. وهذه بطاقتي.

لقد دهشنا وحينما أراد من استقبلنا الانصراف، سأله مكسيم:

- هل نقدم وصل استلام؟ ومتى سنعيد المبلغ؟

- أي وصل استلام، مادام زيبا قد طلب ذلك.

وبعد مضي شهرين، في نهاية أكتوبر، وبعد مماطلات كثيرة استلم مكسيم في الإدارة العامة المبلغ المقرر من أجور عمل الفصيلة الإنشائية، وهتف إلى زيبا من أجل إعادة المبلغ قيل له:

لقد توفي زيبا منذ أيام.. إنه أنقذ حياتي، وليست الحياة فحسب.. وليست حياتي فقط.. زيبا!

8 أبريل 2005

نعم، اليوم هو 8 أبريل. انصرمت ثلاثة أشهر تقريباً على تاريخ آخر كتاباتي. إنه فحسب النص المكرس إلى زيبا. وأنا لم أرغب ولم أتجاسر على تقطيعه في عدة تواريخ، بل أردت كتابة النص بصورة كاملة. طبعاً، وحسب اعتقادي، فإن رجلاً مثل زيبا جدير بدراسة منفردة، وليس التقليل من شأنه بتقديمه كمشهد ما أو فصل في يومياتي. لكنني كتبت، حسب استطاعتي، وبذلت جهدي من أعماق الروح. فماذا حصلت؟ أنا أعلم بأن زيبا كان جديراً بسرد أكثر جدارة (وأرجو المعذرة عن التهافت والتكرار اللفظي). ولكنني، وأكرر ذلك، كتبت حسب استطاعتي، ويالأسف. علماً بأن زيبا، وبودي أن أشير إلى ذلك مرة أخرى، كان شخصية فذة. ولربما كان ظاهرة منفردة بحد ذاته، وتؤكد ذلك الواقعة التالية:

في العاشر من يناير عاد من أمريكا طبيب الراديو الذي يعالجني، وفي اليوم نفسه قام بفحصي، لم تكن هناك إشعاعات لدي، كما يبدو. وفي اليوم التالي سيتم خروجي من المستشفى، وقد علمت ذلك من ابنتي في النمسا، وقالت إن صهري سيأتي إلى موسكو، من أجل العناية بي (هذا ما وصلنا إليه في هذه الأزمان، وأي حياة بلغناها). فقد سئمت جداً من هذه الصومعة الفردية - ولم أجد الخلاص إلا في الكتابة -، وأنا أتعذب فلا يمكن أن ينقل أي أحد من هنا، فهذا ما لا يسمح به. ولكن كيف سيكون مصير كتاباتي؟ طبعاً، كان بوسعي أن أبعث برسالة إلى ابنتي، بغية أن تتحدث مع طبيب الراديو، دفع النقود مقدماً، وربما سيسمح بذلك. لكنني لم أرغب في إزعاجها بصدد هذه المسألة. وهيهات أن يتفهم أحد موقفي. وفي نهاية المطاف أصابني الخبل تماماً، فاعتبرت نفسي كاتباً. والزعم بأن هناك مخطوطة لكاتب عبقري لا تقدر بثمن!... وعموماً هنا أعرف، وليس أول مرة، بأنه لا يجوز حمل أي شيء معي، ولكنني حصلت على الموافقة للخروج، وحملت أوراقي المكتوبة (ولا أقول المخطوطة) وضممتها إلى صدري. وكنت أعرف أن مراقبتي تجري في الصومعة، ولحظتئذ رن جرس الهاتف. وصدر أمر الطبيب الراديوي:

- يجب أن يبقى كل شيء في الصومعة.

لم يكن بوسعي الإجابة - ووضعت يدي على قلبي فقط.

وسأل: - هل هذه مخطوطتك؟ وهل كتبت فيها شيئاً عني؟.. وحسناً وصفتني؟.. حقاً، يقال إن المخطوطات لا تحترق.. أنا أحب المطالعة. والأدب لايمكن أن يجلب الضرر.. ضعها على الطاولة المتحركة. اذهب إلى غرفة الاستحمام.

وضعت المخطوطة. ودخلت الحمام. إن الاستحمام بالنسبة لي عذاب ويستمر فترة طويلة، وكنت طوال الوقت أفكر بالمخطوطة (أطلقت هذه التسمية عليها وأعتبر ذلك شرفاً لي)، وعندما دخلت المنزع وجدتها هناك وحتى في داخل ظرف. طبعاً، إنها مخطوطة، ولا قيمة لأهميتها، وهيهات أن تكون لها أي أهمية وتسلية. وأنا، وأكرر، أنني لا أنوي أن أترك بعدي مذكرات - فأنا لست تلك الشخصية البارزة ولست صاحب أي خدمات. لكنني أكتب. أكتب من أجل نفسي... ليس يوميات ما، بل لأسباب أخرى. أولاً، إن هذه الكتابة تجلب لي الهدوء النفسي، كما أن أفكاري تنتظم لحد ما. وليس عبثاً أن يقال إن الكتاب إنسانيون عظام. لأنهم يكتبون حول كيف يجب أن تكون المعيشة بين الناس، وليس كما يعتقد بعضهم. وأحياناً أعتقد بأنني حتى لا أريد الكتابة. وأقول فقط بأنني أنظر إلى هذا العالم جزئياً عبر عدسة تحديد الهدف في بندقية القناص. وفي كل مرة وقبيل إطلاق الرصاصة أبدأ بلا إرادتي بتلاوة الصلاة، وعندئذ يبدو وكأنني أثوب إلى رشدي، ويكون خلاصي الوحيد - في الكتابة. هذا ثانياً. الآن أود الكتابة وحتى يرد في خاطري أن هناك من يدفعني إلى ذلك. وحتى إنني قرأت منذ فترة قريبة فكرة كاتب شهير بأنه تجب الكتابة فقط عندما «تنقبض» النفس ولا تستطيع عدم الكتابة فحسب. وإلا فالأفضل عدم تلويث الورق. لكنني أكتب، ربما، لمجرد تلويث الورق. وليس الأمر بهذه البساطة، أنا أريد- وهذا الأمر الثالث والرئيس -أريد أن أفهم شيئاً مهماً جداً بالنسبة لي. أريد أن أفهم ما يجب عمله وكيف؟ هل أضغط أم لا أضغط على الزناد؟ هل أنتقم أم أعفو؟ إن هذا بالنسبة لي كسؤال شكسبير: «البقاء أم الفناء؟». وأنا مثل هاملت، لا أعرف (أنا أورد هنا مثل هذه المقارنة.. وأرجو المعذرة من القارئ. ولو هيهات أن يقرأ أحد هذا، ومع ذلك). لكنني أبحث عن الجواب. وبغية إيجاده لا بد أولاً كيف وصلت إلى هذه الحال، وكيف عشت؟ يتطلب ذلك أن أورد الأحداث بالتسلسل، وكما تتطلب ذلك اليوميات.

وعموماً أفرج عني من الصومعة في 10 يناير، وقد اهتمت ابنتي بتدبير الأمور المتبقية. واستقبلني صهري (أنا أدعوه بابن مكحل - هذا مريح أكثر حسب عاداتنا). وتوجهنا فوراً إلى مركز علاج الأورام - لقد أصررت على ذلك. أردت أن أتخلص بسرعة من إجراءات تنظيف القسطر كما هو مقرر. إن الإجراءات بحد ذاتها ليست مؤلمة تقريباً، زد على ذلك أنني اعتدت على الألم الآن، كما أن الأجور مدفوعة مسبقاً ولهذا فإنهم أبدوا العناية البالغة بي. لكن هذا لا يجعل الو ضع أخف وطأة. وبالنسبة لي، وكذلك بالنسبة إلى الكثيرين والكثيرين من المرضى، فإن هذا المبنى الذي تسوده كلياً القواعد التجارية، مثل أي بزنيس - سنتر يعمل فيه أطباء - رجال أعمال- وقحون، يعتبر مكاناً كريهاً. وأشعر بالضيق حين أرقد طوال ساعة كاملة على طاولة

العمليات الجراحية وأرى أمامي الوجه السمج لطبيبي الذي ينم عن الشبع واللامبالاة والمكر. لو كنت أعرف سابقاً بأي نظرة تفيض باللامبالاة والتقزز ينظر إلى المريض في أثناء العملية، كما لو أنه جهاز شطف المواد البرازية الذي ينظف البالوعة... والوضع مشابه كذلك لحد ما. لكن هذا عمله. وما هو مجرد عمل بل بالنسبة له بمثابة عرق ذهبي. إنه يحيا بهذه الصورة - في بحبوحة وبلا هموم. لكن هذا الأخير لا يهمني، فكل إنسان يحيا كما هو مقدر له- كما يقال. على أي حال إن حياتي في الفترة الأخيرة كانت تتوقف على الأطباء وبالذات على هذا الطبيب. وأنا مثل جميع الزبائن المرضى الباقين (وأنا لا أقول المرضى فحسب) أشعر بالحنق نحوه، لكنني أحني رأسي بلا إرادتي أمامه، كما يفعل الرعية أمام الحاكم. وهو يعاملنا كالحاكم. حقاً إنه صار مهذباً جداً معي في الفترة الأخيرة أي منذ أن بدأت ابنتي بتحويل العملة الصعبة إلى حسابه الشخصي وذلك من أجل العناية بي شخصياً (وليس من أجل علاجي). وفي هذه المرة ولدهشة الجميع كان يرافقني بنفسه، وأنا أومئ برأسي، وفجأة يخرج لسبب ما المفكرة والقلم. ونحن عادة نركض وراءه حاملين المفكرة والقلم، أما هو فيمكن أن يقرأ إذا رغب في ذلك، وفي أكثر الأحيان يتجاهلنا ويمضي للبحث عن زبائن جدد. إنه يحمل المفكرة فقط من أجل كتابة أجرة الخدمات الطبية، مع مراعاة التضخم (نادراً ما يتكلم بصوت عال فالكاميرات منتشرة في كل مكان). تناولت مفكرته ولسبب ما، وبلا تفكير، سجلت: «خنزير». أه لو رأيتم سحنته. لقد أراد أن يوجه لي صفعة. بينما أردت أن أبصق في وجهه. لكنني لم أتجرأ على ذلك، أو بالأحرى لم أستطع ذلك. وأقول بحق إنني فكرت آنذاك في أنني آراه في آخر مرة. لقد رغبت بذلك فقط، وماذا حدث في الواقع؟

... لاحقاً فكرت: ما السبب الذي جعلني أفعل ذلك؟ ولماذا لم أفعل هذا من قبل؟ ربما يكون الجواب ذاتياً، وجواباً واحداً فقط - لأنني بدأت بالكتابة. إن الأدب (حسب تقييمي الذاتي) يرغمني على أن أكون شريفاً وجريئاً وصريحاً. زد على ذلك مثلت أمام ناظري شخصية زيبا. والحق يقال، فقد كابدت من الأمر فيما بعد. فإذا ما واصلت العيش ينبغي مع هذا تنظيف القسطر باستمرار.. أين أبحث عن طبيب آخر؟ إنها مشاكل جديدة تواجه ابنتي.

لكن الحياة عموماً رائعة، ومغزى الحياة بات مفهوماً لدي الآن - كما يبدو. إنه حين يوجد آثر طيب ومستقبل واعد. وإذا أخذنا على سبيل المثال حياة زيبا فإنه ترك بلا ريب أثراً طيباً، ومستقبله هو الممر الوضاء في ذاكرة كثير وكثير من الناس. وما أكثر الذين زرعوا الحدائق وشيدوا البيوت ورزقوا بالأبناء. وماذا بعد؟.. كما يقال من أجل ألا يغدو العالم خالياً من النسل. والمثال الآخر - هو أنا. أنا لم أفعل شيئاً تقريباً. بقيت ابنتي فقط. لكنني مسرور... وودت كتابة حتى إنني مسرور جداً، لكن هذا مستحيل في وضعي الحالي. ولو أنني حين سافرت لأول مرة في حياتي إلى أوروبا والتقيت ابنتي نسيت كل شيء وابتهجت جداً لرؤية ابنتي. فأنا مبتهج لأن لدي ابنة، وستصبح قريباً أما (أصبحت أماً الآن - لدي حفيد)، ومعنى ذلك يوجد مستقبل، وسأترك بعدي أثراً ما.

ما هو مغزى حياتي؟

من السابق للآوان وضع حد لحياتي. أنا متفائل هكذا. ولدي ما أفتخر به. لقد أراني مكحل جميع تسجيلات الحفلات الأخيرة لابنتي شوفدا. وفيما بعد حين بقيت وحيداً شغلت الفيديو مجدداً - وكم بكيت! بالأخص لدى أداء الأغاني الشيشانية القديمة. ولأمر ما تذكرت عام 1995. ما اسعد

الأوقات آنذاك. ولو أن رحى الحرب كانت تدور آنذاك. لأن الجميع كانوا على قيد الحياة. لكنني لم أفكر بهذا آنذاك. وأذكر كيف - وقد كتبت عن ذلك - كيف هربت ونجوت من القصف في جروزني. وكيف أنقذت روسلان. يبدو أنه حي يرزق، وفي صحة وعافية، وبعيد عن الحرب. لكن الحياة كانت صعبة بالرغم من ذلك - فلا تتوافر النقود. وعندما ذهبت لاقتراض النقود من مكسيم، ذكرني بزيبا. طبعاً إنه ساعدني مساعدة الأخ لأخيه. وسافرت جواً إلى موسكو. وعرفت أن زوجتي قد استبدلت الشقة بسبب ضيق ذات اليد بشقة أخرى في أطراف المدينة، في قفار ما، ولا توجد محطة مترو قريبة. ووصلت إليهم بعد مسيرة طويلة. ووجدتهم في المساء. والشقة - بيت حقير قد أصابه البلى. كيف نقل إلى هناك البيانو - آلة الترف. أنا لا أدرك ذلك. الولدان الجائعان في البيت، والأم ذهبت مع الابنة إلى المدرسة الموسيقية الواقعة بوسط موسكو. طبعاً وجب عليّ، بصفتي رب الأسرة، أن أكون متزناً وأن أستطلع جلية الأمر، لعلمي بأنني لم أرسل إليهم النقود منذ وقت بعيد، فكيف كانوا يعيشون؟ لكنني كنت جائعاً، وتعباً، وقذراً وعصبياً ومعنى ذلك كنت حانقاً. والشيء الأهم لم يكن أحد في انتظاري واستقبالي- والمدرسة الموسيقية أهم بالنسبة لهم!

- لن تصبح ابنتي فنانة! أنت تريدين أن تجعليها مومسة؟

حاولت زوجتي الاعتراض بشكل ما - فوجهت لها صفعة وهويت بقبضتي على البيانو. حدث هذا أول وآخر مرة. وأنا الآن لا أريد تبرير سلوكي، لكن هذا كان من نتائج الحرب. وترددت الأصداء الرهيبة للحرب هنا أيضاً، فقد تبين أن أولادي لا يقبلون في مكان الإقامة الجديد في المدرسة المحلية بحجة عدم توافر تسجيل الإقامة والأماكن لهم. علماً بأن أبنائي كانوا بفضل جهود زوجتي يتعلمون جيداً جداً. وشوفدا من التلامذة المتفوقين ليس في المدرسة العادية فقط بل وفي المدرسة الموسيقية أيضاً.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة. وكنت محزوماً، لا سيما أنني عرفت من زوجتي أن من الواجب حسب قانون مدينة موسكو (فهي ليست جمهورية الشيشان) قبول التلامذة، لا سيما من رعايا روسيا الاتحادية، في المدرسة بطلب من الوالدين. وتبين أن هناك حراسة في المدرسة ولم يسمحوا لي بالدخول لأن تسجيل إقامتي في جروزني - وروسيا في حالة حرب مع الشيشان.. وبعد مساجلة فقط تسنى لي دخول مكتب المديرة. وبما أنني كنت في حالة غضب، والمديرة الكهلة واقفة، لكي لا أجلس، فقيل لي فوراً:

لقد طرد الشيشان شقيقتي في جروزني من شقتها، وأبعدوها إلى خارج الجمهورية...

وأرادت إضافة شيء ما لكنني قاطعتها:

- لقد سلبونا جميعاً الشيشان والروس ليس الشقق والبيوت فقط بل والحياة أيضاً، وقصفوا وأطلقوا النار على كل شيء، وأنت تشاهدين ذلك على شاشة التلفزيون. فمن يفعل ذلك؟

جلست المديرة في مقعدها. ولزمت الصمت فترة طويلة. ومن ثم طلبت مني الجلوس بتلويح يدها وقالت بتقزز:

- الوثائق..

وسلمتها الوثائق من المدارس الأخرى. وتبين أن من بينها وثيقة من المدرسة الموسيقية.

سألت المديرة بلهجة ما برحت تتسم بالامتعاض: - ما هذه؟ هل أن ابنتك تنهي المدرسة الموسيقية بامتياز. وفي موسكو؟

أنا لم أكن على اطلاع حول هذا الموضوع تقريباً، وأخذت أومئ برأسي فقط، بينما واصلت الكلام حوله:

- بالمناسبة سيقام عندنا احتفال بمناسبة عيد 8 مارس. وسيحضره ضيوف مهمون. فهل يمكن أن تشترك فيه ابنتك ما دامت ذات موهبة موسيقية؟

هذا الأمر تقرره زوجتي، - وقلت الأمر الواقع.

في اليوم التالي ذهب أولادي إلى المدرسة، ورأيت من أمزجتهم أنهم سيلاقون صعوبة في التكيف مع الآخرين: فقد تعارك ابني الأصغر لأنه سمي بـ«قاطع الطريق»، وذهبت زوجتي للبت في الأمر - وهددوها بوضع الصبي كبداية تحت الرقابة. بينما دعتني ابنتي لحضور الحفل في المدرسة حيث ستغني.

هل سيسمح لي بالحضور؟ - أردت الابتعاد عن الأمر، فأنا لا أستحسن هذا النشاط الفني.

أجابتني بلطف:

طبعاً سيسمح إلى آباء وأمهات المشاركين في الحفل بالحضور.. تعال، وانظر. وإلا فإنهم ينظرون إلينا كمتوحشين. فأنت ترى كيف يصفون أخويَّ بـ «قطاع الطرق».

اشتريت الزهور (بتوصية من زوجتي) وذهبت إلى المدرسة، إلى المديرة. فشكرتني لتقديم الزهور ولم تقل كلمة واحدة أكثر وحتى بلا الابتسامة المألوفة - ظهرت وكأنها مشغولة البال جداً ومضطربة. توجد في المدرسة الجديدة قاعة كبيرة وزاهية. جلست في ركن القاعة في آخر صف من المقاعد. وفهمت من اللافتات المعلقة هناك أنها ليست حفلة موسيقية عادية مدرسية، بل المسابقة النهائية - المهرجان الخاص بالنشاط الفني لمدارس مدينة موسكو- وحضرت هناك هيئة تحكيم تضم فنانين معروفين. وضيوف الشرف هم عمدة موسكو ووزير الثقافة. ولم أفقه ما يجري على الأخص، ولكنني كنت أعلم أن زوجتي التي كانت طوال حياتها مهتمة بخشبة المسرح قد استعدت لهذه المناسبة بإمعان: فاستأجرت بعض الملابس، منها فستان سهرة ما والحذاء من أجل ابنتي (لم تتوافر لدينا النقود لشرائها). وعرفت أن الربرتوار قد أعد، وقد تدربوا على مختلف النمر. كما علمت أن زوجتي كانت في هذه الأيام، بخلاف شوفدا، مشغولة البال وقلقة جداً. وقد رأيتهما في لحظة خاطفة عند خشبة المسرح: زوجتي بسحنة قرمزية، وكثيرة الحركة، وانتقلت

هذه الحال إليَّ عبر القاعة كلها. حقاً، إن اضطرابي قد خمد حين بدأت الفعاليات. وأصبحت القاعة كلها في أسر براءة وبساطة وصدق الأطفال. وبدا، وربما أن هذا كان مقصوداً، أن كل فعالية جديدة أكثر متعة وجاذبية. وشملت الرقصات والأغاني وأداء الجوقة الغنائية، وبعض المشاهد الهزلية القصيرة وإلقاء الشعر. وفجأة بدأ ضجيج ما يصم الآذان في مكبرات الصوت حين بلغت الفعاليات ذروتها. ثم ضاع الصوت كلياً. وحل السكون. وهرول بعضهم هنا وهناك. واستمرت فترة السكون. وتصاعد اللغط في القاعة أكثر فأكثر. وظهرت على خشبة المسرح المديرة المضطربة. اقتربت من المايكروفون، لكنه عاطل عن العمل، وقالت بصوت عالٍ:

أرجو المعذرة. حدث لدينا عطل فني.. والآن سيتم إصلاحه، وسنواصل الحفل.

مضت فترة خمس ثم عشر دقائق. وخلال ذلك تم تشغيل مكبرات الصوت عدة مرات، ثم أخذت تشخر بشكل منفر وبعد ذلك صمتت مجدداً. بدأ الضجيج والضحك في القاعة. ونهض بعضهم، بينما غادر القاعة بعضهم الآخر. وعندئذ، وهو الشيء الأهم، نهض الضيوف «الكبار» أيضاً، وأظهروا أنهم سيغادرون المكان أيضاً فقد حان الوقت لذلك. وصعدت خشبة المسرح المديرة مجدداً في عجلة.

أيها الرفاق! يوري ميخايلوفتش - المقصود عمدة المدينة شخصياً - أرجو المعذرة.. لقد كشف العطل. لقد احترق المصهر وسيتم استبداله فوراً الآن. وستستمر حفلتنا. ستقدم الآن خارج برنامج المسابقة شوفدا عظيموفا التلميذة في مدرستنا - وتلفظت المديرة بهذه العبارة الأخيرة لا سيما اسم ابنتي بجهد بالغ كما لو أنها تعبت لهذا السبب، وكما لو أنها تبرر الأمر مسبقاً، وابتسمت ابتسامة تنم عن الذنب، وأضافت: - حقاً أنا شخصياً لم أستمع لها. لكن يوصي آخرون بذلك.

أصابني التوتر، وتشبثت بمسند المقعد، كما لو أن أحداً ما يريد انتزاعي منه، وشعرت حتى أن العرق يتصبب من يديَّ. علماً بأن اللغط تواصل في القاعة. والأمر الرئيس أن العمدة لم يجلس في مقعده، وراح ينظر إلى الساعة - بدأ واضحاً أنه في عجلة من أمره. وفي هذه اللحظة ظهرت شوفدا على خشبة المسرح. إنني حتى لم أعرفها فوراً. وبدا لي أنها أصبحت أكبر سناً، وبدت كفتاة تماماً. كانت ترتدي فستاناً جميلاً بيجي اللون، وحتى لا أستطيع وصفه، والحذاء الصقيل ذو الكعب العالي بلون الفستان. تقدمت بخطى واثقة وبمشية ساحرة إلى المقدمة مباشرة، ولم تتطلع في القاعة، كما لو كانت خالية، بل إلى ما لا نهاية، وقالت بصوت رنان ودقيق وبلا صراخ:

بيوتر ايليتش تشايكوفسكي. «فصول السنة». مقطع.

ثم سارت أيضاً بثقة، وحتى برصانة نحو آلة البيانو الكبير في ركن خشبة المسرح. وجلست، معتدلة الظهر. ثم جمدت هنيهة، وبعد ذلك مست المفاتيح، وصدرت ألحان ما، كما لو كانت تروض الآلة، وتجذب انتباه القاعة. وفجأة انسابت الألحان العذبة والساحرة، بهدوء وحنان جداً، مثل نبع جبلي يزداد قوة، عندئذ لا حظت على وجه العمدة الذي كان لا يزال واقفاً علائم الدهشة، وتركزت أنظاره على خشبة المسرح، وهبط في مقعده من دون أن يبعد أنظاره. وجلس الجميع في مقاعدهم كما لو صدر الأمر لهم بذلك. وعندئذ سادت الموسيقى فقط، وأدركت ما هو الفن الحقيقي

والعظيم، لأنني لم أعد أقلق أكثر، ولم أفكر، ولم أتحسس شيئاً، بل أصبحت تحت سلطة الألحان فقط، وحملتني إلى الآفاق البعيدة المباركة، حيث نسيت الحرب والمشاكل، وحتى ثقل جسدي لم أشعر به، وكأنني أحلق في الهواء. وأعادني إلى الواقع التصفيق فقط، وعندئذ تردد مجدداً صوت شوفدا الصارم والرنان:

تشايكوفسكي. رومانس «الربيع، بدأ الثلج بالذوبان». كلمات بليشفييف.

عندما صدحت بالغناء بدا لي أن ليس القاعة وحدها بل الكون بأسره قد جمد. لو لم أعلم بأنها ابنتي، ولم أرها ببصري وبأم عيني، لما صدقت ابداً أن من يغني، وما أبدع هذا الغناء، هو ابنتي شوفدا، وأن صوتها فعلاً مثل النبع البلوري.. وضجت القاعة بالتصفيق الحاد. ونهضت، وانحنت قليلاً، ورفعت يدها طالبة الانتباه. فجمدت القاعة فوراً. وأعلنت:

- ايجور سترافينسكي. «تانجو للبيانو».

أنا لا أعرف حال الآخرين ولكنني سحرت تماماً. وأنا، لخجلي، استمع إلى هذه الموسيقى في العزف الحي، كما أظن، لأول مرة في حياتي. وكذلك المقطوعات التالية: «سوناتا القمر» و«اورورا» لبيتهوفن، و«المارش التركي» لموزارت. وبعد ذلك تقدمت شوفدا إلى خشبة المسرح مجدداً وأعلنت:

- مقطوعة «شوفدا». وهذا يعني باللغة الشيشانية «النبع». لقد أطلق أبي هذا الاسم عليّ. كلمات أحمد سليمانوف، وموسيقى عمر ديمايف.

بدأ وكأنني عدت إلى الأرض لدى عزف هذه المقطوعة، حيث تذكرت بلاد الشيشان، والحرب، وانهمرت الدموع بذاتها على وجهي، ولم أستطع الجلوس أكثر فغادرت القاعة. وتناهى إلى سمعي حين كنت في الممر التصفيق وهتافات الاستحسان، وظهرت أمامي فجأة مديرة المدرسة. وعندئذ بدت على محياها ابتسامة عريضة وصريحة وصافحت كلتا يدي بشدة:

- يالها من صبية! موهبة! إنها أنقذت الوضع فحسب، وخلصتنا من الورطة. شكراً جزيلاً. أي ابنة ربيت...

في اليوم التالي سألتني ابنتي:

- هل يمكن أن أواصل الدراسة في المدرسة الموسيقية؟

ماذا كان بوسعي أن أقول لها؟

لكن الموافقة على الدراسة أمر، ودفع الأجور أمر آخر. وليس في المدرسة الموسيقية فقط، بل وفي المدرسة العادية أيضاً. وبالرغم ما يقال إن التعليم في البلاد مجاناً، فإن النفقات كثيرة - مقابل الحراسة والتغذية وإصلاح مبنى المدرسة والصف ولشراء الكتب والدفاتر- وعموماً إن موسكو

مدينة غالية. ونحن نعيش باقتصاد شديد، ولا توجد أي نفقات إضافية، لكن النقود، وما تم اقتراضه من مكسيم، صار يذوب بسرعة. ومن الصعب جداً تصور حياتي. إنها ليست الحياة في القبو في جروزني، لكنني كابدت من شظف العيش جداً، ولم تتوافر أي وسائل راحة، وكنت أخشى ما يضمره لي المستقبل، فلا توجد أي آفاق بموسكو، بينما أنا رب الأسرة ومعيلها. وأنا أعلم أن النفط يتدفق بحد ذاته من حقلي. وحيثما يوجد النفط توجد النقود. زد على ذلك أنني عملت في العام الأخير عموماً بلا أجرة عمل. وبالرغم من محاولة زوجتي إقناعي بالعدول عن السفر، فلم يكن لدي خيار آخر، فأخذت قليلاً من النقود وتوجهت إلى المطار.

ومفهوم إن الرحلات الجوية إلى جروزني قد ألغيت، فوقفت أمام لائحة جدول الرحلات في المطار لكي أختار الرحلة المناسبة، وإذا بأحدهم دفعني من الخلف بمودة، إنه زميلي من العاملين في حقوق النفط:

ها أنت هنا، بينما يجري البحث عنك في كل مكان. وأصدر الوزير أمراً بالبحث عنك.

عموماً، لقد حالفني الحظ. وحالفني الحظ في الطريق. ووصلت إلى جروزني بلا أي عقبات. لكنها لم تكن مدينتي جروزني، والمشهد فظيع في كل مكان هناك: إنها الحرب! لكن النفط هو النفط - وتجري حراسة مبنى «جروزنفط» بإمعان. ويسود في مكتب الوزير جو العمل، والنظافة والهدوء. وقد ابتهج بإخلاص لمجيئي. وعرض عليّ فوراً: - ستصبح نائباً لي.

وأجبت فوراً: - كلا سأذهب إلى دائرتي لحفر الآبار، إذا سمحت.

قال الوزير بعد فترة صمت قصيرة: - هل أنت أحمق. هنا العمل أكثر صواباً وهدوءاً. وستتولى إدارة ثلاث دوائر حفر، أي ستكون جميع عمليات استخراج النفط تحت إشرافك- ستكون مدير التريست. إن دائرتك لم تتضرر تقريباً. وستستقر هناك. أما الآن فاذهب إلى المحاسبة واستلم رواتبك.

كنت أعرف أنهم يسددون الديون المتراكمة عن الأجور غير المدفوعة. وقد أجريت بهذا الصدد حساباتي وكنت أحلم باستلام نصف ما هور مقرر تسديده لي- عندئذ كنت سأسدد جميع الديون وأحل المشاكل، وفجأة حسبوا كل شيء، مع مراعاة تغير سعر العملة. وأضيفت أيضاً رواتب الإجازات خلال ثلاث سنوات ومنحي علاوة شخصية بمقدار رواتب عام كامل. أنا أصبت بصدمة فحسب. ونسيت حتى الحرب!

10 أبريل، صباحاً

الطقس رائع اليوم. الشمس. الربيع! إن الجو يناسب مزاجي. وبالرغم من أن اللئام أرادوا إفساده، ولكن حتى هم لم يستطيعوا ذلك في هذه المرة. لأنني أصبحت جداً منذ عدة أيام.

في نهاية المطاف...

في البداية هتف لي مكحل - وكان مسروراً جداً! الحفيد! ولم تكن بهجتي أقل. ولو أن هذا الصبي لن يحمل لقبي. إن لقبي وسلالتي تنتهي معي، وبدت حياتي بلا مغزى في الواقع... لكنني لا أريد التفكير والكتابة عن ذلك اليوم. أنا سعيد! أنا مسرور من أجل ابنتي. وقد هتفت لي قبل قليل. وتدعوني للمجيء إليها. إنها تلح في دعوتي. كما يدعوني مكحل أيضاً.

الناس في أوروبا يعيشون في سناء كما في الجنة على الأرض. طبعاً توجد هناك، في أغلب الظن، مشاكلهم أيضاً. لكن لم توجد لدي مشاكل خاصة، وحياتي هناك أخف وأفضل بكثير... كما أن حالتي الصحية الواقعية أصبحت أفضل. كيف حال الطب هناك! لقد تبين أن ابنتي قد اتفقت منذ وقت بعيد بشأن إجراء فحوص لي في أحد المستشفيات في المانيا. وقد ارسلت إلى هناك الوثائق الطبية لتاريخ مرضي. بينما تولى صهري نقلي إلى هناك. وقد وصلنا إلى هناك خلال نصف ساعة. المبنى صغير ونظيف جداً. ولا يوجد أي أحد تقريباً. أنا لا أفهم شيئاً باللغة الألمانية، لكنني فهمت من اللوحة المعلقة في الممر أسعار الخدمات الطبية. في مركز علاج الأورام في موسكو توجد لافتة أيضاً - «إن جميع الخدمات الطبية في هذه المؤسسة تقدم مجاناً». أي وقاحة! إذ يجب هناك الدفع من المدخل، حيث يحصل على الباخيل (جرابات الوقاية وتلبس فوق الأحذية في المستشفيات)، وحتى دخول القلعة الواقعة في درب كاشيرسكايا. وجميعها أكثر ما يدفع هنا بمقدار الضعفين. وما أكثر الازدحام هناك، حيث تقف الطوابير في كل مكان، وتوجه للمرضى الإهانات والإذلال. صفوة القول، يسود هناك نظام القنانة - قوانين القنانة! بينما هنا أدخلوني إلى غرفة الفحص في الوقت المقرر. وفكرت بأنه سيكون من غير المريح أن أخلع ملابسي بحضور صهري، ولا بد من حضوره - لكي يتولى الترجمة. وتولى فحصي هنا أربعة أطباء دفعة واحدة، وذلك بحضور مترجم محترف. وقد تبين أنه كان من الواجب حسب معطياتي أن تجري معالجتي في البداية من دون إجراء عملية جراحية. وذلك باستخدام العقاقير. وفقط في حالة عدم التوصل إلى نتيجة تجري العملية الجراحية، وذلك باستخدام الليزر فقط. وطبعاً ليس بتلك الطريقة البربرية. وحتى أنا فهمت قرارهم - «البربرية». إن طبيبي، الطبيب الراديوي، أو بالأحرى طبيبنا في موسكو المختص بالأورام، ذهب إلى أمريكا بصورة من الصور، للدراسة، في أعوام التسعينيات. وهناك تعلم تقنية إجرا ء مثل هذه العمليات، فلا يعرف غيرها. وعندما عاد إلى موسكو اشترى فحسب منصب رئيس قسم (ولم يخف ذلك نفسه، ووجب عليه أن يدفع باستمرار إلى المراجع العليا)، علماً بأن هذه الحرفة أي بزنيس الطب مربحة جداً.

أما هنا فقد مضى العلم بعيداً في مسيرته إلى الأمام. وحتى إذا ما أجريت عملية جراحية كهذه فإنها ستتم بشكل آخر. لكن هذا في أوروبا، وبالأخص في ألمانيا، هذا ما يراه الأطباء، أما في روسيا فالجميع بمستوى حياة الإنسان البدائي. ومن يمتلك النقود والإمكانية يسافر للعلاج إلى أوروبا. ولم تكن لدي مثل هذه الإمكانية آنذاك. أما الآن فإن ابنتي تزوجت، وكما يقال حالفني الحظ. ويعرض عليّ البقاء ثلاثة أيام في المستشفى من أجل إكمال الفحوص. وأعترف بأن هذه الأيام الثلاثة قد جلعتني أخرج عن طوري فحسب. فقد تبين أن هذا المستشفى صغير ظاهرياً فقط. أما في الواقع فإنه يتألف من عدة مبانٍ وهو مرتبط بممرات خفية، وأكثرها تحت الأرض، إنها متاهات حقيقية.

وكانوا يأخذوني طوال اليوم تارة إلى هنا وتارة إلى هناك، ويفحصون كل شيء. وفي اليوم الثالث أعلنوا أن من الضروري البقاء يومين آخرين من أجل الحصول على النتيجة الشاملة للتحاليل، كما تم استدعاء اختصاصي من سويسرا من أجل الاستشارة. أنا لا أعرف ما أقول، فأنا لا أستطيع الحديث، وأفكر فقط بالمبلغ الذي ستدفعه ابنتي. علماً بأنها كانت تهتف يومياً وتقول إنني يجب ألا أفكر في ذلك مطلقاً. كيف لا أفكر في ذلك؟ إنني وجهت السؤال عن ذلك إلى كبير الأطباء. فأجابني بلطف، بالمناسبة هذا هو سلوك الجميع دائماً هنا، وابتسم، وقادني إلى مكتبه وقال:

إن سبب مرضك هو الكآبة. إنها الأعصاب. وذلك بسبب المعاناة والآلام. ونحن نعرف كل شيء: حربان، ووقوع خسائر في العائلة. لو كنت مواطناً أوروبياً لكان العلاج كله مجاناً، - حيث تغطي بوليصة التأمين النفقات. لكننا قررنا أن نسهم برصيد متواضع - ونقدم لك العلاج مجاناً!

أما التشخيص فهو أنني بصحة جيدة عموماً. ولا يوجد انتشار الأورام والورم الخبيث في الدم (فقد عملت الأشعة عملها). لكن بغية أن أعيش بصورة طبيعية يجب إجراء عملية جراحية أخرى من أجل تبديل القسطر البدائي بآخر حديث ومريح جداً. ويصنع هذا القسطر بموجب طلبية خاصة في اليابان، ويجب دفع ثمنه، علماً بأنه غالي الثمن. فرفضت ذلك فوراً. أنا أشعر بعدم الأرتياح حيال ابنتي. لكن ابنتي أعلنت موافقتها فوراً ودفعت ثمن المعجزة اليابانية، علماً بأن القسطر سيوضع في مكان آخر، في سويسرا. وسيتم ذلك فقط بعد شهر- وهي المدة التي سيتطلبها صنع القسطر المناسب لي.

هكذا سواء رغبت أنت أم أبيت بقيت في أوروبا فترة تربو على الشهرين. وأقول بصراحة إن الحياة هناك رائعة، والتقيت مع ابنتي كثيراً، ومع ذلك كانت روحي تصبو إلى الجبال في موطني. وبغية الترويح عن ضجري كان مكحل غالباً ما يأخذني إلى جبال الألب. الألب - إقليم ساحر! إنه يشبه القوقاز من نواحٍ كثيرة. فهناك كل شيء جميل ونظيف ومعتنى به. وفي كل مكان يسود النظام والترتيب، في جميع الطرق والبيوت والناس. وبودي القول إن كل شيء مطهر كما في الصيدلية. وهذا رائع! لكن جبالي القوقازية أقرب إلى روحي - فهي عذراء وخالية من البشر وتسودها الحرية، والشيء الرئيس إنها عذراء كما خلقت أصلاً. ومهما كان الإنسان متحضراً ومهذباً، فحيثما يوجد كثير من البشر، وبتعبير أدق من السياح، لا يتم تقبل الوحدة مع الجبال، ومع الطبيعة نفسها، ومع هذا العالم السرمدي المترامي الأطراف والصعب المراس. وحينما يرى المرء فوق إحدى الذرى الجميلة أسلاك طريق العربات المعلقة والمقاهي والمراحيض..- فإنها لا تعتبر ذروة جبل، وذروة لا تقهر. إنها مجرد منصة مشاهدة، حيث تشتد الرياح. ومع ذلك فإن المشاهد الطبيعية في الألب رائعة. وحاز -على إعجابي بأكبر قدر- التحليق بواسطة الطائرات الشراعية.

لقد كان ذلك يجذبني للغاية! وكم وددت أن أحلق. وعندما أرى التحليق بواسطة الطائرات الشراعية أتذكر دوماً بألم وأسى صديقي مكسيم. وأعتقد، بل أنا واثق، من أنه لو لم يتخل عن هذه الهواية (لقد كتبت عن ذلك بعد زيارة جروزني في زمن الحرب) لعاش أكثر وأكثر. لكنه لزم بيته - الحمام والسكر والطعام، وأصبح بديناً جداً، ويدل مظهره على أنه صحيح البدن، لكنه فقد الطاقة للحركة - ولم يتحمل قلبه وضع السكون... إنني زرت كراسنودار بعد عودتي من أوروبا في الذكرى السنوية لوفاة صديقي. واخترت لحظة سألت فيها زوجته:

- أذكر أن لدى مكسيم طائرة شراعية. أين هي؟

- آه! إنها ملقاة في علية البيت.

- أعطني إياها كهدية للذكرى عن مكسيم.

- خذها بكل طيب خاطر.. إنني حتى لم أعرف ماذا سأصنع بها. فقد أسفت إذا رميتها. ولا يوجد من يشتريها، لا يوجد مثل هؤلاء الحمقى، كما إنها معطوبة. وتشكل إعاقة. خذها.

أخذتها وجئت بها إلى الجبال، وأصلحتها. أريد التحليق، لكنني أخاف ولا أجيد ذلك... مع هذا سأحلق. إنه حلم! ربما أن هذا يشكل الآن مغزى حياتي... أليس هذا شيئاً رائعاً؟!

11 أبريل. مساءً

كابدت اليوم، والشيء الرئيس كابد قسطري، محنة كبيرة. فقد جاء في وقت مبكر صباحاً فتى من القرية المجاورة وقال إن الذئاب نهشت إحدى خيولي. طبعاً إن الذنب في ذلك يقع على الفحل -رئيس القطيع- فقد حل موسم الربيع، أي فترة الوداق لدى الحيوانات، ولهذا فإن الفحل منهمك في مصارعة خصومه. وما كان بوسع الذئاب الاقتراب من قطيعي - إن رئيس القطيع شبه متوحش وقوي وشرير. طبعاً إن تربية الجياد كانت هوايتي المحبوبة. وقد وفرت ابنتي النقود، وأنا أدبر أموري في هذا المضمار كيفما أستطيع. أنا أخلق لنفسي المشاكل. ووجب عليّ في هذه المرة الذهاب إلى جيادي، وفي الوقت نفسه سأجلب لها الملح. فقد ترغب الخيول بتناول الملح وهو غير متوافر في الجبال، وستعود إلى المربض بينما المهر جريح، ولن يستطيع قطع كل هذه المسافة - وهذا ما يحز في نفسي. وحسب أقوال الفتى أتكهن بأي مكان ترابط الخيول. الطريق غير قريب ووعر، كما يجب عليّ أن أحمل نصف كيس من الملح، وكذلك الطعام والبندقية. قصارى القول إنها محنة للجسد، وأنا أخشى كثيراً ما يمكن أن يحدث لي، أو بالأحرى كيف سيكون سلوك القسطر الجديد.

بدأت أعيش حياة جديدة مع هذا القسطر. والشيء الأساسي أنه لا يصفر لدى التنفس، وأنا الآن غالباً ما أنسى - هل هو موجود أم لا. علماً بأن التنفس بحد ذاته أصبح بسيطاً جداً، وكان الهواء سابقاً، وكذلك العدوى، تدخل إلى القصبات، كما يبتل الملح في حقيبة الظهر والرئتين مباشرة، ولهذا كنت غالباً ما أصاب بالمرض، وأكابد العذاب المستمر- حيث لم أستطع أن أسعل، وحتى تولد لدي فتق (تمت إزالته في سويسرا أيضاً)، فإنه توجد في هذا القسطر، كما يقال، مرشحات (فلترات) مضادة للفيروسات. ومن ميزاته الأخرى أنني أستطيع الآن الاغتسال تحت الدش والمشي تحت المطر. حقاً، لقد حظر عليّ بشكل بات الغوص في الماء. من ناحية أخرى هناك عيوب، حسب اعتقادي. فهذا القسطر محشو بالإلكترونيات ويعمل من لوح تحكم منفرد فإذا فقدته أو نسيته أو بللته، لا سمح الله، فإن البطارية تتوقف عن العمل. وتوجد في هذا اللوح خمسة أزرار

- خمسة مواقع. الأول - الإيقاع الاعتيادي. الثاني - تناول الطعام الذي يستمر فترة عشر دقائق، ويجب أن ألحق في إشباع نفسي، لأن التشغيل التالي يتم بعد ساعة فقط. وسبب ذلك أن تدفق الهواء محدود في أثناء تناول الطعام. وبالرغم من أنني لا أشعر بذلك، لذا تكفي، من حيث المبدأ، فترة عشر دقائق من أجل تناول الطعام. أما الزر الثالث فهو خاص بشرب السوائل والماء - فترة دقيقة واحدة، ويتوقف دخولها بصورة تلقائية. أما الزر الرابع فهو أكثرها ظرافة - الزر الخاص بنظام أخذ الدش أو نظام التواجد تحت المطر. إنه مريح جداً حيث لا يتحدد فيه الزمن، إذ لا أشعر بصعوبة في التنفس... وأذكر أنهم في المستشفى في سويسرا أرغموني في أول مرة على الوقوف تحت الدش، وتدفق الماء منه بشدة، وتملكني الفزع البالغ. لكنني وقفت تحت السيل العارم، ولم تدخل في القسطر قطرة واحدة، وقد سرني ذلك كثيراً. آنذاك بقيت فترة طويلة تحت الدش، كالطفل، حقاً، ولم أغادره حتى حين تم استدعائي.

وثمة زر خامس (لونه أسود لسبب ما)، لم يوضحوا لي شيئاً بصدده، ولا ترد في التعليمات أي كلمة عنه، كما أبلغني صهري وابنتي. أعتقد أنه يستخدم لدى الوفاة للحيلولة من دون تسرب الهواء إلى داخل الجثمان... في الحصيلة إن ما يتحكم بحياتي الآن ليس الدماغ، ولا مشاعري ولا رغباتي، بل لوح التحكم. لا سمح الله أن يتوقف عن العمل أو لا يصدر الأمر اللازم. لهذا فإن أول خروجي في الجبال، لزيارة قطيع الجياد، قد أخافني وجعلني ألتزم الحذر قليلاً. زد على ذلك إن القلب و«اللياقة البدنية» يجب أن يكونا على ما يرام. ولو أنني أمارس التمارين الرياضية يومياً، وأحياناً مرتين في اليوم.

صفوة القول بدأت مسيرتي بالإصغاء إلى صوت جسدي، أو بالأحرى إلى القسطر. في البداية - الهبوط - بلا أي مشاكل، في قاع الوهدة يجري نهرنا الصغير والبارد جداً والسريع التيار، وبعد ذلك الصعود الأول، غير العالي، لكن الطويل الأمد، حيث يجب أن تبدأ محنتي، أي معاناتي. أنا أعرف بأن قسطري القديم كان يبدأ بسبب ازدياد التنفس بالصفير مثل قاطرة منهكة عتيقة، وعندئذ يستبد بي الخوف. لكن في هذه المرة لم يصدر أي صوت، وحتى نسيت لفترة ما وجود هذا القسطر. وصعدت المعبر من دون توقف وعسر تنفس تقريباً، وتطلعت نحو - أي سناء وسحر إلهي في عالم الجبال: السرمدية والفضاء الفسيح والجبروت والخلود. وراودتني فكرة صائبة مفادها أنه لا يوجد ما هو أجمل من الجبال سوى الجبال. بيد أن هذا الجمال صارم وقاس وأحياناً لا يعرف الرحمة - - لذا فإن الحياة في الجبال ليست يسيرة أحياناً. ها أنا ذا أقف الآن على قمة الجبل، الشامخ بقوة وسحر الطبيعة، وإذا بهبة ريح شديدة وباردة تعصف من جانب الكتل الجليدية الخالدة. إن الطقس في الجبال يتغير بسرعة، ورأيت كيف غطت السحب القاتمة الثقيلة بردائها سلسلة جبال القوقاز كلها. وهناك حيث تلتقي السماء مع الأرض، وهناك حيث يسود الفضاء، وتفرض قوانين ليس الأرض وأهل الأرض الخاطئة والجشعة والمادية، بل قوانين روح الكون والفضاء اللا متناهٍ- فضاء الحرية الأبدية خارج الأرض، وهناك حيث تولد العواصف والأعاصير والرعود- وكأنها البشير بمولد حياة جديدة وموت أحد ما. موتي أنا؟ ربما، حان الحين؟!. إن هذه السحب سرعان ما تنزلق، أو بالأحرى تحلق، وتجلب معها الرياح والأمطار، وربما البرد، والثلوج. وأنا طبعاً أعرف ما هي العاصفة في الجبال. حينما ينهمر كل شيء من السماء، وتصفر الرياح في كل مكان، ويسود الضباب الشديد - بينما تصبح أنت في وسط السحب، ولا يمكن رؤية

أي شيء. وفي مثل هذا الوضع في موطني في الجبال يمكن أن تفقد جميع دلالات الاتجاه وتضل الطريق، وتسير في اتجاه مجهول، وفي كل مكان ضياع، ولا يوجد درب مطروق، وحتى إذا وجد فإنه لا يكاد يرى، علماً بأن الوحوش المفترسة تكمن فيها، ولا وجود للإنسان حيث يعيش التيس الجبلي والنمر الجبلي أو الدب. فأنا لست إنساناً بل نصف إنسان - معوق. وأنا أعرف بأنه في مثل هذا الطقس يجب أن يلجأ أي وحش إلى مخبأ ما.

هل أواصل الدرب أم أعود إلى البيت؟ طبعاً ما كنت أستطيع ذلك، فيزيقياً، حين كان لدي القسطر القديم. لكنني لا أكاد أشعر بوجود القسطر الجديد تقريباً، وقررت أن رداءة الطقس القادمة - هي بمثابة امتحان لي. فواصلت السير، وأردت السير، وحتى للقاء العاصفة الرعدية. عصف الريح، وانهمر المطر الشديد، فضغطت على الزر الآخر، «نظام الدش والمطر»، وأحسست فوراً بضيق النفس، وبصعوبة في الصعود وراح ينقصني الهواء. وأردت أن أعيد الضغط على الزر، أردت استنشاق الهواء، لكنني أخاف، أن يتسلل الهواء البارد عندئذ إلى داخل القصبات والرئتين... عندئذ توقفت عند معبر ما، ووقفت تحت المطر، ولم أعرف ما يجب أن أفعله لاحقاً..- أنا لا أستطيع السير بهذا النظام، كما أن الملح سيبتل في حقيبة الظهر، وجسدي الفاني يصبو أكثر فأكثر أصلاً إلى الأرض. أما خشيتي فكانت لأمر آخر - لقد لففت لوح التحكم في كيس من السيلوفان، تحسباً للطوارئ، لكنني أخشى أن يبتل، وعندئذ أغدو بلا تحكم، وهنا أنا لا أراها - الوحوش المفترسة الكثيرة، وهي تتحسس الضعيف بالشم: ما دام الأمر كذلك فيجب ألا يعيش أمثالي - ودعها تفترسني.

في الأعوام الأخيرة غالباً ما كنت أحلم بالموت، بدلاً من العيش هكذا بمذلة... وها قد لامسني الموت قليلاً - لا! أريد، أريد أن أعيش لأنني تذكرت فوراً ابني الأصغر. فلم أنتقم له بعد؟... يجب أن أنتقم، فهذا واجب. وضغطت بلا تفكير على زر «النظام العادي». وفوراً غدا تنفسي أفضل، وغطيت القسطر براحتي يديّ، ولو أنني على يقين بأن المشي بهذه الصورة ينطوي على مجازفة كبيرة. حقاً، بدا أن الطبيعة ذاتها، وكما لو أن لوح التحكم بها يوجد بيدي، قد رحمتني فحسب - أنا الضعيف البدن والمعوق. فهدأت الرياح بحدة وخفت الأمطار، ومن ثم توقفت نهائياً، وصار الضباب يتبدد بسرعة ويختفي، وهو ما يحدث في الجبال فقط. وراودتني فكرة العودة - فأنا متعب ومبلل وخائف، وعموماً أنا معوق ولست في مقتبل العمر. ولكن وجب عليَّ أن أتغلب على ضعفي، وأجاهد للتغلب على إرادتي، فواصلت السير. وكوفئت على صبري وعنادي. فقد عملت خيراً، إذ كانت جيادي بحاجة إلى الملح. ويبدو أنها تحسست بما جئت إليها، وهرعت خبباً للقائي. لقد ازداد قطيعي - ورئيس القطيع - الفحل جذب إلى «حريمه» الأفراس الغريبة. وتفحصت جيداً المهر الجريح.

كان الذئب ضخم الجسم وشقت أنيابه كالخنجر مؤخرة المهر الصغير. الجرح عميق. وكانت الأم - الفرس شاطرة فقد لحست الجرح وصار يلتئم. والجدير بالذكر أن هذه الفرس ذاتها كانت تتدافع مع الأخريات أمام سمعي وبصري وتلتهم بشفتيها القويتين القسم الأكبر من الملح، وتجمع اللعاب شيئاً فشيئاً، وتداوي بهذا السائل جرح المهر. إنها الطبيعة الحكيمة والساحرة! وهذا ما تعنيه رعاية الأم والوالدين.

أنا بصفتي من الوالدين لم أوفر مثل هذه الرعاية لأبنائي. ولهذا فعندما رجعت إلى قريتي توجهت إلى مقبرتنا. إنها تقع في المنخفض تحت جبلي، أو بالأحرى جبلنا، عند ضفة النهر. إنها مقبرة قديمة جداً، ولا توجد هناك قبور حديثة العهد كثيرة. وبعد التهجير منع الناس من السكنى في الجبال، وبدأ دفن الموت في أماكن العيش في السهول. وعاد بعضهم، وعددهم قليل، إلى الجبال في الفترة الأخيرة. لكن وجدت من بين القبور الحديثة العهد ثلاثة فقط، بينما يوجد شاهدان فقط للقبور- وجميعها لأفراد عائلتي... ولماذا يوجد هناك شاهدان للقبور فقط؟.. إذا ما توخيت الصدق فأنا لا أريد الكتابة عن ذلك الآن، ولن أكتب عنه أبداً. ويكفي أن أفكر في ذلك، وهذا الأمر يعذبني، وأراه في الحلم، ويحز في نفسي...

12 أبريل

ما أروع الطقس. الربيع! يالوفرة الشمس. وأي هواء. الطيور تغرد منذ مطلع الفجر. إنها تبشر بالسلام والسعادة والمحبة. كم أود الحياة! أريد أن أحيا بهذا الشكل بالذات - وحدي مع الطبيعة، وأندمج معها وأكون فقط معها - في انسجام، وفي سيمفونية... مالي تحولت إلى ذكر المصطلحات الموسيقية. لقد تذكرت ابنتي - وتأثيرها. بينما جاء وقت كنت أتخذ فيه موقف العداء من هذه الموسيقى والفنون، وعموماً جميع الفنانين والتفنن. لأنه يجب أن تسود في المجتمع الشيشاني، حسب اعتقادي آنذاك، روح الجبلي والجيغيت (الفارس) والمحارب أو حسب التعبير الأوروبي - الروح الإسبرطية. أما الموسيقى والفنون فهي ليست شيشانية، ناهيك عن أن تكون مهنة الرجال. أما الآن فأنا لا أعتقد ذلك. بل بالعكس فأنا أنفر من الأبطال الزائفين والزعماء الزائفين الذين يحملون الرشاشات المذهبة، وتفوح منهم الروائح العطرة، ويركبون سيارات الجيب الغالية الثمن بمرافقة الحرس. الآن أنا أفضل أكثر الموسيقى والفن وما يعتبر، وأرجو المعذرة، ليس ما يعتبر، بل يمثل فقط النفائس الثقافية. هذا ليس فقط لأنني زرت أوروبا، بينما حققت ابنتي الإنجازات في الفن، وأصبحت الآن تعيلني. كلا. لقد أدركت ذلك، وياللأسف، بفضل خبرتي الحياتية، كما يقال الآن - بصورة جنينية، وبتعبير أدق - لقد امتحنت ذلك بنفسي، وبتعبير أكثر دقة - قطعت روحي ومصيري بسكين صدئ. ولا حاجة إلى تفسير هذا كله اليوم. فهو معروف ومفهوم أصلاً. إذن فما الحاجة إلى كل هذا التعقل وجميع هذه الحقائق المعروفة منذ زمن بعيد والفلسفة الزائفة في الحياة؟ بينما يتصدر الوضع، في واقع الحال، هنا الآن، القوة الغاشمة والرجل المسلح. والأخير ينسب إليَّ أيضاً. لأنني خرجت في العشية إلى الجبال حاملاً بندقية الصيد - ربما من أجل ضمان الأمن، فقد يظهر في طريقي بغتة ذئب أو دب أو نمر الجبال أو غير ذلك من الوحوش. ولو أنني لا أخاف هذه الوحوش، وأخاف من الوحش الذي يمشي على ساقين - أي الإنسان. ومع ذلك فأنا أتوقع لقاءه وعندئذ.. أوه، عندئذ يجب أن أكون على أهبة الاستعداد.

عموماً مررت يوم أمس بالمقبرة في طريق عودتي إلى البيت. هاج قلبي، وغمرتني الذكريات، فأخذت أطلق النار. أطلقت النار كيفما اتفق، نحو أهداف افتراضية. وقد سمع أحدهم إطلاق النار وأبلغ (كانت الأزمان كهذه) فجاءني في صباح اليوم شرطي المحلة. إنه شاب فتي، لا بأس به، وحتى من أقربائي البعيدين. لكن - الخدمة تتطلب ذلك. فاستفسر مني بلباقة عن بندقية الصيد، وشرح لي أن الصيد وإطلاق النا محظوران. لكنني لم أمارس الصيد. هذا بالرغم من وجود رخصة الصيد لدي، والبندقية مسجلة رسمياً حسب الأصول. لكن يوجد أمر شفهي بحظر الصيد. حقاً يمكن ممارسة الصيد إذا ما اشتريت رخصة. وقيمتها خمسة واربعون ألف روبل. وعندئذ يمكن ممارسة الصيد فقط تحت إشراف حارس الغابة المحلي. صفوة القول، إن هذا لا يعتبر صيداً. كما أنني لا أريد إطلاق النار على الفرائس من الطيور. ولدي خططي، ومشاريع صيدي، وأنا أنتظر، وأستعد، وأحلم. أحلم بأن أقتل، وأنتقم...

كيف كان يمكن التفكير بهذا في مثل هذا اليوم الرائع والمشمس والربيعي؟! لقد تبين أن هذا ممكن. وكيف لا وقد جاء إليك شرطي المحلة منذ الصباح؟ لحسن الحظ إن هذا الفتى هو مع ذلك رجل طيب. إنه حتى حذرني من أنه سيجري التحري والتفتيش في بيتي. بينما أفلحت في إخفاء سلاحي

الحقيقي، بندقية القناصة، بعيداً عن الأعين. وبعد ذلك وكما نصحني الشرطي خرجت إلى الجبال. تنزهت هناك طوال اليوم وتمتعت بالمناظر الطبيعية وبالطقس وبالهواء العليل، ودهشت لما حدث- فقد تم التحري وقلب كل شيء في البيت رأساً على عقب. بيد أن هذه ليست مصيبة. وثمة أمر أسوأ. فقد تبين بأنه ترأس فريق التحري شخصياً حفيد العم جيخو. كم وددت أن ألقاه، وأراه وجهاً لوجه.

لكن لم يحالفني الحظ. ربما لم يحالفني أو لم يحالفه نفسه الحظ. ربما، أن كل شيء حدث بالعكس؟ سنرى.

13 أبريل

أدركت في نهاية المطاف من هو الجرافومان (الكويتب). لقد تبين أن المقصود به هو أنا. هذا عندما يكتب المرء ويكتب شتى الترهات والسخافات.

ولماذا أكتب؟ أطرح هذا السؤال على نفسي في كل مرة. يبدو أن السبب هو عجزي عن الكلام. وبغية التواصل مع الآخرين أحمل في جيبي دائماً المفكرة والقلم. علماً بأنني نادراً ما أتواصل مع أحد. فهذا التواصل يشكل عبئاً ثقيلاً بالنسبة لي ولمحدثي. ولهذا فأنا أحب العزلة. وقد اعتدت الوحدة. والغريب في الأمر أن الإحساس ظهر لدي ليس بعد العملية الجراحية، حين لم أعد قادراً على الكلام: إنه ظهر قبل ذلك في بداية الحرب الشيشانية الثانية حينما شهدت حياتي مآسي فظيعة. ومنذ تلك اللحظة سارت حياتي في درب الضلال. وأي حياة بعد ذلك؟ ولهذا أكتب عن كل شيء في الدنيا، ويراودني الخوف من ذلك. لكن إذا ما عزمت على الكتابة وقلت «أ» فيجب المضي حتى النهاية بقول «ب». والكتابة عن كل شيء كما هو. وآمل في أنني سأتمكن من ذلك، وإذا ما قرأ أحدهم ما أكتب على حين غرة، فقد يفهمني ويغفر لي. فهذا كله بمثابة الاعتراف، وأنا نفسي أحاول أن أصل إلى استنتاج ما، والتوصل إلى رأي ما، وتحليل الأمور كافة مرة أخرى. أي تسديد الديون لعلمي أن القوى غير متكافئة، بينما لم يبق لي في الحياة فترة طويلة. لكنني آمل، وأبتهل من أجل ذلك، في أن تتاح لي الفرصة مرة أخرى، وعندئذ سأضغط على الزناد، وسأضغط عليه حتماً ولن أخطئ في إصابة الهدف. هذه هي الفكرة وهذه الرغبة التي تراودني في أواخر أيامي. ولكن هل هذا شيء صائب وإنساني؟ طبعاً، إن هذا كله يعتبر من عواقب ونتيجة الحربين الماضيتين. ومعروف أن الحرب لا ترحم أبناءها. وتجسد هذا في مثالي بصورة تامة.

... في أواخر عام 1996 وضعت الحرب أوزارها في جمهورية الشيشان. ووقعت معاهدة ما، وحل السلام كما زعم. لقد انسحبت القوات الروسية، وتوقفت عن القصف بالقنابل، وإطلاق النيران إلا فيما ندر، وعموماً يعتبر هذا تقدماً جلياً للعيان بالمقارنة مع ما كان. لكن جروزني أصبحت خراباً تقريباً. وشقتنا تهدمت. وجرى بناؤها مجدداً، أو بالأحرى أعيد بناء المبنى كله، وكذلك جميع وسط المدينة، حسب الوثائق، وبالنقود المخصصة لذلك، ولكن دخل المدينة مجدداً تقريباً المسلحون وطال الخراب كل شيء من جديد. أنا لا أريد الكتابة عن هذه اللصوصية أو البزنيس القائم على

الدم. إذ يعرف منذ قديم الزمان أن الحرب تجلب المكاسب الضخمة إلى أحد ما. والرب معهم. لكنني حين اشتريت هذه الشقة قبل الحرب اشتريت في الوقت نفسه بيتاً صغيراً في أطراف المدينة. بيد أن الدمار طال هذا البيت الصغير والشارع كله أيضاً. لكن وجد لدي ما يكفي من النقود من أجل إصلاحه. إذ يجب عليّ أن أعيش في مكان ما، ما دمت أعيش وأعمل هنا في جروزني، وهنا فقط يمكن أن أكسب الرزق لإعالة أسرتي. وأسرتي تعيش بموسكو.

لو عادت الأمور إلى حالها السابق لأبقيت الأسرة هناك. ولكنني أردت آنذاك إعادتهم إلى جمهورية الشيشان، فيجب أن يكون أفراد عائلتي معي، لا سيما إن ابنتي تشب عن الطوق. وعموماً كيف يعيش الآخرون هنا. إن زوجتي لا تعارض بجلاء، لكنها تقول إن الأولاد بحاجة إلى تعليم. وأنا أعلم أن التعليم في جمهورية الشيشان في وضع يرثى له بجلاء -وثمة وجود ظاهري له- مع ذلك كنت أود أن يكونوا إلى جانبي، كقوة متلاحمة واحدة. وكانت هذه الفترة حاسمة بجلاء في أسرتنا. لأن الابن الأكبر أنهى الدراسة في المدرسة ووجب أن يلتحق بمعهد عالٍ. لو اختار معهداً عالياً بموسكو لكانت المسألة... لكنه أراد السفر إلى جروزني بالرغم من أنه لم يكن ولو مرة واحدة في جمهورية الشيشان، منذ أن اختطف آنذاك قبل الحرب... ولم يكن هناك أي أحد منهم. وقد جئت بهم. طبعاً إنهم صدموا لدى رؤية الدمار في جروزني، ومن أسلوب المعيشة، ومن هذا الخراب اليومي والقمامة وغياب النظام في كل مكان. وبغية التخفيف من هذا الانطباع المحزن لحد ما، أخذتهم مرة إلى جبالنا. هناك تكمن الجبروت الخالدة. وهناك لم توجد ولا يمكن أن توجد أشباح الحرب- فالجبال منيعة وصامدة. هناك الجمال الساحر الذي يهز الروح. وهناك يشعر المرء ويتحسس بجلاء أنه موجود في موطنه، في أرضه الحبيبة. هناك تسود روح الآباء والأجداد. وتغدو روحك أكثر رجولة وعزة وسمواً بشكل غير ملحوظ. ويكتسب المرء هناك فحسب شعور الاعتزاز بالذات والرفعة. وابتهج الصبيان فحسب لما شاهداه. وحتى لم يرغبا في مغادرة المكان. لكن هذه كلها مشاعر رومانسية ومثالية، لكن لا تتوافر أي آفاق للعيش هناك. إذ لا توجد طرق ولا كهرباء ولا وسائل راحة أخرى. ولا توجد مدرسة. كما لا يوجد بيت...

أذكر أننا عدنا إلى جروزني في المساء. وساد المدينة الظلام الدامس - لا يوجد نور في المدينة كلها. وكان ضوء مصابيح سيارتنا ينزلق على الخرائب كما في ديكورات فيلم «ستالينجراد». وتؤكد ذلك إطلاقات الرصاص تارة هنا وتارة هناك. لقد اعتاد الناس ذلك. وأصبحت جروزني مدينة واقعة على خط الجبهة. وبات مفهوماً ما معنى طغمة الحرب- العصابة المسلحة التي استولت على السلطة. لو كانت هذه العصابة واحدة وخضعت لزعيم واحد لاعتبر ذلك نصراً. لكن العصابات كانت كثيرة وهناك العدد نفسه من زعماء العصابات.. باختصار، بدا أن الحرب انتهت وحل السلام. أما في واقع الحال فالوضع ليس كذلك. تسود الفوضى تقريباً. وكان من المستحيل العيش في مثل هذا الوضع، حقاً، لولا وجود ظرف واحد مهم.

لقد كانت صناعة النفط في الجمهورية تواصل العمل بهذا الشكل أوذاك. حقاً، إن مصانع تكرير النفط قد دمرت كلياً، لكن يجري التكرير اليدوي في كل مكان، ولهذا تغطي جروزني وجميع القسم السهلي من جمهورية الشيشان سحابة من الدخان والضباب والغبار تجعل التنفس عسيراً. أما مجمع استخراج النفط فلم يلحقه الضرر تقريباً. على أقل تقدير إن دائرتي لأعمال الحفر تواصل ضخ

النفط في الأنابيب بلا توقف. أنا لا يهمني ما بعد ذلك وأعرف فقط أن الذهب الأسود يضخ إلى ميناء نوفوروسييسك. وفي الطريق يجري نهب النفط من الأنبوب بقوة وبوقاحة متزايدة. حقاً، لقد تم تبديل تسمية مؤسستنا «جروزنفط» إلى شركة «يونكو» - شركة النفط الجنوبية. ومفهوم إن الشركة جنوبية بحكم موقعها الجغرافي في جنوب روسيا، ويثمن المسؤولون في موسكو عملنا - حيث يلقى التقدير وتدفع الأجور بانتظام. وتم حتى استدعائي إلى العاصمة حيث منحت في المديرية العامة مدالية «الامتياز في العمل «لقاء العمل المتميز في «الظروف الطارئة»، كما منحت مكافأة بمبلغ يعادل نصف أجوري السنوية. لكنني لم أستطع تغيير مكان إقامتي رغم إمكانياتي المادية. بينما كانت زوجتي ترغب في ذلك. فإنها لم تستطع الإقامة هنا، وذلك ليس فقط بسبب مشكلة تعليم الأطفال -كان يشغل بالها دوماً موضوع توافر أبسط ظروف الأمن: فقد وقع حادث مؤسف تمت -والحمد لله- معالجته بصورة سلمية بهذا القدر أو ذاك. وبعد أن وزنت جميع «الإيجابيات» و«السلبيات» وافقت على رأي زوجتي، لكن ابني الأكبر، وقد أصبح مرشحاً لدخول الجامعة أعلن فجأة - سأمضي على خطى والدي: وألتحق بالمعهد ذاته وفي القسم نفسه. أنا فخور بابني. ولئن استطاع ولداي التكيف بسرعة مع الحياة في جروزني- فهما يفتخران بممارسة المصارعة، حيث يجري هنا بخلاف الفعاليات الأخرى التشجيع عليها وغرسها وتطويرها، فإن ابنتي ولا سيما أمها في وضع يائس. ففي جروزني لم تلق الموسيقى والفنون الترحيب أصلاً سابقاً، أما الآن فلا مجال عموماً للكلام عن الموسيقى! فأنا أحببت ابنتي شوفدا جداً وعندما بلغت سن الخامسة عشرة سافرت إلى بياتيجورسك واشتريت لها آلة بيانو كبيرة بيضاء. أعتقد أنها كانت آنذاك آلة البيانو الوحيدة في جروزني، بل وفي جمهورية الشيشان كلها. لأن ما وجد منها سابقاً قد دمر في أثناء الحرب، وبدلاً من الموسيقى ظهرت شرائط الرصاص. أذكر كيف أن جميع الذين سمعوا بأنني اشتريت آلة البيانو قد ضحكوا بسخرية وأبدوا دهشتهم... ونحن بذاتنا ضحكنا على أنفسناً. لكن ابنتي كانت في غاية السرور. فقد تم في نهاية المطاف ولم أتراجع عن رأيي فحسب، بل وأعطيت موافقتي وشجعتها على تلقي الدروس الموسيقية. أنا لا أعلم كيف وجدت زوجتي معلمة موسيقى في المدينة، لا سيما أنها يهودية، وصارت تأتي إلينا في كل يوم لإعطاء دروس الموسيقى إلى ابنتنا. إن هذه المرأة العجوز ذات المظهر الاستقراطي قالت لي مرة بجد وبشيء من الأسى:

تتمتع ابنتكم بمؤهلات طبيعية فذة، وبإذن موسيقية، يجب إعدادها للالتحاق بالكونسرفتوار، ستضيع موهبتها هنا. شيء مؤسف.

عشنا في جروزني ثلاثة أعوام. واستقر بنا الحال تدريجياً - فقمنا بإصلاح البيت، وأضفنا إليه غرفة طعام وغرفة استقبال وغرفة المدخل. بينما بنينا في الباحة حماماً وصومعة بخار جيدة. وشيدنا حول البيت سياجاً عالياً، وأقمنا باباً معدنياً متيناً، وأصبح بيتي قلعة حقيقية. وقد تطلب ذلك الزمن حيث تسود الفوضى الشاملة والجريمة بلا عقاب وطغيان الجرائم وانفلات الوضع. وأعترف بأنني كنت أحياناً لا أشعر بالمسرة لوجود أسرتي هنا. وقد حاولت عدة مرات نقلها إلى موسكو. لكن هنا محل عملي، وابني الأكبر يدرس في المعهد، والأصغر سناً يرتادان المدرسة أيضاً. لكن أي تعليم وأي حياة عندما يجري في كل يوم القتل والاختطاف والنهب والاعتداء على هذا أو ذاك.

وفي صيف عام 1999 فاحت «رائحة» حرب جديدة، وصار الجميع يتحدثون عن ذلك.
وبصراحة إن منطق الأحداث كان يقود فقط إلى ذلك، وفجأة أعلن مديرنا العام الذي جاء من موسكو في الاجتماع أن الحرب على وشك الاندلاع. وصدر الأمر لي بصفتي مدير دائرة حفر الآبار، وهو أمر لم استلمه حتى في الحرب الأولى، بالتوقف عن الإنتاج وغلق جميع الآبار وختم الأنابيب بالشمع الأحمر. والخبرة متوافرة لذلك. ولهذا كان أول شيء فعلته أن انطلقت إلى البيت.

- سافروا، سافروا بسرعة!- أمرتهم بينما أجابتني زوجتي:

- كلا! فقط معك. لن نتركك لوحدك الآن. علاوة على ذلك يجب جمع بعض الحاجيات، ونقلها أيضاً، وإلا سيلحقها التلف والدمار.. وربما، ستمر الأمور بسلام...

فصرخت: - لن تمر! أنتم لا تعرفون ما هي الحرب!

وأصرت زوجتي على رأيها: - سوية معا فقط. دبر أمورك في مكان العمل. بينما سندبر أحوالنا خلال يومين أو ثلاثة أيام.. الله رحيم. ولا سمح الله أن يحدث أي شيء. أنظر، أي سكون يسود. وحتى في الليالي لا يطلق الرصاص.

فعلاً لقد جمدت المدينة، وساد الهدوء في الانتظار. والتصق الجميع بشاشات التلفزيون أو أخذوا يستمعون إلى راديو موسكو، هل سيصدر من هناك حكم آخر أم أنهم سيرحمونا هذه المرة، وسيفوز العقل ومحبة الإنسان. لكنني لا أصدق بوجود الأخيرة. أنا لم أعد أصدق بعد حادث القبو. وأعرف أنه في أثناء الحرب وحتى بعدها يصبح بعض الناس أسوأ من الجرذان والكلاب؛ فينهش أحدهم الآخر. ولهذا كنت في عجلة من أمري. وأحسست بأن هذا السكون الذي ساد فجأة والصمت، هو ما يشبه الوقفة قبل هبوب العاصفة والزوبعة. كنت أتحسس ذلك بكامل كياني، وأشعر به، وأحتدم به. لكن العقل، العقل البشري البسيط رفض جميع هذه الغرائز الشعورية، لأنه بدأ لتوه الخريف المبكر. وخفت حدة قيظ الصيف. الدفء والشمس والسناء والراحة والشبع. في كل مكان يباع البطيخ والشمام والعنب وكل شيء. كما أن الأطفال ذهبوا إلى المدرسة والمعهد كالعادة... لكنني لم أسمح لأبنائي بالذهاب. فقد قررت بحزم السفر معهم. فأخذنا الوثائق من المدرسة، وقررنا نقل الابن الأكبر إلى المعهد العالي بموسكو. وعموماً كانت هناك أعمال كثيرة جداً، والشيء الرئيس - كانت كثيرة جداً في مكان عملي. فقد كنت أعول على تدبير أموري هناك خلال يومين أو ثلاثة أيام، لكن تبين أن هذا مستحيل من الناحية التقنية البحتة. لو كنت أعرف لبصقت على كل شيء: ففي الأحوال كافة سيتم في الحرب الثانية القاسية جداً والضارية هذه قصف وتدمير وتمزيق كل شيء.. بدءاً بي.

ليس من المناسب قول ذلك عن نفسي، لأنني كنت دوماً أتعامل بمسؤولية مع عملي - الذي أنجزته خلال أسبوع واحد فقط، وبالعمل ليلاً ونهاراً، بلا مساعدين تقريباً، فقد هربوا جميعاً بعد أن تحسسوا احتمال اندلاع الحرب. وكما أذكر الآن فقد كان ذاك اليوم الأحد - ووضعنا جميع حاجياتنا في شاحنة «كاماز» واعتزمنا السفر فيها إلى ستافروبل، واتفقنا مع السائق، على أن يأتي عند الظهر بالضبط، وبعدها سنتحرك، لكن كما لو كان ذلك نكاية بي زمر جهاز اللاسلكي الرسمي.

وتحدث الحارس السابق. وقال إنني في العشية حين كنت أقلب الأوراق الأخيرة في المكتب دخلت الباحة عدة أبقار وثور من القرية المجاورة، وحين غادرت المكان في وقت متأخر من الليل أغلقت البوابة. إنهم الآن لا يعرفون: هل سيكسرون القفل أو اتخاذ أي إجراء آخر؟

فقلت: - لا تكسروه، سآتي بنفسي.

كان لديّ وقت كافٍ حتى موعد الظهر، فقد كان الوقت مبكراً في الصباح، وأي صباح كان -نضراً ورقيقاً ولطيفاً فحسب- فالزهور وهي نقطة ضعف زوجتي وبالأخص الورود كانت ثقيلة، وفيها قطرات الطل، وتحت السقيفة يفوح عبير العناقيد الكبيرة من العنب الأسود والأصفر. كما كانت تنتشر رائحة العنب البري المتأخر والخوخ الناضج، لذا فلم أرغب في الرحيل إلى الأبد، وحتى في يوم العطلة هذا، والخروج من بوابة البيت. بينما هتف ابني الأصغر عند البوابة، وكان ما زال يفرك عينيه وهو شبه نائم:

دادا، خذني معك، إنه يحب السيارة، وأحياناً أسمح له بقيادتها، وأعلمه القيادة.

كنت لأمر ما في عجلة من أمري، فانطلقت عبر المدينة كلها بأقصى سرعة، ولكن شعرت بالقلق حيث لم يوجد أثر للسيارات والبشر تقريباً. وعندما بلغت خارج المدينة وتوجهت نحو المنطقة الجبلية ضغطت على دواسة سيارة الدائرة من طراز «واز» بكل قوة. وتم بسرعة إخراج الماشية، وأغلقت البوابة مجدداً، وفي طريق العودة سألني ابني:

- هل يمكن أن أقود؟

- هيا...

عندما لا أجلس وراء مقود القيادة أستطيع التطلع بحرية. والمشهد ساحر من أعلى الجبل. فقد طلعت الشمس بكل بهائها. وبدت المدينة كلها كما في راحة اليد. ولا ترى تقريباً خرائب الحرب الماضية. ففي الأحوال كافة جرت أعمال الترميم والتجميل، وتم إصلاح وصبغ بعض المباني، وعموماً إن المدينة أصبحت كالجرح تندمل شيئاً فشيئاً، وألقت الخضرة ظلالها في كل مكان. وتألق نهر سونجا ملتوياً كالأفعى... وفجأة مرق ضوء ساطع، ووميض، وليس واحداً، كما لو سطعت شمس ثانية. وهدر قصف، وأعقبه آخر.

ما هذا؟ - ضغط ابني في دهشة على الدواسة بشدة، ما جعل رأسي يرتطم بزجاج الواجهة الأمامية: وأدركت كل شيء في لحظة خاطفة. وفي هذه الفترة سطعت عدة أنوار كما لو أنه يجري إطلاق الألعاب النارية فوق المدينة. ما أكثر الانفجارات، وحدث أحدها بالقرب منا فاهتزت السيارة.

صرخت في ابني: - انبطح! وجلست نفسي وراء مقود القيادة وانطلقت بأقصى سرعة. لا أتذكر الكثير من الأشياء، أو بالأحرى أذكر بعضها: كما لو أنني رأيتها من قبل أو أن هذا مجرد فيلم

الرعب. إن وسط المدينة، حيث السوق، قد دمر كلياً. جثث مدماة وأشلاء جثث لا يمكن أحياناً تفادي المرور فوقها، وأسمع صرخات باللغتين الشيشانية والروسية:

- ساعدوني! أنقذوني!- لكنني واصلت السير بسرعة أكبر، فقد شعرت، وأيقنت بثقة أنه ينتظرني الأسوأ والآتي أعظم..

وهذا ما حدث. لقد كابدت هزة نفسية شديدة، وأنا حتى الآن أتذكر ذلك برعب، وبألم متواصل وكآبة، وبأسف ويأس، وتمنيت، وليغفر لي الباري، لو أنني لست حياً، بل الأفضل لو أن جميع هذه القنابل والقذائف والصواريخ وجهت كلها نحوي مباشرة، ونحوي فقط. بينما هي سقطت في حديقتنا مباشرة. في جنتنا الصغيرة، وهذا الركن من النعيم الذي غرسناه، وبالأخص من قبل زوجتي، فتحول إلى كابوس، وبالنسبة لي - إلى جهنم. وأنا أفكر حتى الآن أن البربري والوحش هو ليس فقط من أعطى الأمر بإطلاق النار بل والمهندس - المصمم الذي ابتكر جميع وسائل القسوة هذه ووضعها في خدمة القوة العسكرية. فهل وجدت لديهم جميعاً عوائل وأطفال؟ بينما لم توجد لدي تقريباً لحظتئذ... وقد وقفت كما يبدو فترة طويلة جداً - فلم أستطع عمل أي شيء، وحتى لم أستطع البكاء، ولم أفقه شيئاً. كنت كما يقال قد قتلت وأنا حي، وأذكر فقط شيئاً واحداً، ووردت في ذهني فكرة واحدة. لماذا؟ لماذا فعلوا هذا معي؟.. هل يعلمون بما فعلته أيديهم هنا؟ وهل كانوا سيكابدون الألم؟ لا أتصور حتى الآن كيف تحملت ذلك، وصبرت... لقد ساعدني ابني الأصغر...

فقد أخرجني من حالة الصدمة بقوله: - دادا. - وأنا سأتذكر طوال حياتي عينيه الحمراوين والمتورمتين اللتين تفيضان بالتساؤل وعدم فهم أي شيء.

- ماهذا؟ لماذا؟ ماذا فعلنا لهم؟.. أين أمي وأخي وأختي؟

اندفعت إلى داخل الباحة. أظن أنني كنت سأجن، لولا وجود ابني إلى جانبي، وسأفقد وعيي والسيطرة على نفسي. لكن وجب عليّ في وجوده أن أحتفظ برباطة الجاش، وأن أفعل شيئاً ما. وكنت آمل في ما هو أحسن. ولو أن المشهد كان فظيعاً. فقد سقط الصاروخ، كما لو أنه وجه خصيصاً إلى وسط الحديقة. وثمة حفرة دائرية صقيلة الحواشي يظهر منها ذيل الصاروخ اللامع، وحتى وجدت عليه أرقام ما (بقيت في ذاكرتي لسبب ما). وكانت موجة الانفجار شديدة. وانقلعت النافذة والباب في الجناح الجديد للمبنى، بينما انهار فحسب المبنى القديم الذي شيد من الطين والتبن، فهرولت إليه، فربما بقي أحد ما على قيد الحياة. وبدأت بالصياح والصراخ، وعندئذ صرخ ابني الأصغر:

- دادا! شوفدا هنا، على قيد الحياة، يبدو أنها تتنفس. تعال إليَّ!

.. هذا ما حدث! إن جميع حاجياتنا ومنها آلة البيانو الكبير قد شحنت في الـ«كاماز». علماً بأن الأم كانت حريصة جداً على كل ما يخص تعليم ابنتها الموسيقي - فلم يمر يوم بلا تمارين ودروس موسيقية. وقد أمرت في صباح ذلك اليوم أن تصعد إلى الشاحنة وأن تتمرن قليلاً، بينما قررت أن تجمع مع الابن الأكبر محصول توت العليق قبيل السفر. وقد علمنا ذلك فيما بعد من أقوال شوفدا.

وقد أنقذت شوفدا آلة البيانو الكبيرة المتينة الصنع - إنها تحطمت، والتوت، ويبدو أنها أبعدت وأخمدت شدة الانفجار. وعندما فتحت عينيها، كان أول ما سألت عنه حين ثابت إلى رشدها:

- ماما! أين ماما؟

لقد عثرنا على أمها، وبالأحرى على أشلاء بشعة بلا ساقين بشكل قطع مدماة فوق السياج المعدني المنهار. بينما لم يتبق من ابني سوى ساق تحت الركبة.. وواصلت حتى حلول الظلام البحث عن أشلاء أخرى في المنطقة كلها.. وجمعت كل ما عثرت عليه في قطعة مشمع ووضعتها في صندوق السيارة «وازيك». وجلست في المقعد الخلفي ابنتي وابني الأصغر. وكان الابن قد هدأ قليلاً، أما شوفدا فقد واصلت النحيب والضحك بصورة هستيرية وتارة كانت تشعر بالغثيان وتارة أخرى تتعلق بي:

- دادا، دادا، هذا حلم! هذا ليس الحقيقة! لا يمكن وقوع ذلك! أيقظني. أين ماما؟ أين أخينا؟ إلى أين نذهب من دونهما؟

كنا نذهب معهما إلى قرية أسرتنا، وهناك مقبرة. وأنا لم أعرف طريقاً آخر، ولم أفكر فحسب في طريق آخر، وفقط في الطريق إلى موطني في الجبال. بينما صرخت ابنتي:

- إلى أين تذهب بنا؟ أريد الذهاب إلى بيتنا. بقيت ماما هناك، إنها تنتظرنا. ارجع.

لم أعد إلى موقع بيتنا في جروزني ذاك أبداً بعد هذا، فلم أستطع رؤية ذلك مرة أخرى، والمعاناة مجدداً. وحتى عندما طلب جارنا منذ عدة سنوات شراء قطعة الأرض، وكنت بحاجة إلى النقود آنذاك، قلت له: افعل كل ما تريد، وفقط لا تذكرني بهذا مرة أخرى.

ومنذ ذلك الحين مضت الحياة في طريق الضياع.

16 أبريل. مساءً

طبعاً، أنا لست كاتباً. لكنني أتصور، كما يبدو، ما معنى عمل الكاتب. وبأي جهد روحي كتبت النص السابق. وكيف ساءت أنحو بعد ذلك؟! كنت أشعر بضيق وألم في القلب. فلا أستطيع النهوض، ولا أريد ذلك. وحدث كما لو كان بمثابة نكاية بي، ومع مرضي، تدهور حالة الطقس - رطوبة، برد، ضباب، ولايري أي شيء. ولا أجد القوة لإشعال النار في الموقد. ولا تتوافر الرغبة. وأقول بصراحة إنني تطلعت عدة مرات إلى بندقيتي، المعلقة على الجدار، إنها محشوة، ويكفي الضغط على الزناد!- فهذا من أيسر الأمور. لكنني لم أضغط على الزناد، ولم أجرؤ على ذلك، حين وجب ذلك، ونحو أي هدف. والآن أدس الماسورة في فمي مرة أخرى. ولا يتسع المجال هناك إلى أي شيء آخر... ولأمر ما تذكرت الحكاية أو الخرافة القديمة. يقال إنه كان في قديم

الزمان، حين يضعف الرجل وتدب فيه الشيخوخة، ويصبح عاجزاً وضعيفاً، كان ابنه يضعه في سلة، ويحملها إلى أعلى ذروة في الجبل ويلقيه من علو صخرة إلى الهوة. سابقاً لم أكن أصدق هذه الأسطورة. أما الآن فأنا أصدقها. والآن أعرف أنها ذات مغزى ليس معقولاً، بل يتسم ببذرة رشيدة وحياتية عادية. فلِمَ كل هذا العذاب والآلام والعار حين لا يستطيع الإنسان حتى الذهاب إلى المرحاض؟ وصدقوني، أنا على استعداد الآن للجلوس في هذه السلة ليس بكل ارتياح، بل بشعور من يتنفس الصعداء. لكن لم يحالفني الحظ في هذا المجال: فلا يوجد لدي أبناء، وقد بقيت على قيد الحياة بعد وفاتهم، ولا توجد لديّ سلة كهذه... لكن توجد لديّ طائرة شراعية. طائرة شراعية ممتازة، قمت بإصلاحها قليلاً، وهي جاهزة للتحليق تقريباً، وأنا أحلم، أحلم بركوبها، والهرولة فوق المنحدر إلى الأسفل مثل نسر نشر جناحيه وأحلق ثم أحلق بانطلاق فوق جبالي. سيكون هذا متعة حقيقية! وغبطة! وانتصار المشاعر والرغبات والعواطف! هذا هو حلمي الآن، بصفته نهاية عظيمة وفخمة. لكنها ليست النهاية. لأنني أطير إلى الخلود، إلى أبنائي.. لكن كيف سأنظر إلى عيونهم؟ وبالأخص الابن الأصغر؟ بلا انتقام؟ والانتقام ليس من أجله فقط بل ومن أجل ابنتي.

مسكينة شوفدا! ما أكثر ما كابدت من معاناة. إنها عانت بقدر أكبر بكثير مني. وكيف تحملت هذا كله؟ وكم كنت ظالماً وغير عادل حيالها. حسناً هي لا تعرف كل شيء... لكنها تعرف ما لا ينبغي لها أن تعرفه. لقد أخبرها أحدهم بكل شيء عني، وحتى إنها تعرف أن لدي طائرة شراعية. إنها تهتف في كل يوم وترسل البرقيات العاجلة بالهاتف- «ارم هذه القباحة!. من أين أخذتها؟ وما حاجتك إليها؟» فأجيبها بعبارات متملصة. ولديّ ورقة رابحة تنقذني من المأزق هي أنها مجرد تذكار عن صديق. لا أعرف فيما إذا تصدق شوفدا ذلك أم لا، لكنني أعرف أنها تعتز جداً بذكرى العم مكسيم. لقد كان صديقاً حقيقياً. وشوفدا تعرف ذلك أيضاً... فإن المأساة التي داهمتنا كانت البداية فقط. وكنا جميعاً في حال صدمة لما حدث، وبدأت لاحقاً البقية - من الألم الروحي العميق وشتى أصناف المنغصات والمتاعب. ولولا العم مكسيم وعموماً الناس الأخيار، وهم طبعاً يمثلون الأكثرية، لما بقينا على قيد الوجود فحسب.

.. أذكر بأننا وصلنا إلى جبالي، حيث قرية الأهل في وسط الليل. وبعد ذلك؟ توجد في صندوق السيارة أشلاء زوجتي وابني.. بينما تجلس ابنتي وابني في صالون السيارة والدموع تنهمر من عيونهما. أنا لا أعرف إلى من أتوجه؟ لا يوجد لدي أقارب، كما أنني لا أعرفهم جيداً، فهنا ليس ملجأ... والناس في القرية الجبلية الصغيرة يعرف بعضهم بعضاً، وحتى في منتصف الليل يرون كل شيء، وهم على أهبة الاستعداد، لا سيما في زمن الحرب. اقترب مني أحد أبناء القرية، ثم آخر. فرويت لهم بتمتمة ما حدث. وظهر فوراً حشد من الناس. وذهبت شوفدا مع النساء. بينما ذهب ابني مع أقرانه. واقتادوني إلى أحد البيوت، لكنهم لم يتركوني لوحدي أيضاً. لما كان ضحى الغد ظهر في المقبرة القديمة ركاما قبرين صغيرين جديدين. وحضر عدد كبير من الناس، وجاء الناس حتى من القرى المجاورة وقدموا التعازي. وبعد مضي يوم أو يومين انتهى كل شيء وبدأت الأيام العادية، أو بالأحرى تواصلت فظائع الحرب. وأنا حتى لم أفكر حول نفسي. وتركزت جميع أفكاري حول الطفلين الباقيين. وكنت أتألم وأخاف بصورة خاصة على ابنتي. فقد كانت تبكي باستمرار، وتصاب بالهستيريا، وتسقط مغشية علها، وتفقد رشدها. وأصبح هاجسي الوحيد الآن العناية بها وإنقاذها. علماً بأن المصيبة لا تأتي لوحدها. فقد وجدت معي وثائق ابني بينما لم أجد

وثائق شوفدا. إذ أعدت زوجتي للطريق حقيبة صغيرة، وضعت فيها النقود، وبعض الأشياء الثمينة والوثائق. وكنت قد بحثت عن هذه الحقيبة بعد وقوع الانفجار، لكنني لم أجدها. فقد ضاعت. بينما يجب علينا أن نهرب من هنا. ففي السماء هنا ظهرت قاذفات القنابل والمروحيات فوق رؤوسنا. إنها لم تبدأ القصف بعد. لكن يسيطر على شوفدا الرعب والصدمة الهستيرية. وقد تحشد في قريتنا الجبلية الصغيرة عدد كبير من اللاجئين. وأراد الكثيرون الانتقال عبر المعبر إلى جورجيا، حيث الممر مفتوح. لكن هذا يقع في مكان بعيد، وجورجيا خارج الحدود، ولا توجد أي وثائق لدى شوفدا. وقررت التوجه إلى بوتليخ في داغستان. وأخبرت ابني بذلك. وقد أدهشني - فمظهره يدل على أنه هادئ وصارم وحتى حانق، وقد شب لحد ما، وكبر فجأة كثيراً - ولديه لحية سوداء كثيفة. فرجوته أن يحلق لحيته، لأنني كنت أعرف ما يفعله الجنود الاتحاديون بمثل هؤلاء الشباب الملتحين. كان المقرر أن نتحرك في فجر اليوم التالي. علماً بأنني بعد وقوع المأساة لم أنم عملياً، ولم أستطع أن أغفو، لكنني استسلمت للنوم العميق كما يبدو، وعندما استيقظت وجدت قرب رأسي قصاصة ورق:

«دادا، افهمني واغفر لي. إنني سأبقى. لا تبحث عني ولا تقلق من أجلي. أنا شاب وبلغت سن الرشد، ويجب أن أدافع عن وطني وأهلي وشرفي.. لدي رجاء وحيد. كانت ماما تحلم جداً بذلك: اسمح وساعد شوفدا في التخرج من الكونسرفتوار.. أرجو المعذرة مرة أخرى. ابنك، الأصغر».

كانت هذه ضربة أخرى. إن ابني فتى صغير، وما زال أحمق، ولا يعرف غدر وقسوة الحرب وخلوها من الرحمة. لكنني أنا أتفهم حماسه واندفاعه - فهذا طبعاً من سجايا أهل الجبال والرجولة. لكنني رجل بالغ وأعرف ما حدث لمثل هؤلاء الفتيان في الحرب الماضية. ففي زماننا تعتبر المقاومة الفردية نوعاً من الحماقة والعقيمة، إنها نوع من الدونكيشوتية، وفي الختام إصدار الحكم بالإعدام على الذات. يجب أن يحيا، وأن يتعلم، وقبل يوم من هذا قال إنه لن يبقى في روسيا، وسيسافر إلى أوروبا. وأنا لم أستطع الممانعة أو اقتراح شيء ما غير ذلك. على أقل تقدير لم أرَ حلاً آخر، وحقاً، لم يرد في فكري فحسب. وهاهوذا... كنت أعرف وأشعر بأنني سأفقد الابن الأصغر إلى الأبد، - إنه الآن من لحوم المدافع الضرورية من أجل الحرب، وبتعبير مجازي هكذا يتم تجنيد الشباب للحرب. كنت أدرك ذلك كله وأفكر في كيفية إقناعه بالعدول عن فكرته، وفي نهاية المطاف آمره فحسب - فأنا أبوه. لهذا لم أرحل. وما كان بوسعي أن أرحل. وكنت أتكهن تقريباً بأنه سيعود إلى جروزني. فتوجهت إلى هناك. خارتشوي، فيدينو، سرجين-يورت، شالي، جيرمنيتشوك- يسود في وسط كل واحدة منها الخواء والسكون ولا يوجد أحد من البشر. وكنت أتوقف وأسأل عن ابني - وفيما إذا رآه أحد، إنهم لا يعرفون وينصحوني بعدم مواصلة رحلتي. لكنني واصلت السير، ليس فقط لأنني أردت العثور على ابني، بل كنت أريد نفسي وأحلم بالذهاب إلى مكان ما، وبالهروب من هذه البلية، وهذه المشاكل والأرزاء. وفقد ت الوعي، حتى لم أعد أخشى شيئاً، ولم أعد أفكر في أي شيء، ويبدو، إنني مثل ابني كنت أسعى إلى الحرب، فاستقبلتني في نهاية المطاف. أنا لم أفهم شيئاً ما جرى، وحتى لم أسمع. وأدركت فقط أن السيارة سقطت في حفرة، وهي ملقاة على جانبها. وشعرت بالألم، ووجدت الدم في كل مكان.

سادت الفوضى وانعدام النظام في مستشفى إقليم شالي - إذ كان يجري إجلاء المستشفى، ولم يوجد أطباء تقريباً، لكن قدم لي مع ذلك العلاج اللازم، وعندما ثبت إلى رشدي لحد ما، كما لو أنني استيقظت لتوه، وعدت لوعيي، روى الأشخاص الذين جلبوني إلى هنا، إنني بقيت على قيد الحياة بمعجزة. فقد وقعت تحت القصف الجوي، والسيارة كلها محطمة، بينما أصبت فقط في جبهتي وثمة خدوش كثيرة ناجمة عن تحطم لوح الزجاج الأمامي للسيارة. وهنا أيضاً «حالفني الحظ»- فلم تحدث إصابة في عيني، لكن تم لف كلا معصمي اليدين بالضمادات، وقالت المضمدة بمزاح:

- الآن لن تستطيع العزف على البيانو الكبير خلال فترة طويلة.

لكن هذا القول كان بمثابة الإبرة التي غرزت في دماغي. فأنا بصراحة، كنت طوالي حياتي أهتم بالولدين فقط، أما الابنة فكانت تحت رعاية زوجتي. والآن فقدت شوفدا في لحظة خاطفة الأم والأخ. ثم اختفى الأخ الأصغر، واختفيت أنا في أعقابه. من الصعب تصور حالتها. وكما حدثوني فيما بعد أنها فقدت السيطرة على نفسها، واستمرت الهستيريا والهيجان العصبي، وبلغ الأمر حد أنها إذا ما كانت سابقاً تختبئ تحت السرير لدى سماع هدير الطائرات، تجدها الآن تفعل العكس - إنها تخرج إلى العراء وترسل اللعنات إليها وتصرخ:

- أطلقوا الآن النار عليَّ! أنذال! وحوش! حقراء! قتلة!

وفي أثناء النوبة العصبية الأخيرة، اندفعت كالمجنونة إلى المنحدر، وبالذات باتجاه الوهدة، وعندئذ حالفها الحظ، فقد سقطت واصطدمت بصخرة كبيرة، وانطرحت هناك، وقد أصيب وجهها وركبتاها بخدوش... وما أعظم فرحتها حينما احتضنتني، كالغريقة. كانت ترتجف، كما لو كان يراد دفنها في القبر منذ لحظات، وواصلت النحيب طويلاً بصوت خافت. كانت هذه نتيجة فظيعة للخسائر بلا رجعة والقنوط الشديد وانهيار آمال الحياة كلها..!.. أرقدتها في الفراش بجهد جهيد، وجلست إلى جانبها، بينما واصلت البكاء، والعويل، ودعوة أمها ولم تترك يدي، ورجتني ألا أخرج، وحتى عندما بدا لي أنها نامت، وغفت فحسب، - لم تعد لديها قوى جسدية وأحاسيس، وكانت تضغط يديها بتشنج، وترتعش... انتفضت بعصبية مرة أخرى، وأطلقت الأنين، وتركت يدي، كما لو أنها أدركت بأنني لن أنقذها، - كما لو أنها تغرق... عندئذ طفقت أبكي، أبكي بمرارة... لقد خمد وانطفأ ومات نور الشمعة. وساد الظلام في الغرفة. وجلست، لكنني لم أستطع إمساك ظهري، فانحنيت. أنا نفسي أريد الآن أن أسقط، أريد أن أنام، أريد أن أصدق بأن هذا كله ليس الواقع، ولايمكن وقوع هذا، وكله حلم. لكنني رب الأسرة. ولئن لم أستطع الحفاظ على الابن الأكبر، فيجب على الأقل إنقاذ الأصغر منه سناً. واحترقت بكل كياني - حين راودتني الفكرة عن ابني الذي تركني.. وراودتني معها فكرة أخرى. كما كتبت، وكان ذلك قبل الحرب الأولى، حين اختطفوا ابني الأكبر، اشتريت أسلحة كثيرة. وبعد أن حلت المشكلة سلمياً، بهذا القدر أو ذاك، أخفيت جميع هذه الأسلحة بشكل مضمون في مغارة صغيرة تقع تحت قطعة أرضنا. ولم يعرف بها سوى ابني الأصغر الذي ساعدني في إخفائها. وراودني الآن السؤال - هل أخذ السلاح من المخبأ السري أم لا؟ فإذا أخذه....

ليل. عتمة حالكة. لا توجد لدي أي أجهزة إنارة، وحتى لا أستطيع إشعال عود الثقاب- فيداي بالضمادات، ولا حاجة لذلك، فقد يرى أحد ما النور. يبدو بجلاء أن أحداً ما جاء إلى المخبأ. وكان في عجلة من أمره وعمل بلا عناية. ففككت رزمة القماش المشمع: تنبعث منها رائحة الموت - السلاح. كانت هناك ثماني قطع سلاح.. وقد اختفت واحدة منها... ابني يحمل رشاشاً ضد دبابة وطائرة، وضد جيش دولة ضخمة؟ ما العمل؟.. هبطت في العتمة، في الليل، فوق المنحدر الجبلي وتوجهت إلى بيت أحد القرويين، حيث كانت تنام ابنتي، وتذكرت دار اليتامى في كازاخستان وشعوري بالوحدة آنذاك. وحينما كنت أحلم بأن تكون لدي أسرة كبيرة تسودها المودة. وقد نشأت الأسرة، وعشت من أجل المقربين لي، وفي النتيجة بقيت الابنة فقط. فتحت بحذر الباب المتداعي الذي ينبعث منه الصرير. ظلام دامس في الغرفة. لكنني بدأت أعتاد على الظلام في حياتي. وأنا أرى، بل وأحدس، وجود جسدها الملتوي. كانت جالسة على السرير، ورأسها راقد على ركبتيها. ويتدلى شعرها بسكون، وفي هذه العتمة الخانقة وسكون المقابر، نبر ليس صوتها بل صوت غريب صادر من أعماق القبر:

- أنت لا تريد أن تكون معي.

جلست إلى جانبها واحتضنتها: - ابنتي. أنا سأخرج للحظة لأداء بعض الأعمال.

- أنت تفكر بأخي؟.. لو كنت شاباً لذهبت معه أيضاً.

-ماذا تقولين ياشوفدا؟.. فأنت عازفة موسيقية ومغنية..

صرخت بصوت غليظ: - أسكت!

واستغرقت في البكاء. ثم غرقت في نشيج حار بهدوء- بهدوء، وارتجف جسدها كله. بينما كنت أتمتم ببعض الكلمات وأمسد ظهرها. علماً بأن يدي ليست دافئة بل ملفوفة بالضمادات، وربما إنها لهذا السبب رفعت رأسها فجأة، والتمعت عيناها في الظلام:

لماذا جئت بنا إلى هنا؟! فقد كنت تعرف أن الحرب قد نشبت. وهنا الحرب متواصلة دوماً. بينما أنت تكرر: «الوطن، جبالنا، وينبوعنا».. اشرب الآن من ينبوعك. وغص به!

وواصلت ترديد عبارات فظيعة وصادقة في وجهي وأصبحت أشعر بلوعة الألم أشد وأشد، كما لو يحدث تمزق جسدي، وتصدع رأسي، واختناق في بلعومي (أعتقد إن هذا المرض، داء السرطان، قد استقر في جسدي منذ ذاك الحين). بدأت نوبة الهستيريا لدى ابنتي مرة أخرى، مع حركات التشنج، وصارت تدعو أخويها وأمها، وبدا كنشاز مع صوتها ظهور وتصاعد هدير محركات قاذفة قنابل. إنها تحلق على ارتفاع منخفض، ويشعر السامعون بقوتها التدميرية، حتى تهتز الجدران. صمتت ابنتي، كما لو أنها استغرقت في التفكير، وفجأة انطلقت إلى الخارج. واوقفتها عند الباب بعد جهد جهيد. لكنها كانت تنتفض، وتصرخ. حتى إنني لم أتصور أنها تمتلك هذه القوة، وجدت صعوبة في الإمساك بها، بينما كانت تحاول الإفلات مني، وعندئذ وقع انفجارات شديدان على

التوالي. واهتزت الأرض بشدة... هدأت ابنتي، وصمتت، وسكنت في أحضاني - الآن أشعر بهذا الجسد الهزيل والنحيف، والطفولي تقريباً. وصارت تهمس بصوت طفولي:

هل يصدق أنهم سيقتلون أم أحد الناس وشقيقه.

لزمت الصمت، ولا أعرف ماذا أقول، وراحت تردد كما لو تحدث نفسها:

- لماذا؟... لماذا يفعلون هذا؟.. لماذا نحن شيشان ولسنا روساً؟.. هل يصدق أن جلينكا وتشايكوفسكي وسترافينسكي كانوا روساً؟

إن تشايكوفسكي وسترافنيسنكي لم يسمعا هذا.، - يبدو أنني وجدت ما يمكن قوله. وبقيت الآن صامتة، وكانت فقط ترتجف، ترتجف بكل كيانها. بينما أسرت في أذنها هامساً، حيث لم أعرف كيف أجلب إليها الهدوء، وسعياً إلى إعطائها الأمل في الحياة:

ستتعلمين في أفضل كونسرفتوار.. أنا أعدك. وقد طلب ذلك أخوك. ستكونين عازفة موسيقية ومغنية رائعة.

همدت كلياً. ولزمت الصمت. واعتقدت أنها ستسقط إذا ما أرخيت قبضتي عليها. اختفى هدير المحرك. سكون مطبق. وتردد همسها:

- دادا، سابقاً كانت الموسيقى تعزف دائماً في أعماقي. أما الآن فثمة عويل دائم، كما لو أن هذا الانفجار دائم ولا يتوقف... أشعر بألم مستمر، ألم في أذنيَّ، وضجيج في رأسي.. خذني من هنا.

- سنرحل، سنرحل حتماً عند الفجر.

- إلى أين ستأخذني؟ إذ لم يعد لدينا بيت، ولا أسرة، ولا أم.

لم يكن بوسعي إجابتها سوى بالهمس:

- سنرحل، سنرحل.

خذني إلى مكان لا توجد فيه انفجارات وحروب. ولا همج. خذني إلى حيث توجد الموسيقى والسلام. أرجوك، خذني إذ يوجد في العالم مكان ما زالت تعزف فيه الموسيقى الجميلة... أنا أريد أن أعزف من أجل ماما، وأريد أن أغني لها، فلربما ستشعر بالغبطة أكثر قليلاً.

16 أبريل

غالباً ما أطرح السؤال التالي: من المذنب في مصائبي؟ طبعاً، أنا نفسي المذنب. فقد كان من الواجب أن أهرب حسب قدرتي من الأماكن التي تنضج فيها شتى الأحداث السياسية والعسكرية العشوائية، والكوارث. والناس الأذكياء يهربون. فقد هرب من جروزني في مطلع التسعينيات الجميع: الروس واليهود والأرمن والغجر وحتى الشيشان أنفسهم. لكنني لم أستطع ذلك، أو بالأحرى لم أرغب. وبررت ذلك بأن مكان عملي هنا، مصدر رزقي، ووطني وهلمجرا- إنها ربما الخصائص القومية أو البدائية لطبعي وأسلوب تفكيري. وقد دفعت الثمن. إذ فقدت أسرتي كلها تقريباً. فأنا لست الوحيد في هذا - فخلال عشرة أعوام من الحرب تقريباً فقدنا ما يربو على 300 ألف قتيل. لكن هذا لا يخفف من وطأة المصيبة. و«مساهمتي» كبيرة. أما بصدد مسؤوليتي، فما هو ذنبي؟ أنا لم أقتل أحداً، ولم أسرق ولم أنهب، بل عملت بنزاهة وبإخلاص ليس في الشركات المحلية والإقليمية بل في مؤسسات الدولة الاتحادية والروسية العامة، وتم تكريمي لقاء ذلك بمنحي أوسمة وميداليات روسيا الاتحادية. بينما هي شنت الحرب عليّ... طبعاً ليس عليّ شخصياً، بل على رئيسنا- الجنرال ونظامه، من أجل إحلال النظام الدستوري، كما يقال. لكن موقف المركز في هذه الحرب كان خالياً من المسؤولية، كما أقرت بذلك - المحكمة الدستورية - أعلى محكمة في روسيا. فقد أوجد المركز نفسه أشخاصاً مثل دودايف نفسه، ونظامه (وقد كتب عن ذلك س. أ. فيلاتوف مدير إدارة رئيس روسيا آنذاك في كتابه «غير سري جداً»). وإذا ما استخدمت تعابير كاتب كاسيكي روسي آخر فيمكن القول «أنا ولدتك وأنا أقتلك». ولكن ما هي علاقتي وأسرتي بذلك؟ إذن، أنا مذنب. أنا مذنب أيضاً لأن أحداً ما أراد أن يأكل. أراد أن يشرب ويتمتع ويتسلط. والناس؟ والموت؟ وأبناء روسيا؟ وهل فكر من أعطى الأمر بقصف بيتي أن أهلي يعيشون هناك؟ وهل فكروا بالناس الآخرين، أم أننا لا نعتبر من البشر؟ إنني سأحتفظ في ذاكرتي إلى الأبد برقم المصنع المكتوب على الصاروخ الذي سقط في باحة بيتي، وفوق أسرتي. فقد كتبت رسالة إلى الرئيس بوريس يلتسين - من أعطى الأمر بإطلاق ذلك الصاروخ؟ لكنني لم أحصل على جواب. وقد اعترف الرئيس الروسي السابق فقط في مذكراته «يوميات رئيس» و«الماراثون الرئاسي» بأن الحرب مع جمهورية الشيشان كانت الأكثر بلادة في تاريخ البلاد، وكانت خطأ ارتكبته». طبعاً إنها ليست خطأه، بل خطأ جميع أبناء روسيا. فكيف أمكن أن ينتخب ويحتمل مثل هذا الحاكم عديم الموهبة؟ بالمناسبة إن كل شعب جدير بحاكمه. وهذا الحاكم أشار في مذكراته بفقرة واحدة فقط إلى الحرب في جمهورية الشيشان، بينما تحدث بعد هذه الفقرة فقط عن كيف عمل بجهد وبإصرار من أجل خير جميع أبناء روسيا. طبعاً هو لم يؤلف هذين الكتابين. لكنه طبعاً دعم الكاتب وأشرف على الكتابة. ولهذا بدا الرئيس يلتسين بهيئة البطل، ويكاد أن يكون الشهيد ونصير النضال من أجل شرف روسيا وجميع أبناء روسيا. وكان يعمل ليلاً ونهاراً ولا يتوقف عن العمل، ولهذا فإنه، المسكين، أضعف صحته الجبارة. لكن يوجد في روسيا الآن كتاب آخرون لا يكتبون الكلمات تحت إملاء الغير وبلا تشجيع من أحد أو بهدف الحصول على منفعة ما. فقد كتب س. أ. فيلاتوف الآنف

الذكر: «كان يلتسين يتمتع بقدرات خارقة في الاختفاء في مكان ما في أكثر اللحظات حراجة وتوتراً. فمثلاً، حدث أن ضاع أثره لدى فرض حالة الطوارئ في جمهورية الشيشان في عام 1991. وليس من قبيل الصدف أن أعلن روتسكوي نائبه آنذاك من منبر السوفيت الأعلى بتأثر، أنه لا يستطيع الاتصال بالرئيس هاتفياً خلال أسبوع كامل». وأضاف قائلاً: «أما المقربون من يلتسين مثل كورجاكوف وبارانيكوف ويرين وجراتشوف وبارسوكوف» (فجميعهم عسكريون، وجنرالات، يدعون إلى الحرب)... بينما نحن بحاجة إلى أن يكون الرئيس في الكرملين (في مقر عمله)، يريد بعضهم أن يكون بعيداً عن الكرملين قدر الإمكان (بحجة المرض، أو بسبب الإسراف في شرب الخمر).

هذا ما كان عليه خيار أبناء روسيا... وما دمت قد بدأت الكتابة عن ذلك سأورد مقطعاً آخر من كتاب س. أ. فيلاتوف: «شهدت في إحدى المرات بالصدفة كيفية قيام اثنين من حراس (يلتسين) الرئيسين، بوضع عدة قناني كونياك على الطاولة بهدف تذوق محتوياتها. وكان الرئيس يتذوق المشروب بينما يقوم الحارسان بصبه ويسجلان تقييمه له. آنذاك فكرت أن الرئيس يعمل شيئاً مماثلاً، كما يبدو، حين يراد استمالته لاتخاذ قرار ما. وكان عندئذ القرار حول توزيع الشقق في المبنى الرئاسي..».

وهذا لا يحتاج إلى تعليق. بالمناسبة كان يجري تحت ضجيج الحرب الشيشانية ليس توزيع الشقق فقط، بل والمصانع والمناجم والغابات وفروع صناعية وقطاعات بأكملها. وهنا لا يتعلق الأمر برسائلي البائسة وبدموعي: فالرهان يجري على المليارات والممتلكات... والحق أن هذا لا يعنيني البتة. وأنا ذكرت موضوع المشروبات الكحولية ليس عبثاً - فقد أعطيت لي هذه الوصفة، بحجة أن البقاء على الحياة غير ممكن من دونها. لكن دعني أتحدث عن الأمر حسب التسلسل، وبذهن صاف. وما دام الأمر كذلك، فلا بد من الاعتراف مرة أخرى بأن الناس عندنا وحولنا أناس طيبون جداً. واقتادني مع ابنتي الأقارب وحتى أشخاص لم أعرفهم من قبل في طرق جبلية ما إلى داغستان، ووصلت إلى محج قلعة، حيث أقمت عند محمد علييف صديقي القديم وزميلي في العمل. وكان أول شيء قمت به هو شحن هاتفي النقال وحالما بدأت البطارية بالعمل أدرت رقم هاتف ابن العم جيخو لكي أبلغه بمصابي، لكن الهاتف لم يعمل. ولكنني هتفت فوراً إلى مكسيم - وقد تبين أنه عرف بما حدث وكابد الألم جداً، ويريد أن يأتي بنفسه للقائنا. لكن هذا سيكون صعباً جداً بالنسبة إلى شوفدا. إن السفر لمدة 12 - 14 ساعة سيكون مؤلماً بالنسبة لها. إنها الآن لا تتحمل السفر - إذ تعاني من الغثيان، ولا تتناول الطعام كلياً، وأصابها الهزال الشديد. إنها تشكو دوماً من وجع في الرأس وألم في الأذنين، ومن ضجيج مستمر في كيانها كله بعد الانفجار. وأرادوا إدخالها المستشفى لكنها لاتستطيع فراقي ولو دقيقة واحدة، فهي تخاف أن تفقدني أيضاً. والأطباء يعرفون كما أعرف أنا التشخيص - فقدان ما لن يستعاد، ودراما الحياة كلها في مثل هذه السن الفتية. بينما كنا عاجزين عن مساعدتها. ووصف لها عقار قوي لعلاج الأعصاب - فكانت تهدأ وتنسى لفترة قصيرة، ومن ثم يغدو وضعها أسوأ، وتبدأ نوبة عصبية جد يدة، وانفجار المشاعر، والصراخ والهستيريا، كما لو أن جميع الفظائع قد وقعت لتوه. ولذا كانت أحوالها أسوأ لدى تناول هذه العقاقير. وعندئذ هتف لي المدير العام. إنه موجود بموسكو ومطلع على الأمور أيضاً. وقد أصر

على أن نأتي إلى موسكو فوراً- ففي الأحوال كافة يوجد هناك أفضل طب وأطباء في البلاد. فحصنا طبيب حقيقي فعلاً - بروفيسور هرم، مختص بالأمراض النفسية، وقد فحص شوفدا

شوفدا بإمعان، وفجأة سألني:

- هل أنت من جمهورية الشيشان أيضاً؟ - وفور ذلك حدد التشخيص ذاته وقال: - أنتما مصابان بضربات نفسية، - وواصل الفحص ثم سألني:

- هل أنت لا تشرب؟

- كلا لم أشرب أبداً.

- كان يجب أن تشرب.. ففي هذه البلاد يجب على الإنسان أن يتحرر من التوتر العصبي... ولو بشرب مائة جرام في اليوم.

رنوت إلى ابنتي وقلت: وهي؟

- يجب أن يتم علاجكما أنتما الاثنان علاجاً جدياً. وبالأخص الفتاة.

- طبعاً لم أبدأ بشرب الكحول ولم أفكر بذلك، ويجب إنقاذ ابنتي، لكن هنا في المستشفى جميع العلاج بأجور، والعلاج غالي الثمن. عندئذ جاء المدير العام لنجدتي - فقد أعرب عن استعداده لدفع أجور العلاج، وتخصيص ردهة منفردة جيدة جداً إلى شوفدا.

قال الطبيب الهرم:

- لا، لا يجوز عزلها. بل بالعكس يجب وضعها في ردهة فيها كثير من المرضى.. ويستحسن أن يكونوا من الشباب... وسيكون جميع العلاج مجاناً لكم. أنا على الأقل سأساعد بهذا جمهورية الشيشان والشيشان.

كنت قلقاً على شوفدا، فهي حتى هذه اللحظة لم تبتعد عني، وكانت تخاف من شيء ما، وتبكي على الدوام. لكن هذا الطبيب كان اختصاصياً ممتازاً ورجلاً طيباً جداً. فقد عالجها بلا أدوية تقريباً، وكان يتحدث معها يومياً خلال فترة طويلة، فأعادها إلى الحياة، وأقنعها بضرورة العلاج، واستعادة الرغبة في العيش. وكنت أزور ابنتي يومياً، في فترة السماح بالزيارات، وفي هذا الوقت ينتهي يوم عمل البروفيسور، وكان يأتي إلى ردهة شوفدا حتماً قبيل خروجه، ويودعها بابتسامة ويقدم لها النصائح والتوصيات.

بعد العشاء اخرجي للتنزه في الحديقة. لمدة ساعة كاملة. ولست لوحدك. - وألتفت إلى البنات قائلاً:
- يابنات لا تتركنها لوحدها... وقبيل النوم يجب احتساء اللبن وتدليك البلعوم والأذنين، كما علمتك. حتماً.

لقد تحسنت صحة ابنتي، واستعادت حيويتها بجلاء. وحدث مرة أن أتيت إلى الردهة فلم أجدها هناك. فذهبت إلى مكتب البروفيسور. فقال مبتسماً بغموض:

أعتقد أن الوقت قد حان. وقد أرسلتها عن قصد إلى قاعة الاجتماعات عندنا. فهناك خشبة مسرح، وتتوافر الشروط السمعية، والشيء الرئيس - هناك آلة البيانو... ورد فعلها لدى رؤية الآلة مهم جداً. وهل ستستطيع التغلب على الخوف. والشيء الرئيس هل ستسترجع حاسة الأذن الموسيقية. المجازفة عظيمة. وقد تتخلى عن الموسيقى، فتأتي إلى الآلة فحسب، وتفتح الغطاء - ولا تستطيع العزف.. أي النهاية. لكن لا يوجد سبيل آخر. لقد حان الوقت. ومن دون ذلك لن تسترجع صحتها، إن هذا سيفاقم الإصابة فقط.

هذا ما كنت أراه بنفسي، وأفكر فيه يومياً، لكنني لم أعرف كيف يتم ذلك - كيف تتم إعادتها إلى الموسيقى وإعادة الموسيقى إليها. ولأمر ما كنت في هذه الأيام غالباً ما أتذكر زوجتي - وتراءى لي أنها كانت تتنبأ بمصيرنا الأليم وليس عبثاً أن علمت ابنتي الموسيقى طوال حياتها خلافاً لإرادتي ورغبتي. والآن أتذكر برعب تلك الأيام. وبدا أن الألم الروحي سيخف بمرور الزمن، ولكن حدث كل شيء بشكل مغاير - فلا توجد أي أنباء عن ابني، وتدور رحى الحرب هناك بقوة أكثر فأكثر. بينما ابنتي مريضة هنا. وأوضاع نفسي لا تطاق حيث لا يوجد لدي سكن ولا نقود وفقدت جميع أسرتي تقريباً. وكنت أفكر دوماً - كان الأمر أفضل وايسر لو أنني هلكت وليست زوجتي. فالأطفال، ولا سيما شوفدا، يكونون في وضع أفضل مع أمهم. فالأم كانت ستعيد شوفدا إلى الموسيقى. أما الآن فيتعين على شوفدا نفسها أن تناضل في سبيل مستقبلها. فهل ستستطيع ذلك؟ وهل يستطيع الطبيب النفساني المحنك علاجها؟

توجهت مع البروفيسور إلى المبنى المجاور، ومهما كان موضوع حديثنا، فقد كنا نخشى لقاء شخص آخر، وخشينا إحداث ضجة، وسرنا على أطراف الأصابع بكل معنى الكلمة صاعدين السلالم إلى الطابق الثاني، وتناهى إلى أسماعنا لحن، كما لو أنه قادم من مكان بعيد، من الجبل المجاور للفج، وكصدى حزين في الضباب، وسمعنا صوتها الحزين. فتوقف البروفيسور، ووضع أصبعه على فمه. بينما جمدت في مكاني، وشعرت باختناق في بلعومي، وبالحزن - لقد كانت شوفدا تنشد أغنية الأم - «نانا!».

17 أبريل

الطقس في الجبال يتغير بسرعة. في الصباح لم تكن هناك سحابة واحدة. الشمس تغمر بنورها الطبيعة، ويسود الدفء. الربيع! لكنني أدركت من غضب نحلي عليّ (كنت أتفحص كيف أمضت

فصل الشتاء وكيف تستعد للموسم) السماء ستتبلد بالغيوم. وهذا ما حدث. ففي منتصب النهار هبت الرياح الشمالية - الغربية - الرياح الموسمية. وسيعقبها المطر. وهذا شيء حسن، ففي الربيع حين تولد الحياة الجديدة، ثمة حاجة شديدة إلى المطر. فقط ألا يكون بارداً، ولا سمح الله، إن يسود الصقيع في وقت متأخر من الليل. فالزهور تتفتح في كل مكان، وينتشر أريجها. وفي كل هبة جديدة من الريح من الغابات القريبة ينتشر عبير حلو، ورحيق الزهور، وتولد الحياة. كم أتمنى لو أن البشر استطاعوا الوجود والعيش بهذه الصورة. الموت مجدداً، والولادة مجدداً... مالي أردد هذا الكلام؟ فالروح خالدة، أبدية. إذن لِمَ أقول «كما يبدو»؟ لِمَ أصبحت أتحدث هكذا لمجرد التفلسف؟ أظن أن النور ينطفئ في بيتي كالعادة، حالما تهب الريح، ويهطل المطر. يبدو أنهم ربطوا جميع الأسلاك والتوصيلات كيفما اتفق. بينما دفعت ابنتي، دفعت الثمن وربطوا توصيلة منفردة خاصة بي. الآن سأبقى بلا نور حتى الصباح على أقل تقدير. لكن ينبغي ألا اكتئب لهذا السبب. فقد اشترت شوفدا مولداً كهربائياً تحسباً للاحتمالات كافة - ويكفي أن أضغط على الزر فقط. لكنني لم أرغب في ذلك اليوم، بسبب الكسل، أو عدم الرغبة. يبدو أن مزاجي يتماهى مع الجو - السيئ. لكن جاء الفتى جاري، وقام بتشغيل المولد. يبدو أن شوفدا رجته القيام بذلك. المسافة بين بيتي وبيت أقرب جيران تعادل الكيلومتر تقريباً. والبيوت متناثرة بهذا الشكل على السفوح في جميع القرى في أعالي الجبال، لكن عدد السكان هنا قليل. فالحياة صعبة، والشيء الرئيس - لا توجد مدرسة. وثمة أشياء كثيرة غير موجودة. فالآن مثلاً - لا يوجد النور، ومعنى ذلك أن هوائي الهاتف القريب مني (اهتمت ابنتي بالأمر ودفعت الثمن) قد أصبح بلا تغذية كهربائية، ولا يوجد اتصال هاتفي، بينما تهتف لي ابنتي في كل مساء. وأصابها القلق فهتفت إلى الجيران حيث الاتصال أفضل بكثير، من الهوائي العمومي، - ولهذا جاء الفتى إليَّ. طبعاً، إن أبناء قريتي كانوا يقدمون لي المساعدة قدر الإمكان. وقد بقيت هذه العادة في الجبال. لكنني كنت أعرف إن شوفدا كانت تحول النقود إليهم في بطاقات الائتمان ولهذا لا توجد لدي مشاكل في المعيشة اليومية - وحتى البنزين في المولد تحت الرقابة المستمرة، ويجري تشغيل المولد بدلاً مني. وما دام النور قد ظهر، فمعنى ذلك أن الاتصال الهاتفي متوافر. هتفت ابنتي. إنها كانت تتحسس مزاجي حتى من ثأثأتي في الجواب، وهذا يعني لأن لديها إذناً موسيقية فعلاً.

... بالمناسبة، فيما يتعلق بالسمع. وأقصد بذلك الأذن الموسيقية لابنتي. لهذا سأعود إلى الحديث عن نسيج حياتي. كان ذلك في خريف عام 1999. كانت ابنتي شوفدا ما زالت راقدة في المستشفى. فالمحت بصورة غير مقصودة إلى موضوع مواصلة التعليم الموسيقي. وفي اليوم نفسه توجهت إلى كونسرفتوار موسكو. وأوضح لي المسؤولون هناك بلباقة أن ابنتي لا تستطيع الالتحاق هناك إلا بعد التخرج من المعهد الموسيقي المتوسط وإذا ما كانت لديها قدرات موسيقية فذة، لكن هيهات أن تكون لدى صبية من جمهورية الشيشان مثل هذه القدرات.

كيف كنت أفكر في الكونسرفتوار إذا لم يكن لدينا مكان نعيش فيه؟ ولا يوجد مصدر للعيش تقريباً. وأعترف بأن وضعي كان صعباً للغاية. بالأخص أنني بقيت لوحدي. كنت في وضع انقباض النفس، ولا أدرك شيئاً، وبدا العالم كله - في حالة كآبة، وكأنه حلت نهاية العالم والحياة. وفجأة بدا كل شيئاً غريباً، ورهيباً، وبعيداً عن الواقع. وعندما كنت أرى الناس الباسمين والسعداء، كما أسمع الضحكات،- كنت أعتبر ذلك كله تجديفاً واستهزاء بكل معنى الكلمة. بدا لي أنهم يضحكون عليّ

وعلى مأساتي وحياتي ومصيري. كنت أهرب من هؤلاء الناس، وأتعطش إلى الوحدة والعزلة، وأحتدم غيظاً. في بعض الأحيان كنت أتفهم موقف ابني الأصغر، وحتى خطرت لدي فكرة أن أقتدي به. لكنني كنت أثوب إلى رشدي كلياً، وينبثق خوف جديد - ربما قتل ابني... عندئذ، وقد حدث ذلك لي مراراً، كنت أذهب إلى المطار لشراء تذكرة، ويجب البحث عن ابني وإنقاذه. لكنني كنت في اللحظة الأخيرة أتذكر شوفدا. ولا أستطيع أن أتركها في مثل هذه المدينة الكبيرة والغربية. كما أن أخذها إلى جروزني غير ممكن. أنا لم أعرف ماذا يجب أن أفعل، وكيف أتمزق؟ لكنني أعرف شيئاً واحداً، أريد السفر إلى جمهورية الشيشان، لأنني أعاني من الألم بسبب ابني (ما أشد ما عانيت من الكآبة).. كما يوجد هناك مكان عملي، وهناك فقط أستطيع كسب مورد العيش للإنفاق على أسرتي التي نقص عدد أفرادها. عندئذ هتف لي مجدداً المدير العام، ودعاني إلى المجيء إذ توقفت العمليات القتالية في منطقة جروزني، ويجب استئناف استخراج النفط. من حيث المبدأ، وبالرغم من الحرب هناك، فقد كنت أصبو للعودة إلى جمهورية الشيشان، لكن ماذا سأفعل بشأن ابنتي، فلا يمكن إبقاؤها هنا وحدها. وفكرت بشأن ابن العم جيخو - ابنه الأصغر.. كان لدى العم جيخو ابنتان وثلاثة أبناء. هذا بالرغم من أن العم جيخو كان يؤكد دوماً أن لديه أربعة أبناء - ويقصدني بذلك. ومن هنا بدأ كل شيء، كما يبدو.

عندما أتممت سن السادسة عشرة قال لي العم جيخو فجأة، إنه كتب وصية يقسم ميراثه بموجبها إلى خمسة أقسام. قسم - إلى جميع النساء، أما القسم الباقي فيوزع بين الأبناء وأنا واحد منهم - بمعدل قطعة أرض واحدة، وتعادل 600 متر مربع، ويوجد في قسمي كوخ صغير شيد من الطين والقش، تم شراؤه من الجيران. وحدثت ضجة، وزوبعة تقريباً. وصرخت زوجة جيخو في حضوري قائلة:

ما هذا؟ أي عدل في ذلك وفنحن وفرنا له الطعام والشراب واللباس طوال هذه السنين. والآن يمنح له قسم من الإرث... لديه عشيرته وأقاربه - فدعه يعيش هناك، ويجب عليهم الآن مساعدته. كما أنه نفسه لم يعد صغيراً - دعه يكسب رزقه بنفسه. بينما نحن ندبر أمور معيشتنا بشق الأنفس... سنبيع قطعة الأرض هذه! لقد حان زواج البنات، ولا تتوافر الملابس لهن، أنت تبخل في الصرف على أبنائك وبناتك. بينما تصبح سخياً إزاءه.

بصراحة استأت طبعاً. وبصراحة أنني لم أكن أحلم بالميراث، ولم أفكر فيه. ومن حيث المبدأ - أنا أفهم ذلك الآن - فزوجة العم جيخو على حق عموماً. لكنني كنت فتياً. كما أن أسلوب منح هذا الميراث كان مهيناً... ولو أنني، وقد شعرت ذلك بعد مرور الأعوام، إن النصف النسائي من الأسرة والابن الأكبر للعم جيخو، كانوا يحسدونني، لأن العم جيخو كان يحبني جداً. وبعد ذلك لم أستطع البقاء معهم وغادرت البيت. لكنني لم أغادره صفر اليدين

فقد أعطاني العم جيخو خفية مبلغاً كبيراً. لكن هذا لا يعني أنني قطعت العلاقة معهم كلياً، فكنت أزور العم جيخو في أيام العطلة الأسبوعية والأعياد، وكان يدعوني باستمرار إليه ويهتم بشؤوني ويساعدني. فقد أدركت، حيث كنت لا أزال فتياً آنذاك، وبعد استعادة الذكريات وتحليل كل ذلك لاحقاً، إن تمرد العائلة وموقف الزوجة والبنات بعد أن كبرن، قد أدى بشكل ما إلى تحطيم العم جيخو. فقد ضعف جداً وأصابه الهزال، وشاخ. وصار غالباً ما يمرض ويصبح طريح الفراش.

وعندما سافرت إلى مكان الخدمة العسكرية جاء العم جيخو شخصياً مع ابنه الأصغر لتوديعي. وكان العم جيخو يكتب لي رسالة في كل أسبوع، ويستفسر عن انحو كافة ويرسل لي النقود. وفيما بعد انتقل إلى جوار ربه. وكنت آنئذ في رحلة بحرية. وبعد ذلك كان الابن الأصغر فقط يكتب لي رسائل أحياناً. كما أنه بالذات استقبلني في محطة القطار لدى تسريحي بعد ثلاثة أعوام. واقتادني من محطة القطار مباشرة إلى المقبرة، إلى قبر العم جيخو. وهناك أخبرني أنهم في العائلة لم يكونوا مرتاحين لكونه قرر استقبالي. ومع ذلك ذهبت إليهم وقدمت لهم التعازي، وأردت أن أراهم جميعاً. وباعتقادي أن كل شيء تم على ما يرام، علماً بأن زوجة العم جيخو ذرفت الدموع لدى رؤيتي، وحتى طلبت المعذرة، وطلبت أن أزورهم في أحيان كثيرة، وألا أنساهم - فنحن أقارب. وهذا ما حدث في واقع الحال. وكان الابن الأصغر للعم جيخو من أقربهم إليَّ. فنحن كنا من الأقران تقريباً، وهو أصغر مني قليلاً، وربطتنا وشائج صداقة متينة. وكنت الوحيد الذي أيده عندما أراد الزواج من فتاة أكبر منه سناً، كانت متزوجة سابقاً، ولديها ابنة. وحدثت فضيحة وضجة. فقد كانت العائلة كلها ضده وأدت ضغوطها إلى حدوث الطلاق. أعتقد أن هذا كان سبب ترك الابن الأصغر الدراسة في السنة الرابعة في الجامعة والالتحاق بالجيش. وكان نادراً ما يكتب لي. أما إلى ذويه فبقدر أقل. وفجأة، وبعد العام الأول من الخدمة العسكرية أعلن أنه سيصبح ضابطاً، ووقع عقداً بذلك. أنا أتصور تقريباً ماهية هذا العقد. عندما كنت في الخدمة العسكرية كانت تعرض علينا مثل هذه العقود، ووفقاً لأي معايير، حقاً ليس على الجميع بلا استثناء، وجرت محاولة فرض ذلك عليّ بصورة خاصة، لكوني يتيما ووحيداً. لكنني رفضت ذلك بشكل قاطع، بينما وافق على ذلك الابن الأصغر للعم جيخو. وجاء إلى البيت لفترة أسبوع واحد فقط وذلك من أجل أخذ وثائقه من الجامعة بغية مواصلة الخدمة في كلية عسكرية. إنه حتى لم يقل أي كلية. وأصبح صموتاً جداً ومنغلقاً على الذات ومتجهماً. كان نادراً جداً ما يكتب الرسائل، وكنت أكتب له بلا عنوان: «إلى مكتب البريد العسكري». ثم طلب عدم الكتابة له البتة - إذا ما توافرت الفرصة فسيكتب بنفسه. وفي مطلع الثمانينيات فقط، وصل جواً إلى جروزني. وكان برتبة نقيب، وقال إن لديه بموسكو شقة من غرفتين، وهو متزوج، ولديه ابنة، في عمر شوفدا. بقي في البيت طوال أسبوع وكان يشرب الخمر باستمرار، ولغرابة الأمر كان لا يتحدث بشيء عن خدمته. لكنني حدست ما هي، لأنه اختفى فترة طويلة مجدداً، ولعدة أعوام. وفي عام 1994 بعث برسالة، وللعجب لم تكن بعنوان عسكري بل مدني، في مكان ما في كامتشاتكا، وألمح فيها إلى أنه سئم من الخدمة العسكرية الشاقة، وأنه نفسه طلب قبيل التسريح إرساله إلى الأصقاع الباردة. وأدركت من سحنته الملوحة الشديدة السمرة، ومن الوشم على كتفه، ومن العبارة التي أوردها في حالة السكر بصورة عابرة، إنه كان يخدم، ليس الخدمة العادية، بل قاتل في مكان ما في البلدان الساخنة، وربما الأفريقية. والآن يخدم في أقصى شمال البلاد. وبعد ذلك، في عام 1997، أحيل إلى التقاعد وأصبح يعيش في موسكو. وبهذه المناسبة دعاني خصيصاً إلى موسكو، وذهبنا إلى المطعم وقال بفخر إنه حصل على رتبة عقيد - وهو الآن متقاعد - عندئذ ابتسم مشيراً إلى أن الخدمة لديهم بلا تقاعد. وقال إنهم وعدوه بوظيفة مدنية طيبة في العاصمة. لم أصدق الوعد الأخير، لكن هذا ما حدث، فقد رن جرس الهاتف- فأبلغني بالهاتف ضاحكاً - إنه الآن رئيس قسم في وزارة الضرائب الروسية.

دهشت وسألته: - هل هو قسم سري ما؟

- أي أسرار هناك، - ضحك الابن الأصغر للعم جيخو وقال: - إنه قسم المراقبة والتحليل.

وسألته: - وهل تفقه شيئاً في ذلك؟

- بم - بم.. أنا لا أفقه شيئاً في هذا الأمر... آوه، هذه كلها ترهات، وكذب برمته. أوراق... الأفضل أن تسأل ماهو الراتب هنا؟

لقد تبين أن الراتب ليس كبيراً، وأضاف: «إن معاشي التقاعدي أكثر بكثير. شيء جيد أنني لا أدفع شيئاً تقريباً مقابل الشقة بصفتي من المشاركين في العمليات القتالية. وإلا... كانت الأوضاع.. العجب العجاب!».

اعتقدت أن أحواله تختلف عن أنحو، وهي طيبة جداً. وفكرت في أنه سيساعدني، - لديه ابنتان (حقاً لم ألتق بهما وكذلك بزوجته - فهو لم يدعوني لزيارة شقته)، ويمكن أن تعيش شوفدا معهما لحين الالتحاق بالكونسرفتوار، فهي من أقران ابنتيه، وأنا أعلم ما يكنه الابن الأصغر للعم جيخو من محبة لي ويتألم لمصابي، كما أنه يحب شوفدا جداً، وقد زارها في المستشفى عدة مرات.

وهكذا هتفت إلى الابن الأصغر للعم جيخو. ولم يكن مناسباً التحدث حول الموضوع عبر الهاتف، ورجوته أن نلتقي بصورة عاجلة، فدعاني إلى مكان عمله مباشرة. وتبين أن ذلك اليوم كان يوم العمل الشعبي الطوعي. ولكن أي يوم عمل طوعي إذا ما تواصل سقوط الأمطار في العشية - وفي كل مكان برك ماء كبيرة وأوساخ، لكن موظفي الضرائب يعملون في التنظيف، أو يتظاهرون بالعمل، - الجميع يحملون المكانس والمجرفات. حقاً إن الابن الأصغر للعمل جيخو لم يحمل شيئاً أي أداة - فهو الرئيس هنا، وكان يدعو الجميع إلى العمل بصوت آمر، كما لدى جميع العسكريين، لكن هذا النداء كان بمثابة مزحة لا أكثر ولا أقل. وكانت تفوح منه رائحة الكحول، وهو يدخن بوقار وفجأة نبر:

- حسناً أن أتيت. هل توجد لديك نقود؟.. لقد أنفقت نقودي على الشراب. وسأتسلم الراتب بعد يومين أو ثلاثة أيام... أتعرف يوجد بالقرب من هنا المقهى الشيشاني «أورجا». وأنا أتناول هناك مأكولاتنا دوماً.

وصاح مخاطباً موظفيه:

- إيه، سأغيب لفترة ما، لدي مشاغل. ويجب عليكم العمل كما يجب.

في الطريق توقفنا عند حانوت صغير فأخذ قنينة فودكا (دفعت أنا ثمنها)، وكما فهمت فإن سعرها زهيد جداً.

أوضح لي قائلاً: - في المقهى الشيشاني لا يوجد كحول. هذه حتى أفضل، لأنها أرخص ثمناً.

ويعرفه العاملون في المقهى، فأعطى الأمر:

- لي كالعادة طبق مزدوج من زيزيغ-جالناش. ولا يستطيع التهام هذا الطبق سوى الرجل الكبير والقوي البنية. ويشرب الفودكا، - دفعة واحدة في ثلاث جرعات- فقط الرجل المعتاد على ذلك والصحيح البنية. ويغدو عادة بعدها مرحاً وبلا هموم. لكن في هذه المرة اعتراه الوجوم لسبب ما، وتذكر زيبا لأمر ما، وراح يستفسر عنه، ويبدي إعجابه به. وكنت قد حدثته عن زيبا منذ عدة أعوام حينما جاء إلى جروزني أول مرة.

وقال بتحدٍ: - لقد كان زيبا رجلاً و«كيوناخا» حقيقياً. (الكيوناخ باللغة الشيشانية - الرجل النبيل). واختتم كلامه بالقول: إننا جميعاً مقاتلون.. وحمقى.

لم نبق في المقهى فترة طويلة، فإن الضابط العسكري الابن الأصغر للعم جيخو يلتزم بالنظام جداً. ففي الأحوال كافة إنه يتولى الإشراف على العمل الطوعي، ولو بالتظاهر بذلك. وعندئذ دنت منه إحدى موظفاته وقالت:

- الكسندر جيخويفتش، انظر ماذا وجدت،- عشرون كوبيكا من أزمان الاتحاد السوفيتي.

إن اسمه الحقيقي هو علاء. لكنه أوضح بأنه غيَّر اسمه من أجل حسن الوقع على السمع، حيث كان يحلم بأن يصبح جنرالاً مثل الكسندر الشيشاني. لكنني كنت دوماً أدعوه باسم علاء.

وقف علاء أو الكسندر، وبشكل أبسط الابن الأصغر للعم جيخو، ماسكاً بقطعة النقود من فئة عشرين كوبيكا. علماً بأن الكوبيك لم يعد عملة سارية المفعول. وحتى الروبل لا يساوي شيئاً. وراح يتفحص قطعة النقود بإمعان كما لو أنه يدرسه، ثم قال:

- لقد نسيت، نسيت كل شيء.. كيف تدعى قطعة النقود من فئة العشرين كوبيكا باللغة الشيشانية؟

فذكرته: - إيباز.

- آه، نعم، إيباز.- وأدار قطعة النقود في يديه - أو تذكر القول المأثور عندنا «خي تشو كخوسين إيباز سانا فاينا « (تعني عبارة «خي تشو كخوسين إيباز سانا فاينا» باللغة الشيشانية «لقد ضاع مثل قطعة النقود في الماء»- والمقصود بذلك قطعة النقود من فئة عشرين كوبيكاً بالذات). ورمى قطعة النقود في بركة كبيرة، - هكذا ضاعت واختفى أثرها».

أنا لم أره من قبل حزيناً وكئيباً بهذه الصورة، ويكاد أن يكون محطماً تقريباً. وشاخ، واحدودب، أمام سمعي وبصري، كما لو أن جسده قد تقلص. وحاولت تهدئته، وإزالة الغم عنه بشكل ما بعد أن أصبح متعكر المزاج قاتم النفس، لكنه سكت ولزم الصمت أو كان يجيب بعبارة واحدة، وعندئذ رن هاتفه النقال، وصار يجيب وفاضت نفسه بالحيوية، وحتى تألقت عيناه:

- هذا شيء رائع!

أغلق الهاتف وقال لي:

- كيف نسيت؟ اليوم يحتفل زميلي وصديقي - وما أكثر ما كابدناه وشاهدناه سوية- بعيد ميلاده اليوم. لكنني نسيت فجأة.. سنذهب في المساء إلى المطعم. وأنت معي.

- أنا لا أستطيع. ولا أريد.. فأنا لا أعرفه.

فأمرني قائلاً: - اسكت! أنت ستذهب - أرجوك. فيجب أن نشتري له هدية- ولو قنينة. بينما لا توجد لدي أي نقود.

سأعطيك.

كلا. ستذهب معي. أرجوك. ألا تريد مرافقتي؟ بالمناسبة، أنت أردت الحديث عن أمر ما. وسنبحث الأمر هناك. هيا. وحتى المساء. مطعم «جيغولي» في شارع أربات، في الساعة 18.00.

في البداية تملكني الخجل - وشعرت بأنني غريب ونافل، وفيما بعد سكر الجميع، وساد جو من المرح جداً، حتى إنني نسيت كل شيء وأخذت أضحك، ولكن فيما بعد شربوا كالخنازير، وأنا أشكر القدر لكوني لم أعاقر الخمر في حياتي كلها. وفيما بعد أصبحنا وحيدين أنا والابن الأصغر للعم جيخو - أما الباقون فقد انصرفوا كما يبدو بعد أن سكروا. واضطررت لدفع الحساب، وأعطيت كل ما في حوزتي ولم آسف على ذلك - فقد كان ذلك ثمناً زهيداً لكون الأقدار قد صانتني من الكحول. ولم نغادر المطعم إلا في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. وكنت متعباً للغاية. بينما وجب على أولئك الحضور إلى العمل في الساعة السابعة صباحاً، لكنهم أسرفوا في الشرب.. وبالرغم من التعب فما كنت أستطيع ترك أخي لوحده، بينما هو بالكاد يستطيع الوقوف على قدميه، هذا إذا ما أسندته. أخذنا سيارة أجرة. ولحسن الحظ كان يتذكر عنوان بيته ويستطيع التلفظ به. وكان يعيش في أطراف موسكو، على بعد عشرين كيلومتراً عن الطريق الدائري- في مكان ناء بمدينة عسكرية مهملة وقذرة ومعتمة. أما المبنى فهو من المباني الخروشوفية البائسة، وتقع الشقة في الطابق الخامس. وفتحت الباب سيدة شعثاء مهملة الهندام- تنم قسمات وجهها عن الحنق والغضب. وبدت وراءها في الممر صبية بدينة جداً وبيدها سيجارة.

قال الابن الأصغر للعم جيخو: - هذا أخي.. تعارفوا.. هذه زوجتي نورا.. وابنتي الصغرى - داشا. أين الكبرى ماشا؟ إنها تتسكع في الشوارع مجدداً. القحبة! تفضل!

لكنني هرولت إلى الأسفل.

.. في اليوم التالي هتف لي - كان صوته حاداً بنبرة عسكرية، عالية، وقال بالمناسبة:

- إننا لم نتحدث عن قضيتك.

فأجبته: - شكراً، لا توجد مشاكل، فقد حلت كلها.

وأقول بصراحة، بلا لف ودوران، كنت حتى ذلك اليوم أعتبر نفسي بأنه لايوجد في العالم إنسان أكثر تعاسة مني. لكن تبين أن الرب قد أظهر لي خصيصاً مثالاً جلياً: إن الابن الأصغر للعم جيخو أكثر تعاسة مني - فقد ضاع الرجل فعلاً مثل ايباز. وهذا ما حدث له. فبعد مرور ثلاثة أو أربعة أشهر، وكنت أنذاك في مهمة عمل في كوبا، لقي هذا الرجل حتفه في حادث طريق مؤسف. يالها من صدفة أن يقع هذا الحادث - فقد تبين أن الابن الأصغر للعم جيخو كان قد تخلى عن السكر والتدخين كلياً آنذاك، وحتى أعلن أنه سيعود إلى وطنه في جمهورية الشيشان إلى الأبد، ويكون أسرة جديدة، بينما صدمه في جبهته مباشرة سائق مخمور بسيارته المنطلقة من الجهة المقابلة لسيره.

جاء إلى موسكو الابن الأكبر للعم جيخو وعدة أقارب آخرين وأرادوا نقل جثمان علاء إلى الوطن - لكن لم تسمح بذلك الزوجة والابنتان. وتم دفنه في مقبرة مسيحية بضواحي موسكو. وحضر الجنازة خمسة أو ستة أشخاص من العاملين معه. وحضرت مفرزة من أربعة مسلحين بالرشاشات لإطلاق النار في الهواء - آخر تحية عسكرية له. والشيء الوحيد الذي استطاع الأقارب تحقيقه في المقبرة هو إخراج الجثمان من التابوت ودفنه بالكفن وفق التقاليد الإسلامية. كما حضر إمام تلا الصلاة على روح الميت.

التقيت زوجة علاء وابنته الصغرى. كما التقيت الابن الأكبر للعم جيخو، وشاهدت الوشم على ذراعي الابنة الكبرى للفقيد. وكانت الابنتان تدخنان في المقبرة. وبعد ذلك أقيمت وليمة التأبين. ونصبت الموائد على امتداد الصالة في الشقة الخروشوفية المؤلفة من غرفتين، ووضعت قناني الفودكا بوفرة. وجلس أقارب المتوفي قليلاً من أجل اللباقة، ثم انصرفوا حتى من دون تبادل أرقام الهاتف.

بهذا أصف باختصار حياة صديق طفولتي وأخي - الابن الأصغر للعم جيخو، الذي كنت ألعب وأتشاجر معه، وعموماً شببنا سوية- وفي النتيجة لا أجد ما أكتبه عنه. وفي الحقيقة أنني لم أفعل شيئاً معيناً، وهيهات أن يعمد أحد إلى الكتابة عني. أنا نفسي أصفها، باعتباري شخصية أو كاتباً ما. لكن يوجد مثال يحتذى به هو زيبا دادويف - إنه طبعاً شخصية رومانسية وبطولية، ومن حيث المبدأ أبقى زيبا بعد رحيله فقط ذكراه واسمه. وماذا أكثر من هذا؟ الأطفال؟... يمكن القول، ربما أن من الأفضل ألا يكون للبعض أطفال... إن الوسط الخارجي، ومنظومة الواقع المحيط نفسها، تحاول خلق الشخصية. وعندما يوجد ما يسمى العصب الذي لا يلين للجوهر كالروح يظهر أشخاص مثل زيبا. وأنا كنت سأسلم ابنتي شوفدا إلى عائلته بلا تردد لفترة من الزمن. ولكن (ويالأسف!) ما كان بوسعي أن أطلب ذلك أبداً من الابن الأصغر للعم جيخو.

وإذا عدت بلا فلسفة إلى نسيج حياتي فإنني آنذاك في عام 1999، لم أعرف فحسب، ماذا أفعل لابنتي؟ لكنها حلت بنفسها هذه المشكلة. فقد ذكرت لي في إحدى المرات أن معلمة مادة السولفيج دعتها منذ أيام الدراسة في المدرسة الموسيقية إلى الإقامة عندها. فذهبت مع ابنتي إليها، من دون أن أفقه مغزى الأمر.. إنها تقطن في وسط موسكو، في شقة واسعة بمبنى قديم، وحتى البيانو الكبير لا يبدو هنا ضخماً جداً. والمعلمة امرأة هرمة - وتبدو عليها فوراً سمات الأرستقراطية، وقالت لي راجية:

- إن أبنائي يعيشون ويعملون منذ وقت بعيد في أمريكا. وابنتك ترغب ويجب أن تدرس الموسيقى. فدعها تقيم عندي. أنا بحاجة إلى من يساعدني، كما أنني سأساعدها.

رنوت إلى شوفدا - ولم يبق لدي سوى الرد بالإيجاب بإيماءة من الرأس. وفي جوهر الأمر، أزيل حمل ثقيل من كاهلي.

23 أبريل

لم أكتب خلال عدة أيام: لم أرغب ولم أستطع لأن الطقس كان رائعاً. الربيع. الدفء. الزهور تتفتح في كل مكان. وحتى أخذت أشعر بأريج الحياة الجديدة، وتلاوينها وأزهارها. لكنني لا أتمتع بالحياة فحسب، بل لا أمضي بقية عمري. وباعتقادي أنني أعيش حياة كاملة، فغرست البطاطا والذرة والأزهار. وقلعت الأعشاب الضارة من شتلات البصل. لكن المشاغل كثيرة مع نحلي. ولو أي مشاغل هي. بهذا الشكل وجب أن أعيش. على أقل تقدير يجب أن أعيش الآن بهذه الصورة، ولعشت هكذا بقية حياتي. لكنني لا أستطيع. إنهم لم يسمحوا ولا يسمحون بذلك.

.. جاء شرطي المحلة مرة أخرى. إنه فتى طيب جداً. بالمناسبة لم يعد فتياً. فهو قرين ابني الأصغر وصديقه، كما أعتقد، صديقه المخلص، بخلاف بعضهم. إنه رمى بشكل استعراضي سماعة اللاسلكي والهاتف في السيارة، واحتذى بي جانباً:

- ابعد هاتفك أيضاً، أو أغلقه.

أجبته بهمهمة بما معناه إن الاتصال هنا ضعيف أصلاً، بينما تابع قوله:

- أنت من الرماة الجيدين. فقد صرعت ذئبين.. هل أطلقت النار ليلاً؟ هل يوجد لديك جهاز الرؤية الليلية؟ وماهي البندقية؟ يبدو أنها سلاح ممتاز. أمريكي - وأخرج من جيبه رصاصة. نحن من قرية واحدة وعشيرة واحدة وأقارب. والشيء الرئيس أن ابنك من أقرب أصدقائي ورفيق القتال الوفي.

فرددت بهمهمة: - إيه - يو، - إن هذا الموضوع مؤلم بالنسبة لي جداً، لكنه واصل الكلام:

أنا أعلم بأنه كان لدى ابنك أفضل أسلحة القناصة - من طراز رمنجتون. لكنه تخلى عنه لسبب ما. في أغلب الظن أن السلاح موجود لديك الآن. ويمكن بواسطته فقط إطلاق النار بهذه الصورة. علماً بأنها ليست المرة الأولى التي تظهر ذلك... بالمناسبة، من أين تأخذ الطلقات؟

لم أعد أطلق همهمة بل أحاول التظاهر بأنني لا أفهمه. بينما استطرد قائلاً:

- حسناً، الجميع هنا من الأقارب... ولكن ماذا لو قدم أحدهم وشاية أو عرفت السلطات ذلك بشكل ما؟ ستعاقب أنت وكذلك أنا.

- م - م، - همهمت بحنق، فيما قال هو:

- سلم السلاح. أو ألق به بعيداً.. فلن تخسر شيئاً، بينما لدي عائلة وأطفال وأهل. وأنا أجيب عن كل شيء هنا. وإذا وقع حادث ما فأنا أول من يتحمل المسؤولية. إذن لا تعبث، وسلم السلاح طوعاً. وأنا سألقي به في النهر- وبهذا تنتهي المسألة.

ذهبت إلى داخل البيت وجلبت البندقية ذات الماسورتين والرخصة الخاصة بها وبطاقة الصيد. وقدمتها له.

فقال بحدة: - أنا لم أعد صغيراً. إن هذه اللعبة لا تثير اهتمام أحد، ولا تصيب من مسافة أكثر من مائة متر. بينما توجد هنا رصاصة أخرى... ولايوجد هنا أحد غيرك. لا سيما ليلاً.

-أنا كنت نائماً، - أشرت له بإيماءة وحاولت أن أوضح له بأنني لا أفهم شيئاً.

طبعاً، إنه لم يصدقني. فدخلت إلى البيت مجدداً ورجعت حاملاً المفكرة والقلم وكتبت: «ربما إنهم المسلحون أو من تسمونهم «إخوان الغابة»؟

فاجاب: - لا يوجد هنا مسلحون.

وكتبت: «يقال إنهم موجودون».

- أنت نفسك تعرف أنه لا وجود لهم.

«لكنهم يظهرون حينما تحلق المروحيات».

المروحيات لا تحلق هنا منذ وقت بعيد.- بدا عليه أنه مغتاظ جداً. - زد على ذلك إنهم ليسوا «إخواناً» لنا.

كتبت له: «أنت تقول هذا الآن». وأردت أن أكتب أيضاً: «هذا لأنك تطعم الآن من يد أخرى... إن الأيدي نفسها، إنها واحدة». لكنني لم أكتب ذلك. ليس لأنني كنت أخشى أمراً ما أو لأنني غيرت رأيي فجأة. أنا أعرف فحسب أن الشرطي المحلي لا علاقة له بالأمر. ومن حيث المبدأ هو فتى طيب من أهلنا. وهو يحيا قدر ما يستطيع في هذه الأوضاع القائمة. كان سيكون شيئاً لا بأس به لو عاش ابني الأصغر هكذا، وتكيف للأوضاع بهذه الصورة. ولو أن الوضع يتسم هنا بخصوصية ما، لو اتبع ابني هذا السلوك لما احترمته أبداً. لكنه غير موجود. وأريد الانتقام من قاتليه. وفي أغلب الظن إن هذا الشرطي يرى هذا كله ويفهمه في أغلب الظن. لكن هذا يجلب الأذى له ولهذا قال:

أنت لم تعد صغيراً. زد على ذلك أنت لست صحيح البدن. وحدثت في فترة الحرب وبعدها أمور كثيرة. لكن اليوم أصبحت الحرب في طيات الماضي. فانس كل هذا، واغفر للجميع.

كتبت له: «ماذا تقصد».

- أنت تعرف ما أقصد.

وكتبت له: «ما دمت تعرف، وأنا أعرف، وكثيرون يعرفون ذلك. كيف يمكن أن أحيا بذلك؟».

- الرب سيطلق حكمه على كل شيء وعلى الجميع.

ربما أن الأمر ليس كذلك، وقد خيل إليّ أنه يلمح إلى مرضي، وأنني سأموت إن عاجلاً أو آجلاً، بينما هم سيواصلون العيش وتربية الأطفال، وهو يؤكد على ذلك بالذات بقوله:

- أنت مريض. ومرضك وبيل. الأفضل أن تتلو الصلوات.

عندئذ أثار غضبي بلا مزاح، فكتبت له: «أنا أصلي. وأصلي دوماً، لكنني لا أسكت على الذنوب... ولست من يلقي عليّ المواعظ».

- أرجو المعذرة.. أنا لا ألقي المواعظ. ولكن يجب عليّ أن أحذرك، أعطني السلاح. فقد يحدث أن تقدم على عمل لا تحمد عقباه. أنا أعرف، والجميع يعرفون، أنك تضمر النية في الانتقام. لكن لا توجد أدلة، توجد ثرثرة فقط.

- «توجد أدلة فقد قتل ابني بغدر وبصورة وحشية. أنت تعرف ذلك. فأنت عرفت ابني... لكن لا يوجد لديه اليوم أخ أو صديق. بل يوجد أنا!!!».

فقطب جبينه، وانغمر في التأمل، وأحنى رأسه، ثم قال بلهجة قاسية:

- أنت مريض. والزمن غير تلك الأزمان. وأنت...- ولحظتئذ توقف عن الكلام. لكنني كنت أعرف تقريباً ما كان يقصده. فأنا وحيد، ومنعزل تقريباً، وستختفي عملياً بعدي سلالتي ولقبي. بينما لا تتوافر لدي القوة، ويبدو نضالي شيئاً مضحكاً، مثل مقارعة الطواحين الهوائية. لكن كانت هذه أفكاره، وليست أفكاري. وأنا لا أستطيع أن أكتب له أشياء كثيرة، ناهيك عن إيضاح الأمور. فكتبت له فقط ما يلي: «أنا - شيشاني!.. ربما كنت آخر العمالقة. لكنني أتذكر وأعرف وأمجد تقاليدنا وعاداتنا. أنا شيشاني!». كان يجب أن أضيف إلى ذلك: «بخلاف بعضهم». حقاً أعتقد أنه فهم هذا التلميح، ولعلمي بأخلاقيات الشباب المعاصر، كنت أتوقع رد فعل عنيفاً. لكن الشرطي هذا من أهلنا. ولو أن هذا المفهوم -أي «أهلنا» - قد محي من الوجود اليوم. وأصبح من أهلنا فقط، أو فقط

تقريباً، من تجني منه المكسب والنفع. وعموماً إن النقود، وفقط النقود، تعتبر حالياً أساس كل شيء. لكن توجد استثناءات. إن شرطي المحلة حانق جداً، لكنه يبدي بعض التساهل:

أنا حذرتك. وأذكرك في آخر مرة، - ولدى التفوه بهذه الكلمات توجه نحو السيارة، لكنه توقف فجأة ونظر إلى طائرتي الشراعية - بالمناسبة لماذا جلبت هذه السخافة إلى هنا؟

ولوحت بذراعيَّ، بشيء من الاستهزاء، بمعنى التحليق.

- يجب التخلص منها فوراً! وتحطيمها! وإلا فإنني سألقي بها في الهاوية... لقد فقد هذا الرجل صوابه كلياً، ويريد التحليق.. هنا الطيران ممنوع.

كان قد جلس في السيارة، وأومأت له أن ينتظر. فقد كنت أريد قول أشياء كثيرة له، لكنني لا أستطيع، وعندئذ كتبت: «إطلاق النار حتى على الذئاب ممنوع. وحتى الحلم بالتحليق ممنوع. وإيجاد قاتل ابني والسعي إلى معاقبته بشكل ما - ممنوع أيضاً.

- أبله، - سمعت هذه الكلمة ولكن ترددت تعابير أكثر أكثر حدة. لكنني لم أعرب عن الاستياء منه وسرني جداً أنه انصرف بهذا الشكل. وماذا كان سيحدث لو أنه اقتحم البيت، وأجرى تحرياً بسيطاً؟ إن سلاحي، بندقية القناصة، موضوعة فحسب على السرير. فقد كنت في العشية مجهداً، وأصابني الكسل، ولم أخفها. ولو، وكما علموني في الجيش، إن من الواجب تنظيف السلاح بعد كل مرة يستخدم فيها ويجري تنظيفه بدقة. وقد فعلت ذلك، لكن ليس فوراً. وكان من الممكن أن أفسد كل شيء بسبب الكسل.

... تذكرت في تلك اللحظة، لسبب ما، قصة رواها العم جيخو. ففي العام الأول من الترحيل (ترحيل الشيشان إلى المنافي - المترجم) كانت المعيشة صعبة جداً. فقد ألقوا بالناس في الصحراء - الجوع، البرد. وأي ضربة معنوية ونفسية! وعانى الناس أشد المعاناة من الجوع. وتفشى وباء التيفوئيد. ووجب إنقاذ الناس بشكل ما، بالأخص الأطفال الذين كانوا يطلبون الطعام ليلاً ونهاراً. ولم يكن هناك خيار آخر غير سرقة بقرة من أقرب كولخوز. وكان يجري تقاسم اللحم بالتساوي. وكانت حصة كل عائلة تعادل نحو كيلوجرام أو كيلوجرام ونصف من اللحم. وحذر الأفراد المحنكون الذين يعرفون جيداً أساليب السلطة السوفيتية الجميع: يجب دفن العظام عميقاً في الرمل، ويجب طهي اللحم بسرعة، وتناوله فوراً، وقبيل حلول الفجر يجب تنظيف جميع القدور والقازانات بواسطة الرمل بإمعان بحيث لا يبقى أي أثر للدهن. في الصباح كانت الشرطة تأتي فلا تجد شيئاً. وكانوا يمررون أصابعهم على القازانات في تلك البيوت، أو بالأحرى في الأكواخ التي بنيت على عجل، حيث عاشت النساء التعيسات، اللواتي اعتقل أزواجهن وزج بهم في السجن. هذا ما كان يقود إليه الكسل والتسيب. لكن، وكما تبين، لم يكن ذلك الأمر الرئيس. فيكمن الشيء الرئيس في شيء آخر. فقد عشت حياتي كلها، كما أتصورها، عموماً، بصورة مكشوفة، ولم أخف شيئاً، وما كان يوجد ما أخفيه، ولم أكذب، وشملني الله برحمته. أما الآن، وقد دبت فيَّ الشيخوخة، واشتد بي المرض، ويعتقد الجميع أنني إذ أضع ساقاً واحدة في القبر أمارس لعبة الشرطة والحرامية، وأقدم

المبررات إلى شرطي المحلة، وأكذب، وأغدوا مهرجاً. هكذا. وكما يقال إذا كنت تعيش مع الذئاب فاسلك سلوك الذئاب.

... إنني صرعت ذئبين حقاً في العشية. ولم أقتل هذين الاثنين فقط، ففي أغلب الظن أنني قتلت في الفترة الأخيرة خمسة أو ستة منها. بينما صرعت عشراً من بنات آوى. ولم أقنص الطيور. وكنت سأقتل المزيد من هذه الوحوش المفترسة، فقد نهشت مهري، وعموماً فقد أفترست العديد من الماشية البيتية والضبيان الجبلية والغزلان الجميلة. صفوة القول فهذا يشبه الانتقام بشكل ما. هكذا أصبحت رغم أنفي. علماً بأنني لم أمارس الصيد من أجل الصيد فحسب، بل كان ذلك بمثابة استعداد وتمرين مهم. لأنني في كل مرة أجازف - ترون أنهم قد كشفوا أمري تقريباً، وحسناً أن يكون هذا الشرطي المحلي، مهما كان الحال، من أقاربي، ويمكن إخفاء كل شيء لحين من الزمن. لكن يجب أن أكون على أهبة الاستعداد دوماً، لأن الاحتياطي الزمني لدي قليل جداً: من الحياة والصحة والرصاص- وهي أي الحياة ذات سمة خاصة، وطبعاً أن يحالفني الحظ. علماً بأنه توافرت لدي الفرصة، وأي فرصة! فقد صوبت بندقيتي إلى الجبهة مباشرة، ولفترة طويلة جداً، وكلما تواصل ذلك أكثر، غدا أصبعي عاجزاً عن الحركة، ولم أستطع الضغط على الزناد. ومنذ ذلك الحين، أعرب عن أسفي، عن أسفي الشديد. فمثل هذه الفرصة قد لا تسنح أكثر. ولكن في يوم أمس.. يوم أمس فكرت بأن الفرصة قد سنحت.

ينداح هنا في أسفل جبلنا مباشرة سهل جبلي رحب وجميل جداً، يجري فيه غدير صغير، لكنه سريع الجريان جداً وبارد المياه وينبعث منه الخرير. كما توجد هناك فسحة أرض مكشوفة فخمة ومريحة توجد في وسطها بركة مياه طبيعية عميقة جداً. ويتدفق هناك نبعان من تحت الصخور. إن هذه الصورة كلها - قطعة من الجنة - وتحيطها الجبال وتغطيها الغابات الكثيفة. وتوجد فرائس في الغابات، وتحلق النسور في السماء، بينما تعوم في أحواض المياه أسماك السلمون المرقط الملكي والجبلي. لكن الشيء الرئيس لا يكمن في هذا. إذ يتكشف من هناك، من فسحة الغابة، عبر الفج المترامي الأطراف، مشهد سلسلة جبال القوقاز كلها - كما في راحة اليد. ولعل أروع ما في الأمر إن القوقاز كله يبدو مثل واحة، وهي واحة في داخل واحة، لأنه تمتد من الجهة الشمالية جبال شاهقة ومنيعة- إنها مثل كتلة صخرية تغطيها أشجار الصنوبر والبتولا، وهذه الكتلة الصخرية تمنع هبوب الرياح الشمالية إلى هنا. وهذا المكان بديع وغامض ورومانسي حتى يود الإنسان أن يبقى هناك ليلاً ونهاراً - فما أكثر سحر المنظر. لكن لم يجرؤ أحد منذ القدم على الإقامة هناك لأن هذا المكان فريد من نوعه من حيث جوهره والوسط المحيط به. كما أن هذا المكان ذو سمة عامة واجتماعية، ويجتمع الناس المحليون هنا منذ القرون الغابرة مرتين في السنة - في الربيع والخريف حيث يحتلفون بالعيد: يغنون ويرقصون ويقيمون العروض والمآدب. هذا يحدث مرتين في السنة. لماذا؟ ربما لأنه لا يجوز الاحتفال كثيراً أبداً. والأمر الأهم أن اجتماع حشد كبير من الناس يجلب الضرر إلى الطبيعة الجميلة الطرية. لقد كان آباؤنا وأجدادنا يعرفون ذلك كله وصانوا هذه البقعة النادرة من أجل الأجيال القادمة. لكن سلوك الجيل الحالي يبدو أحياناً مثل سلوك المتوحشين فحسب، بل كغزاة غرباء. فأقاموا الأسيجة هناك من أجل حاجاتهم الشخصية. بالمناسبة هناك من يخطط ويحلم في إقامة ما يشبه قاعدة للسياحة في أرضي. حقاً لم يوضع سياج بعد، لكن جاء إلى قطعة أرضي بعض الشبان الشيشان المتحذلقين وفق آخر موضة حديثة وبسراويل ضيقة وجاكتات

قصيرة - الإداريون- مديرو الدولة - جاءوا برفقة أجانب ما، بمثابة مستثمرين، وأروهم كل شيء، وتحدثوا إليهم، وحتى لم يلقوا بالاً إلى وجودي أصلاً. فخرجت من البيت حاملاً بندقيتي من طراز «باردان»، وأطلقت الرصاص في الهواء مرتين فوق رؤوسهم.. فهرب الأجانب المساكين إلى ما تحت الجبل، حتى إن سياراتهم الأجنبية بالكاد لحقت بهم. وفيما بعد جاءت مفرزة من الشرطة المحلية ومعهم شرطي المحلة. فاقتادوني إلى مركز الشرطة المحلية، وحبسوني، وهددوني بفتح ملف دعوى جنائية ضدي. أنا لا أعلم من، لكن أحد الأقرباء هتف إلى ابنتي. وفي اليوم نفسه جاءت محامية روسية من جروزني. وفي المساء أطلق سراحي، لكنهم لم يعيدوا لي بندقية الصيد. وأقامت المحامية، لحسن الحظ هي روسية، دعوى في المحكمة حول اقتحام الملكية الشخصية بصورة غير قانونية، واعتبرت فعلتي بمثابة تحذير من هذا الاقتحام ودفاعاً عن النفس. فأعديت لي البندقية. وقد جلبها لي شرطي المحلة شخصياً وقال:

- لقد كلفوني بإبلاغك أنه أي «هو» سينتظر قليلاً.

وكتبت له في المفكرة من «هو»؟ من أمر؟ - بالرغم من أنني أعرف جيداً من هو، إنه حفيد العم جيخو - مدير الشرطة المحلية والمنطقة كلها.

تملكتني رغبة قوية في رؤيته. لكن هل يمكن رؤيته - فيرافقه الحرس في طابور من السيارات. فهو يخاف بالرغم من كل شيء. طبعاً إنه لا يخافني، أنا المعوق، بل يوجد أيضاً أعداء له ما دامت تفرض مثل هذه الحراسة عليه. لكنه في أغلب الظن يتحسس ويجب أن يتحسس ويعرف موقفي منه. ولهذا فهو يتفادى لقائي. وحدث أن ذهبت إلى القرية المجاورة لحضور موكب عزاء، وجلس حفيد العم جيخو باعتباره من الشخصيات المرموقة جداً في صدر المكان. وعندما رآني - اختفى عن الأنظار كما لو حملته الرياح. ومع ذلك التقينا. جاء إليَّ بنفسه. وددت لو كنت أعرف مقدماً. لكن وجب أن أحدس ذلك وأكون على أهبة الاستعداد للقاء العدو اللدود. لكن.. لم يحالفني الحظ. إن كلماته «ينتظر قليلاً» ذات معنى واضح جداً - إنه سينتظر حتى أموت، ولا يوجد لدي ابن وريث، وابنتي متزوجة من رجل ينتمي إلى عشيرة وقرية أخرى، وعموماً إنها تعيش في أوروبا. ولهذا فطبقاً للتقاليد الشيشانية إن سلالتي انتهت، وقطعة الأرض - متروكة لا مالك لها. لكن توجد أيضاً القوانين السوفيتية، والقوانين الروسية. لا سيما أنني عملت كل شيء وفق القانون، كما دفعت «كما يجب» الى بعضهم من أجل إعادة تسجيل الملكية باسم شوفدا، واستلمت وثيقة التملك القانونية. لكن تبين أن حفيد العم جيخو يسيطر على كل شيء في المنطقة. وفجأة حضر إليَّ بنفسه ترافقه خمس سيارات «جيب» مع الحرس. وبعد اختفاء ابني الأصغر لم ألتق به هكذا- وجهاً لوجه. وكنت عندئذ مشغولاً بالعناية بنحلي. والنحل تسمح بالاقتراب منها فقط إلى الناس الطيبين. وفجأة رأيته أمامي، وغلى الدم في عروقي - حقداً وغيظاً! وبدأ أنني كنت في انتظار هذه اللحظة. ولكنني لم أستطع عمل أي شيء فلا توجد في يديّ سوى الفرشاة. ولن يسمحوا لي بالذهاب إلى البيت وأخذ البندقية. وما كان بوسعي التغلب عليه، كما لن يسمح الحراس بذلك. ولا أستطيع قول أي شيء، وانضغطت قبضتا يديَّ فحسب. وقال:

- كيف تجرأت على تسجيل قطعة أرضك باسم ابنتك.. إن زوجها من عشيرة أخرى، ولا تتمتع هنا بأي حقوق.

وهمهمت بغضب، وأنا أضرب صدري بقبضة يدي، - أنا أفعل كل ما أريد بأرضي، وهي ابنتي ووريثتي. ويبدو أنه فهم فقال:

- إنها فنانة ومغنية.. وعموماً... إنها...- لكنه لم يكمل العبارة، لكن سحنته اتسمت بالحقد والاحتقار. وتملكتني المشاعر ذاتها، كما أن نحلي لا تحب مثل هذا الإنسان. وفجأة وبلا سابق إنذار لسعتني نحلة في يدي، بينما وقفت كالمصعوق، لأن فكرة واحدة كانت تلسع الدماغ هي كيف أصبح الوجه القريب والعزيز لدي يتشوه ويصبح معادياً لي بمرور الزمن. وبينما كنت أفكر في ذلك حطت نحلة على وجه حفيد العم جيخو أيضاً، وبالأحرى لسعته في عينه كالطلقة. فصرخ من الألم، وصار يقلب كل شيء رأساً على عقب ويطلق الشتائم وفور ذلك تفوه بما كان على طرف لسانه:

- لقد ربى جدي العجوز جيخو أفعى على صدره.

عندئذ لم أتحرك من مكاني، بينما لم أستطع الإجابة، أما هو فقد واصل الكلام باللهجة ذاتها:

- وأبناؤك، أنت يا ابن الزنا، مضوا على سيرة أبيهم. أما ابنتك فهي قحبة فحسب، بينما أنت تهب لها هذه الأرض البديعة!.. لكنها لن تحصل سوى على... - وعمل بيده إشارة فاحشة.

اندفعت إلى الأمام وأنا أصرخ بغضب. واستطعت السير خطوتين فحسب - فقد قبضت عليّ أيدي الحرس القوية، مثل قرادات حديدية، وألقيت أرضاً. أنا حتى لا أعرف هل إنهال هؤلاء الأزلام عليّ بالضرب ورفسوني. وأعرف فقط أنهم أسقطوا إحدى المناحل. واندفع سرب النحل كله بجنون للانتقام منهم... وهرب الضيوف الثقلاء بسرعة، بينما لم أجد الخلاص لا في البيت ولا في العنبر. أنا لم أحسب عدد اللسعات - فقد كانت كثيرة. وقد أغلقت في بيتي النوافذ والأبواب، لكن النحل كان في الأكمام وفي السراويل والشعر. وواصلت اللسع واللسع كما يجب وأستحق. علماً بأن أي نحلة لن تبقى على قيد الحياة وتموت بعد كل لسعة. إنها تسعى إلى حتفها هذا بإرادتها لدى الدفاع عن سربها. بينما لم أهاجمه، ولم أخدش عينيه، ولم أقلع لسانه النتن. أتمنى أن ينفق مجللاً بالعار. لكنني لم أستطع ذلك.

أنا متورم، وعيناي انتفختا، وأتألم، لا سيما روحياً. أصبحت طريح الفراش، وأطلق الأنين، وأنتحب من الألم والغيظ والعجز، وفجأة مسني أحد ما بيده. وعرفت من الصوت إنه الفتى جيراني. وقال:

- شوفدا لا تستطيع الاتصال بك. إنها قلقة جداً، وترجوك أن تتصل بها هاتفياً، والخروج إلى منطقة الاتصال.

أما أنا فلا أريد حتى العيش، العيش هكذا وفي مثل هذا الوضع، ناهيك عن الخروج إلى مكان ما، وصعود الجبل ليلاً. لكن ابنتي هي كل ما لدي الآن - إنها الكائن العزيز والحبيب الوحيد لدي، فخرجت من البيت. ليل، ظلام، ريح باردة وشديدة تهب من الكتل الجليدية القريبة، بينما كنت أشغل

الهاتف في أحيان كثيرة - للتحقق هل بدأ الاتصال؟ - وتسلقت الجبل بكل معنى الكلمة، وراودتني فكرة واحدة - ينبغي فقط ألا تعرف شوفدا شيئاً عما حدث. كانت شوفدا في هذا الوقت متزوجة منذ أكثر من نصف عام وحتى استقر بها المقام في أوروبا، ولا أريد أن تصل إليها من هنا أي أنباء تبعث على القلق. بل بالعكس أنا أكتب لها دائماً أن كل شيء على ما يرام. لكن بعض الناس، ويبدو أنهم ليسوا من الغرباء، قد أصبحوا أعداءً، وبلغت بهم الوقاحة أقصى حد، وهم يشعرون بقوتهم وبسلطتهم وبأنهم بمنأى عن العقاب. لكن هذه مشاكلي وحدي فقط، ولا أريد أن تعرف ابنتي وأن تحزر ما يجري. وفجأة ظهر الاتصال ورن الهاتف:

- دادا، كيف حالك؟- هذا صوتها، وبدا لي صوتها النير والملائكي حزيناً جداً ومبحوحاً. كانت تنتحب. - هل اعتدوا عليك بالضرب؟

وأجبتها بثأثاة إن كل شيء على ما يرام، لكنها قالت:

- لقد احتملت الكثير. ونحن صبرنا على كل شيء. إنه غالى في الوقاحة والوحشية.. وصار يطلق الشتائم عليّ أيضاً... ويهينني علانية. وأصبحت اليوم زوجة غريبة، ولكن لدي زوج... وماذا يفعل بك؟! دادا، أرجوك، لا تبقى معهم، مع هذه الزمرة الخائنة. لقد خان الجميع وكل شيء من أجل المال ومن أجل حياته... تعال إلى هنا. أو اذهب على الأقل إلى موسكو للعلاج والاستجمام... أنا أحتاجك، أحتاجك جداً!

لحظتئذ انقطع الاتصال وانتظرت فترة طويلة، أملا في استعادته مجدداً. لكن، كما لو كان ذلك عن قصد، يرى على الشاشة انعدام الاتصال. يبدو أن هذا بسبب رداءة الطقس. علماً بأن أقوالها جعلتني في وضع أسوأ، واستشطت غيظاً أكثر. وفي أغلب الظن أن هذا جعل قواي تزداد أكثر. وتسلقت جبلنا حتى بلغت الذروة تقريباً، لكن لم يتم الاتصال. وعندما رجعت إلى البيت بعد منتصف الليل بوقت طويل، وقد تملكني الغيظ والتعب تماماً، لكنني لست محطماً، استلمت فجأة رسالة منها: «سأدبر الأمر.. الوقت..». وأعقبتها رسالة أخرى: «تعال. أرجوك. سأستطيع العمل بيسر أكثر. أنا خائفة عليك».

قبل هذا كنت أخاف. لست أخاف على نفسي، بل خفت حتى من التفكير بقتل إنسان، لا سيما إنه حفيد العم جيخو. لأنني لم أؤمن بذلك حتى النهاية. لكنني التقيته في هذه المرة خلال أعوام طويلة، وأدركت كل شيء بصورة نهائية، وطالعت كل شيء في وجهه وفي نظراته. كما أدركت ما أعرفه أنا، وما تعرفه ابنتي، وهي ربما تعرف أكثر مني، وربما حتى تلقيت بعض المعلومات منها نفسها. لكنها تخفي ذلك عني، وتعد بأن «تدبر الأمر بنفسها» بينما أنا أعيقها عن «العمل». أنا أب، وعلى أي حال أنا رجل، وإنسان حي، ويجب أن أدبر الأمور وأعمل بنفسي! ولكن كيف؟ فأنا لا أراه، بينما لا يسمح لي بالمجيء إليه - إنه يخافني جداً!. وحدث بعد يوم أو يومين، حين زالت لتوه آثار لسع النحل وبدأت مجدداً بالعناية بها، رأيت في فسحة الجنة المذكورة طابور سيارات «جيب» الغالية المألوفة. تبلغ المسافة نحو الكيلومتر. النهار صاح، والرياح خفيفة، والخواء جاف جداً وشفاف. وقد رأيت بوضوح وبدقة الأفراد، وجميعهم بالزي العسكري ومدججون بالسلاح، لكن مهامهم الآن لا تتعلق بوظيفتهم الرسمية. بل بمهمام أخرى. إنني لا أميز الوجوه - فهي بعيدة،

لكنني حزرت من حركات الأيدي الآمرة، من هو حفيد العم جيخو بينهم. يالأسف لم يكن لدي منظار. وعندئذ تذكرت مخبأ السلاح لدي. فأنا لم أقترب منه خلال عدة أعوام، وكان حتى المكان نفسه يولد لدي شعور الإثم والنفور. لأن وجود مخبأ السلاح هذا أدى إلى مصرع ابني الأصغر - فلم يعرف بوجوده أحد غيره - وهذا دفعه إلى أخذ السلاح من هناك ما دام موجوداً. ومنذ فترة بعيدة، قبل خمسة أو ستة أعوام (ما أسرع ما يمضي الوقت) لم أقترب من هذا المخبأ. والآن تذكرته - هناك يحفظ سلاح القتل - بندقية القناصة. وفيها منظار قوي.

... في عام 1994 البعيد، حينما لم يخطف ابني الأكبر بعد، اشتريت، كما كتبت، ترسانة كاملة من السلا ح. إن حادث الخطف قد سوي آنذاك سلمياً، لكنني أنا الأبله لم أبع هذا السلاح (لم أستطع بيعه)، ولم أسلمه ولم أرمه (أسفت على ذلك) وأخفيته هنا، في مغارة صغيرة. علماً بأنني عثرت على هذه المغارة بالصدفة. فقد كنت أتنزه فوق جبلنا، بالقرب من قطعة أرضنا تماماً، وفجأة انهارت الأرض. وفيما بعد فحصت المكان - إنه مغارة صغيرة ومخفية وجافة تشبه القبو. وفكرت فوراً في أنها مخبأ جيد. وما يؤسف له أنه كان غير جيد بالنسبة لي، وتغير كل شيء في حياتي، أما الآن فإنه يغريني بالمجيء إليه كمخبأ، فيه ثروة... بهذه الصورة يتغير مفهوم الثروة، في مختلف مراحل الحياة. عندئذ احتجت إليه - إلى سلاح القتلة والقتل. إنه بمثابة الخلاص! ومغزى الحياة. وإذا ما خفت سابقاً أن يراه أحد ما، وعموماً كنت في الليالي فقط أحفر المغارة (استخدمت في ذلك صخرتين كبيرتين)، وهرعت هذه المرة حتى من دون تفكير في أن هؤلاء الأنذال يمكن أن يفحصوا المنطقة بالمناظير. وحالفني الحظ. فالبندقية موجودة، وبالدهان، كما لو أنني وضعتها هناك يوم أمس. فأخذتها مع عشر طلقات وحتى لم أغلق مدخل المغارة، وهبطت إلى سفح الجبل، وكان الطابور قد بدأ بالرحيل. في البداية استشطت غضباً. ثم عدلت عن رأيَّ. فأنا لدى الخدمة في الجيش كنت قناصاً. ومحترفاً تقريباً. لكن متى كان ذلك. ولو أن الخبرة متوافرة. وانطلاقاً من الخبرة يجب أن أنجز كل شيء بدقة وكما يجب. لأنني في وضعي الحالي لم أعد قناصاً، بل زارع ألغام، ولا توجد لدي فرصة أكبر، وما سيحدث الآن هو - الفرصة الأخيرة.

بدأت بالتحضير. كان يجب تجربة البندقية. وهذا غير ممكن إلا في الجبال بعيداً، لكيلا يسمع ولا يرى أحد ذلك. ولهذا قمت بتفكيك البندقية ووضعها في حقيبة الظهر بصفتها الملح من أجل الجياد... البندقية - ممتازة! مع هذا فإنهم أعدونا آنذاك للحرب - وجلبوا أفضل الأسلحة! وكانت تباع بأثمان زهيدة. وهذه الأسلحة قتلتنا ولا تزال تقتلنا. إن هذه سوداوية الحياة، والسنتمترات الواهنة، أما الواقع فهو براجماتي فحسب وقاس جداً، وهكذا أخذت في نهاية المطاف أداة القتل. وأعترف بأنني أندم أحياناً، وحتى أخجل من الكتابة عن هذا، بينما تمزقني الأفكار المتناقضة: أيعقل أنني في نهاية حياتي، وطبعاً ستكون نهايتي، أصبح قاتلاً وجلاداً؟ فالرب حاكم الجميع... لكن في هذه الفترة لم يكن هناك وجود لأفكار التمزق والشكوك هذه، - فقد كنت على استعداد وأعددت نفسي للقتل. وأحسست بصورة غريزية خالصة أنه سيقع في الفخ الذي صنعه بنفسه حين يأتي إلى فسحة الجنة في الغابة التي استحوذ عليها. وكما ينتظر الوحش فريسته عند موضع شرب الماء أخذت أنا أنتظره في هذا المكان البديع.

إن مسافة قوة دفع بندقيتي بموجب كتالوج المواصفات الفنية (وقد تحققت من ذلك فعلاً عدة مرات) تعادل 1200 متر. وبموجب الطلب يوجد في منظار البندقية مقياس مسافة - وتبلغ من بيتي، من النافذة مباشرة، وحتى فسحة الغابة ما يربو على الكيلومتر. ولكن هذا من حسن الحظ، لأن سرعة الرصاصة تقل بحدة، وتعمل الريح وقوة الجاذبية عملهما، ويجب تعلم كيفية تصحيح الهدف. وأفضل مسافة هي خمسمائة- سبعمائة متر. إنني حتى اخترت مكاناً مناسباً جداً على المنحدر تحت أشجار صنوبر جبلية ليست عالية. وضع الانبطاح - مريح جداً، ويبدو كل شيء كما لو كان على راحة اليد ومن هذا الموضع يمكن إطلاق النار حتى من دون كاتم الصوت - فلن يسمع أحد. لكن الهدف لن يظهر قريباً فنحن في عز الخريف، وحسناً ألا تسقط أوراق أشجاري الصنوبرية، لكن الجو بارد هنا، كما ازداد تساقط الأمطار. واصلت الجلوس في الكمين بإصرار، في كل يوم تقريباً، وبغية عدم إبقاء أثر في الدرب كنت في كل مرة أختار مساراً جديداً للقدوم إلى هناك. وعبثاً. بدأت أفقد الأمل، وبغتة ظهر في الصباح مع مجموعة كبيرة من رجال الحماية. وكنت في أرضي، والبندقية في موضع الكمين، فأنا لا أستطيع حملها معي خشية أن يراها أحد - وعندئذ تفشل خطتي كلها. ومشيت إلى موضع كميني بحذر وبانحناء الجسد وبخطوات سريعة، وأخذت أراقب الفسحة باستمرار- وكان حفيد العم جيخو يلوح بيديه، ويصدر الأوامر. بينما أنا قطعت نصف المسافة، لكنه انصرف. وفي اليوم نفسه بدأت أعمال البناء في فسحة الغابة. واعتقدت أنهم سيشيدون مبنى ضخماً، إذ جاء عدد كبير من الناس. لكن ما بنوه كان خفيفاً ومتواضعاً - فقد شيدت خلال أسبوع سقيفة جميلة وتحتها طاولة ومصاطب ومنقلة وغيرذلك من متطلبات الاستجمام. أما المبنى الرئيس فهو مثل خيمة كبيرة. وبدأت الزيارات إلى فسحة الغابة، وحتى المبيت هناك، وكذلك الشرب والصخب والغناء. صيد السمك، والشواء، والفتيات أحياناً... بينما كنت بحاجة عندئذ إلى جهاز الرؤية الليلية. علماً بأن المسافة القصوى للرماية عندئذ كانت تبلغ 300 متر فقط، وأعددت موضعاً آخر للكمين (ليلاً).

لقد جاء هو إلى فسحة الغابة عدة مرات. إنه كان يأتي بصحبة كبار الضيوف ليس من الشيشان فقط أو يأتي ثم ينصرف بسرعة. لكنني لا أستطيع البقاء في الكمين فترة طويلة - الجو بارد، وقد أصبت بالزكام، ولم أستطع التوقف عن النحنحة طوال أسبوع. كما أصبح الفتق أكبر. وانسد القسطر تقريباً، وبدأت أتحسس الرائحة النتنة المنبعثة منه. ووجب عليّ السفر إلى موسكو، لإجراء العلاج الدوري بالأشعة، وتنظيف القسطر، بينما أنا اؤجل السفر باستمرار. إن ابنتي تهتف لي يومياً، وتبكي، وتتوسل أن أسافر من أجل العلاج. وقد مرضت فجأة حقاً مرضاً شديداً ولزمت الفراش في البيت طوال أسبوع كامل، وكانت تعصف وراء النافذة خلال هذه الفترة كلها عاصفة هوجاء مع الثلج والزمهرير. ونسيت الهدف، فقد أردت نفسي البقاء على قيد الحياة. وقررت السفر إلى موسكو حالما يتحسن الطقس وأجد نفسي قادراً على السفر. فأنا لا أستطيع الإقامة هناك في الشتاء. وكما يحدث عادة في الجبال في الشتاء حلت أيام صاحية وباردة ومشمسة. رياح خفيفة، ثلوج، سكون. والمنظر - رائع. فماذا أرى - هناك اثنان أو ثلاثة أشخاص فقط في فسحة الغابة، إنهم من أتباعه. وذبحوا خروفاً، وبدأوا الطبخ. إنهم بانتظار مجيء أحد ما. تحسست فحسب بكل خلية من جسمي بأنه سيأتي، وارتجف كياني بلا إرادتي، كما لو أستعد للمعركة الحاسمة والأخيرة. ولكنها كانت رجفة حلوة، إنها أنعشتني، وجذبتني ودعتني إلى الأبدية. أنا حتى لا أذكر كيف جئت إلى موقعي الأول. ولا يمكن البقاء طويلاً تحت صنوبراتي الصغيرة، ولا سيما في وضع

الانبطاح، وأخذت أرتجف من البرد وأدركت كل الإدراك أنني في مثل سني ووضعي الصحي لست مقاتلاً. لقد انسد البلعوم والقصبات تقريباً بالسائل المخاطي. وسد ت وفرة هذا السائل حتى القسطر كلياً أيضاً، لهذا بدأت أشعر بصعوبة في التنفس،- فأنا لا أستطيع التنفس فحسب. في البداية خشيت إحداث ضجة، أما الآن: أنا أجهد نفسي لكي أتحرك فأشعر بألم حاد في الفتق الأربي. لقد ساءت حالي، ساءت جداً - أنا لست قاتلاً، بل أنا على وشك الموت، وأجد صعوبة بالغة في التنفس. يجب الرجوع إلى البيت. وسأحاول تنظيف القسطر المسدود بما لدي من أدوات. توكلت على الله، وأخفيت البندقية مرة أخرى، وبدأت طريق العودة إلى البيت- طريق الصعود شديد الانحدار، وأسير بجهد جهيد، وأتنفس بصعوبة، وفجأة تعثرت في مكان ما، وطرت في الهواء. وأذكر أن كل ما حولي يوجه إلى رأسي اللطمات.. لا أعرف كم من الوقت بقيت راقداً فاقد الوعي، وفي هذه اللحظة رأيت لأول مرة ابني الأصغر (قبل هذا لم يراودني في الحلم أبداً): إنه فتى وطاهر ومرح كالسابق، وحتى لم يحلق ذقنه بعد. إنه يدعوني إلى مكان ما... ثبت إلى رشدي، وجلست، وكان أول ما جذب انتباهي هو هدير المحرك المتنامي في الفج الجبلي، الذي يعكر السكون المطبق هناك. وأدركت في لحظة خاطفة إلى أين يدعوني ابني الأصغر. فحددت اتجاهي بسرعة وصرت أنزلق فوق المنحدر الشديد وعدت إلى مكمني مجدداً، وإلى سلاحي القاتل.

فيما بعد، وعندما أتذكر هذه كله، أعجب لمدى نشاطي. طبعاً، كان هناك الحافز الشديد بل والجنوني، ولا أجد كلمة أخرى في وصفه. وتوافرالحظ. لكن يبدو أن المسألة تكمن في شيء آخر. فعندما تدحرجت من الجبل منقلباً رأساً على عقب، وكان ذلك المسافة خمسين أو ستين متراً، وتأرجحت في الجوانب كافة، خرج جميع السائل النتن ذاك، وبضمنه من القسطر (لحسن الحظ لم يصب الدماغ بسوء). وعندما أخذت أتنفس بحرية، بدأ الأوكسجين يدخل بصورة كاملة، فاستعدت حيويتي ونشاطي. بلغت مكاني المحبوب بسرعة. ولم أعد أشعر بالبرد والارتجاف السابق، بل بالعكس، فقد نضحت عرقاً،، وفقط كانت يداي وسختين وباردتين. علماً بأن أهم شيء بالنسبة إلى القناص هو أن تكون اليدان دافئتين وناعمتين وطيعتين - أما الباقي فتقرره الأجهزة البصرية وخبرة التدريب في الجيش. دسست كلتا يديَّ، كما علموني في الجيش، تحت الإبطين، - وأحسست بالدفء. بينما أخذت أدرس الوضع. فقد ظهرت سيارة «جيب» من وراء المنعطف الجبلي. ولغرابة الأمر كانت السيارة وحيدة، بينما انطلقت بسرعة جنونية. ثم توقفت السيارة. أي سعادة! كان هو نفسه وراء المقود. وكنت أراه حتى من دون المنظار بكل وضوح. واستدار حفيد العم جيخو حول سيارته بسرعة وفتح الباب الخلفي بتملق ظاهري. أوه! يالها من سيدة شابة وأنيقة. ربما إنها جاءت من خشبة المسرح أو منصة عرض الأزياء مباشرة (أنا لا أقول ذلك لمجرد الكلام - فقد تذكرت ابنتي). كانت هذه السيدة ترتدي معطف فرو فأخراً، وجزمة عالية الكعب، ولهذا ما كان بوسعها المشي فوق الأرض المغطاة بالثلج. وأخذ يسندها بلباقة، ويتحدث كما يبدو ويضحك ويبتهج ويعرب عن رضاه. أنا أرى هذا كله عبر عدسة المنظار. ورحت أفكر - إن فسحة الجنة هذه ستصبح الآن كجهنم بالنسبة له، سيدخل «الجنة» حتماً، وسأساعده في ذلك. وبغية ضمان ذلك، وأنا لا أخشى أحداً بعد هذا سوى الخالق، أدرت كاتم الصوت، ووجهت الماسورة نحوه. كانت علامة الصليب في الجهاز البصري مرتسمة على سحنته الملتحية. وكان إصبع السبابة يمس الزناد، ومستعداً لبدء سعادتي. لكن راودني شيء من الخوف. إنه يحوم حول هذه السيادة باستمرار، فتارة يهمس بشيء ما لها، وتارة يريد تقبيلها. إن رأسه لا يقف في محله، وأنا ربما

سأصيب هذه البلهاء. أوه! يالها من فرصة سعيدة! لقد أخرج من جيبه الهاتف النقال، وابتعد جانباً. أدار ظهره لي، بينما وضع الهاتف على أذنه. وفيما بعد استدار. يا شاطر! قف هكذا وثرثر.

لم تكن هناك ريح تقريباً، والمسافة تعتبر المثلى. والبندقية خضعت للتجربة. ووجهت البندقية نحو الجبهة مباشرة - هذا مضمون أكثر من أي شيء آخر. والآن يجب أخذ نفس عميق، وقبض النفس، ثم إجراء طقطقة انسيابية.. لكنني لا أستطيع. إن أصبعي لا يطيعني، كما لو أنه تنمل أو تجمد. وأنا لا أفكر فيه لأنه حدثت طقطقة ما في وعيي، وتذكرت فقط طفولتي حيث الجوع والتشرد في دار اليتامى في كازاخستان والصورة العزيزة لدي - وجه العم جيخو الذي غطاه الزغب الخفيف. لقد كان بهذه الهيئة حينما حملني بيديه، ولاطفني باللغة الشيشانية، ومنذ ذلك الحين بدأت حياتي الجديدة مثل العيد! وأرى أمامي وجه العم جيخو بالضبط. كان بهذه الهيئة حينما رأيته أول مرة. بينما أنا أوجه نحوه علامة الصليب! لقد تأثرت بشدة من هذه الذكريات التي اجتاحتني بصورة مباغتة وانحدرت من مقلتي الدموع. أنزلت البندقية ومسحت الدموع، ورأيت واقع الحياة مجدداً بلا جهاز التنشين. الصورة ذاتها. فهذا الحقير يقف كالسابق ويثرثر بالهاتف. وأنا تذكرت - هو الآن أمام ناظري - صورة ابني وكذلك وجه ابنتي.

أو- و! - أطلقت الأنين بغيظ. وسددت الماسورة بحزم وبسرعة مجدداً، ووضعت الأصبع على الزناد، وندت عني زفرة، ورأيت العم جيخو - عمي الطيب والمحبوب جيخو. أنزلت الماسورة إلى الأسفل، وأبعدت بصري عن المنظار. ولحظتئذ تذكرت ابني. ومجدداً نظرت عبر المنظار: صورة العم جيخو! كم أحببته وأحببته. لكنني لا أستطيع إطلاق النار عليه. لا أستطيع. إنني في أسوأ حال. وانحدرت الدموع من عيني مجدداً. لكنني أحب ابني بقدر لا يقل عن ذلك، وربما أكثر. وأنا لا أستطيع النظر إلى هذه الدنيا - فما أكثر ما فيها من حقد. كما لا أستطيع التطلع في المنظار - أشعر بالألم! ما أشد شبهه بجده - إنه نسخة من العم جيخو، وهل يمكنني أن أطلق النار عليه؟ لقد ساءت حالي للغاية. ولا أعرف ماذا أفعل؟ أنا لا أستطيع التطلع إلى هذا العالم القذر والدنيء. إنهم لوثوا بالقاذورات حتى الجبال. أردت أن أموت، وأحلق في السماء الزرقاء الأبدية الصافية. ورفعت بصري. كان غصن شجرة الصنوبر فوق رأسي مباشرة. وأردت إبعاده بيدي اليسرى وعندئذ -.. باخ! انطلقت رصاصة. لقد ضغطت على الزناد بالصدفة. وفور ذلك ثبت إلى رشدي، وعدت إلى الواقع. ووجهت الماسورة مجدداً. أما هذا «البطل «فقد اندفع بسرعة كالأرنب إلى سيارة الـ «جيب». وأدار السيارة التي راوحت في مكانها وكاد في خوفه أن يتخلى عن حسنائه. أما هي فكانت تتخبط عند السيارة ال «جيب» المتوقفة. فسقطت مرتين وفي النتيجة ركبت في السيارة. انطلقت السيارة. ووجهت الماسورة نحوها. لكنني لم أطلق النار - فلا فائدة من ذلك تقريباً. فسأكشف نفسي عندئذ فقط. كنت غاضباً جداً، وفي الوقت نفسه أبديت أسفي للغاية. لقد أسفت جداً! في هذا الوقت ظهر أتباعه وصاروا يتطلعون في أنحاء الجبال. ولم يبقوا هناك فترة طويلة، ثم انصرفوا. لكنني لم أغادر مكمني، بغية عدم كشف أمري، لأنه وجب عليّ أن أنتظر فرصتي القادمة.

نهار أحد أيام ديسمبر. إنه قصير لا سيما في الجبال. وخرجت من مكمني فقط حين احلولكت العتمة تماماً، وبدأت بالصعود إلى سفح الجبل، فسمعت هدير محرك. إنه يتوجه إلى بيتي بالضبط

حيث لا يوجد مكان آخر يذهب القادم إليه، والطريق مسدود هناك. قمت بحركة التفاف طويلة حول بيتي. وذهبت إلى المخبأ. وأخفيت االبندقية بهدوء وإمعان قدر الإمكان. ثم قمت بحركة التفاف أخرى وجئت إلى البيت من الجانب الآخر، فوجدت الشرطي المحلي في انتظاري.

اجمع حاجياتك بسرعة. ولا تنس بطاقة الهوية. ستطير إلى موسكو وإلى أي مكان آخر تريده. يجب عليك أن تتلقى العلاج بجد.

لم أستطع التفوه بأي كلمة ولا فائدة من ذلك. وإذا توخيت الصدق فإنني اعتقدت أنه سيأخذني إلى ادارة الشرطة في المنطقة، لكنه انطلق بسرعة إلى مركز إدارة المنطقة، وحين

ما وصلنا إلى جروزني في وقت متأخر من الليل قال:

- إن موقف سيارات الأجرة هناك. سافر إلى أي مدينة أخرى، وسافر جواً إلى موسكو. عالج نفسك واصغ إلى ابنتك بشكل أفضل، واقض بقية حياتك معها.. لم يعد لي وجود معك أكثر - فلدي عائلة وأطفال...

28 أبريل، ليلاً

أنا لا أعرف. ربما لأنني كتبت عن ذلك في العشية، فقد رأيت لتوه في الحلم العم جيخو - إنه حزين جداً وكئيب. ذهب الحلم. خرجت. الليل هادئ، هادئ جداً وبارد. والقمر كبير وساطع وناضج - يعلو الرأس مباشرة. والهواء نقي وشفاف والنور متألق كما لو أنه النور الرتيب والمهدئ والفوسفوري المنبعث من تحت مظلة المصباح،- هكذا كانت تتألق الكتل الجليدية الجبارة والخالدة. إنها رأت الكثير والكثير جداً خلال القرون، وحتى خلال آلاف السنين، وفي أغلب الظن تبدو مرارة الأحاسيس والانفعالات البشرية مضحكة. إنها ستبقى، وستبقى خالدة ومنيعة، بينما سنختفي من الوجود نحن البشر التافهون.. وسيأتي عاجلاً كما يبدو دوري. الكآبة. الوحدة. شعور الوحدة الرهيب جداً. وأظن أن الأفظع من الوحدة الشعور بالجوع ونقص الأوكسجين. إنها حاجات جسدية، إنه الجسد الذي سيمحى في النتيجة من الوجود سواء أطعمته أم لم تطعمه، وحتى لا يبقى الهيكل العظمي. والروح؟ ستحلق الروح في أغلب الظن إلى إحدى النجوم... ما أكثر النجوم في السماء الآن - إنها كثيرة جداً: متألقة وليست متألقة تماماً، وقريبة كما يبدو وبعيدة جداً، كما لو أنها كبيرة وقزمة بشكل نقط... لكن توجد هناك نهاية، وجيد أن توجد النهاية. أنا كتبت وفكرت بأنني أحب الوحدة. طبعاً، هذا غير صحيح، ولايمكن أن يكون صحيحاً. فالوحدة امتحان وعقاب رهيب. ويبدو أن هذا مصيري، وقدري المكتوب، حيث إنني كنت منذ طفولتي يتيم الأبوين، وعرفت منذ الطفولة الإحساس بالوحدة والغربة. وقد أنقذني العم جيخو الطيب من ذلك الوضع، لكن في النتيجة أصبحت وحيداً مجدداً. ولهذا فإنني أحاول التخلص من هذا الخوف بتدوين جميع هذه الكتابات. وكذلك أعتقد، أو بالأحرى هذا ما سيحدث، إنني سألتقي العم جيخو إن عاجلاً أو آجلاً ليس في الحلم فقط، بل بشكل آخر. سأكتب له - هل يعقل أنني لن أتمكن هناك من الحديث أيضاً؟ وهل لن أسمع صوتي أبداً؟! كلا، لدي صوت! وإذا ما قلت باللغة المعاصرة فمعنى ذلك عدم امتلاك الحق في الصوت. لا يوجد أي خيار ويجب أن أتقبل واقع الحياة كما هو. بينما أنا قررت أن أحاكم وأعاقب وأنتقم. لماذا؟ إن الرب هو القاضي الذي يصدر أحكامه على الجميع. إذن أنا أعتقد، أعتقد أحياناً، بأنني حتى مسرور، مسرور جداً لكوني لم أطلق النار آنذاك، فلم أستطع ذلك. فكيف سأنظر عندئذ في وجه العم جيخو الذي وجهت فوهة بندقيتي إلى صورته بدقة. لقد أبعد أحد ما، أو بالأحرى الخالق عز وجل، يدي جانباً، وحال من دون أن أصبح قاتلاً. وأنا سعيد بذلك، سعيد جداً. سعيد أحياناً. ولكن لِمَ أحياناً فقط. لأنني غالباً ما أفكر في ابني الحبيب، وقد تذكرته آنذاك أيضاً... آنذاك أردت وحلمت وكنت مستعداً لكي أصبح قاتلاً ومعاقباً ومنتقماً، وقاضياً وجلاداً فحسب. يجب أن أنتقم لابني وأنا واثق، وهذا ما أرجوه - إذا توافرت الفرصة مرة أخرى سأرديه قتيلاً ولن يرف لي جفن ولن

أخطئ في إصابة الهدف. لأنني في غالب الأحيان أرى أكثر من العم جيخو.. أرى ابني الأصغر المرة تلو المرة.. وأنا أعرف بأنه كان سيفعل الواجب من دون تأمل. ولست أنا الأب أكتب عن ابني لكنني أفتخر به، والجميع يتذكرونه حتى الآن بكل تكريم - لقد كان شجاعاً لا يهاب وذا كبرياء وشرف.. الأفضل لو بقي حياً. لكن في ذلك الزمن..

في ذلك الزمن وكان ذلك في عام 1999 - الرهيب بالنسبة لي، وكذلك بالنسبة لشعبنا بأسره، سافرت إلى جمهورية الشيشان. وبلاد الشيشان وطني! أذكر كيف جئت إلى وطني وإلى القوقاز الحبيب في أول مرة بعد الترحيل. وما أكثر المرات التي رجعت فيها إلى هذا الإقليم المدهش. وكنت أشعر دوماً بالبهجة، وبانتظار ما هو طيب وقريب ودافئ وقريب إلى القلب. وأنا حتى لا أتصور أبداً بأنني يمكن ألا أرغب في السفر إلى بلاد الشيشان. وقد تثير فيّ الرعب والخوف وشعور النفور وحتى الحقد. لقد فقدت هناك أشياء كثيرة، إن لم يكن كل شيء. لكنني هنا مجدداً من أجل أن أجد ما أبحث عنه. أنا أريد ويجب أن أجد ابني. يجب إعادته إلى جادة الصواب وانتشاله بشكل ما من هذا الكابوس. وهنا فعلاً كابوس وقسوة وموت. والحرب الثانية بالقياس إلى الأولى تجسد فحسب الدمار والهلاك. ولئن بقي جزء من جروزني القديمة قد سلم من الدمار بعد الحرب الأولى، وحتى أعيد بناء شيء ما، فإنه يجري الآن تدمير كل شيء بصورة مخططة وهادفة بواسطة ما يسمى القصف الجوي الكثيف والشامل. ولا يتوقف تقريباً هدير الطائرات وهزيم المدافع - وتسود الحرب الواسعة النطاق والحقد البالغ. ويشارك ابني في هذه الحرب. أريد أن أعثر عليه! ولكن كيف؟ ففي كل مكان حواجز التفتيش، وفي كل مكان يجري التحقق من الهويات وعمليات التطهير، ولن يسمح لي بالمرور حتى أبعد من فيدينو. وقد تبين أنه لا يسمح لأي أحد بالذهاب إلى المناطق الجبلية العالية، إلا في الحالات الاستثنائية، وبموجب رخصة من القومندان العسكري، وإذا كان المواطن مسجلاً للإقامة هناك. بينما أنا مسجل في جروزني، لكن بيتي لم يعد له وجود، وعموماً لا يوجد لدي محل سكن، وحاولت بشكل ما تسجيل إقامتي في قريتي. لكن تبين أن الحرب جارية، ولا يعمل قسم الشرطة الخاص بتسجيل الإقامة. لكن قطاع النفط يواصل العمل، وبالأحرى يجب إعادة استخراج النفط، بينما توجد في مكان ما في الضواحي دائرة جديدة لمؤسسة «جروزنفط»، التي أصبحت الآن إحدى فروع شركة «روسنفط» - وهي المكان الوحيد في جروزني الذي يسمح لي بالذهاب إليه وحيث كانوا ينتظرونني.

في الداخل كل شيء جديد - أقصد الأثاث والمعدات، والمدير العام جديد أيضاً، وهو شاب محترم لم يقطن في جروزني ولم يعمل أبداً في حقول حفر الآبار. لكن وجب استخراج النفط بالتقنية السابقة، وبالأسلوب السابق، وهنا ثمة حاجة إلى خبرتي وقدراتي الحرفية. أنا بحاجة إلى النقود، فأنا أعيش منذ وقت بعيد بالديون، وإذا توخيت الصراحة، فنفسي بحاجة إلى العمل، - فقد كنت آمل في نسيان مصائبي في سياق عملية العمل. وأردت أن أتولى كالسابق منصب رئيس دائرة أعمال الحفر، فصدر فوراً الأمر بتعييني نائب المدير لشؤون استخراج النفط. بينما لم يوجد عندئذ في جمهورية الشيشان الفرع الآخر أي تكرير النفط - فقد لحق الدمار كل شيء. والوضع في مكان عملي ليس أفضل - إذ لحق الخراب كل شيء تقريباً، والعمل كثير، وحاولت عدم الالتفات إلى الحرب، وقد هدأت تقريباً، فانهمكت في العمل، لا سيما وقد وجد الحل هناك فوراً الكثير من مشاكلي المعيشية - فلدي غرفة استجمام إلى جانب مكتب عملي، وهناك أنام، ولدي سيارة تابعة

للدائرة وسائق وحارس شخصي - هذا واجب، واستلمت مجدداً، بمثابة هدية من الحرب الجديدة، تعويضات نقدية جيدة، كما أن راتبي الآن محترم جداً، مع علاوات خاصة بالجبهة والقتال وغيرها، ويجب أن أسافر شهرياً مرة وأحياناً مرتين وثلاث مرات إلى موسكو في مهمات رسمية، ومعنى ذلك أنني سأرى ابنتي في أحيان كثيرة. لكنني لا أستطيع رؤية ابني، وحتى لم أسمع عنه شيئاً. وراودتني فكرة ملحة جداً - يوجد بريد سري يستطيع أن يوصلني إليه هو مخبأي السري للسلاح، حيث إنه لابد وأن يأتي إليه حتماً للتزود بالسلاح والذخيرة إذا ما كان ما زال حياً يرزق. لكن الذهاب إلى الجبال ليس من الأمور اليسيرة. أولاً إنه خطر، حيث تدور هناك معارك طاحنة ويواصل الطيران القصف. وثانياً، لا يسمح لأحد بالذهاب إلى هناك كالسابق من دون تسجيل الإقامة أو رخصة خاصة. وثالثاً، وهو الأمر الرئيس، لقد منعت عموماً بصفتي أحد المسؤولين من الذهاب إلى المناطق جنوبي الطريق (م - 29)، أي أستطيع السير فقط في جروزني وضواحيها. هذا حال وظيفتي الآن. لكن هذه الوظيفة توفر لي امتيازات كثيرة - لدي جواز مرور يسمح لي بموجبه عبور جميع حواجز التفتيش. فبدأت أنتظر فرصة مناسبة، وقد سنحت لي. فقد لقي مصرعه في القرية الجبلية المجاورة شيخ ورع مهيب ووقور جداً. ولا يجوز عدم حضور جنازة رجل كهذا - فهو واجب مقدس. وبعد ذلك سيفهمني أي واحد، لذا يجب الذهاب إلى قريتي.

كان عدد ساكني قريتنا قليلاً أصلاً، وبقي شيخ عجوز عنيد فقط في أحد البيوت، وهو بيت مهدم. ولأمر ما فإنني حين رأيت هذا العجوز تذكرت فوراً زيبا. إنه حتى يشبهه في المظهر لحد ما. وكان هذا العجوز يعرج أيضاً في مشيته، وله عينان زرقاوان فاتحتان، أصبحتا خابيتين وذابلتين، لكن نظراته نفسها كانت تنم عن الازدراء والعناد والثبات مع شيء من الكآبة. ولا يشكو هذا العجوز، ولا يتذمر، ولا يشتم أحداً. ويتحدث عن الحرب بصفتها حدثاً قديماً. وهمه الوحيد أن اثنين من أكداس التبن قد احترقا بضربة صاروخية، فكيف سيحيا حتى الربيع، وكيف سيتم إطعام البقرة؟

عندئذ قلت له، كما كان يفعل زيبا لحد ما:

- سأرسل لك من السهل في الأيام القادمة حمولة شاحنتين من العلف.

- كيف ستفعل ذلك؟ فنقاط التفتيش منتشرة في كل مكان.

- سأفعل ذلك بشكل ما.- قلت ذلك وتذكرت كيف أن زيبا حتى استطاع بناء طوافة عامت في نهر أوب الكبير، من أجل أن يجلب لنا وقود الديزل. وقد نفذت وعدي فأرسلت له حمولة ثلاث وليس شاحنتين من التبن وطناً من العلف المركب. طبعاً، لا يمكن مقارنة ذلك بأفعال زيبا، لآن زيبا حصل ليس على وقود الديزل الشحيح جداً في تلك الأيام بل ونقله رغم أمواج المياه الصعب التكهن بها والخطرة. أما أنا فقد تغلبت ليس فقط على العوامل الجوية الطبيعية، بل على هدف الحرب والعامل البشري البسيط - الجشع. فقد كان العامل الذي أرسلته مع الشاحنات يدفع عند كل حاجز تفتيش أتاوة المرور. وقد استرجعت هذه الأتاوة بما يعادل مائة مرة، لأن مخالطة العجوز من أبناء قريتي واستعادة صورة زيبا التي بعثت في ذاكرتي قد أثرت جداً في روحي، وعززت إرادتي وحتى غيرت نظرتي إلى الحياة. وحدث في تلك الليلة، خلافاً للوصية، في أن لا أبقى في الجبال ليلاً - قد بقيت ليلاً في قريتي، وفي جبالي العزيزة، في كوخ شبه مهدم وتعوزه التدفئة، حيث لا

تتوافر أي وسائل راحة. ولكنني نمت بهدوء لأول مرة بعد الفاجعة، وحصلت على حاجتي من النوم. وكالعادة في الجبال، فقد نمت عند غروب الشمس واستيقظت قبل حلول الفجر بوقت طويل. وكانت لدي مهمة هي - فحص المخبأ. وحالما دخلت المغارة أشعلت مصباح الجيب الذي أعددته لهذا الغرض. كانت هناك ثماني قطع سلاح: مسدس من طراز «ستيتشكين» وأربعة رشاشات «كلاشنكوف» ومدفع رشاش وراجمة صاروخية وبندقية قناصة وكذلك الذخيرة لها. أما الآن فقد بقي فقط المدفع الرشاش والراجمة الصاروخية. ويبدو أن أبني كان يأتي إلى هنا لوحده، من أجل صيانة السر. إنه لم يأخذ الأسلحة الثقيلة - فهي ثقيلة ويجب حملها إلى مكان بعيد كما يبدو. ولا يمكن معرفة متى جاء إلى هنا في آخر مرة، لكنني على ثقة من أنه سيأتي إلى هنا مرة أخرى إذا ما كان حياً يرزق، ولهذا قررت أن أترك له رسالة - وقد فكرت بهذا مسبقاً أيضاً، وجاء في الرسالة:

«الانتقام شيء. إنه وظيفة الرب والزمن.. أما الحماية فهي شيء آخر.. لكن ليس حمل السلاح ضد الدبابة والطائرة.. وسيكون أفضل وأكثر فعالية بقدر كبير، وفي هذا فقط سيكون مستقبل أسرتنا وشعبنا، إذا ما كنت تدرس الآن في مكان ما، وتحصل على المعرفة، وتفكر في المستقبل والحياة.. وقيل لي منذ أن كنت في الجيش إن بندقية القناصة - سلاح القتلة وليس المحارب.. والمحارب الحقيقي، هو محارب منتصر، ويجلس في القرن 21 عند الكومبيوتر، ولا يهرول حاملاً الرشاش في الغابات، كما في القرن 20... دالا لالاش فيولا هيو (ليحفظك الخالق - باللغة الشيشانية)».

في اليوم نفسه عدت إلى جروزني، ولم يلتفت أحد في مكان عملي إلى غيابي خلال يوم كامل. وبعد مضي أسبوع رغبت جداً في الذهاب إلى موطني في الجبال مرة أخرى، وأنا لم أتحرق شوقاً إلى الذهاب إلى المخبأ مرة أخرى، ورؤية رد الفعل، وإيجاد الجواب أو مجرد الإشارة إلى أنه على قيد الحياة، كما رغبت، إن أنام مرة أخرى بهدوء وأستنشق الهواء الجبلي النقي العزيز، وأتمتع بالسكون والهدوء اللذين لا وجود لهما في جروزني - فهناك ضجيج وقرقعة وتدور رحى الحرب. بينما نحن نستخرج النفط ونعمل- هذا شيء لا معقول! ويتراءى لي أحياناً أن هذا كله يجري في كابوس، أو أنني ومن حولي قد أصابنا مس من الجنون، كما أصبح العالم كله في هذا الحال. بينما أنا أحلم في الانطلاق إلى الجبال، وعدم رؤية هذا الكابوس، وهذه الخرائب ومصرع البشر في كل يوم. ولكن بدا وكأنها نكاية بي، فلا توجد ذريعة وإمكانية للذهاب إلى الجبال، بينما لا يمكن ذلك بلا قصد. لكن العالم لا يمكن أن يبقى أسود دائماً - فقد أرسلت إلى موسكو في مهمة عمل، ورأيت ابنتي شوفدا مجدداً، وكان أول سؤال طرحته عليّ هو:

- هل رأيت أخي؟ - وانخرطت في البكاء مجدداً. بينما صرت أكذب مجدداً، وقدمت لها الوعود مجدداً، بأنني سأخرجه من هذا الجحيم. وأنا أعرف مكان وجوده، وسأتوجه إليه من موسكو مباشرة. لاريب في أن الأمر ليس كذلك، لكنني توجهت من المأمورية مباشرة إلى الجبال من دون إبلاغ أحد- كنت قد حصلت على خبرة المرور عبر حواجز التفتيش. وهناك قال لي العجوز:

- لقد كان ابنك هنا. علماً بأنه زارني من قبل أيضاً، لكنني لم أخبرك تلبية لطلبه. والآن يرجوك أن تفهمه وتغفر له.

وكانت لي أسئلة كثيرة أريد طرحها على العجوز، وأنا حتى لم أعرف بم أبدأ، لكنه واصل الكلام بقوله:

- طبعاً، أنا أفهمك. لقد سلبتك الحرب كل شيء. وبقي الابن الأصغر والأخير. ومن المفهوم أن مواجهة الدبابة والطائرة بالرشاش وحتى بالمدفع الرشاش نوع من العبث. لكن إذا ماكان بعضهم يهرب، بينما يجثو الآخرون على ركبهم، فما العمل؟ أين الشيشان الحماة والمقاتلون والوطنيون؟! لذا يجب أن تفتخر بابنك.. ولو، طبعاً، إنهم يبعثون على الرثاء - لقد أصابهم الهزال وهدهم التعب، إنهم جياع، ومحطمون، لكن لديهم الروح! أنا كنت سأذهب معهم بنفسي.. وأسير معهم. لكنهم انصرفوا ليلاً بهدوء، وحتى لم ألحظ ذلك، واختفى أثرهم.

وضرب الأرض بعصاه، وتنهد بعمق، وتطلع إلى جبالنا بأسى. ثم تابع قوله:

- أنا أشفق عليك أيضاً.. إذا ما تصورت بأنني وجهتهم وباركتهم في هذا الأمر، فهذا غير صحيح. لقد قلت لهم، وهذا هو الواقع، بأنني أعيش نحو القرن ورأيت الكثير، وأعرف أموراً كثيرة، وشهدت أكثر من حرب.. خذوا على سبيل المثال الحرب الأولى، إن جاز القول، الحرب في فترة 94-96. لقد وجدت آنذاك على الأقل فكرة ما وأساس وهدف ما. أما الآن فأنا لست طريداً، وأستمع في كل ليلة إلى جميع محطات الإذاعة في العالم. أنا أفهم الروسية والعربية والكازاخية (الإتراكية)، وأدرك وأفهم بأنه تجري في العالم أحداث رذيلة. ويقاس كل شيء بالمال، وفقط بالمال. وعندما يكون الرهان بالمليارات لا تهم القضايا الشاملة، أي كل ما يخصك ويرتبط بمصيرك وبمصيري وبمصير ابنك...

وتابع العجوز حديثه بقوله: - يبدو أنهم ابتدعو لهذا الغرض الإرهاب وتجري في كل مكان محاربة الإرهابيين. لكن من أين جاءوا؟. سأذكر مثالين جليين للعيان فقط. منذ فترة وجيزة زار جورجيا الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن. وخطب في اجتماع عقد في تبليسي، فألقى أحد ما بحجر نحوه. وقد تم تصوير ذلك بواسطة الأقمار الصناعية والتقطت صورة الإرهابي وتم اعتقاله. وهناك مثال آخر. لقد أقام هؤلاء الشباب عندي- وكان معهم جريحان، أحدهما مصاب بجروح خطيرة وقد توفي، ودفناه هنا.

ونبرت: - وكيف حال ابني؟

- ابنك حي يرزق. لكنه هزيل البدن. مثل الجميع... عندما كانوا هنا كانت المروحيات تحلق هنا - وحتى لم تطلق النار. وحالما انصرفوا - تم إنزال جوي هنا، واستجوبوني- هل كان مقاتلون إرهابيون هنا؟ فأجبت بأنهم يعرفون ذلك أفضل مني - فمن السماء كان كل شيء جلياً للعيان. لكنهم استاءوا من جوابي، وطاروا بمروحيتهم. في اليوم التالي جاءت المروحية ذاتها وأطلقوا النار على

ماشيتي - فقتلت أربعاً منها، وجرحت اثنتين. لذا توجد لدي الآن وفرة من اللحم. إنهم سيفعلون الشيء ذاته مع أولئك الفتيان. إنهم يمارسون لعبة القط والفأر. لذا يجب أن تنتشل ابنك من فرامة اللحم هذه.

فقلت: - كيف «أنتشله»؟ أين أجده؟

- نحن أنا وأنت لا نستطيع العثور عليه. إنهم يتجولون في الغابات والجبال... بالمناسبة قال لي ابنك إنه يخاف اللقاء معك. فهو لا يتجاسر على عصيانك بصفتك الأب. كما أنه لا يستطيع أيضاً التراجع وترك الفتيان الآخرين. إنها فرامة لحم رهيبة لا معنى لها.

كرر مجدداً عبارة «فرامة اللحم»، بينما تذكرت مجدداً في تلك اللحظة زيبا، وكيف كادوا له بغدر وألقوه في خلاطة الإسمنت. لكن زيبا بالرغم من جروحه استطاع النجاة بنفسه. لكن ابني ليس زيبا. وريش المروحية - ليست خلاطة إسمنت وحتى ليست طاحونة هوائية. إنها أكثر قوة وأكثر حمقاً من الدونكيشوتية.. مسكين ابني!

في تلك الليلة لم أستطع سبيلاً إلى النوم وتعذبت بالرغم من أنني كنت في قريتي العزيزة، وجبالي العزيزة. وقبيل طلوع الفجر هرولت إلى المخبأ. لقد كان ابني هناك. لقد أخذ كل السلاح، لكنه أعاد إلى مكانها بندقية القناصة - سلاح القاتل. ولم يترك أي قصاصة ورق وأي إشارة. وأدركت أن ابني لن يعود أكثر إلى هذا المكان. وستنقطع أي صلة واتصال معه. وربما إلى الأبد. غمرتني الكآبة الشديدة، وضيق الروح، وتملكني الشعور بالوحدة، وبضيق التنفس، كما لو سدت الحنجرة، وبمرارة حادة في الفم - ساءت حالتي وأصبحت لا تطاق حتى إنني لم أغلق المخبأ، وزحفت على أربع بكل معنى الكلمة فوق منحدر الجبل وبلغت نبعنا العزيز، ونظفت حلقي فقط بالمياه الصافية الباردة والحلوة المذاق. واستعدت القدرة على التنفس وحتى الوعي. عندذاك رجعت إلى المخبأ، وأخفيت كل شيء بإمعان، وفكرت بأنه سيغلق إلى الأبد، وفي اليوم نفسه رجعت إلى المدينة، أو بالأحرى إلى تلك الخرائب حيث يجري بلا انقطاع إطلاق النار والقصف والتفجير، وراودتني فكرة واحدة - أن أموت وأهلك وأتوارى عن الأنظار قبل أن يصلني نبأ مقتل ابني الأصغر. ولم أكن أنتظر نبأ آخر...

30 أبريل، صباحاً

حقاً إن الحياة في الجبال ليست بسيطة تماماً وليست سهلة. الطقس هنا، وبالمناسبة مثل الحياة نفسها، قاس جداً، ومتغير، ويصعب التنبؤ له. ففي مساء يوم أمس ساد الهدوء والسكون والدفء،

لكنني شعرت فقط بألم خفيف في مفاصلي، وهو من علائم الشيخوخة، ووجدت صعوبة أكبر في التنفس، فإن قسطري الكهربائي هو مثل مقياس الضغط يبدي رد الفعل حيال رداءة الطقس والضغط الجوي - إنه يتحسس اقتراب جبهات السحب... وفي الليل هبت رياح كالإعصار، وصدر صفير - وانطفأ النور فوراً. ثم تساقط الرذاذ، ومن ثم انهمر المطر الشديد، وفي أعقاب ذلك سمعت طقطقة حبات البرد فوق السقف. غطيت جسدي وحتى رأسي تحت اللحاف، وفكرت أن حبات البرد قد ملأت السقف بالثقوب، بينما ستقلع الرياح العاتية هذا السقف، وتطيح بالنوافذ. ولغرابة الأمر فقد غفوت، كما تبين، بالرغم من عويل الرياح العاصفة واستيقظت في الصباح، وخرجت إلى الشارع - سكون مطبق. لا رياح، ولا مطر، لكن الرطوبة عالية للغاية، والضباب يخيم على المكان، وغمرتني السحب، ولا أرى شيئاً، ولا أرى طائرتي الشراعية، فقد حملتها الرياح معها. إنهم تنبأوا بالشر كما يقال. ففي العشية مساء صعدت حسب الاتفاق إلى الجبل حيث الاتصال الهاتفي متوافر دائماً، وفور ذلك وردت مكالمة من النمسا، كان مكحل على الهاتف. وجعلني أصغي إلى دمدمة حفيدي الذي يشب. ما أكثر بهجتي! وفي الختام قال إن شوفدا قلقة جداً - فلم تعلقت بهذه الطائرة الشراعية؟ وفي أعقاب ذلك هتفت شوفدا نفسها. لكنني لا أستطيع الثرثرة، وأبعث همهمة في السماعة راجياً أن تحدثني أيضاً عن أفاعيل الحفيد، لكن هذا ليس من المعهود عندنا، وراحت تسألني عن صحتي، وترجوني السفر إليهم، ومن ثم عادت إلى الكلام حول الطائرة الشراعية وترجوني أن أتخلص منها... لكن الطائرة الشراعية طارت لوحدها، ومن دوني. بينما كنت أرغب في الطيران. الطيران! مثل صديقي مكسيم، أردت التحليق في طائرته الشراعية. أنا كتبت أن مكسيم زار جمهورية الشيشان في زمن الحرب، وبعد ذلك لم يستطع الطيران، والمجازفة. أما أنا فبالعكس - يبدو أن الحروب هنا قد انتهت، بينما أحلم بالطيران، والانطلاق. الآن هذا حلم! ولا يوجد مستقبل بلا حلم. والمستقبل هو مغزى الحياة. وأي مغزى حياة لدي، وهل يوجد لديّ مستقبل؟ إنه غير موجود حسب العادات الشيشانية. لا يوجد لديّ ابن - لن تستمر سلالتي العائلية. لكن لديّ شوفدا، وولدها الحفيد - هذا هو الماضي والحاضر والمستقبل. أنا أحيا بهذا المفهوم، لكنه سريع الزوال وغير موضوعي. إن ابني الأصغر ومصيره كانا دوماً في وعيي وموجودين وسيبقيان في المستقبل. إنني لا أستطيع نسيانه، وحتى إذا حاولت ذلك، فإن الآخرين سيذكرونني به.

يحضرني في الذاكرة كيف هبطت في أواخر عام 1999 من الجبل إلى جروزني وعندئذ فكرت: هب إن ابني اختار طريقه بنفسه، وليس ببساطة، وأنا عاجز عن اتخاذ أي إجراء ولهذا يجب أن أتقبل كل شيء بأنه حكم القدر، وأواصل الحياة والعمل والعيش حتى النهاية. على أقل تقدير لدي أيضاً ابنتي بموسكو، يجب مساعدتها لكي تشب وتجد طريقها في الحياة. وفي أحد حواجز التفتيش أنزلوني من السيارة - فقد تبين أن ابني في قوائم المطلوبين، كما إن اسمي ولقبي قيد الشبهات أيضاً. واقتادوني إلى مكان ما تحت الحراسة وأنا مكبل بالقيود، وحبسوني، وأعقب ذلك استجواب عنيف. وكنت أعلم بأن مصيري لا يستحق الحسد لولا توافر عاملين. فقد كانت في جيبي بطاقة هوية شخصية ذات مكانة مهمة، وأنا أشغل منصباً كبيراً، وجرت الاستفسارات بهذا الشأن. كما أنني تذكرت زيبا ولهذا حاولت أن ألتزم الهدوء ورباطة الجأش. كما وجد عامل آخر - جاء إليّ مديرنا العام شخصياً، وعندما تنقلنا في جروزني المدمرة في طريقنا إلى مكتب الإدارة، سألته:

- ربما، يجب أن استقيل؟

- ومن سيعمل؟ لا يوجد اختصاصيون هنا، ولن يأتي أحد ليحل محلك. والعمل كثير.

كان العمل كثيراً حقاً- فقد دمر ونهب كل شيء، ويجب إعادة بناء جميع المرافق، علماً بأن قيادة المؤسسة أرسلت خطة صارمة في مجال استخراج النفط - ويجب تنفيذها. كنت أعمل طوال اليوم تقريباً، وقد وفر لي ذلك ليس مورد الرزق والعيش فقط، بل وانقذني لحدما - فقد كنت أنسى أحياناً مصائبي ومشاكلي. وثمة أمر مهم آخر أيضاً - يوجد في مكتبي جهاز هاتف مباشر مع موسكو، وغالباً ما أهتف إلى شوفدا. وعندئذ أدرت رقمها قبل كل شيء.

- دادا، دادا، أين كنت؟ لقد مضى يومان بلا اتصال. إنني كابدت كثيراً. هل كل شيء لديك على ما يرام؟

- كل شيء على ما يرام. كل شيء جيد. ومجرد أنني كنت في الجبال، في قريتنا. ووجب القيام ببعض الأعمال هناك، ولقاء بعض الناس. ذهبت إلى هناك لحضور جنازة.

-هل أوقفوك عند حاجز التفتيش؟

- من أين لك هذا؟

- لقد رأى الناس ذلك وهتفوا لي.

-إيه - أي، لقد وقع خطأ.

- هل هذا بسببه؟ - لم تذكر أخاها بالاسم أو بأي شكل آخر. لقد كان لدينا مثل هذا الأسلوب غير المعلن في الاتصال السري فأجبتها بسرعة:

- لا - لا. حدث خطأ فحسب. --أنت ترين أنني في مكان عملي.

مرت لحظة صمت، وبعد ذلك رددت رجاءها الدائم:

- دادا، متى ستأتي إليَّ؟

- بعد أسبوع.

- أنت تقول هذا خلال ثلاثة أسابيع.

-هنا العمل كثير جداً، ولا يرسلوني في مهمة رسمية. لكنني سأبذل جهدي. هل توجد لديك نقود؟ هل أنها لم تنفد؟

- موجودة.. كل شيء متوافر. - كانت تنتحب بجلاء - أنا أيضاً أريد المجيء إلى البيت. ولو من أجل أن أجلس عند قبر أمي، وأمسد العشب هناك...

- لا يجوز المجيء إلى هنا. لا يجوز. ثمة خطر شديد. لا سيما في الجبال.

- لكنك ذهبت إلى هناك... اترك كل شيء. وانتقل إلى هنا. أنا أخاف، أخاف عليك... هل تريد أن أصبح يتيمة كلياً، وأن أبقى وحيدة في هذه الدنيا؟!

- اهدأي ياشوفدا. لا تبكي. كل شيء على ما يرام، وسيكون خيراً...

ما معنى «على ما يرام»؟! كيف يمكن أن يكون الوضع بخير إذا ما فقدت أمي وفقدت أخويَّ، وأنت هناك، وأنا وحيدة!

أصيبت شوفدا مجدداً بنوبة عصبية. تجددت الهستيريا والنحيب. وأنا كحالي دائماً أحاول تهدئتها، وأردد على سمعها شتى الترهات، بدعوى إن هذا حكم القدر ويجب الصبر. لكنها صارت تبكي وتصرخ أكثر وألقت السماعة. وأخذت في إعادة الاتصال بها، لكنها لم ترفع السماعة... لاحقاً، بعد مرور ساعة، هتفت نفسها:

- دادا، أرجو أن تسامحني. رجاء، سامحني.- ودوى بكاء منتحب أصم- أنا معتكرة المزاج وأشعر بالوحدة.

علماً بأن لدي الترياق ووسيلة مضادة لكآبتها - فإني أبدأ بالحديث عن الموسيقى، وعما تحققه من إنجازات في الفن. لكنها في هذه المرة قاطعتني بترداد السؤال الدائم والثقيل الوطأة بالنسبة لنا كلينا:

- أنت ذهبت إلى الجبال. فهل رأيته؟

-لا.

- وماذا سمعت عنه؟

- لم أسمع شيئاً.

- هل هو على قيد الحياة؟

- نعم.

- انتشله. أنقذه!

فقاطعتها بحدة: - شوفدا!

- أنا أفهم، أفهم.. أنا أشاهد التلفزيون، الوضع رهيب.

حاولت مرة أخرى تغيير موضوع الحديث: - كيف نجاحاتك؟ كيف الموسيقى؟

في هذه المرة نجحت في مسعاي. في البداية تحدثت على مضض عن نجاحاتها، ومن ثم انتعشت قليلاً، وحتى ظهر في صوتها شيء من الحيوية والحماس. فالموسيقى بالنسبة لها، مثل العمل بالنسبة لي، هي نوع من الخلاص والابتعاد عن الواقع، وفي جوهر الأمر خداع الذات. ولهذا أنهت حديثها بالقول:

- إذا ما توخيت الصدق ففكري مشغول بأمور أخرى غير الموسيقى. وإذا وجد شيء ما في فكري فهو يتألف من ألحان ومقامات ثمانية ثقيلة ومنخفضة- ومقام المينور فقط...

أنا كنت في الوضع نفسه، ولو أنني أحاول إلهاء ابنتي وتسليتها بشكل ما، بينما أجهد نفسي في ذلك عبثاً، إن العمل كثير جداً، وثمة مشاغل عاجلة كثيرة، لكنني بعد هذا الحديث مع شوفدا لم أستطع أن أشغل شعاب قلبي عن ذكره. وفي هذه اللحظة دخل غرفة مكتبي بثقة وبمهابة، حتى من دون طرق الباب، رجلان بملابس مدنية - أحدهما شيشاني والآخر روسي، وقد حددت هويته لاحقاً، كما أنهما متشابهان في كل شيء، وبالأخص في أسلوب الحديث، وجلسا بلا انتظار دعوتهما للجلوس. إن دائرتنا تخضع لحراسة مشددة، والدخول فيها ليس ممكناً بسهولة، ولكنهما لم يضيعا الوقت عبثاً - فبدأا الاستجواب فوراً، ولا يمكن إطلاق تسمية أخرى على ذلك:

- أين ابنك؟

كنت أنتظر هذا السؤال منذ وقت بعيد، ومع ذلك فحينما سألوني في العشية في حاجز التفتيش لم يكن ذلك مفاجأة، أنا لم أعرف ما يجب قوله بالضبط وأجبت بغمغمة. أما الآن فالوضع مختلف تماماً - فلدي خبرة أو درس، وأنا لم أعتقل بعد، ولست حبيساً في الزنزانة، بل أجلس في غرفة مكتبي. على أي حال أنا سيد في هذه اللحظة، وسلوك رجلي الأمن هذا أخرق، وعندئذ تذكرت مجدداً زيبا - الذي تعامل طوال حياته مع مثل هؤلاء الأشخاص. علماً بأنهم أسوأ من أولئك - فقد كان ذلك في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، وفي سلطة البلاشفة، وسيادة حق القنانة السوفيتي الطراز... ولو يبدو أنه لم يتغير الوضع كثيراً. لكن مع هذا حدث تغيير، لأن أمثال زيبا كانوا يصمدون آنذاك، ولم يستسلموا، ولهذا أجبت عن سؤالهم بالقول:

- عن أي ابن تسألوني؟ أحدهم استشهد مع أمه تحت القصف الجوي، حتى لم يوجد ما يوضع في القبر.

- والآخر؟

- الآخر ألقاه انفجار القنبلة أرضاً، ولم أره بعد هذا حتى الآن.

- ياله من تشبيه مجازي، - قال أحدهما بلهجة لاذعة، بينما سأل الآخر باللهجة ذاتها:

- لكن هل تريد العثور عليه، ورؤيته؟

- أريد ذلك. أريد أن أراه حتى أكثر منكما وقبلكما.

- كيف عرفت أنه حي يرزق؟

- هل أنكم تتصنتون على الجميع؟

- هذا بحكم عملنا.. أنت لم تجب على السؤال.

- أي سؤال؟

كيف عرفت أن ابنك على قيد الحياة، فربما هو ميت؟

لقد ساءت حالي حتى لدى سماع هذه الكلمة. كما حدث لي في العشية في الجبال حينما انسد بلعومي، وصاحب ذلك المذاق المر الحاد والنتن وتوقف الأنفاس تقريباً. شربت بسرعة قدحاً من الماء. وبدا كما لو أن الماء قد شطف كل شيء، وتحسن حالي فوراً، وأجبت بهدوء فدر الإمكان:

- لو لم يكن حياً، لما بقي في قوائمكم للمطلوبين، ولما احتجزوني في نقطة التفتيش. - لأمر ما تذكرت زيبا مجدداً - وقد أعاد ذلك لي الثقة بالنفس، وواصلت الكلام - ولما جئتما إلى هنا. لذا آمل في أنه على قيد الحياة.

- دع الأمل يراودك ويراودك. بوسعك الأمل إلى حين من الزمن.

شددت على قبضتي من الغيظ: - ما معنى «الى حين»؟

فأجاب ببرود: -

-هذا ما يعنيه. أم أنك تعتقد بأن كل الأفعال ستمضي بلا عقاب.

ضربت بقبضتي على الطاولة ونهضت: - ما معنى «بلاعقاب»؟ يجب إنزال العقاب بكم وبجميع الذين قتلوا أخيه وأمه. ومن أرغمه على الذهاب إلى الغابة.

إنهما نهضا أيضاً. وقالا إنني مريض وضعيف العقل، ويجب عدم إبقاء أمثالي في وظائفهم. ولدى خروجهما حتى هدداني وبأنني سألتحق بابني أيضاً. وأجبت على ذلك بالقول:

- سأريكم، - وأريتهما بأصبعي إشارة فاحشة، وأرفقتها بشتيمة من هاجر الكلام باللغة الروسية.

توقف الرجلان عند الباب. والتفت الروسي، وطفحت عيناه بقسوة وبغيظ، وهمس بشيء ما ثم خرج. أما الشيشاني فقد التفت وانتصب أمامي بكامل قوامه ونبر:

- هذه إهانة كبيرة بالنسبة إليّ كشيشاني.- وأحسست برائحة الكحول المنفرة المنبعثة من فمه، وواصل الكلام: - ويتعين عليك الإجابة على ذلك.

قمت بخطوة إلى الوراء. ليس خوفاً بل بسبب الرائحة الكريهة، وتذكرت زيبا مجدداً، وقلت بهدوء قدر الإمكان:

- فيما يخص «الشيشاني» - فلا حاجة للهذر حول الموضوع. لو كنت كذلك فعلاً كذلك لقلت لدى سماع نبأ مصرع زوجتي وابني: «دالا غيش دويلا» (رحمهما الله - باللغة الشيشانية). لكنك لم تسمح لنفسك حتى بقول عبارة الاحترام البسيطة هذه. أما بصدد «الإجابة». فأنا أمامك. فلا تؤجل ذلك ما دمت شيشانياً. لكن من الأريح لك الطعن من الخلف أم في حاجز التفتيش أو الأفضل - بواسطة قنبلة.

أطلق شتيمة مقذعة وتراجع خطوتين أيضاً، ومد يده تحت سترته. فهمت مراده، ففتحت بحدة درج الخزانة الصغيرة - لقد أعطي لنا السلاح، وأنا لم أمسك المسدس بيدي أبداً، لكنه في هذه اللحظة كان بيدي، ويدي تحت الطاولة، فقلت له:

- هنا الكاميرات منتشرة في كل مكان. وأنتما الاثنان في حالة سكر، وتنبعث منكما رائحة الفودكا، يبدو أنكما شربتما حتى الفجر ثم كسرتما الخمارية، والآن تؤديان الخدمة الوظيفية تحت السكر؟. سأدعو الآن رجال مفرزة الحراسة، وسيكتبون عنكما، أنتما السكرانان، محضراً، وسنسلمه معكما إلى دائرتكما أو إلى مكان آخر.

أطلق مرة أخرى شتيمة باللغة الروسية، وانطلق مندفعاً نحو الخروج ولكنه تلبث عند الباب وقال:

- الآن بات مفهوماً أن الابن على سر أبيه.

فصرخت: - أنا أفتخر بابني، - وأضفت في أعقابه بعد أن أغلق الباب: - أما ابنك فهو في أغلب الظن يعيش في العاصمة، أو في خارج البلاد عموماً.

إذا ما توخيت الصدق فإنني حتى كنت مسروراً لموقفي، ومن ثم أدركت - إنهم في أفضل الأحوال سيسرحوني من العمل. لايوجد أي مستقبل. ولن أستطيع العيش ناهيك عن العمل في أي مكان بسبب ابني الجاري البحث عنه. فكيف سأنفق على شوفدا؟ ولعل أفظع شيء ماذا سيحل بشوفدا إذا ما اعتقلونا ابني وأنا... وفي هذه اللحظة رن هاتف المدير العام - إنه يستدعوني إليه، هذا هو الحكم الأولي.

أبدى المدير العام سخطه: - هل يمكن التحدث معهما بهذا الشكل؟، - ثم ابتسم وأضاف: - وعموماً، إنك أحسنت في طردهما وإيقافهما عند حدهما.. وبالأخص فيما يتعلق بالكحول. لقد وضعتهما في محلهما.

فدهشت: - هل يوجد لديك أيضاً جهاز التنصت.

أجابني هذا الشاب بكل هدوء:

- طبعاً. أنا لم أختلق هذا. فهذا جزء من عملي. لدينا فرع صناعي استراتيجي - النفط والنقود ومعنى ذلك السلطة. يجب أن يكون كل شيء تحت الرقابة، ويجب أن يكون الجميع موالين لنا.

وقلت: - ربما يجب أن أستقيل؟

- ماذا؟ ومن سيعمل؟ إن خطة العمل عندنا لم تنفذ أصلاً، وكما تعرف إن الاختصاصيين غير متوافرين، ولن تغري أحداً بالمجيء إلى هنا حتى لو دفعت له مليوناً.

إنه على حق على الإطلاق في هذا، وكذلك فيما أورده لاحقاً:

- إذا ما استرشدنا بهذه المعايير، فلدى الجميع أحد ما هنا وهناك. اذهب وتدبر الأمر.. إنك لا يمكن أن تكون مسؤولاً عن أفعال ابنك كلها.

نهض، وذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وتطلع من النافذة الشبيهة بالمدرعة، التي لا يُرى شيء عبرها، وقال:

- لو أردت قول الصدق، فإنني أشفق على الصبي المسكين. يجب انتشاله من هناك بشكل ما.. لحين...

قطع عبارته، لكنني فهمت كل شيء. إنني أصبحت منذ وقت بعيد أفهم كل شيء، وتفارقني قوتي حتى من هذه الفكرة وحدها. جلست وقلت كما جاء في ذهني:

- لو أراه على الأقل، وعندئذ سأذيقه علقة ساخنة.

نبر المدير العام: - ن.. عم، باختصار، إنها الحرب. لكن يجب علينا أن نعمل.

إن العمل وحده ساعدني وأنقذني آنذاك، لكنني كنت أتحسس في دخيلتي أن النهاية ستحل عاجلاً. وهذا ما حدث. كان المدير العام في مهمة رسمية، وأنا كنت نائبه، وتم استدعائي إلى اجتماع في جودرميس. وفجأة انهال هناك رئيس الإدارة العسكرية المؤقتة، الذي يزور الجمهورية أحياناً فقط، ونحن نراه على شاشة التلفزيون فقط، بالنقد الشديد لنشاط مؤسستنا - فإن خطة استخراج النفط لا تنفذ. السرقة. والثقوب في الأنابيب، والخسائر الجسيمة. هذا كله صحيح. لكن العسكريين فقط يتولون الآن حماية الحقول والأنابيب، ويعرف الجميع أن هذه الخسائر كلها والثقوب غير القانونية في الأنابيب وسرقة النفط تتم تحت ما يسمى «حمايتهم». كما يجري «تكرير» النفط، ونقل منتجات النفط بمساعدة أولئك العسكريين. هذا ما تضمنه تقريري. وقلت إن ثلث النفط تقريباً يفقد لدى نقله في الأنابيب. ساد السكون في القاعة. وارتسمت على سحنة رئيس الإدارة المؤقتة علائم الذهول تارة والدهشة تارة أخرى. وأصدر الأمر التالي:

- هيا أغلقوا الكاميرات- وأبدى انزعاجه، وسدد بصره نحوي حتى بحنق، وقال: - من أنت؟ - وبعد جوابي، استطرد قائلاً: - هل توجد لديك أدلة؟

- الجميع يعرفون ذلك.

فقاطعني: - الجميع يعرفون؟ هذا لغو وثرثرة النسوان. الجميع يعرفون أن العسكريين يقتلون هنا، وهم ينفذون واجبهم العسكري ويحموننا جميعاً من قطاع الطرق والإرهابيين والمسلحين.. بعد أسبوع سيعقد اجتماع آخر. وأنا أنتظر منكم تنفيذ الخطة، وكذلك الأدلة على أكاذيبك حول العسكريين. هل فهمت؟

أنا فهمت كل شيء وأردت أن أجيب باللهجة نفسها، لكنني لم أستطع ذلك فحسب، لأن بلعومي انضغط مجدداً كما حدث في العشية في الجبال، وشعرت بالمرارة الكريهة المذاق في فمي، وبات صعباً ليس التحدث فقط بل التنفس أيضاً. وقدم لي أحدهم الماء. فتجرعته دفعة واحدة - وأحسست بزوال ضيق النفس. ومجدداً لم أعر اهتماماً إلى هذه النوبة. آنذاك في خضم جميع المصائب والهزات، والإيقولوجيا الفظيعة، ونمط الحياة على خطوط الجبهة، بدأ مرضي هذا، داء الأورام هذا - مرض لوعة الحزن والأسى واليأس والوحدة. آنذاك كابدت لوعة حارة، وكان المتنفس الوحيد في الحياة هو العمل. لكنه الآن أصبح معلقاً بشعرة - لقد أخبرني زملائي أن السؤال طرح على مديرنا العام بموسكو: «من أبقيت بدلاً منك في منصب القائم بالأعمال في جروزني؟.. يجب أن تكون أكثر حذراً في اختيار الكوادر». وقال المدير العام شيئاً ما بصددي منها أنني عامل محنك وقدير، ودار النقاش حول أنه «لا يوجد من لا يستغنى عنهم». بدا أن هذا صحيح. لكن ليس في ذلك الوقت، وليس في جروزني. فلا يوجد خبراء ولا يمكن أن يوجدوا هناك أصلاً. وحتى مديرنا العام - وهو شاب طيب، وأظن أنه مدير عام ممتاز، لكنه ليس من خبراء النفط، لا سيما في جمهورية الشسيشان حيث تدور رحى الحرب، وحيث يسود الخراب، وحتى العيش فيها خطر.

ولهذا يسعى جميع الرؤساء، لا سيما عندنا، إلى الانتقال إلى موسكو. لقد جاء المدير العام وسألني فوراً:

- لماذا تثرثر كل هذه السخافات!؟. يعرف الجميع ما يجري هنا. وكل شيء بيد العسكريين وأجهزة الأمن، بينما أنت تناضل في سبيل «الحق». لكن أين هو؟ لا يمكن وجود الحق والعدالة حيث توجد الحرب، وحيث يقتل البشر... أليس الأمر كذلك؟ أم أنت لم تفهم ذلك بعد؟.

- فهمت،- قلت ذلك كالتلميذ المذنب، وأضفت: - ربما أستقيل؟

- «أستقيل» مجدداً! ومن سيعمل؟ - وبعد برهة قصيرة أضاف: - بالمناسبة، فيما يخص الحق والعدالة.. باعتقادي أن لا وجود لهما في أي مكان.. ولديّ مهمة مهمة لك - سنتحدث عن ذلك في المساء.

لقد حدست ماهية هذه المهمة، من إجابة المدير العام لي حين اقتادني إلى الغرفة البعيدة، وفهمت أنها مهمة فعلاً.

وأسر في أذني ؛- لقد فرضوا عليّ فدية. واحدة أخرى.

فدهشت: - من؟

في هذه المرة، وكما اتضح لي، إنه قريبك.

- من؟

وذكر اسم حفيد العم جيخو.

فتعجبت: - هذا مستحيل!

- انظر، - وأخرج صورة فوتوغرافية من جيب الصدر.- هل هو؟

ذهلت وقلت: - نعم. وماذا يريد؟

- نقود! نقود كثيرة جداً!

- لماذا؟ لأي سبب؟

- أنه يردد شتى السخافات، ويزعم أن النقود من أجل المقاتلين.

- يجب إبلاغ الأجهزة الخاصة وجهاز أمننا.

- أي أجهزة خاصة وأي أمن؟! - وجم المدير العام في غيظ - إن بيته الريفي يقع في منطقة روبليوفكا (منطقة البيوت الريفية الحكومية الفاخرة بموسكو - المترجم)، في منطقة الحراسة الخاصة، وبدا أن أي ذبابة لن تخترقها. وقد جاءوا في العشية في سيارتي «جيب» حاملين الأسلحة ونزلوا عند بيتي مباشرة. فاتصلت فوراً بنقطة الحراسة عند مدخل المنطقة فقيل لي: «وردت مكالمة من الجهات العليا، كما أنهم أبرزوا هويات الأجهزة الخاصة».

- وماذا بعد؟

- إنهم جلسوا عندي بكل ارتياح وشربوا الشاي وتبادلنا الأحاديث وطلبوا المعونة من أجل حاجات الوطن.

- وأنت؟

- أردت أن أطردهم فوراً. لكنهم ألمحوا لي فوراً - بأنه لا خيار لدي: لا خطوة إلى اليسار أو إلى اليمين.. وأن خير الأبناء يقتلون في الوطن. وأنا أستطيع ويجب أن أساعدهم. إنها بمثابة فريضة الزكاة. وأعقب ذلك أفظع شيء، بالتلميح إلى أن أطفالي الأحباء يرتادون المدرسة هنا بموسكو ويحيون أطيب حياة بوسط موسكو، ويستأجرون في فندق «روسيا» أغلى الأجنحة.

ياللعجب! - لقد تراءى لي أن الحديث عن فيلم ما من أفلام العصابات والمافيا، لكن هذه البداية فقط. ثم استطرد قائلاً:

- لعل أطرف شيء ما حدث لاحقاً. عندما حلقت إلى هنا، جلست بمقعدي في الطائرة في درجة «بيزنيس» رأيت من النافذة توقف سيارة مرسيديس سوداء عند سلم الطائرة ونزل منها قريبك، وجلس كما لو كان ذلك نكاية بي إلى جانبي وقال: «عجل، الموعد أسبوع. إن مقاتلينا بلا سلاح، ويكابدون الجوع. بينما أنت تعيش في قصر، ولا تكابد لوعة البتة، وتلهو وتتسلى هنا».

- وبم أجبته؟

- لقد أردت أن أتحدث معه، لكنه أغمض عينيه فوراً، وبيده مسبحة وبدا كما لو أنه يتلو الصلوات، ويطلب المغفرة عن خطاياه، ثم غفا، وبدأ بالشخير. يبدو أنه شرب وأولم حتى الصباح، وتنبعث منه رائحة الكحول. واستيقظ فقط حين هبطت الطائرة. وكان أول من استقبلته سيارة «فولجا» سوداء لدى الخروج من الطائرة. وأعجب ما في الأمر أنه كان بسلاحه على متن الطائرة - تدلى مسدس «ستيتشكين» من حزامه.

أراني المدير العام بفزع حجم المسدس - الرشاش. أما أنا فقد ذهلت بقدر لا يقل عن مديري العام وسألته:

- كيف عرفت أنه قريبي؟

- إنني لم أكن نائما أيضاً، وأجريت التحريات.

أردت أن أحدثه باختصار عن مصيري وقلت إن العم جيخو كان وسيبقى اقرب إنسان إليّ في الدنيا، لكن بعد وفاته فترت العلاقات مع أسرته، وأصبحنا نادراً ما نلتقي، وربما أنني لن أعرف حفيده. وأدهشني المدير العام فحسب حين قال:

- بالمناسبة إن ابنك في عصابة واحدة أو كما يقال.. فريق واحد معه هناك.

-هل قال لك ذلك؟ هكذا قال؟

- كلا. أنا عرفت ذلك عبر قنواتي.

- أي قنوات؟ - أصبحنا الآن في وضع التوتر البالغ.

- الأجهزة الخاصة، واتصالاتي، كما دفعت بعض المال.

- «بعض المال» كم؟

- لايهم.

وهذا كم يطلب منك إذا لم يكن ذلك سراً؟- لم نعد نذكر حفيد العم جيخو بالاسم. -

- كثيراً... أي كابوس هذا. المليون.. دولار!

إن هذا الرقم جسيم، ولو أنني فيما بعد، لدى مراجعة كل شيء من جديد، فهمت أن حفيد العم جيخو ذكر رقماً ضخماً تماماً، حيث كان مطلعاً على نطاقات السرقة في مؤسستنا، وكمية حصة كل فرد. أنا كنت من هذه الناحية نظيفاً وبعيداً حتى من جميع المخططات، ولم يهمني ذلك، بينما أبديت اهتماماً بالغا بشيء آخر، وهو ما سألت عنه:

- ماذا تعرف أيضاً عن ابني؟

- أنا لا أعرف شيئاً ملموساً البتة. أنا أعلم مثلك بأن من الأفضل له أن يتعلم الآن في مكان ما، بدلاً من التسكع في الغابات والجبال.. الشباب حمقى ويهلكون أنفسهم بأنفسهم... بالمناسبة يمكن الثرثرة كثيراً حول ذلك، لكن جرت استثارتهم وإرغامهم بكل معنى الكلمة. وهناك ليس أسوأ الشباب، بل

بالعكس. لكن يوجد أوغاد أدنياء مثل قريبك ذاك... بالمناسبة، فيما يخص الأقارب والمعارف. يقال أنت تعرف جيداً رئيس تلك ال.. فصيلة - المدعو روسلان.

وبدرت مني: - هل هو ابن أولجا سيرجييفنا؟

- ربما. إن أمه روسية، وقتلت هنا.

- الأم والجدة والعم.

- قيل إنك كنت في قبو واحد معهم في أثناء الحرب الأولى.

- ليس كما «يبدو». - لقد كابدتني لوعة حارة لدى استعادة هذه الذكريات. وواصل المدير العام الحديث باللهجة ذاتها:

- إن روسلان هذا أخذ الآن اسماً آخر إسلامياً. ويعتبر الآن من الشخصيات المعروفة وذات المكانة في أوساط المقاتلين. ويقف إلى جانبه شقيقه بالدم وأول صديق وأقرب رفيق - وهو ابنك. لقد تعارفا منذ وقت بعيد. هل أنت الذي عرفت أحدهما الآخر.

- نعم.

- أنت لم تكن تعرف شيئاً عن ذلك؟

- أعرف بعض الأمور، أنا أشاهد التلفزيون. لكنني لم أر ابني ولا روسلان منذ بدء الحرب الثانية. وأريد ذلك.

ابتسم المدير العام بحزن وقال:

- نحن لا نستطيع ذلك. لا يستطيع ذلك حتى جيش بأكمله... هيه- هيه. إنهم يتظاهرون بأنهم لا يستطيعون - ويمارسون لعبة الداما، ويدمرون في طريقهم الجمهورية كلها. لكنهم إذا رغبوا يستطيعون العثور على الجميع في لحظة واحدة واعتقالهم وقتلهم. أنت تعرف - إنها لعبة.. لكن الحديث يتعلق بأمر آخر. هل تستطيع مساعدتي؟

- كيف؟

- يجب أن تتحدث مع هذا النذل ومع أبيه. قل لهما إنني شيشاني أيضاً. ولدي نقود واتصالات وأقارب. ونحن لن نصبر على هذا الابتزاز والتهديد. فبلغهما ذلك، ولكن ليس عبر الهاتف طبعاً.

- لدي فقط رقم هاتف الأب- إنه ابن العم جيخو الذي يعيش بصورة دائمة في نالتشيك منذ بداية الحرب الأولى.

- كلا. في البداية تحدث هاتفياً مع هذا القريب. لربما سيصغي إليك.

أملى المدير العام عليّ رقم الهاتف النقال، لكن لدى الاتصال تبين أنه «خارج منطقة الاتصال».

عندئذ أدرت رقم هاتف ابن العم جيخو - لكن تبين أنه بلا اتصال أيضاً.

- إذن اطلب هذا الرقم، - لقد تبين أن المدير العام يعرف أبناء العم جيخو أكثر مني.

- ألو! - سمعت صوت الابن الأكبر للعم جيخو.- أنا زعلان عليك - إذ لم تتصل بي منذ وقت بعيد.

فقلت له: - لكنك غيرت الرقم.

- نعم. لقد نسيت إبلاغك.. لقد أجريت لي عملية في القلب بموسكو. وأنا الآن في المصحة في نالتشيك، أستكمل العلاج. تعال، وسنستجم سوية.

فقلت، عندما رأيت موافقة المدير العام: - سآتي غداً.

- حسناً، حسناً. أنا بانتظارك جداً. المصح «دروجبا». أنا بانتظارك.

نظراً لأهمية الرحلة وضع المدير العام تحت تصرفي سيارته الشخصية مع السائق ورجال الحماية. لكنني رفضت ذلك وأردت السفر في سيارة عابرة. لكنني حذرت المدير العام - فأنا ذاهب وتراودني نية راسخة في تسوية القضية فهي في الأحوال كافة جنائية. لكن إذا ما حدث خلاف فجأة - فإن أولاد العمل جيخو هم أقربائي.

أنا لم ألتق ابن العم جيخو منذ وقت بعيد، وقصارى القول، أنا زعلت وتألمت منه جداً - فهو قدم لي بواسطة الهاتف فقط التعازي بمناسبة الفاجعة الرهيبة التي ألمت بي. بينما أنا لو وقع له شيء مماثل كنت سآتي إلى جروزني وإلى موسكو من أجل أن أنظر في عينيه وأدعمه وأتعاطف معه. أنا على ثقة من أن العم جيخو كان سيفعل الشيء ذاته حتماً. لكن لم يفعل ذلك ابن العم جيخو ناهيك عن حفيده. وافترقنا. الأزمان تغيرت، والقيم تغيرت - الجميع يتهافتون على كسب المال، كما لو أنهم لن يذهبوا إلى العالم الآخر من دونها، وسيكون الوجود هناك سيئاً... بالمناسبة، ربما أنا بهذه الهيئة أيضاً. ربما أنا المذنب. لكن في الأحوال كافة كنت سعيداً جداً برؤية الابن الأكبر للعم جيخو. وكانت ابتسامته صادقة جداً، وطيبة. لقد أصاب ابن العم جيخو الهزال، ودلف إلى الشيخوخة، وأطلق لحيته وأصبح شبيها بأبيه. نحن لم نلتق منذ وقت بعيد. ودار الحديث بيننا حول مختلف الشؤون، ومن ثم حول جوهر الموضوع الذي جئت من أجله. وجم ابن العم جيخو، لكن أعجب ما في الأمر أنه حتى لم يقل بأن هذا غير ممكن، بل قال إنه بعد هذا النبأ لن يستجم في المصحة - وأخذني إلى بيته. أنا زرت بيتهم سابقاً عدة مرات لدى مروري بالمدينة - وكانوا يسكنون في شقة

صغيرة مستأجرة، أما الآن فلديهم بيت كبير في وسط المدينة تقريباً، وترابط سيارة غالية الثمن تحت السقيفة. قال ابن العم جيخو:

- لقد مارس ابني الأعمال واشترى هذا البيت منذ فترة قريبة.

فقلت بصورة عابرة: - أين يعمل ابنك، وماهي مهنته؟

قطب ابن العم جيخو جبينه، ولم يجب. في ذلك اليوم، وبعد الغداء (السفر خطر جداً في الليل) غادرت ورجعت إلى جروزني. علماً بأن أقاربي لم يلحوا عليّ في البقاء. وكما فهمت فإن ابن العم جيخو لم يستطع الاتصال بالهاتف مع ابنه. أما زوجته فإنها لا تخفي نفورها مني، مثل زوجة وبنات العم جيخو اللواتي كن دائماً لا يبدين المودة لي، ويظهرن غيرتهن على العم. وقالت لدى توديعي:

- إن ابننا لم يمارس أبداً مثل هذه الأعمال ولا يمكن أن يمارسها. وإذا حدث شيء فهو فقط بفضل ابنك - إنه لا يمارس هناك البتة عملاً سلمياً ويغري ابننا بالانضمام إليه. وابننا الساذج يصغي إليه كقريب عزيز، وحتى يخافه. - هل تتصور أننا لا نعرف. إن ابنك وصاحبك، النغل الروسي روسلان، يأتيان إلى هنا في عتمة الليل- إنهما هزيلان وأسودان ومريضان. ونحن كنا نرتجف رعباً، ونخشى أن تقتحم الشرطة البيت وتعتقل الجميع وتقتلهم.

أنا ذهلت: - هل كان ابني هنا؟ ومتى؟

- قبل شهر، حالما اشترينا هذا البيت.

- وكيف جاءوا إلى هنا؟

- نحن لا نعرف.. ولو نعلم - فإن ابننا الأحمق ساعدهم.. إن ابنك سيقود ابننا إلى الهلاك. أوي، سيقضي عليه. يالها من مصيبة. لقد أطاح القدر بك على رؤوسنا في الزمن الماضي والآن، جاء ابنك. إنها مصيبة حقاً.

عندئذ نهرها ابن العم جيخو بحدة، ولكن ليس كما كنت أتوقع، كما أنها لم تظهر خوفها وتابعت قولها:

- لماذا حدثت زوجي عن هذه الأقاويل؟ هذه الأكاذيب! فهو يعاني أصلاً من مرض القلب. أما مديرك العام فهو على الأغلب لص، ويخدم الروس، إنهم استولوا على ثرواتنا. إن ابننا ليس بلطجياً ولا قاطع طريق. ونحن لن نسمح!...

في نهاية المطاف رفع ابن العم جيخو صوته بقوله: - اذهبي من هنا!

عندما انصرفت قال في لوعة:

- إن ابنك طرق فعلاً سبيلاً غير جيد - فهو ينشر هذا الوباء.

نبرت: - أي وباء؟

- أنت تعرف بنفسك.

- أنا أعلم: قتلت أمه وأخوه. وحالة روسلان مشابهة.

- ها أنت ترى إنهما انقادا إلى الاستفزاز، وسيكون مصيرهما نفسه... لا تزعل، ففي نهاية المطاف سيكون الأمر كذلك. كما جذب ابننا إلى هذا الطريق..

لم أتمالك من القول: - إن ابنك يلهو في موسكو. وكما قال لي المدير العام فإن لدى ابنك هوية أجهزة الأمن. أليس كذلك؟

- هذا كذب!... يمكن الآن شراء أي ورقة في سوق الخضراوات. إن ابني من رجال الأعمال.

لم أرغب في مواصلة الحديث، لكن وجب عليَّ أن أنجز مهمتي ولهذا سألت:

ماذا سأقول إلى المدير العام؟ -

- ماذا تقول؟ أولاً، كان يجب ألا تقف إلى جانبه..

فقاطعته ولو أنه كان الأكبر سناً: - مهلاً! أنا في البداية لم أكن إلى جانب المدير العام، وهذا ما قلته له. إنني قلت فوراً بشكل قاطع بأنني أقف إلى جانبك. ولم يعد هذا الموضوع يهمني أكثر. فدبروا حالكم وبملايينكم بأنفسكم. وكما يقال إن الأثرياء لهم مشاكلهم.

عندئذ قاطعني هو: - نحن لسنا من أصحاب الملايين.

وماذا بوسعي أن أقول، وفقط أجلت النظر في الممتلكات الجديدة التي حصلوا عليها. حقاً، إنني لم أحسدهم، بل بالعكس، فقد تولد لسبب ما لدي شعور التعاطف مع ابن العم جيخو ولهذا قلت: - أنا لا أرغب أكثر في الحديث والسماع والمشاركة في هذه المساجلات. وأريد أن تبقى بيننا العلاقات الحميمية والطيبة. إن والدك بالنسبة لي قديس. ومعنى ذلك أنك بصفتك الأكبر سناً يجب أن أكن لك الاحترام.

احتضنته بقوة بصفته قريباً لي. بينما غرق في نشيج حار.

فقال: - ربما الأفضل لك ألا تذهب إلى جمهورية الشيشان؟ فهناك الوضع خطر. وهنا يوجد ما يكفي من المكان. ابقَ عندنا.

عندئذ تأثرت بدوري وذرفت الدموع أيضاً:

- شكراً يا أخي. لقد كان بيتكم ليس الآن فقط، بل وحتى في أصعب سنوات حياتي ملاذاً عزيزاً. أما العم جيخو!...

استمر وداعنا فترة طويلة وبتأثر، ربما، لحدسنا بأننا لن نلتقي أكثر. فبعد مضي شهرين توفي ابن العم جيخو - القلب. ويقال إنه جاء إليه في العشية أفراد من أبناء بلدنا لتسوية بعض الخلافات. إنهم أخفوا عني التفاصل، لكن من المفهوم إنها ترتبط بألاعيب الابن. حفيد العم جيخو. أنا كنت في ذلك الوقت في مكان بعيد وعرفت كل شيء في وقت لاحق.

لكنني سبقت الزمن، فقد وقعت قبل هذا أحداث كثيرة، لا أريد حتى تذكرها، ناهيك الكتابة عنها، لكن ما دمت قد بدأت الكتابة، فيجب أن أكتب.

30 أبريل، مساءً

حين يكون الطقس طيباً، مثل اليوم لا أرغب في الجلوس وكتابة شتى الترهات. بودي التطلع والتمتع فترة طويلة بالمناظر الطبيعية. ويبدو أن هذا كله شيء مألوف لدي، ورأيته ألف مرة، وتعرفت على كل شيء، وحان الحين لاعتياد ذلك والاطمئنان إليه، لكنني لا أستطيع ولا أريد ذلك. أنا لا أستطيع التمتع بهذا الجمال الأخاذ، لأنه يبدو لي فقط أن الجبال خالدة إلى الأبد وجبارة وراسخة. إنها حية ومتغيرة، مثل الطقس، إنها تغير باستمرار هيئتها وتلاوينها وحتى أشكالها. والشيء الوحيد الذي لا يتغير هو الهواء - فهو في الجبال نقي وحلو ويفيض بالحرية دائماً. وعندما يستنشق المرء الهواء هناك بملء رئتيه يتحسس هذا المذاق والأريج الجبلي. ويغدو نفسه ليس حراً فقط بل ومحباً للحرية، ويريد أن يكون مستقلاً. وهذا يعتبر أسمى اللذات! وحقاً لا يمكن أن يكون أفضل من الجبال سوى الجبال نفسها. فلا يوجد ولا يمكن أن يوجد ما هو أفضل وأسمى وأروع منها. وعندما تدرك هذا نهائياً، وتقع في حب الجبال وتستسلم لها بكل كيانك وروحك، فإنها تحبك وتحترمك وتثمنك وتعتبرك جزءاً منها أيضاً. وعندئذ ستفهم لغتها، فإن هذه الذرى تتبادل الأحاديث وتبدي دائماً الاحترام والحب والرعاية حيال بعضها بعضاً- ولهذا السبب فإنها خالدة إلى الأبد. إذ تسود فيها فقط المحبة والاحترام. لأنه لو لم توجد الجبال الصغيرة كدعائم إسناد لما وجدت الذرى الكبيرة.

لماذا تجذب الجبال المرء إليها؟ لأن من يأتي إليها يتطهر من كل قباحة.

ولِمَ الجبال منيعة هكذا ومن الصعوبة جداً اقتحامها؟ لأن أفكار وأفعال البشر تلطخ وتلوث البياض الأبدي ونقاوة الذرى. ولكن إذا أحببت الجبال بإخلاص، فإنها ستحبك أكثر، وعندئذ حين تكون في داخل الجبال لا تشعر بثقل وفناء جسدك، وتصبح كالنسر، فتحلق فوق الأرض وتسمع كيف تتبادل الجبال الأحاديث، وكيف أنها راضية عنك.... لكنها اليوم حتى لا تتحدث، إن الجبال تغني اليوم سوية معي. ففي أعماق روحي موسيقى! وفي عقلي - غناء! وفي جسدي.. انسجام وهدوء!...
لأنني تلقيت من شوفدا في العشية رزمة صغيرة (جلبها لي الشرطي المحلي) فيها باسبورت وفيزا شينغين متعددة وآلة تصوير وبعض الملابس، والشيء الرئيس- القرص المدمج الحاوي على الأغاني الشيشانية بأداء شوفدا، وبعزفها على آلة البيانو الكبيرة. هناك موسيقى أ. شاهبولاتوف وأ.ديمايف وم. ايداميروفا وغيرهم. وواصلت الإصغاء إليها طوال الليل تقريباً، وعندما كنت أعيد المرة تلو المرة أغنية جانايف «الحنين إلى الوطن» التي ألفها في زمن الترحيل، تذكرت سنوات طفولتي وطفولتي والعم جيخو وبكيت. وهكذا استسلمت للنوم والسماعتان في أذنيَّ. وفي الصباح خرجت من البيت. الربيع في أوجه. والشمس دافئة وحانية وطيبة. الأزهار تتفتح في كل مكان وينتشر عبيرها. العالم يتجدد. الهواء نقي وحلو وعزيز. ويسود هدوء كوني رباني وجبار لا يوجد إلا في الجبال فقط. وفقط تغرد الطيور برفق وبسعادة وبحبور، بينما يولد الغدير الخرير في الفجر. وفي هذا الفضاء الخاص للقوقاز الأشيب يتردد صوت ابنتي الرخيم، فتلاحقها في ترديد الغناء الجبال، وكأنها جوقة من الزلاقات الثلجية (نارت). وبودي أن أنطلق وأطير وأحلق... وعنئذ تذكرت ما قاله لي الشرطي المحلي في العشية:

- إن طائرتك الشراعية هي طائرة فعلاً - وقد حلقت بنفسها. الحمد لله إنها تحطمت.

هذا ما حدث. لقد كانت الرياح عاصفة، وحملت الطائرة الشراعية مثل زغابة.. إلى ما وراء الجبلين. ولم أعثر عليها إلا في اليوم الثالث، وذلك بالصدفة. فقد رأيت من بعيد، فوق صخرة، بريقاً بلون أبيض وأحمر مثل علمنا! وما كان بوسعي التسلق إلى هناك. وفكرت إنها نهاية حلمي المأمول في التحليق والطيران! وبعد ذلك قررت - سأشتري واحدة أخرى. لكنني تذكرت مكسيم. فإن صديقي حلق بواسطة هذه الطائرة الشراعية، لكنني لم أستطع الحفاظ عليها. لقد عقدت العزم على الطيران. لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة. إنه خطر جداً. بالأخص في طريق العودة، فقد لاحت بوادر الغسق، وأنا تعبت، والطائرة الشراعية، أو بالأحرى ما تبقى منها - ليس زغابة، ومن الصعب حملها فوق الصخرة الشديدة الانحدار. وكدت أن أسقط في الهاوية مرتين- لكن لم يقدر لي ذلك. وإلا سيقال إنني لم أحلق مع الطائرة الشراعية بل طرت.. إلى الهاوية. أحمق! حقاً! قال الشرطي المحلي ذلك بما يشبه الهمس، لاعتقاده بأنني لا أسمع، حين زارني لمشاهدة كيف حملتها إلى بيتي. أنذال. إنهم يرون كل شيء. ويبصون بصيصاً. الآن لا يمكن حتى في جبالنا الخالية من البشر الجلوس لقضاء الحاجة بهدوء، أو النهوض... إنهم الآن يعتبرون أنفسهم «كالأرباب» - بزعم «أنهم» يرون كل شيء، ويسمعون كل شيء، ويعرفون كل شيء، هذا هو التقدم التقني. لكن كما يقال الله معهم. لم يبق لدي الكثير للعيش معهم. لكن يجب عليّ قبل هذا أن أحقق حلمي حالياً - بالتحليق! بالطيران! إلى الأبد!

لكن هل يمكن أن يرغب الإنسان في التحليق بعيداً عن هذا السناء، وعن مثل هذه الجبال؟

عن الجبال، جبال وطني - لا. لكنني أريد الآن التحليق بعيداً عن البشر القاطنين في الجبال. ويتطلب ذلك إصلاح الطائرة الشراعية. أنا من أهل النفط، ولكنني قبل كل شيء مهندس. وكتبت إلى الشرطي المحلي الذي زارني: «اجلب لي صمغاً رمادياً (يوجد هذا الصمغ) ومثل قماش المظلات هذا».

فاستفسر بعدم ارتياح: - لأي غرض؟ هل تفكر في إصلاح هذا السخف؟

غمغمت: - آغا.

- لن تحصل على ذلك.. فأنت مريض، بينما تريد التحليق.

غمغمت مرة أخرى: - آغا، - لكنني كنت أعرف أن الشرطي المحلي سيبلغ أحداً ما بذلك، وهذا بدوره سيبلغ ابنتي بكل شيء. إن الشرطي المحلي لن يتجرأ على أن يهتف إلى شوفدا مباشرة. وأي شرطي محلي هو بعد هذا. حقاً إنه رجل طيب ويساعدني بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ولكنه سيبلغ مع هذا رئيسه - حفيد العم جيخو بشكل من الأشكال. وسيشمت هذا بي. أنا أتصور ذلك... لكنني أتذكر شيئاً آخر. آنذاك في ديسمبر عام 1999 عدت من ابن العم جيخو في نالتشيك إلى جروزني. وهنا حالة طوارئ. وحالة الطوارئ هنا شاملة وعامة - فالحرب قائمة. لكن يجب عليّ في مثل هذه الحال العمل. إن المدير العام يتوجه إلى موسكو مجدداً لدى أدنى فرصة ويعلم ذلك جميع الرؤساء، بينما أبقى بصفتي القائم بالأعمال، وبلغوني أن المسلحين الشيشان استولوا على أحد مباني موقع إدارتي السابق. وقد علم الجنود الاتحاديون بذلك - في البداية قصف الطيران، ثم المدفعية البعيدة المدى. وبالرغم من وجود اتفاق مع القيادة وحتى أمر من موسكو، وتم تأشير المكان في الخرائط الخاصة، بأن لا يستخدم السلاح الثقيل هناك - فثمة حاجة إلى النفط الغالي الثمن. لكن الحرب هي الحرب، ويبدو أنهم أصابوا وحدة الحفر بصورة مباشرة. وكان يرى حتى من مكتبنا في جروزني كيف تألقت قبة السماء بسبب الحرائق، وكيف تصاعدت سحابة سوداء زحفت على المدينة، وبات التنفس عسيراً. إننا اعتدنا العيش مع هذا منذ وقت طويل. ولكن المصيبة هنا أعظم: فقد هبط نقص النفط في الأنابيب حتى الصفر، ومعنى ذلك أن النفط كله يتدفق كالنافورة من وحدة الحفر. وإذا لم تتخذ تدابير عاجلة فإن كمية كبيرة من النفط الخام ستتدفق حتى الصباح.

وسيكون من المستحيل إطفاء وحتى حصر نطاق الحريق الناجم عن مثل هذه الكمية من النفط. لا سيما أنه لا تتوافر معدات إطفاء الحرائق. ولايوجد رجال إطفاء. والمسألة حتى ليست في ضياع الأموال وتوجيه ضربة شديدة إلى سلامة البيئة، - الجميع خائفون، خائفون من التقاط صور هذا الحريق الكبير والدخان، وسيبثها الصحفيون الغربيون - وعندئذ ستثار ضجة كبيرة في العالم. ولهذا السبب لم يكف هاتفي عن الرنين طوال الليل، وكان الجميع يهتفون - المدير العام، من المؤسسة العامة في موسكو، ومن إدارتنا المؤقتة. ولكن ماذا بوسعي عمله؟ مفهوم، لا توجد إدارة دفاع مدني هنا، بينما لا يعمل هاتف مدير دائرة إطفاء الحريق التابعة لمؤسستنا. أنا على ثقة بأنه أغلقه عن قصد خصيصاً. فيحظر عليهم بشكل قاطع التجول ليلاً في فترة الحرب. علماً بأنه لا يتجول أي أحد في جروزني ليلاً، وبالدرجة الأولى العسكريون أنفسهم ويسيطر المسلحون على

المدينة. لكنهم لا يتجولون أنفسهم في السيارات - فيمكن أن تطلق النار من أي حاجز تفتيش. يالإضافة إلى الطيران وهلمجرا وهكذا دواليك. باختصار الوضع خطر جداً. لكن وجب عليّ القيام بعمل ما. فقررت الخروج في سيارتي الـ«واز» إلى جاراجنا حيث يرابط رجال الإطفاء. ولحسن الحظ إنه ليس بعيداً جداً، وكل شيء يتمركز في مكان واحد. وأراد أحد رجال الحرس عندنا مرافقتي. ولكن إن وقع حادث ما، فلن يستطيع أحد مساعدتنا - فهنا لا سيما في الليل يحدث كل شيء بصورة مباغتة، وتأتي الضربة من وراء ركن الشارع، ومن السماء ومن تحت الأرض. فلم المجازفة، لا سيما أن هناك أمراً بعدم الخروج إلى الشارع. وأنا لا أريد أن ارسل أحداً ما بصورة نافلة. عندما أكون مسؤولاً عن شخصي فقط أسهل.

تطلب الوصول إلى دائرة الإطفاء التابعة لنا فترة خمس دقائق فحسب، بينما بدا لي أنها طويلة وإلى أبد الأبدين - فقد تملكني الخوف من الخرائب، والشوارع المهدمة هذه، ومن الظلام الدامس. وقد وصلت إلى هناك في نهاية المطاف، أما رجال الإطفاء عندنا فخافوا حتى فتح البوابة، فقد يندفع أحد ما ورائي. هذا ما كان عليه الوضع عندئذ. كان مدير دائرة الإطفاء في مكتبه، واعترف بأنه أغلق الهاتف عن قصد، وقال بصراحة:

- لن يذهب أحد إلى هناك في الليل. ونحن لا نعرف كيفية الوصول إلى هناك.

- سأريكم الطريق.

- في الصباح سترينا إياه.

فصرخت تقريباً: - لقد صدر الأمر إليَّ بإطفاء الحريق. ويجب عليكم أن تطفئوه.

- لا تصرخ. أولاً - هناك أوامر بعدم مغادرة الموقع ليلاً. وثانياً - كيف يمكن أن نرسل الشباب إلى مثل هذه المجازفة... أنت نفسك تعرف ما يدور من أحداث. أنا أخاف الخروج من هنا حتى في النهار. أما في الليل فيطلق أولئك وهؤلاء النار عليك حتى من دون السؤال عن الاسم واللقب. هل أموت مقابل هذه القروش؟

فقلت بغيظ: - هناك من يموت حتى من دون هذه القروش.

نبر رئيس فصيلة الإطفاء بعد فترة صمت قصيرة:

- نعم، يبدو أنك تقصد ابنك.

نهرته: - صه!

- أنا أسكت وحتى أطلب المعذرة - وقام بخطوة إلى الوراء - لتعلم أنني إذا ذهبت الآن لإطفاء الحريق فلا يستبعد أن يقتلني ابنك بالذات.

لن تكون الخسارة كبيرة، - غمغمت وأمرته: افتح البوابة.

اندفع رجل إطفاء الحرائق نحوي: - ماذا تفعل؟"فالوقت ليل، ويجري إطلاق النار في كل مكان.. لكن أعذرني. بت عندنا وفي الصباح سندبر الأمر.

كررت بلهجة قاسية: - افتح!

لقد ساد الرعب، في كل مكان، هكذا كان الحال في هذا الزمن، ولهذا فإن البوابة الحديدية الأوتوماتيكية انفتحت قليلاً، وذلك لكي أخرج من جنب فقط، وقبل أن أبتعد أغلقت البوابة فوراً، وسمعت من يقول في أعقابي:

- ليحفظ الرب... سامحني.

أنا لم أجب. ولسبب ما وقفت كالمصعوق. وغمرني شعور سيئ. ففي هذه المدينة الميتة تقريباً - يسود سكون مطبق يضيق عليّ الخناق، وحتى لم أسمع دقات قلبي الغاضب. إن رجل المطافئ هذا على حق لحد ما. فقد يحدث أن يطلق ابني النار عليّ بالصدفة ويقتلني.. وهل ستكون هذه مصادفة؟

كانت سيارتي ترابط على مسافة 50 متراً وراء كتل الخرسانة المسلحة، فهذا ما يتطلبه الأمن. وعندما هرولت منها تقريباً إلى البوابة، أخذت الآن أمشي ببطء، وقد تملكني نوع من التحدي والغيظ والثقة بالنفس. أنا حتى لا أعرف كيف عقدت العزم على إنفاذ الأمر. لو رجعت إلى المكتب لوجدت هناك تلك المكالمات مجدداً - «ماذا عملت؟ اعمل!». أدرت السيارة بصورة لا إرادية وبثقة في الاتجاه الآخر، نحو دائرتي لحفر الآبار. لم أكن أفكر في الحريق. أنا حتى لم أتصور بأنني سأذهب إلى هناك، لكنني واصلت السير. انطلقت باتجاه المدينة - الشبح، وأشعلت النور الأمامي البعيد، وبدا لي أنني مثل الطفل أمارس لعبة ما رهيبة بواسطة الكومبيوتر. ورجعت إلى الواقع حالما بلغت أول حاجز تفتيش. فهناك يسطع نور البروجكتور، لكن لا يوجد أحد فيه، فقد اختبأ الجميع وراء حواجز الخرسانة المسلحة والدروع. وعبرت حاجز تفتيش آخر - بقعة صغيرة من النور. ووصلت إلى آخرحاجز تفتيش في أطراف المدينة، ولأمر ما قررت عدم التوقف عنده والالتفاف حوله - فهناك تبدأ الأماكن المألوفة لي. غادرت المدينة، وانداح الطريق صعوداً نحو الجبل، وهو أكثر نظافة، وثمة ثلوج وفيرة، ولا يرى أثر مرور السيارات تقريباً - إنها غالباً ما تمر هناك، لكنني أتذكر هذا الطريق جيداً. وثمة منعطف آخر، ويليه الصعود في الطريق الشديد الانحدار، وحتى شعرت بالألم في عيني - هناك شعلة تعمي الأبصار، وكأنه انفجار بركان. إنه مشهد لا مثيل له! بدا وكأن الطبيعة قد تمردت وثارت! أردت التطلع إلى هذا الهيجان المحتدم، كما أردت الهرب منه. ولغرابة الأمر كان هناك شيء مماثل يغلي ويشتعل في داخلي أيضاً. وما دمت قد جئت إلى هنا فيجب أن أقترب وأتطلع إلى ما يجري هناك - لا سيما أن هذا واجبي. فشغلت جميع آليات كابح الحركة، واستدرت من الطريق وسرت فوق المنحدر المغطى بالثلوج واقتربت من النار. وتوقفت عن الحركة على مسافة ثلاثمائة متر من بؤرة النار. خرجت من السيارة. وتملكني رعب غير مفهوم والإعجاب بما أرى من قوة اللهب. وشعرت حتى من تلك المسافة

البعيدة بلفح السخونة، كما لو كان صادراً من الموقد، والشديد السطوع كنور النهار. إنني أعرف كل صغيرة وكبيرة هنا، ويمكن القول أعرفها عن ظهر قلب، فرأيت، كما لو كان ذلك نكاية بي، أن الضربة أصابت موقع استخراج النفط بالذات. ويتدفق النفط هناك ذاتياً. لكن لحسن الحظ لم تسقط القذيفة على آلية الحفر والبئر مباشرة، بل في الأنبوب الموصل بها. وتوجد بين الشعلة ووحدة الحفر مسافة خمسين متراً. فإذا ما أفلحت في سد صنبور البئر، فيعتبر ذلك نصراً تقريباً لي. فهرعت إلى وحدة الحفر.

لا يمكن وصف كل شيء، كما أنني لا أحتفظ في ذاكرتي بما حدث، وعملت كل شيء في صورة تلقائية فحسب، أما الدماغ وبقية الأعضاء فإنها قد ذابت كما بدا لي. ولا يحدث ذلك في أي حمام، ويمكن فقط في الموقد البيتي أو في جهنم. لكن هذا أسفر عن النتيجة المطلوبة. وما كان بوسعي إغلاق الصنابير الصدئة والمتجمدة ببساطة. علماً بأن كل الآليات قد سخنت، وحميت لدرجة الاحمرار، وبليت القفافيز - لكنني أدرت الصنبور، وتوقفت نافورة النفط كلها. ورجعت بسرعة إلى السيارة. في هذه اللحظة عرفت أنني عملت الواجب والخير. وبالرغم من أن هذا لن يلقى التثمين من جانب أي أحد، لكنني كنت فخوراً بعملي - حيث إنني صنت لحد ما البيئة وصحة الناس الباقين هناك. وصار بوسعي الآن العودة إلى المكتب وتقديم تقرير عن العمل. فجلست في السيارة بشعور من الارتياح البالغ، وأدرت المحرك، وأغلقت الباب كما يجب، وحالما شددت حزام الأمن تذكرت أنني تركت المعطف الشتوي السميك عند وحدة الحفر، كما بقيت بلا غطاء الرأس، والشيء الأهم بقيت وثائقي الشخصية هناك أيضاً. إن العودة مجدداً إلى ذلك الجحيم أمر غير ممكن- فهو لا يطاق. من جانب آخر لا توجد حياة هنا بلا وثائق. تململت للحظة ورأيت من الجانب أشباحاً ما تقترب من السيارة. وكان أول ما تبادر إلى ذهني إنها قطيع ذئاب جائعة. لكن حرك أحدهم مقبض باب السيارة - إنه مغلق. وبلا كلام إنهال أحدهم بعقب البندقية على الزجاج الجانبي: تخدش خدي بالشظايا. وفتحت يد باردة بخفة وجسارة باب السيارة من الداخل، وأمسكت بخناقي، لكن أمسك بي حزام الأمان. وشعرت بحد سكين بارد جداً عند أذني، وبدا كما لو أن الحزام قد تأوه، وألقوني فوق كثيب الثلج. والحق يقال إنني حتى لم أقاوم بسبب المفاجأة والخوف كما أنني لم أتجرأ على ذلك - فقد أحسست بالقبضة الشديدة التي لا ترحم، وكزكزة الأسنان، كما لو أنه يريد افتراسي حياً. تراءت في العينين سمات الجوع وانعدام الرحمة والنظرة الشاردة متجسدة في ألق العينين الغاضبتين وبرودة الخنجر على البلعوم.

- من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟ - صرخ بي الرجل الملتحي الجاثم فوقي، وبدا في ظلال نور الحريق ليس مخيفاً لهذه الدرجة، وشعرت بأنني بلعت لساني من الخوف، ولا أعرف ما يجب قوله، وهمس بغيظ مجدداً:

- من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

- إيه - إيه - إيه! - أردت الإجابة بشيء ما، لكنني شعرت بالألم في بلعومي، والذي يظهر عادة لدى الاضطراب الشديد، فانسد بلعومي من الداخل مجدداً، بينما من الخارج حد الخنجر الذي على وشك أن يقطع البلعوم.. عندئذ سمعت أمراً صادراً باللغة الروسية:

- مالك تلاعبه. افحص الوثائق وابحث في الجيوب والسيارة وقرر بسرعة.. أنت وراء المقود...

بغتة نطقت: - روسلان! روسلان!

جمد الجميع في مكانهم كما لو صدر أمر بذلك، وأنا حتى شعرت بأن طرف الخنجر قد ابتعد عن بلعومي.

- هيا، قف جانباً،- تردد مجدداً ذلك الصوت المتميز المألوف لدي والرنان، ومال نحوي وجه آخر، ملتح أيضاً. أنا لم أكن لأتعرف على ابن أولجا سيرجييفنا ليس في نور الشعلة، بل حتى في النهار المشمس. فقد تغير جداً، وبانت عليه سمات الحرب، وثمة ندبتان عميقتان كادتا تلتئمان، والشيء الرئيس - أن العينين مختلفتان تماماً، إنها لم تعد تلك العينان الفتيتان الطيبتان المرحتان. إنهما الآن تتألقان أيضاً، وتشتعلان، لكن يوجد فيهما بريق قاس - مميت نافذ. ولم يتبق من فترة فتوته سوى الصوت، ولو أن النبرة وجرس الصوت أصبحت تشوبهما بحة وانفعال:

- هذا أنت؟

رفعني من كتفيَّ، وعانقني بشدة. وابتعد قليلاً ثم تفحصني، - أنار وجهه ضوء الشعلة، ورأيت كيف تغير في لحظة خاطفة، وصار يتسم بالطيبة، وذرفت عيناه الدموع:

- هل تذكر ماما وجدتي؟ وقبونا - واحتضنني مرة أخرى، وهو يخفي وجهه. في هذه اللحظة، وهي لحظة خاطفة، شعرت كيف تراخى جسده كله، وحتى أصبح ناعماً قليلاً، كما بدا لي أنه أصبح أقصر قامة قليلاً من السابق. لكن هذه كانت لحظة خاطفة، حالة ضعف خاطفة، وفجأة أصبح كالصخرة كما لو استقام لولب ما في داخله واستعاد قيافته المعتدلة. ارتد إلى وضعه السابق. مسح وجهه بكم السترة، ومجدداً لم أعد أعرفه تقريباً، إن عينيه قاسيتان، لكنهما مبللتان بالدموع فقط:

- ماذا تفعل هنا؟

- حدث حريق.. فجئت.

- لوحدك؟ ليلاً؟

- هذا عملي.

- أي عمل؟! أنت تخدم هؤلاء الأوغاد مقابل قروش، تنتج النفط وتكسب النقود بالعملة الأجنبية.

- وإلا ما العمل؟ فيجب أن أعيش بشكل ما؟ وأنا لا أحسن القيام بعمل آخر، - لسبب ما وجدت نفسي أبرر موقفي أمامه، بينما واصل الاستفسار بإلحاح:

- لا حاجة لخدمة هؤلاء الأنذال.. ما أكثر ما جلبوه لك ولي من إساءات؟

- لكن ماذا أستطيع أن أعمل؟ - عندئذ بدأت أغتاظ - هل أجري وراءك في الجبال والغابات؟ أنا لا أستطيع ولا أريد ذلك، وسني لاتناسب، وأعرف بأن هذه حماقة. أما الذهاب إلى روسيا فأنا أكره الروس- الشيء ذاته، بل حتى أسوأ.

- ما علاقة الروس بالأمر؟ أنا نفسي روسي لحد النصف.

- هذا مجمل القضية، فإن الروس لا علاقة لهم بالأمر، بينما المسألة تكمن في السياسة...

- وأنت تخدمهم!

- أنا لا أخدم أحداً. أنا أعيش في وطني وأحاول البقاء على قيد الحياة، والعيش. وهنا - عملي.

- لكنك ألا تجازف عندئذ بحياتك؟

- وأنت، وأنتم جميعاً؟

ضحك روسلان بسخرية: - هم. لقد قتلوا أمي، وقتلوا جدتي، وقتلوا عمي، بينما يجب علينا أن نجثو أمامهم وكذلك...- وأطلق شتيمة فاحشة جداً. ويبدو أنه ارتبك فنحى نظره جانباً:

- سامحني، - اتسم صوته مجدداً بشيء من النعومة، وغير الموضوع، فسأل:

- هل تشعر بالبرد؟ هل جئت بهذه الهيئة؟

- لقد رميت المعطف والقبعة عند البئر - وهناك الوثائق أيضاً.

- لا يمكن أن تبقى بلا وثائق. كما لا يمكنك البقاء معها، - وارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة لأول مرة - حسناً، - وتطلع إلى رفاقه - ليذهب أحد ما إلى البئر، ويوجد هناك معطف وقبعة. اذهبوا بسرعة.. وأنت اجلس في السيارة، فقد تصاب بالبرد.

- نعم، إنني مبلل بالعرق كلياً، بسبب الحريق عند البئر.

- اجلس، اجلس في السيارة.

وساعدني في الجلوس. وأمر رفاقه:

- اصطفاف.. سأتحدث فترة خمس دقائق، - والتف حول السيارة، وجلس إلى جانبي.

أردت قبل كل شيء أن أسأله عن ابني، لكن حينما أصبحنا في فضاء مغلق ومحدود، وبالرغم من النافذة المحطمة التي يهب عبرها الريح، فإنني تحسست فوراً رائحة العرق الحيوانية الحادة لإنسان عرق كثيراً وكثيراً، ثم برد، ولم يغتسل منذ وقت بعيد. ولهذا وجهت إليه سؤالاً آخر:

- روسلان، لماذا؟ وكيف تتواجدون في هذه الجبال والغارات؟

فضحك بسخرية: - لقد تكيفنا مع الوضع.

- لكن هذا هراء. فالنهاية جلية للعيان.

فقاطعني بحدة: - كل شيء بيد الله.

حلت فترة صمت، خرقها بقوله:

- أطفئ النور.. وحاول الرجوع بلا نور- هناك خطر.

حقاً، إنني كنت أحلم بالرجوع من هنا حياً ومعافى، لكن ليس قبل أن أستوضح كل شيء عن ابني..- ويبدو أن روسلان أدرك ذلك.

- فيما يخص ابنك.. إنه صديقي وأخي وأقرب إنسان لي في هذه الدنيا. ويمكن الثرثرة بكل شيء، لكن يجب أن تفتخر به.

- أين هو؟ - بدرت مني هذه العبارة، بينما واصل روسلان الكلام:

- أنا أعلم، وابنك يعلم أيضاً، بأنك لا تستحسن أفعالنا. وكان الأصوب كثيراً، وفي هذا يكمن المستقبل، لو كنا نعيش وندرس ونتزوج وننجب وننشئ الأطفال في مكان آمن آخر... لكنني أجيب من مثلي.... أنا كنت في أوروبا الخالية من الهموم، وتناولت طعامهم، ودرست، لكنني لم أستطع العيش هناك. فقد كانت كل ليلة تفيض بالحزن، وأحلم بأمي الحزينة، كما لو أنها تدعوني إلى هنا. أنا لم أستطع فحسب العيش هناك. ولهذا جئت، ولكن بدأت الحرب هنا مجدداً كما لو كان ذلك بطلب ما.

فقاطعته: - الآن تنام بهدوء؟

فضحك ساخراً: - الآن أنا لا أنام البتة. أو أنام بعين واحدة مفتوحة، وأصغي إلى كل خرخشة.

عندئذ تذكرت زيبا، فهو لم ينم أيضاً - ياله من مصير يلقاه هذا الشعب. لكن دار الحديث عن أمور عامة، وتحتل لدى الشيشان - ويالِلأسف - مكانة الصدارة الأمور الخاصة والشخصية، ولهذا سألته مجدداً عن ابني:

- يبدو أنه يوجد بيننا خائن. وقد وشى أحدهم بابنك، وأغراه بالمجيء إلى كمين. لكنه فتى قوي وجريء - فأصيب بجرح خطير، لكنه استطاع النجاة، وعاد إلينا. ونحن نقلناه إلى الخارج، إلى جورجيا، من أجل العلاج.

- وكيف فعلتم ذلك؟

- مقابل النقود... لقد دفعنا إلى الجنود الاتحاديين.

- هل يوجد لديكم اتصال معهم؟

ضحك روسلان بسخرية: - نحن على اتصال دائم معهم. أنت ترى أنهم يقصفون بالقنابل. ألا يعتبر هذا اتصالاً... ولئن توخيت الصدق فإننا طبعاً لوحدنا، ولا يتحكم بنا أحد. نحن نسير تحت رحمة الله... لكن توجد لدينا، كما تعرف، أسماء شهيرة - ممن يسمون بالقادة الميدانيين. إنهم، وجميعهم تقريباً - مشاريع لبعض الأجهزة الخاصة.

- الروسية؟

ربما، وليست الروسية فقط. وتوافر لهم الممرات، والدعاية، والعلاج وهلمجرا. إنها حفلة فنية، حفلة فنية دامية. إنهم يمارسون لعبة القط والفأر. أنا أحياناً أفهم هذا كله وأريد أن أبصق على كل شيء، وكما تنصحني بأن أعمل... لكنني لا أستطيع، أنا لا أستطيع ذلك الآن. أنا لا أستطيع أن أترك الشباب لحالهم. وهم لن يسمحوا لي بذلك - ففي كل الأحوال لقد كنا أنا وابنك نشن الهجمات بين حين وآخر. ولهذا لن يغفروا لنا ذلك. أنت ترى كيف بدأنا النضال. وفي هذه المرة خاننا أحد ما أيضاً. وربما إنهم اقتفوا أثرنا. تتوافر التقنية - الآن يمكن رؤية علبة الثقاب من القمر الصناعي. ونحن لا نشكل أي قوة حيال هذه القوة الجبارة.

أطلق تنهدة عميقة، واستغرق في التأمل قليلاً ثم تابع كلامه بصوت حزين:

- يقال إنه ستجري هنا قريباً تغييرات. تغييرات طيبة. لكن يجب أن نعيش حتى ذلك الحين. ويبدو إنه ستتم حتى ذلك الحين تصفية الحساب معنا كلياً. وأشعر أن الحلقة تضيق حولنا، فهناك من «يخبر» عنا وأنا أحزر من هو تقريباً... في العشية جرى قصف عنيف لموقعنا مباشرة. فلقي نصفنا مصرعهم، وسقط ثلاثة جرحى. ونحن الأربعة نجونا بالصدفة، حيث كنا في مهمة قتالية...

- هل تحتاجون إلى سيارة؟

- نعم. نحن بحاجة إلى سيارة مثل سيارتك - تسير في الطرق الوعرة. ها-ها، حين شاهدناها فكرنا بأن الرب أرسلها لنا. لكن لن نمس سيارتك... أوه، لقد جلبوا حاجياتك.

ظهر شبح كما لو أنه ظهر من تحت الأرض. فخرجت من السيارة. وقف أمامي فتى صغير هزيل البنية - ظهر الزغب لتوه على وجهه، ونظراته الخابية تنم عن الحزن والكآبة.

أخذت حاجياتي من الفتى، ولبست المعطف، وقلت لروسلان:

- خذ السيارة.

خرج روسلان من السيارة ونبر: - ما هذا القول!

وكررت: - خذها.

- وأنت كيف؟.. سينالك العقاب لقاء ذلك.

سأدبر حالي. أنتم بحاجة لها أكثر مني. -

- نعم، إننا يمكن أن نذهب بعيداً قبل حلول الفجر، يجب إنقاذ الشباب.- احتضنني بقوة، - شكرا! أنا أعلم أي مجازفة تواجهك.

فقلت: - هراء. لدي رجاء.. بل رجاءان.

- تفضل، - بدا وكأنه يقف في وضع الاستعداد.

- اتركوا هذا الأمر!

- لا أستطيع. لهذا السبب يتجنب ابنك لقاءك.

- كيف يمكن الاتصال به؟

- أنا لا أعرف.. يتولى هذه الأمور كلها...- فأذهلني بذكر اسم حفيد العم جيخو.

- وكيف أجده؟

- أنا لا أعلم أيضاً.. لقد فقد أثره.

كان في عجلة من أمره، طبعاً، كان في عجلة من أمره، لكن ازداد فضولي:

- مهلاً، روسلان، يبدو أنه يبتز المال من أجلك، أي من أجل فصيلتك، لقد طلب مبلغ مليون دولار.

- مليون؟! يالها من شهية! نحن تكفينا مائة ألف- وعندئذ ستحل مشاكلنا كافة.. أف، مليون!

بينما واصلت حديثي:

- أتعرف أن لديه هوية رجل الأجهزة الخاصة؟

- أعرف، وكيف لا؟ وعبر من سنقيم الاتصالات عندئذ. لقد أوصاني به ابنك، وقال إن جده هو العم جيخو!

فأكدت له ذلك: - هذا صحيح!

- هل فقدت الذرية قيمتها؟

- أعتقد أن الشعب كله فقد قيمته، وصار الجميع يتهافتون على المال.

ووافق روسلان على ذلك قائلاً: - نعم، إن النقود تقرر كل شيء تقريباً.

- ولأي غرض تحتاجون إلى النقود؟ في الغابة؟ في الجبال؟

-لإقتناء الأسلحة والمواد الطبية والطعام - فلا ينمو أي شيء منها في الغابة. إننا نشتري حتى رخصة المرور عبر نقاط تفتيش الجنود الاتحاديين، بينما نقاتل الآخرين... إنني أريد أن أعبر الحدود إلى الخارج مع هؤلاء الفتيان.

وكدت أن أهتف قائلاً: - وهذا بالذات ما أردت أن أطلبه منك.

فقال روسلان بعصبية: - أنا لم أدعوهم! لقد أرغم الجميع، أنا وابنك، قسراً على المجيء إلى هنا. وتتم تصفيتهم شيئاً فشيئاً.

- ما الفائدة؟

قاطعني بحدة: - مهلاً! لا يقاس كل شيء بالمال وينجز بالمال. الجميع يأتون إلى هنا بلا نقود. وأنا والحمد لله لا أجثو على ركبتيَّ أمام أي أحد. ها-ها-ها. - ضحك فجأة واحتضنني بقوة - أنا أحبك وأحترمك جداً... يجب علينا..- كان في عجلة من أمره بينما أنا واصلت حديثي:

- إذن تقول بأن ابني يتلقى العلاج في جورجيا؟ في أي مكان بالضبط؟!

- لابد أن حفيد العم جيخو يعرف، - نعت روسلان لسبب ما الشخص المذكور بهذه الصفة- لكن هل يعمل هذا الحفيد من أجلنا الآن؟ نحن لا ندفع له شيئاً. وعموماً هل حفيد العم جيخو جدير بالتقدير؟... سأستوضح الأمر في لحظة إذا ما التقيته...- احتضنني مجدداً، وأسر في أذني:

- شكراً.. سامحني، وافهمني، وداعاً.

وجه عدة أوامر. وجلس بنفسه وراء مقود القيادة. وبعد أن سار مسافة قصيرة توقف. وخرج من السيارة وجاء إليَّ مسرعاً:

- قد تثار أسئلة - أنت لم ترانا، ولم تلتق أنت بنا.. لقد تركت السيارة هنا، وذهبت لإطفاء الحريق، وعندما رجعت لم تجد السيارة. من أخذها؟ أنت لا تعرف... شكراً!- احتضنني مرة أخرى وابتسم، وبدت عليه علائم الشباب فوراً.- عندما أراك يبدو أنني في إجازة أو أمضى إجازتي السنوية في البيت... كل شيء سيكون على ما يرام! قريباً سأرى ماما. الله أكبر!

... بعد مرور شهر أو شهر ونصف اكتشفت الطائرات وجود فصيلة روسلان لدى عبورها الجبال الألبية، لقد وقعت في كمين مرة أخرى وأصيب روسلان نفسه بجروح خطيرة، وتم تضييق الخناق عليهم. عندئذ أمر روسلان أحد رفاقه بأن يطلق النار عليه. لكن تبين أن الذخيرة قد نفدت. وعندئذ زحف روسلان إلى حافة صخرة عالية وألقى بنفسه منها صائحاً بهتاف واحد فقط: «ماما.. ما.. ما!...».

30 أبريل، ليلاً

يشغل بالي من باب الطرافة بم سأصرخ حين أطير؟. لا، إنني سأطير ليس من الصخرة بل بواسطة الطائرة الشراعية. وأنا على ثقة بأنها لن تكون القفزة الوحيدة. وليست الأولى والأخيرة، بل سأحلق مرات عديدة وعديدة. وأنا أتحسس متعة ذلك مقدماً. طبعاً لم أصلح الطائرة الشراعية بعد. لكنني مهندس، وقطع الغيار متوافرة لديّ- لذا سأصلحها كما يجب بعد عدة أيام، وليكن ذلك بعد أسبوع. وسأطلق عليها اسم «مكسيم -2». و«2» لأنها ستكون نسخة طبق الأصل من طائرة مكسيم الشراعية. واعتقد أن هذا يتسم بأهمية كبيرة بالنسبة لي لكوني أصلحتها بنفسي.

ماذا كنت سأفعل من دون شوفدا. فقد أبلغوها بأن طائرتي الشراعية طارت بنفسها وتحطمت. وقد فرحت جداً وهتفت لي قائلة: «كنت أبتهل من أجل ذلك». فأجبتها ببرقية هاتفية عاجلة: «يوجد في بياتيجورسك مخزن كبير لبيع الطائرات الشراعية». فقد أبلغني مكسيم بذلك سابقاً، كما أن هذه المعلومة يؤكدها الإنترنت. وأصاب شوفدا الفزع فوراً وقالت إن السفر مضر بالنسبة لي (لكن السفر إلى أوروبا ممكن!)، وفور ذلك زارني شرطي المحلة. أنا حتى لا أعرف فيما إذا كان يمارس هذه الوظائف مقابل النقود (تدفعها شوفدا؟) أم بشكل آخر. وفي الأحوال كافة إنه غير راض جداً عن ولعي بالطيران بواسطة الطائرات الشراعية، ومع ذلك سألني عما أحتاجه من أجل

إصلاح الطائرة الشراعية. وفي اليوم التالي حصلت على كل ما أريد، وقال لي الشرطي المحلي: - اصلح، اصلح «طائرتك».. وسنرى هذه الفرجة؟

علماً بأنه حدثني نفسه عن تحليق آخر. فهو كان آخر من بقي مع روسلان. وكما حدثني عدة مرات أن روسلان صمد حتى آخر طلقة، وحين انتهت الذخيرة المحدودة جداً، أمرني قائلاً:

- أطلق النار عليَّ! أطلق! اقتلني، أم أنت تريد أن أقع في أيديهم؟ أطلق النار، يا ابن الكلبة؟ إنني آمرك!

- لا توجد لدي طلقات... فقد كان لدي نصف الخزانة وأطلقتها جميعاً.

- السكين. «الفينكا» أغرسها في قلبي. بسرعة!

- لا. لن أستطيع ذلك أبداً.

كان ملطخاً بالدم بكامل جسده - ولم يقدر على الحركة تقريباً - وكان راقداً على الثلج مثل حيوان مفترس جريح، وأمسك بيديه بسكين «الفينكا» فقط، وراح يصرخ بصورة هستيرية:

- نذل! حقير! جبان! أنت تريد أن أذبح نفسي بيدي؟ بغية ألا أدخل الجنة؟ وأن لا أرى أمي؟! هيا! اطعني هنا في القلب. لكي أموت فوراً!

- كلا. لا أستطيع. لا أستطيع! - وصار رفيق السلاح يبتعد عنه، لكن لم يكن هناك مكان يتوجه إليه.

وصرخ روسلان:

- قف.. إذن اسحبني حتى الهاوية، حتى المنحدر.

كان الجزء الأسفل من جسد روسلان بلا حراك، فأخذ يتشبث بالأرض الصخرية كما لو كانت يداه بمخالب، محاولاً التعجيل بالحركة. وعند حافة الهاوية جمد في مكانه، وسحب إليه الفتى، الشرطي المحلي فيما بعد، وسرَّ في أذنه:

- أنت ما زلت فتى صغيراً. استسلم. ولا تقل لهم أي أكاذيب. وألقِ اللوم عليّ في كل شيء. أنا خدعتك وأرغمتك وأجبرتك قسراً. لا تكذب. أذكر ما جرى كما هو. كل شيء... إنهم سيعذبونك قليلاً، ويزجون بك في السجن.. وفيما بعد ستحيا.

في هذه اللحظة تدفق الدم من بلعوم روسلان. فبصق وسعل، وأصابته نوبة عصبية ما، وراح يهز رأسه ثم جمدت حركته، وبدا كما لو أن سحنته قد أنيرت بصورة غير عادية وارتسمت فيها ابتسامة تفيض بالغبطة. سحب روسلان رفيقه من رقبته مجدداً، وبصق دماً، ثم همس:

- عش، أما أنا فقد قاربت نهايتي.. إنني تركت أمي لوحدها... كم اشتقت إليها، وكابدت الأمرين بسببها. خلاص.. انتهت آلامي.

أزاح الفتى جانباً. واستند على يديه بشكل ما، ودفع صدره إلى الأمام، كما لو كان نسراً جبلياً يستعد للطيران. تطلع في الجبال باعتزاز وحتى بشيء من الكبرياء، كما لو أنه غزاها كلها، وطار.. إلى أمه. أما الفتى الذي كان معه فقد استسلم فعلاً، وبالأحرى اعتقل. وكما روى لا حقاً فقد عذبوه ليس قليلاً وبين حين وآخر. لكنه لم يبق في السجن فترة طويلة. لأن رئيس الإدارة الجديد أنقذ الكثيرين، والجميع تقريباً، ومنهم هذا الفتى أيضاً.

- نعم، فقد جرى اعتقالي أيضاً.

وسأروي كل شيء بالتعاقب. فحالما اختفت عن الأنظار سيارتي ال «واز»، بقيت واقفاً في المكان هنيهة، وفكرت فيما يجب أن أفعله لاحقاً. وكانت أول فكرة راودتني هي الذهاب إلى مبنى إدارتنا لحفر الآبار، وبالأحرى ما تبقى منها - أي الخرائب. أردت فحص المكان والانتظار حتى الصباح - فهي على أي حال سقف فوق الرأس. لكن، وكما نصحني روسلان، فإن البقاء هناك لا يخلو من خطر. فقررت السير في الطريق باتجاه المدينة، وهناك سأدبر أمري وفقاً للوضع... ولسبب ما بقيت في ذاكرتي جميع تفاصيل الطريق تقريباً. فأنا سرت في هذا الطريق آلاف المرات، لكنها أول مرة أمشي فيها هناك سيراً على الأقدام. والطريق منحدر. بقيت بؤرة الحريق خلفي، ولم تعد ترى وراء قمة الجبل. لكن السماء الغائمة التي تنيرها النيران ترى من كل مكان بلون غريب يميل إلى الاحمرار، مولداً وهماً ما بالخفة وأجواء الحكايات وحتى العطالة والكسل. وبدا لي أن كل هذا بعيد عن الحقيقة: فلا يمكن وجود الحرب، ولايمكن من حيث المبدأ أن يعمد أحد ما إلى قتل الآخر. وإنني، في نهاية المطاف، أسير نحو السلام الحقيقي، ونحو جروزني الحقيقية، حيث تنتظرني أسرتي الودية، ويجب أن تأتي لزيارتنا أولجا سيرجييفنا مع روسلان. وتقول لي أولجا سير جييفنا مع زوجتي بارتباك: «لدي ابني روسلان وأنت تعرفه، ولديك ابنة حسناء - شوفدا، ونحن نعرفها ونحبها أيضاً. وروسلان وأنا... وعموماً لقد وجد الشباب اللغة المشتركة والوفاق... وربما.. وربما نباركها أنتم ونحن سوية، وسيكون اتحادنا وصلات القربى بيننا أوثق».

- صحت، وحتى كدت أقفز من الفرح: - طبعاً!

.. أنا أعرف، أعرف من خبرتي، إنني يجب في البداية أن أسمع، لكنني انغمرت في الأحلام الخيالية.. ففي البداية رأيت.. رأيت كيف تزحف أفعى ضخمة نحوي من الأسفل فوق الطريق في البرية الحمراء- البيضاء، وفي الطريق الملتوي الشديد الاحمرار. ثبت إلى رشدي. ووقفت في مكاني بلا حراك وعندئذ فقط سمعت هدير محركات المصفحة الداوي والفظيع. وتملكني بسبب هذا العويل ليس الخوف فقط بل الإحساس بوعكة شديدة وبسوء الحال، وبأن جميع أحشائي تتمزق. أنا لم أستطع، ولم أرغب في الابتعاد عن الطريق. والتحرك من مكاني. أردت أن أسد الطريق أمامهم، وأوقفهم، وحتى التحدث معهم، وإيضاح الأمر لهم، وإقناعهم. وفي تلك اللحظة، بدأ كما أشعرتشغيل حاسة أخرى بعد السمع والبصر هي حاسمة اللمس. وتحسست بجلاء رائحة الحرق والدخان والدم والحرب. لكن لا تتركني الحكاية- الوهم السابق، لأنني فكرت: «ما زال روسلان

وشوفدا على قيد الحياة، كما أنهما ما زالا في سن الشباب». لقد طرأت عليّ هذه الفكرة ليس كمجرد فكرة، بل أردت فعلاً زواجهما. وسيكون لديهما أطفال، ومستقبل ومن أجل هذا يجب الهروب من الحرب ورجال الحرب. أخذت أتأمل وأتطلع حولي. تراءى تحتي مباشرة حرش يميل لونه إلى السواد، وتليه غابة. وأفلحت في الوصول فقط إلى الحرش. إنني رأيت مراراً طوابير المدرعات هذه. لكن أن أراها في النهار في الطريق، في المدينة، وأنا من السكان المدنيين، وحتى مهندس، ولدي وثائق في جيبي. فهو أمر يختلف عن الوجود ليلاً في العراء، والبروز من الحرش، وذلك بعد أن التقيت لتوه المسلحين الذين يزحف هذا الطابور من أجل القضاء عليهم. لحظتئذ أدركت معنى القول ادفن رأسك في الرمال. أردت أن أدفن ولو رأسي، بغية ألا أرى ذلك كله، وألا أشعر به، وألا أرتجف. لكن كيف لا أرتجف إذا ما كانت الأرض نفسها تهتز وتئن تحت وطأة هذه القوة الجبارة. كانت تسير في مقدمة الطابور دبابتان كبيرتان وثقيلتان، وفي أعقابهما سلسلة لا تنتهي من المدرعات والمصفحات. ولسبب ما أردت حسابها، لكنني تعبت... وهذا الطابور كله يوجه ضد عدة صبيان؟

أعتقد أنني بقيت راقداً نحو خمس عشرة دقيقة، وكان ذلك صعباً جداً - وبذلت جهدي في مواصلة الجلوس وعدم الهرولة إلى الغابة وطلب المساعدة. كنت أخاف جداً أن يكشفوا أمري في أي لحظة وحتى أن يطلقوا النار عليّ، وأن يسحقوني فحسب بالجنازير، ويمرغوني بالوحل، ولا حاجة لحفر قبر. ولا يوجد من يبحث عني - فلا يوجد أحد تقريباً. وأحسست بالاختناق مجدداً، وأردت أن أسعل، لكن شعرت بنقص الهواء - بسبب السخام ورائحة الاحتراق. إن هذه المعدات الضخمة تزحف صاعدة نحو الأعلى، وتطلق العويل، وتندفع مطلقة سحب الدخان الأزرق. ولغرابة الأمر فكرت عندئذ: «كم من الأطنان من المنتجات النفطية ستنفق الآن؟ وما هي كمية المعدن والجهود المبذولة في صنع هذه المعدات؟ وكم من مئات الشباب التي تندفع من أجل قتل شباب مثلهم؟». لماذا؟ ولأي سبب؟ ولم؟ أليس من الأفضل أن يبقى هؤلاء الشباب وأولئك في بيوتهم؟. وأن يتنقلوا ليس في الدبابات بل في الجرارات، ويزرعوا القمح ويربوا الأطفال. أو مجرد النوم في البيوت ما دام الوقت هو الليل. لكن، كما هو شائع اليوم، القول إن بعضهم يفرق ما بيننا، ويدفعنا إلى أن نقتل بعضنا بعضاً، ومن دون ذلك سنلتهم أنفسنا بأنفسنا. بالمناسبة إن هذه النزعة الإنسانية النظرية قد سيطرت عليّ فترة غير طويلة، بينما تسيطر نظرية داروين الأكثر واقعية وحيوية القائلة بأن الضعيف يهلك، والحياة - صراع على البقاء! والصراع يولد الشر. وكان الواجب أن أرحل من هنا مع عائلتي منذ وقت بعيد بصفتي عنصراً ضعيفاً. لكنني، أنا الأحمق، أتيت مجدداً إلى جروزني، إلى الخرائب. وعندئذ بدأت بالسير ليس في الطريق، بل في الغابة، وأخشى في كل خطوة أن أدوس على لغم أو أن أعلق بسلك المتفجرات. وصلت قبل طلوع الفجر بفترة طويلة إلى مكاتب الدائرة وأنا في حالة اضطراب. وكان أول شيء فعلته هو أنني اتصلت بالمديرية العامة وقدمت تقريراً حول الوضع. وفور ذلك كتبت كما ينبغي تقريراً حول مغامراتي ونتائجها. وذكرت أن سيارتي فقدت. وطبعاً لم أشر إلى اللقاء مع روسلان. لكنني أفكر فيه طوال الوقت. وأظن أنه لهذا السبب وحالما غفوت وراء الطاولة رأيت حلماً غريباً وطيباً جداً. رأيت شوفدا وروسلان. ربما إن هذا حلمي الجديد أو الفكرة المتسلطة عليّ - كما لو أنهما تزوجا....

لكن هذا مجرد حلم.

1 مايو. نهاراً

كم أن الجو متقلب ولا يحزر في الجبال. يوم أمس طلعت الشمس وساد الدفء كما في الصيف. كان الربيع في ذروته. بينما هبت في الليل رياح شديدة في النافذة،- وغمر المكان الثلج الأبيض الشديد البياض. بالمناسبة، هذا غالباً ما يحدث في الحياة. على أقل تقدير غالباً ما يحدث لي. هل كان من الممكن تصور أن يزج بي في السجن وقد بلغت من العمر أرذله. ولو أنه قيل في روس القديمة لا أحد في مأمن من الفقر والسجن. وعموماً فأنا أواصل السرد ورواية قصتي إن كان ذلك يحظى باهتمام القارئ. لكنني أكتب هذا كله من أجلي نفسي.

... في صباح اليوم ذاته توجهت على رأس فريق من رجال الإطفاء مجدداً إلى مكان الحريق في وحدتي لحفر الآبار، إنهم حتى لم يسمحوا لنا بالمرور فقد تم تطويق المكان كله من قبل الجنود، وجرت عملية تصفية العصابة. والحق يقال إنني في ذلك اليوم حتى لم أفكر بالحريق بل بمصير روسلان. ولم تتوافر أي معلومات بهذا الشأن، واستمر الحريق يوماً آخر ولو بلا وجود مصدر يتدفق منه الوقود، ثم خمد بحد ذاته. مع هذا جرى تثمين أفعالي البطولية في المديرية العامة. وشكرني وزير الطاقة الروسي شخصياً بالهاتف، وحتى تحدث عن منحي علاوة بمبلغ ثلاثة رواتب. وبدا أن الحياة تعود إلى مجراها الطبيعي لحدما، وحتى لاحت نوعاً ما آفاق حياة ابني وابنتي (ولو في الحلم - الابن، ولو أنه جريح، لكنه حي يرزق ويوجد خارج مكان النزاع، أما شوفدا فهي تبعث في البهجة وتوجد في مكان آخر وليس هنا). وفجأة تم استدعائي مجدداً لحضور اجتماع في جودرميس - فقد وصل رئيس الإدارة العسكرية. ووصل في الطائرة معه مديرنا العام أيضاً. وكنت أعرف بأنه بحكم منصبه سيحضره أيضاً. وتبين عندئذ أنه تم استدعائي شخصياً وبصورة حتمية. أنا تذكرت آخر اجتماع وشعرت بنوع من القلق، وأسرَّ في أذني أحد معارفي لدى صولي إلى مبنى الإدارة قائلاً: «قضيتك ليست جيدة. فتصلب». وفي قاعة الاجتماع سجلت الأسماء على المقاعد كافة. وتبين أن مقعدي عند الباب مباشرة. ولعلمي مقدماً بما ينتظرني وضعت أمامي قدحاً من الماء، لإدراكي أنني حين أضطرب بشدة أشعر باختناق في البلعوم، ولن أستطيع التحدث. لكن في هذه المرة لم تصل القضية إلى هذا الحد - فقبل بدء الاجتماع دنا مني أحد العسكريين، وقدم نفسه بأنه المدعي العام، وطلب مني الخروج إلى الممر، وكان هناك عسكريان آخران، وطلبا مني بلباقة أن اتبعهما.

فدهشت وقلت: - لكن لدي اجتماعاً. لقد استدعاني مدير الدائرة.

وجاء الجواب: - مدير الدائرة على علم بالأمر. لدينا عدة أسئلة.

وتبين أنه يوجد في موضع مسيج من مجمع الأبنية الحكومية، وفي الركن، المبنى الكئيب للحاكمية العسكرية. وتم اقتيادي إلى الطابق الثاني. وكان في الانتظار شاب بملابس مدنية:

وقدم نفسه: - أوليج فكتوروفتش، - لكنه لم يمد يده، وطلب مني الجلوس.

كنت أعرف مقدماً عما سيدور الحديث. ولهذا كنت هادئاً لحد ما. وكما يقال إن البروليتاري لن يفقد شيئاً سوى قيوده. في البداية كانت الأسئلة بروتوكولية ما تتضمنه الأسئلة في استمارات الأحوال الشخصية، ثم سأل بلهجة حادة:

- ماذا حدث لسيارتك التابعة للدائرة؟

- هل أعطيتها إلى روسلان.

- أي روسلان؟ متى؟ وكيف؟ قل كل شيء بالتفصيل.

وأعاد السؤال: - بالتفصيل؟ - وبدأت الحديث عما جرى قبل خمسة أعوام. وعن الأفعال الهمجية التي اقترفت آنذاك. وكيف لجأت إلى القبو وهناك التقيت أولجا سيرجييفنا.

فقاطعني: - كفى هذا الكلام الفارغ.

- برأيك إن هذا كلام فارغ؟

- أنا أوجه الأسئلة هنا.

- لكنك طلبت أن أتحدث بتفصيل أكثر.

- ما يهمني هو روسلان. متى وكيف تعرف على ابنك؟ ومتى رأيت ابنك آخر مرة وأين هو الآن؟

- أي ابن؟

- لديك ابن آخر؟

- كان لدي ابن. وأنتم قتلتموه.

- أنا قتلته؟.. نحن هنا فرضنا النظام الدستوري ونقوم بمكافحة الإرهاب.. أجب على السؤال.

- هل أنا رهن الاعتقال؟

- ابنك إرهابي. وثمة شبهة بأنك تتعاون مع المسلحين.

فقلت: - حقاً؟ أنت تعتقد ذلك؟ أنا أكبر منك سناً، ورأيت بعض الأمور وأقول لك من يساعد المسلحين، وبالذات روسلان وابني، - إنه من قتل أمهات وجدات وأخوة هذين الشابين.

- أنا أطلعت على ملفك الشخصي.

- حم، هذا بالنسبة لك «ملف» أما بالنسبة لي فهو حياتي وعائلتي وأبنائي.

- كفى، - ضرب المحقق الطاولة بقبضته. - أجب على السؤال- متى رأيت ابنك؟

قبل خمسة أشهر، في سبتمبر، - ثم أردفت بعد فترة صمت قصيرة، - حينما قتلت زوجتي وابني الأكبر بواسطة الصاروخ...

قاطعني مجدداً: - أجب على السؤال، وإلا سآخذك إلى القبو وسيكون الحديث هناك بشكل آخر.

- كما تريد، - أجبت بصوت متهدج ليس بسبب الخوف من القبو، وبتعبير أدق ليس لهذا السبب فقط، بل لأن قوة داخلية ما أو ألم أخذ بخناقي وضيق أنفاسي.

وواصل المحقق الكلام:

- أجب بصورة ملموسة، متى رأيت ابنك - المسلح آخر مرة؟

- أنا أجيب بصورة ملموسة.. في اليوم التالي للضربة الصاروخية ذهبنا إلى الجبال ودفنا في قرية أهلنا بعض الأشلاء.. أي ما تبقى من زوجتي وابني الأكبر، وبعد يومين اختفى ابني الأصغر.. وأنا لم أره منذ ذلك الحين، وقبل هذا لم يكن مع المسلحين، وأنا الآن لا أعرف ذلك، ولم أره.

- لكننا نعرف ونرى كل شيء.

- إذن لماذا تسألني؟

- نريد استيضاح درجة جريرتك، ودورك.

- دوري هو دور الوالد.

فسألته: - هل لديك أم وأسرة وأطفال؟

صرخ المحقق الشاب تقريباً: - لا يهم!

نهض. ويبدو أنه اغتاظ. وانحنى نحوي وقال:

- نحن نعلم أيضاً بأن لديك ابنة في موسكو.

عندئذ استولى عليّ الخوف فعلاً. وبات من الصعب حتى التنفس. أما المحقق فواصل الاستجواب بإلحاح:

- الآن حدثني كيف التقيت مع روسلان وكيف أعطيته السيارة التابعة للدولة. إنهم ولوا هاربين بمساعدتك وبمعونتك... هيا؟

أردت قول كل شيء كما هو، لكنني شعرت بضيق الحال وطلبت منه:

-أعطني الماء.

- ربما تطلب الشاي والقهوة.. مع الحليب؟

- إنني أجد صعوبة حقاً في الكلام. أرجوك أعطني الماء.

ذهب المحقق بلا كلام إلى ركن الغرفة البعيد. وهناك توجد مغسلة. وصب الماء في قدح معتم الجوانب ومده إليَّ. واحتسيت جرعة بنهم. كان الماء برائحة نتنة وكريهة.

ورجوته: - ربما تجعل الماء يسيل قليلاً، ربما سيكون نقياً أكثر.

- وربما ترشيحه أيضاً؟.. هي هي، بالمناسبة، يجب أن تعتاد على ذلك. فربما ستشرب ما هو أسوأ في الأعوام القادمة، وربما في ما تبقى من حياتك. من دلو التغوط... بالمناسبة هذا أمر مألوف لديكم.

لم أعرف ما يجب قوله، ولم أستطع حيث أصاب بلعومي الجفاف والألم. لكنني لا أريد شرب هذا الماء مبدئياً، كما لا أريد التحدث معه، ورؤيته. وأشعر بأنني على وشك أن أفقد أعصابي، وأتفوه بهاجر الكلام، وربما، وهو الأسوأ - لقد توترت قبضتا يديَّ من الغيظ. وفي هذه اللحظة فتح الباب بحدة. ودخل بهيئة الآمر وبثقة وبهيبة رجل قوي البنية، طويل القامة، وربعة. ويبدو في السن ربما أصغر مني قليلاً، شائب. وتنم عن الإرهاق نظرته تحت الحاجبين الكثيفين المتورمين بسبب قلة النوم. ولم ينظر إليَّ بل إلى المحقق الشاب، كما لو أنه يراه لأول مرة، وقال له بلهجة آمرة:

- هات قنينتين من المياه المعدنية. بسرعة.

جلس في مكان الشاب. وتفرس فيَّ بإمعان فترة طويلة.

أخرج السجاير وكان أول شيء سأل عنه:

- أنت لا تدخن؟ هل يضايقك الدخان؟

دخل المحقق الشاب بنشاط، ووضع القنينتين.

وأمر: - هات المنفضة. والآن اذهب لشأنك.

بدأ هذا المحقق بالتدخين حالما أغلق الباب. ثم نهض. وأخذ القدح الموجود أمامي ذهب إلى المغسلة وأفرغ محتواه. ووضع القدح الفارغ أمامي. وفتح سدادة القنينة بمهارة بمعونة خاتم الزواج، وسكب الماء في القدح.

- اشرب، في الصحة والعافية، - أضاف ذلك ثم دنا من النافذة وفتحها. ودخن فترة طويلة بالقرب من النافذة، ثم قال:

- إذا كان من الصعب الحديث فيمكنك أن تكتب أقوالك تحريرياً.. وهذا ما نحن بحاجة إليه. فلابد من كتابة محضر. اكتب، - ووضع الورقة والقلم أمامي.

شربت ملء قدح من المياه المعدنية. وشعرت بأن حالتي أصبحت أفضل، وسألت:

- ماذا أكتب؟

كيف أضعت السيارة. وفي أي ظروف.

- كما هو؟

- بلا ريب.

صرت أقلب القلم بيديَّ فترة طويلة، ولم أعلم بم أبدأ الكتابة (أنا أجد القدرة على الكتابة الآن). بدأت بالكتابة عن الحريق. وواصلت. يبدو أنني كتبت خلال خمس عشرة دقيقة، وربما أكثر. وكان هو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً طوال الوقت، وعندما اقترب مني، من وراء ظهري، فهمت أنه يقرأ من وراء كتفي. وفجأة بعد أن كتبت نحو صفحتين، اختطفهما مني فجأة وقال:

- إن يديك ترتجفان بشدة. ولن يفهم أحد هذه الشخابيط.

ثم ذهب إلى المغسلة وفتح الصنبور وغسل لدهشتي الأوراق، وكما فهمت لاحقاً بغية ألا تصدر عنها أي خشخشة. وبعد ذلك، وحينما أصبحت مبللة، مزقها بسرعة ورماها في أنبوب المجاري. ومسح يديه فترة طويلة وبإمعان بواسطة المنشفة ثم جلس في مكانه السابق وصار يدخن مجدداً بارتياح:

- سأكتب أنا إفادتك. وإذا وافقت ستوقع عليها.

لم يكتب كثيراً بل صفحة ونصف الصفحة فقط، وخطه متعرج، فعلاً، وكتب بالذات ما قلته في تقريري، لكن فقط بأسلوب فصيح أكثر: «لم أستطع الاقتراب من البئر بسبب الثلوج والنار. فتركت السيارة في العراء. وذهبت مشياً على الأقدام. وأغلقت فوهة البئر مجازفاً بحياتي في

ظروف صعبة للغاية. وبهذا حلت من دون انتشار الحريق أكثر في المنطقة وحدوث كارثة بيئية وإلحاق الخسائر بالدولة. وعندما عدت إلى السيارة وقد غمرني الشرف وبشعور من أدى الواجب - لم أعثر لها على أثر. وقد أبلغت القيادة بهذا كله».

- موافق؟ إذن وقع. يجب علينا احتجازك خلال فترة التحقيق.

ذهلت بكل معنى الكلمة. وحتى لم أستطع التفوه بأي كلمة. واقتادني اثنان من الجنود إلى غرفة أخرى. وكما يجب: أخذا حتى رباط الحذاء، ومن ثم اقتاداني إلى القبو. لايوجد وضع أسوأ ما هناك. تسود هناك الرائحة النتنة والرطوبة والبرودة. حقاً جلبوا لي بعد نصف ساعة قنينة ماء وسترتين عسكريتين. لم أستطع النوم طوال الليل - كم من الوقت سأحتمل البقاء هنا؟ لحسن الحظ أخرجوني في صباح اليوم التالي، وأجلسوني في مؤخرة سيارة «وازيك» التي انطلقت بي. فيما بعد انطلقت إلى السجن في فلاديقوقاز. ولدى استقبالي هناك سأل مدير السجن المحلي ذو الشاربين القوقازيين، مندهشاً:

- هل هذا مسلح أيضاً؟

فأجاب المرافق: - يوجد هناك من أمثاله أيضاً.

كنت غاضباً، وقلقاً جداً، وجميع معاناتي ترتبط بشوفدا. لابد أنها عرفت. ماذا سيكون رد فعلها؟ مفهوم، كيف. كنت أخاف على مصيرها لاحقاً خوفاً لا يطاق. لكن عندما أدخلت في الزنزانة، تذكرت فوراً زيبا، كما وجدت لدي خبرة ما. لهذا حاولت تهدئة نفسي والتوكل على الخالق عز وجل في كل شيء. وكما يقال فكل ما يحدث هو نحو الأفضل. لا سيما وكما فهمت فإنه تجري هنا معاملتي بصورة خاصة. طبعاً، السجن هو السجن، والإنسان العادي، يشعر ببالغ الضيق والأذى هنا. لكن توجد لدي زنزانة نظيفة نسبياً وواسعة، وفي أول أمسية، وبعد العشاء، فتح الباب. وقال لي رجل طويل القامة قوي البنية:

- السلام عليكم.. إن أبي اوسيتي وأمي إنجوشية. يبدو أن هناك سوء فهم في قضيتك. قل - ماذا تحتاج؟

كانت لدي رغبة واحدة هي أن أهتف إلى موسكو، إلى شوفدا. لكنني لا أتجرأ على قول ذلك لكنه حدس ذلك.

بعد بدء موعد النوم سأجلب الهاتف النقال.. لكن تحدث فقط باللغة الروسية وليس أكثر من دقيقة. أنت تفهم...

رفعت السماعة صاحبة الشقة التي تعيش فيها شوفدا. ولدى سماعها صوتي صاحت:

شوفدا! شوفدا! هذا بابا على الهاتف!

.. الآن تتحدث شوفدا فقط وأجيبها بالثأثأة فقط، أما آنذاك فقد أخذت بتهدئتها، وأوضحت لها الوضع، وأنه سوء فهم مؤقت، بينما قالت والدموع تنهمر منها:

هل بسببه؟ - ونحن نفهم كلانا أن المقصود هو الأخ.

وأجبتها: - لا. تحدثي بالروسية فقط.. واهدأي.

إن هذا الحوار المقتضب بيننا كان يتم في اليوم الثالث بعد كل فترة يومين، وحين يكون في المناوبة السجان الطيب القلب ذاك. ففي هذه الأيام أشعر بالراحة تقريباً. ولو أن التعامل معي في الأيام الأخرى لا يتسم بالاستهزاء البتة إن لم يتسم بالاحترام. مع ذلك فإنني في وضع صعب، وأنا أعلم بأنه مهما صمدت فإنني لست في سن الشباب- وهذه الظروف عصيبة، وبالأخص الطعام في السجن هنا... ومع ذلك فإن المشكلة الرئيسة تكمن في الوضع النفسي. أنا لم أعد أفكر في نفسي - وهاجسي الوحيد هو ابنتي وابني. كيف حال ابني الجريح؟ هل هو على قيد الحياة؟ أين؟ كما أشعر بألم أكبر لدى التفكير بصدد ابنتي، إنها تقول:

- كيف سأعيش؟.. هل سأبقى وحدي؟ لماذا؟.. أنا لا أريد ولا أستطيع الحياة.

ماذا أستطيع أن أقول لها خلال دقيقة واحدة، وكيف أستطيع أن أجلب إلى قلبها الهدوء؟ أنا أتعطش إلى سماع صوت ابنتي شوفدا. إن صوتها البللوري الصادر من النبع، يجري كالغدير حيث يستقر الطمي، ويكتسب الصفاء لتوه، ولكن حالما تدوس جزمة الجندي يصبح صوت ابنتي شوفدا غريباً مجدداً، ولا يعرف مجدداً، وغليظاً مجدداً، إنه ليس صوتها... أنا أنتظر حين أستطيع الاتصال بها هاتفياً، وأخشى أن أسمع مجدداً تلك الشهقات، وذلك الصراخ الهستيري، لكن فجأة أسمع توليفة أصوات ما وجلة، وفي الحقيقة، غليظة، لكنها تقول بصوت خافت جداً:

- إنه هتف لي...

إن هذا النبأ مهم وحيوي، ويجب أن يعقبه فيض من العواطف وجملة من التساؤلات. لكننا لزمنا الصمت، وبغية التهرب من ذلك بشكل ما، غيرت موضوع الحديث بالقول: كيف أحوالك؟... وانتهى الاتصال.

لم أستطع النوم خلال الليل التالي كله. وازداد قلقي. ففي أغلب الظن أنه يجري التصنت على كل مكالمة، والآن ستصبح شوفدا نفسها تحت «الهدف». وهذا ما حدث. ففي اليوم التالي جرى استجوابي، وهو أمر نادر - فقد حدث ذلك مرتين فقط. وفي هذه المرة حضر محقق جديد - رجل كهل، أنيق جداً، تتألق أظافره بعد المانيكور، وكان يتحدث بالهاتف مع أحد ما، ويقهقه. وفهمت أن

الحديث يدور حول مأدبة في المساء في حمام، والمساجلات حول أسماء نسائية. وبعد أن أغلق الهاتف حياني بأدب، وطلب مني الجلوس، وبعد أن قلب أوراق ملفي الشخصي، عبس قليلاً، لكن ليس بما يدل على تعكر مزاجه. إنه طبعاً يختلف لحد ما عن الآخرين، لكنه خاطبني بلهجة مداعبة كالسابق قائلاً:

- إذن، شيء مفهوم، أنت لست من الشباب. بل حتى إنك رجل يستحق التكريم والاحترام، وقد ثبتت تقريباً إفاداتك السابقة. لكن لا أهمية لهذا كله الآن. فقد عثر منذ وقت بعيد على سيارتك المسروقة - لقد احترقت. وفي العشية تمت تصفية صاحبك...- عندئذ أكد بنبرة تشديد على هذه الكلمة - صاحبك روسلان وعصابته.

لحظتئذ التزم المحقق الصمت، ويبدو أنه لدى ملاحظة وضعي، قال:

- هل أصابتك وعكة؟

لم أجب، ولم أستطع الإجابة. فقد ازداد الألم الشديد في بلعومي ليس تدريجياً كالسابق بل في لحظة خاطفة، وضاقت أنفاسي. ولغرابة الأمر لم أفكر في روسلان بل في أمه أولجا سيرجييفنا وكلماتها الأخيرة: «أرجو أن تصون ابني. روسلان لعوب ولا يحب الجلوس في مكان واحد، لكنه طيب وشريف وساذج. إنه يفعل كل ما يدور في خاطره. أرجوك خذه بعيداً من هنا. أنقذه».

لكنني لم أنقذه. لم أستطع ذلك...

أما المحقق فقد حدس ما يدور في ذهني:

- ربما، أنت بحاجة إلى جرعة ماء؟

شربت الماء - فزال الألم. وأعترف بأنني فكرت لو كان ابني مع روسلان للقي المصير ذاته... لكنه هتف في العشية إلى أخته. ويبدو أن المحقق قد قرأ ما يدور في ذهني (ربما يوجد هنا جهاز ما ولن أعجب لذلك)، وسألني بهجة المداعبة ذاتها:

- قل لي رجاء قالت ابنتك في العشية: «إنه هتف». فمن هو الرجل الغامض الذي «هتف»؟

بدا وكأنني صعقت بتيار كهربائي. وشعرت مجدداً باختناق في بلعومي، حتى إنني طأطأت رأسي إلى الأسفل. وأظن أنني أردت، مثلما تحدثت أولجا سيرجييفنا عن روسلان، قول ما كنت أفكر فيه كما هو، لكنني لم أستطع التفوه بكلمة واحدة بسبب الاختناق في بلعومي. وقدم لي المحقق المهتم والفطن الماء مجدداً. وتحسنت حالتي مرة أخرى. وجدد طرح السؤال:

- من هذا الـ«هو»؟

إنني دهشت بكل معنى الكلمة: - هل تجيد اللغة الشيشانية؟

وجاء الجواب: - نحن نعرف كل شيء. طبعاً إن التنصت ليس شيئاً محموداً، لكننا نحمي مصالحنا.

- المصالح «الشخصية «أم مصالح الدولة؟

- إيه، عموماً أنا الذي يطرح الأسئلة، - كان مزاجه رائقاً كالسابق -، لكن أخذاً بنظر الاعتبار سنك ووضعك الحالي سأجيبك: في هذه الحالة أنا النائب العام أي الدولة. ودولتنا، مثل محكمتنا، هي الأكثر إنسانية وعدالة.

عندئذ ضحكت بسخرية.

- هل تذكر ذلك الفيلم؟

-لا وقت لدي للتفكير في الأفلام، - بينما واصل الكلام باللهجة ذاتها:

- لكنك تعرف لعبة «من يريد أن يصبح مليونيراً»؟

كان مزاجه ظريفاً جداً حتى إنه نهض وقال بصوت ينم عن الرضا:

فيما يخص سؤالي حول «من هو؟» أطرح أربعة بدائل: أ) الجار، ب) أحد المعارف، ج) أحد الأقارب، د) ربما الأخ، هـ) الخطيب.

طبعاً، كانت هذه لعبة. وكما يقال فإن الحياة كلها لعبة. ونهاية هذه اللعبة معروفة، عموماً. وقصارى القول إنها لعبة سيئة ومؤلمة وشعرت مجدداً بالاختناق في البلعوم:

- حم،- سعلت.

- وو! - وصفق المحقق بيديه. - أنت قلت «ج»- الخطيب. هذا الجواب صحيح! ولهذا تحصل على الجائزة الكبرى. بموجب المرسوم السامي منحت الجائزة تقديراً لما أبديته من بطولة في إطفاء الحريق. وقد نشر ذلك في صحيفة «روسييسكايا جازيتا». ووجهت لك الدعوة للمجيء إلى موسكو، وربما إلى الكرملين من أجل استلامها.

تغيرت سحنته حينما قال ذلك. ففي لحظة خاطفة أصبح صارماً وحاد القسمات. دنا مني وانحنى نحوي وأسر في أذني بما يشبه الهمس:

- نحن نعلم من هتف. ولكل شيء وقته وموعده. وتذكر - وصار يخاطبني بالمفرد - إننا نحدد قواعد اللعبة! ونحن نعرف أيضاً من يشجع ومن يكرم ومن يفوز.

4 مايو، ليلاً

كان اليومان السابقان باردين جداً. وحملت الرياح من الشمال السحب الرصاصية القاتمة. وخيم الضباب في كل مكان. بينما كنت أبتهل إلى الخالق ألا يحدث الزمهرير. وإلا ستذبل جميع البراعم والزهور. وسيحل عام الجوع بالنسبة إلى الحيوانات. كان المناخ قاسياً والحياة صارمة في الجبال. لكنني لا أتمنى شيئاً آخر غير هذا. أريد أن أحيا وأعيش هنا فقط. وأنا سعيد جداً بذلك. بالرغم من كثرة المشاكل المعيشية في الجبال. ويكون الوضع صعباً على الأخص لدى انقطاع الكهرباء. علماً بأن التيار الكهربائي ينقطع في أحيان كثيرة جداً - حين يكون الطقس سيئاً، وكذلك في حالة الصحو - الانقطاعات مستمرة جداً. يوجد لدي مولد، وحين أحتاج إلى الكهرباء فهو متوافر لدي، لكن هذا لا يعني أن الاتصال الهاتفي موجود. فالاتصال يتوقف على الشبكة العمومية. لهذا كابدت من هذا الوضع يومين - لم تستطع شوفدا الاتصال. طبعاً كان من الممكن بل من الواجب أن أنزل إلى القرية الكبيرة المجاورة. لكن وجدت لدي أشغالاً عاجلة، فقد بدأت بإصلاح الطائرة الشراعية. والعجيب في الأمر أن أي أحد لم يأت في الأيام الأخيرة، وعلى أقل تقدير، أنا لم أر أي أحد. بينما تعلم شوفدا في النمسا بأنني مشغول بالطائرة الشراعية.

ما حاجتك إليها، - كانت تعنفني ولو أنها ساعدت في شراء قطع الغيار، بينما أن أجيبها بالهمهمة الشديدة. ما أكثر سعادتي بسماع صوتها! وكم كانت سعيدة حين هتفت لها فوراً بعد الإفراج عني من السجن في فلاديقوقاز.

طرت إلى موسكو في أول رحلة قريبة، واستقبلتني شوفدا في المطار. لقد أصابها الهزال أكثر، وجف عودها تقريباً، وثمة دوائر زرق تحت عينيها- عانقتني وأجهشت في البكاء. تبادلنا الحديث طوال الليل حول الموضوع ذاته، بالرغم من أنه لم يوجد ما نتحدث عنه.

- هتف أخي. وتفوه بعبارتين فقط. إنه حي يرزق - ومعافى. وكل شيء لديه على ما يرام.

وأعدت سؤالها أكثر من مرة: - من أين هتف؟

لم يقل. لكنه كان يعرف كل شيء عنك. وحتى قال إنه سيفرج عنك قريباً.

- وكيف عرف رقم هاتفك؟

- لا أعرف.. ولكن قبل ذلك بيومين هتف لي فجأة..- وذكرت اسم حفيد العم جيخو.

فدهشت: - ماذا تقولين؟! ولكن كيف عرف رقم هاتفك؟

- قال إنك أعطيته، وعموماً أنا لم أره منذ وقت بعيد.

- أنا لم أعط رقمك إلى أي أحد.. وماذا قال؟

- قال إنه يريد أن ألتقي معه. وحددت له موعداً في المعهد الموسيقي، لكن تبين أنه كان ينتظرني هنا في الفناء.

- وكيف عرف عنوانك؟

- لقد سألته. فضحك وقال إنه يعرف كل شيء... إنه مزهو بنفسه، ويتباهى ليلفت إليه الأنظار. اعذرني، يادادا، فإنا أعرف أنك تذكر بالخير جميع أبناء وأحفاد العم جيخو، لكن هذا شخصية غريبة...

- وماذا قال؟

- قال إنه أنقذ أخي وساعده في التسلل إلى الخارج.

- وأين هو؟

- أين - هو لا يعرف الآن. لكنه سيسافر بعد أيام إلى جورجيا وتركيا - وسيجد أخي هناك. وسينقل تحياتي ورقم هاتفي إليه.. يبدو أن هذا ما حدث - فقد هتف أخي بعد يومين.

- هل التقيا؟

- لا أعلم. لكن أخي عرف رقم هاتفي.

- وذاك لم يهتف أكثر؟ - وقصدت بذلك حفيد العم جيخو.

- لا... لكن قبل ثلاثة أيام، وبالذات في اليوم الذي هتف فيه أخي، ذكروا في التلفزيون أنه تم القضاء على عصابة من المسلحين - وراحت تبكي. بكت فترة طويلة. ثم همست وسط الدموع بحزن:

لقد قتل روسلان... لقد عرضوا جثته الممزقة والملطخة بالدم... كما عرضوا صور اثنين من المسلحين من هذه المجموعة وقعا في الأسر. وعرضت على الشاشة صورهما وذكر لقباهما. وهذا (حفيد العمو جيخو) كان عدواً شريراً ودليلاً لهم أيضاً. ومنذ أيام عاد من مركز التدريب في جورجيا. هذا ما أذيع. ولو أن مظهره البدين والمنعم كما رأيته هنا لا يشبه البتة المسلحين الذين يحاربون في الغابات.

وسألت: - من كان الأسير الثاني؟

- أنا لا أعرفه.

- الآن تعرف. - لقد كان شرطي المحلة عندنا. وأنا استفسرت من هذا الشرطي وقائع الأحداث تلك. فروى إن روسلان أراد كما يبدو الخروج من هذه «اللعبة»، بعد أن أدرك جوهرها. ووعد حفيد العم جيخو أن يقابل فصيلتهم في غابة كثيفة في أطراف فيدينو. وكان المقرر أن يجلب الأخير خريطة عبور سلسلة جبال القوقاز إلى جورجيا، آخذاً بنظر الاعتبار الفترة الشتوية الصعبة. لكن روسلان اشتبه بالأمر ولم ينتظر مجيءالحفيد، وتحرك فوراً نحو الحدود. لكنهم لم يلحقوا في الوصول إلى هناك- فقد كانوا بانتظارهم. فحامت المروحيات فوق رؤوسهم في المروج الألبية بالقرب من قريتنا... وكما روى شرطي المحلة فإنه رأى حفيد العم جيخو لاحقاً في الزنزانة. وقد إنهال بالتهم كافة على روسلان بوصفه أنه أراد الهرب، وجبان وخائن... بعبارة أخرى إن الغائب مذنب دائماً.

.. بت تلك الليلة عند شوفدا في الشقة التي تسكن فيها، ولم تسمح لي بالانصراف - فقد كان الوقت متأخراً جداً. وأرادت مع صاحبة الشقة أن تفرشا لي في غرفة الاستقبال على الديوان - لكنني رفضت ذلك بشكل قاطع، وغفوت جالساً في مقعدي. وفي الصباح حين تناولنا طعام الفطور أبهجتني صاحبة الشقة وهي في الوقت نفسه معلمة شوفدا بقولها:

- إن ابنتك رائعة.. يمكن قول ذلك في حضورها. إنها مساعدتي. والآن تكشف جانب آخر في موهبتها هو قدراتها في التلحين.

إنني نسيت مصائبي كافة لدى سماع هذه الكلمات، وغمرتني السعادة. ثم واصلت الحديث:

- شوفدا، يانبعنا، اعزفي ما لحنته.. لكن فقط بلا دموع... لكن كيف، لا تبكي- فأي كلمات، وأي حب!

ارتبكت شوفدا، وأطرقت برأسها.

- فيما بعد، في المرة القادمة.

امتعضت المعلمة وقالت: - شوفدا! كم من المرات علمتك. عندما يطلب من الموسيقار أن يعزف، بينما هو يرفض ذلك، فهو إما موسيقار سيئ، وإما يعتبر أن الجمهور غير جدير بسماع عزفه. أنا أعلم بإنك أستاذة تقريباً. وهذا يعني أنك تعتبرينا غير جديرين... هيا استجمعي قواك، وارفعي غطاء البيانو الكبير. على الأقل اجلبي المسرة إلى أبيك.

نهضت بتثاقل كم لو أن في قدميها قيوداً ودنت بصعوبة من الآلة الموسيقية. وجلست. لم تبدأ العزف فترة طويلة وكانت تتطلع إلى مفاتيح البيانو كما لو أنها تراها لأول مرة. نظرت إلى وجهها

من الجانب، وكانت الدموع تنحدر على خديها. وصارت قطرات الدموع الكبيرة تتساقط على فستانها... وفجأة انفجرت الموسيقى- وكأنها تمرد واحتجاج، ثم هبطت الألحان بانسياب، وبدأت بالغناء. أنا حتى لم أحتفظ في ذاكرتي بتلك الكلمات، الكلمات حول الحب المشوب بالحنان، إنني تذكرت في تلك اللحظة أمها، ومدى معاناتها، وأحلامها، بينما لم يقدر لها أن تسمع غناء ابنتها. وذرفت الدموع أيضاً لدى سماع هذه الألحان والذكريات، وشعرت بنوع من الارتياح، حينما أنشدت المقطع الأول نهضت وجرت إلى الغرفة الأخرى.

قطعت صاحبة الشقة حبل الصمت الناشئ بقولها: - لقد كان فتى طيباً. كان يمكن أن يصبح شاعراً مجيداً. حسب علمي أنك كنت تعرفه.

تطلعت بدهشة إلى المتحدثة، كما لو أنني استيقظت من نومي، بينما تابعت قولها:

- اسمه روسلان.. لقي مصرعه منذ أيام. ما أكثر ما انتحبت.

أما أنا فقد ذهلت. لقد تبين أن أحلامي كافة حول روسلان وشوفدا لم تظهر هكذا وحامت في الجو..

حينما خرجت (كان يجب أن أذهب منذ الصباح إلى المديرية العامة) فإن شوفدا حتى لم تخرج لوداعي. لكنها لحقت بي في الباحة - بعد أن هدأت وغدت حازمة وبالغة في السن.

إنك لن تذهب أكثر إلى جمهورية الشيشان؟- قالت ذلك بابتهال، بينما كنت أفكر في شيء آخر، فقد أجريت بعض التحريات:

- ذاك الشخص...، - وذكرت اسم حفيد العم جيخو - جاء إليك إلى هنا في هذه الباحة؟

- نعم.

- من كان معه أيضاً؟

- لا أعرف. كانت هناك سيارة «جيب» سوداء. وزجاجها معتم كلياً... أعطاني الزهور وألف دولار. وقال إن أخي أرسلها.

- هل أخذتها منه؟

- لقد أرسلها أخي.. هل أنت بحاجة إلى النقود؟ لم أمسها، بينما رميت الزهور فوراً.

- لماذا؟

- لا أعلم.. لم تعجبني... وأظن أن أخي لا علاقة له بالزهور.

وفجأة قلت: - متى رأيتِ روسلان في آخر مرة؟

- أطرقت برأسها، وأصابها الحزن كلياً، وانصرفت.

4 مايو. ليلاً

أستطيع إيراد شيء من الحصيلة النهائية للأحداث. وأذكر، بصدق، إنني أقول ذلك من دون أن يراودني شيء من الحزن والأسى. وحلمي الوحيد أن أبقى حتى النهاية قادراً على الحركة والعمل وبغية ألا يتولى أحد رعايتي وحمل وعاء البول من بعدي... وأمل أن أتدبر ذلك بنفسي. ولهذا أقوم بإصلاح طائرتي الشراعية. وإذا أردت ذكر الحصيلة فأنا راضٍ عن حياتي. أنا راضٍ حتى إذا ما بقيت حياً حتى الصباح، فسأرى عند الفجر مجدداً جمال القوقاز الرباني، وأستنشق عبير زهور البرسية الألبية المتفتحة وأشرب ماء النبع، ولو بواسطة القسطر، الماء الجاري من تحت طبقات الجليد الأبدي مباشرة.

أليست هذه الجنة؟! الجنة على الأرض. إننا حصلنا على هذه القطعة الرائعة من الأرض. ربما توجد في الأرض أماكن أكثر سناء، لكنني لم أشاهدها. حقاً، إنني لم أتجول في رحلات كثيرة. وسافرت إلى الخارج عندما بلغت سن الكهولة. لكنني أستطيع القول إنني زرت نصف الكرة الأرضية الآخر -كوبا. نعم، أنا زرت كوبا. فقد وقع هذا الحدث العرضي بصورة مفاجئة. إنه حادث عرضي لأن رحى الحرب تدور، وابني جريح ولا يُعرف أين مكانه، وابنتي وحيدة، من حيث المبدأ، بموسكو، بينما عرض عليّ أن أسافر إلى كوبا. ووقع الحدث كالتالي: جرى في المديرية العامة، وليس في الكرملين، اجتماع احتفالي منحوني فيه ميدالية «لقاء الاجتهاد في العمل»، كما أعطوني علاوة مالية، وكان ذلك مبعث سروري لحاجتي إليها - كنت دائماً أعاني من قلة الموارد، لأنني كنت أعيش براتبي وحده. وهذا يمثل «لعنة تقريباً»، وكما جاء في المزحة السوفيتية «أتمنى لك أن تحيا براتبك فقط». وعموماً دعاني نائب رئيس مؤسستنا بعد الاحتفال، وهو موظف من الطراز السوفيتي (بالمفهوم الصائب لهذا التعبير). والشيء الرئيس إنه من أبناء جروزني، وعمل مثلي في تركمانيا في وقت ما. حقاً، لم تربطني به المعرفة آنذاك، لكن الآن بصفته من أبناء مدينتي قد ساعدني كثيراً، فسألني عندئذ:

- ماذا ستفعل هل ستعود إلى جمهورية الشيشان مرة أخرى؟

فدهشت: - إلى أي مكان أذهب إذن؟

- ذهابك إلى هناك الآن لا يخلو من الخطر.. فأنت لا تعرف كل شيء. هذا ما يحدث دائماً، الآخرون يعرفون أكثر منك عما يدور نحوك... من حيث المبدأ، أنت تعرف.. لكن إدراكك يرفض ذلك، ولا يصدق احتمال وقوع ما يحدث، لكنه يقع. إن الإفراج عنك من السجن هي معجزة صغيرة. ونحن بذلنا جهدنا.. لكن هذا لن يتكرر.

- يجب عليّ أن أحيا وأعمل.. وابنتي هنا. وموسكو مدينة غالية. بينما أنا لا أمتلك شيئاً. وكل أملي في راتبي... أم يوجد عمل هنا؟

- لا، - ودنا نائب الرئيس مني ووضع يده على كتفي بمودة، - لايوجد عمل للشيشاني... لكن لدي عرضاً لك. نحن نرسل مجموعة من الخبراء إلى كوبا.

فرفضت على الفور بقولي: - ما هذا القول!

وهزني من كتفي: - لا تعجل في الرفض. فكر في الأمر ملياً. في الأحوال كافة لا يجوز لك السفر إلى جمهورية الشيشان. في أفضل الأحوال سيزجون بك في السجن مجدداً. وربما لفترة طويلة... يجب الانتظار.

- ولأي فترة؟

- على أقل تقدير لمدة ثلاثة أشهر، وربما لفترة عام.

سأفكر في الأمر، - إنني لم أرفض هذا العرض المغري جداً فوراً، لكنني كنت على ثقة بأنني لن أسافر لأن شوفدا لن تحتمل هذا الفراق. وقلت لها ذلك فحسب، لكنها أجابت على الفور:

- دادا، سافر، رجاء. حتماً! إنك ستنال قسطاً من الراحة، وتستجم. وترى العالم.

هكذا وصلت إلى كوبا بلا توقع البتة. نحن كنا في مقعد الدراسة نردد أنشودة - «كوبا - حبي!»، بينما كانوا يدخلون في أدمغتنا إن «كوبا - جزيرة الحرية!». وأنا لسبب ما لم أكن أعرب عن التعاطف الشديد مع فيديل كاسترو، لكن معبودي طوال حياتي كان تشي جيفارا، وعندما حصلت لأول مرة في حياتي على مسكن خاص بي، وهو حجرة صغيرة نسبياً، في المبنى السكني العمومي، علقت على الجدار هناك فوراً صورة البطل. وأذكر أنني حين مررت بموسكو اشتريت في محطة القطار بمبلغ زهيد فانيلا عليها صورة جيفارا. وبعد أن غسلتها أول مرة محيت الصورة، وقد حزنت كثيراً - فهل يمكن حدوث ذلك لبطل عظيم؟!

هأنذا في كوبا.. كان أول ما أحسسته، وحتى فزعت منه هو أن الموسم عندئذ شتاء، أواخر فبراير، بينما القيظ لا يحتمل. وقيل لي إن الصيف هنا مثل حر جهنم. وفور ذلك قارنت كوبا بموطني في القوقاز- لدينا جنة على الأرض فحسب، ونحن لا نستطيع تثمينها كما يجب. لكن كوبا مكان جميل أيضاً، إنها جميلة جداً وحتى غريبة وغير مألوفة. وشعبها بسيط فيه شيء من السذاجة وعزة النفس والكبرياء. إنه يعتز بتاريخه، وبما يسمى رسالته. فهذا أمر عجيب أن يستطيع شعب تحت أنف أمريكا الإمبريالية القيام بثورة والاستيلاء على السلطة وقيادة الشعب نحو المساواة والاشتراكية والحرية. ولهذا توجد في كل مكان صور معبود الجميع تشي جيفارا. لكن هذه فقط أولى الانطباعات الخادعة جداً. أنا لم أعد صبياً، وشاهدت الكثير، وأعرف أن الثورات ولا سيما الحروب هي - شر. وما تشي جيفارا هذا، مثل «المعبودين - الأبطال - القادة الميدانيين

-الجنرالات» عندنا، ليس سوى مشروع خاص لأفراد أثرياء جداً ويتسمون بالوقاحة والجشع، الذين يريدون السيطرة على العالم والبشر. وحالما وصلت إلى كوبا علمت أن المنتفضين - الثوار بقيادة فيديل كاسترو الذين جاءوا من أمريكا، استولوا على قسم من الجزيرة، بينما تركوا إلى الولايات المتحدة القسم الأوسع، والأكثر أهمية وقيمة استراتيجية هي منطقة غوانتانامو. إن المكسب الرئيس للثورة الكوبية هو الفقر الفظيع. وثمة إحصاءات بسيطة - كان عدد الأطفال بالنسبة إلى المرأة الواحدة في عام 1963 يعادل - 5، وفي عام 2000 يعادل - 5ر1، إن أبناء الجزيرة يحلمون بالهروب منها. لكن الطريف أنه في حالة تسلل كوبي إلى قاعدة غوانتانامو يقوم العسكريون الأمريكيون بتسليمه إلى السلطات الكوبية، وعندئذ يطال العقاب الشديد الشخص الهارب وجميع أفراد أسرته ومعارفه وأقربائه. حقاً، إذا ما استطاع الكوبي عبور خليج المكسيك إلى ميامي، وهذا يعادل مسافة نحو مائة ميل، يضمن له اللجوء في الولايات المتحدة - باعتبار أنه جدير بذلك وابتسم له الحظ. لأن العبور صعب جداً ويقترن بالمخاطر بسبب وجود رجال خفر السواحل والكواسج والتيار البحري والعواصف. ويسمي الكوبيون أنفسهم هذا الخليج بالمقبرة.. ومع ذلك فإن الكوبيين يعيشون، وحتى يحسنون تسلية أنفسهم والمتع بالحياة، فالإنسان يعتاد على كل شيء، لا سيما إذا ما كان يؤمن بالمستقبل الوضاء والمساواة والعدالة الاجتماعية التي تنتصر في كوبا حسب اعتقادهم. ولدى الحديث عن الأخير ينبغي التنويه بواقع بسيط هو الاستهزاء التام والتمييز الذي لم يفكروا به حتى في الاتحاد السوفيتي. ويتمثل ذلك في أرقام السيارات. فإن أرقام السيارات الحكومية صفراء، أما أرقام السيارات الشخصية فهي عتيقة ومن سقط المتاع وعددها قليل جداً فهي زرقاء. وأرقام سيارات الأجانب حمراء. أما أرقام سيارات العسكريين والشرطة فهي سوداء، علماً بأن سياراتهم غالية الثمن وجيدة جداً. وأخيراً هناك سيارات النخبة، من زعماء الثورة، وأرقامها - بيضاء. والأخيرة عددها قليل جداً ونادراً ما تتنقل لكن متوسط أعمار أعضاء اللجنة المركزية يتجاوز السبعين عاماً. وعموماً ما دام فيديل كاسترو على قيد الحياة فإن الاتفاق أو مشروع «كوبا - جزيرة الحرية» يبقى ساري المفعول. وهنا بات مفهوماً تماماً لدي حتى النهاية - من هو تشي جيفارا وكذلك الشخصيات من أمثال خطاب عندنا وغيرهم من «الأبطال الشعبيين المراوغين». ويمكن الكتابة كثيراً عن كوبا لكن ليس للاستجمام ولا لتناول الموضوع. بل لمجرد المقارنة مع جمهورية الشيشان. وأعتقد أن كوبا وثورتها هي مشروع فظيع. ففيه كثير من الأهداف والمهام من - الصناعية - العسكرية إلى الأيديولوجية. لكن المهام الرئيسة تكمن في أن يوجد مثال يحتذى به في مكان قريب جداً، وكذلك في جميع نصف الكرة الأرضية الغربي، - ألا وهو ما يقود إليه الطاعون «الأحمر» والاشتراكية والسعي إلى المساواة والعدالة الاجتماعية. طبعاً لا يمكن مقارنة كوبا بجمهورية الشيشان وذلك لاختلاف النطاق والأهداف. لكن أي انقلاب، وأي ثورة، مهما كانت شعاراتها خيرة - تقود في النهاية إلى الشر! أنا امتحنت بهذا كله، لكني لم أحتمله. وبدا أن الزمن وبعد المسافة سيمحيان جميع المصائب. هذا صحيح لحد ما - فقد تمتعت قليلاً بالاستجمام وتسليت، ورأيت العالم، وحتى استلقيت تحت أشعة الشمس وسبحت في البحر، ومارست صيد السمك، وشاهدت الكثير والكثير من الأشياء الظريفة. لكن تنامى لدي أكثر فأكثر الشعور بالوحدة والحنين إلى الأبناء والوطن.

لقد أردت جداً العودة إلى جمهوريتي، وحتى ما كانت عليه من قبل. واشتقت كثيراً إلى الجبال العزيزة لدي. بالأخص حين اقترب موسم الصيف، - ساد القيظ فحسب، كما في تركمانيا، لكن

الرطوبة عالية هنا، والعمر له أحكامه. صفوة القول، إنني كتبت طلب الرجوع بالرغم من عدم صعوبة العمل كلياً، والراتب المزدوج، وطلب شوفدا ونائب المدير العام مني البقاء فترة أخرى، حتى تهدأ الأوضاع في جمهورية الشيشان كلياً.

5 مايو، ليلاً

في الليل. غفوت قليلاً، وهدأت والآن بدأت أفكر بشكل يقظ كما أعتقد. أنا أفكر في أن الغضب ومشاعر الانتقام هي أسوأ رفيق للإنسان وأكثره ضرراً. فهل يجب ويمكن أن أنتقم من أحد؟ أنا لست صغيراً في السن وأعرف حق المعرفة أن الزمن نفسه، وطبعاً العلي القدير سيضع كل شيء في مكانه، وسينال كل فرد ما يستحقه. وبضمن ذلك أنا والآخرون. ومجمل القضية أنني أدركت في العشية وفقاً للبشائر كافة أن النهار سيكون رائعاً، وربيعياً بحق، وخططت للذهاب حالما تطلع بشائر الفجر إلى الجبال للبحث عن قطيع جيادي، كما يجب إطعام الجياد بالملح. وفي الوقت نفسه سأتنزه، وأكسب قلبي وساقي بعض الجهد في الحركة. وأملأ القصبات والرئتين بالهواء الألبي النقي والعذب. وإذا لم يتوغل القطيع بعيداً جداً في الجبال، بينما ما زالت الثلوج الكثيفة متراكمة في الذرى العالية، وإنها لن تذهب إلى هناك، فسأعود في موعد الغداء. وساستريح قليلاً، بعد دفء القيلولة، - وحين تغدو نحلاتي أكثر طيبة-، سأنهمك بالعمل في المناحل، فيجب تنظيفها قليلاً بعد موسم الشتاء، ومجرد فحصها، وفي الوقت نفسه الانحناء فوق المنحلة المكشوفة، واستنشاق عبير الرحيق، فهو نافع وحلو وطيب جداً. وبحلول المساء، وحسب خطتي، أنهض وأواصل إصلاح طائرتي الشراعية. قبل يومين لصقت جميع العقد الرئيسة وانتظرت أن يتصلب الصمغ كلياً وأن يصبح الهيكل الذي يحملها متيناً. وفي المساء وبمثابة «التحلية» أجري الاتصال الهاتفي مع شوفدا - عندئذ يكون الاتصال أفضل، بالأخص إذا كان الطقس جيداً. وكالعادة ستستفسر كل شيء عني وتأخذ بتعنيفي: «ما حاجتك إلى هذه الطائرة الشراعية؟ متى ستأتي إليَّ؟ أرجوك، تعال». وسأجيبها بالهمهمة الشديدة، لأنني أرسل لها رسالة موجزة- «قريباً، حالما أنجز بعض الأشغال سأسافر إليك جواً».

- أترك كل شيء، وبعه واعطه- وسافر إلى الأبد... لا يجوز العيش هناك، إنه خطر، ضار.

فاجيبها: - نعم، نعم.

كانت هذه خطة اليوم. وهكذا بدأت. استيقظت لأداء صلاة الفجر، وبعد ذلك انطلقت ماشياً في الطريق، قبل أن تطلع الشمس. وبغية أن يكون المشي سهلاً لدى حمل الملح وبندقية الصيد لبست ملابس خفيفة جداً، بينما كان الجو بارداً عند الفجر. وعندما تسلقت الجبل قليلاً، وبالأخص عند

المعبر، بدت قطرات الطل في زخات فوق المنحدرات الألبية الخضراء. وطلعت الشمس ببطء وبتكاسل. إن المناظر في الجبال في أي وقت ساحرة ولطيفة وجميلة. لكنها في الساعات قبل الفجر وفي الصباح تبدو غامضة وساحرة كلياً. وتتلاعب شتى التلاوين وجميع الألوان من عتمة وبرودة الفجوج العميقة التي لا قرار لها إلى ذرى الجليد الأبدية المتلألئة بلهب وردي نضر في الأعالي. وفي الغرب ما زال معلقاً في السماء الهلال الخجول ذو الجناح المدبب، بينما يتألق بنور خفيف إلى جانبه وكأنه صديقه، كوكب الزهرة، بلون أبيض، وفي المقابل يظهر بهدوء القرص الساطع الكبير للشمس صاحبة الحياة. ويسود المكان هدوء رباني يجلب الاطمئنان إلى القلوب، ويبدو من قمة هذا المعبر مشهد مذهل، حتى إنني لم أشبع من النظر إليه، كما لو أنني أراه في أول مرة. لو مشيت خطوتين نحو الأسفل لسمعت هدير محركات ما يشتد أكثر فأكثر. جمدت في مكاني. وأصخت السمع. الهدير يأتي من مكان بعيد. وبدا مفهوماً أن هذه السيارات تتجه إما إلى بيتي، وإما إلى فسحة الجنة، ولا يوجد بعد ذلك طريق. إذا كان قصدهم المجيء إلى بيتي فسينتظرون أم سيعيدون الكرة ويأتون ثانية، وإذا كان مقصدهم «فسحة الجنة» فسأرى هناك حفيد العم جيخو - الحفيد السافل.

هذا معنى الغيظ والانتقام اللذين يقودان إلى غيبوبة العقل! إنني حتى لم أمعن الفكر في ذلك. فأفرغت الملح من الكيس فوراً - ليأكله من قدر له ذلك، وربما جيادي أيضاً. ويجب عليّ الإسراع إلى المكمن. وأريد أن أحمل بيدي ليست بندقية الصيد البائسة ذات الماسورتين، بل بندقية القناصة الحبيبة - إنها قاتل محترف ممتاز. أريد أن أطلق النار. أريد أن أقتل.. سأطلق رصاصة واحدة فقط... كلا. المشط بأكمله. كما أطلق على ابني مشط الرشاش الكامل. كان هاجسي الانتقام، فهرولت فحسب راجعا، ولحسن الحظ كان الطريق يمضي إلى الأسفل أكثر. وولجت البيت للحظة، فالقيت بندقية الصيد جانباً، وأخذت المنظار. أما بقية عدة القنص فتنتظر في المكمن منذ وقت بعيد لحظة استخدامها. وزحفت على أربع بكل معنى الكلمة هناك لكي لا يراني أحد. يبدو المنظر أوسع في المنظار، والرؤية فيه أفضل، فمسحت العرق الكثير من عيني، وحالما نزعت الغطاء عن بندقية القناص تطلعت في منظارها. جاء عدد كبير جداً من الأشخاص في سيارتي «جيب» وسيارة «واز» وشاحنة. وصاروا يفرغون الحمولات ويقومون ببعض الأعمال ويرتبون المكان - بدا بجلاء إنهم يستعدون لأمر ما، لكن لم يوجد بينهم حفيد العم جيخو.

كانت الشمس لا تزال عالية في السماء، حينما أنجز القادمون مهمتهم ثم انصرفوا. بينما راودتني الآمال في قدوم شخص معين وبقيت جالساً هناك حتى الغسق. فرحلة الصيد لم تكن ناجحة. لكن هؤلاء الأصحاب يجيدون حماية أنفسهم، وبلا كسل. ربما إنهم حتى نصبوا كاميرات في فسحة الغابة. ولهذا أخفيت سلاحي بعناية، وانصرفت كما جئت زاحفاً تقريباً على أربع، ومضيت في اتجاه آخر بغية ألا يلاحظني أحد. وعندما بلغت الطريق لم أرغب، لسبب ما، في الذهاب إلى البيت الفارغ. إذ صارت الكآبة تضيق الخناق عليّ، فسرت بالرغم من تراكم السحب، إلى المقبرة.

القدر. الانقلاب. الحرب. إنها سحقت حياتي وكأنها مدحلة حديدية. وتدفن هنا فقط أشلاء زوجتي وأولادي. إنهم قتلوا جميعاً. وكان ينبغي من حيث الفكرة - ليست الفكرة العقلانية بل حسب التقاليد والعادات الشيشانية - أن أنتقم للجميع. لكنني لسبب ما لا أفكر إلا في الأصغر. فوقفت عند قبره

وأقسمت مرة أخرى بأن انتقم له، لأنه قتل بغدر وبخيانة. أنا لا أعرف فيما إذا سيتسنى أو لا يتسنى لي ذلك - لكن في الأحوال كافة أنا لم أعد من الأهل هنا بعد هذه المحاولة. أنا مستعد لذلك، كما أعتقد. منذ وقت بعيد، قبل سنتين، أشار الملا عندنا إلى المكان الذي سأدفن فيه. الجميع سيكونون سوية. لكنني أشفق فقط على شوفدا...

أذكر أنني كنت في الطريق جواً من هافانا. وقد تأجلت الرحلة لفترة ما، وهبطت الطائرة في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل في مطار شيريميتيفو، وهناك اعتقلوني على الحدود مباشرة. واقتادوني كالمجرم إلى مكان ما هناك. وقالوا إنني موقوف لحين استيضاح بعض الأمور. وبدأ استيضاح الأمور فقط بعد الساعة الثامنة صباحاً حينما جرى تبديل الموظفين ومجيء الرؤساء. اقتادوني إلى غرفة أخرى حيث يجلس عقيد. إنه لم ينطق بكلمة بل تصفح ملفاً ما فيه صور أشخاص أكثرهم ملتحون، والصور بالأسود والأبيض، وثمة عبارة قصيرة وإلى جانبه ختم بلون بنفسجي. لكن بدا لي أنني رأيت في إحدى الصفحات صورة روسلان. ودفعني الفضول إلى أن أمد رقبتي نحوها لكن الضابط قال بلهجة صارمة:

- أجلس بهدوء.

بعد ذلك صار يمسك الصفحات بحيث لا أستطيع رؤية ما فيها. وبعد أن قلب عدة صفحات وجد ما كان يبحث عنه. وراح يتفحص ما فيها فترة طويلة وأحياناً يرنو باتجاهي. شعرت بالضيق، إن هذا البلعوم اللعين يؤلمني مجدداً. لكنني استطعت أن أقول:

- دعني أراه أيضاً.

- أجلس! - ونهض، وحمل جميع هذه الأوراق، من دون التفوه بكلمة، وخرج.

وبعد مرور دقيقتين دخل ضابط آخر، وقدم لي جواز سفري وقال: - يمكنك الذهاب. أنت حر... المعذرة.

فقلت بصعوبة: - هل يمكن أن أشرب الماء؟

- نعم تفضل. المرحاض هناك.

كنت فعلاً بحاجة إلى المرحاض. فقد كابدت الألم من النواحي كافة. وعندما خرجت إلى الصالة لم أفقه شيئاً ما يدور حولي، كما لو أنني أصبت برض في دماغي مجدداً. ومشيت وكأنني في قصر التيه في الممرات الطويلة الخاوية، ربما اتبعت بصورة تلقائية إشارة «المخرج». أنا كنت في حاجة إلى مخرج، إلى أي مخرج من هذا الوضع كله. إنني لا أفكر جيداً البتة، وثمة مرارة في الفم والبلعوم. لا يوجد أي أحد في المكان، وأنا في وحدة تامة، روحياً وزمنياً. إن حالتي سيئة وصعبة جداً. بينما أواصل المشي في هذه الممرات الزجاجية. وكنت أتوقف أحياناً في حيرة وأتلفت فأرى في الزجاج المضبب انعكاس صورتي المبهمة: مجرد ظل. أنا أفهم بأن هذا ليس خداعاً بصرياً في

المرآة، بل حالتي الكئيبة- فهذا أنا، صورتي الحقيقية، بينما أشعر في صدري بعتمة أكبر - ألم ممض، وصعوبة في التنفس، وأسير بجهد، لكنني أحاول المشي، أمشي باتجاه سهم «المخرج»- فهناك المخرج من هذا السعير وهذا الكابوس. وعندئذ أستيقظ وأستعيد فكرة أن هذا كله خيال وبعيد عن الحقيقة - فإن ابني لم «يعدم» وهو حي يرزق. وأنا أبتهل إلى الله من أجل هذا فقط. ثم أسمع بمثابة مكافأة لي ضجيجاً ما وحركة وأصواتاً - فالمخرج قريب. وسددت الخطى بسرعة، وعلى حين غرة تردد صوت طرق على الزجاج، وتطلعت إليه - كانت هناك ابنتي شوفدا، إنها تبكي وتبتسم، وتدعوني إليها. أنا لا أستطيع عبور الزجاج، لكنني حتى فرحت. كما فهمت يبعد المخرج نحو خمسين متراً. بينما أريد أن أهرول للوصول إليها، هي الكائن العزيز الوحيد لدي. لكن بدا لي أنني ثبت إلى رشدي لدى رؤيتها. فأنا لا أريد ولا أستطيع أن أبدو أمامها بمظهري الحالي. يجب أن أسيطر على نفسي. وصرت أبحث مجدداً عن المرحاض الرجالي. وهناك نظرت في المرآة، في المرآة الحقيقية وليس في الزجاج المضبب. لا يوجد أي فرق. ففي العشية، في كوبا، بدا أمامي وجهاً ملوحاً بالشمس وحتى محمراً، أما الآن فأرى وجها بشعاً عابساً، والكتفان متهدلان فحسب. حاولت محو هذه البشاعة، وغسلت وجهي فترة طويلة. وعندما تطلعت في المرآة حاولت اصطناع ابتسامة مرتين. ويبدو أنني أفلحت في تغيير سحنتي. لقد أفلحت لأنني كنت أود جداً رؤية ابنتي واحتضانها.

- دادا ماذا حدث؟! إنني قلقت جداً. - كانت فرحة ومجهدة، وصوتها مبحوح - لقد خرج الجميع منذ وقت بعيد، فيما عداك.

قلت بامتعاض: - ماذا تفعلين هنا؟

- أردت أن أراك بسرعة. بينما كانت رحلتك تتأجل باستمرار. ولم ألحق في ركوب المترو.

- هل أمضيت الليل كله هنا؟

- نعم، وكنت أنتظرك على أحر من الجمر... هل احتجزوك؟

- حدث سوء فهم،- أردت تغيير موضوع الحديث، - كان الأولى بك أن تأخذي سيارة أجرة.

- أنا أخاف ركوب سيارة الأجرة ليلاً. كما لا تتوافر لدي النقود.

- كان بوسعك الذهاب في السيارة إلى صاحبة الشقة، والاستدانة منها.

- أنا لم أقل لكيلا تقلق، إنها توفيت منذ شهرين. - ذرفت شوفدا الدموع.

بينما أنا ذهلت نفسي:

- وأنت أين تعيشين؟

- أنا أذهب إلى هناك في كل مساء. لكي أسقي الزهور وأطعم الأسماك والقطة. كما أنتظر المكالمات منك ومن أخي.

- هل هتف؟

- لا .... أنا قلقة جداً، - وبدأت بالبكاء مجدداً وقالت عبرالدموع المنهمرة:

- إنني فقط أرى ماما في الحلم في أحيان كثيرة. بينما لا أرى أخويَّ أبداً. لكنني رأيت في الحلم أخي الأصغر بعد رحيلك بعدة أيام. - وغشيت وجهها سحابة من الغم الشديد.

أنا لم أقل لها شيئاً، لكنني رأيته في الحلم في اليوم نفسه أيضاً، وفي منتصف الليل أصابتني مجدداً نوبة ألم في البلعوم، وغلبني الحزن حتى إنني رغبت في السفر ال جروزني فوراً- لكن لم تتوافر لدي النقود. ولكن بدأ مجدداً العمل المعتدل، والحياة المستقرة الخالية من الهموم تقريباً، فهدأت تقريباً. وها آنذا في موسكو. وما أكثر الأخبار والمشاكل. لا يجوز لي أن أفزع، وحاولت تغيير موضوع الحديث:

- ماذا حدث لمعلمتك؟

تدهورت حالتها. فاستدعيت «الإسعاف». لكنها لم تبق على قيد الحياة حتى بلوغ المستشفى.

- وأبناؤها؟

إنهم يتخاصمون الآن بسبب الشقة. وقد طرحت للبيع. وطلبوا مني البقاء والعناية بها لفترة من الزمن... لكنني أخشى البقاء هناك لوحدي. لذا أبيت ليلاً في القسم الداخلي للطلاب لدى صديقتي. بصورة غير قانونية. وأنا أخشى الرقابة والتفتيش. وأخذوني مرتين إلى مركز الشرطة.

- وماذا قالوا؟

- إنهم سألوني عن أخي. فقلت لهم كل شيء كما هو. إن تسجيل إقامتي مؤقت.

ولدى سماع هذه الأخبار ساءت حالي، لكن ابنتي قالت فجأة:

- دادا، لدي اليوم امتحان التخرج من المعهد الموسيقي. الامتحان جار الآن. ويتوقف على نتيجته ما إذا سيقبلوني في الكونسرفتوار أم لا.

- أنا تذكرت قصاصة الورقة التي تركها ابني: «دادا، ساعد شوفدا في الالتحاق بالكونسرفتوار. لقد كانت ماما تحلم بذلك».

توجهنا مسرعين إلى موقف سيارات الأجرة.

... إن الحياة تعتبر مع هذا مسألة معقدة جداً، ويكمن مغزاها - في المستقبل، ونحن تبادلنا الأحاديث في سيارة الأجرة فقط عن الامتحان القادم. كنت أكابد الهموم جداً، بينما كانت شوفدا تشكو:

- لقد أصابني البرد في المطار.. أنا غير مستعدة، وتعبانة. إنني أخاف جداً.. لقد طار كل شيء من رأسي.

كيف سأجلب لها الهدوء؟ إنني حتى لا أجد الكلمات المطلوبة. وصلنا إلى وسط موسكو، إلى شارع بوفارسكايا حيث القسم السكني للطلاب. يجب أن تستبدل شوفدا ملابسها. بينما أنا أنتظرت عند المدخل، ورأيت عبر الزجاج أن الحرس لا يسمحون لها بالدخول. وقررت أن أساعدها، لكن شوفدا رأتني، فأتت للقائي:

- دادا، لا تتدخل. سيكون الوضع أسوأ... هات النقود.

عندئذ سمحوا لها بالدخول. بينما انتظرتها مع حقيبتي للسفر عند المدخل. وكما وعدت خرجت بعد مرور نصف ساعة بالضبط - إنني لم أعرفها: كانت تلبس فستان سهرة أسود جميلاً جداً، وبحذاءين صقيلين أسودين بكعب عالٍ، ومع منديل أبيض مزركش حول عنقها، وبظفيرة سوداء طويلة - يالها من حسناء.

سألت بعجب: - هل اشتريت هذا كله؟

- الفستان من معلمة الموسيقى - هدية. وقد أعدت خياطته. والحذاء استعرته من صديقتي.

كانت قلقة وفي عجلة من أمرها. ولحسن الحظ إن المعهد الموسيقي لم يكن بعيداً عن الكونسرفتوار. وكان هناك عدد كبير من الشباب، الذين هتفوا لها من بعد:

- شوفدا، أين تتجولين؟! لقد دخل الجميع.. هيا، اسرعي.

إن هذه كلها ذكريات الآن، وأنا أفكر - مع هذا ما أعجب هذا العالم!

انتظرتها عند المدخل فترة تربو على الساعة. مطلع يونيو، الجو حار وخانق، ونسيت كل شيء، ولا أرغب في التفكير والغم. أنا قلق فقط بشأن شوفدا. وأفكر في هذا الامتحان. أنا أفهم بأن هذا يتسم بأهمية كبيرة بالنسبة لها وحتى بالنسبة لي، لأن هذا الامتحان ليس مجرد حصيلة نهاية المعهد الموسيقي والجسر المؤدي إلى الكونسرفتوار - إنه الجسر إلى المستقبل الذي يقرر حياتها... وحياتي. إنها لم تعبر هذا الجسر، ولم تجتزه. لكن شوفدا لم تذرف الدموع، ولم تقل أي شيء عموماً- أربد وجهها وعبست جداً وبدا عليها الحزن واستغرقت في التأمل.

إنه الفشل، - ابتسمت ابتسامة تنم عن الذنب والجزع،- الغناء والعزف - لم توجد لدي القوة ولا المزاج لذلك. ياللعار... أنا جائعة جداً. فلم أتناول شيئاً منذ يوم أمس.

ولجنا المطعم الطلابي بناء على نصيحتها. أخذنا الكثير من الطعام، فأنا أيضاً لم أتناول شيئاً خلال يوم تقريباً، لكن لم توجد لدي شهية. أنا لم أعرف ماذا سنفعل لاحقاً؟ كيف سيكون مصير شوفدا؟ ويبدو أنها قد حدست ما أفكر فيه.

- هل سنسافر إلى جروزني؟

لكنني لزمت الصمت فلم أعرف ما يجب قوله، بينما واصلت، كما لو كانت تتحدث مع نفسها:

«لديهم حرب، وفي رأسها الحرب. وأعتقد أنه لا مجال لديها للتفكير بالموسيقى والفن، كحال جميع الشيشان». وأيضاً «شوفدا، لا يقع الذنب علينا». وأقول: «من المذنب؟». بينما يجيبون: «نرجو المعذرة، نحن علمناك قدر ما في وسعنا، لكن النتيجة متواضعة جداً. لدينا مسابقة كبيرة، ولا توجد تسهيلات بشأن الحرب». وسألت: «هل يمكن أن أعيد الامتحان بعد أسبوع؟». «بعد أسبوع لن تنتهي الحرب عندكم.. والفن يتطلب الهدوء والانسجام. يمكن أن تجربي بعد عام - على الأسس العامة».

وأمسكت رأسها بكلتا يديها:

- وهذا الحلم انهار. ويتواصل انهيار كل شيء،- أجالت الصالة كلها بعينين حمراوين تتألقان كاللهب، وبرطمت بنظرات سريعة زائغة تنم عن الغيظ، والاحتقار، وقالت بنبرة صارمة:

- هؤلاء يعيشون بهدوء وطمأنينة، أما نحن؟ تنهال علينا جميع المصائب. لأي سبب؟ قل لي، يادادا، لأي سبب؟ ماذا فعلنا؟ هل لأننا نفكر ونعمل ونحيا بأسلوب آخر؟ أنا كنت أفضل طالبة. كنت أعرف، وكانت أمي تؤكد لدي دوماً أنني يجب أن أكون أفضل من الجميع، إن لم أكن أفضل منهم بدرجتين.. وفي خاتمة المطاف وقعت جميع هذه الأحداث والمصائب والخسائر».

- ما كان يجب عليّ أن أسافر إلى كوبا.

- بل بالعكس. كان يجب علينا منذ وقت بعيد أن نسافر إلى مكان ما.

أردت أن أقول لها - «وهل يغني الحذر عن القدر»، لكنني لم أقل ذلك. حاولت أن أجلب لها الطمأنينة. بينما كانت على حافة الهستيريا. فغطت وجهها بكلتا يديها. وبدأت نشيجاً مخنوقاً بهدوء وبحزن:

- أتمنى أن أغفو وألا أستيقظ... لقد هدني التعب هداً. وتعبت من كل شيء. دادا! ساعدني، أنقذني.

حاولت تهدئتها وثأثأت بعبارات ما. لقد بدأت الأنظار تتجه إلينا، ولهذا طلبت منها أن نخرج:

- إلى أين سنذهب؟ - قالت ذلك بلهجة قوية.- وهل يوجد مكان نذهب إليه؟ لا هنا ولا هناك، فقد طال القصف كل الأماكن.

بدأت بالنحيب بصوت عالٍ وفجأة جمدت في مكانها وأمعنت النظر في:

- دادا، ماذا أفعل؟ فأنت قادم من السفر. وحلقت في الجو مسافة طويلة. وتعبت. مهلاً، الآن - وأسرعت باتجاه باب كتب عليه «الإدارة». ثم عادت بسرعة جداً:

- لقد هتفت إلى ابنة صاحبة الشقة. إنها حتى فرحت لكوننا سنقطن في الشقة. هيا بنا.

طبعاً إن الشقة قد تغيرت في غياب صاحبتها. ويعوم السمك بكسل وفي شبه سبات. وتغيرت حتى الرائحة والجو. وكنت مجهداً حقاً وغفوت فوراً جالساً على الديوان. وعندما استيقظت في المساء وجدت مخدة تحت رأسي وفوقي غطاء، بينما انبعثت من المطبخ روائح المأكولات الشيشانية. وبعد العشاء رجوت شوفدا أن تعزف على البيانو الكبير - لاعتقادي بأن هذا سيجلب لها الهدوء، لكنها قالت:

- لا أستطيع. لا أريد، - وأطلقت تنهدة عميقة.- لو كانت معلمتي على قيد الحياة.. إنها كانت تعرف المدير. لهتفت له.

في الليلة التالية لم أخلد للسهاد تقريباً، وفي الصباح ارتديت بدلتي الوحيدة وشددت ربطة العنق وغرزت في الياقة وسامي. وبهذه الهيئة جئت إلى الكونسرفتوار في شارع بوفارسكايا. لكن جابهتني مشكلة كيفية الوصول إلى المدير. وهل سيسمحون لي بمقابلته؟ وهناك سأتحدث معه وليكن ما يكون. ولكن تبين أن كل شيء في منتهى البساطة، ويمكن القول إن هذا الأمر كان ديمقراطياً جداً. فقلت عند المدخل أنا والد شوفدا، وأبرزت الهوية، وقلت أريد مقابلة المدير. وجرى الاتصال هاتفياً بشعبة الاستقبال. وأعطيت الموافقة. وفوراً دخلت مكتب المدير الرائع. وما هو بمكتب بل صالة فخمة تزين جدرانها وسقفها لوحات فنية. وفي كل مكان كتب ولوحات فنية - صفوة القول إن الجو إبداعي بصورة مطلقة، ويوجد هناك بيانو كبير، وعدة مقاعد ثقيلة قديمة الطراز. وجلس المدير وراء المكتب - إنه في سن وقورة، وتبدو عليه سمات الفن، وكذلك الأصالة: طويل القامة، أنيق أرستقراطي، فقال لي:

- أنا أعرف ابنتك، وأصغيت إلى أدائها مرتين - إنها جيدة جداً.

وفور ذلك هتف إلى العميد، وتحدث عن شوفدا، وفي الختام قالي لي:

- إذن. أولاً، أريد الإعراب عن رأيي بصدد ما يجري في جمهورية الشيشان. شيء فظيع. أطلب المغفرة والمعذرة باسم الجميع.. إن طيارينا وجنرالاتنا لم يطالعوا فحسب رواية «حجي مراد» لتولستوي. ويبدو أنهم لا يطالعون شيئاً وهاجسهم واهتمامهم ينصب الآن على النقود فقط. وثانياً، فيما يخص ابنتك، - أخذاً بنظر الاعتبار جميع الظروف فيجب علينا أن نبدي التساهل. سيصدر أمر، وستتشكل لجنة. وبعد أسبوع ستستطيع هنا في مكتبي أداء الامتحان مرة أخرى. وثالثاً، إذا اجتازت الامتحان بنجاح فسيوفر لها الدعم من ميزانية الدولة بالإضافة إلى الإقامة في المسكن الداخلي للطلاب وتلقي المنحة الشهرية والتسجيل للإقامة بموسكو. - هذا كل ما أستطيع ويجب عليّ عمله -، ومد لي يده.

وشددت على يده بكلتا يديَّ وقلت: - شكراً جزيلاً.

كنت في غاية الابتهاج وولجت فوراً على لجنة القبول وطلبت من السكرتيرة السماح لي بالاتصال هاتفياً بشوفدا. ولم تصدقني شوفدا، واضطررت، ولو أن هذا غير لائق، إلى تكرار أقوال المدير عدة مرات وبضمن ذلك باللغة الشيشانية. وعندما جئت بعد ساعة إلى باب شقة المعلمة وقفت طويلاً من دون الضغط على زر الجرس، خشية أن أوقف سيل الألحان الرائعة للموسيقى الساحرة المنطلق من وراء الباب.

وقعت خلال ذلك الأسبوع أحداث كثيرة، ومهمة جداً، بالنسب لي. لكنني أعرت الاهتمام الرئيس في ذلك الوقت إلى شوفدا، أي إلى مستقبلها. وخلال هذا الأسبوع خرجت شوفدا من الشقة مرة واحدة فقط - لقد رجوتها بأن تذهب إلى المخزن لشراء الحاجيات. فقد استلمت الحساب عن عملي في كوبا وقررت ألا ترتدي شوفدا أكثر ملابس الغير. وأعتقد أن شوفدا مثل أي فتاة أخرى ستفرح للغاية لهذه الفرصة وستشتري الملابس لها. لكن تبين أن الأمر بالعكس فقد أظهرت التحفظ الشديد والتواضع، والمؤشر الرئيس بالنسبة لها هو - السعر: فالأشياء الثمينة تثير المخاوف لديها، وكانت تكرر دوماً:

- أنا أعرف كيف كسبت هذه النقود في جمهورية الشيشان.

فضحكت وقلت: - إنها مقابل العمل في كوبا.

- إن كوبا مثل فترة إجازة. والنقود هي كعلاوة الإجازة. وماذا بعد - لا يعرف أحد. فلدينا حرب.

هكذا تحدثت معي ابنتي حديث الكبار البالغين، كما عملت بالأسلوب ذاته - فكانت تجلس وراء البيانو الكبير ليلاً ونهاراً تقريباً، وحتى جأر الجيران بالشكوى في الليالي. لكنها لم تثب إلى رشدها، وواصلت التمرين بإصرار تحت إشراف مدرسيها- ووضعت على آلة البيانو أمامها صورتي أمها ومعلمة الموسيقى.. مسكينة شوفدا! كما أنني كابدت القلق جداً. كابدت لوعة حارة طوال الأسبوع. وبغية ألا أغدو عائقاً لها كنت أخرج في الصباح (لتسيير أشغالي) لعلمي بأنها تعزف فقط ولا تغني في وجودي. ولإدراكي مدى اضطرابها سألتها قبل يوم من الامتحان:

- هل يمكنني حضور الامتحان؟

استغرقت في التأمل ثم قالت بعد فترة توقف طويلة:

- نعم. بدلاً من ماما.. وأنت أيضاً ستقيم عزفي. ربما ستعتبرني غير جديرة.. عندئذ سأذهب معك إلى جمهورية الشيشان.- هناك لا توجد موسيقى ولا يحتاجها أحد.

7 مايو. ليلاً

نعم. كانت شوفدا على حق- لم توجد وما كان من الممكن أن توجد موسيقى آنذاك في جمهورية الشيشان. وكانت تتردد هناك فقط أصوات القصف المدفعي التي طغت على جميع الأصوات. لكن تتوافر الآن رحابة وانطلاق وسائل التسلية. وما أكثر الموسيقى، أو بالأحرى الضجيج المبتذل الذي تتردد أصداؤه في الجبال. أقول هذا لأنه ليس عبثاً أن جرى في فسحة الجنة يوم أمس إقامة وكر للقصف واللهو والاستعداد له. وأنا أيضاً بدأت بالاستعداد. كنت أعرف بأنه ما دام الأمر كذلك فسيأتي أناس مهمون، حسب معايير هذا الزمن يعتبرون مهمين. وربما سيأتي حفيد العم جيخو بصفته السيد (يعتبر هنا السيد وصاحب الأمر والنهي).

كنت أعرف أن هؤلاء الناس يأتون من جروزني، وسيصلون عند موعد الغداء فقط. لكن لا يسمح لي بهذا الترف. وكنت أعرف من خبرتي في الجيش أن القناص يجب أن يتخذ موقعه مسبقاً. وأخذت معي، كما يجب، وجبات غداء تكفي لمدة يوم واحد. ولم يكن هذا عبثاً، فقد اضطررت للجلوس فترة طويلة. فهؤلاء الحمقى، ولا يمكن إطلاق وصف آخر عليهم، أكلوا وشربوا وبضمن ذلك الفودكا حتى فقدوا أي حذر، إذ ينتشر المسلحون في كل مكان، وقصفوا وأولموا حتى منتصف الليل، لكن لم يحضر حفيد العم جيخو. وتملكني الغيظ. وقبل كل شيء اغتظت من نفسي - فقد كان يوماً رائعاً، وأنا أعلم بأنه بقيت لديّ أيام قليلة، وبسبب هذه الأحاسيس الوحشية، وحتى الخسيسة، في الرغبة في الانتقام، كما لو أنني أستطيع بهذا تصحيح واستعادة أمر ما، جلست في الكمين الساعات الطوال. لا سيما وأن هذا جرى بلا فائدة، وعل أقل تقدير لم يتحقق شيء في هذه المرة. خيمت العتمة على المكان، وأصبح بوسعي مغادرة عرين القناص بهدوء، لكنني لا أستطيع. فقد استولى عليّ الغيظ أكثر فأكثر. واشتدت لدي الرغبة في إطلاق النار، وشغلت جهاز الرؤية الليلية، وأنا أتطلع عبر العدسة، وإصبعي لا يفارق الزناد دوماً، وأصوب الهدف على الوجوه، لكن لا، ولا وجود له اليوم. لكن يجب عليّ أن أنفس عن غيظي، ويجب أن أطلق النار، لمجرد اختبار لياقتي وهدفي. فظهر الهدف، وحتى عدة أهداف. ظهرت في الحرج الكثيف، تألقت، ثم اختفت، وظهرت في الأسفل مجدداً عدة عيون وحشية. إن الذئاب ماكرة وذكية جداً. ولن تجازف بغية الحصول على فتات طعام ما، ولن تنتظر طويلاً. وهذه الوحوش في أغلب الظن من بنات آوى. ولدي حساباتي إزاء هذه وغيرها من الوحوش، وأريد أن أنتقم منها أيضاً. وقد ظهر هدف ما، وأيقظ ذلك فيَّ حماس الصيادين- أريد إطلاق النار. وضبطت نفسي بصعوبة. وانصرف أولئك الحمقى القادمين إلى هناك بحلول الليل فقط. وكانت تصدح لديهم تلك الموسيقى التي لا تطيقها الأذن في الوادي

كله. لكنها كانت ضعيفة وخامدة في النهار، ولم تؤثر في تقريباً. لكن لدى حلول الظلام صار قرع الطبول المبتذل والعويل - لا يطاق البتة. وتردد صدى هذا العويل في الجبال. كان من الممكن تحمل الأغاني باللغة الشيشانية أو الروسية لكنها كانت باللغة الإنجليزية. ولو أنني أعتقد بأنه لم تكن هناك لغة وأفكار وكلمات - بل عويل وصراخ وأنين، وهو ما يحتاجه بالذات السكارى والمدمنون على المخدرات. وكان أصحاب اللهو والطرب هؤلاء، أو بالأحرى أشباحهم السكرانة، تتراقص كالشياطين حول النار في نشوة وبهجة غامرة وبغتة توقفت الموسيقى. وساد السكون المطبق. وجمدت الأشباح الملتوية الأجساد حول النار:

- هات! هات الموسيقى! - صاح أحدهم في الجمع كله. وفي الوقت نفسه عوت بنات آوى، كما لو أن هذه الموسيقى جلبت لها السأم. وكان هذا كافياً لإعادة السكارى إلى رشدهم. يبدو أنهم ارتعبوا بجد. فانصرفوا بسرعة، وحتى لم يخمدوا النار. أنا أعلم بأن بنات آوى يتملكها الطيش ولا يقف أمامها شيء لدى انبعاث رائحة الطعام. فعبر النهر هناك الوحش الأكثر وقاحة والجائع، ووجد بقايا الطعام اللذيذ وحتى انبطح لكي ينهش بهمة. وشبت في أعماقي بقوة أكبر حماس الصياد. فنسيت كل شيء في الدنيا، وسددت البندقية بدقة، كما لو أنه يتوقف على هذه الإطلاقة وجودي وكل مغزى حياتي أو حتى الطعام للفترة القادمة - صفوة القول تملكتني غريزة الأقدمين... حبست أنفاسي وضغت على الزناد... وأصبته. لكن يبدو أنه أصيب ليس كما حددت الهدف. فقد أطلقت النار بالضبط، بينما زعق الوحش والتوى جسده. فأطلقت النار مرة أخرى. وبعد الإطلاقة الثالثة فقط أصبت الهدف بدقة. تكدرت. ربما أن الريح هنا أكثر شدة، أم أن كاتم الصوت يؤثر، وهو يؤثر فعلاً. وحتى على طابع الصيد. ومع ذلك رغبت في سماع صوت الإطلاقة. بغية أن يتردد صداها في المكان كله، وبغية أن تختفي من هنا تلك الألحان المبتذلة الفظيعة وعويل السكارى. نزعت كاتم الصوت. وتطلعت عبر العدسة مجدداً. إن الذئاب الحذرة كانت ستنصرف من هنا منذ وقت بعيد ويختفي أثرها، لكن بنات آوى ما زالت باقية هناك، فهي لم تفقه شيئاً مما حدث، وربما حتى إنها راضية لبقاء المزيد من الطعام لها. رأيت وحشين. وصوبت فوهة بندقيتي نحو الوحش الأكبر حجماً. في هذه المرة قمت بالتنشين بدقة، كما لو أن هدفي هو حفيد العم جيخو. وهو هدفي فعلاً جزئياً. يبدو أنني أفلحت في إصابة الهدف - فصرعته، وتردد صدى الإطلاقة الحاد فترة طويلة في المكان بشكل أنغام رنانة. إن هذه الإطلاقة قد أعادتني كما يبدو إلى صوابي. طبعاً، أنا أبرر نفسي في أعماق فكري - فقد أطلقت النار، وتمرنت، واختبرت يدي وعيني. وهيهات أن يسمع أحد في هذا الوقت صوت إطلاق النار، هذا إذا لم يكن في دورية في مكان قريب. وإذا سمع فإنه لا يرى. وقد تطلعت في جهاز الرؤية الليلة إلى المكان كله - لو وجد صياد آخر لكشف أحدنا الآخر وجوده.

لكنني خلقت المشاكل لنفسي. يجب إخفاء الوحشين الصريعين من بنات آوى وآثار الدماء - أنا أستطيع القيام بذلك عند الفجر فقط. كما يجب أن أنظف البندقية - إنها ليست المرة التي أطلق فيها النار، وينبغي تنظيفها بعد كل مرة تستخدم فيها. لهذا قررت حمل السلاح كله إلى البيت. ووجب عليّ كي لا أبقي آثراً لي أن ألف وأدور، لكن أصابني الإجهاد الشديد وأردت أن أشرب الماء، ولهذا مشيت بصورة مستقيمة وأنا أتعثر في الظلام. حدست بوجود شيء ما بالقرب من البيت. وحتى فكرت بأنني كان يجب أن أقتني كلباً (كانت الذئاب قد افترست آخر كلب لي انتقاماً مني حين

كنت بموسكو للعلاج). تطلعت فوجدت الليل قد نشر أجنحته. ويبدو إن كل شيء هادئ. وعندئذ ارتكبت خطأ. ولو أي خطأ هو - فبوسع أي أحد القضاء عليّ، إذا ما رغب في ذلك. وضعت جميع أحمالي، ومنها البندقية، عند مدخل البيت وتوجهت إلى النبع - فقد أضناني العطش، ولم أكتف بالشرب فقط، بل رحت أصب ماء النبع على رأسي ورقبتي ويديّ، كما لو أنني أردت أن أزيل بالغسل خلال فترة طويلة كل تعبي وما لحقني من قذارة طوال اليوم المنصرم. وفي هذه اللحظات فكرت لسبب ما بأنه شيء حسن إذا لم يوجد أبنائي بين القادمين إلى الفسحة. وإن هؤلاء المنغمسين في اللهو لم يفعلوا أي شيء سيئ، - إنهم تسلوا فقط كما يحلو ذلك لهم، بينما بدا ذلك كله شيئاً كريهاً - فنحن أنا وأبناء جيلي لم نشب بهذه الصورة، ولم أرغب في أن أرى الجيل الجديد بهذه الصورة. لكن ربما أنا لست على حق. إنه صراع الأجيال المعروف. ويوجد في الفلسفة حتى قانون «نفي النفي» الذي لم أفهمه البتة في سنوات الدراسة. كيف أستطيع أن أنفي، أي لا أحترم، ناهيك عن تأنيب العم جيخو وزيبا؟ لقد ربونا وعلمونا بهذا الشكل، والآن؟ والآن حتى عند نبعي، ومن وراء ظهري، أتحسس تلك النظرة، وهذا الموقف - السيئ المؤلم القديم الذي لا مفر منه!

التفت. وأصخت السمع وطالعت المكان. الليل، كما هو في الجبال، بارد وهادئ وشديد العتمة. الهواء حلو ونقي وذو أريج، لكنني أتذوق شيئاً من المرارة فيه. وعرفت الآن بدقة - يوجد أحد ما هنا. وهو ليس من الغرباء. يوجد تحتي، بانحراف قليل، هيكل بيتي الأسود، أو بالأحرى كوخي. وبدا شبح ما حتى أمام هذه الخلفية. وتذكرت بندقيتي. وهبطت بسرعة إلى الأسفل. لم أشعر بأي خوف- فهذا الأحساس قد ضعف لدي فحسب بمرور الأعوام ومع الأحداث المأساوية. لكنني شعرت بالقلق على سلاح العقاب - فكيف سمحت بهذا الضعف؟ وفي يدي من هو؟ لقد ميزت بدقة الملامح العامة للضيف الثقيل وبعد بضع خطوات عرفته من الرائحة - إنه شرطي محلتنا الذي يدخن كثيراً.

- إيه! إيه! - صرخت مهدداً، عندما رأيت كيف وجه فوهة بندقيتي نحوي.

فأمرني بصوت مكتوم: - قف! لا تقترب!

لكنني لم أمتثل للأمر، بل بالعكس، حثثت الخطوات. إنني كنت أعرف بأنه لن يطلق النار، وحتى إذا ما ضغط على الزناد - فهذا قدري. قبضت على ماسورة البندقية بكلتا يدي، وسحبتها. وأبدى مقاومة ضعيفة، وسلمها لي فوراً، وضغط على رسغي بلا كلفة وقال:

- أنت ما زلت قوي البنية.

إنه يخشى التحدث بصوت عالٍ حتى في مثل هذه الليلة.

- كانت هذه البندقية لدى ابنك. ثم اختفت. إنها سلاح جيد- تألقت حدقتا العينين في الظلام - وأنا حزرت بأنك تلهو بهذه اللعبة.

ابتعد وبداه في جيبيه وبدا وكأنه يمعن في التفكير. ثم عاد، واقترب مني، وقال بلهجة فيها وعيد تقريباً: - هكذا، من أجل الحفاظ على ذكرى ابنك، وأنا أغفر لك في آخر مرة. هل فهمت؟

- أها، - غمغمت، ولوحت برأسي داعياً إياه إلى دخول البيت، مشيراً إلى الرغبة في إجراء محادثة.

إنه يخاف. ولا يخافني بل يخاف أن يعرف الآخرون بأنه تحدث معي. ودعوته بإلحاح. لكنه رفض مرة أخرى. عندئذ تراجعت خطوة، وحركت الزناد ووجهت إليه ماسورة البندقية.

-لا تشعل النور، - قال ذلك في الغرفة لدى جلوسه على السرير.

إنها ليست أول مرة نتبادل فيها الأحاديث، لكن بقيت أمور لم يفصح عنها بعد، وكنا نحن الاثنين نعرف ذلك، وكان دوماً يتهرب من الحديث. من حيث المبدأ كان بوسعه الانصراف الآن أيضاً، لكن يبدو أنه تراكمت لديه أشياء كثيرة. أشعلت المصباح اليدوي. الوضع غير مريح. وأشعلت مصباح الكيروسين. وتناولت مفكرتي وجلست إلى جانبه وطرحت عليه بسرعة أول سؤال:

- من قتل ابني؟

- أنت سألتني عن ذلك مائة مرة،- همس شرطي المحلة بحنق،- أنا لا أعرف.

- لكنك تحدس.

- إن تكهناتي وتكهناتك لا تعني شيئاً. إذا وجد شيء ملموس فقله.

وكتبت له: - توجد، وأنت تعرف ذلك.

ورفع صوته عندئذ: - ماذا؟

- أنت تذكر ابني؟ وتحترمه؟

فهز رأسه فحسب.

- قل لي إكراماً له - هل أنت الذي رميت الكاسيت؟

أرخى نظره وأمعن الفكر ثم قال:

- لقد أعطيت كلمة.

- أنت رميته لي. وليس إلى أي أحد آخر... إذا لم تكن أنت... فأنت.. أتعرف من أنت؟

- من أنا؟

فابتسمت وكتبت:

- أنت شرطي المحلة.

نهض بهيئة استعراضية وقال: - فكر كما تريد. لقد أفسدتك ابنتك بالنقود. إن رأسك مليء بالحماقات.

فدهشت: - أي حماقات؟

- إن حياتك كلها الآن.. هي في الطائرة الشراعية هذه. وهذا؟ - واشار إلى أسلحتي، وهمس بعد أن أمال رأسه نحوي، - سأستر الأمر.. لكن سأستره إلى حين من الوقت. إن هذا لا يمكن أن يستمر فترة طويلة. أنا لا أستطيع...

- وبم تتستر عليَّ؟

- لن أواصل ذلك أكثر.. وقد جئت إلى هنا لتحذيرك من الأمر.

- نعم، أنا رأيت بيتك عامراً وشيدته بسرعة، - كتبت بحروف كبيرة، وقلبت صفحة المفكرة، - ما هو مبلغ راتب شرطي المحلة؟

برطم بوجهه:

- لقد عملت من أجلك قدر ما أستطيع، - وأراد التوجه إلى المخرج لكنني أوقفته قسراً وغمغمت بحنق، وقبضت على ذراعه، وأوقفته وأرغمته على أن يقرأ:

- هل تريد مشاهدة الكاسيت؟

- لا أريد، - ضحك بسخرية مقلداً لهجتي في الغمغمة- كلما تعرف أقل تعيش أكثر. وتوجه إلى المخرج بقول هذه الكلمات. ولحقت به، وأرغمته قسراً على التوقف مجدداً، والكتابة ليس بصورة واضحة، وحاولت التحدث بألفاظ غير متسقة، وبالأحرى الغمغمة مجدداً، وأريته بالإشارات بتمرير إصبعي فوق بلعومي - بزعم أنهم خانوا ابني بصورة غادرة وورطوه وقتلوه، وأنت - الرفيق وابن قريتنا وقريبنا وصديقنا لا تريد معرفة أي شيء، تريد العيش بطمأنينة، واكتناز الشحم. أبعدني بحركة خفيفة وعندما بلغ العتبة أشار مجدداً إلى البندقية بإصبعه:

- أحذرك في آخر مرة - بغية أن لا أرى هذا أكثر ولا أسمع عنه.

خرجت في أثره. كان القمر يعوم فوق الجبال، وازداد الضياء والبرودة قليلاً. ورأيت كيف سار في البداية عند المنحلة. ويبدو أنه وضع شيئاً هناك قبل أن يأتي إليَّ، وفي أغلب الظن جهاز اللاسلكي والهاتف بغية ألا يستمع أحد إليه. ثم مشى بسرعة في الطريق واختفى وراء المرتفع. بينما وقفت، وأصخت السمع. بعد فترة سمعت ضجيج المحرك: لقد أوقف سيارته في مكان بعيد جداً- ياله من أسلوب في التخفي. من جانب إنه يخشى الاجتماع بي. من جانب آخر يتحايل. كيف يمكن فهمه؟ إذا ما قال إنه ينفق آخر ما لديه فمعنى ذلك إن شوفدا تدفع. أنا واثق بأنها تدفع له. لكن مقابل أي شيء؟ إن شوفدا لا تعلم شيئاً عن البندقية وعن خططي. ربما، تعلم؟ على أي حال، أعتقد أن النقود تكمن في أساس أو هي الشيء الرئيس في أفعال شرطي المحلة كافة. ذلكم هو مغزى الوجود الحالي.

في تلك الليلة تذكرت مجدداً العم جيخو. فهل نزل، من أجل النقود، من القطار من محطة غير معروفة حينما سمع من إحداهن بالصدفة بقصتي، وقفل راجعاً، ووجد بيت الأطفال اليتامى الذي كنت فيه، وأخذني؟ علماً بأنه كان نفسه، شأنه شأن جميع المرحلين، يعاني من الإملاق تقريباً. إنه كان بالكاد يستطيع توفير القوت إلى عائلته وذويه. ومثال زيبا؟ أي أناس كانوا. ذلك الجيل. أما الآن؟ ربما اقترفت أنا وجيلي الأخطاء؟ ربما - إن هذا من نتائج الحرب. فالحرب بصفتها نزاعاً تغير أموراً كثيرة في وعي الناس ونظرتهم إلى الحياة. ولو.. ولو أن العم جيخو قال لي إن شامل ما كان سيصبح أبداً إماماً لنا لأن الشيشان متساوون ولا ينسبون رئيساً لهم. ومع ذلك حاربوا القوات القيصرية طوال خمسين عاماً. وتكمن فكرة المقاومة في شيء واحد فقط - إن الشيشان لم يرغبوا وما كان بوسعهم أن يتحولوا إلى أقنان. وفي هذا السياق أتذكر أيضاً تحليل واستنتاجات زيبا بصدد ترحيلنا في عام 1944: إننا لم نقبل السلطة السوفيتية، تلك العبودية المبطنة بالسوفيتات، حسب تعريف سولجينتسين الدقيق لها. وأنا بدوري، لست صغيراً أيضاً، وأعتقد أن الحربين الأخيرتين اتسمتا بهدف محدد أيضاً - وهو، في نهاية المطاف، تحطيم نمط الحياة التقليدي لأبناء الجبال، وإذا لم تساعد الحرب في ذلك كلياً، فيتم فحسب شراء السكان الذين أصابهم الجوع، في نهاية المطاف - إنها أبسط وارخص صيغة للحل. وإذا ما تطلعنا إلى شرطي المحلة عندنا بأخذه كمثال فإنهم طبعاً وضعوه في الأسر وحبسوه، وحطموه بكل بساطة، وإلا ما كانوا سيطلقون سراحه. والآن أصبح شاغله المعيشي البسيط ينحصر في البيت والأطفال والزوجة. ومن حيث المبدأ فماذا يحتاج الإنسان البسيط. يبدو أنه لا يحتاج إلى أي شيء سوى توافر النقود. وسيكسبها أينما كان وكيفما كان. وبضمن ذلك بأخذها من شوفدا. لكن شوفدا لن تدفع مثل هذه النقود لقاء خدماته، من أجل تشييد بيت كبير من الطوب في الجبال. ولن يبنى مثله براتب شرطي المحلة، وحتى براتب الجنرال، يعني ذلك وجود مصادر أخرى للكسب، بلا مراعاة المبادئ. وأي مبادئ توجد في زمن الحرب وبعد الحرب؟ البقاء والتمتع بالحياة. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بالنقود. النقود تأتي الآن قبل كل شيء. لكن لو فكر العم جيخو المسكين بالنقود والنفقات فهل كان سينزل من القطار في وسط صحراء قزل- قوم؟ وإذا لم ينزل فماذا كان سيكون مصيري؟ واليوم أريد أن أوجه ماسورة بندقيتي للقنص إلى حفيده. أريد، أريد جداً أن أضغط على الزناد والتمتع بموته... ياللفظاعة!

طبعاً، ربما إن هذا كله ليس سوى نتيجة الخيال الناجم عن الرض الدماغي في الحرب. وأدت هذه التأملات التي تكاد تكون فلسفية إلى أصابتي بوجع شديد في الرأس، وأعجب ما في الأمر، تردد صدى تلك الموسيقى المبتذلة في أذنيَّ ودماغي، التي كانت تصدح طوال النهار وفي المساء من مكبرات الصوت القوية في حيّنا. كنت متعباً جداً ولم أستطع النوم، - فقد تواصل ذلك القرع الشديد في رأسي. ربما يدق بهذه الصورة أيضاً قلبي الغاضب، والضغط في الأذنين، والصدغين، والقذال. تناولت الحبوب المهدئة - لكن لم يجد ذلك نفعاً. وحتى ذهبت مرة أخرى إلى النبع، وغسلت رأسي بالماء البارد، لكن لم ينفع ذلك أيضاً - إذ تواصل في أذنيَّ صدى تلك الموسيقى، أو بالأحرى العويل الشديد للروك الآتي من خارج البلاد. ولحظتئذ خطر في بالي بالذات: أن أستمع إلى تسجيلات غناء ابنتي حين تسوء حالي جداً. فوضعت السماعتين فوق أذنيَّ، وشغلت المسجل، وياللعجب فلم أستمع إلى هذه الأغنية منذ وقت بعيد (التداعيات والذكريات الثقيلة)، ولكن كما حدث آنذاك، حين سمعتها لأول مرة، فإنها أزالت كآبتي كبلسم الروح الشافي. الأغنية اسمها «ستيجال» (معني الكلمة باللغة الشيشانية «السماء») المكرسة لي وعني.

11 مايو، ليلاً

كانت الأيام الأخيرة عجيبة حقاً. الجو دافئ والزهور في كل مكان. الطيور تغرد. لا توجد سحابة واحدة في السماء. بينما انهمكت نحلاتي في العمل... كم هي ذكية ومنظمة ومحبة للعمل. يهمني أن أعرف هل توجد بينها حروب ونزاعات؟ طبعاً، توجد. ففي كل أسرة من النحل يوجد تقسيم صارم للمراتب: وتترأس النحلة الأم السرب. ويقوم جميع النحل برعاية هذه الأم وحمايتها. وإذا ماتت هذه النحلة الأم لهذا السبب أو ذاك، وقد يحدث ذلك، حقاً، إنه شيء نادر الحدوث، أو تغادر المنحلة فجأة فتحل نهاية هذه الأسرة. لابد من وجود الأنثى، القائد والرئيس. لكن هذه العملية لا تستمر إلى الأبد. ففي كل ربيع تقوم النحل، سواء أرادت أم لم ترد، بوضع يرقات الأم الجديدة. وتتفقس عن نحلة جديدة وفتية، ومعنى ذلك إنها قوية. وينشب نزاع وصراع بين الأم القديمة والجديدة. ويسود الاضطراب بين النحل جميعاً، وتحاط المنحلة بحشد هائل من النحل. وعادة تنظم الأغلبية الصحية إلى النحلة الأم الجديدة. ويعتبر ذلك، من وجهة نظر البشر، بمثابة خيانة. ولكن من وجهة نظر الترقي فهذا تطور طبعاً - دم جديد، طاقة جديدة، والشباب يكون الأقوى دائماً. وفي النتيجة تغادر ملكة النحل القديمة مع عدد قليل من رعاياها المنحلة باعتبارها المنهزمة. إنها تهرب. وطبعاً، هذا أمر مؤسف كما يبدو. لكن هذا الديالكتيك، التطور، التكاثر - وفيه المستقبل. وثمة مغزى في ذلك. غالباً ما يكون مصير النحلة الأم الخاسرة ورعاياها من النحل الذي يرافقها حزيناً إذا لم يمسك بها مربي النحل. ويتوقف مصيرها كلياً على سلوك وقدرات النحلة الأم القديمة - فهي بصفتها القائدة تقرر كل شيء. وبالتالي تتمتع الصفات الوظيفية للأم بأهمية كبيرة جداً. ولهذا فإن بعض أصحاب المناحل المتقدمين، كما يقال، يشترون النحلات الأم التي يتم انتقاؤها. لقد مضى العلم قدماً إلى الأمام... إذ تجري تربيتها بصورة اصطناعية في مختبرات خاصة. وهدف هذه التجارب الحصول على المزيد من العسل للبيع، أي المزيد من المداخيل. وأنا نحال غير محنك، ولا أحتاج إلى بيع العسل. لكن بلا هذا الاهتمام أنا أعارض كلياً وبشكل قاطع مثل هذه التجارب العلمية والابتكارات. فهذا يتعارض مع سير الأمور الطبيعي. ولا يوجد هنا تكيف، بل تحدث طفرة إحيائية، وسيتغير شكل السرب والنحل حتماً. ولا يهم في أي اتجاه وما هي العواقب، وينبغي فقط توافر الربح ووجود نحل عامل ومطيع.

بالمناسبة إن هذه التجربة بجلب النحلة الأم المولدة بصورة مصطنعة أو الزعيم «المنقول»، مثلاً لينين الذي نقل في عربة قطار مغلقة، تمارس منذ وقت بعيد في المجتمع البشري. لكن حدث ذلك عندنا في جمهورية الشيشان بصورة غليظة وبوقاحة أكثر. أنا أتذكر شخصياً خمسة أو ستة من يسمون بالزعماء، أي الأمناء الأوائل للجنة المقاطعة للحزب الشيوعي السوفيتي، الذين كانوا يجلبون إلينا: لتحسين النسل «أو للانتقاء» وربما من أجل الطفرة الإحيائية. كانوا يأتونا من ياقوتيا ومن أرخانجلسك وحتى من تايمير. وعندما انهارت البلاد كلها وليس المقاطعات فقط بسبب الأمهات الاصطناعيات الآنفة الذكر، لنقل كالآتي، توقف إنتاج العسل وإطعام أنفسنا، وبدأ التفكك، وحسب تعبير أهل النحل - تمرد السرب، الذي اطلقت عليه تسمية «البيريسترويكا». وقد ساعدت ذلك الديمقراطية والتقدم. وآنذاك لم تتوقف هذه العملية بل مجرد أضافت بعض المظاهر الشكلية بغية تحسين الصورة والمظهر، ولسهولة ممارسة القمع أكثر. لقد تم استدعاء الزعماء من الشيشان

لكنهم لم يعيشوا ولم يشبوا هنا. صفوة القول إنهم لم يتكيفوا مع الظروف المحلية، بل شبوا في وسط آخر، وليكن أفضل، وجاءوا إلى حيث لا يستطيعون العيش لهذا السبب أو ذاك، وسيرحل من هنا ذووهم وذريتهم في الأحوال كافة. إن الحياة هنا في جمهورية الشيشان ليست أصيلة وغير مريحة. وحاول «الزعماء» القادمون من خارج الجمهورية تغيير مجتمعنا، والمضي به نحو الازدهار والعلانية. ولكن وكما قال فكتور تشيرنوميردين: «أردنا الأفضل لكن حصل كما يحدث دائماً». فتارة الحروب المستمرة، وتارة الترحيل، والحرب مجدداً: واحدة وأخرى. بينما التقويم يشير إلى عام 2000.

وفجأة، كما أتذكر تلك الأمسية السعيدة في 8 يونيو، أعلن من التلفزيون عن تعيين رئيس إدارة جديد في جمهورية الشيشان. وأصبح شيشاني منا لأول مرة قائداً للجمهورية. إنه ولد وعاش في أرض الوطن. إنه رجل متفتح وجريء ومتعلم. وتربى بموجب التقاليد الشعبية، ونبع من أعماق الشعب، ولا يحتاج إلى تأقلم ولن يسمح بحدوث طفرة إحيائية...

لن أقول أنا أعرفه عن قرب جداً لكنني أعرفه منذ وقت بعيد. وكنا نلتقي أحياناً منذ أن كان مفتي الجمهورية في مختلف الاجتماعات والمناسبات. ولم أكن الوحيد لكن جميع الشيشان قد فرحوا لهذا الحدث. وكنا نتبادل المكالمات الهاتفية ونتحدث عن هذا فقط، وفجأة علمت بأنه تقرر أن يجري غداً في «بريزدنت أوتيل» لقاء رئيس الجمهورية الجديد مع أبناء الشتات الشيشان القاطنين بموسكو. لم يوجه أحد الدعوة إلي. ولا يوجد اسمي طبعاً في قائمة المدعوين. لكنني كنت أقيم في بريزدنت - اوتيل مسبقاً، لوجود أمر شخصي وحيوي - فلا يمكن ولا يجب أن تجري «تصفية ابني». وبدا أن الرئيس الشيشاني الجديد قد تحدث معي فقط، وأكد لي مراراً وتكراراً مجدداً، أن الكثير من الشباب الذين تعوزهم الخبرة قد ذهبوا إلى الغابات والجبال لأسباب مختلفة. إنهم جديرون بالشفقة. ويجب إنقاذهم، وهو سينقذهم ويساعدهم ويعيدهم إلى الحياة السلمية.

يقول رئيس الجمهورية إن القوي يعتبر الضعيف مذنباً دائماً (أنا أصدقه تماماً، ولا يجوز عدم تصديقه لأنه مثلي عاش دائماً ويعيش في جمهورية الشيشان، ويقول الحقيقة الخالصة). وأعلن بلا خجل أن القوات الاتحادية تقترف شراً عظيماً. ويجب تغيير الوضع بصورة جذرية، وسيغيره بنفسه. كان ذلك كله بمثابة البلسم الشافي لروحي المريضة. وعندما انتهى الجزء الرسمي من الحفل شققت طريقي وسط الحشد واقتربت من رئيس الجمهورية ورجوته منحي دقيقة من وقته. وقد عرفني وعندما رويت له قصة ابني المحزنة، أمعن الفكر، وبدا كما لو أنه تذكر شيئاً ما.

- مهلاً. إنني سمعت شيئاً عنه. أولئك الشباب...

- نعم، نعم،- قاطعته وأنا أكاد أصرخ، وبغية عدم ورود أقوال بصيغة الماضي، قلت: إنه جريح. ويتلقى العلاج الآن في جورجيا.. هل يمكن المساعدة بشكل ما؟ أنقذه.

- يجب. يجب إنقاذه وإعادة هؤلاء الفتيان إلى الحياة السلمية.

بعد هذا لم يسمحوا لنا بالحديث: الصحفيون والمراسلون وموظفون ما، وربما أشخاص مثلي يرغبون في جذب اهتمامه. إنهم أبعدوني جانباً فحسب. وتجمهر حشد كثيف حوله. وكان يعلو فوق الجميع بهامته الكبيرة وبدنه القوي. وأحنى رأسه إلى الميكروفون مجيباً على سؤال أحد المراسلين. كان يتحدث حول الأمور باللغة الروسية، السليمة جداً، كما هي: حول الغلو في استخدام القوة العسكرية، وحول العنف، وحول أنه لا يمكن إحلال السلام بهذه الطريقة، ويجب إجراء الحوار بدلاً من استخدام قوة السلاح. لقد كانت كل كلمة تفوه بها مفهومة وطيبة بالنسبة لي، فقد دعا إلى السلام وأراد السلام.

قال بحزم: - هناك قطاع طرق- إرهابيون بصراحة - وجميعهم معروفون، وتجب مكافحتهم. لكن يوجد، وهم الأغلبية، شباب بسطاء ذهبوا إلى الغابات بحكم هذه الظروف أو تلك. يجب التعامل معهم، وإجراء الاتصالات معهم، وتأهيلهم وجذبهم إلى جانبنا.

في تلك اللحظة، وكما لو أنه تذكر أمراً ما، توجه بنظراته بحثاً عني ثم وجدني، قال باللغة الشيشانية:

- ياخ يولوش قنطي بار أوش. دالا ديكالا بويلا أوش (ترجمة هذه العبارة باللغة الشيشانية: «لقد كانوا فتياناً أماجد. ليباركهم العلي القدير»).

بعد هذه الأقوال غادر قاعة المؤتمرات. وتبعه الحشد كله بمودة. بينما وقفت في مكاني فترة طويلة، لحين طلب العاملون أن أغادر القاعة.

كنت أخطو بساقيَّ بصعوبة بالغة. لقد كنت في وضع لا يمكن تفسيره. فمن جانب أبهجني تغير وضع الشبان الشيشان هذا بصورة جذرية، وأحدهم ابني، ومن جانب آخر تحدث بصيغة الماضي، كما لو أن ابني لم يعد بين الأحياء، بينما أنا لا أستطيع تصديق ذلك. كانت الرغبة الأولى، إن يوجد إلى جانبي إنسان قريب وعزيز بغية أن يجلب لي الطمأنينة ويبعد عني القلق والكآبة. لكن من سيفعل ذلك؟ إنها شوفدا فقط. لكنني أخاف حتى التفكير في ذلك وفي حضورها هنا. بالعكس، أحاول عزلها عن هذه الفكرة. إنها يجب أن تستعد للامتحان بهدوء. لهذا أنا لم أذهب إليها، توجهت إلى مديريتنا العامة من أجل تقديم تقرير عن العمل في كوبا. وهناك في المدخل التقيت زميلي - رئيس شعبة الأمن في وحدتنا، فقدم لي فوراً التعازي، كما ينبغي لدى الشيشان.

- ماذا؟ عمن تتحدث؟ - لم أستطع قول أي شيء آخر. - تخاذلت ساقاي، واستندت بإحدى يدي على جدار المبني - وشعرت باختناق في بلعومي، ولم أعد أتنفس إلا بصعوبة. وقد أدرك زميلي حالتي، فأمسك بي:

- أنت لم تعرف؟ أوه، أي فعلة فعلت؟!

همست بصعوبة: - اجلب الماء.

جلب لي قنينة ما بسرعة جداً، ولا أعرف من أين. ثم سار بي إلى مقهى قريب وحاول طوال الوقت تهدئتي، بينما كنت لا أسمعه تقريباً، وفجأة انتفضت، فقال:

- الجميع ينظرون إلينا.. أنت تعلم أن ابني في الحرب الأولى اقتيد من البيت من قبل الجنود الاتحاديين. ومنذ ذلك الوقت لم أسمع شيئاً عن مصيره. نحن شيشان، فتجمل بالصبر.

لسبب ما تذكرت زيبا فوراً. وأعتقد أنني استطعت السيطرة على أعصابي، ثم سألت:

- كيف علمت؟

- جاء الخبر عن طريق الأجهزة الأمنية.

- هل منذ وقت بعيد؟

- منذ شهرين ونصف.. أنت كنت في كوبا.

- أين حدث ذلك، وكيف؟

- أنا لا أعرف بالضبط. لكن حدث ذلك في مكان ما بمنطقتنا. في حوض نهير خولا.. ثمة أمور غامضة كثيرة. وعموماً لا يمكن فهم هذا كله.

كنت ما زلت أعلل نفسي بالأمل وسألت:

- هل هو بالضبط أم شخص آخر؟

- لا أعرف، - حاول تهدئتي - وهل يمكن استكناه مغزى أي شيء في هذا الكابوس.

لا يستطيع أحد سواي استكناه مغزى ذلك، فكرت في دخيلة نفسي ثم سألت على الفور:

- متى ستعود إلى جروزني؟ - كنت أعلم أنه بصفته من العاملين في أجهزة الأمن يتمتع بتسهيلات في السفر في الرحلات الخاصة.

- اليوم. مساء. وسيسافر معي المدير العام الجديد.

- هل أستطيع مرافقتكم؟ يجب عليّ السفر. أنا لا أتحمل أكثر.

إذن حان الوقت للذهاب إلى المطار. هل الوثائق معك؟ -

بقيت الآن المشكلة مع شوفدا. فمن جانب يكون من الأسهل الكذب في الهاتف، بالقول إنه تم استدعائي بصورة عاجلة إلى العمل. ومن جانب آخر فإن السفر من دون رؤيتها.. فماذا ستفكر؟ لكنني أعتقد أنها فهمت كل شيء. إنها فهمت من صوتي:

- هل ستبقى فترة طويلة؟

- لمدة يومين.. وسأعود في موعد الامتحان.

- حافظ على نفسك أنت على الأقل.

كانت الطائرة ممتلئة بالمسافرين. وتبدو على سيماهم جميعاً إمارات العبوس والتأمل والصمت: نحن نعرف إلى أين نسافر. الحرب!.. أنا تعبان، وتعبت من إخفاء الدموع عن الجميع، ولحسن الحظ غفوت حالما أقلعت الطائرة.

إن أيام يونيو هذه طويلة جداً. كان النور ما زال يغمر المكان حينما هبطنا في المطار العسكري في موزدوك. ومن هناك توجهنا بسرعة إلى جروزني تحت حماية الحرس الخاص. وكانت لدي خطتي وحساباتي. عند الفجر انطلقت إلى قريتي في السيارة من طراز «واز» التي وضعها تحت تصرفي رئيس الحرس.

وسألني زميلي مرة أخرى وهو يودعني:

- ربما تأخذ بعض رجالي.

-لا.. سيكون الهدوء أكثر حين أكون وحيداً. كما أن القضية شخصية بحتة. وأجازف بحياتي لوحدي...

- حسناً، كما ترى.. وأقول لك إن الجنود الاتحاديين لن يعترضوا سبيلك في حواجز التفتيش - لأن أرقام السيارة خاصة، تابعة لأجهزة الأمن.. كما أن المسلحين المزعومين لن يمسوك بأذى - الجميع تحت سقف واحد... وقد تلاقي الشقاة العاديين. لكن كما تعرف تم القضاء عليهم جميعاً...

- ومنهم ابني...

بعد هنية من الصمت غير الموضوع:

- هل تأخذ السلاح؟

- لا.

- هذا صحيح. لا فائدة منه... كما طلبت مصباح الجيب والطعام في السيارة. وقد أصدرت وثيقة التنقل اللازمة.. وبمعونة الرب.

أردت الذهاب إلى قريتي، وفي أغلب الظن هناك من يعرف مصير ابني. لكنني توجهت إلى فيدينو حيث تبدأ سلسلة جبال الشيشان العالية، وحاجز تفتيش قوي، وبعد ذلك يحظر التنقل. وكما قيل لي - لا يعيش هناك في الأعالي أي أحد. فقد دمرت جميع القرى. ولا يوجد سكان. وبقي فقط عشرات الأشخاص في قرية خاراتشوي بعد فيدينو، لكنهم من كبار السن، والسفر إلى هناك محظور. من حيث المبدأ لم تمنحني هذه الرحلة إلى موطني أي شيء، وعرفت فقط أن مكتبي ما زال فارغاً- فلا يوجد خبير في أعمال الحفر، ولهذا لا يوجد بلهاء كما يقال يحلون محلي. بينما لا توجد لدي بدائل أخرى في العمل. فرجوت السماح بالسفر إلى موسكو لمدة أسبوع فقط، وحتى أصدروا أمراً بسفري في رحلة رسمية. وكما وعدت ابنتي رأيتها بعد مضي يومين. وكان أول شيء قالته هو:

- دادا، لقد أصبحت أسود المحيا كلياً.

- هذا بتأثير شمس كوبا.

ذلك السفع كان وردياً وقد زال بسرعة. أما هذا السفع فهو ناجم عن الحرب الشيشانية وتبدو خسائرنا على وجهك التعيس. وبعد فترة قليلة سألتني:

- أنت جائع من الطريق. لماذا لا تأكل؟

- أنا أكلت ولا أريد أن آكل المزيد.

لم تكن لدي فحسب أي شهية في ذلك الوضع الصعب. وخشيت أن أبكي في حضورها، ولو أنه كانت لديّ رغبة شديدة في البكاء، لكنني ضبطت نفسي بعد لأي. فإنها أمام امتحان مسؤول، ولايجوز لها أن تبكي، فقالت ببساطة:

- موسكو لا تصدق الدموع.

- نعم، نعم.- قلت بجهد.- يجب عليك. أنت ملزمة بدخول الكونسرفتوار من أجل أمك.. كما أن أخاك الأصغر طلب وحلم بذلك.

عندئذ خانني صوتي، ولم أستطع حبس دموعي. وحدث الشيء ذاته لها. واندفعت إلى غرفتها باكية، بينما ذهبت إلى الحمام لكي أخنق نشيجي بسيل الماء. وبعد عدة ساعات، وعندما حل الليل، طرقت بابها بحذر:

- شوفدا دعنا نأكل،- لم يرد حتى الجواب. وعندئذ تابعت قولي: -

- لديك امتحان،- وعندئذ فقط سمعت خشخشة وراء الباب.

إنها لم تخرج فوراً. كانت متجهمة السحنة، والعينان متورمتان أمام خلفية دوائر زرقاء- بنفسجية. أشفقت عليها كثيراً، وأنا لا أعرف ما العمل. اقتربت من البيانو الكبير بتردد، وجلست وراء الآلة وقالت بصوت كالهسيس:

- سأفشل في الغناء.. وعندئذ سيتعين عليّ العيش في جروزني في مكتب عملك.

صرت أثاثئ شيئاً ما بزعم أن لديها يومين وستستعيد صوتها. لكنها قالت بحزم:

- دادا، أنا كنت حتى الآن أخجل من أبلغك.. لقد أرسل لي روسلان الأشعار. وكانت إحدى القصائد مهداة إليك. وعنوانها: «ستيجال - السماء». سعيت لتأليف ألحان لهذه الكلمات،- لحظتئذ كادت أن تنفجر في البكاء، وبلعت ريقها بصعوبة وواصلت الكلام.- فارجوك أن تسمع. وأذكر تقييمك لها...

... - هل أنت والد الممتحنة؟- خاطبتني امرأة كهلة جداً في حجرة استقبال مدير الكونسرفتوار.- أنا أعرف بأنه سمح لك بحضور الامتحان... تفضل. - وأشارت إلى مقعد في الركن الأقصى. وفي الحقيقة أنني فكرت بأنه ما دام الامتحان سيقدم في مكتب المدير، فهو كما فهمت يميل إلى أن يكون شكلياً وافتراضياً لحد ما.. كلا البتة - لقد كان الجو متوتراً بشكل محسوس، كل شيء في توتر، ومتوتر جداً، ورسمياً طبقاً للبروتوكول. وقد تشكلت لجنة من سبعة أشخاص- وجميعهم من كبار السن، ومثقفون، وتشير الدلائل كافة إلى أن حكمهم سيكون موضوعياً ومبدئياً بصورة بحتة.

- لن تكون ولا يجب أن تكون أي تسهيلات، - كان هذا تعقيب مدرس أصلع تماماً، تبين فيما بعد أنه بروفيسور كبير المقام. كما فهمت بأنه توجد هنا كما في أي فريق عمل، لا سيما إذا كان فريقاً إبداعياً، دسائسه وخلافاته ومعارضة ليس الطالبة الممتحنة فقط، بل والمدير نفسه، الذي يريد تقديم المساعدة جداً. وارتدت ابنتي شوفدا السواد في كل مظهرها - الحداد، وأمام هذه الخلفية بدا وجهها ممتقعاً بلا لون، وحتى يتسم بالمرض. وقد تألمت لرؤيتها، وتوتر وضعها. وكان المدير آخر القادمين. فنهضت كما نهضت شوفدا أيضاً من البيانو الكبير، وعندئذ دهشت بالغ الدهشة، فقد بقي الآخرون جالسين في مقاعدهم وحتى لم تبدر عنهم أي حركة. بالمناسبة، هذه هي القواعد والأخلاقيات والنظام. وعموماً لديهم ثقافتهم وديمقراطيتهم.

بدأ الامتحان في الوقت المحدد بدقة وحسب البروتوكول. في البداية تلت سكرتير لجنة الامتحان أمر المدير حول إعادة الامتحان مجدداً. وعندئذ قام ذلك البروفيسور وزعق قائلاً:

- أنا لا أفهم! ما معنى غرور المدير هذا! لدينا قواعد صارمة في إعادة الامتحان. وعلى أساس أي وثيقة موضوعية صدر هذا الأمر؟

فقالت السكرتيرة: - على أساس طلب والدها.

- بوسع أي والد أن يكتب الطلبات عشر مرات. ودولتي هي روسيا التي بالمناسبة تحارب جمهورية الشيشان ضدها، بينما يتعين عليّ أن أضيع الوقت والمال والوسائل شخصياً من أجل تعليم من لايريد البقاء في روسيا!،- كان يتحدث، بالأحرى يصرخ تقريباً، بتأثر وبنشاط ملوحاً بيديه.- لا سيما أنه لا توجد أي وثيقة. وهكذا يمكن أن نجلب جمهورية الشيشان كلها إلى هنا.

فقاطعه المدير: - هل انتهيت؟ نحن نقبل فقط من هو جدير بذلك. ولهذا يوجد امتحان. أما بصدد من يحارب ومع من يحارب فهذا لا شأن لنا به. ونحن نريد ويجب أن نعمل الخير.

لكن هذا الرد لم يقنع المعارض، وحاول التكلم أيضاً، لكن المدير أوقفه بحدة:

- إدوارد قسطنطينوفتش! سيجري الامتحان الآن وسيؤخذ تقييمك بنظر الاعتبار. لنبدأ!

كنت أرتجف بكل كياني بسبب التوتر والقلق وخشيت النظر إلى شوفدا. بينما أعلنت بصوت خفيض نوعاً ما:

- كلود ديبوسي، «ماما».

شدني شيء ما بحدة في أعماقي، فقد كان يجب أن تكون أمها هنا، ولست أنا... وساءت حالي جداً، وشعرت باختناق في بلعومي مجدداً. لماذا لم أجلب الماء معي؟- وأمضتني الفكرة، فقد أفسد عليها الامتحان.

الخروج غير ممكن - فأنا أجلس في ركن الغرفة، وبغية الخروج يجب عليّ أن أرغم الجميع على النهوض وبضمنهم هذا البروفيسور الأصلع. وجاهدت لكي أتغلب على الاختناق والألم والخوف.. وفيما بعد فقط لاحظت بأنني لم أعد أفكر في ذلك، فقد سيطرت عليّ الموسيقى بشكل غير ملحوظ، وروعة الألحان، وقد دهشت لها، وتصورت بأنه تجلس إلى جانبي زوجتي، أم شوفدا. إنها سعيدة وراضية جداً! لقد ذهلت وأكاد أن أبدأ بالتصفيق. لكن ساد الغرفة سكون عميق. ونهضت شوفدا من البيانو مرة أخرى وأعلنت:

- كلود ديبوسي «موسيقى الدموع».

إنني استمعت إلى هذه المقطوعة بخلاف الأولى مرات عديدة بأداء شوفدا، وتراءى لي أنها تعزفها الآن بمهارة فحسب. لكن ساد القاعة السكون مجدداً بلا تأثر. ونبر المدير فقط:

- إن هذه المقطوعة حزينة جداً.

وأعلنت شوفدا مرة أخرى: - كلود ديبوسي، «حنان».

إن هذه الألحان ساحرة فحسب. وحتى أصبح الجو في القاعة أكثر دفئاً ورقة ومؤثراً فعلاً.

قال المدير: - برافوا! - وصفق.

وأيده الجميع تقريباً، باستثناء البروفيسور الأصلع الذي نهض وقال:

- هذا كله جيد. الصوت جيد والأداء جيد. لكنها ستلتحق بقسم «الفن الموسيقي - المسرحي». ويجب أن تكون لديها قدرات مغني أوبرا - والمدرس.

تذكرت فوراً ما كانت تخشاه شوفدا: «لا سمح الله أن يطلب مني الغناء، إذ لايوجد لديّ صوت الآن». وتحدث عن ذلك بالذات البروفيسور الهمام:

- الأهم توافر القدرات في الغناء.

ووافق المدير: - بلا ريب. ماذا يوجد لدينا كحلاوة؟ شوفدا، عزيزتي، أذكر أنه في الحفلة الطلابية الساخرة أنشدت نمرة بنبرة ظريفة.

فعارضه البروفيسور:

-لا - لا. يكفي الارتجال. لدينا مادة في البرنامج. دعها تنشد مقطع لوباشا من اوبرا «عروس القيصر» لريمسكي - كورساكوف.

ساد القاعة لغط عدم استحسان.

وقالت إحدى المدرسات: - هذا صعب حتى لدى امتحان نيل الدبلوم. بينما هذا امتحان القبول في الكونسرفتوار. إنها لاتتخرج من الكونسرفتوار بل تلتحق به فقط.

وزعق البروفيسور:

- أنا أعرف. لكن طالبتنا المحترمة تتخرج من معهدنا الموسيقي وفي الوقت نفسه تحاول الالتحاق بالكونسرفتوار. والكونسرفتوار ليس مكاناً يدخله كل من هب ودب. ونحن لن نسمح بتقليل منزلة معهدنا... هل إن هذه المقطوعة موجودة في البرنامج؟ أنا أسالكم جميعاً.

فأجابوه جميعاً تقريباً:

- موجودة.

لوح أدوارد قسطنطينوفتش بيديه: - إذن لتتفضل.

وعلق المدير: - كيف ستغني بلا مرافقة موسيقية.- لا توجد هنا شروط.

- أنت حددت موعد الامتحان في غرفة مكتبك الفاخرة، وليس في القاعة... دعها تغني بلا موسيقى. ما هو الفرق. نحن نثمن الغناء. وهذا وارد في قواعد القبول. وبوسع الطالبة وحتى يجب أن تعزف على الآلة بنفسها، أعتقد أن النوتات متوافرة هنا.

قال صوت نسائي:

- لا توجد هنا نوتات.

وألح البروفيسور، وقال مخاطباً المدير: - دعها تغني. أنا أرجو وأطالب ولي الحق في ذلك بصفتي عضواً في لجنة الامتحان. ألست على حق؟

- على حق.. تفضلي، - واتجهت جميع الأنظار إلى شوفدا مجدداً.

وقفت. وأعلنت المقطوعة. فسعلت في قبضة يدها، وبدأت لتوه بالغناء ثم توقفت. فجلبت لها امرأة عجوز قدح ماء. ابتعدت شوفدا جانباً وشربت جرعتين، ووضعت القدح على الطاولة، وعادت إلى البيانو. بدأت شوفدا الغناء بعد المحاولة الثانية بصورة جيدة،، لكن في نهاية المقطع الأول، حيث وجب أن ترفع صوتها، وكما أوضحت لاحقاً، كمغنية سوبرانو كولاتورا توقفت عن الغناء فجأة. إنها تراخت كورقة ذابلة في الخريف دفعة واحدة، كما لوأن ساقيها لم تعدا قادرتين على حملها، وهبطت ببطء على المقعد أمام البيانو. التوت بكامل جسدها، وأصبح رأسها بين ركبيتها تقريباً. وتبين من إرتجاف ظهرها أنها تبكي. وخرق فترة السكون هذه البروفيسور الأصلع نفسه. فقد نهض ولوح بذراعيه وتطلع إلى الجميع بهيئة الظافر:

- كما ترون، إن التقييم جلي للعيان.. طبعاً، هذا مؤسف. إنها حفظت فقط شيئاً من ديبوسي. لكنني أعتقد أن مثل هذه الموسيقى ومثل هذا الفن لا تحتاجه جمهورية الشيشان البتة.

لدى سماع هذه الكلمات ضج شيء ما في صدري وغدا في حالة فوران وكنت مستعداً لعمل ما يعرفه الرب وحده، ولو بالصراخ من السخط، لكن سبقتني شوفدا - إنها اندفعت نحو المخرج، لكن أوقفوها فوراً. واقتادتها عنوة إلى آلة البيانو فوراً امرأة عجوز تماماً، لكنها ما زالت قوية البنية وحازمة، وأجلستها في المقعد عند الآلة وتطلعت إلى الجميع بعد فترة صمت قصيرة:

- أيها الرفاق، - قالت ذلك بلهجة حازمة قوية، - كما تعرفون أنا المدرسة المشرفة على تعليم هذه الفتاة، إنها في صفي. وأقف أنا ونشاطي التربوي أمام تقييمكم، ولهذا يحق لي أيضاً أن أجيب على بعض الأسئلة المطروحة.

وعندئذ وضعت يدها على كتف شوفدا.

- لقد قيل هنا إنها «حفظت شيئاً ما من ديبوسي». وأنا أتذكر أقوال هذا العبقري: «الموسيقى تبدأ حين تعجز الكلمات عن التعبير». وقصدي أن جمهورية الشيشان بحاجة إلى مثل هذه الموسيقى بالذات. يجب تعليمهم وكان يجب أن يرسل إليهم سابقاً أيضاً والآن ليس الدبابات والطائرات بل فرق الأوركسترا السيمفونية وفرق الأوبرا.

- وربما الباليه؟

- نعم! الباليه أيضاً وليس الفرق والأفواج العسكرية.

امتعض البروفيسور وقال: - ما معنى هذه الدعاية؟!

- إن قصدي يا ادوارد قسطنطينوفتش المحترم، أنه في عام 1944 كان هذا الرجل - والد شوفدا، في العامين من العمر، ولكن تقرر اضطهاده مع شعبه كله، فالجميع أصبحوا من أعداء الشعب، وحتى الأطفال. وهب والد هذا الطفل للدفاع عنه، وربما كان في مثل سننا، أطلقوا عليه النار. وبعد الترحيل توفيت الأم لإصابتها بالتيفوئيد. وبقي الطفل بمعجزة على قيد الحياة. واليوم هو رجل بالغ ويريد أن تصبح ابنته موسيقية.

فقاطعها البروفيسور: - لكن الرغبة شيء والقدرة شيء آخر.

- ربما، إنهما مختلفان، ولكن في الوضع الراهن. أنتم جميعاً.. ونحن جميعاً نعلم قدرات هذه الفتاة. بينما تحدث المصيبة مجدداً. فقد قرر حكامنا على عتبة القرن الواحد عشرين مجدداً معاقبة جمهورية الشيشان المتمردة، وأرسلوا إلى هناك مجدداً الدبابات والطائرات، وكما نعرف فقد لقيت مصرعها في ذلك العام أمها وأخوها الأكبر بضربة صاروخية. أما مصير الأخ الآخر فغير معروف، لكنه مصاب بجروح خطيرة.

فهب البروفيسور وقال: - أيها السادة، أرجو المعذرة. أنا طبعاً أشفق عليها. لكننا لسنا مؤسسة خيرية، بل كونسرفتوار. وثمة قواعد صارمة في قبول جميع الطلاب.

وقاطعته مدرسة شوفدا قائلة: - أنا أريد التحدث عن هذا بالذات.

ودنت بسرعة من مكتب المدير وتناولت بعض الوثائق وعادت إلى مكانها السابق بجانب شوفدا.

هذه مطالبنا في القبول. وهنا يوجد فصل خاص: «حق الأفضلية في القبول يمنح إلى:

الأطفال اليتامى والأطفال الذين حرموا من رعاية الوالدين.

المواطنون في سن دون 20 عاماً إذا كان الوالد الوحيد معوقاً من الدرجة الأولى».

وامتعض البروفيسور: - وهل إن هذا الرجل معوق؟

وقالت المدرسة بعصبية: - وهل المعوق هو من بلا يدين، إن المعوق هو من تحطمت حياته وروحه. وفي الختام البند «هـ»: «إلى العسكريين الذين يقومون بمهام في ظروف النزاع المسلح في جمهورية الشيشان والمناطق المحاذية لها».

وسأل البروفيسور: - وهل هي من العسكريين؟

رفعت صوتها أكثر مدرسة شوفدا: - أيها الزميل المحترم! توجد ويجب أن توجد دائماً قواعد غير مكتوبة... إنها - ووضعت يدها مجدداً على كتف شوفدا بروح الطيبة والأمومة - ليست من العسكريين. إن مصيرها أكثر إيلاماً - إنها ضحية الحرب - وعندئذ تهدج صوتها، وتوقفت عن الكلام.

سأل المدير: هل يوجد لديك اقتراح؟

- نعم.. إننا ندرس مقطوعة لوباشا، وهي موجودة في البرنامج. ولكن ليس في امتحان القبول، وحتى في امتحان التخرج من الكونسرفتوار لا يؤديها سوى القلائل. ونادراً ما تؤديها على انفراد المغنية الأولى في مسرح البولشوي.

واقترح أحدهم: - دعها تؤدي مقطوعة غيرها.

فأيدها الآخرون: - نعم.

ابتسمت المدرسة المشرفة: - شكراً، أيها الأصدقاء. - والحق أنني لا أطلب التساهل معها. فإن شوفدا تتمتع بقدرات رائعة، وأنتم تعرفون ذلك. ويجب عليها أن تعود إلى حالتها الطبيعية بعد كل تلك الهزات.

قال البروفيسور الأصلع مجدداً: - هذا صحيح. دعها تأتي مجدداً بعد عام.

بعد عام ربما لن أكون هنا- وأصبح صوت المدرسة حازماً مجدداً - بالمناسبة، ربما أنت لن تكون أيضاً.

- ماذا؟

- هكذا! - لوحت بيدها بلا اكتراث،- وأمها المستقبل - ومستقبل جمهورية الشيشان وروسيا! ويجب علينا من أجل هذا المستقبل أن نحافظ على النهج الموسيقي الجديد والوضاء.

وصفق أحدهم. وأيده الجميع تقريباً. وتابعت المدرسة المتحمسة كلامها قائلة:

- أيها الزملاء، أيها الأصدقاء! لدينا اليوم حالة غير عادية. وقد حدث أن لا يجري الآن امتحان هذه الفتاة بل وامتحاننا جميعاً. ولقلت إنه امتحان سن البلوغ وتفكيرنا الحر... هل يعقل أننا أهل الفن لا ندرك ما يجري في البلاد، ونستحسن هذه الحرب؟! وهل من المعقول أننا نقسم الناس على أساس الانتماء القومي؟

ونبر البروفيسور: - فقط على أساس المهارة في الأداء.

هذا بالذات. ولهذا سأبلغ شيئاً بصفتي المرشدة. إننا جميعاً نذكر ونحب المرحومة يليزافيتا ابراموفنا - لها ملكوت السماء. إن شوفدا لم تتعلم تحت إشرافها بل عاشت معها في بيتها. وقد طلبت مني أن أفرض وصايتي عليها. وأنا أيضاً ربطتني وشائج المودة والمحبة تجاه هذه الفتاة. وأقول إنها اليوم قد أخفقت لأسباب مأساوية، ولكن يجب علينا مساعدتها. علماً بأنها ليست عازفة ومغنية تبعث على الأمل بل وملحنة واعدة، وهي تتمتع بموهبة التلحين الموسيقي، فهذه الموهبة موجودة لديها فعلاً... إنها ألفت عدة مقطوعات إحداها باسم «السماء - ستيجال «وأرجوها الآن أن تعزفها، وأطلب منكم الإصغاء إليها.

إنني انقبضت على نفسي لدى سماع ذلك، وحدث توتر في الغرفة، وواصلت المدرسة الكلام مثل عريف الحفل:

- أيها الزملاء المحترمون! بودي قبل سماع هذه المقطوعة قول عدة كلمات حولها... إن الشيشان ما زالوا يحتفظون بأصالتهم القومية وعهد سيطرة الأبوة. وهذا حتى في الأسماء. فمثلاً إن معنى شوفدا باللغة الشيشانية هو النبع والينبوع. واسم الأب لديها هو ستيجالايفنا - وألقت نظرة باتجاهي.
- واسم أبيها نادر جداً وجميل هو ستيجال، ويعني ذلك - السماء!

نظر الجميع إليَّ. إنني صمدت بشكل ما حيال هذا الاهتمام العابر بسرعة. وعندما بدأت الحديث عن مؤلف الكلمات روسلان ومصيره ومصير أمه أولجا سيرجييفنا وجدته ودوري في حياتهم، وكيف أن المقطوعة الشعرية مكرسة إليَّ بالذات، أصابني القنوط كلياً لدى استرجاع تلك الذكريات، وأحنيت رأسي، ولم أرغب في سماع هذا كله. وبدت لي تافهة للغاية جميع هذه الخواطر والمعاناة بالمقارنة مع مغزى الحياة نفسها والموت لحد أنني أردت أن أمسك بيد شوفدا، وتقديم الشكر إلى الجميع، والابتعاد عن هذه الموسيقى والفن، والخروج. لكنني ما زلت أحتفظ بالقدرة على التفكير بعقلانية. وفيما كنت أكابد المعاناة بصدد ما سأقرره، انسابت الموسيقى بحنان، ثم انطلق صوت شوفدا العذب وأغنية «ستيجال»- إنها ليست عني، بل عن السماء الخالدة الزرقاء والوضاءة والمترامية الأطراف. عن الحرية. عن حب الحياة والناس والمغفرة.. إنها ليست المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الأغنية. لكن كان ذلك في مبررات أخرى، وأجواء أخرى، وسامع آخر. وبوسعي الآن أن أرفع هامتي... وفجأة ساد الصمت. سكون.

- شكراً! - قال المدير بتحفظ. بينما صفق الجميع.

.. قبلت شوفدا. وبقينا فترة أطول في تلك الصالة. وقدمت التهاني إلى شوفدا والمدرسة المشرفة على تعليمها وإليَّ أيضاً. إنني أتذكر هذا الامتحان وأصفه بتفاصيله لأنه اختتم في شيئين. فقد دنا مني ذلك البروفيسور وصافحني وقدم اعتذاره لموقفه. وعندما خرج جميع أعضاء اللجنة قال المدير:

- شوفدا، عزيزتي، في هذه المقطوعة شيء غير مفهوم بالنسبة لنا.. أرجوك غن مرة أخرى أنشودة «ستيجال»...

19 مايو، صباحاً

توجد في تواريخ يومياتي حتمية مفهومة. وعادة أنا أكتب في الأيام الغائمة وليلاً، حين لا أستطيع النوم. وكانت الأيام الأخيرة مماثلة لذلك جداً. فقد عملت كثيراً، وصعدت إلى الجبال. وأنهيت إصلاح الطائرة الشراعية. لكن ويالأسف لا يوجد مكسيم إلى جانبي، فقد غاب عني. ولو أن هذا غير صحيح طبعاً. فإنني غالباً ما أتذكره وجميع من كان قريباً مني في الحياة. إنني أعيش في الذكريات. بينما ضاقت دائرة التعامل مع الآخرين إلى الحد الحرج. هذا ناموس الحياة. وأنا أتذكر بهذا الصدد أقوال العم جيخو: «إن أكبر الفقر هو حين تكون فقيراً إلى الناس».

فسألته لعلمي بوجود أسرة كبيرة حوله: - ماذا يعني ذلك؟

ابتسم العم جيخو وقال: - اعمل جهدك وستفهم.

الآن أنا أفهم - لايوجد بالقرب مني أصدقاء مقربون، بل فقط من هم في مثل عمري. لا يوجد من أتواصل معه. كما أنني لا أستطيع التحدث مع أحد. ربما أن هذا ما يجعلني أكتب...

هكذا. أين توقفت من قبل؟ آها! «ستيجال». أغنية «ستيجال» - وتعني السماء. نعم، هذا هو اسمي. لكنه ليس الاسم الحقيقي، فقد أطلق عليّ هذا الاسم العم جيخو. أما اسمي الحقيقي فقد ضاع مع أهلي وأقاربي في عام 1944.

... يقال إن شتاء عام 1944 كان بارداً جداً وانهمرت فيه الثلوج الكثيرة. وكنت آنذاك قد تجاوزت العامين من العمر، وأنا لا أذكر شيئاً من ذلك. وأعرف فقط ما رواه لي شهود العيان، وما اطلعت عليه بمرور الزمن. لقد بدأ الترحيل، وبالأحرى نفي وإبادة الشعبين الشيشاني والإنجوشي، في 23 فبراير، وكانت تلك المرحلة الأولى - وجرى في السهول وسفوح الجبال والأماكن التي يسهل الوصول إليها، وتصلها وسائل النقل. وبدأت العملية في منطقتنا الألبية الجبلية العالية في 28 فبراير. وفي ذلك الوقت لم تكن وسائل النقل موجودة وما كان بوسعها الوصول إلى هناك - لا توجد جسور فوق الأنهار الجبلية ولا الطرق. لقد كانت قريتنا منعزلة. بينما وجد بيتنا منعزلاً لوحده تماماً. وتشكل من أجل ترحيل قريتنا فوج جبلي خاص زود بالخيول والبغال المصادرة من

الناس المحليين. وفي ذلك العام تساقطت الثلوج بوفرة، ما جعل تلك العملية شاقة للغاية. وفي يوم الترحيل صدر الأمر إلى جميع ساكني القرية بالهبوط في الممرات الجبلية مشياً على الأقدام. ومن لا يستطيع المشي - يبقى. وقد اضطرت أمي مع أطفالها الثلاثة (أنا الأوسط)على المشي، بينما سمح إلى أبي بالبقاء مع أمه المريضة، أي جدتي. كما كان لدي اثنان من الأعمام. ولقي أحدهما مصرعه في جبهات القتال في العام نفسه. أما الأصغر سناً، فقد اختفى في الجبال - ربما كان يعرف الخطب الداهم مسبقاً، وربما ذهب للبحث عن الجياد المفقودة. وعرف فقط أنه أصبح أبريكا (الأبريك - باللغة الشيشانية رجل المقاومة الشعبية الذي حارب السلطات- المترجم)، وفي أغلب الظن لقد تم القضاء عليه. بينما احتجز أبي مع جدتي في مكان واحد (بلغ عدد مثل هؤلاء العاجزين في المنطقة نحو عشرين شخصاً). وكان المقرر أن يتم إعدامهم وإلقاء جثثهم في الهاوية. وأبقيت لهذا الغرض سرية واحدة في الجبال. ويقال إن آمر هذه السرية - وهو من الشبان من أبناء سيبيريا الأصحاء البنية - قد رفض تنفيذ الأمر. وعند ذلك أسقط في اليوم التالي من الطائرة فريق من رجال المظلات. وقاموا في البداية بإعدام رجال السرية الخائبة وألقوا بجثثهم في الهاوية. وبعد ذلك أجهزوا على المحليين. ربما شاهد ذلك كله، حتى عمي المفقود. وبقيت على قيد الحياة امرأة أصيبت بجرح خفيفة وأسقطت فوق الجثث الأخرى. وأفلحت في الوصول إلى المنطقة السهلية. وتم العثور عليها ورحلت أيضاً إلى كازاخستان. حتى إنني أذكرها، فقد عاشت حتى بلغت سن الشيخوخة، لكنها كانت تخاف التحدث عن وقائع تلك الأيام الرهيبة، وإذا تحدثت، فإنما تفعل ذلك همساً فقط ووسط الدموع لشدة ما زرع الخوف في قلبها.

بدأت خسائر أسرتنا منذ البداية. فلم يصمد أحد الخيول تحت وطأة الحمولة الثقيلة ولم يستطع المرور فوق معبر منحدر تغطيه الثلوج وسقط من الجبل إلى الهاوية، وسحب معه ثلاثة أشخاص بينهم أخي الأكبر البالغ الخامسة من العمر. ومن ثم لدى عبور نهر جبلي سريع الجريان انزلقت أمي، وهي تمسكني مع أختي البالغة من العمر ستة أشهر، وسقطنا جميع في النهر الجليدي. جرى إسكان الطابور الخاص من المرحلين للمبيت في مدرسة قرية خاراتشوي غير المدفأة. وفي الصباح نقلونا جميعاً في الشاحنات إلى محطة القطار في جودرميس. وتم شحننا في عربات نقل الماشية ومضينا في رحلة طويلة بلا طعام وشراب. وقد توفيت أختي بسبب البرد الشديد.

أنزلونا في صحراء قره- قوم. وأسكنونا هناك في حظيرة للماشية. وانتشر وباء التيفوئيد. ومات الجميع تقريباً ومنهم أمي. وبعد ذلك جاء رجال الحجر الصحي واضعين الأقنعة الواقية من الغازات، وبغية ألا يتفشى الوباء، وضعوا جميع المرضى الباقين في زريبة وأحرقوهم. وهكذا قام اللهب بتعقيم كل شيء.

كنت قوي البنية، ولهذا لم أصب بالمرض. ونقلت إلى المدينة، ربما، في الحجر الصحي، ووضعوني في المستشفى، ومن ثم في بيت اليتامى حيث جاء العم جيخو لأخذي. وعندما رآني ذهل كما كرر ذلك مراراً لمشاهدة عيني الزرقاوين الواسعتين:

- «ستيجال سانا ليلو سيينا بارغاش» (باللغة الشيشانية - ذو العيون الزرق زرقة السماء»).

ومنذ ذلك الحين أطلق عليّ اسم ستيجال، وأنا لم أعرف اسمي الحقيقي. وسجلت في بيت اليتامى باسم أليك. وعشت بهذا الاسم حتى بلغت سن 18 عاماً، وعندما حصلت على الهوية الشخصية تغير اسمي.

وستيجال اسم نادر، وحتى هو نادر جداً. ربما إنه يعود إلى أزمان عبادة الأوثان، لكنه اسم شيشاني خالص، وهو يعجبني، ولو أنه غير مألوف، والجميع يكررون السؤال عنه حين أذكره لهم. وغالباً ما كان يقال لي، وبالأخص في أيام الشباب، - غيره إلى اسم مألوف أكثر. لكنني حتى لا أفكر في ذلك. وحسناً فعلت. وأشكر الأقدار لكون ابني الأصغر قد غير جميع المعطيات في الوثائق الجديدة، بينما أبقى على اسم الأب. وربما كان سيفقد أثره، مثل الكثيرين، لولا اسم الأب النادر «ستيجاليفتش». وبتعبير أدق بقيت الأحرف الخمسة الأولى في وثيقته بصورة تشبه المعجزة. والإ ما كان سيتعرف عليه أي أحد. ولم أكن سأبلغ. وهذا ما حدث.

بعد امتحان شوفدا عدت إلى جروزني. أواسط عام 2000. من حيث المبدأ لم يتغير أي شيء - إنها الحرب. والتحقت مجدداً بالعمل - يجب دوماً استخراج النفط وضخه. كنت أعمل لكن ليس بهمة كالسابق، فقد كانت لديّ مهمة أخرى - إلا وهي على الأقل العثور على جثة ابني الأصغر. وما أكثر ما عملت، بينما الوقت والوضع في غاية الصعوبة، وحتى تنقلت من قرية إلى أخرى، ومع ذلك انحرفت عن الدرب، وهذا خطر: هناك الألغام والطيران وجميع الرجال المسلحين هؤلاء الذين ينظرون إلى الجميع عبر عدسات منظار السلاح فقط... باختصار، إنها الحرب. لكنني لسبب ما لم أخف من أي شيء. لقد جبت القرى الجبلية كافة التي سمح لي بالذهاب إليها، واستفسرت من الجميع. ولايوجد في القرى الجبلية أحد ما تقريباً، بينما لا يسمح لأحد بالاقتراب من قرانا في الجبال العالية. وقد غامرت بالتجول عند مصاب كثير من الأنهر الجبلية، لأنه حسب معطيات رئيس فريق الحماية عندنا (وقد بذل جهده في مساعدتي) تسربت معلومات بأنه جرى قتل ابني في مكان ما بمجرى النهر. بالمناسبة وجدت عدة جثث مجهولة الهوية، وحتى أعطيت حامضي النووي من أجل التحليل والمقارنة- لكن عبثاً. زرت معارض الجثث في خان قلعة وفلاديقوقاز وروستوف. وهكذا انصرم الصيف. وفي أواخر الخريف أبلغوني أن أحد الشيوخ يسأل عني عند البوابة.

- ستيجال - أنت؟ - وفك خلال فترة طويلة منديلاً قديماً وقذراً، واستخرج منه شيئاً ما قدمه لي.- هاك...

إنها وثيقة مكرمشة وممزقة، كما لو أنها قديمة العهد، وصورة فوتوغرافية استحال لونها كلياً في الماء، وطمست معالمها، بينما بقي كمعجزة فقط جزء من اسم الأب - «ستيجال»، ستيجالوفتش.

- لقد وجدتك من هذا الاسم النادر. اسم جميل. بيد أن المصير ليس كذلك. لكن ما العمل - إنها الحرب.. ربما، هوليس ابنك؟

كانت جثته ممزقة، ومنخوبة، ونهشتها الوحوش المفترسة، لكنه ابني ولا حاجة إلى أي تقرير للخبراء. لقد عرفت ابني حتى بهذه الحالة، وياللأسف. ولغرابة الأمر إن هذا أمر جيد. لأن أفظع

وأثقل الأمور وطأة - هو المجهول. وأنا طبعاً في غاية الامتنان إلى هذا الشيخ الذي عمل كل ما في وسعه. إنه عمل طوال حياته حارساً للغابات ومنذ أيام السلطة السوفيتية. وعاش بهذا الحال في أطراف ديشني - فيدينو، والآن حين خلت القرى الجبلية تقريباً من ساكنيها، أصبح وحيداً تماماً. وبعد تفكك الاتحاد السوفيتي لم تعد جمهورية الشيشان بحاجة إلى حراس الغابات، ولم تدفع لهم الرواتب والمعاشات التقاعدية. لذا فهو يدبر معيشته من المصادر الطبيعية، حيث كان حسب قوله يعيش من جمع الثمار وصيد الفرائس التي يقتنصها بنفسه. في ذلك اليوم وكان ذلك في العقد الأول من شهر مارس - كنت أعمل آنذاك في كوبا، في الطرف الآخر من العالم، وهكذا فرقت بيننا الأقدار. آنذاك بالذات أصبت بنوبة قلبية - فقد بلغت موجة الموت ذلك المكان أيضاً. وكان هذا الشيخ يجمع الثوم البري بالرغم من جميع المخاطر (فلابد من العيش). وفجأة سمع صلية رشاش متواصلة بين فترة وأخرى، وفيما بعد سمع أصواتاً - يبدو أنها طلقات المسدس وبفترات أيضاً. علماً بأن تلك الأنحاء نائية وهادئة. وصعد الشيخ إلى أقرب أكمة، كعادته من أجل أن يطلع على كل ما يجري في منطقته. وفيما كان يتسلق الأكمة بدا أن الحدث انتهى لكن لم ير شيئاً، بل سمع فقط هدير المحرك الذي يمضي صعوداً فوق المنحدر، ولكنه اختفى أيضاً وراء المنعطف. أما الشيخ فقد غلبه الفضول، وذهب لاستطلاع المنطقة. إنه يعرف اين يبلغ الطريق جرف النهر، وكان يعرف أيضاً بأن هذا المكان كان مكاناً سرياً يلتقي فيه المسلحون من جميع الأصناف - أي مكان الاجتماع. كما كان يعرف بأنه كان هناك مخبأ سري للمسلحين. فيوجد هناك خزين صغير من الأطعمة والأسلحة وغيرها. لكن الهدف الرئيس، حسب اعتقاد الشيخ، كان بمثابة نقطة البريد حيث يمكن أن توضع فيها المعلومات. لكن، ولفرحة الشيخ، توقفت الاجتماعات هناك عملياً. بينما حدث هنا شيء لم يحدث سابقاً - توجد جثتان. كانت إحداهما ملقاة في الطريق مباشرة. من هو - من الصعب إدراك ذلك فيرى فوراً أنه لم يتجول في الغابات- فهو بدين ويرتدي بزة عسكرية بلا كتافيات. وكان يرتدي صديرية واقية من الرصاص، وثقبت الرصاصات الثلاث البزة فقط، بينما أصيب رأسه برصاصات - وكل شيء غير مفهوم. أما الآخر فكان راقداً في مجرى النهر مباشرة. وبدا جلياً للعيان أنه من الغابة، فهو هزيل وكث الشعر وحتى الجزم متهرئة، وهو طبعاً بلا صديرية مضادة للرصاص. وقد نخل جسده كالمنخل: لقد أطلقوا عليه النار من الخلف، كما يبدو، ثم من الأمام، ومن ثم في الصدر... وكان هذا ابني.

إن الصورة غير سارة، وكان أي شخص عادي سيصاب بصدمة. وبغية أن يبتعد عن الشر، كما يقال، أراد التراجع، لكنه عدل عن ذلك، فهو وحيد في جميع هذه الأنحاء، - يجب القيام بشيء، ولو النظر إلى الوثائق في الجيوب، ويجب مواراتهما التراب. بغية ألا تواصل الوحوش المفترسة هذه الفعلة البربرية. لكن سمع في الفج آنذاك هدير محركات وظهرت أربع مروحيات، وتوقفت واحدة منها فوق المكان مباشرة. فاختبأ الشيخ وسط الأحراش، وفكر بأن عمل أي شيء في النهار لا يخلو من خطر، وقرر أن يرجع إلى المكان عند الغسق. ولكن لم يتسن له ذلك مجدداً - فقد كان على مسافة خمسين متراً فقط من موضع القتل، إذ سمع مجدداً هدير المحركات المتصاعد، وظهرت الآن عربات مصفحة. وشاهد كيف حملوا القتيل ذا الصديرية المضادة للرصاص إلى المصفحة. وتبين أن معهم كلباً أخذ ينبح. وانطلق الشيخ مبتعداً بسرعة. وقرر العودة فقط عندما سمع هدير المصفحات المبتعدة، ومجدداً تجدد العويل، إنها المروحيات مرة أخرى - فأطلقت الصواريخ في تلك البقعة ثم ابتعدت.

خيم الظلام الشديد على المكان عندما عاد إليه الشيخ بدافع الفضول - لقد دمر كلياً المخبأ ومكان لقاء المسلحين وتحول إلى حطام. وأراد الشيخ أن ينسى ما حدث بسرعة - وما أكثر الوحوش المفترسة خلال حربين، وقد تخاصمت في تلك الليلةعند جرف النهر من أجل الحصول على الفرائس، وعوت بنات آوى. فكر الشيخ - «يبدو أن شيئاً ما حدث» - وتوجه قبل حلول الفجر إلى النهر في الفج وعثر على الجثة هناك. في العشية أخذ الجنود الاتحاديون القتيل صاحبهم بينما تركوا الآخر في النهر. لكنه لم ينجرف مع التيار، بل تعلق في الأماكن الضحلة. فسحبه الشيخ إلى الغابة ودفنه قدر استطاعته.

... بعد مرور عامين فقط، وبعد عراقيل كثيرة، حصلت من القومندان العسكري على رخصة إعادة دفن رفاة ابني الأصغر في المقبرة في قرية الأسرة. وظهر قبر آخر إلى جانب قبري زوجتي وابني الأكبر.. وعما قريب سيظهر آخر فقد كنت أعرف تشخيص مرضي. فأنا أحيا ما تبقى لي من أيام. وأكابد الحزن والألم فقط من أجل شوفدا. وماذا كان بوسعي أن أفعل. إن الأطباء قد تنبأوا لي بالعيش فترة نصف عام وعام فقط في أفضل الأحوال. لكنني أحيا للعام الخامس. وحالتي الصحية طبيعية. على أقل تقدير لا يتجول في الجبال أي أحد من أقراني، حتى الأصحاء منهم كما يبدو. هذا هو معنى وجود الدافع! فيجب عليّ أن أنتقم! وسأنتقم!

6 يونيو، مساءً

كما كتبت آنفاً فيوجد في بلادنا فقط، كما أعتقد، القول المأثور- لا أحد في مأمن من السجن. وفي وضعي يجب أن أضيف - في مأمن من مركز علاج الأورام في كاشيركا. كنت أعتقد، وحتى أنا واثق بنسبة مائة بالمائة، إنني لن أدخل مرة أخرى هذا الوكر - مركز بزنيس لكسب المال من المصائب البشرية. لكن للأسف وجدت نفسي فيه مجدداً. حقاً إن الوضع تلف الآن كلياً - فإن شوفدا سددت جميع النفقات، ولدي الآن ردهة منفصلة، وحتى طاولة كتابة وضعت هناك تلبية لطلبي.
لكن هذا هو المظهر أما المحتوى فهو باق كالسابق، وبقي الأطباء الجشعون والوقحون وكذلك الممرضات. لكنني لن أبقى هذه المرة فترة طويلة. وعلاجي حالياً يتسم بصفة ميكانيكية تقريباً- أنا أنتظر فقط التئام الجرح حول القسطر، وبعد ذلك سأسافر جواً. لا، ليس في الطائرة الشراعية، بالرغم من رغبتي الشديدة في ذلك. وقد أفلحت في تحسس مذاق التحليق فيها. بالمناسبة فأنا جئت إلى هنا بسببها. لكنني لن أتحدث عن ذلك... ولم لا؟ لم لا أتحدث عن الحدث الرائع والساحر والمذهل! ما أروع، وما أكثر ما يأخذ بالألباب حين تطير كالنسر- ربما ليس نسر الجبال بل ما هو يشبهه - وتحوم فوق الجبال. يسيطر عليّ حتى الوقت الحاضر هذا الإحساس بالتحليق وبانعدام الجاذبية تقريباً. أظن أن حالتي كالمدمن على المخدرات فبعد أن جربت التحليق مرة واحدة ومرتين، وحتى ولو بصورة غير موفقة تماماً، فأنا أحلم بذلك وأود التحليق. أود أن أشعر قليلاً وقليلاً ولو للحظة واحدة بمتعة وبهجة التحليق والحرية، وليس الزحف فوق هذه الأرض الفانية.
إنني غالباً ما أتذكر مكسيم في هذه الأيام. آه، ما أشد حاجتي الآن إلى خبرته ونصائحه. أنا أتذكر المرة تلو المرة كيف أنه أمضى يوماً واحداً فقط في جمهورية الشيشان إبان الحرب ثم غادرها عائداً إلى بيته وقال لي إن جميع الأدرينالين قد نفد، وبضمن ذلك التحليق في الطائرة الشراعية.

وصار يعيش حياة هادئة ومنتظمة مثل أي إنسان بسيط، وراح يستمتع فحسب بالحياة السلمية. ولهذا أصبح بديناً، وكما قال طبيبه المعالج: «حينما يعتاد الجسم على تحمل المشاق والمجازفات فإن القلب، وربما الروح، لن تتحمل هذه الطمأنينة». بينما لدي الأمر بالعكس، وأقول هذا ربما في مدح نفسي، فقد كابدت شظف العيش في حربين، وفقدت الجميع وكل شيء تقريباً، ولكن فجأة ظهر هذا الأدرينالين الذي لا يعرفه أحد كما يجب. أنا أعرف بأن بعضهم يصفوني بالمخبول الذي أصيب بالجنون بسبب المصائب والمرض ومرور الأعوام. بينما يعتبرها بعضهم مجرد ألعاب صبيانية. لكنني أرغب جداً في العيش! أنا أعرف بأنه لم تتبق لدي فترة طويلة في الحياة. لكنني أرغب في أن أحيا هذه الفترة، آخر فترة، حياة تفيض بالمتعة، والحرية، وبالتحليق.

في أواسط مايو ساد في الجبال، كالعادة، جو دافئ ربيعي حقيقي. وتفتحت الزهور في كل مكان. أي تلاوين تألقت، وأي عبير ساحر غمر الرياض الألبية. واضطربت محلقة النحلات والفراشات والطيور والجعل. لكن لا توجد هناك أي حشرات ضارة كالذباب والبعوض- إن هذا الركن من رياض الجنة!. يجب عليّ أن أعيش هنا، أعيش بحرية، ومعنى ذلك أن أطير. ولهذا انشغلت عدة أيام في تهيئة طائرتي الشراعية، وعندئذ قررت أن أفعل كما فعل مكسيم، إن أبني ما يشبه المرآب من أجل الطائرة الشراعية في علية البيت، بغية ألا تجرفها الرياح. وفي آخر لحظة فكرت: «إذا سحبت الجهاز إلى العلية - فبعد ذلك لن أستطيع إخراجه من هناك. فدعني أجرب التحليق». إنني طالعت كتابين حول رياضة الطائرات الشراعية. لكن هذا كله نظرية، أما في التطبيق العملي فهو ليس بهذه البساطة كما تبين لاحقاً. أولاً، يجب أن يكون الطقس بلا رياح أو ذا رياح خفيفة. وثانياً، وهو الشيء الرئيس، يجب أن يحدد بشكل صائب اتجاه التيار المنحدر إلى الأسفل. وثالثاً يجب البدء بالتحليق من المنحدرات الصغيرة والمنخفضة، تحت إشراف المرشد حتماً، ويجب أن تتم التحليقات الأولى بمرافقته حصراً. والبند الأخير لا يمكن تحقيقه، فهناك من بدأ لوحده وبلا وجود أي مرشد ونظريات. وهكذا سيطر عليّ الحماس بكل معنى الكلمة.. فيوجد إلى جانب بيتي، وتحت النبع مباشرة، منحدر كبير من الصخرة، وتليه - الهوة و... ومن ثم الفضاء المترامي الأطراف فوق الفج. ويصب النبع هناك بالذات. سابقاً كنت أخشى حتى من الاقتراب من طرف ذلك المنحدر: فهو طمي ومنزلق والأعشاب فيه عالية، وكنت دائماً أتذكر أشعار ليرمنتوف حول النبع الجبلي:

... في الفضاء الشفاف والمنير يجري بين الأعشاب الطويلة،

ويصب فوق الصخور الملساء منحدراً إلى الهوة،

ويضيع في العتمة، وفوقه

يحلق سرب حمامات رمادية فزعة طليقة،

مرددة هديل الوداع...

صرت الآن غالباً ما أقف عند طرف تلك الهوة الشديدة الانحدار: وأمعن النظر، وحتى أحدد الهدف افتراضاً - هل أستطيع التحليق من هنا. أنا أستطيع وأريد وحتى يجب عليّ ذلك. لكن يجب قبل هذا القيام بتدريبات في أماكن أكثر هدوءاً وانحداراً وأمناً. والحق أنني حتى لم أتصور بأن هذا كله لن يكون يسيراً وسيكون شاقاً ومخيفاً. ومن الفظاعة أن يصبح المرء في وضع حين يصبح في حالة انعدام الوزن ولا يتوقف عليه أي شيء. وفي المحاولة الثالثة حلقت مسافة قصيرة، لكن تملكني الفزع بسبب هذه الحرية في التحليق، فلويت جسدي كله منقبضاً، ومضيت بالجهاز نحو الأسفل، وكدت أن أحطمه، وأصيبت قدمي بجروح ونزف منها الدم. لقد تعبت للغاية! لقد استنفدت قواي فحسب بسبب توتر جميع العضلات والفزع. عدت إلى البيت محطماً ومغموماً. أردت أن أضع الطائرة الشراعية في العلية. لكن هدني التعب لحد أنني تركتها ملقاة عند الباب. بينما ذهبت للنوم. ورأيت حلماً، كان غالباً ما يراودني الحلم في أيام الشباب بالضبط: كنت أتسلق مرتفعاً غير مفهوم، ويتملكني رعب شديد- أنا لا أعرف كيف أهبط إلى الأسفل، بينما أنا أخشى المرتفعات، وبدا لي أنني لن أستطيع الوقوف أكثر وسأسقط إلى السفل، وأتحطم. استيقظت في رعب، وقد غمرني العرق، وأخشى النوم مرة أخرى، ولا سمح الله أن يتكرر ذلك مرة أخرى. لم يراودني هذا الحلم منذ وقت بعيد. يبدو أنه كان يراودني فقط في أيام الشباب، حين يسعى المرء إلى شيء ما، ويحلم بشيء سامٍ وعظيم، ويفكر فقط في الخلود، ويتراءى له أن الحياة كلها أمامه في المستقبل. بينما يقول اللاوعي للمرء - كل شيء يجب أن يكون في حدود المعقول، لا تصعد عالياً جداً، فهناك المجازفة والخطر والهبوط مؤلم ورهيب جداً. لكنني صعدت في الحلم في هذه المرة عالياً جداً إلى ارتفاع رهيب، بينما كانت ذروة الشجرة الرفيعة تتمايل - ربما أنها تريد إسقاطك، أم أنها تخشى نفسها أن تتحطم. لكنني لم أخف في هذه المرة. بل بالعكس، ابتهجت منتشياً، وحتى أبديت نوعاً من الشجاعة. وعندما استيقظت حاولت تفسير حلمي، وفهمت بأنني كما في أيام الشباب أصبو إلى بلوغ السمو، لكن يجب عدم المجازفة وعدم المغامرة، وقلت لنفسي: من النواحي كافة أنت كابن، ولتكن ابناً بالتبني، وكصديق وزميل وزوج وأب ومعيل وهلمجرا، صفوة القول كل شيء يأتي في المستقبل وتتوقف عليك أمور كثيرة. أما الآن؟ الآن، قد أصبح كل شيء في الماضي. فذلك الفرع الذي سعيت إليه طوال حياتك قد تحطم وتفسخ منذ وقت بعيد. ولا يتوقف عليك أي أحد وأي شيء، وأصبح كل شيء في حكم الماضي. هل كان كل ذلك عبثاً؟ وكل شيء كان مزحة؟ بينما أنت معلق كفقاعة في الهواء: فلا تطير ولا تسقط - مصير ضائع، ونتيجة محزنة. أنت وحيد! شيء رهيب. رهيب كما في القبر. أنا أختنق. فخرجت من البيت. ظلام. البرد شديد. سكون، ويسمع فقط خرير الجدول في مكان ما. القمر غائب. ادلهمت العتمة. السماء معتمة - معتمة وهناك مليارات النجوم، وأنا أتطلع إلى مليارات الشرارات - شرارات الحياة والنور والمستقبل... إنها تدعوك إليها. إلى أين سأطير؟ وأي نجمة سأختار؟ إين أهلي وأقربائي؟ وأردت الآن، الآن بالذات، في وسط الليل، الذهاب إلى ذلك المكان الذي لن يتجاسر أي أحد على الذهاب إليه في النهار، الذي يسيل منه نبعنا «فوق الصخور الملساء إلى الهاوية، ويفقد أثره في الظلام». إنني أتوجه إلى هناك الآن، بلا أي خوف، وأي أفكار وأحلام أو خواطر. بدا وكأنني انقطعت عن الواقع. لقد أصبح كل شيء في حكم الماضي وينتظرني التحليق والارتياح والانسجام. لقد غفرت للجميع خطاياهم، وأمل أن يغفروا لي خطاياي أيضاً. وصلت إلى ذلك المكان وأنا أتلمس طريقي تقريباً. ها قد وخزتني أشواك الصبار، وها أنذا أطبطب على أوراق نبات السعادي الخشنة، وأتحسس الطين اللزج واللزق تحت قدميَّ، والأحجار التي صقلها الماء وخرير النبع العذب. في نهاية الأمر حاولت أن أشرب عبر القسطر

الماء الحلو والبارد، وغسلت وجهي ويديَّ. ثم وقفت وقفة اصطفاف عسكرية. فقد انداحت تحتي الهوة الظلماء ولا قرار لها، التي أريد القفز فيها. والأمر العجيب أنني كنت هادئاً جداً. ولم أسمع حتى دقات القلب - إنه أنهى الدقات والألم وتنبعث فيه الحياة الآن. سكون... وفجأة سمعت حديث الجبال. إنها تتحدث عني. وتقول إن العم جيخو عبثاً أعطاني اسم ستيجال. لقد كان الواجب أن أتطلع إلى السماء، وأصبو إلى النجوم، بينما أنا أنظر إلى الهاوية. يبدو أنه أطاحت بي شحنة كهربائية قوية ما إلى طرف الهاوية. وخدشتني الأشواك كما لو كان لوماً. وزحفت صاعداً إلى الأعلى، ثم هرولت عدواً إلى البيت.

كانت طائرتي البيضاء- الحمراء تتجه قبل طلوع الفجر نحو الذروة المنحدرة تدريجياً، مخلفة أثراً غير منتظم، لكنه يتجه إلى الأعلى، فوق العشب المرصع بقطرات الطل. ومع ظهور الإشعاعات الأولى للشمس، كما لو أنها ترحب بمجيء الفجر، تطلعت من تلك الذروة إلى القوقاز كله. أي سناء وانسجام ونضارة ونقاوة! وهرولت بهذه المشاعر إلى الأسفل، ورفعتني من الأرض قوة سماوية عنيفة وطيبة. حلقت. فقد حلقت بصورة حقيقية. ولكن غمرني الخوف والاضطراب. وحاولت السيطرة على الطائرة الشراعية بشكل ما. وطبعاً هبطت ليس في المكان المقرر، بل في مكان أبعد. أصبت برضوض، وشعرت بألم في ساقي، ولم أستطع السيطرة على الجهاز، وشعرت خلال تلك الدقيقتين أو الثلاث بمتعة غامرة، وكما يقال شعرت بلذة يعجز اللسان عن وصفها، وسحرت وذهلت. وأردت أن أواصل التحليق مرة أخرى فوراً، وشعرت بفيض من مشاعر النصر، ولكنني كنت عاجزاً عن تركيز الذهن مرة أخرى. ولحظتئذ، حينما نهضت حاملاً طائرتي الشراعية، سمعت هدير محرك. من ذا الذي انتهك صفو عيدي؟ ومن يمكن أن يأتي إلى هنا؟ شرطي المحلة. الحاضر في كل مكان.

- ماذا بك؟ هل جننت تماماً؟

هززت كتفي.

- لا يجوز التحليق هنا!

- وهل يمكن التنفس؟ - ولوحت بيدي بشكل ما.

- أنت مريض. توجد بالقرب من هذا المكان حامية عسكرية، ويمكن أن يطلقوا عليك النار بكل بساطة.

- هنا بيتي وأرضي. وأفعل فيها كل ما أريد،- أجبته بثأثأة. ولا أعرف فيما إذا فهم أم لا، وتابعت القول:

- من أعيق؟

فصاح: - لايجوز، ممنوع، هناك أمر!

- الأمر صدر إليك، وليس إليَّ.- ولوحت بيدي- أنت عبد وقن، بينما أنا في بيتي، وحر وأفعل كل ما أريد. هل فهمت؟

إنه طبعاً لم يفهم كل شيء، لكنه أدرك المغزى، وغضب، فيما حاولت أن أشرح له:

- هل تريد أن تتحرر من العبودية؟ حاول. حلق في الجو. أي متعة وبهجة!

لقد فهم ذلك بدقة وأجاب:

- أنا لست أحمق.. وأريد أن أحيا.

ربما لم يكن مناسباً القول إنه أفسد عيدي، واحتفالي، كما أنني لم أتكلم بل غمغمت فقط:

- وابني كالأبناء حمقاء ولم يرغبوا في العيش.

يبدو أنه فهم، فعبس وقال مغتاضاً:

- كما أعطى الرب.. وأنا أحذرك في آخر مرة بألا تستخدم أكثر هذه الحقارة - وسأطلق النارفي الجو. هذا هو الأمر. مفهوم؟

وغمغمت: - آها! حاول!

قلت هذه الكلمات ومشيت صاعداً إلى الأعلى. فأوقفني، وحتى حاول إيقافي عنوة، لكنني تصرفت بقوة وبحزم - ليس لديّ ما أفقده، كما يقال، ولن أتراجع إلى أي مكان أبداً. وعندما بلغت أعلى الذروة أدركت بأن الرياح اشتدت مع طلوع الشمس وتغير اتجاهها. ووجب عليّ أن أطمئن وأركز الانتباه وأنسجم مع الطبيعة والعالم المحيط، ولكن هل سيتركني شذاذ آلافاق هؤلاء الذين باعوا ضمائرهم، أعيش بهدوء ناهيك عن التحليق بالطائرة الشراعية. وعموماً فإن طائرتي الشراعية قد تحطمت، وفي أول مرة حلقت إلى غير المكان المطلوب وليس بالشكل المقرر. ووجب عليّ التخلي عنها، والتخلص منها، لكني لم أرد في البداية أن أفعل ذلك أمام سمع وبصر شرطي المحلة. وفيما بعد لم أستطع ذلك، وإذا بالطائرة الشراعية تحملني وتلقيني بعنف على الأرض دفعة واحدة.
وحملتني إلى المنحدر مسافة ثلاثين متراً، وربما أكثر، حتى انفصل الجناح، وعندئذ أصبحت تحت الطائرة الشراعية. وبدا أن كل شيء قد انتهى، ونزعت الحزام الذي يربطني بالجهاز بصورة ما، لكنني شعرت بالضيق الشديد، وبالاختناق، ووجدت صعوبة في التنفس. نظرت إلى القسطر، وهناك يتدفق الدم بنزيف شديد، ويبدو أنه انغرس إلى الأسفل بسبب الضربات إلى صدري. أظن أنه كان ينتظرني الموت مع معاناة الآلام، لولا أن الشرطي المحلي قد هرع لنجدتي. وقد رأى كل شيء، وفي البداية رفعني من رأسي، ثم أمسك بي وسحبني إلى مكان مستوٍ أكثر. وبعد ذلك ساق سيارة «واز»، وأجلسني فيها، ثم انطلق بهدير عنيف نحو الصعود. كنت ما أزال محتفظاً بوعيي

حين انطلقنا بمحاذاة بيتي، وأردت التفوه بقول ما، ومن ثم بدأت أفقد الوعي بسبب الاهتزازات ونقص الأوكسجين. وفي المستشفى في فيدينو لم يستطع الأطباء تقديم أي علاج لي، ولكن تبين وجود اختتصاصي محلي محنك في شالي. فعمد إلى تنظيف قسطري وحدس وجوب توفير كيس الأوكسجين الذي يطلق الهواء بصورة قسرية. وثبت إلى رشدي فوراً. وبعثت إلى الحياة مجدداً. وفي اليوم نفسه طرت مع كيس الأوكسجين ذاك إلى موسكو. وكان في انتظاري في المطار مكحل ونسيبي اللذان وصلا من فيينا. ولم تستطع شوفدا المجيء، فلم تكن وثائقها جاهزة، علاوة أن طفلها ما زال صغيراً. لكنها عملت كل ما يلزم: حين تتوافر النقود، النقود الكثيرة، فستجد كل رعاية في مركز علاج الأورام.

لدي الآن ردهة كبيرة منفردة، وممرضة خصوصية، وحتى جليسة دائمة، - ودفعت أتعابهم أيضاً كما يجب، أما الطبيب فغالباً ما يعودني ويفحص كل شيء، ويتأكد كيف وضعوا لي القسطر الجديد، وبأي مبلغ، وماهي أحاسيسي به؟ وكالعادة إن لديه حساباته، ومشاغله في خضم الصراع من أجل كسب الزبون. ولدي حساباتي أيضاً. فحالما وضعوا كل شيء في مكانه، وأصبحت أتنفس بحرية... حاولت مراراً الاتصال بالشرطي المحلي في جمهورية الشيشان. لكنه لا يرفع السماعة، ثم قطع الاتصال كلياً، وفي الليل جرى الاتصال من رقم مجهول، وتبين أنه الصبي ابن الجيران:

- لقد طلبوا منك ألا تقلق. فقد جرى تنظيف المكان ووضعت الطائرة الشراعية في العلية.. لقد أمروني بأن أبلغك بهذا، - وانقطع الاتصال.

تنفست الصعداء بهدوء. مع هذا أن الشرطي المحلي ليس كلبة. ويبدو أنه أخفى بندقيتي للقنص أيضاً. فقد تركتها في البيت، وعندما مررنا بالبيت في آخر مرة، أردت أن أقول له ذلك.

هذه هي الحياة. أنا على وشك الموت، بينما أحلم في قتل آخر، وفي الانتقام. مخبول؟ ربما، هذا واجب؟!

8 يونيو، صباحاً

أنا ما زلت هنا في مركز علاج الأورام. طبعاً إن هذه المؤسسة الطبية لا يمكن مقارنتها بالمستشفيات في أوروبا. بالرغم من أن الأجهزة وكذلك الأطباء لا بأس بهم أيضاً. لكن معاملة المرضى تجري بصفتهم زبائن. وبما أنه دفُع مبلغٌ كبير لعلاجي فإن المعاملة مختلفة، حيث أعامل كسيد رفيع المقام. يزورني الطبيب مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، ونتبادل الأحاديث فترة طويلة. وأعتقد إن ذلك ليس فقط لأنه يُدفع مبلغ كبير من أجل علاجي بل، حسب تعبيره، «لوجود اهتمام جنيني خالص لديه». فقد ذهل أن جميع التحاليل التي أجريت لي جيدة، وأنا صحيح البنية، ولا يوجد ورم خبيث كما يبدو. واستفسر كيف وأين عالجوني في أوروبا؟ كم عدد الدورات، ماهي جرعة الأشعة التي استخدمت في مركز الأشعة؟ وأنا كتبت له كل شيء كما هو، لكنه محب للاستطلاع جداً، وهذا مفهوم - هذا بزنيسه، فسأل:

- ماذا تأكل؟ أين تعيش؟ في الجبال طوال الوقت؟ يبدو أن الهواء والماء هناك لهما تأثير علاجي. ولهذا فإن لون سحنتك - مجر...- ويبدو أنه بغية إبعاد عيون الحساد بصق عبر كتفه الأيسر - أود الذهاب إلى هناك، ومشاهدة المكان.

ومن ثم، وكالعادة، يطلب مني أن أخلع قميصي لفحص الجرح:

- تحتاج إلى يومين آخرين لكي يلتئم الجرح كلياً... ما هذه الندب في يديك- هل أن هذا يتعلق بعملك؟

وغمغمت: - أوهو!

ومضى الطبيب قائلاً: لكن أعجب ما في الأمر.. عيناك، فقد تغيرتا كلياً وأصبحتا بلون فاتح أكثر. والشيء الرئيس، نظرتك - فإنك حينما تتطلع إلى شيء ما يبدو وكـأنك تسدد نحو هدف.

- أوهو - أوهو -هو!- ضحكت بينما واصل الكلام:

- هل ستغادر من هنا إلى الجبال أم إلى ابنتك في أوروبا؟

أطلقت زفيرا عميقاً: - هو.

إن هذه المسألة تعتبر الآن معقدة جداً بالنسبة لي. مفهوم أن ابنتي تدعوني، وأريد أن أراها، كما أرى حفيدي، ويجب فحص القسطر، وربما استبداله. لكن رغبتي أشد في العودة إلى الجبال. فهناك لدي مشاغل، أو مسألة مهمة جداً. ما هي حال المزرعة والبيت، والشيء الرئيس البندقية؟ فكيف سافرت؟ ومهما قيلت فقد اعتدت على عزلتي، وجبالي، وذلك الهواء والنبع والنحل، والفضاء الواسع، وطبعاً، على الحرية. مفهوم، توجد لدي مشاكل هناك، ومشاغل أيضاً، لكنني هناك في بيتي - أنا هناك السيد، وما دمت على قيد الحياة سأحاول الدفاع عن شرفي، وتقاليدي، كما يجب عليّ أن أنتقم، وعندذاك سأكون حراً فعلاً. سأحيا، وأتنفس وأحلق وأموت بحريتي! هذا مغزى الحلم، ومعنى حريتي!

أما هنا فالبرغم من الظروف التي أحسد عليها، لكنني في مستشفى أو حتى في قفص. وإذا توخيت الصراحة فإنني لا أرغب حتى بالخروج إلى الممر. ما أكثر التعساء والمساكين والمرضى من بسطاء الناس هنا الذين جاءوا إلى هنا بعد أن باعوا آخر بقرة أو حتى الكوخ من أجل تسديد نفقات العلاج. ولو أنه علقت في البهو لافتة كتب فيها: «العلاج وجميع الخدمات تقدم مجاناً. وتضمنها الدولة». لكنني أعرف كل شيء. أعرف الآن كل شيء. وكنت أعرف منذ وقت بعيد بأنه تكمن جرثومة في جسدي وفي روحي وكذلك في وعيي! وكيف لا؟ إن كل مرض خطير هو نتيجة الغم والكآبة والكرب الدفين. كنت بمثل هذا الوضع، وأعرف بأن نوبات الاختناق التي تحدث لي ليست

وليدة الصدف. ومضت العملية، ولاحظت مرة حين كنت أحلق ذقني أنه ظهر على رقبتي من الجهة اليسرى ورم ما غير مؤلم، لكنه يتنامى. وبغية ألا أرى هذا كله وألا أفكر فيه لم أعد أحلق ذقني فحسب، وأطلقت لحيتي، وهو أمر شائع جداً في جمهورية الشيشان ويتسم بصفة عملية. وقد لاحظت شوفدا الورم فقط حين جاءت إلى جمهورية الشيشان لأول مرة بعد مصرع أمها وأخيها الأكبر من أجل إعادة دفن الأخ الأصغر، أخذت مني وعداً والدموع تنحدر من عينيها بأن أسافر إلى موسكو من أجل إجراء الفحوص. حدث ذلك في مطار سليبتسوفسكايا حين كنت أودعها. بالمناسبة ظهر هناك فجأة حفيد العم جيخو. فعانقني بكل أدب، كما تقضي بذلك التقاليد، وسألني عن صحتي وشؤوني وهلمجرا. عموماً إنها اللباقة المألوفة، لكنني بعد أن علمت بأنه يبتز الآخرين، اتخذت موقفاً متحيزاً منه، وبغتة لاحظت كيف نظر إلى ابنتي، ولنقل إنها ليست نظرات شخص قريب. والعجيب أنني لا أقول ذلك بصفتي الأب، فقد كان الآخرون ينظرون هنا إلى شوفدا باهتمام: فهي ميساء القد، وعيناها واسعتان مثل عيني، وزرقاوان، وتبدو حسناء حتى وهي في الحداد. لكنني نسيت فوراً نظرات حفيد العم جيخو، وحالما ابتعد، نبرت شوفدا بغيظ:

- سافل!

فامتعظت وقلت: - كيف تتجرأين على ذلك؟! ألا تعرفين أن جده العم جيخو هو بمثابة قديس بالنسبة لي!

أجابت بهدوء: أعرف. لكن هذا مخبر.

- ماذا؟!

- الجميع يقولون هذا.

- وما هي علاقتك بأقاويل الآخرين.

أجابت شوفدا بحزم: - أنت نفسك تعرف ذلك، أو تحدس ذلك.

ثم رددت جانباً: - لقد ضقت ذرعاً به.

- ما معني «ضقت ذرعاً»؟

-لا يهم، - لوحت بيدها وغيرت موضوع الحديث إلى وضعي الصحي- فقد ساورها القلق من الورم على رقبتي.

نفذت وصية ابنتي فذهبت إلى المستشفى، ولو أنني لم أصب بمرض في حياتي كلها، باستثناء الإصابة بالبرد أحياناً. ولكن أي مستشفى هناك في زمن الحرب؟ ولكن وجد أطباء، وأرسلوني بعد الفحص بالنظر إلى مركز الأورام في روستوف- على - الدون. على أي حال كانت تلك ضربة نفسية شديدة بالنسبة لي، ولم أتوقعها. لكنني أصبت بهزة نفسية أكبر فيما بعد. فقد كان المسافرون

في القطار، من المرضى ومرافقيهم، المتجه من جروزني إلى روستوف ذاهبين إلى مركز الأورام المذكور. وهذا أمر حتمي - فالسرطان هو المرض الناجم عن الكآبة والقلق والخسائر. خسارة الحياة. فهذا من نتائج الحرب وعواقبها.

وقد أسعدني الحظ إذ كان يعمل في المركز بروفيسور شيشاني. وقد ساعد جميع أبناء جلدته، وبعد أن فحصني قال:

- إن غدتك الدرقية قد جمعت مصائبك وأرزاءك كافة. إن الورم غير خبيث حتى الآن، ويجب استئصاله. إن مثل هذه العمليات لا تجري عندنا. ويجب السفر إلى مركز الأورام بموسكو.. حتماً. أما بقية الأعضاء فهي سليمة، والتحاليل جيدة- أنت جئت للفحص في الوقت المناسب. لكن يجب أن تأخذ بنظر الاعتبار أنك قد بلغت سن الشيخوخة ولهذا يجب أن تقلل من الإجهاد الإنتاجي وتزيد بقدر معقول من الإجهاد الجسدي. بالإضافة إلى الطعام الجيد، وتجنب التوتر العصبي والأشخاص السيئين. صفوة القول، منذ الآن، كما هو الحال سابقاً، كل شيء يتوقف عليك. ويجب استئصال الورم في موسكو.

حينما قال لي ذلك كانت شوفدا واقفة إلى جانبي - وقد جاءت إلى روستوف خصيصاً في فترة إجراء الفحوصات- وراحت تقنعني بقولها:

- دادا، يجب أن تعمل كما قال الطبيب. اترك العمل، وانتقل للإقامة بموسكو. أنا الآن أستطيع كسب بعض المال، وسنحيا.

فدهشت: - كيف هذا؟

- أنا موسيقية - وتقام حفلات موسيقية وحفلات زفاف...

- بلا أي حفلات زفاف! ادرسي! عندما ستنتهين الدراسة في الكونسرفتوار، سنرى... لا يكفينا سوى أن تعزفي في حفلات الزفاف وتغني في أوساط السكارى. سأدبر أمر معيشتك. مفهوم؟ إنها وافقت، وأنا وأفقت على أن أغير أسلوب معيشتي في جروزني. فلا يمكن أن أعمل وأعيش في مكتب عملي. ويجب أن تعود شوفدا إلى البيت، ولهذا قررت أن أعيد بناء شقتنا- ولهذا الغرض، وبعد تأمل طويل وطويل وشكوك، أخذت قرضاً كبيراً من البنك، وهو قرض كبير فعلاً بالنسبة لي - خمسمائة ألف روبل. كانت هناك مجازفة. لكنها مجازفة في وضع مستقر، وبانت بشائره للعيان - فقد جرى الاستفتاء، وانتخب أول رئيس للجمهورية،- رئيس الإدارة السابق، وتوقفت العمليات العسكرية تقريباً.

لقد كان هذا القرض عوناً كبيراً لي، بالرغم من الفوائد. وكان البنك يستقطع من راتبي شهرياً نصفه، أما النصف الثاني فكان يكفي لتغطية المصروفات على شوفدا، لا سيما أنها تقتصد جداً دائماً، والباقي أنفقه على معيشتي. أنا حتى لم أتصور مدى مشقة أعمال الإصلاح ونفقاتها الكثيرة، أي إعادة بناء البيت المهدم. وقد أنفقت جميع النقود، واحتجت إلى الكمية نفسها لإكمال البناء. بيد

أن هذا لم يكدرني البتة، بل بالعكس، فقد فرحت جداً، حيث بدت الآن الملامح العامة للمبنى، وعندما أحضر هناك أتصور الصالة الكبيرة المضيئة حيث ستوجد آلة بيانو جيدة، إن لم يكن البيانو الكبير، وستعزف شوفدا عليها. وستكون إلى جانبها غرفتها، والأخرى لي. لكنني سأهدي هذا كله إليها، بينما أنا أحال إلى التقاعد... وأذهب إلى الجبال. ولم يتحقق لي في الحياة سوى بندين فقط. والسبب كله يكمن في أن الحرب لم تنته، ولم يتوقف سقوط الضحايا، وما يسمى حزب الحرب لم يهدأ.

وحسب تسلسل الأحداث جرى ما يلي: أعلن رئيسنا في الأثير من القناة المركزية فجأة أن النفط المستخرج في جمهورية الشيشان يجب أن يكون تحت إشراف شركة وطنية. وقوبل هذا النبأ من جانبنا، ولا سيما نحن أهل النفط، بفرح غامر. فقد كان ذلك دليل الجرأة والكرامة وجاء في الوقت المناسب. ولكن بعد مرور أسبوعين، وفي أثناء استعراض النصر في ملعب «دينامو» نفذت عملية إرهابية، راح ضحيتها رئيسنا. وكانت هذه ضربة قاسية بالنسبة إلى الجميع. وقد كابدت هذه المأساة مع الجميع. وسرعان ما أعقبت ذلك النتائج. فقد جاءت من موسكو إدارة جديدة لمكافحة الأزمة، وتم تقليص القيادة السابقة لشركة النفط، ولم يمددوا فحسب العقد معي وأحالوني إلى التقاعد. هل للنفط أهل ولم يكن من السهل العيش بمبلغ تسعة آلاف روبل بعد أن كنت أتلقى راتباً بمبلغ خمسين ألف روبل. ولولا القرض الذي أخذته، وكانت لدي مدخرات قليلة، لعشت بصورة ما، مثل الكثيرين والكثيرين الآخرين، لا سيما أن شوفدا تطمئنني باستمرار، وتدعمني وتقول إن هذا حتى أفضل ويجب أن أعتني بصحتي واستريح، ثم قالت بشكل غريب:

- هل سمعت النبأ؟ النبأ حول قريبنا..

أنا لا أشاهد التلفزيون، وهو غير موجود لدي، وأنا بعد تسريحي من العمل أعيش في الشقة التي لم يكتمل بناؤها وجهزت غرفة واحدة شأني شأن الجميع في جروزني. لم أكسل، فهذا شيء مثير، فذهبت واشتريت جريدة محلية، وياللمفاجأة! ماذا أرى! حتى لا يمكن التصور، بالرغم من كثرة المستحيلات عندنا في جمهورية الشيشان خلال فترة الحربين. فقد نشر على الصفحة الأولى أن الأوسمة العليا منحت لقاء البطولة في خدمة الوطن إلى عدة أشخاص بينهم حفيد العم جيخو. كما نشر في الصفحة الثانية أنه عين رئيساً مؤقتاً للسلطة التنفيذية وحتى السلطة العسكرية في منطقتنا الجبلية، وبهذا أصبح مدير الشرطة والقومندان العسكري - وعموماً صاحب الأمر والنهي! ونشرت هناك أيضاً سيرة حياته البطولية. وقد تبين أنه حصل على شهادتين للتعليم العالي وله خدمات كثيرة، وبضمنها في القتال والعمل، كما منح رتبة عقيد! شيء عجيب! وبصراحة فقد فرحت فهو بالرغم من كل شيء من المقربين لي. وظهرت لدي خطة على موجة هذه الفرحة الخفيفة، خطة مالية. وأقول مقدماً بأنني لست خبيراً مالياً، وكانت لدي مشاكل مع النقود طوال حياتي، - كنت دوماً أعيش براتبي فقط، وكنت أعطيه إلى زوجتي، فهي تتدبر الأمور بشكل أفضل. والآن لا توجد زوجتي ولا توجد موارد مالية، لكن وجدت لدي خطة ناقشتها بالهاتف مع شوفدا. وقد أيدت ابنتي الخطة بكل حماس، لكنني حين ذكرت اسم حفيد العم جيخو، قاطعتني فوراً:

- لا فائدة من ذلك. وعموماً لا تنتظر أي خير منه.

واغتظت مرة أخرى: - لم تقفين هذا الموقف منه؟

- لا أعرف.. لكن يوجد فيه شيء يبعث على التقزز. وحينئذ انفجرت قائلاً:

- هل أنتما تلتقيان؟ أي هل قابل أحدكما الآخر؟

فقالت وقد كزكزت أسنانها: - يأتي أحياناً، بصفته عقيداً يفهم شيئاً في الموسيقى.

لم أرغب في مواصلة الحديث حول هذا الموضوع. ولا يجوز أن أتحدث عن ذلك مع ابنتي. بالمناسبة أبعدت جميع الأفكار السيئة، فحفيد العم جيخو هو حفيد العم جيخو. ونحن أقارب، وعلاوة على ذلك لدي اهتمام به إن لم يكن بصفة تجارية فبصفة عملية (ولو أنني إذا ما توخيت الصراحة فأنا لا أعرف معنى هذين المصطلحين بدقة، وهل يوجد فرق بينهما). الأفضل أن أعود إلى خطتي العبقرية للإنقاذ. فقد ظهر في جمهوريتنا بنك جديد. وقبل هذا كان الوحيد واسمه «البنك العسكري-الميداني». أما الآن فهو فرع بنك «روس سيلخوزبنك»، ويعمل هناك في منصب كبير أحد العاملين معي سابقاً وحتى أحد أقاربي. وقد أبلغني بأنه يمكنني أن أحصل من أجل تنمية المزرعة الفلاحية على قرض، حتى بمبلغ خمسمائة الف، وذلك بشروط تسهيلية جداً. والأساس في الحصول على القرض أن أمتلك شهادة ملكية الأرض المصدق عليها من قبل السلطات الجديدة (من دون اعتبار القرابة وصلة العراب). وأبلغوني أن كل منطقة لها حصة محددة، تقدر بالملايين، خاضعة لإشراف مدير المنطقة. وهكذا أصبحت قضيتي بيدي حفيد العم جيخو. والمدير موجود وراء جدار من الخرسانة المسلحة وتحت حراسة مشددة. ولم يسمحوا لي بالدخول - هو مشغول، وغداً سيستقبلني. لكنه لم يستقبلني. ومرة أخرى لم يأت إلى مكتبه، ثم غادر إلى موسكو في مهمة رسمية. وبسبب حماقتي هتفت إلى شوفدا وسألت عنه:

- ما حاجتك إليه؟ تريد شهادة تملك الأرض، تؤكدها السلطات الجديدة.

أوضحت لها كل شيء مجدداً، فأبلغتني نبأ مثيراً سمعت به من قبل عدة مرات:

- الكثيرون من القيادة الشيشانية الجديدة يشربون ويلهون في المطاعم هنا، ويبذرون الأموال.

فدهشت وسألتها: وأنت كيف علمت ذلك؟

- الجميع يعرفون.

«نعم، يعرفون»، - فكرت في دخيلة نفسي، ولكن لدي مصلحتي وسألتها:

- هل يمكن أن تحصلي على رقم هاتفه؟

- سأسعى للحصول عليه إذا كان ذلك ضرورياً.

- أنا بحاجة إليه. بحاجة إليه جداً. لقد وعدوني بالقرض.

في اليوم التالي أبلغتني بصوت حزين رقم هاتف حفيد العمل جيخو ونصحتني مرة أخرى:

- الأفضل ألا تهتف له.

- لماذا؟

- إنه شخص خسيس.

- كفى هذا الكلام حول حفيد العم جيخو.. هل تحتاجين إلى نقود؟

- لا.

- هل تكسبين النقود في مكان ما؟

- قليلاً بالمشاركة في الحفلات.

- في الحفلات فقط! حذار! لا تجلبي العار إليَّ...

- لا حاجة لمثل هذا الكلام يادادا.. متى ستأتي؟ يجب أن تتلقى العلاج.

- قريباً سأدبر مشكلة النقود وسآتي.

لم أستطع طوال ذلك اليوم أن أهتف إلى حفيد العم جيخو بسبب أقوال شوفدا، لكن في اليوم التالي، أرغمتني الظروف على ذلك، فأدرت الرقم. وعرف صوتي، وبدا واضحاً أنه ارتبك فسألني فوراً - من أين عرفت هذا الهاتف؟ لكنني لم أذكر اسم شوفدا، وكذبت بالقول إنني حصلت عليه من أحد معارفي. وبعد ذلك سأل عن صحتي وعن أنحو المعيشية وحتى أصغي باهتمام إلى طلبي ورجاني أن أهتف له مرة أخرى بعد يومين، وحتى قال إنه سيهتف بنفسه، ولكن حالما يعود من الرحلة في مهمة رسمية فقط. جرى هذا الحديث بعد فترة الغداء، لكن بدا لي أنه ثمل تماماً، ولسانه يتلعثم قليلاً، وربما كان يتناول طعام الغداء فحسب. لكن لا علاقة لذلك بخطتي فأعدت الاتصال به هاتفياً. وهتفت خلال يومين خمس مرات - لكن بلا جواب. وفيما بعد كان يقال في سماعة الهاتف «إن هذا الرقم بلا خدمة». كنت ملتاعاً جداً، وبالدرجة الأولى بسببي نفسي، فقد حذرتني ابنتي، وقد سألتني في محادثة معها لاحقاً:

- هكذا، إذن؟ لعل هذا أفضل. فلا يوجد خير في هذا الشخص الدنيء.

لزمت الصمت، وأضافت:

- الجميع يعرفونه الآن باستثنائك. فهو خائن، ولهذا منح الوسام والمنصب والبابلو.

- وماهو «بابلو»؟

- النقود.

- لا تتحدثي أكثر بلهجة الدهماء.

- سامحني.. دادا، تعال يجب أن تعالج.

في الحقيقة أنني يجب أن أتعالج. وقد أحسست بوعكة، وبضعف عام، وبوهن ولا مبالاة حيال كل شيء. وكان هذا كله، كما تراءى لي آنذاك، بسبب المشاكل المالية. فقد كنت دوماً لا أستطيع العيش بهدوء حين أكون مديناً ولو بروبل واحد. بينما حذروني شفهياً مرتين، ثم جاء تبليغ من البنك، بأنني لا أنفذ شروط عقد القرض. ولكن كيف أنفذه إذ لا يوجد لي راتب شهري. ونصحني بعضهم، دعهم يكتبون - فهذه ليست الحرب واللهو ولن يقتلوك، بل سيسلمون القضية إلى المحكمة، وبعد ذلك سيأتي الوكلاء القضائيون، وبينما تعقد جلسات المحكمة للنظر في القضية - ستمضي الأعوام. وهذا كما في الفكاهة القديمة حول جحا، فإما يموت الشاه، وإما يموت الحمار. وربما سيشعلون مجدداً حرباً صغيرة، وعندئذ سيشطب كل القرض. وفي نهاية المطاف إن بيتك قد تعرض إلى القصف وتهدم - فدعهم يعيدون بناءه. قل هذا في المحكمة. ربما أن شخصاً آخر كان سيفعل ذلك، ولكن ليس أنا. وأنا لا أريد أن أكون مديناً. وبغية ألا يبقى هذا الدين معلقاً فوق كاهلي، قررت بيع الشقة وقطعة الأرض. طبعاً بعد التشاور مع ابنتي. إن شوفدا توافق على أي قرار أتخذه وحتى إنها تبتهج - لأنني عندئذ سأشد الرحال إلى موسكو. لكن ما معنى البيع؟ أذكر أنني اشتريت هذه الشقة والبيت الريفي في قطعة الأرض من زميلي - أحد أبناء جروزني الأصليين، مهندس النفط الروسي، الذي اضطر إلى الرحيل من المدينة نهائياً. والآن أنا أيضاً من أهل النفط سابقاً والمتقاعد، لكن لا يوجد لدي مكان أرحل إليه، بينما يجب الخلاص من عبء الديون. فماذا أبيع الآن؟ الخرائب. إن شقتي هي شقة بالاسم فقط. ولا يعيش في هذا البيت أحد غيري. ومن العسير تسميته بالبيت فهو بلا سقف وبلا ماء ناهيك عن الدفء وغير ذلك من المرافق، وحتى السلالم عند المدخل مهدمة. لكنني أفلحت بإجراء بعض الإصلاحات والترميمات. لكنه لا يعتبر مع ذلك مسكناً، لكن كما علموني في بيت اليتامى، فإنني أتعامل مع الورق بصورة خاصة، وأحتفظ بالوثائق بصرامة بموجب القانون.

سددت الدين وغادرت إلى موسكو جواً بقلب صاف. وقد فرحت شوفدا للغاية كما فرحت أنا أيضاً لكوننا أصبحنا سوية مجدداً. لكن هل هذا يسمى «سوية»؟ فهي تعيش في المسكن الطلابي. بينما استأجرت غرفة بصورة مؤقتة. وفكرت في أن ألتحق بشركة نفط غنية، لأنني خبير محنك في صناعة النفط، لكن يجب أولاً إجراء الفحوص الطبية- فقد أصرت شوفدا على ذلك، وأنا نفسي صرت ألاحظ أن الورم في العنق يتنامى قليلاً، وأشعر بوهن عام، ولو أن نوبات الاختناق السابق

قد اختفت تقريباً، ونسيتها. فأنا أكابد لوعة حارة من مجرد ذكر «مركز الأورام». لكن لا خيار لدي، وأنا أريد ويجب أن أعيش، فذهبت إلى هناك سوية مع شوفدا. إنها كانت تدعمني وترافقني دوماً، وإلا فما كنت أذهب إلى هناك وحدي، وقد أذهب لكنني كنت سانصرف من المكان بسرعة. فكل شيء هناك ليس كما لدى البشر. المبنى الشاهق، والمركز العلاجي لعموم روسيا، بينما تسود القباحة بدءاً بقسم التسجيل. فهناك نافذة صغيرة فقط يتم فيها تسجيل المرضى وتجلس هناك امرأة عجوز غضوب. والطابور طويل وجميع الواقفين من المرضى جداً، حتى إنني ظهرت بينهم كإنسان معافى فحسب، وحتى لم يسألوني مم أشكو. بل طلبو مني التوجيه والحصة المقررة من مكان السكن. أنا كنت أنتظر هذا بالذات، وفي اليوم التالي سافرت إلى جروزني، لكن هل يوجد لدي بيت؟ أي حياة بلغت! لقد أحلت إلى التقاعد بينما لا يوجد لدي مكان للمبيت. وبقيت فقط قطعة الأرض الموروثة عن أسرتي في القرية الجبلية. هذه - نتيجة الحياة الثقيلة الوطأة. وهذه نتيجة وعواقب الحرب. ولماذا؟ من المذنب؟ من سيطلب المغفرة ويعتذر ويساعد ويفهم؟ حسناً أن وضعت الحرب أوزارها بعد الاستفتاء في عام 2003. لكن نظام عملية مكافحة الإرهاب ما زال سائداً ولم يلغه أحد. بالرغم من حدوث بعض التسهيلات. وسمح للناس وحتى قدمت لهم التوصيات بالعودة إلى قراهم. لم يوجد لدي خيار، وفي نهاية المطاف نفذت وصية العم جيخو، سافرت من أجل الإقامة، أو بالأحرى تمضية بقية حياتي في قريتي.

... بعد الترحيل حظر السكن في قريتنا. ولكن بعد بدء البيريسترويكا (حركة التغيير التي أعلنها الرئيس السوفيتي ميخائيل جورباتشوف - المترجم) في الاتحاد السوفيتي أخذ بعض الأهالي، وبصورة رئيسة الشيوخ، بالعودة، وعندما بدأت الحرب الأولى كانت تقطن هناك قرابة عشرين أسرة، لكن اندلعت نيران حربين، واضطر الناس أنفسهم إلى الهرب، وبعد ذلك حظر السكن هناك مجدداً. وتوجد هناك أسرتان فقط، وكما يقال في مركز القرية. أما قطعة أرضي فتوجد منعزلة، مثل الدسكرة، على مسافة كيلومتر من الآخرين. كانت القرى الجبلية تشيد سابقاً في الفيافي الألبية الحرة بهذه الصورة. وبهذا أصبحت قطعة أرضي منعزلة لوحدها إن جاز القول. ولا يوجد حولها أي بشر. والجمال - ساحر! لكن ليس من السهل العيش في الجبال. وعندما لا يوجد سقف يحميك - فالبرد قارس في الليل. وقد بقي لدي بعض النقود لكن ماذا يمكن أن أبني بها؟ ربما أبني عنبراً أو بيت دجاج أو قبواً فحسب. لكن أبناء القرية زاروني مرة وسألوني:

- هل ستعيش هنا أم تحل ضيفاً فقط.

- أظن أنني سأحيا هنا حتى النهاية.. أما ما هي إرادة الرب فأنا لا أعلم. وإذا توخيت الصراحة فلا يوجد مكان آخر أذهب إليه.

- عندئذ يجب بناء بيت ما.

فوافقت: يجب البناء - ولزمت الصمت.

- لقد فهمنا، - قال ذلك أبناء قريتي، ومعنى ذلك أبناء عشيرتي وأقاربي. وحسب عاداتنا يجب المساعدة، وسننضم لأعمال البلخي. (البلخي باللغة الشيشانية تعني تقديم المعونة الجماعية حسب

تقاليد أقوام الفايناخ ومنهم الشيشان في أعمال البناء والزراعة).

أنا حتى لم أتصور احتمال ذلك. وراح يقدم المساعدة ليس فقط أبناء قريتي وأقربائي البعيدين وأبناء عشيرتي بل أبناء القرى المجاورة والبعيدة الذين لا أعرفهم كلياً. وكان بعضهم يساعد بعمله وبعضهم الآخر بالنقود وبالمواد الإنشائية، وحتى جلب أحدهم حمولة شاحنة «كاماز» من الطوب. طبعاً إن هذا يمثل الامتنان ومواساة الناس الأقربين وتفهمهم للوعة خسائري. ولكن من يوجد بينهم بلا خسائر. زد على ذلك قال لي أحدهم إن هذا يعتبر تكريماً لذكرى ابني الأصغر...

كما وهبني القدر الهدايا أيضاً بصورة غير متوقعة. فهنا يرعى الناس من داغستان ماشيتهم في هذه المنطقة منذ عدة سنوات، ويوجد من بينهم رجل تبين أنه ماهر في بناء المواقد، وعندما علم بالمعونة الجماعية أعرب عن رغبته في بناء موقد قوقازي. وثمة مفاجأة أخرى: توجد وراء سلسلة الجبال في قريتنا حامية عسكرية. إنهم يبنون لأنفسهم ومعنى ذلك لنا أيضاً الطرق والجسور. وحدث مرة أن زارني عقيد شاب آمر فصيلة رجال حرس الحدود في منطقتنا. وقد حكيت له عن تقاليدنا- البلخي، فقال:

- توجد عندنا في سيبيريا التقاليد ذاتها- يهب الجميع لمساعدة الغير. ونحن سنساعدكم أيضاً. وجاء العقيد مع اختصاصي وجرافة ضخمة ومهد خلال نصف نهار الطريق كما لو كان معبداً بالإسفلت. وفيما بعد ساعد حرس الحدود حينما تطلب الأمر رفع الطين بواسطة المرفاع بسرعة من أجل تثبيت غطاء التدفئة. بالمناسبة وجد هناك مثال آخر - فقد بعث مدير إدارة منطقتنا أزلامه لاستيضاح ما أفعله هنا وهل توجد لدي مسوغات لذلك؟ لكن تبين أن كل شيء لديّ على ما يرام من حيث الوثائق. ولكن هيهات إن كانوا يجيدون القراءة، وإذا ما استطاعوا قراءتها فقد فهموا. والشيء الرئيس إنهم لم يزعجونا أكثر. وهكذا أنجز في غضون ثلاثة أشهر، وحتى حلول موسم الشتاء، تشييد بيت صغير، تبلغ مساحته ستة في أربعة أمتار مربعة - وأطلقت عليه تسمية الكوخ. ومن حيث المبدأ يتوافر كل شيء من أجل المعيشة. فهناك مدخل صغير وضاء. وبالقرب منه مغسل - يأتي الماء إليه من النبع بواسطة أنبوب مطاطي ويكفي أن تفتح الصنبور لينهمر الماء.. ولو أنني آخذ الماء للشرب من النبع مباشرة لاعتقادي بأن الماء يفسد لدى جريانه ثم توقفه في الأنبوب البالغ طوله ثمانين متراً. وتوجد في كوخي غرفتان إحداهما الصالة توجد فيها جميع حاجياتي والشيء الرئيس هناك الموقد والطاولة المصنوعة يدوياً وكرسي وسرير. أما الغرفة الثانية فصغيرة جداً - فربما يزورني ضيوف، أو تأتي شوفدا، إنها فارغة كلياً. وعموماً حلت مسألة السكن. ويبدو أن من الممكن والواجب العيش، لكن بصعوبة فلا يوجد كهرباء ولا غاز، ولكن هذه ليست مصيبة، والشيء الأسوأ هو عدم توافر الاتصال الهاتفي هنا وحتى في المنطقة. واضطررت بعد يوم للهبوط من الجبل، من أجل أن أهتف إلى شوفدا: إنها تردد باستمرار تعال، يجب أن تعالج. هذا واجب، واجب جداً، فالورم ينمو. ولهذا توجهت إلى جروزني.

كنت أعتقد أن من الصعب الحصول على توجيه طبي والحصة المقررة للعلاج، لكن حدث ذلك بسرعة وبدقة جداً. وحذرني الأطباء بأنه لا يجوز المزاح فيما يخص الورم وكان ينبغي استئصاله منذ وقت بعيد. كما حذروني من أن «حصتي» - هي ضمانة الدولة لتسديد نفقات علاجي في مركز الأورام بموسكو، لكن هذا فقط من أجل دخول المركز، ويجب دفع مبلغ ليس بالقليل - فيسود

بموسكو بزنيس علاج الأورام. لكنني كنت أعاني من نقص فقط في المال. وكان هناك طابور طويل عند نافذة قسم التسجيل. ولهذا قررت مع شوفدا التمسك بالقانون. ووقفنا أكثر من ثلاث ساعات في الطابور الطويل المؤدي إلى قسم التسجيل. وتم تسجيلي وأرسلوني إلى التحاليل - وعددها الإجمالي اثني عشر تحليلاً. وبعد ذلك ستقرر اللجنة الطبية ما يجب عمله. المبنى ضخم. ولم يكن مفهوماً ومن الصعب معرفة أين المختبر وأين الحجرة المطلوبة. وحينما تعثر عليها أن تجد طابوراً كبيراً. وبغية الاحتيال بصورة ما كنت وشوفدا نحجز مكانا في طابورين مختلفين. لكن هذا لا يجدي نفعاً حيث إن بعض الممرضات يقتدن بلا طابور «مرضاهن». علماً بأن جميع الأطباء يستقبلون المرضى حتى الساعة الواحدة فقط، ولهذا قدمنا في اليوم الأول تحليلاً واحداً فقط. وفي اليوم التالي ذهبنا في وقت مبكر، وحجزنا مكاناً في الطابور، لكننا أفلحنا في تقديم ثلاثة تحاليل بسيطة فقط. علماً بأنه أصابني الوهن لست وحدي فقط بل وشوفدا أيضاً. فيما كنت أرجوها طوال الوقت بأن تذهب لقضاء مهام أشغالها ودراستها.

لكنها كانت تجيبني بصورة قاطعة: - كلا، يجب أن أكون إلى جوارك.

- لكنك لا يمكن أن تهدري كل هذا الوقت معي.

- من أجل أبي.. نحن الآن نعرف كل شيء وسنفعل العملية.

- كلا البتة. إنهم حتى لم يسمحوا لنا بالدخول. فيوجد طابور آخر من المرضى من جمهورية الشيشان والجميع ينصحون: «يمكن فقط الدخول بمساعدة شركة. وإلا سينتهي الأمر..». فذهبنا إلى الشركة. إنها توجد في المكان نفسه. وبدا كما لو أن المعاملات هنا رسمية، لكن يوجد طابور أيضاً. ياللعجب! وأسعار الخدمات تسدد بالدولارات. ويمكن الدفع بالروبلات، لكن سعر الصرف خاص - طبعاً ليس في صالح المريض، وبالأحرى الزبون. وعموماً، قدمت التحاليل الباقية خلال يومين فحسب مقابل دفع مبلغ كبير وكانت النتيجة سيئة - الورم خبيث. وأرسلوني إلى طبيب يعتبر أفضل اختصاصي وتقريباً الوحيد، تلقى التدريب في الولايات المتحدة خلال ثلاث سنوات.

وهذا الطبيب - رئيس القسم في متوسط العمر وطويل القامة ومستقيم المهمة وحسن المظهر ويشبه أكثر ليس الطبيب بل مدير بنك. ويوجد لديه طابور أيضاً ولكنه غير طويل. وهو هنا السيد المطلق - صاحب الأمر والنهي. وكما تبين لاحقاً من أقواله فإنه اشترى تقريباً هذا القسم والطابق بأسره، وبالأحرى استأجره، وأصبح الآن بمثابة عيادة خاصة به تعمل تحت سقف الدولة، فهو يدفع دية إلى أحد ما، أما نفسه فيجب أن يتلقى راتباً لا يقل عن راتب الطبيب في أمريكا. لا سيما وأنه يحتكر سوق الخدمات. إنه حتى لم ينظر إليَّ، حقاً إنه قرأ بإمعان جداً جميع التحاليل وخلال فترة طويلة، وبعد ذلك قال بصرامة وبلهجة رجال الأعمال:

- أنا بحاجة إلى تحليل آخر، - وكتب توجيهاً بهذا الشأن، - اعطه إلى كبيرة الممرضات عندنا، وستقودك إلى المكان، وهذا التحليل بمبلغ مائتي دولار.

إنني حتى لم أتجرأ على قول شيء بل خرجت. في اليوم التالي جئت إليه مرة أخرى.

فقال في الختام: - هكذا. ستتبين الصورة كاملة فقط على طاولة العمليات الجراحية. فإذا لم يوجد نمو انبثاثي ثانوي للورم الخبيث، فسنزيل كل شيء، ونطهر مكان الورم، وستبلغ تكلفة ذلك ثلاثة آلاف دولار. وإذا لم يوجد فسيتعين علينا التعامل مع البلعوم. ووضع القسطر. والتكلفة إجمالاً خمسة آلاف والقسطر على حدة.

- ماذا يعني القسطر؟

- ألم تره في الممر...

- لا! - وكدت أصرخ.

تطلع إليّ بامتعاض وقال:

- هذا من حقك.. لكن يجب الدفع مقدماً من أجل بدء عملية العلاج - بنسبة مائة بالمائة. خمسة آلاف.

قلت وكدت أبتهل إليه: - لكنني لست بحاجة إلى القسطر.

- ستبين ذلك العملية الجراحية. وإذا لم تكن بحاجة إليه فتضمن إعادة المبلغ.

كنت أفكر في أمر ما، وأشعر بغم، بينما قال بلهجة جافة:

- اتخذ القرار، فهناك الناس في الانتظار.

ونبرت بما جال في فكري: - وكيف الدفع؟

بكل بساطة. خمسة آلاف الآن. وغداً يتم إدخالك إلى المستشفى. وبعد يومين أو ثلاثة من التحضير - تُجرى العملية الجراحية.

- وبعد العملية الجراحية؟

- نبقيك فترة أسبوع.

- وبعد ذاك؟

- هذا موضوع آخر.

- ما معنى ذلك؟

- معنى ذلك كيف ستدفع،- وعندئذ قام بحركة تنم عن اللامبالاة مشيراً إلى المخرج.

كانت لدي أسئلة أخرى كثيرة أريد توجيهها إليه. فهذا أمر خطير جداً، لكن الطبيب تحول إلى جهازه للكومبيوتر، بينما أحسست كما لو أن جاموسة مضغتني طوال أسبوع. كانت شوفدا بانتظاري في الممر. احتضنتني، ومسدت رأسي، وقالت وهي تطمئنني ماذا قال:

أجبتها باقتضاب.

وردت: - ياله من رجل خسيس. لا ضرورة لأي قسطر... لقد جلس هنا قبل قليل رجل لديه قسطر وقع أعطاني قصاصة الورق التالية: «اهربوا من هنا!!! هو رجل سادي. لا يفكر إلا بالمال».

طالعت هذه القصاصة حين خرج الطبيب من الغرفة مسرعاً وألقى نظرة على قصاصة الورق بيدي. وفور ذلك كرمشتها بسبب ارتباكي. ولكنه فهم كل شيء كما أعتقد، وصرخ في الممر:

- اغلقوا باب القسم! لماذا يتسكع المرضى في الممر؟!- ثم تطلع إليَّ وأضاف - اتخذ القرار بسرعة. فإنني سآخذ إجازة بعد أسبوعين.

وفجأة سألته شوفدا: - المعذرة، لكن أي ضمانات ستعطي؟

دهش الطبيب. ورنا إليها فاحصاً كما لو أنها وجهت إهانة إليه:

- ومن أنت؟

- أنا ابنة مريضك.

- ها! - وأجال بصره فيها مجدداً من فوق إلى تحت، ثم حول نظره إليَّ - أنا بروفيسور. طبيب. أنا أراه وأرى تحاليله. وأعرف بأن من الواجب الإسراع في العملية. أما الضمانات، - فرفع يده وأشار إلى الأعلى، وبقي لحظة في هذه الوقفة التمثيلية، ثم نبر: - لكم حتى الآن الحق في الاختيار- وابتعد بسرعة.

امتعضت شوفدا: - ما معنى «حتى الآن»؟

وبصراحة أنا كنت في غم شديد ولم أفقه شيئاً. لكن شوفدا أبدت نشاطاً تحسد عليه. ونحن بدأنا نعرف اتجاهات الممرات هنا، فاقتادتني في البداية إلى المقهى. لم تكن لدي شهية، لكنها أرغمتني على الأكل. ثم اقتادتني إلى ساحة صغيرة أمام المركز. وأجلستني على مصطبة هناك ثم قالت:

- دادا. أنا سأجوب القسم والمركز، وأستفسر.

اختفت فترة طويلة، وحتى ساورني القلق بشأنها. ثم جاءت مسرعة - عزيزتي، وحيدتي! إنها صارمة وشاحبة. جذبت انتباه الجميع، وقالت وهي ماشية:

- دادا، لن نتلقى العلاج لديه. إنه يعد الجميع بالخير لهم ويضع لهم جميعاً هذا القسطر. شيء فظيع! إنه ليس طبيباً بل رجل أعمال. ولا يفكر عموماً بالمرضى وبآلامهم وبمعاناتهم.

حسناً،- قلت هذا موافقاً أو للسؤال، - ماذا يجب علينا أن نفعل؟

يو جد في موسكو عدد كبير من المستشفيات والأطباء الآخرين. وقد أبلغوني بها.. يجب أن نأخذ تحاليلنا. لنذهب بسرعة.

حالما أخذنا المصعد إلى الطابق الحادي عشر المنحوس رأينا كيف أغلق باب المصعد المقابل وفيه كثير من الأشخاص وأحدهم طبيبنا - مرتدياً بدلة أنيقة وبيده حقيبة.

سألت شوفدا كبيرة الممرضات: - إلى أين هو ذاهب؟

- خلاص. انتهى وقت العمل. وذهب إلى البيت.

- هيا بنا،- الآن صارت شوفدا تلقي الأوامر، وأسرعت نحو المصعد.

أنا حتى لم أفهم أين خرجنا من المصعد فهناك مكان يشبه القبو، ثم وصلنا إلى مرآب للسيارات خاص كتب عليه «فقط لمنتسبي مركز الأورام». وما كنت لأتجاسر لكن شوفدا اندفعت إلى الممر وسدت الطريق أمام سيارة كانت في طريقها للخروج. فنزل الزجاج المعتم للسائق - وبدت سحنة الطبيب وعليها سمات الدهشة والامتعاض وقالت شوفدا له:

- أرجو المعذرة، رجاء، بودنا أخذ تحاليلنا.

وقال بلهجة لا تخلو من سخرية: - وهل تتصورين أنها معي؟

تحركت السيارة ثم توقفت وقال الطبيب بلهجة مغايرة: - إن موعد حصتكم سينتهي.

- وما الفرق، بحصة ومن دون حصة، فكل شيء مقابل النقود.

- هه - هه! الفرق كبير: فمن دون الحصة لن يسمح لكم بالدخول إلى هنا، وإذا سمح لكم فإن التسعيرة مختلفة.

وكادت السيارة أن تتحرك لكن شوفدا لم تتراجع:

- هل يمكن العلاج من دون هذا القسطر؟

توقفت السيارة مجدداً:

- أنا أستطيع ذلك! لكن يجب أن أعمل كما يجب على الطبيب أن يعمل، - وانطلقت السيارة بحدة.

تطلعت شوفدا طويلاً في أعقابه، ثم نظرت إلى السيارات الأخرى وقالت بحزن:

- دادا، هل رأيت السيارة؟ انظر هنا إلى سيارات الأطباء الآخرين.

أنا لا أفقه شيئاً في ماركات السيارات، لكنني رأيت نحونا السيارات الفخمة الغالية حصراً، وسمعت تعليقها:

- لا يكفي أن ثمن السيارات وحدها يعادل مئات آلاف الدولارات. هذا قليل بالنسبة لهم - انظر إلى جميع الأرقام - 001 و002. ورقم سيارة طبيبنا جميل جداً - A77 A777. هذا يتطلب إنفاق النقود. ها-ها-ها، - راحت فجأة تضحك بصورة هستيرية. - دادا ما لنا نقلق؟ لن يوضع لنا قسطر- فلا توجد لدينا نقود لهذا الغرض.

كان الأمر سيبعث على الضحك لو لم يكن محزناً جداً- إذ إن جميع رأسمالي، وبالأحرى رأسمالنا، لايصل حتى إلى ألفي دولار. وهذا مع معاشي التقاعدي البالغ ثلثمائة دولار شهرياً - فهو الإملاق بعينه بالإضافة إلى المرض. لكن شوفدا لم تتكدر البتة. ففي اليوم التالي جئنا مجدداً إلى مركز الأورام، فتبين أن طبيبنا غائب ولن يحضر إلا بعد يومين فهو يشارك في ندوة ما. لكن هذا لم يوقف شوفدا عند حدها. فقد هتفت إلى المعارف وعلمت بأنه يوجد في «مركز بيروجوف الوطني للطب والجراحة» بروفيسور شيشاني يمكن أن يساعد. فذهبنا إلى الطرف الآخر من موسكو، إلى الشمال. وقد تبين أنه توجد في موسكو مؤسسات علاجية جيدة. وبخلاف مركز الأورام فإن الدخول إلى هناك ليس سهلاً- فيجب أن يتوافر توجيه من المستوصف المحلي، بينما لا يقبل أحد في المستوصف المحلي من دون وجود تسجيل الإقامة بموسكو أو توجيه من المستوصف في الجمهورية. ولم يكن لدينا هذا أو ذاك لكن ابن جلدتنا ساعدنا. إنه مستشفى مغاير تماماً، والجو والمعاملة مختلفتان تماماً هنا.

أخذني ابن جلدتنا إلى الاختصاصي في البلعوم: وهو طبيب كهل، ويبدو أنه محنك جداً - وبروفيسور أيضاً. وهنا لا يدور الحديث البتة عن النقود، وعندما تحدثت شوفدا عن مركز الأورام والقسطر - ذهل الأطباء هنا فحسب. وهنا ينصحون أيضاً في الرقاد في المستشفى بسرعة من أجل إجراء الفحوص واستئصال الورم. لكن هذا يتم فقط لدى توافر الحصة، والحصة الموجهة إلى مركزهم بالذات. وقال البروفيسور ابن جلدتنا، وهو رجل في متوسط العمر، قوي البنية، وشديد العناية ودمث الأخلاق، لدى توديعنا:

- ستكون هناك صعوبة فيما يخص الحصة، فلا توجد لدى مركزنا اتفاقية مباشرة مع وزارة الصحة في جمهورية الشيشان، لكنني سأساعد في ذلك.

وسألت شوفدا بلهجة رجال الأعمال فيما يخص النفقات:

- كم يجب أن ندفع إلى الأطباء؟

ستبلغ النفقات إجمالاً خمسين ألف روبل.- أجاب الطبيب ويبدو أنه بصفته طبيباً - خبيراً نفسياً محنكاً، وأنهى كلامه قائلاً: لدى توافر الحصة، سيكون كل الباقي مجاناً.

وقررت شوفدا: - سندفع.

في اليوم التالي ودعتني إلى جمهورية الشيشان، قائلة:

- دادا أعمل جهدك في الحصول على وثيقة الحصة. وأنا سأجد المال.

- كيف ستجدين المال؟

- أنا موسيقية محترفة، وثمة إقبال على عزفي. مجرد أنني أنفر من بعض الجمهور.

.. وهنا أبديت شيئاً من الضعف. فلم أرد. بينما وجب ذلك. فالأمر ليس كما قالت لي. وانتظرت رد فعليّ. بينما غمغمت - ودلفت إلى الذبول، وقلت متأوها، إن التشخيص خطير! وماذا بعد؟ وهل عشت طويلاً؟ وكم من الشباب فقدت... وعموماً يجب الكفاح والعيش حتى مع هذا التشخيص. والتشخيص نفسه متأت عن أنني عالي الهمة وعزيز النفس. وعموماً سيكون من السهل قول ذلك فيما بعد. وعندما يسود الفقر نحوك - الفقر المالي والروحي، وقبل كل شيء، البشري، حينما لا يوجد مخرج وآفاق - يكون ذلك أمراً صعباً. ويغدو من الصعب مقارعة الذات. ومن الصعب إيجاد مغزى لمواصلة الحياة والعيش البسيط. لكن الحياة نفسها ليست بسيطة. ثمة منطق لكل شيء، وصلة سببية - تحقيقية. ولا يحدث أي شيء ببساطة فحسب، وأنا أعتبر سلسلة الهزات والخطوب الجديدة اليوم شيئاً حتمياً، وحتى الخاتمة، ونوعاً من التكامل في حياتي. لأن الأحداث المحزنة أرغمتني مجدداً على الكفاح والعيش. وليس العيش فقط بل والتمتع بكل يوم من حياتي. وأظن أن القدر نفسه قد حكم بأن أكابد في النهاية هزة جديدة، بغية اختباري مرة أخرى، وإذا ما تحملت ذلك، فستتم مكافأتي.- هكذا فأنا في أيامي الأخيرة، ولدي كل يوم الآن هو اليوم الأخير، يجب ألا أعيش في غم وهموم ويأس من هذه الحياة، بل في بهجة وإعجاب بها! على أقل تقدير، إنني لا أغتم ولا أكابد السأم - فلدي أشغال كثيرة، ولدي حلم ولدي هدف في منظار التنشين... وسأنتظره ولن أخطئ في إصابة الهدف. أنا الآن صياد - وهو الضحية. هذا ما أفكر فيه بثبات. وأنا على يقين من أنه لو عرف بأنني أفكر بهذا الشكل، لانطلق في القهقهة فحسب. لأنه يعرف ويعتقد بأنني مريض جداً،

وأن أيامي معدودات. لكنني أعرف، أعرف الآن، إن الحياة لا حدود لها، وخالدة، ورائعة، إذا ما آمن المرء بذلك، وهو يكتب عن ذلك، ويشيد، ويحلق عالياً نحو بلوغ هذا الهدف!

11 يونيو، صباحاً

أنا مازلت هنا، في مركز الأورام في كاشيركا. في المبنى المكروه لدي ولدى كثير من المرضى. ولو أن الأمور كلها أصبحت الآن في حكم الماضي. وجاء زمان... أوه، كيف مضى بسرعة!. أنا لا أريد، أوه، كما لا أريد تذكر والتفكير في ذلك، ناهيك عن الكتابة عنه. لكن ما دمت قلت «آ» فيجب أن أقول «ب». حقاً أ أنا أتحفظ في القول فوراً، فلن أعمد إلى وصف كل شيء وتكراره. أنا لا أستطيع ولا أريد ذلك. وسأحاول أن أورد كل شيء بشكل ما حسب التسلسل، وكما كتبت سابقاً - لو لم يحدث ذلك الأمر فما كنت سأعرف بوقوع الأمر الآخر...

صفوة القول، وصلت جواً إلى جروزني من أجل الحصول على حصة علاج جديدة. بينما سادت جمهوريتنا الفوضى بعد اغتيال رئيسنا، ومجدداً ساد تعدد السلطات وغموض الوضع التام. إنه أصعب وضع. لكن السياسة لم تشغل بالي، بل ذهبت إلى وزارة الصحة، فوجدت هناك أيضاً تغييرات في الكوادر. وظهرت وجوه ووجوه جديدة، لكنني كنت أعتقد مع ذلك بأنني في موطني، ولدي معارف، وهم يساعدونني، لكن تبين أن هذا ليس من الأمور اليسيرة. وعلمت الآن فقط أن الحصة هي - نقود. وتدفع وزارة الصحة عندنا مبالغ كبيرة مقابل العلاج. علماً بأنهم في الوزارة على استعداد لإصدار حصة جديدة إلى مركز بيروجوف، لكن يجب قبل هذا أن يعيد المركز في كاشيركا الحصة القديمة أو يلغيها. ومفهوم أن دفع المبالغ لقاء علاجي مرتين لا يعتبر مفيداً. وقال الموظفون في وزارة الصحة إنهم سيتصلون عبر قنواتهم مع مركز الأورام، وسيطلبون إعادة الحصة القديمة وسيصدرون حصة جديدة - لكن هذا يتطلب عدة أيام.

ذهبت إلى الجبال. وأقول بصراحة إن الحياة هناك هادئة جداً بعد موسكو وجروزني. لكن هناك مشكلة - لم يوجد آنذاك الاتصال الهاتفي، بينما أنا أشتاق إلى شوفدا وأعرف أنها مشتاقة أيضاً. بعد أسبوع، في يوم الاثنين، غادرت الجبال، وحالما أصبح جهاز هاتفي في منطقة الاتصال، طلبت قبل كل شيء رقم شوفدا، لكن هاتفها خارج نطاق الاتصال. ففكرت أنها في أغلب الظن في الدروس. وتوجهت إلى وزارة الصحة، وهناك انتظرني أيضاً نبأ لا يدفع إلى الاطمئنان - فإن مركز الأورام لا يجيب على الطلب، ويجب أن يذهب أحد ما إلى هناك شخصياً وتحريك هذه المسألة. وبوسع شوفدا القيام بذلك، لكن هاتفها مغلق طوال الوقت. شعرت بانقباض في قلبي احتمال حدوث خطب أليم. وتملكني القلق الشديد فذهبت فوراً إلى خالة شوفدا، ابنة عم زوجتي، وتقيم شوفدا اتصالات مستمرة معها أيضاً. وحالما ظهرت في باحة بيتهم، صرخ أحدهم باسمي، ما

أخافني. ثم سمعت من يقول: مسكينة شوفدا! تخاذلت ساقاي. وخرج للقائي حشد من النساء وحتى الأطفال...

أنا لا أستطيع الآن الكتابة عن جميع مشاعري، كما لا توجد حاجة لذلك. سأذكر كل شيء كما حدث. فقدد قررت شوفدا كسب المال من أجل علاجي. وقد سنحت الفرصة لذلك. فسيتجوز ابن أحد موظفينا في جروزني، وهو طبعاً من الأثرياء. وكان من المقرر إقامة حفل زفاف فخم. وسيأتي موسيقيون وفنانون شيشان معروفون من موسكو. بينما قرر حفيد العم جيخو أن يبرز نفسه بين الباقين. حيث توجد لديه صلة قرابة بشوفدا. بينما شوفدا ذات مستوى رفيع، وتكاد تكون مغنية أوبرا ونجمة صاعدة من موسكو. وقد وضعت شوفدا الشروط لمشاركتها في الحفل: تدفع أجور السفر ذهاباً وإياباً والمشاركة في الحفل خلال أمسيتين - في السبت والأحد حتى الساعة العاشرة. وستقدم إجمالاً سبع مقطوعات باللغات الشيشانية والروسية والإنجليزية والإيطالية.. والمكافأة - ألفا دولار. علماً بأن شوفدا أخفت ذلك عني، بينما كانت خالتها تعرف كل شيء. لقد استقبلت الخالة شوفدا ومجموعة الفنانين من موسكو في مطار جروزني. وكانت الخالة مع شوفدا خلال الأمسيتين في حفل الزفاف الذي أقيم في فيلا الموظف الكبيرة التي شيدت حديثاً. وفي الأمسية استقبل الحاضرون شوفدا بالهتاف والتصفيق. واضطرت إلى تلبية رغبات الجميع، وأداء ليس سبع مقطوعات بل سبع عشرة مقطوعة غنائية. وعادت الخالة مع شوفدا إلى البيت في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. وكانت الأمسية التالية في يوم الأحد مختلفة. فقد حضرها ضيوف من كبار الشخصيات الموقرة، وكثير منهم من القيادة الجديدة في الجمهورية. واستغرقوا في اللهو مجدداً. وامتلأت الموائد بما لذ وطاب من الأطعمة. كانت هناك أطعمة كثيرة جداً. وشربوا كثيراً وكثيراً. وجاء أداء شوفدا في تلك الأمسية - فأي ضيوف كبار هناك!- بمثابة مفاجأة كالحلوى في نهاية المأدبة. وضج الحاضرون بالهتاف والتصفيق مرة أخرى! لكن هل تقدم الأعمال الكلاسيكية أمام مثل هذا الجمهور ولا سيما من السكارى؟! إن حمل «الفن» إلى مثل هذا الجمهور - هو فقط بمثابة تهييج واستثارة الهمج. صفوة القول استمر الحفل مجدداً حتى وقت متأخر من الليل. ووعدوا شوفدا وبقية الفنانين بدفع مكافأة إضافية لهم. استمر اللهو، وعندئذ أبدى أحد الكبار المهمين و«العظماء «رغبته في أن تكون هذه الفنانة له. وجاء ذلك بمثابة أمر. لكن توجد إلى جانبها الخالة. والخالة مسنة، عجوز. علماً بأنها في الليلة الثانية من اللهو قد أصابها التعب، وربما ضعفت يقظتها، فاقتادوا شوفدا وبقية الفنانين إلى الباحة الخلفية وطلبوا منهم مواصلة الحفل في مكان آخر. لكن شوفدا رفضت فوراً - عندئذ استخدموا القوة، ونقلوها عنوة. وعندما فطنت الخالة إلى الأمر، لم تكن شوفدا موجودة في المكان حيث انتشر الرجال السكارى، والنساء المتعبات والشبعات. أثارت الخالة الضجيج، بالعويل والصراخ. فضيحة. جرت المحاولة لتهدئتها وحتى لتخويفها، لكنها لم تتراجع، وعندئذ وجه إليها أحد السكارى لطمة على وجهها. لكن يقف وراءها - لست أنا اليتيم - الوحيد - بل يقف وراءها، رجال ربما إنهم بلا شؤون ومال، بل عشيرة كبيرة، «تيب»، لن تسمح بتوجيه الإساءة إلها. وكاد الأمر أن يصل إلى حد تبادل إطلاق الرصاص في تلك الليلة. وتكمن المسألة كلها في أن شوفدا عادت في الصباح - ربما أفرجوا عنها، وربما هربت بنفسها، - كانت ممزقة الملابس وبرضوض. أرسلوا في طلبي في الجبال، بينما أنا جئت بنفسي إلى هنا. تصوروا حالتي؟.. إنهم لم يظهروا لي شوفدا. أنا أردت رؤيتها لكنني لم أرغب في ذلك. وبعد ذلك بدأت المساجلات الشيشانية. وراح رجال الدين (الملالي) والمشايخ يتجولون ذهاباً وإياباً. وجرى التلميح

إلى دفع النقود، وعرضوا مبلغاً أكبر - لكنني شتمتهم بشدة وبصراحة جداً باللغتين الروسية والشيشانية. وفيما بعد، وفي أحد اللقاءات قال أحد الملالي هامساً، كما لو يفشي إلى أحد ما بسر من الأسرار:

- ماله يعتز بنفسه بهذا الشكل؟! إنها فنانة - وهذا يتضمن كل شيء... إنها تحيا لوحدها بلا رقابة في موسكو خلال عدة سنوات. والآن تغني في مطاعم موسكو وباراتها، وتشرب وتلهو.. أنا حتى رأيت تسجيل فيديو لها. إنها في تنورة قصيرة. بينما تريد هنا والآن.. إبداء الكبرياء وعلو الهمة...

هجمت عليه بوعي عكر - وكنت مستعداً لقتله والموت فوراً. لكن أمسكني عدة أشخاص وأبعدوني عنه، لكن هيهات أن يتسنى لهم ذلك، لأنني كنت شديد الغضب، لكن حدثت فجأة نوبة من الاختناق الشديد. وفي هذه المرة لم ينفعني حتى شرب الماء، فنقلوني إلى المستشفى، حيث حقنت بإبرةعرضوا عليّ الرقاد في المستشفى، لكنني كنت مستعداً لدخول معركة. كنت مستعداً من أجل حماية شرف ابنتي لعمل كل شيء، وقدم لي الدعم جميع الأقارب. وكان هناك أقارب خالة شوفدا ولو أنهم ليسوا من الأقارب، لكنهم مهتمون بالأمر. وقبل كل شيء مارسنا الضغوط الشديدة على أصحاب البيت، حيث جرت تلك الأحداث في أثناء حفل الزفاف. وجرى الاعتداء بالضرب على الموظف في باحة بيته نفسه ولم يساعده وجود رجال حمايته والأقارب، فقد كان عددنا كبيراً ونحمل السلاح جميعاً.

وبعد ذلك قررنا القيام بعمليتين بغية ألا يفعلوا ذلك فيما بعد مع نسائنا وشيوخنا وشبابنا. لكن انبثق فجأة هجوم مضاد غير متوقع. ويبدو أنه تدخل في الأمر الشيوخ بدعم النساء، إذ لا يريد أحد العداء ويكفينا أننا كابدنا حربين. وتبين حسب قولهم أن شوفدا لم تؤخذ عنوة بل بموافقتها. لكن يوجد تقليد سخيف لدى أبناء الجبال. ومفهوم إنهم طرحوا هذا الرأي من أجل تسوية الوضع المتوتر. ويبدو كما لو أن هذا يبرر أو حتى يطهر كل شيء - فمع من لا يحدث هذا بسبب مشاعر الحب الملتهبة؟ وهذا الوضع - احتمال الزواج والقرابة - يروق للجميع، وأنا في وضع لا مخرج منه، لأن الخطيب ما هو سوى حفيد العم جيخو، ويعرف الجميع قيمة العم جيخو بالنسبة لي. إذا ما توخيت الصراحة حتى النهاية، ولو مع نفسي، فقد كنت أدرك كل الإدراك، إن حفيد العم جيخو وضع عينه كما يقال على شوفدا منذ زمان. وكانت شوفدا تعرف ذلك، لكنها كانت تنفر منه فحسب. علماً بأن الحفيد متزوج منذ وقت بعيد ولديه أبناء. وفي الحالة المعطاة يبدو كما لو أنه رقد أمام فتحة النيران، وربما أنه نفسه قد أراد أن يظهر نفسه بصفة الخطيب - فتزول الفضيحة وتسقط من الحساب...

إن مصير شوفدا مفهوم. فهذا الزواج، في حالة حدوثه، سيكون شكلياً فقط، مفهوم إنه مؤقت، وفي جوهر الأمر - إنه يمثل إذلالاً لشوفدا. لكن هذا الزواج، كأمر واقع، يخفف حدة توتر الوضع كلياً، ويزيل جميع قضايا الأزمة. والضحية واحدة فقط - شوفدا! وأنا، طبعاً. أنا أحب ابنتي الوحيدة. أنا لا أستطيع ولا أريد أن تمتهن وأن يجري الاستهزاء بها. وأنا وحدي قادر على حمايتها والدفاع عن شرفها. لكنني بحاجة إلى الكلمة، إلى قرارها. أنا لا أستطيع أن أراها، بينما هي تخجل مني وتخافني. وتم إجراء اتصال هاتفي بيننا. أنا أعلم بأنه تم إقناعها. فلا يريد أحد الضحايا والنزاعات. وأنا على ثقة بأنه قيل لها: حافظي على أبيك فهو من حيث المبدأ وحيد ومريض بالسرطان. بينما

جال في خاطرهم: ما أكثر الذين يتزوجون ويطلقون.. وعموماً إنها اختارت مصيرها بنفسها - فنانة!

- هل أنت موافقة؟ - هذا كل ما استطعت قوله في سماعة الهاتف، وبعد فترة صمت طويلة، قالت بصوت مبحوح وبهدوء جداً:

- نعم... دادا!...

ونبرت في سماعة الهاتف قائلاً: ديلا نعلات خولدا خونا! (العبارة باللغة الشيشانية تعني «اللعنة»).

11 يونيو، ليلاً

مع ذلك فإن المال قوة جبارة. والآن حتى جلب لي هذا الطبيب السأم - فهو يزورني ثلاث أو أربع مرات في اليوم، إنه يبتسم ويبدي العناية البالغة. نعم، إنه يكسب النقود. ويبدو أن شوفدا دفعت له مبلغاً كبيراً. ولهذا يحوم حولي طوال الوقت. لقد التأم الجرح تقريباً، وتحسن وضعي الصحي. وبعد يوم غد سأغادر المستشفى، وفي مساء اليوم نفسه ساسافر جواً إلى النمسا. ما أشد رغبتي في رؤية شوفدا والحفيد. وما أشد شوقي إليها. ماذا كنت سأفعل من دونها؟ إنها شاطرة! وأنا؟ هل تصرفت بشكل صائب معها آنذاك؟ طبعاً، لا. أنا تصرفت كرجل متوحش. وبدلاً من إبداء الدعم لها والدفاع عنها في تلك الفترة العصيبة أدنتها واشحت بوجهي عنها. وهذا كله يعود إلى تربيتي وعقليتي: الجمود العقائدي وازدواجية الوجود في القرن الواحد والعشرين. فمن جانب كنت أريد أن تدرس ابنتي في الكونسرفتوار، لكنني لا أريد أن تصبح فنانة، وأن تعمل مع الفنانين، ومع الفن عموماً، في مجتمعنا وضع مزدوج - فمن جانب يقابلون بالابتهاج، وبصورة رئيسة هذا موقف استهلاكي، ومن جانب آخر ينظر إليهم فحسب كمهرجين. ويمكن الجدل كثيراً حول هذا الموضوع، ولكن باعتقادي أن الواقع المحيط بي يعرف بالإنسان المبدع أو الفنان فقط حين يعترف به في موسكو، ناهيك عن اعتراف الغرب به، أو عندما يكون ثرياً فحسب، ويكسب ثروته من الفن. ومن الصعب جداً تحليل وتحديد هذا كله. لكنني أعرف شيئاً واحداً - إن ابنتي شوفدا قد صمدت، وأنا واثق أنها ستحقق بل إنها حققت هدفها. هل كنت أحب ابنتي وأشتاق إليها آنذاك؟ طبعاً، أحببتها، واشتقت إليها، وأسفت لقطع الصلات معها. إنني لم أستطع ذلك، لكنني رغبت فيه. أنا ذهبت إلى الجبال، وانعزلت عن الجميع، وعشت حياة النساك، لكنني كنت أعرف كل شيء عن حياة شوفدا عن طريق خالتها، كنت أعرف كل شيء وكذلك تنبأت لها بكل شيء. حسناً أن أخذ حفيد العم جيخو زوجته الشابة شوفدا إلى موسكو وأسكنها في شقته وحتى قدم لها الشقة كهدية عرس. وفي الشهر الأول والشهرين الأولين كان غالباً ما يأتي إلى موسكو، حتى لم يتعب نفسه، بل أرسل اثنين من رفاقه الذي أعلنوا واقع الطلاق.

واستفسرت شوفدا بسذاجة: - وماذا عن الشقة؟

فقالا: - هذا ما لا نعلمه.

وقد تبين أن الشقة كانت مستأجرة، وجاء أصحابها وطلبوا من شوفدا إخلاء الشقة وأخذ جميع حاجياتها معها. والشيء الوحيد الذي أبهج شوفدا أنها بالرغم من كل شيء لم تترك الدراسة، وكانت تستعد لنيل شهادة الدبلوم. بينما أنا أزور خالة شوفدا مرة في كل أسبوعين، وأستفسر منها، كما لو بالمناسبة، فتحدثني كم لو كان ذلك بالمناسبة عنها، وقدمت لي ثلاثة آلاف دولار - كما لو أنها منها نفسها. لكنني كنت أعرف أن شوفدا أرسلتها. حسناً أن تتوافر لديها مثل هذه النقود، لكني رفضت تسلمها بشكل قاطع:

- يجب عليك أن تعالج نفسك. يجب إجراء العملية الجراحية،- أكدت ذلك الخالة مرة أخرى - فسحنتك مريضة - أنت شاحب، وحتى أخضر الوجه. أنت مريض.. سافر إلى موسكو.

- أنا صحيح البنية، وأشعر بأن كل شيء على ما يرام. - كنت أجيبها باستمرار، - ولن أسافر إلى أي مكان... الوضع هادئ في الجبال، وسأموت بهدوء هناك حالما يحل أجلي.

لكن هذه ليست تعاليمي في الحياة- إنها حالتي النفسية. أنا مريض. مريض جداً. لا شهية ووهن وضعف واكتئاب تام. والآن تعذبني فحسب نوبات الاختناق اليومية، وتغير صوتي، وانسدت أذناي، ويصيبني الهزال لفقدان الوزن. لكن هذا ليس أصعب الأمور - فالشيء الأسوأ شعوري بالبرد دوماً، وبالقشعريرة المستمرة، وأجلس دائماً إلى جانب المدفأة، وأتطلع إلى النيران على مدى ساعات، وإلى كيف تحترق حياتي حتى حلول النهاية. وفي هذه الفترة، ولا سيما في البداية، كان غالباً ما يزورني الأقارب وأبناء القرية- بعضهم يجلب لي الطعام، وبعضهم النقود. بينما أرفض أخذها بشكل قاطع - أعتبرها إهانة، وبعضهم يحدثني فحسب ويدعمني، والجميع يقولون - سافر إلى جروزني، إلى موسكو، واعمل شيئاً ما، فأنت مريض. علماً بأن هذه الشفقة والرعاية تثيران نفوري. كنت أضطرب وانفجر. ولكنهم توقفوا عن زيارتي، وكنت سعيداً بتلك الوحدة. هكذا وصلت حياتي إلى الاحتراق والخمود. حقاً، وبالأخص حين يكون الطقس جيداً ودافئاً، وحالما ينبثق النور بصورة عفوية فجأة في قرمة الخشب المحترقة، أشعر أحياناً بانفراج أساريري وتدفق حيويتي فأغادر كوخي وأذهب إلى الجبال. كان ذلك صعباً في البداية، وكان الاختناق يعذبني، وكنت أتلفت ورائي باستمرار- هل سأستطيع العودة؟ لكنني أتفصد عرقاً، وأحس بالدفء، ما زال يوجد لدي بصيص من نور الحياة، وأشعر بالبهجة والنور، فأمضي وأواصل السير لاحقاً، وهكذا كنت أمشي وأمشي، وأحس بالارتياح في دخيلة نفسي وبالسناء حولي. لكن قواي تضعف، والشمس تميل إلى الغسق، وتشتد النسائم الباردة الجبلية مع اقتراب الليل، كما أنني أريد أن أتناول الطعام وأن أعيش أكثر. لكن مثل هذه الأيام قليلة - ولا يفارقني السهاد في الليالي، وأحس بأنني في وضع سيئ بشكل سافر. وأستيقظ في الصباح محطم الجسد، ولا أستطيع ولا أريد الخروج من كوخي. أنا أعلم بأن التجول في الجبال يشكل نوعاً من الإنقاذ بالنسبة لي، وكنت أغالب نفسي شيئاً فشيئاً.
وحدث أن عدت من إحدى الجولات فوجدت تحت الباب مظروفاً فيه ثلاثة آلاف دولار. مفهوم، إن خالة شوفدا لم تأت إلى هنا، فهي عجوز، وحتى لو جاءت إلى هنا لكانت قد انتظرتني. ووقعت الريبة فوراً على شرطي المحلة الجديد. وقد جرى تعيينه آنذاك. ما أثار دهشتي جداً لكنني سررت

بذلك. فذهبت إليه - فهو ابن قريتي وصديق ورفيق ابني الأصغر، لكنه تظاهر بأنه لا يعرف من الأمر شيئاً، ولو أنه تفاخر قبل هذا بأن الجميع في المنطقة تحت رقابته، ونصحني قائلاً:

- هل ترى، إن الله نفسه يرسل لك النقود، كما لو أنها سقطت عليك من السماء. فسافر بسرعة إلى موسكو، وعالج نفسك.

إنني لم أحاول استجوابه. ومفهوم أن شوفدا قد بحثت عن وسيلة لإيصال النقود إليَّ. وقد سرني ذلك، كما شعرت بالخجل، وبدا لي أن من الواجب أن أسافر، لكنني لا أقدم على اتخاذ قرار، أنا خائف. وأكثر ما أخشاه أن ألتقي شوفدا هناك بموسكو. كما أخشى التطلع إلى عينيها. فأنا أفهم الآن بأنني مذنب في كل شيء. وفجأة بدا لو انفجرت قنبلة في داخل أحشائي - أي سر!

بعد إحدى النزهات عثرت مجدداً عند الباب على مفاجأة. وفي هذه المرة كان المظروف كبيراً ومختوماً بإمعان، يبدو أنه لم يصل إلى هنا ببساطة، فهو مغطى ببقع. ويوجد فيه كاسيت فيديو. وحالما تناولته شعرت بالتقزز وبالقذارة والاشمئزاز. ومفهوم أن الذي جاء به هو الشخص نفسه الذي جلب النقود في العشية. فلا يأتي غريب إلى أصقاعنا، وبالرغم من أن شرطي المحلة هز كتفيه مجدداً، ففي أغلب الظن أنه من جاء به. وكانت أول فكرة راودتني هي أن هذه الحقارة هي حول شوفدا. وقد صورها أحد ما في المطعم أو في مكان أسوأ، وربما حتى في خلوة، ويريد بذلك أن أراها وبهذا يقضى عليّ نهائياً. وأقول بصراحة، إنني سعيت إكراماً لذكرى العم جيخو إلى عدم التفكير البتة بشأن حفيده - وتوكلت على الله فحسب. لكنني كنت واثقاً فحسب أن هذا الكاسيت جاء من حفيد العم جيخو، وهو يستغل ذلك شرطي المحلة. وهذا الكاسيت عنها، وبعث به زوجها السابق، المزعوم. وبهذا يبرر الطلاق معها - فانظر إلى ابنتك. أنا لم أرغب في مشاهدة هذا كله، ولم أستطع مشاهدته لعدم توافر لا الجهاز ولا الكهرباء. في منتصف الليل خرجت من كوخي وألقيت بالكاسيت في الفج بكل قوتي. وشعرت فوراً بانفراج في أحاسيسي. ثم غسلت يديَّ بعناية، وأديت فرائض الوضوء، وصليت فترة طويلة، وغفرت للجميع إساءاتهم لي، كما أنني طلبت من الباري عز وجل المغفرة بنفسي وشعرت بانفراج الغمة وبالهدوء وبالطهارة، حتى إنني نمت عميقاً حتى من دون تناول الحبوب المنومة، وهو مالم يحدث لي منذ وقت بعيد. لكنني رأيت حلماً - إنه كابوس فحسب: يرجوني فيه رجل ما مشوه القسمات ومعذب ويدعوني لمعونته. الرؤية رديئة، كما في الضباب، ولكنه لا يشبه زيبا، فهو فتي جداً - إنه ابني. ابني الأصغر! وقبل طلوع الفجر ذهبت للبحث عن الكاسيت - ووجدته. إنه خفيف الوزن ولم يسقط في مكان بعيد. وفور ذلك توجهت إلى جروزني، ولم آخذ معي الكاسيت خصيصاً، بغية ألا تراودني الرغبة في مشاهدة محتوياته في مكان. وقبل كل شيء فأنا بحاجة إلى الجهاز في تدبير شؤوني المنزلية، ووجب أن أشتري مولداً كهربائياً. لكنه يولد ضجيجاً ولا ينفع لدى مشاهدة الفيديو. ولحسن الحظ التقيت مهندساً أخذ بطارية مركم قوية، لاتستخدم إلا مرة واحدة، وأوصله بمرحل تحويل التيار إلى تيار متغير. واشتريت جهاز فيديو جيداً - ورجعت إلى البيت. وفي وقت متأخر من الليلا فقط، وبعد أن ساد الهدوء في كل مكان، أنزلت الستائر على النوافذ ووضعت الكاسيت في جهاز الفيديو. وأدركت منذ المشاهد الأولى أن شوفدا لا علاقة لها بالأمر. الخلفية واسعة، والميكروفون عامل، وحتى يسمع صوت أنفاس المصور. يبدو النهر في الوادي، والوقت شتاءً، أو في أواخر الشتاء: فالثلج متوافر في

بعض الأماكن. ويبدو في الخلفية البعيدة شبح وحيد لرجل ما. لا يرى وجهه - فهو واقف وظهره إلى المصور. واستمر المشهد فترة طويلة، وسمع كيف أن المصور كان يردد الشتائم بلغة روسية سليمة:

- أين هو، ابن ال....؟ وبهذا انتهى الشريط.

يبدو أنه أغلق الكاميرا. ومن ثم بدأ عرض التسجيل مجدداً. هناك حركة. كان ذلك الرجل الوحيد يصرخ بشيء ما باتجاه أطراف الغابة، وهو يلوح بيديه محيياً. تتوجه الكاميرا إلى ذلك الاتجاه: غابة، ولا يري أي شيء آخر، ثم يظهر شبح شخص ما من الحرج ويلوح بيديه أيضاً، ويقول عبارة ما: لايسمع أي شيء. ويركز المصور العدسة باتجاه الشخص الثاني. يبدو كأنني لصقت بالشاشة. في اللحظة الأولى تصورت أن هذا زيبا - فهو يعرج مثله. ثم يظهر بصورة مكبرة وجه شاحب ينم عن المرض وبلحية، لولا العينين الزرقاوين مثل عيني - إنها عينا ابني الأصغر. ثم يلتقي الشخصان، ويتبادلان الأحضان، ويرى حتى من هنا أن حديثهما يخلو من الترحيب والمودة. إنني لا أستطيع التعرف على الثاني حتى الآن. ولو أنه يقف جانباً، لكن لا يمكن التعرف عليه من البروفيل: فهو بلحية أيضاً، والقبعة المحوكة متدلية إلى الأسفل. وقال ابني شيئاً ما بحمية، ويدعو بلهجة آمرة أن يأتي معه ويعود متوجهاً إلى الغابة، وعندئذ يطلق عليه الأول الرصاص من سلاح «ستيتشكين».. كانت الصلية طويلة، لكن ابني استدار بالرغم من ذلك وحتى قام بخطوة إلى الأمام للقائه، وعندئذ انطلقت صلية رصاص أخرى. فسقط منبسطاً على وجهه. ألقى الأول الرشاش في النهر، وخطا باتجاه الكاميرا، وقبل أن يتفوه المصور بلقبه (لسبب ما يخاطبه باللقب) عرفته - إنه حفيد العم جيخو. إنه هو بالضبط!

قال المصور: - إنك صرعته. ولم تبخل بالرصاص على أخيك.. هل هو أخوك فعلاً؟

فشهر ذاك المسدس وقال: - صه ياكلبة؟

- ما لك؟! - وصارت الكاميرا تصور كيفما اتفق. وسمعت ثلاث طلقات متتالية. وسقطت الكاميرا. ثم تبعت ذلك ثلاث أو أربع طلقات. وبدا على الشاشة سائل أحمر ما يميل إلى البياض، كما لو نبتت من التربة بادرات وريقات الثوم البري، واضطربت حشرة صغيرة ما، ومن ثم داست جزمة على الخضرة - وساد الظلام!

... تراءى لي كما لو أن تلك الجزمة داست على رقبتي- وأحسست بالاختناق. وصار رأسي وقلبي وروحي تكابد الوجع والألم والضيق.. ربما ثبت إلى رشدي بعد مضي ساعة وأنا راقد على الأرض. وفكرت بأن ذلك الحلم الرهيب وشاشة المونيتور ما زالتا تومضان. لقد كان شيئاً مخيفاً أن أعيد مشاهدة هذا الكاسيت. لكنني أرغمت نفسي على ذلك زد على ذلك وأقول مسبقاً، إنني التقطت من هذا الكاسيت آخر صورة فوتوغرافية لابني الأصغر (لقد تبين أن شوفدا عملت الشيء ذاته.. لكنني أستبق الأحداث...). وعندما أعدت مشاهدة الكاسيت اختلج شيء ما في أحشائي

بعصبية، وبصورة فيزيقية، كما لو أن بالوناً ما يحتوي على السم قد انفجر في داخلي. وأحسست بشيء حاد يشق الضلع الأسفل والبطن - شرارة حريق، وألم ممض ألقاني مجدداً ممدداً على الأرض، وغمرني العرق البارد، وراح قلبي يدق بسرعة، لكنني ما زلت أتنفس. ولكن، وياللغرابة، فإذا ما كنت سابقاً أنتظر الموت وخروج الروح من الجسد الفاني مع ألم شديد لا يطاق، فإنني الآن حتى لا أريد التفكير بذلك. وقبل أن أثوب إلى رشدي كما يجب، كان أول شيء فعلته في وسط الليل هو الذهاب إلى المكان الذي يجب عليه الذهاب إليه حتماً - إلى مخبأي حيث أخفيت بندقية القناصة. فأنا لم أذهب إلى هناك منذ وقت بعيد. أحياناً كنت أفكر في تفحص المكان. لكنني عدلت عن ذلك - فما حاجتي إلى هذه البندقية؟ ولأي غرض؟ ومن أجل أي شيء؟ أنا لست بحاجة إليها. لقد نسيت كل شيء حتى إنني لم أعثر في هذه المرة على المخبأ. وكابدت العذاب، وحتى تملكني الخوف من أنني لن أجده، وإذا ما عثرت على المخبأ لن أجد البندقية فيه، وربما جاء أحد ما إلى هناك.. وعندما بسط الفجر جناحيه فقط، وجدت اعتماداً على شارات التوجيه القديم والأبدية - وهما صخرتان كبيرتان، واستطعت أن أحدد المكان بدقة. لكن نبتت هناك الأعشاب، وغرزت الحربة الحادة في المكان فبرز الشق القديم. وأزلت اللوحة الصخرية بجهد كبير - وتنفست الصعداء فوراً: المكان جاف، وكل شيء في محله، لكن يبدو أن أحداً ما جاء بعدي، ربما هو ابني، وترك رسالة. يبدو أن كل شيء يجري في وقته. والآن فقط بعد مشاهدة محتويات هذا الكاسيت، صارت رسالة ابني الأخيرة هذه تتسم بأهمية حيوية وبأهمية آنية أكبر:

«دادا المعذرة! سامحني عن كل شيء. أنا كنت أعرف منذ وقت بعيد بأنك ونانا، التي غالباً ما أراها في الأحلام، لم تستحسنا ولن تستحسنا خطوتي وأفعالي. والآن أنا أفهم بأن النصر يتم ليس بالسلاح بل في المعارف وكان يجب عليّ أن أتعلم وأتعلم وأبني. لكنني غير آسف - فلابد أن يهب أحد ما للكفاح. وما كان بوسعي عمل شيء آخر. فلن يقول لي أحد إنني كييللو (باللغة الشيشانية - الجبان). حقاً إنني الآن لست مقاتلاً. أنا جريح. وأعرج. إذا رجعت - وعدوني بالعفو. وثمة شيء آخر. كان في صفوفنا خائن. أنا أحدس تقريباً من هو. سأتدبر الأمر. سامحني. اعتن بشوفدا وبنفسك».

«أنا لا أستطيع أن أقتله بسلاحك.. لكن يجب عليّ ذلك. يجب عليّ ذلك..». لكن كان أول ما فعلته في الصباح هو الذهاب إلى وسط قريتنا، إلى شرطي المحلة.

- هل تعلم ماذا كان يوجد في الظرف المختوم؟

- أي ظرف؟. أنا لا أعلم...

- هل رأيت ذلك الكاسيت؟

- أي كاسيت؟

لقد حدست من إجابته بأنه لم يره. فعدت إلى بيتي بسرعة. إن كل شيء بمنتهى البساطة: فقد أرسل لي الرب هذا السلاح، لكن يجب اختباره أولاً، وكذلك اختبار نفسي. ولهذا جربت في ذلك اليوم

إطلاق النار. السلاح - ممتاز! لكنني ما زالت بوضع صحي سيئ. ولا توجد لي القوة لحمل البندقية كما ينبغي، فيداي ضعيفتان للغاية، وترتجفان. ولن أصيب الهدف حتى إذا أطلقت النار معتمداً على المسند. سأخطئ لأنني لن أستطيع التحكم بأنفاسي كما يجب. وشعرت بغم شديد، وفي المساء زارني شرطي المحلة:

- هل أطلقت النار؟ من أي سلاح؟ هل يوجد لديك سلاح؟

- لقد تراءى لك ذلك... ومن حيث المبدأ ما علاقتك بالأمر؟

- أنا شرطي المحلة ويجب أن أبلغ عن كل حادث.

- من تبلغ؟ هل رئيسك؟ هذا الكلب؟

رأيت كيف قطب الشرطي جبينه، وتطلع إليَّ كما لو كنت مخبولاً، وتابعت قولي :

- من كان في فصيلتكم؟ مخبر واشٍ وكلب؟ ما لك تصمت؟.. ربما أنت مثله؟ وكيف أصبحت؟

- أغلق فمك!

- أنت تقول لي هذا يأيها الفتى الغر؟- واندفعت نحوه، وتشابكت أيدينا، وأدركت فوراً أنه قوي البنية، كالحجر، وشاب، بينما أنا أختنق. فطرحني أرضاً فحسب، وتطلع إليَّ باحتقار أو بإشفاق، وقال بلا مبالاة:

- إذا سمعت مرة أخرى إطلاق النار..

فقاطعته: - وماذا عندئذ؟ ستبلغ ذلك الكلب.

- سأدبر الأمر بنفسي.

- وكيف؟

- بكل بساطة،- دفعني بحركة خفيفة، وتوجه إلى كوخي، لكنني استطعت أن أسبقه، ووقفت أمام الباب:

- ستدخل عبر جثتي فقط.

أخرج مسدسه. لكنه لم يوجه فوهته نحوي بل تدلت يده، فهمست له:

- أطلق النار. إن جميع الكلاب تفعل ذلك.. ولن ينتقم أحد منك.

ودمدم بشفتيه مغتاظاً: - متس! - ثم توجه إلى سيارته، وأطلق شتيمة باللغة الروسية، وأخفى المسدس، وجلس في السيارة وقال منها:

- ماذا كان يوجد في هذا الكاسيت؟

- لا شيء... فيلم كارتون.

- أعطني لأراه.

- أنا ألقيته.

لزم الصمت فترة طويلة، وأمعن الفكر في شيء ما، ثم قال:

- يجب عليك أن تعالج نفسك.

- أنا أعرف بنفسي ما يجب أن أفعله.

في تلك الليلة لم أخلد إلى النوم، وانشغلت في إعداد خطة الانتقام. السلاح موجود لدي. لكن كيف ساستخدمه؟ أين أقوم بالتنشين على هذا الوغد؟ مفهوم، في مكتبه. ولكن كيف أصل إلى هناك مع البندقية؟ عبر الجبال؟ سيكشف أمري. إن طائرة الاستشكاف تحلق ليلاً ونهاراً. ولن أقطع هذه المسافة حاملاً هذا السلاح الثقيل. وفي الصباح قررت فحسب، سأذهب إلى مركز المنطقة من أجل الاستطلاع. كل شيء باقٍ كالسابق - الحراسة، السور الخرساني، وحتى لا يسمحوا بالاقتراب من المكان. وقال لي الأهالي هناك إن الرئيس نادراً ما يأتي إلى هنا، فهو غالباً ما يكون في جروزني وفي موسكو. لكن حالفني الحظ - ففي ذلك اليوم أسعد حفيد العم جيخو المنطقة بحضوره، وتبعه طابور طويل من السيارات. وحسبتها وكانت أكثر من اثنتي عشرة سيارة، وجميعها سوداء، وبزجاج مضبب، وانطلقت بسرعة كبيرة، ثم اختفت مخلفة فقط الغبار الذي ركد بعد فترة طويلة. وفكرت بأنه من المستبعد أن تجري حمايته بسببي فقط. فالخطايا كثيرة. كما أن ثمة حاجة إليه ما دامت قد وفرت له مثل هذه الحماية.

كانت مهمتي صعبة للغاية، وغير قابلة للتنفيذ تقريباً. لا يمكن تنفيذها بسبب أمور كثيرة - أنا لست مقاتلاً. هذا شيء يبعث على الإساءة والغم والألم. بالإضافة إلى حرارة الجو. وأنا حتى لا أذكر كيف فقدت وعيي ومن حملني إلى البيت. في تلك الليلة لم أستطع النوم - الألم، وضيق التنفس، والآن أريد أن أحيا ويجب أن أحيا. الخلاص الوحيد هو في إجراء العملية الجراحية - السفر إلى موسكو لإجراء العملية الجراحية. عند الفجر شددت الرحال، ولحسن الحظ كنت أهبط من الجبل. وسرعان ما التقطني أحد السائقين في الطريق، وأفلحت في السفر إلى موسكو في صباح اليوم

نفسه وتوجهت من المطار إلى مركز علاج الأورام مباشرة. وبدا كما لو أن الطبيب كان في انتظاري. ومددت له كل ما تبقي لدي من نقود - ثلاثة آلاف دولار:

- عالجني، لكن فقط بلا قسطر.

- سأفعل ما يجب فعله. ويجب أن أفحصك، فإن وضعك سيئ جداً.

ورجوته: - بلا قسطر، والنقود لا تكفي لذلك.

- أنا أتخلى عن حصتي. ولكن سأعمل ما يجب عليّ كطبيب.. وسننظر ونفحص ماذا يجري هناك.

12 يونيو. نهاراً

يبدو أنه توجد في حياة كل إنسان أيام فظيعة، إنه يفكر لدى استرجاع ذكراها - كيف تحملت كل ذلك وكيف ستحيا لاحقاً؟ وكانت لدي أيام كثيرة كهذه، وكان الأخير صعباً جداً، ولا يطاق فيزيقياً، وأنا حتى لا أريد أن أتذكره ولو أنني الآن في مركز علاج الأورام. وغداً سأغادره وآمل، ولدي ثقة، بأنني لن أدخل فيه مرة أخرى... ولكنني قطعت على نفسي عهداً. وحتى إذا ما عدت إلى هنا مجدداً، لا سمح الله، فلن يكون مثل ذلك الكابوس. الكابوس حين ثبت إلى رشدي بعد العملية الجراحية في الردهة، ولم يكن تأثير التخدير قد زال بعد كلياً، وكنت في حالة سيئة جداً، وأشعر بالم، ألم لا يطاق، وعندما لمست الصدر الموجع وجدت - القسطر! كنت أود أن أمزق ذلك الطبيب إرباً إرباً. ولصرخت ولغمرته بالشتائم، لكنني لم أستطع الكلام، كما لم أستطع الجلوس، فتعوزني القوة- كل عضو فيَّ يؤلمني، ويضيق عليّ الخناق، ويوجعني. أنا أبكي! أبكي كالطفل، ولدي ألم وغيظ وضعف. ويوجد في هذه الردهة الصغيرة جداً مريض آخر هو شيخ أرمني. وقد أجريت له عملية مماثلة قبل أسبوع. وأنا رأيت كيف بكى آنذاك وتألم وأطلق العويل. وبعد حقنه بالأبر وإجراء التغذية الاصطناعية تحسنت حالته قليلاً، وكان يلوح في اتجاهي - اخرج! لكنني لم أخرج، ثم كتب: «اخرج! هذا فظيع! الأفضل أن تموت ببساطة. الافضل أن تموت بهدوء من معاناة هذا التعذيب والألم». وحاول آنذاك الابتسام أيضاً، الأبله.

- لن يضعوا لي القسطر. أنا حتى لم أدفع ثمنه.

وكتب الشيخ: «أنا أيضاً كنت أعتقد ذلك. وهو وعدني بعدم وضع القسطر. لكنه لا يحسن عمل أي شيء آخر، وبهذا سيربطنا به إلى الأبد... لقد حذروني أيضاً، لكنني صدقت كلامه.. اخرج! جد طبيباً آخر ومستشفى آخر. سافر إلى الخارج». لكن هذا لا يناسبني - فلا توجد لدي نقود عموماً، ويجب أن أعيش، وأنا صدقت بما سيجري لي. سيأسف. لا! بل سيقول فيما بعد إنه فعل ما يجب

فعله، وسيؤكد في أي اجتماع تشاوري للأطباء صواب رأيه. ربما كان الطبيب على حق من وجهة نظره، وكان ملزماً بأن يستأصل كلياً الورم السرطاني، وجميع النمو الانبثاثي الثانوي من الأنسجة. ولكن حسب تصوري يجب أن أشعر بالارتياح بعد العملية الجراحية، لكن ظهرت لدي الآلام والمعاناة فقط. حسناً أن وجد حول جاري الأرمني ذووه - زوجته وابنه وكنته. وصاروا يعتنون بي أيضاً، كما أخبروني بصورة عابرة بما أعرفه - فهنا لا يفعلون أي شيء بلا نقود وحتى الحقن بالإبرة. وقد دفعوا بدلاً مني، وفي المساء وضعت لي قطارة، وغفوت بتأثيرها. واستيقظت ليلاً وشعرت بألم شديد مجدداً، فتوجهت نحو النافذة: هذا مموه ولا يوجد زجاج بل بلاستيك متين. إنهم أخذوا كل شيء بعين الاعتبار. لأنني لست أول من أراد القفز من النافذة هنا والانتحار. كما توجد هنا كاميرات مراقبة، وتوجد في كل ردهة إضاءة خاصة، كما في السجن، لكي يرى الطبيب كل شيء على شاشة المونيتور... لم يكن هناك أي رد فعل، ولم يرد أحد على عربدتي. لكن فقط حاولت تهدئتي العجوز زوجة جاري التي تقوم بالمناوبة الليلية آنذاك إلى جانب زوجها، ثم فتحت حقيبتها، وسمعت خشخشة النقود، وخرجت. وبعد ذلك فقط جاءت الممرضة. فحقنت الإبرة في الوريد، وغبت عن الوعي مجدداً، ثم استيقظت لشعوري بألم فظيع متزايد في جسدي كله. إن هذا الوضع لا يطاق، حتى كنت أخاف أن أفتح عيني. وعندما فتحتهما شاهدت شوفدا أمامي. إنها تبكي. كم تغيرت. أصبحت نحيفة جداً. ولهذا بدت عيناها في وجهها الذابل والمبللتان والحزينتان واسعتين أكثر، وتنعكس فيهما المحنة البالغة والألم والحزن.

- دادا! - وجثت على ركبيتها، واحتضنت ذراعي بكلتا يديها. إن أصابعها باردة جداً ورفيعة، وترتجف. وشعرت عبر هاتين اليدين العزيزتين والقريبتين مني فجأة بأن الألم هو ليس ألمي - بل هو أنين جذع عفن أكل الدهر عليه وشرب. أما ألمها فهو ألم شجرة فتية، بدأت الحياة لتوه، وتحلم بأن تثمر، ولكن قطعت ليست أغصانها فقط بل وجذورها أيضاً. ولهذا أحاطت عينيها دوائر زرقاء تميل إلى اللون البنفسجي تجسد الكآبة والوحدة. فضغطت على فكي بكل قوة، حتى كززت أسناني ليس في الأذنين فقط بل وفي الدماغ (علماً بأنني لم أعد بحاجة إليهما). وبعد ذلك لم أطلق الأنين في حضورها.

انحنت عليّ وسألتني: - دادا، كيف حالك؟

كنت أشعر بالألم، ولا أستطيع الكلام، ولن أستطيع ذلك، لكنني حاولت إظهار ابتسامة ورفعت الأصبع الكبير بمعنى - «جيد!». وفعلاً، أصبحت حالتي أفضل إذ أصبح الآن إلى جانبي الكائن العزيز الوحيد لدي. وأدركت بأنه كان يجب أن أكابد هذه الآلام من أجل أن نلتقي سوية مجدداً. طبعاً إن المعاناة قد خفت. وماذا كنت سأفعل من دونها؟ سأذكر فقط أصعب الأمور. في الأمسية الأولى كنت في حالة غيبوبة، وتقلبت مراراً في الفراش. رائحة نتنة في الردهة. أنا لا أستطيع النهوض. اضطر جاري إلى الخروج. بينما لا تأتي زوجته إليه. جاءت كبيرة الممرضات:

- هل توجد لديك نقود؟ يجب الدفع طبعاً. وإلا ما العمل. الجميع يريدون أن يأكلوا.

دفعت زوجة جاري. في الصباح تكرر المشهد نفسه. لكن ظهرت شوفدا. وكانت لديها نقود كما يبدو من أجل الجليسة. لكنها لم تعد بعد ذلك توكل أمري إلى أحد. في البداية شعرت بالخجل

الشديد، كما أنها شعرت بالارتباك، لكنها تعاملت بحزم وبلباقة وبرقة بالغة، بصفتي قريباً ومريضاً أيضاً.

كانت زوجة جاري غالباً ما تردد باللغة الأرمنية: ايو-لا-لا! يالها من فتاة! لو كان هناك لدي ابن آخر - لأخذتها إلى البيت.

لكن جميع الأطباء والممرضات لا يحبون شوفدا. فهي وصفت الطبيب بصراحة وجهاً لوجه بأنه «لحام»، ثم أضافت:

- هذه العيادة - الدكان ليست عيادتك الشخصية. هذه مؤسسة تابعة للدولة حيث تتلقى لقاء عملك الراتب كما تأخذ الرشوات منا. إذن كن طيباً.

فعلاً بدأت معاملتي بشكل أفضل بكثير. كما أن شوفدا أبدت العناية بالكثيرين حتى بعض من في الردهات الأخرى. وحدث أن جاءت مرة جزعة وهمست قائلة:

- لقد رقد هنا أحد الشيشان. في الردهة المجاورة.

ورجوتها: - استدعيه إلى هنا.

فلوحت بيدها قائلة: - دعه وشأنه. إنه رجل رفيع المقام. ولا ينزع قبعته السخيفة أبداً. إن مظهره يدل فوراً على أنه شيشاني!

علماً بأنه حالما علم بوجودي جاء وقدم نفسه:

- مكحل.

وعندما غادر جاري الأرمني المستشفى في نهاية الأسبوع انتقل مكحل إلى ردهتي. وغدت الحياة أكثر بهجة.

ومكحل كثير الكلام. إن ذويه لم يرجعوا إلى موطنهم بعد الترحيل إلى كازاخستان. وعاش طوال حياته تقريباً في ألما-آتا. إنه طبيب أسنان ولا يخفي بأنه رجل متنعم. وفي مطلع التسعينيات حين سادت النزعات القومية في جميع أرجاء الاتحاد السوفيتي السابق ومنها كازاخستان، ارتكب حسب قوله خطأ فاحشاً، فانتقل مع عائلته إلى جروزني. وبقي مثلي في جروزني. لكن جرى قصف بيته، وقتلت زوجته وإحدى بناته. إن مصيره يشبه مصيري لحد كبير. والتشخيص واحد. لكن فقط إن الورم على رقبته صغير تماماً، لكن الورم على القذال كبير بحجم قبضة اليد. ولهذا هو لا ينزع القبعة. وبعد الحرب الأولى عاد مكحل إلى كازاخستان، لكنه مع تقدم العمر انجذب مرة أخرى إلى جمهورية الشيشان. والآن يعيش وحيداً في جروزني. ولديه ابن وصفه بأنه «نكرة من النكرات ضل سبيله». لكن مكحل يشتاق إلى ابنه، ومن الطبيعي هو وليده ويحبه ويتحدث عنه كثيراً. وقد ولع ابنه منذ الطفولة بالموسيقى والروك وهو نفسه يعزف على الجيتار. لكن مكحل كان يعلم أن

الجيتار لن يطعم ابنه ولابد له من تعلم مهنة ما كوريث له، فجاء بابنه إلى موسكو، وأرغمه قسراً، طبعاً، على الالتحاق بجامعة طب الأسنان، وطبعاً مقابل نقود. وبعد ستة أعوام جاء الابن إلى ألما-آتا وسلم إلى أبيه شهادة التخرج وقال:

- أنا نفذت وصيتك - فخذها! والآن اسمح لي أيها الوالد المحترم بأن أحيا كما أرغب أنا.

وكان الابن منذ الطفول يتمنى أن يصبح موسيقياً فسافر إلى موسكو، ويدرس الآن لكي يصبح موسيقياً، ولم يقبل في أي معهد لأنه لا يملك الأذن الموسيقية. ولكنه لم يستسلم - وصار يعزف مع بعض الفرق الموسيقية في الأقبية. ثم تزوج إحدى المغنيات في مجموعة موسيقية وسافر معها إلى ألمانيا - من أجل غزو أوروبا. لكن لم يعترف بموهبتهما أحد في أوروبا. وانهار الثنائي، وأعقبه الانفصال. وقد أعجب الابن بالحياة هناك، ولكن لا بد من توافر مورد الرزق. فطلب من مكحل أن يرسل إليه شهادة التخرج من الجامعة. لكن تبين أن الابن لا يخلو من الموهبة في كل مجال - لقد تعلم الألمانية والإنجليزية، وأكد في ألمانيا مهارته كطبيب أسنان، وتزوج من ألمانية أكبر منه سناً، ثم انفصل عنها مجدداً، والآن انتقل إلى النمسا، إلى فيينا. وكتبت في المفكرة إلى مكحل: «أنت رجل ثري. وابنك في أوروبا. طبيب.. لا تعمل العملية الجراحية هنا، فسيضعون لك القسطر أيضاً. سافر إلى ابنك». إن مكحل حزين، وصامت، بينما كتبت له: «هل يعرف ابنك بأنك مريض؟».

- أنا بلا اتصال معه منذ وقت طويل. إنه بعد أن سافر لم يرجع إلى هنا ولو مرة واحدة. إنه حتى لم يكلف نفسه عناء النظر إلى قبر أمه وأخته. تارة يقول إنه لا يمتلك الوثائق اللازمة ولا يستطيع المجيء. وتارة لا يمكن أن يأتي إلى روسيا - وعندئذ لن يحصل على الجنسية. والآن يبدو أنه حصل على الجنسية الألمانية، وتخلى عن الجنسية الروسية. ولا يريد المجيء إلى هنا بحجة أنه كيف تعيشون هناك في روسيا فقد قصفكم الروس بالقنابل وقتلوا أمي وأختي. ويقول: «أنا لا أريد أن أرى أي شيء هناك، أنا حتى أخاف من السفر جواً إلى موسكو...».

وتابع مكحل قوله: - لكن المسألة لا تكمن في هذا فهو لا يتمتع بأي صفة من صفاتنا الشيشانية. وهذا مفهوم، وأنا المذنب. فقد ولد وشب في الما-آتا. وأنا أرغمت الجميع على التحدث في البيت باللغة الشيشانية لكي يعرفوها ولا ينسوها. لكنه فهم بأنه لن يتحدث أبداً بلغته الأم، ولا يستطيع ذلك ويخجل منه. والآن ماذا فعل في نهاية الأمر. إنني هتفت له في المستشفى قبل عام، وأنا أعرف الإنجليزية. قالت لي الفتاة على الهاتف:

- أي عبدالمجيد مكحلوفتش نجم الدينوف؟ هذه عيادة هانز موللر.

وسألتها على مضض: هل يتحدث الدكتور عندكم باللغة الروسية؟

- نعم إنه يعرف عدة لغات.

- صليني به.

- وكيف أقدمك له؟ الأب؟ لحظة.

بعد فترة من الوقت أجابت:

- المعذرة، إن الدكتور هانز موللر مشغول، اهتف له لاحقاً.

أنا لم أكرر المحاولة، لكن ابني هتف لي بعد أسبوع. وسألته:

- من هو هانز موللر؟

- إن هذا هو اسمي الآن. أنت تذكر كيف كانوا في المدرسة يدعونني بكنية هانز.

- الكنية تطلق على الكلاب عادة.

- بالمناسبة، بابا، أنا اقتنيت كلباً. إنه رائع.

- في البيت؟

- أين أذن؟

- المسلم لا يسمح بوجود كلب في بيته.

- بابا، صح النوم! نحن في القرن الواحد والعشرين. بينما أنت تردد الشيء نفسه. فتارة تمنعني من سماع موسيقى الروك، وتارة تمنعني من العزف - بذريعة أن هذا يتجافى مع الدين والعقلية الشيشانية! والآن أصبح كلبي عائقاً أمامك.

فقاطعته: - اصغِ إليَّ، لو لم أرغمك على الدراسة لكي تصبح طبيب أسنان، لما كانت لديك عيادة خاصة وكل ما تملك؟

- هذا حق. وأنا ممتن جداً لك. لكن افهمني - أنا رجل بالغ. وأنا أوروبي. وأريد أن أكون أوروبياً. هذا خياري الحر. فهل لدي الحق في ذلك؟

فصرخت: - لا تمتلك هذا الحق! أنت ابني الوحيد، بينما تخليت عن لقبك. ألا تخجل - ياهانز موللر!

- بابا، ماهذه الهرطقة والعقيدة الجامدة. إن هذه الأسماء مثل عبدالمجيد ونجم الدين - تخيف الزبائن، ولا يستطيعون التلفظ بها. علماً بأنها لم تعجبني منذ الطفولة.

أحنى مكحل رأسه، ومسح الدموع خفية، وبعد تنهدة عميق اختتم كلامه قائلاً:

- إن مصائرنا متشابهة لحد كبير، وجمعتنا الأقدار هنا. ولكنك تستطيع أن تفخر بولديك وبابنتك هذه الواقفة إلى جانبك. أما أنا فقد عشت حياتي عبثاً عموماً. من أجل من عملت كثيراً وعشت طوال هذه المدة.. لابد أنه سيهرع لاستلام الإرث... هكذا. نهاية بائسة.

طأطأ رأسه على صدره. وتجسد في هيئته كلها، حتى في وقفته، الحزن والموت. علماً بأن سحنته تشبه الجميع هنا إنها ترابية وخالية من الحياة. لزمت وشوفدا الصمت، ولا نعلم ما يجب قوله، وكيف نجلب له الطمأنينة. وطلبت المفكرة من شوفدا وكتبت: «اهتف له.. هل يوجد هاتف؟».

أجاب مكحل غاضباً: - يوجد. لكنني لن أهتف له. لا سيما الآن، ومن هنا.

ومع ذلك أخرج مفكرته العتيقة وفتحها وتطلع فيها طويلاً، كما في الفراغ، وهو زائغ البصر. وثاب إلى رشده لدى سماع ضجيج في الممر وخرج. أما أنا فقد فهمت كما أظن. كتبت إلى شوفدا: «إنه أبقى المفكرة مفتوحة خصيصاً من أجل أن نتصل هاتفياً. هاتها».

عجبت شوفدا وقالت: «دادا، هل ننظر في مفكرة شخص آخر؟!».

أمرتها بإشارة مني - لكنها لم تلق بالاً إليَّ. ورغم صعوبة الحركة فإنني اضطررت للنهوض بنفسي. كتبت: «الابن»- وهناك رقمان تم تحديدهما بالفلوماستر الأحمر. أنا فهمت - إذا ما حدث أمر ما فسيعرف الجميع مع من يتم الاتصال. كتبت إلى شوفدا: «اتصلي بالهاتف وتحدثي مع ابنه وبلغيه كل شيء عن أبيه واستدعه».

دهشت شوفدا: - هل أدعو شخصاً غريباً؟

وقلت بإلحاح: «يجب مساعدته.. إنها مصيبة.

فوافقت لكنها قالت:

- لا توجد نقود في حسابي في الهاتف، هناك قروش. ناهيك الاتصال مع الخارج.

في تلك اللحظة دخل مكحل، وأريته المفكرة وطلبت منه الهاتف، وكتبت له: «نحن نريد أن نتحدث مع ابنك بالهاتف».

- لا حاجة لذلك!- قال مكحل لكنه لم يأخذ الهاتف بينما خرج بنفسه مرة أخرى.

لم يجب الرقم الأول. وفي الثاني أجاب صوت نسائي. لقد تبين أن شوفدا تتحدث باللغة الإنجليزية بطلاقة. فطلبت الدكتور هانز موللر، وقدمت نفسها بكونها مساعدة والد الدكتور موللر وقالت إن هذا الاتصال مهم جداً وعاجل. ألقت التحية باللغة الشيشانية وحينما لم تتلق رداً تحولت إلى اللغة

الروسية. أنا سمعت فقط ما قالته شوفدا حول مكحل. وبعد ذلك استمعت بنوع من الانزعاج إلى الجواب، واصطبغت سحنتها بالحمرة وقالت بلهجة حادة:

- أعتقد أن الرجل الشيشاني يجب أن يفكر ليس بالزبائن والكلب بل قبل كل شيء يفكر بأبيه.

أجابها بقول ما، ثم اقطع الاتصال. وقفت شوفدا حائرة، كما لو صب عليها دلو من الماء البارد. وقررت: - ياله من رجل دنيء! سأريه الآن - «الفتيات الشيشانيات!».

خرجت شوفدا حاملة هاتف مكحل، ولم ترجع بسرعة، بل بعد أن عاد مكحل إلى الغرفة أيضاً. شوفدا بسحنة قرمزية، وتبدو عليها سمات الاضطراب، وحتى غطى جبينها العرق. أعطت جهاز الهاتف بصمت، وجلست بالقرب مني.

ولوحت لها برأسي: - ماذا قال؟

قالت بغضب جداً: - لا شيء!

وفجأة دق جرس هاتف مكحل. فنظر إليه وقال: - هذا ابني.. ألو، - وخرج من الغرفة.

عاد بعد فترة مديدة. وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة وقال:

- شوفدا ماذا قلت له.

تهربت شوفدا من الإجابة: - لم أقل شيئاً يستحق الاهتمام.

عندما كان الأرمني وزوجته في الغرفة بقيت شوفدا للمبيت معي ليلاً في المقعد. والآن تحسنت حالتي وأستطيع النهوض، فقالت في المساء لدى انصرافها:

- سأكون على اتصال معك. يجب أن أكون في الكونسرفتوار صباح يوم غد. ولن أعود إلا في المساء. ماذا أجلب لكما؟- خاطبتنا نحن الاثنين.

ومد مكحل لها عدة أوراق بنكنوت: - خذي، رجاء.

أبعدت شوفدا يديها إلى ما وراء ظهرها وقالت: لدي نقود.

فأمرتها بحركة مني: خذيها.

ورجاها مكحل: - خذي، خذي. أنت طالبة.

أخذت النقود بحياء واضح وقالت:

- سأتاخر غداً، وآتي في المساء. لدي بعد يوم غد حفلة فنية - هي بمثابة امتحان لنيل شهادة الدبلوم.

كتبت لها: «انهمكي بأعمالك. أنا في حال أفضل».

لوحت بيدها: سيكون كل شيء على مايرام. لا تمرض. إلى اللقاء.

كان اليوم التالي يفيض حزناً. ففي الصباح أعطى مكحل موافقته على إجراء العملية الجراحية. وقد عنفته، لكن من حيث المبدأ لم يكن لديه خيار آخر. وكان مثلي قبل إجراء العملية الجراحية في حالة يأس. وفي المساء جاءت شوفدا متهللة الأسارير. إنها تغيرت خلال هذا الأسبوع بجلاء - فنحن سوية معاً! كانت تحمل بيدها كيسين كبيرين وضعتهما على الطاولة:

- ماذا جلبت لكما!؟ - وفور ذلك ضحكت، - لقد كان معي في المصعد فرد غريب الأطوار. إنه مهرج فحسب.

في هذه اللحظة فتح الباب على مصراعيه وظهر الفرد الغريب الأطوار وهتف:

- بابا! -صاح بصوت عالٍ، واحتضن مكحل بصورة مسرحية غريبة،- إنني لم ألتق بك منذ وقت بعيد! ماذا تفعل هنا؟ أوه...! أي قبعة طريفة لديك. إنها أفضل من قبعتي.

أجاب مكحل بغمغمة عدة كلمات، ودفعه إلى الممر، وتبعه. وكادت شوفدا أن تطق من الضحك. وأنا نفسي لم أضحك هكذا منذ وقت بعيد.

الأنف الكبير وشكل العينين كأبيه لكن مكحل قصير القامة ربعة وما زال قوي البنية. أما الابن فيميل إلى الطول، ونحيف البنية. وربط شعره الطويل الذي تخلله الشيب في عقدة من الوراء. ويبدو على يده وشم ملون ما، وحتى في أذنيه هناك شيء يلمع. ضحكت أنا وشوفدا عدة لحظات لحين عودتهما إلى الغرفة مجدداً. كان مكحل جهماً. بينما اقترب ابنه منا بلا وجل:

- إن بابا يلقي عليَّ المواعظ دائماً، - وراح يمسد يديه بعصبية، - وبين لي أن أول شيء كان يجب أن أفعله هو السؤال عن صحتك.. كيف صحتك؟- وانحنى فوقي.

لقد اضطررت للوقوف.

وقال باللغة الشيشانية: أيخ- إيه! دالا مارشال دويلا (ليمنحك الرب الصحة والعافية -باللغة الشيشانية). و-و! - عندها رأى جرحي، وقطب جبينه - ما هذا اللحام الذي فعل هذا لك؟

لوحت بذراعيَّ وعندئذ نبر مكحل:

- الابنة أيضاً وصفت الطبيب بأنه لحام.

نعم؟ - ابتسم الضيف. ونقل نظرته إلى شوفدا.

- يبدو أن وجهة نظرنا واحدة... أظن أننا التقينا في المصعد، - وصوب نظره إلى شوفدا بإصرار وقال: بالمناسبة، يامس، إن اسمك شوفدا؟ وأنت تكلمت معي بالهاتف في العشية.

أجابت شوفدا بتحد: - أنا.

- إيه - إيه! أنت أرغمتيني على ترك جميع أعمالي والإسراع بالمجيء إلى هنا، - إنه يبدو أصلاً متكلفاً في الحديث، أما الآن فقد أصبح مثل الديك الرومي الغاضب. - في أوروبا يقدم الشخص إلى المحكمة لقاء هذا السلوك.

فتدخل مكحل: - وماذا قالت لك؟

- أوه، إنني كنت سأغفر لها لكونها وصفتني بأنني أناني وحتى إنسان منسلخ من شعبه، لكنها قالت فيما بعد: «ستاج فاتس هيو!» (باللغة الشيشانية - «لست رجلاً»). لكنني شيشاني مهما كانت الأحوال. أنا رجل حقيقي!

كادت شوفدا أن تستغرق في الضحك مجدداً، وأمسكت بفمها، وأرادت الخروج، لكن موللر وقف في طريقها.

ونبر مكحل: - مساكين الشيشان.

فأيده ابنه قائلاً: - نعم، نحن في وضع عصيب، - ثم نظر إلى شوفدا من علو، وقال: ربما تعتذرين وتوضحين لي الأمر؟

أرجو المعذرة، - قالت شوفدا ذاك، وقامت بحركة «با» استعراضية كما في رقص الباليه.

أدار مكحل وجهه بكآبة. أما أنا فكدت أضحك مجدداً، أما الأوروبي فقال بأسلوبه الأنيق:

- حسناً. أنا أقبل اعتذارك، أخذاً بنظر الاعتبار بأنك ما زلت في ريعان الصبا وشيشانية.

- نعم، أنا شيشانية، - واتخذت وقفة تنم عن التحدي.- أما أنت فإذا ما كنت شيشانياً حقيقياً، حسب تعبيرك، فيجب أن تعتني بوالدك.

- إنني تركت كل شيء - العيادة والمرضى والكلب وهرعت إلى هنا. هل تعتقدين أن هذا شيء بسيط؟! لدي جدول زمني دقيق. بابا! إنني جئت ليوم واحد من أجلك. وسأسافر عائداً في الرحلة

المسائية. لدي إجازة بعد شهر - وعندئذ سأعود. وأخرج من جيبه حزمة نقود، وعندما رأى رد فعل أبيه قدم حزمة أخرى.- خذ.

نبر مكحل: - لدي نقود كثيرة.

- أنا أعلم، - قال الابن، - أنت كنت دائماً ثرياً... وبخيلاً.

- بخيل؟ - نهض مكحل، - ماذا كان ينقصك في الحياة؟

- أنت لم تشتر لي الجيتار في طفولتي. ولم تدعم اندفاعي إلى الموسيقى.

- أي موسيقي أنت؟! وكذلك أي شيشاني!

- بابا! - دق الابن الأرض بقدمه، -هكذا الحال طوالي حياتي، أنت غير راض عني على الدوام تهينني، وتذلني.. فماذا تريد؟ لقد أردت أن أصبح طبيب أسنان، وقد أصبحت. ولدي أفضل عيادة طبية. وأنا أكسب النقود بشكل محترم. ولدي طابور من الزبائن يكفي لعام واحد مقدماً. وأنا أستعد لمناقشة رسالة الدكتوراه، وبعد عام سأنال لقب بروفيسور. أليس هذا ما كنت تريده؟! بينما أنت توجه لي الإهانات باستمرار... وحتى لا ترغب في الاتصال بي هاتفياً... افهمني، أنا رجل بالغ ومستقل. وأحيا كما أريد. والجميع يحترموني- وأدار بصره فينا جميعاً ثم قال: - يحترموني في مكان إقامتي وعملي.

لزم الجميع الصمت. وسادت وقفة سكوت مشوبة بالارتباك، فقررت أن أخفف من حدة التوتر، وكتبت له في مفكرتي: «كيف الحياة هناك في أوروبا؟».

- أوه! جيدة جداً. مريحة. كل إنسان يمارس عمله. ولا يعيقه أحد. ولا يثقبون الأدمغة. حرية!

ثم كتبت له: «في أي مدينة تعيش؟».

- أوه! في أكثر المدن ارتباطاً بالموسيقى - في فيينا! وعموماً أنا مواطن ألماني. من ناحية النقود والبزنيس - ألمانيا بلاد أفضل. لكنني حين وقفت على أقدامي، قررت أن أحقق في الحياة حلم صباي،- أوه، ياإلهي، الموسيقى! حقاً إن ذوقي قد تغير بمرور الأعوام، فأنا الآن نادراً ما أستمع إلى موسيقى الروك، وأعشق الموسيقى الكلاسيكية - ميلانو، لندن، فيينا. أنا تجولت في كل مكان وقررت أن مركز أوبرا فيينا هو الأكثر ديمقراطية وذو مستقبل واعد. ولم أخطىء في ذلك.

أخذ كقائد الأوركسترا يلوح بذراعيه الطويلتين، ويتحدث بكل سرور وظرافة، حتى بالنسبة لي، عن الموسيقى ودورها، وعن الفنون عموماً. وأدركت أن أقواله ليست متكلفة، وغير مقلدة، وإنها حياته وسجيته!

الآن قبلت في جمعية فيينا الموسيقية. وأنا عضو في نادي الأمناء الأعلى وحتى عضو هيئة التحكيم.

ثم تحدث كثيراً عن حياته الموسيقية - الاجتماعية، وحتى لاحظ أن شوفدا صارت تلقي نظرات مختلفة نحوه، أما أبوه فقد اغتم كلياً، وأحنى رأسه.

فغير الموضوع: «الشيشان، هل يوجد شيشان في النمسا؟»

- أوه! إن عددهم كبير جداً. لكنهم يتسمون بالغرابة وقلة الأدب وحتى بالوقاحة.. إنهم يعتقدون بأن من واجبي أن أعالجهم مجاناً، كما أنهم حتى لا يلتزمون بالطابور.

تدخلت شوفدا قائلة: لكنهم لاجئون، ولا توجد لديهم نقود.

عارضها الضيف بقوله: أي «لاجئين»؟ إن غالبيتهم من العاطلين والطفيليين. القلائل يريدون التعلم والعمل. ويريدون الحصول على كل شيء مجاناً. أنا جئت إلى ألمانيا فارغ الوفاض ولا يوجد في جيبي قرش واحد. فعملت في تنظيف الشوارع، وعملت كموزع «البيتسا»، وفي غسل الأطباق. وأكلت فضلات الطعام، ولم يساعدني أي أحد، ولم أطلب معونة أحد. أما هؤلاء، طبعاً ليس الجميع، لكن يوجد أمثال هؤلاء - لا يريدون عمل أي شيء. إنه حتى لا يتعلمون اللغة. لقد هربوا إلى أوروبا ويريدون تغييرها.. وأنا فعلت الكثير لهم، وساعدتهم، بينما هم يهزأون بي. ويعتبر مظهري وعشقي للموسيقى شيئاً مهيناً! بينما يأخذون مني النقود، ويتلقون العلاج مجاناً - لكنهم لا يعتبرون ذلك إهانة، - ولوح بذراعيه، - وعموماً فهمت منذ وقت بعيد أن الموسيقى الحقيقية والفن الحقيقي - ليسا من نصيب الشيشان.

فعلق الأب بقوله: - لماذا. هذا مثال ينفي جميع استنتاجاتك، - وأشار مكحل إلى شوفدا، إن هذه الفتاة ستنهي الدراسة في الكونسرفتوار، وهو بالمناسبة المعهد الذي لم تستطع الالتحاق به. وغداً لديها حفلة التخرج لنيل شهادة الدبلوم.

جمد ضيفنا، وتطلع إلى شوفدا بدهشة.

- أنت... تدرسين وستتخرجين من الكونسرفتوار؟

أجابت شوفدا بهدوء: - نعم.

- الكونسرفتوار الذي يحمل اسم تشايكوفسكي؟.. وفي أي قسم؟

- قسم الغناء. الإعداد الأوبرالي.

أبدى الضيف عجبه وقال: - مستحيل!

واغتاظ مكحل: - ما معنى «مستحيل»؟

قالت شوفدا: - هل يمكن أن أذهب؟ يجب عليّ أن أستعد. لوحت لها بيدي: «نعم - نعم، اذهبي».

بعد فترة قصيرة غادر ضيفنا أيضاً. وخرج مكحل لتوديعه. وغاب فترة طويلة جداً. وعندما رجع - لم يقل كلمة واحدة، ورقد ووجهه إلى الجدار، وصار يتنفس بصعوبة. ثم سأل من دون أن يقلب جسده نحوي:

- ما رأيك بابني؟

فغمغمت علامة الموافقة والاستحسان، لكنه حتى لم يحول وجهه عن الجدار. وفي وقت متأخر من المساء رن هاتفه.

ألقى الهاتف وقال: - إنه هتف. أتعرف ماذا قال؟ إنه أجل رحلته إلى يوم غد. فما السبب؟... ليذهب الى...، وألقى الهاتف بانزعاج.

كان اليوم التالي صعباً في غرفتنا: إن مكحل يستعد للعملية الجراحية- الحقن الشرجية. وأنا قلق على شوفدا- فهي على أي حال تقدم امتحان التخرج والحصول على الدبلوم. وفجأة تلقيت منها رسالة قصيرة: «دادا إن هذا» الشيشاني الحقيقي «موجود هنا في القاعة. فظاعة».

كتبت لها: - «كيف سمح له بالدخول إلى هناك؟؟».

أجابت شوفدا: «لا أعرف. إن المناقشة مفتوحة.. سدد بصره نحوي كالخروف».

«لا تقلقي، ولا تهتمي به. دار أتو بويلا» (بعون الله - باللغة الشيشانية).

«ديلا ريزا خولدا! (شكراً جزيلاً- باللغة الشيشانية) أقطع الاتصال». كان يجب عليّ أن أقوم بعدة إجراءات علاجية في ذلك الصباح. وأنا أتجول في الطوابق الأخرى وفي المباني الأخرى. وفي الفترات بينها أتفحص الهاتف- لم تتصل شوفدا مرة أخرى. فعدت إلى الغرفة ووجدت مكحل مبتهجاً:

- لقد هتف ابني لتوه. وقد تبين أنه حضر في الكونسرفتوار دفاع شوفدا. إنه متهلل الأسارير فحسب. ومنذهل!

لحظتئذ تلقيت رسالة قصيرة من شوفدا: «دادا. ممتاز. كم أنا ممتنة لك ولماما». ذهبت إلى الحمام، والدموع تنحدر من عينيَّ. ثم كتبت شوفدا أيضاً: «سأذهب مع الصديقات إلى المقهى. للاحتفال بالمناسبة. هل يمكن ذلك؟ لهذا سآتي في وقت لاحق. كيف حالك؟».

وكتبت لها: «Ok! لا تأتي اليوم عموماً. وخذي قسطاً من الراحة. كل شيء متوافر لدي». وفكرت بمدى حاجتها في هذه اللحظة إلى وجود أمها. فهي لا تفصح لي عن كل شيء: «دادا، إن هذا الشخص الغريب قد لصق بنا. ويدعو الجميع إلى المقهى على حسابه... ووصف نفسه بأنه من أقربائي ومن أبناء جلدتي وحتى يتولى رعايتي... ماذا أفعل معه؟». تطلعت إلى مكحل باهتمام. إنه يجلس حزيناً أمامي. فكتبت في المفكرة: «مكحل، بم تفكر الآن؟ بالعملية الجراحية؟».

ابتسم بكآبة وقال: - هل تريد الصدق؟ أنا أفكر بابني.

لم أساله عن أي شيء بعد هذا. أنا أفهم بأنه لا يفكر في ابنه بقدر ما يفكر في شخصه- أين يتحمل الذنب، ولماذا أصبح المستقبل كله موضع التساؤل. ولهذا أجبت شوفدا: «شوفدا! إنه ليس «شخصاً غريباً» بل إنه ابن مكحل. وأنت فتاة بالغة، وحصلت على التعليم العالي، أهنئك. خذي قسطاً من الراحة. فأنت جديرة بذلك. لا أعلم فيما إذا كان مكحل يعرف أن ابنه وابنتي يجلسان سوية في مقهى ما. لكنا كنا نحن الاثنين في وضع متوتر، وحتى لم نتبادل الحديث، وكان ذلك النهار طويلاً جداً. فيما بعد جاءا سوية في وقت متأخر. وبدا الحياء على شوفدا بجلاء، بينما وصف لنا الأوروبي طويلاً جداً كل تفاصيل أدائها في الامتحان، ما جلب المسرة لي.

- إنها مذهلة. إنها كانت أفضل من الجميع. صدقني إنها فنانة جاهزة للعمل في مسرح البولشوي، بينما عرضوا عليها العمل في أومسك. في سيبيريا!

- تطلعت إلى ابنتي وقد تملكني الفزع.

أجابت ابنتي: - لا تقلق. لن أسافر إلى أي مكان. لدي هنا عدة عروض - حقاً، إنها ليست في البولشوي، حيث لا يمكن الالتحاق به بلا محسوبية.

- طبعاً ستكون عروض، أي موهبة!، - هتف الأوروبي، وهو اليوم بمزاج رائق وواصل كلامه:

- بابا، انظر أي اسم جميل، والشيء الرئيس، اسم شيشاني خالص - شوفدا، النبع! وأنت كيف أسميتني.

قال مكحل: كان لديك اسم إسلامي جميل، - وأكد قائلاً: كان.

فأيده قائلاً: - بالضبط والتمام. بينما تحدثت مع شوفدا واتخذت قرارين مهمين. بابا، لا تعارض كعادتك. أنا لست صغيراً... هذا أولاً. وبناء على نصيحتها سأكون الآن هانز مكحل وليس هانز موللر.

وأمسك مكحل رأسه بيديه وصاح: - أوه!

قال الابن - نعم، بابا. وهذا رائع. وثانياً، وفقاً لنصيحة شوفدا ستعالج في أوروبا، وأمامك مثال يحتذى به...- وأشار نحوي.- ستعالج في أوروبا. وأنا هتفت إلى زملائي، واستشرتهم. إن كل هذا

أصبح بحكم يوم أمس. وأنا لن أسمح إلى هؤلاء اللحامين بذبحك.. إذن أجمع حاجياتك.

وعارضه مكحل بصوت خافت قائلاً: - لدي عملية يوم غد وأنا دفعت.

- إنهم سيعيدون النقود. وإذا لن يعيدوها فسأعوضها لك. اجمع حاجياتك.

رنا مكحل نحوي.

وأظهرت أنا له بالحركات: - بسرعة، بسرعة اخرج من هنا.

هكذا أصبحت وحيداً في الغرفة. وكان مكحل يهتف لي عدة مرات في اليوم (فلم يكن يعرف كيفية إرسال البرقيات القصيرة SMS بواسطة الهاتف، ولم ترغمه الحياة على ذلك)- إنه يعيش الآن في فندق فخم. ويحاول ابنه أن يصدر له بسرعة جواز السفر إلى الخارج والحصول على الفيزا. بينما كنت أجيبه بالهمهمة الشديدة.. وبعد يومين أبلغني مكحل أن قضيته قد حلت تقريباً - وسيغادران البلاد غداً. وأعرب عن امتنانه البالغ لي وبالأخص لشوفدا. وشعرت بنوع من الحزن - هذا ما يعنيه وجود الابن... حسناً، إن دنت مني شوفدا في تلك الحظة، وجاء في أعقابها هانز مكحل المذكور. وعرفت بأنه جرى أمر ما بينهما، ثمة شيء من التوتر، وكانت شوفدا وجلة ومضطربة لحضوره.

قال وهو يرنو إليَّ وإلى شوفدا: - لقد جئت من أجل أن أودعكم... أنا أعلم بأن هذا غير مقبول. غير مقبول لدى الشيشان. لكنني أعتقد بأنه لايوجد أي أمر شائن، ناهيك عما يستحق اللوم.

اضطربت شوفدا أكثر، وحاولت فقط قول شيء ما، لكنه قال لها:

- اصمتي، يامس، حين يتكلم الرجال، لا سيما الرجال الشيشان.

فصرخت شوفدا:

- ماذا؟!

ضربت يد شوفدا- «اصمتي!». وقلت للضيف: «تكلم!».

سعل ابن مكحل ثم قال: - حم. وعموماً إن الأمر كالتالي. لقد حاولت مصارحة ابنتك. إنها اعتبرت كلامي إهانة. لكنني لا أستطيع السكوت، وأطلب يد ابنتك.

لحظتئذ صرخت شوفدا: - ماذا!؟ اخرج من هنا. انصرف! - ودفعته تقريباً ثم خرجت في أعقابه.

بعد ذلك لم تزرني شوفدا خلال يومين، وعندما جاءت فيما بعد بدت غارقة في التأملات وصموتة. - أقيم بيننا مجدداً حاجز ما من الاغتراب. ولم أستطع إيذاءها أكثر، بالحديث عن الكاسيت الذي ألقي إليَّ. فقد كانت حياة شوفدا مريرة بلا هذا، بينما تحولت حياتي فيزيقياً إلى كابوس. طبعاً، لقد كنت بحاجة إلى المساعدة، ووجدت شخصاً ما إلى جانبي، لأن الحياة بوجود القسطر كانت لا تطاق، بالأخص في الفترة الأولى. ناهيك عن الألم الشديد، ولم أعتد بعد على الحياة بوجوده، والأكل والشرب بواسطته، ولهذا كنت جائعاً دوماً وأتعذب بسبب العطش. وإذا ما دب الضعف في الجسد وأصيب بالبرد، فإن القصبات تنسد حتماً، ولا أستطيع السعال، وأشعر بالاختناق، وهذا أفظع شيء - حيث لا أرغب ولا أستطيع العيش. لكن يجب ذلك الآن، فقد حدد الهدف، وبالرغم من أنني لست قناصاً، ناهيك عن أكون مقاتلاً. لكنني سافرت إلى جمهورية الشيشان بالرغم من معارضة شوفدا. بينما لم يكن في جمهورية الشيشان آنذاك لا أطباء ولا مستشفيات عادية. كما لا تتوافر النقود للعيش بموسكو، بالرغم من أن شوفدا تبذل جهدها في كسبها.

لقد وجب عليّ أن ألتحق بعد العملية الجراحية بإحدى المصحات المتخصصة بضواحي موسكو من أجل التكيف والعلاج، لكنني اضطررت بسبب عدم توافر النقود للذهاب إلى جمهورية الشيشان، وإلى جبالي. آنذاك لم يوجد اتصال هاتفي ولا كهرباء في الجبال. بالرغم من أن المنطقة الحدودية قد جهزت بسرعة، لأن حرس الحدود كانوا بحاجة إلى كل شيء، ويتم عمل كل شيء هناك بسرعة من أجلهم، ومعنى ذلك إن الاتصال سيتوافر لدي عاجلاً. ووجب عليّ حتى ذلك الحين أن أهبط مرة في الأسبوع من الجبال من أجل الاتصال مع شوفدا. إنها تتظاهر بأن كل شيء لديها على ما يرام، لكنني أفهم كل شيء. إن حياة شوفدا لم تصبح بأروع حال لكونها تخرجت في الكونسرفتوار، بل الأمر بالعكس على الأغلب. فهي لم تسافر إلى أومسك، بينما ليس هناك من يحتاجها بموسكو أيضاً. ولم يسمح لها حتى بالمشاركة في اختبار القبول في مسرح البولشوي. ولهذا تكسب بعض الموارد من الغناء في مسرحين أو ثلاثة مسارح موسيقية، وتأمل في أن يهتم أحد بها وبموهبتها. بينما تؤكد على الدوام بلهجة الاستياء الصبيانية- الطفولية الخالصة: «لقد التحق بأفضل الفرق طلابنا عديمو الموهبة، وممن تخرجوا في الكونسرفتوار بجهد جهيد، ولم يتعلموا الغناء كما يجب، وهم لا يحتاجون إلى ذلك». لا توجد لديها محسوبية، علاوة على أنها شيشانية، وبعيدة عن الفن، حسب الزعم. لكن الشيء الرئيس إن لدى شوفدا مشكلة في تدبير السكن وتسجيل الإقامة. فلا تستطيع الإقامة في المسكن الطلابي، ومعنى ذلك ليس لديها تسجيل الإقامة، ولا تستطيع العمل وحتى العيش بموسكو. وقد علمت بهذه المشاكل فيما بعد فقط، ولو أنني افترضتها. وآنذاك ساعدتني شوفدا بكل السبل. فقد كنت سأستطيع العيش براتبي التقاعدي، وبالأحرى، كنت سأواصل العيش، لكنني لم أستطع السفر مجدداً إلى موسكو من أجل إجراء تدابير الوقاية اللازمة والعلاج. ووضعت آمالي على القدر. لكن شوفدا لم تسمح لي بذلك - فقد أرسلت لي النقود وأرغمتني على إجراء الدورة العلاجية. وهكذا جئت مرة ثانية إلى مركز الأورام، وعندئذ أقمت اتصالات مستمرة مع مكحل، وقد هتف لي بنفسه، ولم أجد صعوبة في أن أحزر من أنه عرف رقمي هاتفي بموسكو من شوفدا فقط. وقد حاولت أن أدرك - هل يتصل مكحل بصورة مباشرة مع شوفدا، أو يحصل على جميع الأخبار عبر ابنه. إذا كان الأمر كذلك فمعناه أن شوفدا تقيم علاقات مع هانز موللر ذاك أو مكحل. ومفهوم، إنني بصفتي الأب أرغب جداً أن تجد شوفدا سعادتها، وأن تتزوج، فهي لم تعد صغيرة. لكن هل تتزوج هذا الأوروبي؟ إنني حتى لا أتصوره

كنسيب لي - قد يحدث ذلك فمن يعرف، ناهيك عن رؤيته... وعندما كانت شوفدا تزورني، قلت لها منذ الأيام الأولى إن مكحل يعرب عن امتنانه لكل شيء، في كل مرة، إليَّ وإليها حتماً، ويرجو أن أبلغها «مرشال» (التحية - باللغة الشيشانية) وهذا ما أفعله حتماً، لكنها لم تهتم بذلك. ولو أنني أتحسس حدوث انعطاف داخلي وصراع ما فيها. لكنني بسبب عاداتنا وتقاليدنا لم أستطع الحديث معها بصراحة، ومساعدتها، وتقديم النصح لها. من جانب آخر ظهرت مبادرة، تبعث على الدهشة أيضاً. فقد حدث مرة في إحدى الأمسيات أن طرق أحدهم باب الغرفة، ثم دخل شاب أنيق. أنا لم أكن سأعرفه لو التقيته في الشارع. فهو يرتدي بدلة رجل أعمال كلاسيكية. وشعره طويل، ولكن بلا الظفيرة السابقة - مجرد تسريحة شعر رجالية جميلة. وحياني باللغة الشيشانية، وبدا أمامي هانز الآنف الذكر نفسه، ولكن بلقب مكحل. وذكر لي بما يتميز به من صراحة وسذاجة أنه لولا شوفدا لما أصبح بروفيسوراً. وكان قد فشل في ذلك أول مرة، ولكن شوفدا نصحته بأن يغير هيئته الخارجية.

- أنا حتى أزلت الوشم، - وكشف لي ذراعه.- وحتى عملت عملية جراحية لخياطة الثقب في الأذن. وتخلصت من الكلب. وعملت ذلك بأمر بابا.. وبابا في أتم صحة وعافية. وأجريت له عمليتان في ألمانيا. إنه يعيش الآن عندي. ويجب عليك أن تسافر إلى أوروبا أيضاً. يجب السفر فوراً، - ولحظتئذ دس لي حزمة أوراق نقدية أجنبية. لكنني رفضت أخذها بشكل قاطع.

- إنها ليست مني. بل طلب أبي أن أسلمها لك، - قال ذلك مبتسماً.

-«كلا» - كان موقفي حازماً، وحتى تصارعت معه، ومع ذلك ترك النقود على الخزانة لدى خروجه. وتطلع إليَّ وقال بتوسل:

- أرجوك، ألا تخبر شوفدا بأنني كنت هنا... لكنها تعرف بأنني موجود بموسكو.

أغلق الباب. لم أجلس، بل انطرحت بكل معنى الكلمة فوق السرير. دار في رأسي سرب من الأفكار، لكنني لم أفقه شيئاً منها. وعندئذ طرق الباب، ودخل الغرفة مجدداً:

- أرجو المعذرة. لابد لي من أن أبلغك بشيء آخر. فبالرغم من فارق السن بيننا، لكنني أتممت الأربعين، فقد تولد لدي مع شوفدا في أثناء اللقاء معها وحدة تامة في الأذواق والشغف للموسيقي. زد على ذلك تولد لدينا مشروع: سنؤلف على قاعدة الفولكلور الشيشاني ملحمة موسيقية- شعرية.

عندئذ صمت هنيهة طويلة، لمعرفة رد فعلي، ثم سأل بلهجة مغايرة:

- أتمنى أن تبارك مشروعنا هذا؟-

أومأت برأسي موافقاً بصورة عفوية.

- شكراً، أنا في غاية الامتنان، - ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، وتراجع نحو الباب. لكنني ثبت إلى رشدي فوراً فأوقفته بانحناءة، ورجوته أن يعطيني المفكرة وكتبت: «أنا أبارك كل مبادرة طيبة، لا سيما المشروع الوطني».

حقاً؟ حقاً! أنا سعيد جداً! - الآن فرح كطفل.- أتعلم. إنني لن أستطيع مع هذا إخفاء ذلك، وإذا أردت بلغ شوفدا، بأنني جئت لزيارتك... فلا يوجد أي شيء سيئ في هذا.

-«لا»- لوحت بيدي. وبعد نصف ساعة، وعقب انصرافه، هتف لي مكحل:

أرجو أن تغفر لابني، فهو في منتهى السذاجة. إنه ليس رجلاً سيئاً. إنه يساعد أبناء جلدتنا هنا كثيراً. والجميع يحترمونه، ويثمنونه. أنا حتى لم أتوقع ذلك. تعال وسترى - وفي الختام:

- شوفدا تستحق ما هو أفضل. إنها ابنة رائعة!

وسرعان ما جاءت شوفدا، وأشرت لها فوراً إلى أوراق البنكنوت اليورو الموجودة على الخزانة. فاحمرت خجلاً، واضطربت، وكتبت لها:

«هذا لا يقلل من شأن أي أحد. اليوم توجد مصيبة لدى بعضهم، وغداً توجد لدى الآخرين، والشيشان يجب أن يساعد بعضهم بعضاً، لدى توافر الفرصة والضرورة، لذلك لا سيما في الغربة. علاوة على ذلك أنا مريض». فخذي النقود، إنها حتى لم تمسها، لكن العملية بدأت حركتها. وعندما سافرت إلى جروزني دعتني خالة شوفدا لزيارتها.

- أعط الموافقة على الزواج.

فكتبت: «أنا أعطيتها، إذا كانت شوفدا موافقة».

- إنها موافقة. لكنها تتألم فقط، فأنت حين تكون بموسكو تكون قريباً - السفر فترة ساعتين بالطائرة. أما إذا سافرت إلى فيينا فإنها ستتركك.

وكتبت: «لماذا تتركني؟ السفر إلى موسكو يبلغ الساعتين ومنها إلى فيينا ساعتين أخريين. الآن الناس لا يسافرون في العربات». طبعاً، أنا سعيد جداً - فقد استقرت أمور ابنتي. لكن يجب تدبير كل هذا. وكيف يتم ذلك في وضعي الحالي؟ أنا حتى لم أتوقع: فقد علم جميع الأقارب وأبناء قريتي بأمر الزفاف - وجاءوا جميعاً إليّ حاملين الهدايا والنقود. كما جاء مكحل من أوروبا، وزارني أيضاً مع المشايخ الأجلاء. ونحن ربطنا وشائج القرابة كما يجب. وفكرت بأنني أعيش هنا في كوخ ولا تتوافر فيه الظروف الجيدة. ولتسافر شوفدا من موسكو إلى أوروبا مباشرة بهدوء وسلام وبالوسائل العصرية. لكن شوفدا قررت أن ذلك سيتم حسب عاداتنا. وستتزوج ولو من «الكوخ» ولكن من قريتها حيث موطنها، من قريتها الجبلية حيث موطنها. وجاءت إلى هناك قبل يوم واحد فقط من الزفاف. وجاءت إلى الجبال بمرافقة خالتها من أجل المبيت ولو ليلة واحدة هناك. وحسب عاداتنا فقد رأيتها في ومظة خاطفة فحسب - حسناء، أنيقة، وعروس حقيقية! وفي اليوم التالي سافرت، ولا تزال الأحاديث تدور حتى الآن حول العريس - الأوروبي الأصيل، - وزع النقود على الأطفال والنساء، وخلافاً للعادات، لم يخف بهجته عن أحد:

- يالها من جبال! نعم، جبال الألب تستجم. هنا كل شيء كما ولد في الطبيعة، الجبروت والطبيعة الوحشية.! هذه سيمفونية الجبال! ياللعظمة والجلال!

لكن بقي في ذاكرتي شيء آخر - لقد خرقت شوفدا أيضاً العادات الشيشانية. ففي آخر لحظة جاءت إليَّ وعانقتني وانهمرت الدموع من عينيها. ثم أصبحت جادة وأسرت لي في أذني:

- دادا، لا تقلق بصدد أي شيء. حافظ على نفسك فقط.. وسأدبر الأمور بنفسي مع هذا المخلوق الدنيء.

من هو «المخلوق الدنيء»، أنا لم أستطع سؤالها آنذاك، ولم أرغب فحسب في تعكير حياتها الفتية.

لكنني سأدبر الأمر مع المخلوق الدنيء بنفسي... يجب عليّ ذلك...

6 سبتمبر، ليلاً

لم أمس كتاباتي فترة طويلة، نحو ثلاثة أشهر. فلم تتوافر لدي الرغبة، ولا الوقت. أما اليوم فقد أثر فيَّ حلول الخريف. زحفت سحائب ثقيلة ورمادية وكسولة من جهة الشمال. الضباب يخيم على المكان. تغمر الغيوم الكثيفة كل شيء، ولا يرى أي شيء. يسود الضجر والكآبة على المكان. وبدا كما لو أن الكون بأسره قد غاص في الظلام. وبتعبير أدق لا وجود للكون كله. لا يرى أي شيء، بينما أنا وحيد، ولا يرى ولن يرى شيء أبعد من كوخي. إنه يوجد في سحابة - كما لو غاص في عالم سحري. سكون. سكون ثقيل يأخذ بخناقي. ولا يسمع حتى خرير الغدير المرح والمضطرب. وبعد الصيف الصاخب اللعوب تولدت مع أول موجة من رياح الشمال مشاعر الكآبة، وتلقي بثقلها على وحدة الشيخوخة المحتومة، وتذكر مرة أخرى بأن الحياة تشارف على الانتهاء، وإن الخريف، ربما هو خريف متأخر - يحيا كياني وفي فكري وروحي. وأشعر بغم لا يطاق، وبالاختناق الشديد، وحتى إن كوخي - هو القبر. عندئذ أغادره بسرعة، لكن الوضع هنا في الخارج أسوأ، الليل الساكن وسحابة كالحة تسود في كل مكان - كما في التابوت، فأهرع مجدداً إلى الكوخ، فهناك يوجد نور ودفء على الأقل. لو وجد من أتحدث معه، ولو أنني لا أستطيع الكلام، لكن الإصغاء إلى أحد ما... لا يوجد أحد أيضاً. إن الوحدة محنة رهيبة - إنها أقدم عذاب للإنسان. بينما جاء وقت تمنيت فيه أن أكون وحيداً، وفي عزلة. لكنني لم أرغب آنذاك في العيش ولم أستطع، وقد مرضت - جسداً وروحاً. أما الآن فإنني أرى أن أحيا، ويجب أن أحيا، وأريد تبادل الحديث مع أحد ما وأن أتعامل معه في أفكاري، وأحياناً أغمغم له.... إنها الصور الفوتوغرافية لأقربائي. زوجتي مع ابني الأكبر - لقد رحلا سوية. وهناك إلى جانبهما شوفدا مع حفيدي الساحر المظهر - إنه محل شوقي ومحبتي! ويوجد جانباً بورتريه ابني الأصغر. لماذا وضع... في الجانب؟ لا أعرف. هذا ما حدث. أظن، لأنني لا أتواصل معه. لا أستطيع. أنا لا أستطيع اليوم حتى تحية حفيدي العزيز، لا يوجد مزاج. يبدو أن الطقس يضيق عليّ بشدة. عمدت مجدداً إلى الكتابة، بعد فترة توقف طويلة، بغية ألا أفقد عقلي كلياً. بالمناسبة أتذكر مرة أخرى أنني قرأت مرة عبارة جاء فيها أن الكاتب - هو من لا يستطيع عدم الكتابة، فالنص يتدفق من أعماقه. لكن إذا كنت تستطيع عدم الكتابة - فالأفضل ألا تكتب. فلم تتلف الورق إذا لا يقرأك أحد. ومع ذلك فأنا أكتب - أريد التواصل مع أحد ما، وتبادل الحديث معه حول مصيري، ومعاناتي وأفكاري. ولو أنه لا يوجد شيء ينم عن الذكاء ويجذب الانتباه ويمنح المعارف في هذه الكتابات. ولكن، مع ذلك...

وعموماً غادرت إلى فيينا بعد انتهاء العلاج في مركز الأورام. ومن هناك سافرت إلى سويسرا وأجريت الفحوصات في مركز طبي ما يعتبر من أحدث المراكز وتلقيت العلاج هناك خلال أسبوعين. إن وضعي الصحي عموماً طبيعي. وأبدى الأطباء دهشتهم فحسب لدى مقارنة نتائج الفحوص السابقة بالحالية، وبالأخص فحص الدم. إنهم يقولون إن هذا يتوقف على نمط حياتي - التغذية، الهواء النقي، ومياه الجبال العالية في القوقاز، وطبعاً، العامل النفسي المريح. وأنا نفسي أفهم بأنه يوجد لدي دافع جامح، وجامح بالذات، للبقاء على الحياة، إنه ليس دافع الضحية بل الصياد: يجب أن أقتل!

وهكذا فإنني تواصلت مع ابنتي، وداعبت حفيدي بكل سرور، ولاعبته... إن هذه المتعة لا تنفد. ومع ذلك وجدت لدي رغبة قوية في السفر إلى بلدي، وإلى الجبال في موطني. فتوجد في الصيف هناك مشاغل كثيرة: النحل وجيادي و.. لكن شوفدا لم تسمح لي بالسفر. إنها تتصل هاتفياً بأبناء

قريتنا بحضوري، وهم يبلغونها بأن كل شيء على ما يرام، وإنهم يعتنون بكل شيء، ولا توجد أي مصاعب وأنباء. من حيث المبدأ كان يمكنني، وكذلك مكحل، البقاء في النمسا، ولن تكون هناك مشاكل، لحد توفير السكن المستقل والعلاج، كما أن شوفدا أخذت كل شيء على عاتقها، لكنني بخلاف مكحل لا أستطيع. ولا أخفي أنني حين أبقى لوحدي (كان ذلك ليلاً، إذ كانت لدي ثلاث غرف تتوافر فيها كل وسائل الراحة)، أجد «الرغبة» دائماً في القيام بأمر ما، فأحمل العصا - وجدتها في الحديقة العامة، وأعجبتني، فهي تشبه لحد ما البندقية - وأقوم بالتنشين نحو الهدف. كنت أحياناً «أطلق النار» حتى الصباح، وأنتصر على جميع الحراس وأوجه «فوهة البندقية» نحو صدغ حفيد العم جيخو:

- كم رصاصة أطلقت على ابني؟ إنك لم تبخل بالرصاص، ياخسيس. ياخائن! فخذ مني!

في الصباح ترى شوفدا حالتي:

- دادا، هل أنت متوعك الصحة؟ ولم تنم جداً؟

فأكتب لها: «أريد السفر إلى الوطن، هذا ضروري».

- لدينا هنا أيضاً جبال رائعة.

إنهم أخذوني إلى الجبال. سناء ومسرة، لكنني أريد السفر إلى جبالي.

وأقدمت شوفدا على اتخاذ قرار نهائي: - ستحلق بالطائرة الشراعية فقط مع المرشد.

حلقت ثلاث مرات مع المرشد باستخدام الطائرة الشراعية الكبيرة. المرشد فوقي وأنا مثبت بالحزام تحته. علماً بأنني أرتدي الزي المطلوب مع الخوذة على رأسي- هذا تحليق مذهل، يخلب الألباب، يجعلني أرغب في العيش فقط من أجل هذا، لدرجة أقنعت مكحل ونسيبي اللذين كانا يرافقاني بالسماح لي بالتحليق على انفراد. وسمح لي بالتحليق من تل غير عالٍ لتدريب المبتدئين. وحلقت على انفراد مرتين. في المرة الثانية لم أرتكب أي خطأ، وهبطت في المكان المقرر بدقة، وبدا أنني أصبحت ماهراً في التحكم بالطائرة الشراعية. لكن شوفدا منعتني من مواصلة التحليقات - فقد ثرثر لها حول ذلك نسيبي الساذج والصريح. وتلقى مقابل ذلك تعنيفاً شديداً، ووبختني ابنتي قائلة:

- لن تكون هناك أي تحليقات! كفى!

وكتبت لها: «احجزي تذكرة سفر. الصيف على وشك الانتهاء. ثمة مشاغل في موطني. هذا ضروري».

وافقت بعد نحو شهر ونصف على ذلك وقالت: - سأحجز التذكرة. ولكن بشرط أن تعود في نوفمبر لقضاء الشتاء كله هنا... فالعيش صعب هناك وحيداً في الشتاء. هل توافق؟- أصبحت الآن تصدر الأوامر إلى الجميع.

أومأت برأسي -«موافق».

- إذن هيا بنا.

كنت أعيش مع مكحل في بيت صغير ذي طابقين خصص لي الطابق الثاني بأكمله. علماً بأن البيت مستأجر، ويعرض للبيع. بينما يوجد إلى جانبه بيت كبير يمتلكه نسيبي وشوفدا. وأنا أذهب إلى بيتهما يومياً عدة مرات - حيث أقوم وهو الشيء الرئيس بملاعبة الحفيد لحد أن مكحل «يغار» مني. توجد في وسط البيت صالة استقبال فيها بيانو كبير - إنه هدية الزفاف إلى شوفدا، ونحن غالباً ما نستمع إلى أدائها هناك. والآن عشية سفري دعتني لأول مرة إلى غرفتها. وكان أول ما جذب انتباهي صورتي معلقة على الجدار. وفي وسطه صورتي مع زوجتي. وهناك أيضاً صورة مكحل مع المرحومة زوجته. وهناك صور فوتوغرافية كثيرة بينها صور شوفدا في الحفلات الموسيقية وصور الحفيد... وتوجد على انفراد صورة ابني الأصغر. إنها نسخة طبق الأصل من الصورة الموجودة لدي. وقد التقط المصور ابني في اللحظة التي كان يتطلع فيها إلى الكاميرا. بدا كما لو تخاذلت ساقاي، وجلست. وجلست شوفدا أيضاً مقابلي، وانتحبت بهدوء. أنا لم أستطع ولم أرغب في تهدئتها، فقد انحدرت الدموع من عيني أيضاً:

- أنا أوصلت الكاسيت إليك عبر شرطي المحلة، - لم تنظر إليَّ، - أعتقد، أنك حزرت.

فغمغمت: - أوغو.

- الآن أنا آسف لذلك. لكن الأوضاع والأفكار آنذاك كانت مختلفة، - مسحت دموعها، ونظرتْ إليَّ.
- ربما يهمك أن تعرف أين حصلت عليها؟

- نعم.

- سأقول باختصار. بالمناسبة، ربما أنت تعرف كل شيء.. لقد كان حفيد العم جيخو يحوم حولي دائماً، حينما كنت في ميعان الصبا. لكنني لم أستطع أن أطيقه البتة لسبب ما. وحينما احتجت إلى النقود من أجل إجراء العملية الجراحية لك، وافقت على أن أذهب مع مجموعة من فنانينا على السفر إلى جروزني للمشاركة في حفل الزفاف. وما حدث لاحقاً أنت تعرفه. لم يكن لدي خيار آخر، وأصرت خالتي على ذلك، باعتباره المخرج السلمي الوحيد. وعموماً جاء الحفيد بي إلى موسكو بصفتي خطيبته، وأسكنني في شقة في شارع لينينسكي، وقال إنها هدية لي. وفي الشهر ونصف الشهر الأول كان يزورني بين فينة وأخرى، ومن ثم ارسل اثنين من أزلامه - الطلاق. وعندئذ تبين أن الشقة مستأجرة. وطلب أصحابها مني إفراغها من حاجياتنا. ولم تكن لدي حاجيات كثيرة - فهو لم يشترِ لي شيئاً، كما أنني لم أرغب في ذلك. إذ كنت أعرف أن العلاقة بيننا لن تستمر طويلاً. ولم تراودني أي آمال، سوى أنني لم أتجرأ على الخروج فحسب. وهكذا تقرر كل شيء. وبدأت بجمع الحاجيات. وكانت لدي كاسيتات كثيرة فيها تسجيلات حفلاتي الموسيقية والغنائية والأفلام وغيرها. وقد تفحصتها بغية أن أرمي ما لا أحتاجه، وفجأة قال أحد تابعيه: «توجد في الشرفة علبة فيها حاجياته - يجب أن نأخذها». أنا لا أعرف السبب لكنني قررت أن

أشاهد محتوياتها، وكان هناك شتى سقط المتاع والحقارات شأنها شأن حياته كلها. وشعرت بالنفور من تقليب هذا المحتوى، لكنني لسبب ما بلغت القاع ووجدت هناك رزمة لفت بعناية ففتحتها ووجدت فيها الكاسيت.

وتابعت شوفدا قولها: - كنت واثقة لسبب ما أنها تتعلق بي. فيمكن توقع أي شيء من هذا النذل. وهناك!... إنني حتى لا أعرف كيف ضبطت أعصابي. وحتى أردت تمزيق ذلك التابع إرباً إرباً. لكن منعتني من ذلك فكرة واحدة - أردت أن تشاهد أنت محتوى ذلك الكاسيت.

- أو-أو، - غمغمت، وطلبت مفكرتي وكتبت فيها: «هل بحث عن الكاسيت؟».

- لا. إنني راقبت ذلك التابع من الشرفة. وقد خرج من مدخل المبنى، وألقى بمحتويات العلبة في صندوق القمامة مباشرة ثم رحل في السيارة. هذا كله. ولحسن الحظ لم تكن لدي أي علاقة مع أي أحد من أتباعه.

كتبت: «من شاهد محتويات الكاسيت غيرك؟ هل أريتها لأحد؟».

- لا. لدي الأصل، وعملت نسخة أرسلتها لك. أنا أنفر من بقائها هنا، وأودعتها في خلية في البنك. ونسختك أين؟

- «لقد رميتها في الوهدة».

- حسناً فعلت... أنا آسفة لأنني أطلعتك عليها. فهذا أمر مؤلم للغاية. كما أنني أشفق عليه وأتألم من أجله.

تطلعنا سوية أنا وهي، كما لو صدر لنا الأمر بذلك، إلى صورة الابن الأصغر. وطأطأنا رأسينا. ثم قطعت شوفدا حبل السكون بقولها:

- دادا، أقول لك بصراحة، إنني كنت أستطيع قتله - وما كنت لآسف على ذلك، وأعرف مسبقاً، إنني كنت سأفعل ذلك من دون أن يرف لي جفن. أردت أن تعرف أنت أيضاً. لكن الآن. أنا الآن أم. وتفكيري مغاير. أنا آسفة لأنني أطلعتك على الكاسيت، وبهذا أثرت غضبك. أنا أعلم بأنك تتدرب هناك بواسطة البندقية.. هذا مجرد شيء مستحيل. أي مجموعة حراسة لديه. وفي الأحوال كافة إنهم لن يبقوك على قيد الحياة..

وتابعت حديثها: - أتعرف أي رجل خسيس هو، سكير ومدمن على المخدرات، يستنشق باستمرار مسحوقاً ما، ويتجول في الليالي، وحين يأتي إلى موسكو لا يفارق كازينو القمار. جاء مرة عند الفجر، وجرت محاولة لاغتياله عند مدخل البيت مباشرة. أصيب بجروح، وزحف حتى الشقة. فاستدعيت الشرطة والإسعاف - وتبين أن الجرح خفيف. وأظهر لرجال الشرطة بطاقة هوية ما. ثم جاء أفراد بملابس مدنية. وأخذوه معهم. وتمت تسوية الحادث بهدوء. وفيما بعد حين كان تحت

تأثير المخدر حدثني بأن أعداءه كثيرون- ويريدون قتله. لابد أنه غدر بآخرين وليس بأخي فقط.. آه، لو علمت ذلك من قبل.

كتبت: «هل أشار في أي وقت إلى ابني الأصغر؟».

- مرة واحدة. عندما سألته عنه. قال إنه كان «كيوناخا» حقيقياً. لكنه كان سريع التصديق وساذجاً. كان يثق بالجميع. لقد وعدوه بإصدار عفو عنه. وزعم بأنه بحاجة إلى أخي الأصغر وإلى عائلتنا، ويحتاجه حتى الشعب- فهو شاب نزيه وشجاع. لكنه كان مصاباً بجروح خطيرة، فهو من حيث المبدأ ليس مقاتلاً، لقد خدعه أحدهم وأغراه وأوقعه في الفخ، وفي الورطة.

كتبت بصعوبة: «هل إن هذا ما رواه؟ لم يرف له جفن؟».

- كلا البتة. إنه دنيء إلى آخر حد... أنا أعرف هذا كله أو أعرفه تقريباً - ففي قريتنا لا يمكن إخفاء شيء، ولدينا صلة مع الجميع، وأنا أساعدهم جميعاً قدر الإمكان، وأنت تعرف ذلك أيضاً. وأقول - إنني كنت أريد الانتقام أيضاً بأي ثمن، وبأي تضحية، وعشت بهذه الرغبة طوال الأعوام الأخيرة. لكنني الآن أم، أنا ابنة وأخت، ولدي أسرة، وأنا أحيا في العالم الموسيقي. لقد أصبحت امرأة بالغة وأحيا أريد أن أحيا في أوروبا وأفكر بأسلوب الأوروبي. هنا تقرر المحكمة كل شيء. وفي روسيا لا توجد محكمة، ولم توجد ولن توجد أبداً.

أشرت لها بحركة: «قفي!»، وكتبت: «أنا أعيش في جمهورية الشيشان وأفكر بالأسلوب الشيشاني. ولدينا قوانيننا ومحكمتنا».

فقالت: - لا توجد قوانين هناك - هناك الحرب! وأي محكمة هناك؟! من أدانوا بسبب سقوط قتلانا؟ أنا لا أتحدث عن المسكن.. ربما اعتذر لك أو لي أحد ما، وطلب المغفرة؟

أنا لم أجب، بينما هي واصلت الحديث:

- لدينا حكم واحد - هو حكم العلي القدير! وسيتدبر الأمر وينزل العقاب بمن يستحقه. وعموماً، أرجوك ألا تسافر.

قررت أن أجلب لها الطمأنينة: «سأعود في الخريف».

- أنت لا تعلم ما يجري هناك. أنت سافرت وجاء هذا الحفيد لإجراء التحري في بيتك. أنا لم أقل لك ذلك ومنعت الجميع من إبلاغك به. حسناً أن فطن شرطي المحلة إلى ذلك وأفلح في أخذ بندقيتك، ورماها في الهوة، والحمد لله.

- أوغو، - غمغمت مجدداً وكتبت بسرعة: «إنه يخافني».

فصرخت شوفدا: - إنه لا يخاف حتى الله، ولست أنت. إنه حامل الأوسمة، ورئيس عصابة، ورئيس الإدارة، ويتولى حمايته مائة شخص، والجيش الروسي كله والسلطة الروسية بأسرها!

وكتبت بالقلم العريض: «سأقتله».

هتفت شوفدا: - كيف؟ بالمناسبة إنه أخذ بندقيتك ذات الماورتين والبلطة. كما أمر بتحطيم الطائرة الشراعية في علية البيت.

- أو-و! - غمغمت، وشعرت بصداع في رأسي.

- دادا، اهدأ، - وجلست إلى جانبي، واحتضنتني،- ربما لن تسافر؟

وعارضتها: - حم!

- إذن أرجوك انس الأمر. اتركه وشأنه. إن الذين يتولون حراسته سيقتلونه حالما يصبح بلا حاجة لهم. اصبر. واهدأ. وصدقني إن أخي الأصغر لم يكن أحمق إلى هذه الدرجة. إنه فقط لم يصدق حتى النهاية أن حفيد العم جيخو - عمك الوحيد والمحبوب، يمكن أن يرتكب هذه الفعلة. وإذا ما قتل نفسه هذا الحفيد فإنك لم تكن لتفهمه وتغفر له ذلك. واذا ما أقدمت فجأة أنت، فرضاً، على قتل هذا الحفيد، فهل تريد أن تصبح مثله؟ ليصدر الخالق عز وجل حكمه عليه. وصدقني لو عرفت سابقاً، لقتلته من دون أن يرف لي جفن، وقد توافرت الفرص لذلك. أما الآن فحتى لو توسلوا إليَّ.

سأقول: لا! أنا أم! وأريد أن أحتضن ابني بيدين غير ملطختين بالدم. والله هو الحكم على ذاك والجميع.

- أوغو!-، أيدتها وفكرت، أنه لأمر صائب أن السلالة الشيشانية تتمثل بالذكور فقط. بينما هي تزوجت أوروبياً وتفكر بالأسلوب الأوروبي. وإذا ما أردت الصراحة فإنني أتفهم موقفها، وأنا الآن حتى أدعمها وأستحسن موقفها - إنها أم، وهي طفلتي. والتفكير بالانتقام والقتل ليس من شؤون المرأة. أما أنا فسأسافر جواً إلى الوطن، وهناك سأتدبر الأمر، ثم طرحت عليها آخر سؤال: «هل كان شرطي المحلي ينفذ كل شيء مقابل النقود؟».

- لا، قالت شوفدا ذلك بلهجة قاطعة،- كما أنه يخاف التحدث معي. وكنت أتعامل معه عبر شقيقته، فهي صديقتي، وأنا أساعدها أحياناً. لكن كل شيء يتم باسم الصداقة والقرابة.

لو كنت أعلم بأنه حتى شرطي المحلة يعمل كل شيء من أجلي مقابل النقود لأصبت بخيبة أمل شاملة، وربما حتى ما كنت سأسافر إلى وطني. لكن تبين أن الوضع ليس محزناً لهذا الدرجة، وليس الجميع يباعون ويشترون- فسافرت إلى القوقاز.

7 سبتمبر، صباحاً

تواصل الطقس الملبد بالغيوم. الضباب الشديد راكد، كما لو أنه يلتف حول الجبال إلى أبد الآبدين. ولا يُرى شيء حتى في النهار. وهذا أمر سيئ جداً. وهذا سيئ بالدرجة الأولى بالنسبة إلى نحلي. فقد كان الواجب أن تعمل جيداً الآن بالذات وتستعد إلى الشتاء الصارم والطويل الأمد. كما يجب عليّ أيضاً أن أستعد للشتاء. حينما لا يعيش الإنسان في البيت، وأنا غبت عنه خلال شهرين، يبدأ البيت والأمور المنزلية بالخراب والبلى. كان قد دهمني خطب آخر - إذ جرى التحري الشامل فيه، وتطلع أولئك الأنذال حتى في المناحل، لكن النحل حاول الدفاع عن نفسه، وعندئذ صاروا يسحقونها بجزمهم. يالهم من حمقى! فلا يمكن إطلاق النار على ظهور النحل بواسطة الرشاشات. ولدغت نحلاتي الجميع، كما لحقها الأذى أيضاً، إذ جرى قلب المناحل جميعها. ولحسن الحظ جاء إلى المكان مربي النحل من أبناء القرية، وأعاد الكثير منها إلى وضعها السابق. كما اجتاحت المكان النازلة الطبيعية: حيث هب إعصار رافقه سقوط حبيبات البرد. وتحطم سقف بيتي في بعض الأماكن. وتطلب الأمر ترميمه أيضاً. وطبعاً لحق الضرر طائرتي الشراعية. إنهم حطموا جناحي هذا الطائر الجميل بآلة ثقيلة ما في علية البيت مباشرة. شيء حسن إن الكسل أو عدم الحدس حال من دون قيامهم بإلقاء الطائرة الشراعية من العلية. وقد طلبت من نسيبي حينما كنت ما أزال في النمسا أن يأخذني إلى محل بيع الطائرات الشراعية، وقيل لنا إنه يكفي الدفع وسيتم شحن جهاز جديد في حاوية إلى جروزني ونقله حتى إلى الكوخ في الجبال. كان نسيبي مستعداً لدفع الثمن لكن بشرط أن توافق شوفدا على ذلك. ولكنني رفضت. أولاً، لأن الثمن غالٍ جداً، وثانياً لأنني أريد أن أرمم الطائرة الشراعية لمكسيم - فهي أقرب وأعز لدي، وكما أعتقد، تم اختبارها، وأنا أعرف خفاياها. ولهذا وبصفتي مهندساً، كنت أتصور ما يمكن أن يتضرر فيها، وقررت أنني أستطيع إصلاح أشياء كثيرة فيها، وشراء قطع الغيار محلياً، ولكن حبذا لو توافر جهاز تحكم عقدي متعدد الوظائف وحديث، إنه كومبيوتر خفيف وغالي الثمن جداً. إنه مجرد جهاز ملاحة- للتحكم ينفع الملاح المبتدئ مثلي. حقاً إن شوفدا عنفتني بشدة، كما وجهت اللوم على الأخص إلى نسيبي. أنا كتبت له: «هل ثرثرت؟».

أجابني بصفاء القلب: - نعم.

أنا لم أكتب بل فكرت في دخيلة نفسي: «يالك من أحمق». وبدا كما لو أنه قرأ أفكاري:

لماذا أحمق؟ فمن الأيسر والأصوب أن يعيش الإنسان حينما يكون صريحاً مع الجميع ويقول كل شيء كما هو. أمام الرب وأمام الزوجة وأمام المجتمع. أليس الأمر كذلك؟ ألست على حق؟

- طبعاً، على حق. إنه على حق تماماً. أظن أن هذا السبب الذي يجعل الناس في أوروبا يعيشون في هناء وطمأنينة. لو كان لدى ذلك الحفيد الضمير لجاء إليَّ وروى كل شيء كما هو، ولا اعتذر، وطلب المغفرة، وانتظر حكمي وقراري. أنا لا أعرف بالضبط، لكنني أعتقد أنه أخذاً بنظر الاعتبار وضع الحرب، حيث إن جميع الأمور ليست بتلك البساطة والوضوح، والشيء الرئيس كونه حفيد العم جيخو - الإنسان القديس بالنسبة لي - لكنت قد غفرت له وتركت الأمر كله إلى حكم الرب. لكنه لم يأت ولا يريد رؤيتي، كما يريد أن يقضي عليّ. لو كان الأمر يتعلق به فقط.. لكان

هذا نصف المصيبة. فإن شرطي المحلة، الذي يبدو أنه شخص قريب وطيب.. أين الآن بندقيتي وجميع الذخيرة والعتاد؟

لدى وصولي ذهبت قبل كل شيء إليه مباشرة:

- أي بندقية؟ آه - ه! إنني ألقيت بها وجميع المعدات الأخرى في الهوة.

وأشرت إليه بالحركات: «ماذا - هل أنت مريض وأحمق أو لا تعرف معنى ذلك؟».

- أعرف، ولهذا رميتها. أنت تريدني أن أحملها إلى بيتي، ثم يكشف وجود بندقية القناصة هذه لدي - ويتم حبسي في السجن؟ إنها سلاح القتل. ولا يمكن حيازتها بلا وثائق ورخصة. فقل لي شكراً لكوني أفرغت البيت مسبقاً من كل شيء، وإلا.. فإنه لا يرتاح إليك أصلاً. وبأي ذريعة! سيقضي عليك، وفي أقل الأحوال سيزج بك في السجن لكي تموت هناك.

- إيه-إيه! - كزكزت بأسناني، فحسب، ولم أستطع القيام بأي شيء آخر: فأنا ضعيف جسدياً بقدر أكبر، ومريض ومنهار معنوياً. وأوضح لي الشرطي:

افهم، الأزمان تغيرت. الآن الأوضاع متغيرة، والسلطة مغايرة، والبشر مختلفون. وأنت عجوز ومريض. عالج نفسك. والأفضل سافر إلى ابنتك في أوروبا وعش آخر أيامك بهدوء.

كان الشيء الوحيد الذي استطعت قوله جواباً عن ذلك هو كتابة العبارة التالية: «أين بندقيتي وذخيرتي؟».

- لقد قلت لك - أنا أنقذتك، إنني ألقيتها في الهوة.

أنا أحمق إذ صدقته - إنني حتى اشتريت حبلاً طويلاً من أجل التأمين على السلامة، وزحفت في الفج. وكدت أن أسقط عدة مرات - لكنني لم أجد شيئاً وعدت مجدداً إلى شرطي المحلة.

- لم تجدها؟- قال بلهجة فيها سخرية.- يبدو أن الوحوش التهمت جميع قطع الغيار.

أخرجت مفكرتي وكتبت له: «ربما أنت بعتها؟».

- ما هذا الكلام، هل أنت مخبول، - تجهم وجه الشرطي- من يتجرأ الآن على بيع وشراء مثل هذه الأشياء.. أنا قلت لك، إن الأزمان الآن مختلفة - فتعتقل في لحظة خاطفة، وتوضع في السجن... أنت مجرد لا تفهم، الزمن تغير. كل شيء أصبح مغايراً، بينما أنت باق على حالك السابق.

كتبت: «الحال السابق - من أجل أي شيء ناضل ابني؟. وأنت أيضاً انتقلت إلى الجانب الآخر؟ أنت يا جاروف الطعام؟ لا تسرف في الأكل حتى التخمة... ألا تشعر بالغثيان لكونك أصبحت عبداً حقيراً؟.

- انصرف من هنا أيها الجذع العجوز، - كان غاضباً أشد الغضب، - إذا ما كررت هذا القول مرة أخرى - فأقسم أنني سأقضي عليك. انصرف، قلت لك!

أدركت بأنه على وشك أن يضربني، وعلى أقصى حد، إن أي حركة أخرى من جانبي ستؤدي إلى تلقي ضربة من خلفي. إنني لا أستطيع رد الصاع صاعين، ولن يستطيع أحد أن يرد جواباً عن ذلك. عندئذ، وحين تذكرت أوروبا، فكرت كالآتي: هناك كنت أستطيع الذهاب إلى المحكمة. وهنا أي محكمة لدينا؟ وأي شرطة؟.. أقول هذا بالمناسبة فحسب. قصارى القول، إذا انطلقت من واقع الزمن، فإنني لم أفقد عقلي بعد، فيمكن تفهم موقف هذا الشرطي من وجة نظر الإنسان العادي، فهو يريد أن يعيش، إن يعيش فحسب. ويعيش عيشة طيبة. لا سيما أن لديه الآن عائلة وأطفالاً وبيتاً جديداً قيد البناء. وعملاً لا بأس به وراتباً شهرياً وهلمجرا... بينما أنا أعيقه من العيش. ولدى اللقاء القادم معه - كنت قد انتظرت مروره في الطريق - قال لي:

- اسمع، إنني سئمت من التعامل معك. أقسم لك بأنه لا توجد لدي أي مشكلة هنا باستثناء مشاكلك. وأنا لن أطيقها، ولن توجد لدي هذه المشاكل. إما أن تذهب إلى أوروبا وتجد هناك العدالة والديمقراطية، وإما اجلس هنا ودس لسانك في مكان معين. مفهوم؟

- «فهمت»- أومأت برأسي، وأشرت برأسي إلى عبارة في مفكرتي دونتها مسبقاً:

«بعها لي. أنا مستعد لدفع أي مبلغ».

- اسمع، إنه لم يخرج من سيارته، وبصق على الزجاج فبلله وكاد البصاق أن يصيب قدمي.- أنت لا تفهم فحسب. لقد أثر فيك المرض والأشعة وأوروبا. لكن افهم إن الحرب انتهت، والحمد لله. نحن نريد وسنعيش في ظل السلام، ونبني السلام. ولن لن نسمح إلى أي أحد بحيازة السلاح، ناهيك عن نشره. بالأخص مثل هذا السلاح -، وبصق مرة أخرى، - وعموماً، لم أره، وأنت لن تحدثني عنه أكثر. اتركني لشأني وأنت أخلد نفسك إلى الهدوء. وإلا.. إنني أحذرك في آخر مرة. هل فهمت؟ - ثم انطلقت السيارة مبتعدة.

طبعاً، فهمت بعض الأمور، لكنني لم أرغب في تصديق ذلك والعيش بهذه الصورة. ولدينا سلاح آخر للنضال - بندقيتي ذات الماسورتين التي تمت مصادرتها مني في أثناء التحري. وتتوافر لدي جميع الوثائق الخاصة بها. وأنا اشتريتها بصورة قانونية في مخزن السلاح مقابل مبلغ كبير. توجهت إلى مركز المنطقة. فهناك، لا سيما في المركز، تم إحلال النظام كثيراً، وتسود النظافة، وتجري إعادة بناء بعض المباني، لكن الشرطة بقيت كالسابق وراء جدار من الخرسانة المسلحة.

ذهبت مع ذلك إلى قسم استقبال المراجعين حيث تجمهر حشد كبير من الناس، وجميعهم يعرضون مشاكلهم، وأكثرها تتعلق بالبحث عن المفقودين. ولهذا فإن مشكلتي - بشأن مصادرة بندقية ما - حتى لم ينظر فيها، ولم يستلموا طلبي. وعندئذ وجدت الوقاحة لكتابة طلب آخر إلى قسم الاستقبال في دائرة قومندان المنطقة- هكذا أصبحت تسمية منصب حفيد العم جيخو. فتبين أنه لا يستقبل أحداً، ويمكن أن يستقبلني نائبه، وطلب مني أن أشرح موضوع المقابلة. فذكرته - وعندئذ أبعدوني مرة أخرى. وقررت عندئذ التوجه إلى محكمة المنطقة، لكن لا توجد محكمة في منطقتنا. وقيل لي توجد في جروزني محكمة ودائرة النائب العام لجميع المناطق. وفي جروزني جرت تغييرات ما أيضاً وتغير مظهر المدينة - فقد تم تنظيف بعض المناطق وإعادة بناء بعض المباني، لكن بقيت عموماً الخرائب ذاتها، ورائحة الحرب ذاتها، وتنتشر في كل مكان حواجز التفتيش ورجال الجيش. وثمة شيء جديد واحد فقط هو أنه ظهر بين رجال الشرطة عدد كبير من الأبناء المحليين - الشيشان. لكن دورهم ثانوي، بينما يتولى حراسة محكمتنا المقاتلون الروس الأماجد. وسمح لي بالمرور إلى مكتب إصدار رخص الدخول، فوجدت هناك حشداً من الناس- شيء فظيع فحسب، ولدى الجميع مشاكل ملحة تتعلق بحياة الأقرباء. لكنني وصلت إلى نافذة قبول الطلبات هناك - لكنهم حتى لم يقبلوا طلبي. ونصحوني بمراجعة الشرطة المحلية، والأفضل عدم إزعاج المسؤولين بأمور تافهة. عندئذ وصلت بجهد جهيد وبعد دفع رشوة إلى قسم الاستقبال في المحكمة العليا، ومن ثم إلى النيابة العامة، لكنهم قالوا إنه يجب في البداية تقديم الطلب في مكان الإقامة.

فكتبت: «كنت هناك، لكنهم لم يقبلوا الطلب».

- «صحيح. يجب عدم إقلاق المسؤولين بتوافه الأمور».

«هذه ليست من توافه الأمور. هذه ممتلكاتي. لقد أخذت من بيتي البندقية وأشياء أخرى كثيرة ولا يريدون إعادتها».

- اكتب شكوى.

«أنا كتبت طلباً، لكن لا يقبله أحد، ولا يسجلونه».

-لا تضيع الوقت أبداً في أمور تافهة.. ما حاجتك إلى بندقية الصيد؟ اتركنا بهدوء.

«سأتوجه بالشكوى إلى موسكو!».

- الأفضل أن تتوجه إلى هيئة الأمم المتحدة أو محكمة ستراسبورغ.. وعموماً، انظر، كم عدد الأفراد المفقودين.. بينما أنت تتحدث عن بندقية صيد ما.

قلت: «لقد قتل ثلاثة من أفراد أسرتي».

- إنها الحرب!- أجابوني بلا اكتراث - والآن نبني السلام، وتمنع حيازة السلاح، وحتى بندقية الصيد.. اذهب ياشيخ، وعش بقية أيامك بهدوء أكثر بلا سلاح.

21 سبتمبر، ليلاً

بدا كما لو أن الحياة أصبحت أفضل- فلا يوجد قصف بالقنابل ولا إطلاق النار. ونادراً ما تسمع بأن أحدهم قتل أو اقتيد سجيناً في منتصف الليل. ويجري تشييد بعض المباني. على أي حال يجري بناء حامية حرس الحدود بسرعة. وتم شق الطريق إليها، ومدت خطوط الكهرباء وحتى وعدوا بتوفير الغاز. ويمكن إجراء الاتصال الهاتفي من مكان قريب جداً من بيتي. ويخطط لبناء مدرسة في القرية المجاورة. وتم إصلاح جسرين. وثمة أعمال أخرى جارية وتقدم الوعود بشأنها. ويدفع لي راتبي التقاعدي في الوقت المحدد. لكن أحوال كثير من الناس، وربما يتراءى لي ذلك، إنهم يكذبون في تعاملهم معي، ويتولد لدي شعور بالضيق والغم. أنا شخصياً أحس بوهن شديد معنوياً ونفسياً. فلا أتمتع بأي حقوق، وثمة حق واحد فقط - تسلم الراتب التقاعدي وعش أيامك الباقية. من حيث المبدأ لم يعيقني أحد فقط بشرط ألا أضايق أحداً وأخلق المشاكل. لكنني لا أستطيع أن أحيا بهدوء هكذا، وأريد أن أنتقم، وأبحث عن ولو ذرة من العدالة وأتعطش للجزاء. لكن كل شيء يجري بالعكس، وأشعر بمذلتي وهواني وتفاهتي وبعجزي. والغريب في الأمر أنني أشعر بالخوف من ذلك، فبدأت وقد بلغت سن الشيخوخة أنني أصبحت مجدداً أكابد ذلك الوضع الذي كابدته في طفولتي، حينما كنت في بيت اليتامى في فترة المنفى. لكنني الآن لست في المنفى، بل في موطني، وفي جبالي ويبدو لي أنني حر، ولو تحت المراقبة، لكنني لا أستطيع أن أرد الأذى مهما اعتدوا عليّ بالرفس والضرب، ومهما قتلوا واغتصبوا سلالتي وأسرتي، وأقرب الناس إليّ وأفراد عائلتي. ربما أنا قن، أو الأسوأ من ذلك - أنا عبد؟ يبدو أنني لست كذلك. وأنني حر. لكنني أعتقد بوجود ذلك الجو الذي ساد في عهد ستالين في الاتحاد السوفيتي؟ وغالباً ما يحدث، بالأخص في الليالي، أن أتصور أنني عشت حياتي في غرفة الأشعة - الحياة في فوران، وأنا أشاهدها عبر الزجاج المضاد للرصاص، لكنني لا أستطيع الخروج. المكان كله محكم الانسداد. لكن فتحت كوة النافذة في ذلك الوقت عندما كانت لدي أسرة كاملة، ووجب فتحها من أجل إبداء مظهر السعادة، وابتلعت حلاوة الهواء النقي والطليق- وقد دفعت الثمن غالياً لقاء هذه المتعة، إذ أغلقت الكوة. أنا الآن مجدداً في غرفة الأشعة، ويقدم لي طعام لا بأس به، ويسدد لي الراتب التقاعدي ولايحظر عليّ العيش لاحقاً. لكن حتى في غرفة المستشفى لا يسمحوا لي بأن أمارس كالطفل إطلاق النار ولعبة الحرب و«قتل» الأعداء. شيء فظيع! إنه أمر فظيع جداً ألا أحيا كإنسان، بل أحيا بقية أيامي. بينما تتوافر لدي الفرصة للعيش في جو آخر، بالسفر إلى أوروبا. وتدعوني إلى هناك شوفدا، والجميع وبضمنهم شرطي المحلة، فهم يكررون الدعوة ويقدمون النصيحة. فقد كنت سأسافر لكنني أخاف شيئاً واحداً - فقد أموت هناك فجأة، وسيجلبون جثماني في نعش من الزنك، ويعانون من العذاب... ومن سيتألم؟ شوفدا ونسيبي الطيب القلب فقط... وشوفدا لا تريد المجيء إلى هنا البتة، إنها تخاف وتشمئز من المكان، وأنا أفهمها. أما نسيبي فقد جاء إلى هنا مرة واحدة فقط، لكنه من حيث المبدأ شخص غريب - أوروبي، ذو أصول شيشانية، ولو أقول هذا بتحفظ. ربما سيدفنوني هناك في

أوروبا، وربما سيحرقون جثماني. بينما أريد أن أدفن في مقبرتي، إلى جانب أفراد أسرتي وسيكون لي القبر الرابع... هذا أمر محزن! محزن لأنه لن يأتي أحد، ولن يذرف الدموع فوق القبور. فقد توفي الجميع تقريباً. نحن، وأسرتي أصبحنا في خبر كان. حقاً ما زالت جمرة الحياة المرتعشة تطلق الشرر. لقد جاء مكحل إلى جمهورية الشيشان لقضاء بعض الأعمال- وزارني وسلمني رسالة من شوفدا.

«عزيزي دادا، لقد وعدت بأن تعود في الخريف. تعال. أنا أنتظرك جداً، وبشوق. أنا جداً جداً بحاجة إليك إلى جانبي. كما أخاف عليك.. أنت لم تظهر الكاسيت إلى أي أحد؟. لقد تراءى لي أن شقيقة شرطي المحلة قد ألمحت إلى ذلك. أنا لا أقدم على سؤالها مباشرة، فأنت تعلم أنه يجري التنصت على جميع المكالمات. لكنني أعتقد أنها قد حدست شيئاً ما فهي تطلب أيضاً أن أستدعيك إليَّ. أنا قلقة بشأنك. فأنت وحيد هناك. بالمناسبة أنا استشرت أحد المحامين المشهورين هنا بصدد الكاسيت. فقال إن الفرصة متوافرة لإ قامة الدعوى، ويمكن فتح ملف دعوى جنائية دولية. لكنك موجود هناك.. وعموماً أنا أخاف. فلديه الآن كثير من المال، ويمكن أن يبعث أتباعه إلى هنا. بالمناسبة إنهم يتسكعون هنا أصلاً بصفة لاجئين. إنهم عاطلون وأنذال. ويبدو لي أحياناً بأن من الأفضل عدم التعامل مع هذه القذارة، والاتكال على الله في مجمل القضية. أنا أؤمن بالعدالة والعقاب! دادا، أرجوك أن تركب الطائرة إلينا!

إلى اللقاء. نحن في الانتظار. حفيدك ينتظرك.

.. ستكون لدي حفلة في مطلع ديسمبر وهي الأولى بعد فترة انقطاع. أنا قلقة. واستعد لها. يجب أن تكون في القاعة.

أعانقك - أنت وحيدي وعزيزي. أنا في انتظارك. جداً! أرجوك، تعال. لقد وعدتني.

ملاحظة: احرق الرسالة».

أمضى مكحل ليلته عندي. وقد أبدى إعجابه بالجبال، لكنه لم يرغب أن يبقى في ضيافتي أكثر وقال:

- أتعرف، ثمة جو غريب ما في التقيد حتى في الجبال. أما في جروزني فالحياة غير ممكنة عموماً.. اسمع، كيف تعيش لوحدك هنا؟! ارحل من هنا. الجو هناك أكثر حرية ما في جبالك. وإذا رغبت سنجد لك بيتاً في الجبال هناك.

فقلت سأسعى إلى السفر في الشتاء. لكن توجد لدي مشاغل الآن. وحالما ودعته ذهبت إلى شرطي المحلة. وكتبت له:

- «هل شاهدت محتويات الكاسيت؟».

- أي كاسيت؟.. إنك لم ترني إياه. وقلت إنك رميته.

لا فائدة من مواصلة الحديث معه، لكنه قال:

- بالمناسبة كان عندك والد زوج ابنتك؟ من أوروبا؟ هل جلب معه مطبوعات ممنوعة أو غيرها؟ - وأسر في أذني هامساً: - إذا جلب، فاحرقها.

أخذت أفكر فيما إذا وضعوا في بيتي أجهزة تصنت، وفتشت في كل مكان ولم أجد شيئاً. لكن هذا لم يهبني الطمأنينة. وبقيت متعكر المزاج قاتم النفس، ولم تلهمني حتى الجبال. أحس بلوعة الكآبة...

29 أكتوبر. ليلاً

لم أكتب منذ فترة طويلة ولا توجد لدي الرغبة في الكتابة. يمكن كتابة دراما أو كوميديا، ويمكن أن أكابد الدراما أو التراجيديا، لكن في جميع الأحوال سيحل موعد الموت، إنه في نهاية المطاف أمر لا مفر منه وحتمي، لكن هدف الحياة كما في الأدب - التمييز بين الخير والشر، ومعرفة أنه يوجد دائماً الأمل والآفاق، ومعنى ذلك يوجد دائماً هدف رفيع ما، يصبو إليه المرء بعد تجاوز العقبات والأرزاء كافة.

في الفترة الأخيرة لم يتبق لدي ما يكفي من الموارد اللازمة، وتبددت الأوهام، ومعنى ذلك الآفاق أيضاً، ولم أرغب ولم أستطع أن أكتب. لقد ذبلت ووهنت. وجاءت أيام عصيبة جداً، ولو إنها مشمسة، حين لم أرغب ولم أستطع الخروج من البيت. لم أرغب في التمتع بمشاهدة ذلك الجمال الذي عاش فيه آبائي وأجدادي بكرامة على مدى القرون. والآن أشعر بالخجل والضيق البالغ، وأحس بصعوبة مواصلة العيش وحيداً في عزلة. ويبدو صعباً ألف مرة إدراك أنني سأكون خاتمة سلالتي، التي ستنقطع وتزول من الوجود. وشعرت بأنني أغدو ضعيفاً ليس بمرور الأيام بل بمرور الساعات، وأن أورامي، التي وجدت وسطاً مناسباً في نفسي، أخذت تنتعش مجدداً، واشتد المرض وتواصل النمو الانبثاثي للورم الخبيث- الوباء. ويصيبني الهزال والسقم. وأبدي اللامبالاة إزاء كل شيء، وأشعر بالخوف من كل شيء. وبلغ الأمر حتى إنني أخاف أن أشرب ماء النبع الصافي، فأقوم بغليه.

إن وضعي هذا ناجم عن كوني أعتبر أن العالم بأسره، وبلادنا، تعود مجدداً إلى أحضان نظام الأقنان، وحتى ليس نظام الأقنان السوفيتي، بل إلى ما هو أفظع منه - نظام أقنان السوق، حينما

تصبح النقود والنقود فقط الشيء الرئيس في الحياة. وقد أصاب هذا الوباء كل شيء وليس البشر فقط، بل إن الهواء والماء قد تشبعا بروح القنانة هذه. وفقط الجبال ما زالت باقية، لكنها كئيبة جداً- ومنذ الآن فصاعداً سنشعر بالألم لظهور أفراد من الأراذل الذين يبيعون ضمائرهم بين أبناء القوقاز وأبناء الجبال والشيشان. وأنا أشعر بالخجل لدى الظهور أمام هذه الجبال - فلم أحقق الآمال. وحتى لا أستطيع الموت، والهلاك بكرامة، بل أفسد وأتعفن، مثل السمكة الفاسدة، وتنبعث مني الرائحة الفاسدة.. لأن قسطري يولد رائحة كريهة إذا لم ينظف باستمرار، وحتى ربما إذا راودتني أفكار سيئة، ومزاج عكر. لا توجد لدي رغبة في الأكل، ناهيك عن تنظيف القسطر. أنا لا أريد ولا أستطيع أن أعيش. كما أخاف الموت - فسيقال: إنه ليس رجلاً، فلم يستطع الحفاظ على السلالة، كما لم ينتقم ممن قضى على السلالة، ولم يقتل نفسه؟. وعندئذ جاء شرطي المحلة وقال:

- شاهد هذا الكاسيت.

ودفعني الفضول لمشاهدة الكاسيت. إنه يحتوي على فيلم قديم جداً بالأبيض والأسود كان يعرض في أيام فتوتي وعنوانه «آخر العمالقة» ويقوم جويكو ميتيش بالدور الرئيس فيه. وقد فهمت من العنوان التلميح فيه، فالبطل هناك في جوهر الأمر هو تشينغانتشوك الوسيم من النواحي كافة - إنه لا يستسلم ولا يهدأ له بال، بل يواصل ببرودة أعصاب العيش كما عاش أسلافه، ولو أنه يعرف بأنه الأخير في السلالة، لكن الكلمة الأخيرة تبقى له. وقد أعدت مشاهدة هذا الفليم مرتين. وتبين أنه عميق المغزى - يجب العيش والنضال حتى النهاية! وأنا رغبت في التحليق مجدداً، وأن أحوم فوق قوقازي! فأخرجت من العلية الطائرة الشراعية المحطمة ولم يكتف أتباع حفيد العم جيخو بتحطيم الأجزاء الرئيسة فيها، بل وحتى مزقوا قماش الجناحين، ولم يتكاسلوا. علماً بأنني أصلحت هذه الطائرة الشراعية الرائعة لصديقي العزيز مكسيم عدة مرات. لكني الآن أصلحت الجهاز لكي يصبح عصرياً، وثبت فيه جهاز كومبيوتر التوجيه الذي يبين شدة واتجاه الريح، والارتفاع، ودرجة الحرارة والسرعة والسمت وغير ذلك من الأمور، وحتى ما لم أكن أفهمه، لكنني كنت أدرك بأنه سيساعد جداً قبل وفي أثناء التحليق. وكانت المشكلة الرئيسة تكمن في قماش الجناحين. وكان لابد من الحصول على قماش المظلات السميك والمتين جداً. ولم أبحث عنه في جروزني بل سافرت مباشرة إلى بياتيجورسك. وأردت الحصول على قماش أحمر ساطع كما لدى مكسيم. لكنني اخترت لسبب ما قماشاً مؤلفاً من اللونين الأبيض والأحمر بلون راية بلاد نوختشي القديمة. (نوختشينتشو - بلاد الشيشان القديمة).

وقد حالفني الحظ فيما يخص الطقس - إذ كان رائعاً، كحاله في الخريف عادة. إن الغيوم الثقيلة المطرية لم تستطع اجتياز ذرى الجبال العالية من جهة الشمال، أما في السهل الشيشاني وفي السفوح فقد ساد الجو العابس وهطلت الأمطار رذاذاً باستمرار وبكآبة، وفي المراعي الألبية ساد الجو الصيفي تقريباً. الشمس، الدفء، الرياح الخفيفة والباردة. جرت المحاولة الأولى للطيران من أكمة غير عالية. وتملكني الخوف والقلق الشديد. ولم يكن التحليق موفقاً عموماً. ولم أشعر بالمتعة، وبالخفة والبهجة وأحاسيس التحليق بحد ذاته. كنت مثل الطفل الباكي من الرعب لدى انحداره من قمة التل في الزحافة واصطدامه وسقوطه فوراً، وصراخه. لا، هذا غير ممكن. هذا لعب أطفال ونزوة أطفال فحسب، بينما أنا أجيد التحليق وأريد ويجب أن أطير. والشيء الرئيس أن أتغلب على

فزعي الداخلي. وماذا أخاف؟ أن أقضي بقية أيامي وأتعفن في كوخي؟ وقفت على حافة الصخرة وراء كوخي. المشهد مذهل - النسور تحوم فوق الفج برشاقة وأنا أريد أيضاً التحليق. فشغلت جهاز التوجيه مرة أخرى. ودرست جميع المعطيات فترة طويلة، وفحصت الطائرة مرة أخرى، وفيما إذا شددت الحزام بإمعان، وقمت بخطوتين أو ثلاث خطوات من أجل الوثوب، ثم قفزت من الصخرة. فحملني تيار الرياح الصاعد، وأردت أن أطير بانسياب، وشعرت بأنني لا أسقط، ويجب أن أتحكم بالجهاز بمهارة، وأن استخدم قوة الصعود في الجناحين.

لم أشعر في حياتي كلها من قبل بمثل هذه المتعة والإحساس بقوتي وبالثقة بالنفس. وبدت لي حتى التحليقات في النمسا حيث كل شيء محسوب ومبرمج في «المسار» مجرد لعب أطفال. أما هنا فأنا الأول، ولا يعرف أحد، وبضمنه أنا، كيف يتم «مسار» موجة الرياح هنا في هذا الفج الواسع والوادي الجبلي. أنا لا أعرف إلى أين تحملني الرياح، لكنني أحاول التحكم بالطائرة الشراعية، وأنا أفلح في ذلك. نعم، أنا طرت - ويتم هذا التحليق الانسيابي الرائع! ويتملكني الإحساس بالخفة، وبالتفوق لحد ما، وبتجاوز الصعوبات. وبدت تحتي الغابات والنهر والجبال. ورغبت أن أستنشق الهواء بملء رئتيَّ، وأن أصرخ... والتحليق طول حياتي.! كنت أود أن أواصل التحليق فإن تيار الهواء كان مناسباً لحد أن عضلات الظهر والبطن صارت تسخن من التوتر، ولم أستطع الاحتفاظ بجسدي بصورة أفقية، كما أنني حلقت مسافة طويلة جداً، - ليس فقط على امتداد الفج كله، بل حتى اجتزت إحدى الذرى، وكان يمكن أن أطير إلى مكان الشيطان وحده يعرف ما هو. ولكن الشيء الرئيس أنني تعبت من الابتهاج، وشعرت بالفزع من هذه المتعة، والإعجاب والغبطة.

لم أدرك بعد الهبوط حتى أين أنا وإلى أين حملتني طائرتي؟ شعرت بالدوار، ولم أفقه شيئاً، وبدا لي أنني ضللت الطريق في الغابة. واضطررت لتسلق الذروة القريبة من أجل أن أحدد الاتجاه. فتبين أنه توجد تحتي مباشرة حامية لحرس الحدود، وبعدها يجري بناء حامية أخرى. وقد حلقت مسافة عشرة أو اثني عشر كيلومتراً، وذلك في خط مستقيم، ولن تكون العودة سهلة عبر الجبال، لا سيما بأنه يجب حمل الطائرة الشراعية بعد طيها. وأعترف بأنني تعبت جداً، وقد لاحت تباشير المساء، وكنت جائعاً جداً، لكنني سعيد جداً، كما لو ولدت من جديد. لم يكن بيتي بعيداً جداً، لكن كانت تعوزني القوة، وفجأة رأيت وراء المرتفع سيارة «واز».

كان شرطي المحلة في انتظاري فقال: - ياللعجب! رائع! يالك من شاطر! لكنك تعرف أن كل التحركات هنا محظورة. لا سيما التحليقات.

-«والزحف؟» - أظهرت له ذلك بالحركات. وألقيت الطائرة الشراعية وجلست على العشب.

أما هو فمس الجهاز باستغراب:

- شيء ممتاز. ما كنت لأتجرأ على التحليق بواسطته.- وجلس القرفصاء أمامي - كان يجب عليّ أن أطلق النار تنفيذاً للأمر.

فاوضحت له: «في المرة القادمة».

- لن تكون هناك مرة قادمة.. ولو أنني وددت لو أطير بنفسي، لكنني أخاف. أليس هذا مخيفاً، - نهض، - حسناً. يجب عليّ أن أصادرها أو أحطمها.

انتفضت ووقفت أمامه، وكنت أعلم - أعلم بأنني سأصارعه حتى الموت، ولن أتراجع أمامه ببساطة. ويبدو أنه أدرك نواياي. وسدد بصره نحوي وتفرس فيَّ من القدمين وحتى الرأس، كما لو أنه يراني أول مرة، وبعد أن تطلع نحوي قال:

- لقد تبين أنها شيء نافع. إنها نافعة لك. فقد كنت سابقاً شاحب الوجه، وحتى أصفر ونظراتك عالية تماماً. أما الآن فأنت بطل (تشينغاتشوك)، وحتى اصطبغت سحنتك بالحمرة، والعينان تسطعان ببريق، ربما - فجأة - تستطيع إطلاق النار؟

- أو - و! - غمغمت بمعنى بأي سلاح أطلق النار؟

- حسناً، تقهقر قليلاً،- دعنا نحل المسألة بطيبة قلب. آمل في أنه لم يرك أحد آخر. وأنا أيضاً لم أرك. اذهب إلى البيت، وخذ الجهاز معك وأعيده إلى العلية مجدداً بشرط أن تفعل ذلك بهدوء... بهدوء إلى حين من الزمن. حسناً؟

فوافقت: - أوغو.

انصرف، بينما واصلت المشي فترة ساعتين فوق المنحدر. وحالما صعدت إلى فوق - وأنا غارق في العرق، وقد هدني التعب، فوجدت أمام بيتي سيارة «واز» أخرى تابعة لحرس الحدود. وكان هناك فردان: نقيب وبرابورتشيك (نائب ضابط). والنقيب شاب، منتصب القامة، مهذب، وقدم نفسه. أما البرابورتشيك فهو أكبر سناً - قوي البنية، وحتى بدين، وسحنته قرمزية، وممتلئة، وتنبعث منه رائحة الكحول من مسافة بعيدة. وقد أثار مظهري، وبالأحرى القسطر، ارتباكهما، وعبس البرابورتشيك وحتى تقهقر إلى الوراء.

سألني النقيب:

- هل أنت حلقت؟ مفهوم، أنت. من أين أخذت الطائرة الشراعية؟

فغمغمت.

- يحظر هنا التحليق واستخدام الأجهزة الطائرة.

فأشرت له بيدي، فيما إذا يمكن أجلب المفكرة والقلم؟

كتبت له: «لماذا؟».

- هنا منطقة الحدود. ويمنع استخدام أي أجهزة طائرة.

فكتبت: «المنطقة الحدودية تبعد 15-20 كيلومتراً».

قال النقيب بحزم: - ممنوع. يجب علينا أن نصادر جهازك هذا.

-«على أي أساس؟».

- المنطقة حدودية.

«المنطقة الحدودية هناك عندكم، أما أنا هنا ففي بيتي والطائرة الشراعية من ممتلكاتي. وهذه أرضي».

فجأر البرابورتشيك:

- ماذا؟! أي «بيت» وأي «ممتلكات» وأي «أرض»؟! نحن نوفر لكم الطعام والشراب، بينما هم يريدون الطيران أيضاً! لن يكون هنا أي طيران!

وكتبت في المفكرة، وأنا أرتجف غضباً: «هل يمكن الزحف؟».

صرخ البرابورتشيك:

- نعم! يجب الزحف وستزحف.

بعد ذلك لم أستطع الكتابة - وأريتهما إشارة بذيئة.

-آ- ها! - واندفع البرابورتشيك نحوي. فأوقفه النقيب. بينما أنا تراجعت إلى الخلف إلى المكان الذي أقطع فيه الخشب. ولم أتناول الفأس بعد، لكنه كان في متناول يدي. توتر الوضع. وأوقف النقيب البرابورتشيك بجهد جهيد. بينما أراد هذا فتح قراب المسدس. وعندئذ سمع هدير محرك:

- أنا شرطي المحلة. هذا قاطعي! قفوا جميعاً، ولا تتحركوا!- كان يحمل في يده بندقية رشاشة.

لزم الجميع الصمت. وهدأوا فوراً. وأوضح النقيب باختصار الهدف من الزيارة. بينما راح البرابورتشيك يصرخ من جانبه - انتهاك القانون، عدم الانصياع للأوامر، وعموماً، توجيه الإهانة إليه. وهو لن يترك الأمر بهذا الحال. وأجبت بغمغمة غاضبة. وأخيراً فهمت من نظرة شرطي المحلة ذات الدلالة أن الفأس ما زال بيدي. دنا الشرطي مني وانتزع الفأس بلا تكلف وألقاه جانباً وهمس في أذني:

- لقد أثرت الفزع، والإنذار! لا تتظاهر بأنك طلاع الثنايا، - ثم التفت إلى حرس الحدود، وقال بصوت عالٍ:

- أظن أنه تمت تسوية الحادث. إنكما أبديتما اليقظة. والحمد لله، اختتم كل شيء بسلام. وشكراً على المساعدة وأنا مسرور بالتعرف إليكما، وصافحهما، كما لو كان يريد توديعهما، بينما قال النقيب:

- يتوجه إلى هنا آمر المخفر الحدودي.

فقال شرطي المحلة مهدئاً: - سأشرح له كل شيء.

- إن الآمر عندنا جديد، وصارم. وقد أمر بمصادرة الطائرة الشراعية.

وقرر شرطي المحلة: - لن تجري أي تحليقات في المستقبل. أما الطائرة الشراعية فسنحفظها بصورة دائمة في علية البيت. واعتبروها محطمة.

دمدم البرابورشيك: - هذا لا يجوز. صدر الأمر بتحطيمها.

ضحك الشرطي بسخرية: - لكنها ليست من المقاتلين ولا ممن ينتهك الحدود، بل إنها طائرة شراعية بسيطة وجميلة.

وأصر البرابورشيك بإلحاح: - أنتم تريدون الطائرة الشراعية. حم، وتريدون التحليق بها.

تغيرت لهجة شرطي المحلة: - هل هذا ممنوع؟

- نحن قلنا - ممنوع.

عندئذ احتدمت غضباً مرة أخرى، واندفعت نحو البرابورتشيك، وأنا أغمغم. لكن شرطي المحلة أبعدني جانباً، ودنا مقترباً منه بنفسه:

- أيها الرفيق البرابورتشيك، أنت سكران،- ونقر كرشه بأصبعه.

- هيا - هيا، - اهتاج البرابورتشيك أكثر، وأراد أن يدفع شرطي المحلة، لكن هذا شاب قوي البنية كالصخرة فدفعه نفسه:

- ماذا «هيا»؟ أو تعرف أنه في المنطقة الجبلية، لا سيما في قطاع الحدود، يحرم شرب الكحول. يجب عليّ أن أحتجزك - أنت انتهكت القانون.

تدخل النقيب بلباقة: - مهلاً ماذا تقول.

تم التوصل إلى اتفاق بعد مساجلة قصيرة. وتقرر تسوية القضية كلها.

وضعت طيارتي الشراعية في علية البيت. وكان بوسعي القيام بذلك بنفسي فهي خفيفة، لكن شرطي المحلة والنقيب قاما بمساعدتي. فوقفت في العلية من جهة الطرف بينما ناولاني إياها. وعندئذ سمع ضجيج محركات.

هرول النقيب قائلاً: - جاء آمرنا، - بينما همس لي شرطي المحلة:

- أغلق باب العلية ولا تلفت النظر إليك - إن صاحبك «الحفيد» قادم إلى هنا أيضاً.

في هذه المرة خضعت للأمر بدقة، وحركت باب العلية المصنوعة من الخشب المعاكس السميك، الذي أعددته استعداداً لقدوم الشتاء، ثم التصقت بجسدي بواجهة المبنى وهناك أرى وأسمع كل شيء تقريباً عبر الشقوق. وصلت سيارتان من طراز «واز». وخرج منهما خمسة أو ستة من حاملي الرشاشات الأشاوس. وخرج من السيارة الأولى عقيد ينم مظهره عن كونه أقرب إلى الشباب ويضع النظارات السوداء. وأدى النقيب التحية له، وقدم تقريره. بينما استرق العقيد نظرة إلى البرابورتشيك:

- لماذا تنحيت جانباً؟ تعال إلى هنا - واستدعاه بأصبعه - مرة أخرى؟.. إلى الحبس. وضع طلب الاستقالة على الطاولة.

عندئذ أدى شرطينا التحية أيضاً. ودار بينهما الحديث، بتعبير أدق كان الشرطي المحلي يوضح أو يقدم تقريره له.

وفجأة أعرب العقيد عن انبهاره:

- ما أروع هذا المنظر! مذهل!

سارا بمحاذاة كوخي وسمعت الشرطي المحلي يؤكد له:

- في الواقع إنه مريض جداً. مصاب بالسرطان. ومظهره وحده يكفي. وهذا القسطر. إنه لا يستطيع الكلام. مريض جداً.

صوت العقيد: - وكيف يحلق؟

- حلق أول مرة. حدث ذلك بالصدفة.. والطائرة الشراعية تعود إلى صديقه مكسيم الذي عاش هنا. إنها تذكار له.

- ما دام الأمر كذلك يمكن منحه رخصة.. دعنا نذهب إلى هناك. أي مشهد طبيعي! أعجوبة فحسب. وأي غروب!. بودي نفسي أن أطير من هنا. ياله من مكان رائع.

في تلك اللحظة تعالى ضجيج السيارات. أنا لا أستطيع رؤيتها، لكنني أسمع، والسيارات كثيرة والمحركات قوية.

تطلع العقيد وشرطي المحلة إلى الطريق، وسمعت آمر حرس الحدود يقول بلهجة لا تخلو من التهكم:

- إن رئيسكم يتجول في مثل هذه السيارات الفاخرة. إنه غير متواضع.. هيا بنا نستقبله.

انتقلت في أعقابهما ماشياً على رؤوس الأصابع إلى الطرف الآخر للعلية. ونظرت عبر الشق مجدداً. وبدت أمامي الباحة كلها وبعض الأنحاء.

فعلاً إن رئيسنا غير متواضع. كان سابقاً يتنقل في طابور من سيارات «بريور» السوداء، بينما يتنقل الآن في العدد نفسه من سيارات «جيب» السوداء. ويبلغ عدد حراسه عشرين فرداً. ثم طلع حفيد العم جيخو نفسه - لقد ازداد سمنة جداً، وبلحية أنيقة، وبمظهر السيد صاحب الأمر والنهي. لكنه يقف بهذا المنظر ليس قبالة العقيد الروسي. إذ يبتسم له بحلاوة - يبتسم ويكاد أن يحني ركبتيه أمامه:

-أردت المجيء إليكم، والتعرف، أيها الرفيق العقيد.

أجاب آمر حرس الحدود: - يسرني هذا جداً. وها نحن التقينا. أنا نفسي أردت المجيء إليك، لكنك موجود بموسكو طوال الوقت.

- نعم، أنا أدرس في أكاديمية خدمة الدولة. وأعد رسالة الدكتوراه. ولهذا تقع بعض الهفوات هنا. نحن نصفي كل شيء والجميع! لا يستطيع أحد بلا رخصة ليس من الطيران فحسب بل ومن الزحف أيضاً.

- مرحى، مرحى. ليس من قبيل الصدف أن منحت رتبة عقيد.

- يسرني أن أبذل جهدي في العمل.. وأين ذاك الطيار؟ - صرخ مخاطباً رجال الحماية.

فقال العقيد: - لا حاجة لذلك، إنه مريض جداً، وهو مصاب بالسرطان، ويدل مظهره نفسه، كما يقال....

فأكد الحفيد: - نعم، مظهره وأفكاره مريضة. وعاجلاً سينفق...

قال آمر حرس الحدود: - إن المشهد الطبيعي هنا رائع! دعنا نمتع النظر بغروب الشمس من ذلك المكان. مدهش!

سارا بمحاذاة بيتي. إن التلصص والتنصت من الأمور غير المستحبة، لكن ما دام الحديث يدور حولي وأنا صاحب المكان كما يبدو - فلا بد أن أطلع وأن أسمع ما يقوله آمر حرس الحدود:

- إن اسمك المستعار جو؟

- هذه إشارة النداء.

- ما الفرق.. بالمناسبة، أنت شاطر. أنا أمضيت في الخدمة العسكرية عشرين عاماً، وأنهيت اثنتين من الأكاديميات، وبعدها فقط حصلت على رتبة عقيد، بينما أنت شاب فتي - ونلت رتبة العقيد.. كم تطلب الأمر تقديم الوشايات، أوي، عفواً الخدمة لكي تصبح عقيداً في هذه السن وتحصل على مثل هذه الأوسمة. برافوا!

- أنا أخدم الوطن!

- مرحى، مرحى.. المشهد من هنا مذهل... دعنا نذهب إلى حافة الجبل، ما دمنا قد التقينا، ولنتحدث أمام خلفية مثل هذا السناء.. شيء مذهل! إنه سحر فحسب.

توجه كلاهما نحو حافة الهاوية. ولم أعد الآن أسمع شيئاً، بل أراهما فقط. لم يتحدثا فترة طويلة. ثم رجعا، وأصبحت أسمع مجدداً، قول العقيد:

- إن ضيعتكم في مكان رائع. وما دمت تدعوني إلى حفلة عيد الميلاد، سأسعى إلى المجيء.

الآن لم أعد أراهما، إنهما يقفان في مكان قريب جداً من الكوخ، لكنني أسمع كل شيء:

- لمن هذه الضيعة؟

- كل شيء هنا من أملاكنا.

- ها- ها! هذا قول ظريف جداً بل حتى ينم عن الذكاء.. وهذه المعدات الفاخرة؟

- إنها ملك الدولة.

هذا يستحق الجدارة أيضاً. يجب أن يستطيع المرء ذلك.. وأنت هل حلقت بواسطة الطائرة الشراعية؟

- ها - ها،- أخذ عقيدنا يضحك.

ووافقه آمر حرس الحدود: - هذا صائب. الالتزام بالأرض أفضل، أكثر ضماناً. بودي أن أحلق. أنا أحب هذه الهواية، لكن لا يجوز لي ذلك هنا.

- لا يسمح إلى أي أحد بالتحليق هنا.

- مهلاً، مهلاً، لا تغالي في الأمر.. هنا وفي كل مكان يضع القواعد أناس آخرون. وأنت التزم بها بصرامة! هيه - هيه، العقيد الذي لا يحلم بأن يصبح جنرالاً هو عقيد سيئ. والآن دعنا ننتهز فرصة دعوتك الكريمة، ولنذهب إليكم، في مركز المنطقة. ما دام سيقدم هناك حساء سمك السلمون المرقط الجبلي.

- سيتوافر كل شيء.

- هدرت المحركات، وانطلقت السيارات. لم يبق هنا حتى شرطي المحلة. فلا يستحق الأمر ضياع الوقت في أمور تافهة، تخصني، ما دام حساء السمك في الانتظار. ربما إنهم نسوني فحسب - فثمة مشاغل أكثر أهمية ومتعة. والحمد لله. بقيت جالساً في العلية، حيث كنت ما أزال أخاف حدوث أمر ما وأصخت السمع، ولم أنزل إلا في الغسق المتأخر- وقد أدركت بأنني جائع، وتعبان، لكنني راضٍ عن نفسي، وحتى سعيد: فقد فعلت ما لم يفعله غيري هنا من قبل - إذ حلقت! وسأحلق، معنى ذلك أنني أريد أن أحيا. وسأحيا! إلى أبد الآبدين!

1 نوفمبر، ليلاً

لو وضعني خيرة الأطباء و«الحكماء» في العالم في أفضل عيادة أو مستشفى وانشغلوا في علاجي وحدي فقط خلال شهر أو حتى لمدة سنة، لما كان بوسعهم الحصول على مثل هذه النتيجة. فبعد ذلك التحليق نقص عمري عشرين أو ثلاثين عاماً. وبدا كما لو أن رياح الجبل النقية قد نفخت في أثناء التحليق زوايا روحي وإدراكي الخامدة. لقد انتعش شيء ما في، وفار في أعماقي، وأنا لا أريد ولا أستطيع أن أفسر وضعي الحالي، وأقول شيئاً واحداً فقط - أريد أن أكتب مجدداً: ومعنى ذلك يوجد ما يكتب عنه، وظهر هدف مجدداً، وأنا أستطيع في أغلب الظن، ويجب تسوية الحساب أمام ابني...

في الليلة بعد التحليق نمت نومة الطفل الرضيع وحتى إنني كنت أواصل التحليق في الحلم. ونمت بصورة كافية أكثر من أي وقت مضى في الأعوام الأخيرة. في الفجر خرجت من البيت- لم تكن هناك سحابة واحدة، والسماء زرقاء شديدة الزرقة، والهواء نقي وحلو وشفاف، وتبدو ذرى سلسلة جبال القوقاز الجليدية كالمنشار. وهذا شيء نادر، ويرى حتى جبل كازبك وذروة سبارتاك، الأبعد والأوطأ. لكن أشعة الشمس قد لا مستها لتوه برقة فقط، ولم يغمر النور هذه العظمة الهائلة للكون. بينما تتراءى أمامي مباشرة ذرى -تيبولوسمت وكومت وديكلومت- ويغشاها نور خفيف، وتميل إلى اللون الوردي، كما لو أنها ورود متفتحة، والألسن الخفيفة الثلجية البيضاء للغيوم التي تبددها

الزوابع حولها. وفجأة، أصابني التوتر، وأصغيت. ضجيج المحركات المتنامي، والصاعد نحوي، بجلاء، فلا يوجد طريق آخر. جاءت سيارتان من طراز «واز» فيهما حرس الحدود. وخرج من السيارة الأولى الجنود الأشاوس، كما حدث أمس. بينما تنبعث من السيارة الثانية ألحان موسيقى كلاسيكية، وظهر فوراً العقيد، لكن بلا نظارات سوداء. ثم صار يساعد امرأة ما جاءت معه في الخروج من السيارة. وقد ارتبكا من مظهري، وبالأحرى من القسطر، بالأخص المرأة، وحتى أصابهما الخوف. لكن فيما بعد اعتادا على ذلك كما يبدو وقدم العقيد زوجته لي:

- هذه زوجتي. إننا حتى لم نتعارف يوم أمس... واليوم الطقس جميل. وقد أتيت بها خصيصاً لمشاهدة جمال الطبيعة عندكم. ألا، أي منظر رائع؟!

- مذهل!

- أنا لم أر مثيلاً له في أي مكان. بينما زرت أماكن كثيرة.

أخذا يلتقطان الصور الفوتوغرافية للجبال. ثم التقطا الصور الشخصية أمام خلفية المشاهد الطبيعية. انهمكا في التصوير فترة طويلة، ولم يستطيعا التمتع بمشاهدة كل شيء.

- يجب العيش هنا فقط، - قال العقيد، وأضاف فجأة:

- أين طائرتك الشراعية؟ فأنا أمارس هذه الهواية أيضاً.

- ساعدني الجنود في إخراج الجهاز من علية البيت، وفور ذلك بدأ بيننا حوار نشيط، وكان العقيد يتفهم كل التفهم حركاتي بلا تسجيلات في المفكرة.

- الجهاز قديم، لكنه متين الصنع. ما هذا؟ جهاز تحديد الاتجاه. إنني حتى لم أر مثيلاً له. هذا شيء ممتاز..-، فحص العقيد كومبيوتري طويلاً وبمهارة. وكشف العديد من الوظائف الإضافية التي لم يتوقع وجودها. وروى لي بدهشة بالغة كيف قام لأول مرة بالتحليق بواسطة الطائرة الشراعية حينما كان شاباً ويؤدي الخدمة العسكرية في إقليم ألتاي.

وتابع قوله: - عندما كنت في كامتشاتكا وجدت مثل هذه الجبال لكن التحليق مستحيل هناك بسبب الرياح العاتية التي لا يمكن التنبؤ بها. وفي كاريليا كان الوضع جيداً. أما الآن فأنا أسافر مرتين في العام إلى فرنسا - إلى جبال الألب، والزحافات، والطائرة الشراعية.

لحظتئذ حاولت أن أشرح له بأنني حلقت في جبال الألب أيضاً، لكن في جبال الألب النمساوية.

- لا! هنا المشهد أجمل بكثير، - كان العقيد يواصل إعجابه. وعرضت عليه الشاي المصنوع من الأعشاب المحلية مع العسل من مناحلي وجلبت طاولة صغيرة وكذلك الكراسي. ووضعتها في المدرج على حافة الهوة مباشرة. وأبديا إعجابهما بكل شيء، ولا سيما بالعسل. وعندئذ قررت أن

أقدم إلى العقيدة هدية - مرطبان من العسل، وكما فهمت فإن زوجته من هواة الموسيقى الكلاسيكية - فقدمت لها قرصاً مدمجاً فيه تسجيلات لعزف وغناء شوفدا.

- هل هي ابنتك؟ دعنا نستمع إليها.

أمر العقيد بجلب سيارته الـ«واز» في مكان أقرب ووضع القرص في جهاز المسجل فيها. وأدركت من كيفية الإصغاء والسكوت فترة طويلة أنهما، وبالأخص الزوجة، قد دهشا كثيراً. وفي النتيجة أعطاني العقيد بطاقة الزيارة له وقال «يمكنك الاتصال بي في أي وقت»، والشيء الرئيس أنه سمح لي بالتحليق وأوضح قائلاً:

- يمنع هنا تحليق المروحيات والطائرات الحربية -وهذا أمر مفهوم. أما الطائرة الشراعية فهي جهاز طائر سلمي.. أنا آسف لكوني لا أستطيع ممارسة التحليق. هذا غير ممكن الآن. فهناك المسلحون وهلمجرا. أما أنت فيمكنك التحليق. لكن فقط ليس إلى مكان بعيد، فقد تحلق إلى جورجيا. ويجب أن تضع الخوذة على رأسك حتماً. سأقدمها لك كهدية.

لقد بدا لي شخصاً لطيفاً، حتى ظاهرياً، وذكرني لحدما بمكسيم. افترقنا كصديقين حميمين، وحينما جلس في السيارة قال:

- بالمناسبة إن قومندناكم قد دعاني إلى عيد ميلاده، وأنا نفسي رجوته ذلك. يوجد هناك في الأسفل ما يشبه الضيعة «الفازندا» التابعة له. هناك الخراف وصيد الأسماك وصيد الدببة وهلمجرا. هل ستحضر هناك؟

«كلا»- لوحت برأسي.

- هل أن هذا خطر؟ يوجد مسلحون، وهو نفسه...

فهززت كتفيَّ.

- مفهوم. سنرى، على أي حال إنه أمر مغرٍ وظريف.

ثم انصرفوا. وبدر في ذهني فوراً: سيحصر «هدفي» هنا، بينما أضعت أنا البندقية فحسب. وشعرت بفوران كياني كله مجدداً. ولم أعد أتمتع بالعالم مجدداً، وأريد أن أنظر إليه عبر عدسة منظار بندقية القناص. وأريد أن أوجه شعيرة التصويب نحو «الهدف»، الهدف ومغزى حياتي. أنا بحاجة إلى السلاح، ولو إلى بندقيتي ذات الماسورتين... سأشتريها... وتذكرت شرطي المحلة، بينما جاء إليّ بنفسه - محزوم وواجم. اقتادني بعيداً عن السيارة وهمس تقريباً:

- هل جاء إليك ضابط حرس الحدود مرة أخرى؟ مع زوجته...؟ لماذا؟

لوحت بكتفيَّ، بينما واصل كلامه:

- إن «قريبك» أصبح مغتاظاً جداً. إنه يرتاب في الجميع. بالمناسبة إن ضابط حرس الحدود هذا قد أنقذك اليوم.

وسألت بالإشارة: «بأي معنى؟».

- أنا لا أدري، لكن «قريبك» مغتاظ أكثر من أي وقت مضى، جاء منذ الصباح، واستعرض الحرس بنفسه، وأمر بإحضارك إليه في قسم شرطة المنطقة باعتبارك انتهكت المجال الجوي.

فسألته بالإشارة مرة أخرى: «وماذا بعد؟».

لقد توجهوا إليك لكنهم رأوا العقيد وزوجته هنا.

كتبت في المفكرة: «هل خافوا؟».

- لقد ترددوا.. فإن عقيد هيئة الأمن الاتحادية لا يتجول في الجبال بلا هدف، لا سيما برفقة زوجته... إنني أنصحك بأن تغادر المكان. ولو لفترة من الوقت.

- «لأي سبب؟».

- لقد أصبح رئيسنا غاضباً ومرتاباً جداً. وقريباً ستجري انتخابات الرئيس. وستحدث تغييرات، وقد يدفع الثمن غالياً.

كتبت بغتة: «متى سيكون عيد ميلاده؟».

- بعد أيام.. ولم تسأل؟

كتبت: «أريد بندقيتي. سأدفع الثمن».

سدد بصره نحوي بنظرات شاردة، ثم ضحك بغتة:

- يبدو أنك عجوز ومريض، لكنك تظهر مثل هذا الحماس والاندفاع.. لقد كان ابنك الأصغر على سر أبيه.

ربما إنها المرة الأولى التي يتحدث فيها عن ابني الأصغر. وعموماً، لقد كان شرطي المحلة اليوم بمظهر مختلف - فهو يكابد لوعة حارة وجاد جداً. إنه لم يجب على سؤالي وتوجه إلى السيارة.

ولحقت به، ودسست مفكرتي تحت أنفه مجدداً.

قال باستياء: أنت ما زلت تكرر طلبك. ورفس بغيظ حجارة صغيرة تدحرجت في الفج - وصدرت عنها كدكدة صماء. نظرنا كلانا إلى الأسفل، فسأل:

- أين ألقيت الكاسيت؟

- بذلت جهدي، وغمغمت بصورة عفوية «أوغو».

أنا وجدته.. لكن في الماء فقط. لهذا لا يبدو التسجيل واضحاً، فكله مشوش. وقد أخذته إلى المختبر في المدينة - لكنهم لم يستطيعوا استعادة ما سجل فيه. ربما ستخبرني ماذا كان يوجد فيه..

لزمت الصمت، وأمعنت الفكر في كيفية الرد، لكنه سبقني قائلاً:

- بالمناسبة، سمعت بوجود هذا التسجيل قبل عامين أو ثلاثة أعوام، وأعرفه بصورة تقريبية. وأقول لك. كل شيء ممكن الوقوع في الحرب. وإذا ما اقترف الإنسان الشر، لكنه أعلن توبته واعتذر، فيمكن بل ويجب، حسب اعتقادي، العفوعنه، فنحن أصلاً فقدنا الكثير بينما يجب أن نواصل الحياة لاحقاً.. لكنه، لا يكفي أنه لا يريد الاعتراف بكل شيء وإعلان التوبة، بل بالعكس، يريد، وربما إن هذا أمر صادر من الجهات العليا، بأن نتخلى عن جميع ما هو عزيز لدينا، وأن نصبح إن لم يكن كخونة، بل كعبيد.. هنا تكمن المصيبة؟

صمت هنيهة، بينما كتبت: «هل سيتخلون عن اتجاه التفكير هذا؟ أم سيتم لهم ما أرادوا؟»

فأبرز لي بيده إشارة تعني إن هذا مستحيل.

لقد ذهلت من صراحته، وضحك بسخرية، ثم مضى يقول بصوت خافت:

- أنا مثلك أنتظر اللحظة المناسبة. وهذا الكلب لديه حاسة شم كلبية، كما لو أنه يطالع ما أضمره من نظراتي، وينظر إليَّ شزراً، ويتحرش بي.

انحدرت الدموع من عينيَّ. فاحتضنته - إنه قوي البنية، وشاب، والآن أصبح مثل ابني العزيز. ولم أكن أرى شيئاً عبر الدموع، لكنني مع هذا كتبت بسرعة: «لديك عائلة وأطفال. لا ترتكب حماقة. أما أنا فلا يوجد ما أفقده. أنا فقط، وأنا قبل كل واحد، يجب أن أفعل ذلك. فقط أعد لي البندقية».

- ها- ها! - ضحك شرطي المحلة،- هل تعتقد أنه سيأتي إلى فسحة الغابة التابعة له. كلا البتة. إنه الآن يخاف حتى من ظله. ولا يصدق ولا يثق بأي أحد: ويحكم وفقاً لاعتباراته.

كتبت: «لكنه دعا رجال حرس الحدود».

- نعم؟.. لكن رجال حرس الحدود لن يأتوا أيضاً. هل تعتقد أن العقيد أحمق من أجل أن ياتي إلى الفج للاحتفال بعيد ميلاد أحد ما. إن هذا كله يأتي من باب اللباقة. وعموماً انس لعبة الأطفال هذه... أولاً، إن البندقية غير موجودة لدي. وثانياً، إنك لن تستطيع إصابته من هناك حيث نصبت الكمين - المسافة بعيدة.

ذهلت عموماً من هذه الأقوال - وكنت أعتقد بأنه لا يعرف أي أحد.. أما هو فحينما شاهد رد فعلي ابتسم وقال:

- وثالثاً سواء أصبته أم لم تصبه فإنهم سيقتفون أثرك ويقتلونك. هل أنت انتحاري؟ يجب أن تفكر بابنتك على الأقل. فلا يوجد لديها أحد غيرك.

غمغمت: - أو- و!

أمسك بيدي.

- لابد أنك تعرف بأن شقيقتي وشوفدا على اتصال دائم، وتتضرع ابنتك - وأنا أنقل إليك كلامها - متوسلة أن تسافر إليها ولو في فترة الشتاء. فعش هناك بهدوء. أما هنا فإن الانتخابات قريبة - وأنا واثق من فوز ابن الرئيس السابق، وعندئذ سيوضع كل شيء في مكانه، وسنفوز، وكان الله في عوننا. هل اتفقنا؟

- أو-و! - أنا لا أعرف ما أكتبه، وصرت أغمغم مجدداً - إن حججه قاطعة ومدعمة بالبراهين، وسيضع حداً لشكوكي:

- اشفق على شوفدا. فإنها كابدت أصلاً من كثير من الخسائر... وأنا سأدبر الأمور هنا. واحزم حقائبك وشد الرحال.

3 نوفمبر. ليلاً

أنا أعرف وأشعر بأنني أشارف على المرحلة الختامية ويجب أن أستعرض حصيلة ما من كتاباتي، وربما حياتي كلها. والحق يقال إنه وجد مغزى ما للهدف الذي جعلني أدون هذه الكتابات. وحتى راودني الأمل في كشف مغزى حياتي على الأقل. لكنني لم أستطع، وأعتقد أنه لم يتمكن أحد قبلي من القيام بذلك لأن الحياة - مفهوم معقد جداً ويصعب التنبؤ به مسبقاً.

وماهي القوانين؟ يبدو أنها معروفة للجميع، لكن كل شخص يفهمها حسب هواه. وهذا أمر بسيط: فقد ظهر مصطلح جديد - العامل البشري، ما يعني - أن أموراً كثيرة تتوقف على نفسية الإنسان وطبيعته. ولا عجب في ذلك، لأنه حيثما تدور رحى الحرب تتعرض حتى قوانين الطبيعة الراسخة إلى الاهتزاز والتغيير. وسأورد مثالاً واضحاً: اتصالاتي الهاتفية. يحدث أحياناً أن الهاتف النقال يعمل، لكن بصورة نادرة جداً، حتى في كوخي. بينما يحدث أحياناً أن أضطر للصعود إلى أعلى ذروة في الجبل القريب، لكن الاتصال الهاتفي مفقود هناك. وإعادة البث هناك، لدى حرس الحدود، وتردد الموجات وغير ذلك، هو كالسابق بينما يوجد الاتصال في بعض الأحيان ويفقد في أحيان أخرى. ثمة مفارقة ما في قوانين الفيزياء- ربما تؤثر في ذلك حالة الجو، أي العوامل الطبيعية. إذن كم عدد المفارقات في الحياة البشرية، حين يتوقف كل شيء على العامل البشري المتغير بهذا القدر؟ بينما حاولت استكناه مغزى الحياة... ولم أفهم: فكل شيء متغير ومتناقض. وربما الشيء الثابت الوحيد- ويوجد مغزى في ذلك؟ - هو الأسرة! لقد بقيت لدي ابنة واحدة فقط، بينما أنا أتسلق الجبل العالي مرتين أحياناً وثلاث مرات أحياناً، من أجل الاستماع إلى صوتها، إنها تردد دوماً الشيء ذاته:

- دادا، متى ستأتي؟ أرجوك، أرجوك جداً.

فأجيبها: «في الأيام القادمة»- فقط لا غير.. لا غير.

هذه مفارقة، لكنني لم أستطع الكتابة أكثر، فقدت الرغبة في الكتابة. حسناً وعن أي شيء أكتب؟ فمن المعروف أنه تجب الكتابة حينما لا تستطيع عدم الكتابة. وحينما ترغب في أن تفصح عما في دخيلة نفسك والتحدث عن أمر ما. أما إذا كنت تستطيع عدم الكتابة، فالأفضل ألا تكتب شيئاً. فهذا أفضل بالنسبة إلى الجميع. وأنا أعرف بأنني لن أكتب في أوروبا. فالحياة هناك هادئة، ورتيبة، وطيبة، ولا يوجد ما يستحق الكتابة عنه. بدا لي أن مخطوطتي (هذا ما أصف به كتاباتي!) قد نضبت، مثل النبع الذي أصابه الجفاف (هذا ما أقارنها به!) ... لكنني لم أغادر بعد، وكنت أشد الرحال فحسب، قبل الفجر، وحالما بانت تباشير النور، وإذا بأحدهم يطرق الباب - إنه صبي من أبناء القرية.

جرت الليلة محاولة اغتيال شرطي المحلة. وقد أصيب بجروح بليغة، ونقل إلى مستشفى المدينة.

وبعد فترة قصيرة أذاع الراديو المحلي أن مسلحين حاولوا اغتيال رجل الشرطة في المنطقة الجبلية. فألغيت السفر بلا تفكير إلى أجل غير مسمى. وذهبت على الفور إلى وسط القرية، فحدثوني هناك بكل ما جرى. عادة لا يتنقل أحد في المنطقة الجبلية ليلاً- فهذا خطر وهناك مسلحون، والطيران، ويمكن أن يحدث كل ما لا يخطر على البال. لكن عند الغسق أبلغ رجل الشرطة بواسطة اللاسلكي أن أحدهم وجد في الأحراش في أحد الطرق الترابية رزمة - ربما هي قنبلة حارقة. وصدر الأمر بالتحقق من الأمر وتقديم تقرير حوله. ذهب شرطي المحلة - فوجد الرزمة وفيها زبالة. وهذا ما أبلغ به بواسطة اللاسلكي، لكن طلب منه أن يقدم - فوراً- تقريراً

تحريرياً كما هو المفروض في مثل هذه الحالات. وقد أنجز كل ما هو مطلوب، وعندما وجد أن الليل قد ادلهم، أراد المبيت في مركز المنطقة، لكن الرئيس هتف من المدينة وأبلغه بأنه سيصل إلى الجبال في وقت مبكر في الصباح بواسطة مروحية وفد ما بشأن بناء مدرسة، ويجب أن يكون هناك ويستقبل الوفد.

لقد راودت رجل الشرطة الريبة وبدا له هذا الطلب غريباً. لكن وجب عليه الذهاب. علماً بأن الصديريات المضادة للرصاص مثبتة في جوانب سيارته وتحتها. كما ارتدى صديرية مضادة للرصاص ووضع الخوذة على رأسه. وقد فجرت سيارة شرطي المحلي بواسطة عبوة ناسفة في موضوع يبعد كيلومتراً عن قريتنا عند الجسر القائم فوق جدول صغير. وأصيب الشرطي بجروح في عدة أماكن، لكن الصديرية المضادة للرصاص والخوذة قد صانت الأعضاء المهمة حيوياً. وعموماً فقد حالف الحظ شرطي المحلة. إن موجة الانفجار الرئيسة مرت فقط عبر الجزء الخلفي للسيارة الذي هز السائق بعنف، لكنها لم تنقلب، كما أن المحرك لم يخمد، علماً بأن شرطي المحلة نفسه، «المحنك»، كان مستعداً لكل شيء، ولم يفقد السيطرة على نفسه، واستطاع أن يضغط على ذراع التسارع وأن يمضي بالسيارة فوق العجلات المعطوبة، والسائرة فوق الأقراص فقط، وبلغ بها القرية وأبلغ زملاءه بواسطة اللاسلكي بما حدث. وهب هؤلاء لمساعدة رفيقهم في ثلاث سيارات بالرغم من الأمر الصادر إليهم. ونقل الجريح في البداية إلى جراح محلي خبير والذي عمل كل ما في وسعه من أجل تقليل نزيف الدم، وبعد ذلك انطلقوا به إلى المدينة - فهناك فقط يوجد مستشفى عامل بهذا القدر أو ذاك. وأودع الشرطي المحلي في قسم العناية المركزة. كان مصاباً بجروح ناجمة عن الشظايا في كلتا الساقين وفي الذراع اليمنى. لكن الجرح الأكثر خطورة هو في العنق. وقال الأطباء إن حالته خطرة، لكنها مستقرة. أما حالتي فقد أصبحت صعبة لكنها غير مستقرة. وشعرت بأن هذه الضربة ليست موجهة إلى شرطي المحلة فقط، الذي فرض حمايته غير المعلنة عليَّ، بل حتى ليس إليَّ - إن هذه الضربة موجهة إلى آخر الجذور والدعائم. بينما أنا كنت خائفاً واعتزمت الهرب. من جانب آخر كانت شوفدا لا تكف عن الاتصال هاتفيا، وتبعث بالرسائل القصيرة الواحدة تلو الآخرى. إنها علمت بما حدث وكتبت: «الهجمة الإرهابية القادمة ستكون ضدك، وضد كل من يقف ضد! دادا. أرجوك غادر من أجلي. أشفق عليّ. أنت الوحيد الباقي لي». نعم أشعر بأنني الوحيد الباقي هنا. وهذا ليس بمعنى الوحدة والعزلة بل بمعنى «آخر العمالقة». لكنني لست العملاق تشينغاتشوك. أنا من حيث المبدأ ضعيف وعاجز. الآن فقط أدركت كل دور شرطي محلتنا - فقد توافرت لدي الحماية القوية والدعم المضمون ممثلاً به. وأصبحت الآن شيخاً عاجزاً. وما برحت أفكر: إذا سافرت فأنا جبان، وإذا لم أسافر- أنا أشفق على شوفدا، علماً بأنهم سيقضون عليّ في غضون ثوانٍ معدودات... إنهم قادمون. لقد سمعت ضجيج المحركات المتعاظم. ولدهشتي رأيت سيارة حرس الحدود. إنهم الرجال الأشاوس أنفسهم من رجال الحماية والعقيد نفسه. والآن يضع النظارات الشمسية.

- أي طقس رائع! يمكن فيه التحليق! أنا جلبت لك الخوذة كما وعدتك.

جربت الهدية فوجدتها تناسبي تماماً، والمشي فيها مريح.

وقال العقيد برضا:

- الآن سيكون تحليقك آمناً. وأين الطائرة الشراعية؟

أشرت له إلى علية البيت.

- أوه! وضعت في المرآب. ربما، هذا هو الصحيح. يمكن الانتظار حتى حلول الربيع. الآن درجات الحرارة متغيرة. ويمكن أن تحدث اضطرابات جوية. ولو أنني شاهدت النشرة الجوية - سيكون الطقس في هذه الأيام ممتازاً.. بالمناسبة إن زوجتي شاهدت في الإنترنت أن ابنتك نجمة صاعدة فعلاً. وهي تسأل فيما إذا تتوافر تسجيلات أخرى لها.

توجهت نحو البيت فقال في أعقابي:

- أجلب لي عسلك. سأشتريه. لقد أعجبني جداً، حلو المذاق. بالمناسبة لا يمكن في هذه الأنحاء أن يكون غير هذا - فهنا كل هذا الخير وهذا الهواء والمشهد الطبيعي! أتمنى أن أعيش هنا فقط.

أخرجت خلايا العسل. وقرصين مدمجين لغناء شوفدا - قدمتها كهدية.

- أنا مستعد للدفع... شكراً جزيلاً - قال العقيد ذلك ولاحظ لدى التوجه نحو السيارة - أراك اليوم حزيناً جداً.. آه، نعم - توقف، والتفت إليّ - هل سمعت بالعملية الإرهابية؟..

فأومأت مجيباً بنعم. أما هو فقد اقترب مني، كالمتآمر - وأسر في أذني:

- يبدو أن حفل عيد ميلاد رئيسكم في الضيعة سيقام غداً. أنا لم أعط الموافقة بعد، وأفكر في الأمر. من جانب إنه شيء يبعث على الفضول - صيد الوحوش وصيد الأسماك والمشويات وحساء السمك وهلمجرا - وضرب بلعومه بطرف أصبعه - ملمحاً بتوافر المشروبات الكحولية. كما لا بأس من التعرف عن قرب على المسؤولين المحليين. من جانب آخر هل يعتبر ذلك خطراً؟

- أنا لا أعرف بم أجيب، وتسمرت في مكاني كالصنم، بينما واصل الكلام بإصرار: - المسلحون، قطاع الطرق؟

أخرجت مفكرتي والقلم، وأجبت:

-«لا تقلق بهذا الشأن.. فغداً ستكون ضيف الشرف لديهم. أما في الأيام الباقية فأنت الرئيس».

ضحك العقيد:

- ها-ها-ها! شيء ظريف - وربت على كتفي بمودة على عادة الروس وقال: - أتعرف أنت تختلف عن الأهالي المحليين حتى من حيث النمط. لديك حكمة ما - هذا مفهوم، وفي الوقت نفسه لديك نوع من حماس الشباب وتمردهم. على أقل تقدير هكذا صور الشيشان الكتاب الكلاسيكيون الروس.. لكن النمط يتغير كما أعتقد.

همهمت بعدم الرضا: - أو-أو.

- حقاً إنك اليوم بمزاج عكر،- قال العقيد ذلك ثم أردف من السيارة مودعاً: - اهتف أو ابعث برسالة إلى رقمي. أنا في خدمتك دائماً. - تطلع نحوه ثم هتف: أي منظر جميل هنا! حتى إنني لا أريد مغادرة المكان.

ذهبت إلى حافة الصخرة، وإلى منحدري، وجلست هناك. فعلاً كيف يمكن الرحيل من هنا؟ وحتى إذا لم أرحل فأنا الأخير الباقي هنا. هل يصدق أن يأتي إلى هنا أحد ما ليستقر في أرض آبائي وأجدادي أو حتى يشيد بيت استجمام ما؟ شيء محزن. لكن الأمور تسير إلى هذا المنحى. وتذكرت أقوال ضابط حرس الحدود حول نمط ابن الجبال -الشيشاني.. ثم ليرمونتوف وقصيدته الشهيرة «فاليريك»- المتوفى. إن عنوانها يبدو وكأنه يخصني تقريباً، وجاء في النص:

أنا فكرت، أيها الإنسان التعيس،

ماذا تريد؟ السماء صافية!

ويتوافر المكان للجميع تحت قبة السماء،

لكنه يناصب العداء وحيداً

باستمرار وعبثاً - فلماذا؟

قبل مائتي عام وصف ليرمونتوف الإمبراطور الروسي بأنه «إنسان تعيس». أما اليوم فتبدو الأمور بشكل مغاير- فأنا الرجل الفاني البسيط، إنسان تعيس جداً. أما الرئيس، ناهيك عن الإمبراطور- فهو ليس إنساناً تعيساً، إنه الحاكم، لأنه لم يعد وجود لطبقة النبلاء والضباط، بينما توجد حاجة إلى أنظمة القنانة، والقنانة فقط... وفي حالتي هذه لا «يعادي وحيداً» بل «يعادونه لوحده»- لماذا؟ ماذا أفعل؟ هل أبصق أو ألقي حجراً وألعن. على أي حال فأنا، وحتى رأيَّ، لايحتاجه أحد. فهو يعرقل الآخرين.

ومجدداً سمعت هدير المحركات. لكنها في هذه المرة ليست متجهة إليَّ، بل في الأسفل، في الفج. وصلت عدة سيارات إلى فسحة الغابة، أو الضيعة، عدة سيارات لأتباع الرئيس، حفيد العم جيخو، من أجل التحضير للحفل. يبدو أن العقيد أعطى موافقته، أو بالأحرى أصدر أمره، بصدد مشاركته في الحفل. ويجب أن يكون كل شيء على أحسن ما يرام. بينما أنا أتطلع من الأعلى، ويمكن بغتة أن ألقي حجراً فعلاً، والأسوأ - أن أحلق فوقهم، وأبصق من الأعلى وأدنس؟... وسمعت هدير المحركات من فوق- إنهم قادمون إليَّ بالتأكيد. سيارتا «جيب» وستة أشخاص وجميعهم ليسوا من

أبناء المنطقة. دنا مني أحدهم - شاب ملتح، ومدجج بالسلاح، ويرتدي بزة غريبة - وقد قطب جبينه وسار واثقاً بنفسه، وقال بلا كلفة:

-إنك اعتزمت السفر؟- إنه يعرف كل شيء - فارحل. سيكون ذلك أفضل لك.

فسألت بالحركات: - ما القضية؟ ولماذا؟

أجاب: - لكي لا تنبعث منك الروائح الكريهة.

عندئذ أخرجت مفكرتي وكتبت: «الروائح الكريهة»- هل هذا تعبيرك أم أوحى به لك أحد ما؟.

- ماهذا؟ - قال باستنكار،- وعموماً أنا لا أحسن القراءة والكتابة، ولا أريد ذلك - فالحياة تكون عندئذ أيسر.

وغمغمت: -او-او!

- إيه، - ودعا أحد أتباعه - تعال، اقرأ شخابيطه.

فصار ذاك يقرأ كتاباتي بهدوء. بينما قال الملتحي:

- لا يهم. ارحل. لا سيما وأنت حزمت حقائبك، وابنتك تنتظرك. وكما يقال كلما كان عدد الناس أقل، يزداد الأوكسجين المتوافر.

-«هل أنا أعيقكم؟».

- حم، لو تجرأت على أن تعيقني! هيا بسرعة،- ثم تفوه بكلمة نابية أخرى.

- بينما أنا كتبت: «أنا في عمر جدك.. هل أنت تخاطب الأكبر منك سناً في بيتك بهذه الصورة؟».

ارتبك بشكل ملحوظ، واحمر وجهه، وطأطأ رأسه قليلاً:

- أنا في الخدمة، ويجب عليّ أن أنفذ الأمر، - قال بلهجة مغايرة نوعاً ما، وبعد هنيهة أضاف،- أفهم بأن هذا سيكون أفضل لك ولابنتك وللجميع.

كتبت: «هل أنتم تتصنتون على الجميع وكل شيء؟».

- أنا شخصياً. لا. لكن هذا الزمن يملي ذلك. مكافحة الإرهاب.

- «هل أنا إرهابي؟».

- ثمة مخالفات كثيرة.. بالمناسبة أين طائرتك الشراعية؟ لقد صدر الأمر بتحطيمها وبإسقاطها في الهوة.

صدر عن قسطري بصورة عفوية: - أو-أو!

لسبب ما لم يكن يحزنني بهذا القدر، حتى الأمر بمغادرة بيتي، سوى هذا فقط - طائرتي الشراعية (ليست كوسيلة للطيران، بل كرمز للتحليق، وقدرتي على الصعود إلى السماء). وشعرت بضيق شديد لا يطاق... وبحرقة ألم في صدري، وانبعث ضجيج في رأسي، ولم تعد ساقاي تحملاني بسبب التعب، كما لو كان هناك ثقل ما يضغط من الأعلى. كتبت: «غداً سأسافر. اتركوا طيارتي الشراعية وشأنها».

- اليوم ستسافر، أنت نفسك أردت ذلك. أما فيما يخص الطائرة الشراعية - فهناك أمر.

- «حسناً. اليوم. لكن لا تمسوا الطائرة الشراعية».

- الأمر.

- «أمر من؟»

-الرئيس.

-«وإذا أمركم بقتلي؟».

إنه الواجب،- ولم يعد ينظر إليَّ.

تلا القارئ كتاباتي: «هل مقابل النقود أم الروح؟».

- كف عن القراءة! يجب تنفيذ الأمر! إيه! - أمر رجلين آخرين من أتباعه بحركة من يده:

- اذهبا إلى العلية! وأسقطا الطائرة الشراعية في الهوة.

كتبت بسرعة: «عندئذ سألقي بنفسي في الهوة». طالع القارئ ما كتبت لكنه لم يقرأه بصوت عالٍ. عندئذ كتبت: «هل أنتم شيشان، أم تعلمتم اللغة فقط؟». تلا القارئ هذه العبارة بصوت عالٍ. تفرس الجميع فيَّ، ثم تلا القارئ تهديدي - «سألقي بنفسي».

- يمكن توقع أي شيء من هذا.. حسناً.. لن يرى أي أحد الطائرة الشراعية، ولن يحلق بواسطتها أحد، ولن يبقى هنا المزيد من الحمقى. وأنت اجمع حاجياتك وسننقلك حتى حاجز الأمن.

كنت قد جمعت حاجياتي للسفر. وفي العشية وزعت جميع جيادي على أبناء القرية، أما المنحلة فقد كلفت أحداً بالعناية بها، ولا توجد لي ممتلكات أخرى، فأغلقت باب البيت من أجل النظام. ورجوت في وسط قريتنا التوقف لتوديع أهلها. وعرجت على أكبر نساء القرية سناً- فقد أتمت سن المائة عام. إنها لا تمشي، لكن نظرتها وعقلها صافيان، فقالت لي:

- سابقاً طردنا الروس. واليوم يطردنا أبناء جلدتنا؟ إنهم انساقوا للخيانة. الآن كل شيء يباع بالنقود، ولا يوجد أكثر أي شيء إنساني، - لا... لكن لا تحزن. وسافر بعون الله. وسترى ابنتك وحفيدك. اقضِ فصل الشتاء هناك، وقد يعود الشعب إلى صوابه، إن شاء الله - ونحن رأينا غير هذا. إذا ما بقيت على قيد الحياة، سنلتقي. وأنت ما زلت شاباً. والشيء الرئيس أن تكون دائماً من أهل الجبال وشيشانياً نبيلاً! عندئذ ستتذكرك الجبال دوماً، وتستقبلك وترعاك!

أوصلوني إلى الحاجز الأمني، الذي يفصل منطقتنا الجبلية عن المناطق السهلية وقالوا:

- منذ الآن فصاعداً لن يسمح لك بعبور هذا الحاجز.

لوحت بيدي: - لماذا؟

- لقد خرقت النظام - وحلقت بالطائرة الشراعية... نحن تساهلنا معك. فاشكرنا.

شكرتهم، لأنهم أوقفوا هناك سيارة متجهة إلى جروزني. وعندما جلست فيها، تطلع إليَّ القارئ الذي يحسن القراءة والكتابة:

- مفكرتك، المعذرة. قريباً ستجري الانتخابات. وسيكون رئيسنا شاباً، وعندئذ.. الآن نرجو المعذرة، - وصفق الباب.

وصلت إلى جروزني في المساء. وكان أول شيء عملته هو أنني اشتريت تذكرة إلى موسكو صباحاً، وأفرحت شوفدا بإرسال رسالة قصيرة ثم ذهبت إلى المستشفى لزيارة شرطي المحلة. وحسب تقاليد الشيشان يرابط أقاربه وأصدقاؤه في المستشفى ليلاً ونهاراً. علماً بأنه يرقد في قسم العناية المركزة، وحالته ازدادت سوءاً. والجرح في العنق بليغ. فهو يمس عصباً ما، ومازال الشرطي فاقد الوعي. أمضيت ليلتي عند أحد المعارف. وذهبت في وقت مبكر في الصباح إلى المطار، وسجلت نفسي وتوجهت لركوب الطائرة، فجرى استدعائي إلى الصالة مجدداً - استدعتني شقيقة الشرطي، وكانت بسحنة محمرة وبلهجة تنم عن الاضطراب.

- كان لابد لي من إبلاغك. فقد ثاب أخي إلى رشده، ودعاك إليه.. لكن أنت سافر، إن شوفدا في انتظارك. بلغها تحياتي.. قال الأطباء إنه سيتماثل إلى الشفاء الآن.

أخذت تقنعني بالسفر، لكنني هرعت إلى المستشفى بلا تفكير. أدخلوني إلى قسم العناية المركزة، فقد سمح الطبيب بذلك لكن لمدة دقيقتين فحسب. كان الشرطي ملفوفاً باللفائف، ولا يعرف. لكنه

عرفني. أمسك يدي بيده اليسرى السليمة. وأشار لي بإيماءة. وأعطيته مفكرتي والقلم. فسجل بحروف ملتوية: «المخبأ السري. السلاح»

وكتبت بسرعة «أي مخبأ»؟

- «مخبأك»

- «هل أدلك عليه ابني؟».

- «أنا اقتفيت أثره».

ذهلت، ذهلت بكامل كياني. بينما هو طلب أن تقلب الصفحة وكتب: «إذا أردت فحلق. لكن حلق بشكل أفضل! فاسمك ستيجال!». لم يستطع كتابة أي شيء أكثر، وأغمض عينيه، وسقط القلم من يده. وطلب مني أن أغادر المكان.

لقد تغير مسار رحلتي الآن كلياً. وكان بمستطاع أبناء قريتي نقلي إلى بيتي، لكنني أشفقت من وضعهم في موقف حرج. كما أنني لا أريد أن يعرف أحد ما. وفكرت في أخذ سيارة أجرة، لكنني خشيت الحاجز الأمني. وكان بالمستطاع الخروج من سيارة الأجرة قبل بلوغ الحاجز الأمني، ثم الذهاب سيراً على الأقدام بالالتفاف على الحاجز. لكن هناك مجازفة الاصطدام بالألغام. وعندئذ خطرت في ذهني فكرة فحسب، فطلبت من سائق جرار من أبناء قريتنا هاتفه النقال - فلا يحتمل أن يجري التصنت عليه - وكتبت رسالة قصيرة إلى العقيد: «هذا ستيجال. اهتف خصيصاً من رقم آخر. هل يمكنك مساعدتي؟».

كتب لي: «كيف؟».

«في المجيء من جروزني إلى بيتي».

«هل لا توجد لديك نقود؟».

«النقود متوافرة، لكن يوجد حاجز أمني في الطريق».

وبعد هنيهة قصيرة أجاب العقيد: «فهمت. أين موقعك؟».

«المستشفى رقم 9 في المدينة».

«انتظر 25 دقيقة».

كنت أنتظر على أحر من الجمر، ثم وردت رسالة أخرى من العقيد: «هل ستأتي إلى فسحة الغابة؟ أنا موجود هنا».

- «طبعاً، لا».

- «هذا موقف صائب. ملل. ملل، سكر.. والكلام حول النقود.. أنا أغادر الحفل. ماذا تحتاج أيضاً؟»

«لاشيء. شكراً جزيلاً».

وقد أجاب لسبب ما: «تحليق سعيد! لديك اسم جميل وملزم: ستيجال - السماء - التحليق».

تعرفت على سيارة «واز» التابعة لحرس الحدود فوراً من الرقم والشكل الخارجي. والسيارة كلها معتمة الزجاج، ولا يرى أي أحد فيها. ففتحت الباب الخلفي بسرعة وجلست. كان يجلس في المقدمة اثنان من العسكريين. فبادلاني التحية وحددا المسار. وأجبتهما بهمهمة. سرعة مذهلة... وحتى لم تتوقف السيارة عند أي حاجز أمني. قطعنا المسافة في ثلاث ساعات بالضبط، وكنت طوال الطريق أضع خطة أفعالي. عبرنا مركز قريتنا. لكنني لم أبلغ بيتي بالسيارة. وطلبت إيصالي إلى آخر مرتفع للصعود، والتوقف عند المنعطف. فقد كان من المحتمل أن ترى هذه السيارة من فسحة الغابة مباشرة، وطبعاً، إن يسمعوا هدير المحركات. ولو إن هذا الأخير غير ممكن حيث تسود في الفج كله أصداء الألحان المبتذلة. وأظن أن العقيد غادر الحفل في فسحة الغابة خصيصاً وربما يراقبني من ذروة إحدى الروابي. لكن هذا لم يعد يهمني، ولا يعيقني، فقط ألا يكشف أمري أتباع الحفيد. كان أول ما قمت به عندما دخلت الكوه أن التقطت حربة، لكي أزيح بها الألواح الصخرية. وبعد ذلك تسلقت المنحدر. كانت الشمس قد مالت إلى المغيب، وتنير من خلفي مباشرة: الجو قائظ، وأنا أتصبب عرقاً. وكنت ألوم نفسي - كيف لم أفطن مجدداً ولو من باب الفضول إلى وجوب فحص المخبأ؟ أنا أعلم - إنه ذكرى عن ابني، فقد كان غالباً ما يأتي إلى هنا. شيء مؤلم. لكن حان الآن موعد تصفية الحساب. وبدا فوراً أن آخر من جاء إلى هنا هوليس ابني ولست أنا. فكل شيء مبعثر، ولو جاء أحد إلى هنا - فسيجذب ذلك انتباهه فوراً. حقاً، إن هذا الوضع الآن حتى أحسن: أزلت الصخرة بسرعة، وتطلعت - فوجدته! إنه سلاحي! سلاح الانتقام!

لقد رمى شرطي المحلة البندقية هناك ليس كما يجب - من دون تشحيم، وبلا سيللوفان، وبلا كيس. لكن هذا الآن يجلب الخير لي - لا ينبغي تضييع الوقت. فلم آخذ جهاز الرؤية الليلية مع البطارية - فهو ثقيل، وحتى لم آخذ كاتم الصوت. بينما أخذت الذخيرة كلها - فكما أطلقوا النار على ابني، فسأطلق خزان الرصاص كاملاً. لا يمكن إيقاف حركة الشمس، وستهبط بعد لحظات إلى إحدى ذرى المرتفعات، بينما نزلت فقط إلى كوخي. إذا ذهبت إلى موضع «كميني» - لن أجد الوقت الكافي لذلك، كما يوجد احتمال أن يلاحظوني. أما إطلاق النار من البيت فالمسافة بعيدة، لكنني أطلقت النار سابقاً. ويمكن ذلك بلا كاتم الصوت، وأنا أحس بعطش شديد، وكنت مستعداً - من البيت مباشرة، وفتحت النافذة قليلاً. فصرت أرى، لكن ليس كل شيء. أنا لم آخذ هذا بنظر الاعتبار سابقاً، والآن فات الأوان. وعندئذ تذكرت العلية. الوضع أعلى، والرؤية أفضل بكثير حيث يرى كل شيء. لكن لا يجوز إطلاق النار من هناك - ولدي فرصة واحدة فقط، ويداي مبللتان بالعرق،

وترتجفان، وقلبي ينبض بعنف، وأحس بالاختناق. أنا أعلم بأنه يجب عليّ أن أركن إلى الهدوء، وأن ألتزم الحذر، وأجعل كل شيء على ما يرام، والاكتفاء الآن بالمراقبة. أنا لا أميز الوجوه، لكن تبدو أمامي صورة كاملة للمكان، وأرى فسحة الغابة كلها تقريباً. يبدو أنني على ما يرام، ومسحت يديَّ بإمعان بخرقة من الخيش مرمية هناك. في نهاية المطاف، ثبت عدسة الرؤية، وحددت الهدف الذي طال انتظاره نحو بوزه، لكن سحنته الثملة تدور باستمرار، وهو نفسه يندفع إلى هنا وهناك، ويصرخ، وتارة يقهقه وتارة يرقص. وفجأة اختفى تماماً وراء السقيفة - وظهر، ثم اختفى مجدداً. كانت أعصابي متوترة إلى آخر حد، والمسافة - القصوى، وستغيب الشمس بعد قليل، وعندئذ ستنخفض درجة الحرارة بحدة، وتهب الرياح. إن سرعة الطلقة تخف في نهاية الأمر في مثل هذه المسافة، كما سيحرفها الريح عن مسارها. أنا أفهم هذا كله، وأخشى أن أضغط على الزناد بصورة تلقائية، بينما يجب الضغط عليه. أنا أريد ذلك! ويجب عليّ ذلك! كم حلمت بذلك! وفجأة بدا كما لو انفجرت فسحة الغابة كلها بصياح السكارى. إنها علامة طال انتظارها، وظهرت سيارة. واندفع الجميع للقائها، وعلى رأسهم الحفيد. وخرجت من السيارة ثلاث فتيات - حسناوات. فاحتضن الفتيات بالتتابع وطبع القبلات على خدودهن. وشاهدت بدقة علامات النشوة والارتياح على بوزه، بينما كنت أتعطش للضغط على الزناد. لكن لا يجوز ذلك - يجب أن يكون الهدف ثابتاً لكي يصاب من مثل هذه المسافة. هذا أمر لا ريب فيه. بينما أنا أضبط نفسي بصعوبة بالغة. وهناك النساء، وكل شيء محتمل فقد ينفرد معهن كلياً في العربة... لكن حالفني الحظ. فلا بد أن يحالفني الحظ في وقت ما!؟. إن حفيدي المحبوب - وقد فهمت من حركة الشفاه - قد أمر بإيقاف الموسيقى. وعندئذ سمعت دعوة الشبعة والثملة والآمرة:

الجميع إلى المائدة!

وقف في الوسط. وأمسك بكأس كبيرة في يده. وصب أحد أعوانه، أعتقد أنه نفسه الذي «قام بترحيلي»، الكونياك في الكأس حتى الثمالة. إنني حتى رأيت التسمية -«هنيسي». رفع الكأس. وبدأ في رفع النخب. لكنني لا أسمع ما يقوله، ولا حاجة لذلك. الشيء الرئيس - أنني وجهت صليب التنشين القاتل نحو الهدف الثابت. وكان الغشاء الرقيق للصدغ يتذبذب في موجات خفيفة بفعل حركات عظام وجنتيه - وكأنه المنارة التي تضيء الطريق إلى طلقتي. والآن فعلت كما ينبغي أن أفعل - أخذت نفساً عميقاً، وحبست الزفير، ولكن أصبعي التوى عن الزناد بصورة انسيابية جداً.. أنا لم أستطع كما في تلك المرة إطلاق النار على حفيد العم جيخو. إنه هو. هو بالضبط. صورته الجانبية الملتحية. وبعد هذه الإطلاقة سيقتلونني. وسأمثل أمام العم جيخو. فماذا سأقول له؟ إنني انتقمت. لقد ظهر أن حفيدك نذل.. وهو نذل فعلاً.

وماذا سأقول لابني؟

وجهت العدسة البصرية مجدداً بسرعة. وبرز مجدداً البورتريه الواضح، الجانبي. إلقاء النخب مستمر، لكنني اعتقدت بأن العم جيخو يقول لي:

- لقد تم شراء هؤلاء الشباب، وورطوهم، وخدعوهم، وفرقوهم - وأصبحوا أعداءً. لكنك رجل بالغ وحكيم، وحملت السلاح أيضاً.. هل هذا ما كنا ننتظره ونريده منك؟ أطلق النار!

أزلت بندقيتي - وصارت يداي ترتجفان مجدداً. ويدق في صدغيّ قرع الطبل. وسينفجران بعد لحظات، وتدفقت في دماغي الجبان نافورة من الدم الساخن. إنه الاحتشاء القلبي - هذه نهايتي المحزنة في علية البيت بمصاحبة انتصار الأسياد الجدد. ومما يؤكد ذلك صراخ الحفيد العالي النبرة. وحتى الجبال اهتزت لدى تردد الصدى، واصطفق حتى غشاء الطبلة، ودعم هذا الهتاف ضيوف الحفيد وأتباعه في جوقة متآلفة- إنهم صرخوا وصاحوا وتردد الصدى في أرجاء الوادي. وحتى الجبال -أنا أسمعها وأفهمها - تبكي عليّ، وربما حتى تضحك ساخرة.

انتهت السلالة الكريمة!؟ ويجب أن يعيش هنا أناس آخرون؟!

غمغمت: - أو-و! كلا!

قفزت. وكانت يداي ترتجفان، إنهما زلقتان وأخذ منهما التعب كل مأخذ. عندئذ تذكرت الطائرة الشراعية. وفكرت أن أتخذها كمسند. وجلست على ركبتي. وسددت المنظار بسرعة. الآن سأضغط على الزناد مهما كان الحال، سأضغط عليه... لكن تغيرت الصورة: هل هي نفسها أو غيرها. أرى الوجه الجانبي للعم جيخو: وجهه الحبيب، إنه يرتفع إلى أعلى أكثر فأكثر،، وإلى جانب الوجه مباشرة أرى القبضة القذرة والمشعرة والكبيرة التي تمسك بالكأس بنهم. هذا هو عدوي! بهذه اليد وبهذا الأصبع الأيمن ضغط الزناد وأطلق الرصاص على ابني.. تنفست بسرعة، وحبست أنفاسي وضغطت على الزناد بعد أن حددت الهدف بين القبضة والوجه- إنهما يتطابقان، ودع الرصاصة تقرر وتختار أحدهما...

انبعثت طقطقة شديدة. وجعلتني الضربة العنيفة أرتد إلى الوراء، وفقدت الإحساس بالواقع في لحظة خاطفة. ثم ساد السكون، وفقط تردد في الجبال الصدى الأجوف للإطلاقة بكل متعة تشوبها الحرية. وأعدت النظر في العدسة. فقد وقع ما كنت أحلم به! مائدة كبيرة وكل ما عليها قد تبعثر. والجميع انبطحوا على الأرض أو هربوا. وفي وسط الفسحة يتلوى فوق العشب من الألم الحفيد لوحده. لقد أصبته في الكف مباشرة، وتمزقت كلياً وباتت معلقة. الآن أرى الصورة الحقيقية - قناع العم جيخو قد تلطخ بالكونياك وينزف دم الحفيد فوق هذا الوجه المتألم والمرتعب من الجروح في اليدين الناجمة عن تحطم الكأس. لقد أصيب الهدف! وكان بوسعي، وربما وجب عليّ أن أجهز عليه، وفي أقصى تقدير أن أطلق صلية رصاص تتردد أصداؤها مثل الألعاب النارية! لكنني أشفقت على جبالي! ولم أرغب، لم أرغب في إطلاق النار أكثر، لم أرغب في أن تتردد أصداء الطلقات في هذه الجبال. وألقيت السلاح بكل قوة ومسرة في الهاوية من مكاني في العلية. ثم أنزلت الطائرة الشراعية إلى الباحة. وتذكرت الخوذة التي أهديت لي. لكن ما حاجتي إلى المزيد من الوزن؟ كما أن الفكر، والحياة كلها، يجب أن يكون حراً. وما حاجتي إلى النقود في جيبي- إنها وزن زائد عن الحاجة، وسيأتي الموت مجاناً!

جريت تأهباً للقفز، ثم انطلقت نحو الشمس وحملتني الريح الدافئة والحانية والطيبة عالياً وعالياً إلى رحاب السماء. وعندما حلقت فوق فسحة الغابة تطلعت إلى الأسفل آخر مرة وأدركت فوراً مغزى الحياة - في النهاية يجب ألا تزحف بل أن تحلق في الأحلام. فحلقت! أعلى فأعلى وأدركت أيضاً أن جميع القوقاز والعالم بأسره وسمائي كلها، وليس موطني فقط، رائع وذو سناء... وهذه السماء

صافية دائماً. ويوجد تحت السماء مكان كافٍ للجميع، وأنا الآن أذوب فيه، وأريد تذكير الجميع - لماذا؟

كلمة المؤلف الوداعية

حدث مرة أن قال صديق لي:

منذ أيام أجريت عملية جراحية لامرأة، كان ابنها شرطي المحلة في قرية تقع في أعلى الجبال. وقالت إن الجبال عندهم مذهلة، وتدعوني لمشاهدتها وتقييمها وزيارتها كضيف.

وقد ذهبنا إلى هناك. صورة الطبيعة تفوق التصور ويصعب وصفها حقاً، لكن جذب انتباهنا شيء آخر: فقد تعلق في المنحدر الجبلي المقابل، وفوق ذرى الأشجار، أمام خلفية الأشجار الخضراء - شيء مثلث بلون أبيض وأحمر.

وقال الشرطي: - آه، نحن ندعوه براية ستيجال، هو الآن مثل الراية - رمزنا القديم.

وبعد ذلك روى لنا قصة أحد أبناء القرية ومصيره ثم أضاف في الختام:

لقد أطلقت عليه في الهواء نيران الأسلحة كافة، وحتى من راجمة القنابل. وهناك تحطمت الطائرة الشراعية. وبقي هذا الجناح معلقاً في الأعالي.

قصة حزينة، وتابع قوله:

أنا كنت آنذاك في منصب شرطي المحلة، لكنني كنت راقداً في المستشفى- وأراني ندبة على عنقه.- وقد أمر رئيسنا الذي جرحه ستيجال حتى بحرق بيته. لكن قبل حرقه أفلح أحد الفتيان في

قريتنا بحمل حقيبة صغيرة من داخله. وكان ستيجال يعتزم في العشية السفر إلى ابنته في أوروبا. وكانت توجد في هذه الحقيبة كراستان أو ثلاث كراسات - فيها ما يشبه اليوميات.. فهو لم يستطع الكلام.

وفجأة نبرت: - كان لديه قسطر.

قال الشرطي بدهشة: - نعم، وهل عرفته؟

لقد تبين أنني كنت أعرفه. فمنذ عدة سنوات حينما شخص مرض ابن عمي بأنه السرطان، رافقته إلى مركز علاج الأورام بموسكو، وهناك التقينا مريضاً من أبناء جلدتنا. علماً بأنه رقد للعلاج هناك أكثر من مرة. والغريب في الأمر أنه لم يكن يشبه البتة بقية المرضى - فهو كهل، لكنه قوي البنية، وطويل القامة وعريض المنكبين، ووجهه أبيض وحتى تشوب خديه الحمرة، والشيء الرئيس إن عينيه شديدتا الزرقة وصافيتان وحيويتان. حقاً إنه لم يستطع الكلام، ويلوح بيديه مثل الأخرس والأطرش- وصار يقنعنا بأنه لا يجوز العلاج هنا، فالأطباء لحامون، وابحثوا عن مستشفى آخر حيث العلاج أفضل وأرخص. ولكي يثبت ذلك فتح أزرار قميصه وأرانا صدره. وأعترف بأنني شعرت بالضيق. وما كانت ثمة حاجة لإقناعنا أكثر فقد غادرنا هذه المؤسسة العلاجية بسرعة، لكن صادفنا في المصعد ذاك المريض نفسه.

فكتب في مفكرته وأراني: «هل أنت كاتب؟».

أجبت: نعم.

فأخرج رزمة من تحت إبطه، وأرغمني على أخذها فحسب، وكتب في مفكرته:

- هذه مذكراتي، ربما ستنفعك.

أغلق باب المصعد، ولم ألتق به بعد ذلك، وحتى لم أعرف اسمه. وأعترف بأنني أردت أن ألقي الرزمة في صندوق القمامة لدى الخروج من مركز علاج الأورام، كما لو أنني خشيت أن أصاب بالعدوى منها، لكنني فكرت ربما أنه ينظر إلينا من النافذة، فيرى أنني لا أحمل شيئاً بيدي. بينما يجب عليّ ككاتب أن أحترم أي نص. قصارى القول إن هذه الرزمة أصبحت في شقتي بموسكو، لكنني حتى لم أفتحها آنذاك. بل بالعكس فقد وضعتها في كيس نايلون كبير ومتين، وحتى لففته بالشريط اللاصق بغية ألا تنتشر الجراثيم منه، لكنني لم أتخلص منه. بل وضعته في أقصى ركن في الصندوق السفلي لخزانة طاولة المكتب. ونسيته. لكن لكل شيء وقته، ولا توجد مصادفات في الحياة. فقد أصبحت في حوزتي جميع كتابات ستيجال، وهذا الأمر ليس بمثل هذه البساطة.

.. أنا زرت شوفدا في النمسا- إنها امرأة رائعة! حقاً إنها لن تعود إلى خشبة المسرح المحترف، وترى أن لديها أموراً أكثر أهمية من الموسيقى - لديها البشر. فلديها أربعة أطفال وتنتظر مولد الخامس. لديها حلم، أو بالأحرى لديها مشروع قيد الإعداد بأن تبني في قطعة أرض الآباء

والأجداد في القرية البرج السابق، ولو بحجم أصغر، وبيتاً متين البنيان تنتقل للإقامة فيه حينما تميل إلى الهرم. علماً بأنها تواصل عزف الموسيقى، وقد جلبت لي متعة الإصغاء إليها عدة مرات- عزف رائع. وأوضحت أن لديها الآن مهمة أخرى هي أن توافر التعليم الأوروبي الممتاز إلى جميع أبنائها، ولربما ستتكشف الموهبة الموسيقية لدى أحدهم. لكن القوقاز هو وطنها. واللغة الشيشانية هي لغتها الأم!

وقالت مرة: - إذا توخيت الحقيقة فبعد كل خسارة كنت أكابد أشد المعاناة. وحيدة! كنت وحيدة. أما الآن فقد فرض الله رحمته علي- ولديّ أطفالي.. وأنا أفتخر بأهلي.

توجد في بيتها صور فوتوجرافية لستيجال وأمها وأخوتها - وصورة الأخ الأصغر على انفراد. وقالت بنوع من الكآبة:

- شيء مؤسف.. لكنني مثل أبي أعيش في التطلع إلى المستقبل. وأنا مسرورة وسعيدة بذلك.

إنني التقيت جميع الأشخاص الوارد ذكرهم في يوميات ستيجال. ولو أن مؤلفها كان يتفادى ذكر الأسماء، وأنا أحدس السبب، ولهذا حاولت عدم ذكر الأسماء. والشخص الوحيد الذي لم أستطع رؤيته هو حفيد العم جيخو. فبعد انتخابات عام 2014 هرب إلى موسكو، وهناك لقي مصرعه بالرصاص.

أعترف بصراحة أنني أقدم هذه المادة بصورة محورة. ربما لم يكن لدي الحق في القيام بذلك لكنني فعلت ذلك لأنه كان من الواجب توظيب النص وترتيبه فحسب. لكنني حاولت عدم تغيير الأسلوب وطابع طرح المادة، والمبدأ الرئيس - عدم إفساد الأصل. من جانب آخر حذفت فحسب بعض المشاهد والعبارات وبالأخص ذات الطابع السياسي. طبعاً أنا لست محرراً محترفاً، وأظن أن تعديلاتي في النص قد أحدثت تغييرات ما فيه وربما أفسدته، لكن الشيء الرئيس أنني استطعت المحافظة على الفكرة ونقلها. وأنا أفهم أن بعضهم قد يعجبه الكتاب، بينما لا يعجب بعضهم الآخر. لكن هذا النص أوضح لي بجلاء حتى النهاية من المثال الجلي والملموس أقوال جوته:

لا يستحق الحياة والحرية،

إلا من يكافح من أجلهما في كل يوم.

طبعاً، من الأفضل بدلاً من الهرب أو الجثو على الركبتين الانطلاق بحرية - نحو الهاوية.. وفي النهاية الإقلاع والتحليق، مثل ستيجال.

ذلكم هو مصير ومغزى الوجود...

اتحاد كتاب جمهورية الشيشان

جروزني. 2014

Table of Contents